



المشروع القومي للترجمة

طيبة
أو نشأة إمبراطورية

تأليف
كلير لالويت

ترجمة وتعليق
ماهر جويجاتى

985

المشروع القومى للترجمة

الفراعنة ..



تأليف : كلير لالويت

ترجمة وتعليق : ماهر جويجاتى



٢٠٠٥

المشروع القومى للترجمة

إشراف: جابر عصفور

- العدد ٩٨٥
- طيبة أو نشأة إمبراطورية
- كلير لالويت
- ماهر جويجاتى
- الطبعة الأولى ٢٠٠٥

هذه ترجمة كتاب:

PHARAONS**

Claire Lalouette

Professeur à l'Université de Paris-Sorbonne

THÈBES

ou

LA NAISSANCE D'UN EMPIRE

Fayard

شارع الجبلاية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة ت:٧٣٥٢٣٩٦ فاكس:٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel:7352396 Fax: 7358084 E. Mail: asfour@onebox.com

تهدف إصدارت المشروع القومى للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربى وتعريفه بها، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافاتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة.

المحتوى

الفصل الثاني: أجانب فى مملكة مصر

الفصل الثالث: الفاتحون الأوائل أو نشأة الإمبراطورية

الفصل الخامس: تحوتمس الثالث أو المجد الإمبراطورى

الفصل السادس: أمنحوتپ الثاني نصير الإمبراطورية

الفصل السابع: سنوات السلم والسلام: ازدهار إمبراطورية التحامسة وأولى التهديدات

الفصل الثامن: تشدّد أمنحوتپ الرابع المتعصب أو زمن الانحطاط الأول

الفصل التاسع: وهن الملوك وضعفهم

الفصل العاشر: حور – إم – حب، المخلّص. التمهيد لإمبراطورية الرعامسة

الإهداء

إلى الجنود البواسل

عماد جيوش الفراعنة،

الذين لم يذكرهم التاريخ،

فأغفلهم هذا الكتاب،

إليهم أهدي هذه الترجمة.

ماهر جويجاتي

تنويه

عن بعض علامات الترقيم المستخدمة فى الترجمة الفرنسية للنصوص المصرية القديمة والتزمنا بها فى ترجمتنا العربية نقول:

«إنه من المتفق عليه بين علماء الآثار أن ما يُكتب بين معقوفين على النحو الآتى [....]، يدلّ على جزء مكسور أو غير مقروء فى النص المصرى القديم، وأن ما يُكتب بين قوسين على النحو الآتى (....) هو إضافة ضرورية لتوضيح معنى النص المصرى القديم...»(*).

المترجم

(*) د. باهور لبيب: تشريح حورمحب، ص ٣٨، هامش ٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢.

Louis Speleers. Textes des Pyramides. Bruxelles. p. xvi.

المقدمة

قرية طيبة

كانت طيبة فى الألف الثالث قبل الميلاد قرية من قرى مصر العليا، لم تُظهر بعد ما يمكن أن يميزها عن غيرها من البلدان، حتى إنها لم تكن عاصمة الإقليم الرابع من أقاليم مصر العليا[1]. وكان الموظف المعين من قبل السلطة المركزية لتصريف شئون الإقليم، يتخذ من هرمونتيس(*) Hermonthis الواقعة إلى الجنوب من طيبة مقراً له. كانت هذه المدينة تعبد إلهاً شمسياً هو الإله الصقر مونتو، وشأنه شأن الكثير من الآلهة الصقور التى كانت تُعبد فى هذه الأزمنة الموغلة فى القدم، اندمج هذا الطائر فى الجرم المتألق المهيمن من موقعه فى السماء مثله مثل الصقر عندما يحوم باسطاً جناحيه فى أعالى الفضاء بحثاً عن فريسة. وإلى هذا الوجه الآخر للطائر - الوجه العدوانى الذى اعتاد اصطياد فرائسه وقتلها، تُعزى السمة الثانية التى يتحلى بها الإله مونتو؛ فكان إلهاً محارباً سوف يصبح فى زمن لاحق وبعد مرور ألفى سنة، رفيق الفراعنة الرعامسة ومرشدهم.

ومن ثم فقد كانت طيبة قرية يسكنها الفلاحون والمراكبية.

كان النيل فى هذه المنطقة قد شقّ مساره وسط الجرف الصخرى لسلسلتى جبال الصحراء الغربية والصحراء الشرقية، وكانت تطلّ على البرّ الغربى الواجهة شديدة الانحدار لتلال كان يُطلق على قمتها اسم القرن الغربى للجبل أو رأسه. أما

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «أيون مونتو» أو «أيون منت»، ونشأ عنه الاسم القبطى «رمنت» ليصبح «أرمنت»، فى الوقت الراهن. (المترجم)

الوديان القاحلة المجدبة؛ فلم تكن قد تحولت حتى هذه اللحظة إلى مأوى للفراعنة المتوفين. فحتى الآن لم يكن وادى الملوك قد ظهر إلى الوجود أو شيدت القصور الفخمة في البر الشرقي. ولا شك فضلاً عن ذلك أن الكرنك والأقصر كانا أرضاً خلاءً.

كانت حياة البشر تسير وفقًا لإيقاعات حياة النهر الذى يشمل مصر برعايته ويمدها بسبل العيش. وفجأة يرتفع في شهر يوليو منسوب المياه فى نهر النيل من جراء هطول الأمطار فى منطقة البحيرات الأفريقية الكبرى جالبة معها الطمى الثقيل الذى انتزعه النهر من هضاب الحبشة، ومن ثم يجرفه من جندل إلى آخر. وبعد أن ينتشر الطمى على شطآن النهر ويغطيها فإن *الأرض السوداء* – أى كيمت فى اللغة المصرية، وهو اسم مصر عند قدماء المصريين – سوف تمد الرمال الجدباء بعنصر الإخصاب الذى لا غنى عنه لقيام زراعة مزدهرة. وحتى شهر أكتوبر كان الفلاحون يعيشون وسط مشهد طبيعي تغمره المياه، تحت شمس ساطعة مبهرة فى انتظار انحسار مياه الفيضان. عندئذٍ يحل الموسم الذى يتفرغون فيه لأعمالهم: فيبدأون بالعزق وتسوية المَدَر(*) بالمعول ثم يحرثون التربة بمحراث بسيط تجره بقرتان مرقطتان باللونين الأبيض والأسود، وينتقلون بعد ذلك إلى أعمال البذر ودفن الحبوب في التربة الخصبة بعد أن أصبح من السهل تقليبها، وذلك بفضل قطعان من الحمير أو الكباش فتطئ التربة وطئًا شديداً أو ربما بعد حرث الأرض مرة ثانية.

إن جلب المياه كان منذ أمد بعيد بل وربما منذ فجر التاريخ – أى قبل ٣٢٠٠ قبل الميلاد – تنظمه منطقة من القنوات تسهر السلطة المركزية على صيانتها صيانة فائقة؛ فحياة البلاد من أقصاها إلى أدناها رهن بحسن أدائها.

ورويداً رويداً، يتحقق آنذاك فى أديم الأرض السرّ الإلهى فتنبت الأرض زرعها. وبحلول شهر فبراير يظهر النبْت الأخضر للقمح الجديد الذى يقوم المصريون بحصاده في مطلع شهر مارس، وعندئذ تعمّ الصياح والأغاني والفرح والتهليل بين جموع الناس احتفالاً بانبعاث الحياة من جديد.

(*) وهى الطين المتماسك، وواحدته مدرة، المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

إن متابعة اللحظات الحاسمة في الحياة الزراعية وطمر الحبوب في أديم التربة ثم التجديد والإحياء، كانت الأصل الذي نشأت عنه كبرى الأساطير الإلهية في الشرق الأدنى القديم: إن السرد الأسطوري لحياة **أوزيريس** أو **بعل** أو **أدونيس** – وهي آلهة ترتبط بدورات الحياة الزراعية – تعكس من خلال مختلف وقائعها، الإيقاعات الطبيعية لحياة النبات. إن **أوزيريس** الذي سيتولى أمراء طيبة تعزيز عبادته وتثبيتها سوف يصبح الإله الذي قاسى الكثير من الآلام، وقام من الأموات عندما بُعث حيًا ليُقدّم للبشر نموذجًا *قابلاً للتقليد والمحاكاة* لحياة تتواصل على مدى الدهر. إن هذه الحكاية الأسطورية التي صاغها بلوتارخوس(*) في زمن متأخر، إنما نعرفها الآن من أقدم النصوص المصرية ولا سيما متون *الأهرام*(**)(٢)، وسيظل تأثيرها الروحي قائمًا حتى نهاية تاريخ مصر القديمة.

تذكر إحدى وقائع هذا السرد الأسطوري أن الإله **ست**، وهو رمز القوى الشريرة وقحل الصحاري وجدبها، كان ينظر نظرة حقد وحسد إلى أخيه **أوزيريس**، أول ملك حكم الأرض فأشاع في ربوعها اليُمن والبركة، فلجأ ست إلى الحيلة والخديعة حتى تمكن من أخيه على ما يعتقد وقطّعه إربًا إربًا وصلت إلى أربع عشرة قطعة، بعثرها على سطح الأرض كما تبذر الحبوب بعد الحرث. وبالمثل كان ينتظر **بعل** المصير نفسه بعد المنازعات التي احتدمت بينه وبين الثعبان **مُوت** الذي يعني اسمه «الموت»؛ فقد تبعثر جسده الممزق على الأرض. وفي الحالتين، نجد أن الزوجة الودودة المتفانية، سواء **إيزيس** أو **عنات**، هي المرأة الواهبة الحياة التي نجحت على ما يعتقد بعد طول بحث في العثور على أشلاء الجسد المدفونة، واستطاعت أن تُعيد تكوين جسد الزوج الإلهي، ومن ثم قامت **إيزيس** بمساعدة **أنوبيس** *الإله – ابن آوى* – بصفته الإله المعتمد لاصطحاب الموتى إلى العالم الآخر – قامت بابتكار المومياء الأولى. ولكن ألم يكن ابن آوى – في الواقع – حيوانًا يتردد على مشارف المقابر والجبانات ويقصدها مرة بعد مرة؟! وبعد أن صارت **إيزيس** بهذه المناسبة عصفورة، يعتقد أنها

(*) مؤرخ يوناني عاش في القرن الأول الميلادي. (المترجم)

(**) ترجمت هذه المتون إلى اللغة العربية: «متون الأهرام المصرية القديمة». ترجمة: حسن صابر، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٢. (المترجم)

استطاعت بفضل الرَوْح(*) الصادرة بعد ذلك عن جناجيها الكبيرين أن تعيد الحياة إلى الجسد الجليل، وأن تثبتها فيه بفضل التعويذات السرية المعروفة التى تفوهت بها *الزوجة الساحرة*. وهكذا وبعد أن ولد ولادة متجددة، عاد إلى الحياة «*الإله الأخضر والأسود فى مياهه الفتية*»: عملاً بالتماثل المطلق القائم بين قوى التجديد الحيوى وزخم حياة النبات.

إن طيبة التى نتحدث عنها هى طيبة الفلاحين بإيقاعاتها الثابتة التى لا تتبدل. كان مشهدها الطبيعي هو مشهد جميع القرى وجميع حقول الوادى الذى يتكوّن من مجرى مائى يمتد بطول أكثر من ألف كيلومتر من أسوان وإلى شواطئ البحر المتوسط. وعلى جانبى النهر ووفقًا لتناظر مطلق يذكرنا بالصورة المنقولة بورق شفاف يمكن مشاهدة القنوات التى تتقاطع على هيئة مربعات، فتسمح بتوزيع الطمى والماء توزيعًا صائبًا. وهنا، وفوق الحواجز الطينية الصغيرة القليلة الارتفاع كانت تنمو المزروعات التى تعول البشر وتحافظ على حياتهم: فصنع المصريون الخبز من القمح والجعة من الشعير؛ فكان الخبز والجعة أساس كل غذاء بالنسبة للمصرى القديم، كما استخدموا الكتان فى حياكة الثياب فكانت النقبة والتنوّرة Jupe الطويلة والعباءة الشفافة ذات الثنايا حسب ذوق العصر أو الطبقة الاجتماعية. وانتشرت زراعة الخضروات والبقول فى الحقول القريبة من مجارى المياه، ومنها الخيار والحمص والفول والعدس والبصل التى ستلازم ذكراها العبرانيين(**) فى برية سين بشبه جزيرة سيناء.

(*) الرَوْح (بفتح الراء وتسكين الواو) هو نسيم الريح التى تبث فى الجسد الرُوح (بضم الراء) أى النفس الحية. (المترجم)

(**) الكتاب المقدس: العهد القديم: سفر العدد: ١١:٥. وللأهمية أذكر نص الآية: «**فإننا (أى شعب بنى إسرائيل) نذكر السمك الذى كنّا نأكله فى مصر مجّانًا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم**». ولا يفوتنى فى هذا الصدد أن أشير إلى سفر الخروج: ١٦:٣: «**وقال بنو إسرائيل ليتنا متنا بيد الربّ فى أرض مصر حيث كنّا نجلس عند قِدْر اللحم ونأكل من الطعام شبعنا..**». فهل يظل البعض يتحدث عن سوء المعاملة التى عانى منها العبرانيون طوال فترة استضافتهم فى مصر إبان عصر الفراعنة، بعد أن شهد شاهد من بنى إسرائيل؟ (المترجم)

وبين الحقول المهيأة للزراعة على أحسن وجه والنهر، كانت تمتد منطقة من البرك والمستنقعات فأصبحت في آنٍ واحد عامل تهديد للإنسان وجالبة الخير له؛ فهنا كانت تنمو غابات من نبات البردى. أجل إنها غابات حقيقية؛ لأن المناخ في هذه الأزمنة الموغلة في القدم كان أكثر رطوبة.

ومن ثم كان ارتفاع هذا النبات يصل إلى ستة أمتار. ورغم أن الرسام المصرى الذى كان يبدع جداريات المصاطب التى تصطف على امتداد الممرات الواقعة حول أهرام **الجيزة**. رغم أنه كان يبالغ فى طول قامة الإنسان عند تصويره، فإن هذا النبات بنموه المفرط كان هو الأطول على الدوام. كما كانت هذه المنطقة عامل تهديد بكل تأكيد. فهنا كانت تعيش فونة(*) من شتى الأنواع عدوانية وخطرة أحيانًا كأفراس النهر والتماسيح. كان المصريون يصطادونها - بطبيعة الحال - باستخدام خطاف كبير رأسه من الظران. ولكن الإنسان الذى عاش فى الأزمنة الأولى، وكان يعبد القوى الكونية، سعى إلى التصالح مع هذه القوى الضارة وخطب ودّها: وهكذا نشأت الإلهة **تاورت** ذات الخَطم المرعب والبدن الضخم المخيف والبطن البارز وحامية النُّفَساء المفضلة عملاً بوجه الشبه بينهما، فضلاً عن الإله **سوبك** الكامن وسط الأدغال والآجام فيرصد فريسته بفمه المخيف ذى الأسنان الحادة، وهنا أيضًا كانت تعيش الثعابين فى الخفاء، وهى من مخلوقات أديم الأرض والنباتات.

وفى هذه المناطق غير الواضحة المعالم الواقعة بين اليابسة والمياه كان المصريون يلتقون أيضًا بعدد كبير من الفرائس الصالحة للأكل كالإوزّ والطيور السمينة ومنها السُّمانَى (أو السلّوى) والزقزاق والحمام والهدهد والرّفراف، وكانت تعشش جميعها فى خيميات نبات البردى. وكانوا يمارسون صيد السمك بشتى أنواعه وبكميات كبيرة، ويقومون بأعمال القنص، فيأسرون الثيران البرية الضخمة بواسطة

(*) لفظ دخيل يقابله فى الفرنسية Faune وفى الإنجليزية Fauna، وقد أقره مجمع اللغة العربية: المعجم الجغرافى، القاهرة، ١٩٧٤، ويعنى أنواع الحيوان فى مكان بعينه أو زمان بعينه. (المترجم)

الوهْق(*). كان المصريون يزاولون تربية البقريات التى شكلت إحدى ثروات مصر الطائلة، وكانت قطعانها تتنقل فى حرية تامة عبر المراعى فى حراسة رعاة نصف عرايا يسترون عورتهم بنقبة بسيطة صنعت من أوراق وقش الغاب.

وفى سعيه للحصول على الطعام تعلم الإنسان المصرى كيف يتغلب على المخاطر الناجمة عن المستنقعات التى تعجّ بالحياة.

وبعيداً عن الحقول وفى اتجاه الشرق والغرب تمتد الرمال الجدباء لصحارى المناطق الشرقية من الصحراء الكبرى التى تتلون باللون الوردى الزاهى تحت أشعة الشمس الساطعة. إنه المكان المفضل لصيد ضوارى الوحوش والحيوانات المتوحشة: نذكر منها الأسود والفهود والظباء الأفريقية والماعز البرى.

كانت طيبة تزدحم بالمراكبية الذين يؤمّنون وسائل الانتقال عبر نهر النيل على متن قوارب خفيفة فى بادئ الأمر صنعت من البردى ثم استخدمت مراكب أكثر تطوراً صنع بدنها من الخشب وذات أشرعة من الكتان على شكل مُعيّن(**). وفى هذه البلاد التى ترتبط فيها الحياة بآليات حركة نهر النيل الطريق الأفريقى الرئيسى حتى البحر المتوسط لعب المراكبية ومراكبهم على الدوام دوراً عظيماً، وأصبحت طيبة فى النصف الثانى من الألف الثانى قبل الميلاد أحد أكبر موانئ الشرق.

إن آمون الذى سيصبح فيما بعد الإله الكبير للإمبراطورية، هل كان أصلاً إله المراكبية وإله النسمة المواتية والريح العليل؟ ولكن لا يوجد على ذلك فيما نعلم دليل واحد لا يمكن دحضه[3].

(*) حبل فى طرفه أنشوطة يُطرح فى عنق الدابة وغيرها حتى تُؤخذ. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

(**) المعيّن: شكل رباعى له ضلعان متوازيان غير متساويين. (المترجم)

هكذا كانت تمرّ الأيام فى قرية طيبة. ويمرور الزمن سوف تصبح هذه القرية أكبر عواصم العالم القديم؛ فغدت المركز العالمى لكبرى الإمبراطوريات التى كانت تغطى مساحة شاسعة تمتد من الجندل الرابع على النيل إلى نهر الفرات. إن الأحداث السياسية بالإضافة إلى حركة روحية ودينية كبيرة، قد تفسر هذه الأهمية المتعاظمة تدريجيًا التى اكتسبتها مدينة الجنوب التى لا تزال إلى يومنا هذا من أروع المواقع فى العالم. فعلى امتداد الألفى سنة السابقة على ميلاد السيد المسيح شيد فيها الملوك المعابد والمقاصير للآلهة تعبيراً عن ورعهم وتقواهم.

نشأة النظام الملكى

نشأت مملكة مصر حوالى عام ٣٢٠٠ قبل الميلاد بفضل القوة الدافقة لملوك عكفوا على توحيد البلاد، كان نعرمر أشهرهم أو أقل من طواهم النسيان. وتشهد صلاية كبيرة من الشست يحتفظ بها متحف القاهرة(*) على هذا الرباط الملكى القائم بين القسمين الكبيرين الطبيعيين لمصر: كانت مصر العليا يحاصرها إلى حدّ ما - منحدران صخريان يكونان سلسلة جبال الصحراء الشرقية وسلسلة جبال الصحراء الغربية. والمسافة بينهما وبين مجرى النهر لا تتجاوز أبداً العشرة كيلومترات. ويبلغ طول الوادى من الجندل الأول عند أسوان وحتى رأس الدلتا تسعمائه كيلومتر. أما الدلتا(**) فكانت تنتشر فيها أفرع النيل الستة على هيئة مروحة لتشكل مصر السفلى. كانت مصر العليا ومصر السفلى منطقتين طبيعتين يصل بينهما نهر النيل، وربما كانتا تشكلان مملكتين منفصلتين فى الألف الرابع قبل الميلاد. وهكذا ففى عام ٣٢٠٠ق.م تقريباً شرع بعض الملوك يوحدون مصر لخير البلاد. وتمت هذه الوحدة كما

(*) ويمكن لزائر المتحف المصرى أن يشاهدها فى الرواق ٤٣ من الطابق الأرضى. (المترجم)

(**) «دلتا» هو الحرف الرابع من الأبجدية اليونانية، وندين بهذه التسمية لعالم الجغرافيا اليونانى إيراتوستين (القرن الثالث ق.م) الذى ولد فى منطقة برقة الحالية وعاش فى الإسكندرية. (المترجم)

تساعدنا صلاية نعرمر على افتراضه برعاية وحماية الإله الصقر حورس الذى كانت مدينة **هيراكنپوليس Hierakonpolis** فى الجنوب مركز عبادته. ويعتقد أنها كانت مسقط رأس نعرمر. وسيظل حورس الحامي المعتمد لملوك مصر. ومنذ ذلك الزمن *والپشنت* يعلو هامة الملوك الأوائل. ولفظ پشنت هو التصحيف اليونانى للكلمة المصرية *پاسخمتى* أى «القوتين»، كما سيظل *الپشنت* التاج الرمزى لهذا النظام الملكى الذى ندين له بوحدة مصر: فيجمع بين التاج الأبيض للملكة الجنوبية الأولى وتاج الشمال الأحمر.

ومنذ ٣٢٠٠ وحتى ٢٧٧٨ق.م تقريبًا تعاقبت على حكم مصر أسرتان ملكيتان. إن أسباب هذه التغييرات التي تحدث عندما تحمل عائلة ملكية محل أخرى غير معروفة، فيما نعلم. لقد نقل إلينا **مانتون** التقسيم إلى أسرات ملكية عندما كتب باللغة اليونانية في عهد **بطليموس الأول** تاريخًا شاملاً لمصر، ولكنه ضاع للأسف الشديد وإن وصلتنا بعض عناصره بفضل من نقلوا عنه فيما بعد، ومنهم المؤرخ اليهودى **يوسيفوس**(*) والمؤرخان المسيحيان **يوليوس الأفريقي** و**أوسابيوس** فى القرنين الثالث والرابع الميلاديين. وهذا المصدر جدير بثقتنا لأن هذه التقسيمة نفسها وردت في وثائق مصرية: ولا سيما الحجر الذى يعرف إصطلاحًا بحجر **پالرمو**(**). وهو لوح كبير من الديوريت يحتفظ بأجزائه المتحف الوطنى لهذه المدينة.

وعلى امتداد خمسة قرون حكم ملوك مصر الأوائل من الأسرتين الأوليين من عاصمتهم **ثنى** الواقعة فى **مصر العليا** إلى الشمال من **طيبة** والمقامة على البر الغربى من نهر **النيل**. وفي هذا الواقع توجد أقدم جبانة ملكية معروفة، وتتكون من مقابر على هيئة مصاطب أى أن بناءها العلوى يتخذ شكل الأريكة فى حين أن بئرًا رأسية تخترق بناءها السفلي وصولاً إلى حجرة الدفن. ولم يُعثر إلا على القليل من البقايا. فمن

(*) ولد فى أورشليم عام ٣٧م. وشهد خرابها على يد **تيطس** عام ٧٠م. توفى فى **روما** عام ١٠٠م تقريبًا. وكان من مواطنى **روما** وكتب باليونانية. (المترجم)

(**) يوجد جزء منه فى متحف **القاهرة**: الطابق العلوى القاعة ٤٢. (المترجم)

الواضح أن هذه المقابر كانت مجرد مقابر تذكارية فالمقبرة الحقيقية موجودة في سقارة في الشمال قرب رأس الدلتا. ومن المحتمل أن نعرمر كان أول من وضع أساسات مدينة منف عند إلتقاء مصر العليا ومصر السفلى(*). فالمدينة هي «*ميزان الأرضين*». إنها مدينة سياسية أقيمت بالكامل فوق أرض بكر؛ إذ لم يعثر على أي آثار لإقامة سابقة.

طوّر هؤلاء الملوك الأوائل عن وعي ونفاذ بصيرة اقتصاداً مركزيًا - كان لا غنى عنه في بلد تعتمد أسباب ازدهاره ورخائه على ضبط فيضان النيل والسيطرة عليه. فوضعوا الأسس الضرورية لإدارة فرعونية حكيمة وأرسوا مبادئ الحكم التي ستدار على أساسها شئون الوادي. فقاموا على هذا النحو بعمل جوهري سيظل صالحًا يُؤتي أُكله على امتداد ثلاثة آلاف سنة. كان زمام السلطة المركزية في يدي الملك، يعاونه مندوبون يتولى شخصيًا تعيينهم في مختلف «*البيوت*» فكانوا أشبه بوزرائنا الحاليين. كما كان يعين حكّام الأقاليم الذين يسهرون على الإرادة المحلية. وكان مجلس أعلى للحكومة وهو «*مجلس العشرة*»، يضم أهم هذه الشخصيات ويقف إلى جانب الملك. كان النظام الملكي الجديد يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالآلهة التي تحميه وتحافظ عليه. فالملوك والآلهة تجمعهم أواصر حميمة لأن جوهرهم واحد. فالعاهل الملكي كان الحبر الأعظم لمختلف الكهنة: فيحق له وحده من الناحية النظرية أن يقيم الشعائر داخل حُجب قدس الأقداس، وجهًا لوجه مع تمثال الإله، وإن كان من حقه في واقع الأمر، أن يفوض سلطاته لكبار الكهنة. ومنذ هذه اللحظة تأسست أيضًا الشعائر الملكية الأساسية ولا سيما أعياد اليوبيل.

(*) يقول د.جمال حمدان: «موقع رأس الدلتا قد تذبذب كثيراً.. كانت منف هي موقعه أيام الفراعنة أي جنوب القاهرة الحالية بنحو ٢٥كم. ثم اطرد التقدم شمالاً... ففي القرن الخامس قبل الميلاد كان الموضع هو جزيرة الوراق الحالية... ووصل إلى بلدة شطنوف في القرن الخامس عشر الميلادي... عاد بعدها إلى الارتداد نحو الجنوب.. واليوم فإن رأس الدلتا يقع قرب القناطر الخيرية على بعد ٢٥كم إلى الشمال من القاهرة». دكتور جمال حمدان: شخصية مصر، الجزء الأول. عالم الكتب - ١٩٨٠. ص١٧٠ و١٧٢. (المترجم)

في ذلك العصر كانت مملكة مصر تضم وادى النيل والمناطق المجاورة له: سيناء شرقًا وواحات الصحراء الغربية. وأرسلت البعثات التجارية إلى النوبة وآسيا وازدهرت التجارة مع بلدان حوض البحر المتوسط ولا سيما جزيرتى كريت وقبرص(٤).

فى زمن الأهرامات الأولى

فى عام ٢٧٧٨ قبل الميلاد دشّنت الأسرة الثالثة عهداً جديداً من الشموخ والإزدهار فى ربوع المملكة. واستقرت العاصمة نهائيًا فى منف التى أصبحت مركزًا سياسيًا وتجاريًا على قدر كبير من الأهمية تحت رعاية إلهها پتاح وحمايته.

وأمر جسر «*العظيم*» ببناء أول هرم فوق هضبة سقارة، وكان مدرّجًا وعلى بعد بضعة كيلومترات من منف وعلى البر الغربى لنهر النيل. وهكذا فإن المصطبة الملكية كما عرفتها العهود السابقة قد ارتفعت درجة درجة إلى ستين مترًا ارتفاعًا. وكانت تطل على الصحراء المستوية لتكشف عن شموخ ملك مصر وسؤدده، فيغالب الزمن أبد الدهر. وإذا كان هذا المعلم المهيب يثبت فى حقيقة الأمر البراعة التى اكتسبها النحاتون والمهندسون المصريون فى تسوية الأحجار والتحكم فى أوضاعها، إلا أنه يصبح أيضًا وفى المقام الأول، تجسيداً لفكر أخذ يتطور منذ عدة قرون. وهكذا تأكد وجود مقومات الشعائر الجنائزية وطقوسها: ففى المعبد القائم عند الواجهة الشمالية من الهرم سوف تؤدى الشعائر الجنائزية يوميًا لإمداد الملك الراحل بكافة القرابين الضرورية. كما سيصبح فى وسع العاهل الملكى الاحتفال فى المقاصير القائمة فى الشرق بالأعياد التى تجدد تتويجه ليستعيد بالتالى شباب قواه الحيوية ليضمن ممارسة حياته كملك إلى ما لا نهاية. العناصر المعمارية لهذه المجموعة الجنائزية الضخمة – وهى تقلّد فى بعض الأحيان مبانى حقيقية – هدفها تأمين الدعم المادى لسحر فاعل وفعّال أنيط به استمرار حياة العاهل الملكى ودوامها فى العالم الآخر واتمام وظيفته المرموقة فى هذه الدنيا.

وفي حجرة الدفن الواقعة أسفل الهرم سوف يبقى الجسد المحنط بمنأى عن عوامل الفساد والتحلّل: وهكذا فإن عناصر الكائن الحي اللامادية وعلى رأسها الـ «*با*»(*) ستتمكن من إعادة التجسد فيه. أما الـ «*كا*»: فهو القوة المحركة للفرد، ويعيد إليه النشاط والحياة، على أن يتم إمداده بما يلزمه من طعام في هيئة قرابين وتقدمات. ووفقًا للكلمات والتعاويذ المجددة للحياة التي يتفوه بها الكهنة الجنائزيون عند إقامة شعائرهم، سوف تعود الحياة إلى الغلاف الجسدي. فالكلمة(*) عند الشعوب السامية وعند الشعوب الإفريقية على حد سواء، له(*) قدرة خلاقة.

إن الحكيم إيمحوتپ الذي يعتبر في المعتاد صاحب هذا الإنجاز المعماري، قد طوّر إذن في آن واحد، وعلى أكمل وجه، الشكل الخارجي لهذا الأثر الملكي الجنائزي ودلالاته الروحية.

كان سنفرو مؤسس الأسرة الرابعة حول عام ٢٧٢٠ قبل الميلاد ملكًا نشطًا قوي الشكيمة، ولما كانت المملكة تشهد أنذاك عصر ازدهار عظيم ونمو اقتصادي وانتشار سياسي عى قدر كبير من الأهمية، أصبح من الضروري استحداث وسائل في الحكم أكثر عددًا وعلى قدر أكبر من التنوع: فأسس سنفرو منصب ثاتي، ويمكن أن نترجم هذه الكلمة بلفظ وزير بالرجوع إلى حقائق من الشرق الأدنى تعود إلى عهد السلاطين العثمانيين. كان الوزير «*أذني وعيني*» العاهل الملكي، وموضع ثقة الملك الذي قام بتعيينه، والرجل الذي يدبر شئون كبرى وظائف المملكة: ولا سيما المرتبط منها بالعدالة والجيش والعناية بالأرض الزراعية وصيانة القنوات. وكان على علاقة دائمة بحكام الأقاليم، ويشرف على إدارة المملكة كسلطة مركزية باسم الملك.

ومعلوماتنا شحيحة جدًا عن الملوك الذين خلفوا سنفرو: خوفو وخعفرع

(*) الكلمة: **Logos: le Verbe**. «الكلمة» في هذا السياق مؤنث لفظي ومذكر معنوي. راجع إنجيل يوحنا ١:١. (في البدء كان الكلمة...) وهو ما يوضحه هامش هذه الآية: العهد الجديد. المطبعة الكاثوليكية. بيروت، ١٩٦٩. (المترجم)

ومنكاورع. وإن كانت الكتب التعليمية المدرسية تفرد لهم مكانة متميزة، إلا أنه علينا من ناحية أخرى ألا نصدق الحكايات التافهة العديمة الأهمية التى رواها **هيرودوت**(*) الذى ربما كان على قدر كبير من السذاجة فأعار سمعه ببساطة شديدة إلى كل ما كان يُروى من قصص فى العصر المتأخر وبعد مرور ثلاثة آلاف سنة تقريبًا(!). ولكن علينا أن نقرّ بأن هؤلاء الثلاثة الذين سجلت ذاكرتنا أسماءهم منذ نعومة أظفارنا(**) كانوا عظماء وأقوياء. وتشهد على ذلك أيضًا «*عجائب الدنيا*»، وكانت الأهرام إحداها وما زالت تقف شامخة بجوانبها الملساء فوق هضبة **الجيزة** شمال سقارة على البر الغربى من النيل: كانت الجبانات تُقام فى الغالب على البر الغربى فتتجه ناحية الغرب حيث عالم الموتى والمنطقة التى تغرب عندها الشمس وتختفى مع كل مساء فتحاكى الموت وتتشبه به. كان غطاء الأهرام من الحجر الجيرى الأبيض القادم من محاجر طرة المجاورة القائمة على البر الآخر من النهر. وكان هُرَيْمها من الذهب. فالأبيض والذهب هما اللونان المثاليان للشمس. «*فالبياض*» هو أحد الأسماء الدالة على الضوء الوهاج للجرم السماوى. أما لحم الآلهة واهبة الحياة فهو من أرقى أنواع الإبريز. والهرم جانب من نور الشمس المتحجر وقد استقر على الأرض، كما أنه الدرب المفضل لارتقاء الملك المتوفى إلى السماء بجوار «*أبيه*» الشمس(***). كان الهرم هو الحارس الأمين على جسد العاهل الملكى الذى كانت مومياؤه مسجاة فى حوض التابوت المصنوع من الجرانيت فى قلب البناء العلوى للهرم فى حالة خوفو أو فى البناء السفلى داخل حجرة الدفن تحت سطح الأرض. كان الهرم هو الصلة الدائمة التى تربط السماء بالأرض. وهكذا برزت وسادت أيديولوچية أخذت تتطور فيما بعد فى العهود التالية. وظلت الأهرامات تنتشر فوق هضبتى **الجيزة** وسقارة وفى حقول **ميدوم** ودهشور جنوبيًا وأبو رواش شمالاً، لتبقى خير شاهد على عصر بلغت فيه المملكة أوج ثرائها كما تشهد على حركة أيديولوچية عميقة.

(*) قام **هيرودوت** بزيارة مصر حوالى عام ٤٥٠ق.م إبان الاحتلال الفارسى الأول. الأسرة السابعة والعشرون. (المترجم)

(**) المقصود بالطبع أطفال فرنسا. (المترجم)

(***) الشمس اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

وليس من الصواب في شيء أن نتحدث على غرار ما قاله بعض الكُتّاب الذين ينتمون إلى الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين - أن نتحدث عن الجموع الغفيرة من العبيد الذين يُضربون ضرباً بالسياط، ويعملون قسراً في خدمة ملك طاغية! هذه الصورة لا تعكس الظروف التي كان يعمل في ظلها بناة الأهرامات سواء على الصعيد المادي أو الصعيد الروحي؛ فلم تعرف مصر نظام العبيد. وكان علينا أن ننتظر طويلاً حتى نرى أسرى الحرب في عهود لاحقة يستخدمون كأيدي عاملة مستعبدة. إن العمال الذين كانوا يَسحبون بواسطة الحبال الزلاقات التي وضعت عليها كتل الحجر الجيري المصقولة بكل عناية كانوا من العمال الأحرار، وقد وقع عليهم الاختيار للعمل لفترات محددة ويقدم لهم ولذويهم الطعام طوال مدة عملهم. كما كانوا أحياناً من الجنود. فمازلنا نقرأ على بعض كتل أحجار هرم خوفو الوحدات العسكرية التي كانوا ينتمون إليها. أما السياط فلا وجود لها إلا في أفلام هوليود حتى أصبحت من ضروريات هذا الإنتاج السينمائي الضخم. وأخيراً فإن هؤلاء الرجال يعملون من أجل تحقيق مصائر الملك الأبدية، فقد كان العمل الذي ينجزونه يحقق لهم في الوقت نفسه مصيرهم الخاص. ويبدو كما لو أن الشعب المصري قد انقاد على ما يعتقد في أعقاب العاهل الملكي إلى الفوز بحياة شاملة بعد الموت، حياة جماعية مجهولة أسماء أفرادها. ومن الضروري على الدوام أن نعيد وضع الوقائع والأفكار في السياق المادي والروحي لعصرها ولا يصحّ أبداً أن نحشرها في إطار مفاهيم حديثة، سواء كانت سياسية أم غيرها. ففي هذه الأزمنة القديمة عندما كان الكون بأسره بطاقاته وقدراته كيانات مؤلهة وعندما كان الملوك آلهة، كان بناء هرم في نظر العامل المصري لا يختلف عن الحافز الروحي الذي حرّك حرفيي العصور الوسطى عندما قاموا بتشييد كنيسة نوتردام Notre-Dame في قلب باريس(*). إن مقصدنا من هذا الكتاب هو أن نتيح للقارئ أن يطّلع على النصوص المصرية القديمة ذاتها حتى يتمكن من الحكم بنفسه على الحقيقة الواقعة للعصر محل دراستنا أو يحاول ذلك بقدر المستطاع.

(*) والشيء نفسه ينسحب على جميع دور العبادة على سبيل المثال. (المترجم)

إننا نعـرف الواقع الأيديولوچى المرتبط ببناء الأهرامــات بفـضـل المدونات المنقوشة على جدران حجرات الدفن، بدءًا من عهد أوناس(*) – آخر ملوك الأسرة الخامسة – ثم استمرت على امتداد عهود ملوك الأسرة السادسة. وتشتمل هذه المتون على ترانيم وإشارات لاهوتية متنوعة وتعويذات الهدف منها تسهيل صعود الملك إلى السماء بمساعدة الطاقات الكونية ومعاونة الآلهة. وهكذا يندمج الملك فى الجرم السماوى فيصير إلهًا مزدوجًا فائق القدرة. كما فى وسعه أن يصبح نجمًا أو يكرر مصير أوزيريس نفسه ليتاح له أن يُبعث حيًا من جديد. إنه يستوعب كافة الصيرورات وتبقى فى حوزته القدرات السحرية كلها بل ويتفوق على مجمع الآلهة:

● وصول الملك إلى السماء:

«وجد الملك أن الآلهة واقفة وقد تدثرت فى ثيابها، ونعالها البيضاء فى أقدامها. ثم ألقت بنعالها البيضاء على الأرض وتجردت من ثيابها. وتحدثت قائلة: «لن يعرف قلبنا السعادة أبدًا إذا عاودت النزول»[٦]

● العاهل الملكى فى أعالى السماء:

«عظام الملك من نحاس[٧]*، وأعضاؤه هى النجوم غير الفانية*[٨]*».*

«إنه الملك، الكائن المقدس، الأول، صاحب الصدر الأبىّ، إنه النجم الذى تنحنى من أجله الآلهة ويرتعد التاسوع[٩]*»*

● الملك ومصير أوزيريس:

تعال أيها الملك، فلا شىء ينقصك. لقد أتت والدتك[١٠] *فلا شىء ينقصك.*

لقد أتت نوت. فلا شىء ينقصك. لقد أتت المجمَّعة الكبرى، فلا شىء ينقصك. لقد أتت حامية القلقين. فلا شىء ينقصك. إنها تجمِّعك. إنها تعيد تشكيلك. إنها تعيد وضع رأسك فى مكانه. إنها تنظف عظامك. إنها تضم أعضاءك. إنها تعيد قلبك إلى جسدك. ها أنت من جديد وسط أسلافك. وتُصدر من الآن الأوامر إلى أخلافك. لأنك

(*) وهرمه قائم إلى الجنوب الغربى من مجموعة هرم چسر المدرج فى سقارة. (المترجم)

جعلت بيتك مزدهرا في معيتك. وتحمي أولادك من النواح[١١]... إن طهارتك هي طهارة الآلهة التي تسير وهي تجهل المصير السيئ[١٢]»

● ملك المصائر كلها هو أيضاً ملك القدرات كلها:

«الملك يحكم الآلهة. ويقود القارب الإلهي. إنه يمسك بالسماء وبأساطينها(*) وبنجومها. وتأتي الآلهة إليه منحنية والنجوم في معيته من أجل مجده[١٣]».

إنها رؤية رحبة ورائعة لنظام ملكي مقدس. فعندما كان البشر ينكبون على العمل في بناء الأهرامات من أجل إله أرضيّ عظيم وخالد كانوا بالتالي يؤمّنون حقهم في الحماية واستمرار حياتهم بعد الموت.

ويشهد هذا التبجيل الشمسي على وجود أول تجميع لمعتقدات محلية مشتتة على امتداد وادي النيل لصالح إله النور الذي تحول خلال الأسرات من الرابعة إلى السادسة إلى الرب الرسمي لمجمع الآلهة والأب الجسدي للملوك. وهناك حكاية أسطورية تروي أن ثلاثة ملوك من الأسرة الخامسة قد ولدوا من صلب الإله رع الذي تجسد على ما يعتقد في جنين زوجة أحد الكهنة. إن هذا الموضوع الثابت عن اقتران إله بامرأة لإنجاب الملوك، موضوع قديم سوف يصبح أحياناً الأصل الذي أدى إلى هاجس يسعى إلى تبرير السلطة الملكية[١٤]. صحيح أن مختلف الآلهة ظلت محل تبجيل في معبدها المحلي فيعبد حورس على سبيل المثال في **هيراكنپوليس**(**)

(*) إنني أستخدم كلمة عمود كمقابل للفظ pilier في الفرنسية أو pillar في الإنجليزية لكل دعامة مربعة، كما استخدم لفظ أسطون (أساطين) للدعائم ذات القطر المستدير كمقابل للفظ colonne في الفرنسية وcolumn في الإنجليزية. وهي الترجمة التي أخذ بها عالم المصريات الكبير الدكتور محمد أنور شكري في كتابه الرائد: العمارة في مصر القديمة، هيئة الكتاب، ١٩٨٦. ص٩٢-٩٤. (المترجم)

(**) الإسم اليوناني لمدينة «نخن» المصرية القديمة والكوم الأحمر قرب إدفو حالياً. (المترجم)

Hierakonpolis ومونتو فى هرمونتيس Hermonthis وحتحور فى دندرة(*) ومين فى كوبتوس(**) وأنوبيس فى أسيوط(***)، إلا أن أول إله «وطنى» قد ظهر مرتبطًا بالشمس، ولكن بعيدًا عن أى تزمت أو تشدد، فعالمية الجرم السماوى المعترف به، وفاعليته الخاصة كانت تتآلف وتتعايش مع فاعليه الآلهة الأخرى فى مدن مصر من أجل استمالة وكسب مجمل القوى التى تدبر شئون العالم والتصالح معها، وذلك على نحو أفضل.

يتخذ قرص الشمس أشكالاً متعددة ويعبد تحت أسماء مختلفة: إن رع هو التسمية التى شاع إطلاقها على الجرم السماوى. كما قد يكون أيضًا آتون، وهو اسم القرص ذاته الذى يبسط أشعته وفى نهاياتها أيادٍ تمتد نحو البشر فى حركة معطاءة وحامية. وقد ساد اعتقاد يَنسب فى الغالب إلى أمنحوتب الرابع وحده ابتكار هذه الصورة التى سبقت عهده فى واقع الأمر؛ إذ كانت موجودة قبل حوالى ألف وخمسمئة سنة فى *متون الأهرام*. كما قد يكون الجرم السماوى صقرًا يدعى حورس، وكان أصلاً اسم الجنس لهذا الطائر أو يدعى مونتو(١٥). وربما كان فضلاً عن ذلك خپرى الجعران الذى يدفع أمامه كرة الزبل تمامًا كما يرتقى قرص الشمس فى السماء. إن تماثل الأوضاع يترتب عليه هنا تماثل الأشكال.

وجاءت صياغة منظومات بسيطة انعكاسًا لفكر مولع بالصور: فالشمس(****) المشرقة هى خپرى، انطلاقًا من تلاعب لفظى قائم على تجانس صوتى مع جذر الفعل خپر الذى يعنى «*جاء إلى الوجود*»، تمامًا كما تأتى الشمس من جديد إلى الوجود مع مطلع كل صباح. ويُدعى الجرم السماوى رع، عندما يصبح فى كبد السماء، وفى أوج تألقه. أما فى المساء فيصير آتوم وهو الإله الشمسى الضارب فى القدم الذى يعبد فى

(*) وكان اسمها اليونانى «تنتيريس» Tentyris و«أونت تانترت» هو اسمها المصرى القديم.(المترجم)

(**) الاسم اليونانى لمدينة «جبتيو» المصرية القديمة وقفط حاليًا. (المترجم)

(***) و«ساوتى» هو الاسم المصرى القديم. (المترجم)

(****) لن يغيب عن بالنا أبدًا أن لفظ «شمس» اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

هليوبوليس(*) Hèliopolis. ويرتبط اسم أتوم من خلال تلاعب لفظى قائم على تجانس صوتى مع الجذر إتم الذى يعنى «*بلغ نهايته*».

كما يمكن للجرم السماوى (=الشمس) أن يصبح «ثور *السماء*» وفقًا لصورة أسطورية حسّية؛ فقوة الحيوان الحيوية الفعّالة تشبه قوة التجديد الدافعة التى تهبها الشمس مع مطلع كل نهار للطبيعة وللبشر.

كما نشأت أساطير أخرى أوجدتها هذه الصور الأولية: فصفحة السماء المسطحة المستوية فى امتدادها سوف تتكون من ظهر امرأة أو بقرة، اسمها نوت أو حتحور. إنها تشكل انحناءً فوق الأرض، بحيث تلامس اليدان أو القائمتان الأماميتان سطح الأرض جهة الغرب وتلامس القدمان أو القائمتان الخلفيتان سطح الأرض جهة الشرق. وهكذا يولد نجم الصباح حسب أحوال المخاض والولادة، إما فى هيئة طفل صغير أو عجل من ذهب. وعند الظهر وهو فى أوج قوته سوف يخصب أمه ليختفى فى فمها بحلول المساء. وبصفته «*النطفة المتألقة*» للإله، والزوج والابن فى آن واحد، سوف تستمر فترة حمله الليلية لمدة اثنتى عشرة ساعة.

كما تشكلت صور أخرى تولدت من ملاحظة المشهد الطبيعى ملاحظة بسيطة: فسوف يجرى عبر السماء نيل آخر وعلى صفحة مياهه سوف يبحر الإله على متن قاربه، فيستهل رحلته من الشرق حتى يصل إلى الغرب. وبحلول المساء سوف يختفى فى العالم السفلى، تحت الأرض المحور المركزى للكون المخلوق. وهذا العالم الآخر القائم أسفل الأرض هو بمثابة صورة منقولة نقلاً أمينًا عن السماء العلوية ولكنها معكوسة. فسوف يواصل الجرم السماوى رحلته النهرية على صفحة نهر النيل السفلى فيجلب معه النور والحياة للموتى الذين يتزاحمون عند شطآنه، ليبزغ بعد ذلك، من جديد جهة الشرق مستهلاً دورة أخرى.

جميع هذه التصورات لا تتناقض ولا تتعارض ولكنها إبداعات أسطورية متنوعة، تفتق عنها وعى دينى مرهف، يدرك ما تنطوى عليه المشاهد الخيالية من إمكانيات حسية فى تفسير العالم.

(*) الاسم اليونانى لمدينة «إونو» المصرية القديمة وعين شمس والمطرية حاليًا. (المترجم)

وفى مدينة **هليوبوليس** الواقعة إلى الشمال من العاصمة منف(*) Menphis كان كهنة الشمس يعملون على إعلاء شأن إلههم. فصاغوا منظومة على قدر كبير من التطور فى محاولة من جانبهم تفسير نشأة الكون، فجمعوا تسعة آلهة فى **تاسوع** واحد خالق الكون. كان الخواء الأولىّ سائلاً بلا كائنات حية وظلاماً غاب عنه الزمن، إنه **نون**. وفيه وُجدت قوة إلهية كامنة فى أعماق المياه: إنه **أتوم** أو **أتوم-رع** الذى خرج من **نون** فى أول الأيام بقوة إرادته الذاتية - فكان النور وهو أول ما ظهر إلى الوجود. وبعد هذا الفجر الأولىّ، خلق **أتوم** عناصر العالم. فعن طريق الاستمناء أو البصق أوجد الزوجين الأولين: **شو** و**تفنوت** - إله الهواء وإلهة الرطوبة. كما أنهما أول مظهرين للزمن الأبدى، والبُعد الأول الذى اكتسبه كون المستقبل. أما **شو** و**تفنوت** فقد أنجبا **جب** إله الأرض و**نوت** إلهة السماء. وهكذا وُجد المكان والزمان. وفى سلسلة متواصلة من عمليات الإنجاب جاء الدور على **جب** و**نوت** لينظما العالم فولد من اقترانهما الزوجان **أوزيريس**(**) - وهو مبدأ خيّر وأول ملوك الأرض الذى علّم البشر فلاحة الأرض وزراعة الكروم وعلم الحرفيين حرفتهم - وولدت أخته وزوجته **إيزيس**(***)، كما ولد الزوجان **ست** - الأجدب صاحب التأثير الضار مثل الصحارى و**نفتيس**(****). إن صياغة قصة هذا **التاسوع** تشهد أيضاً على التوجه السياسى لكهنة **هليوبوليس** الذين رأوا من المناسب بل ومن الحكمة، أن يتحالفوا مع **أوزيريس**، هذا الوافد الجديد والنموذج الجديد بتقليده ومحاكاته. وسوف يظل **رع** و**أوزيريس** صاحبى الدورتين الثابتتين اللتين لا تتبدلان - دورة الشمس ودورة النبات - سوف يظلان على امتداد التاريخ المصرى الضامنين العظيمين لحياة متجددة على مرّ السنين والدهور، وإلى أبد الآباد.

وإن لم يتبق شىء من المعبد الذى شيده **چسر** من الحجر الجيرى الأبيض فى

(*) الاسم اليونانى لمدينة «من نفر» المصرية القديمة وميت رهينة حالياً. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «أوزير». (المترجم)

(***) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «إيزه». (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم «نبت حوت». (المترجم)

منف من أجل *الإله - الشمس*، والذى تذكره النصوص اللاحقة فإن بعض أطلال معبد الشمس الذى شاده خعفرع على مقربة من «أبو الهول» استطاعت أن تقاوم الزمن. كان المعبد يضم مقصورتين، تتجه الأولى ناحية الشرق والثانية ناحية الغرب. إنهما الجهتان الرئيسيتان لرحلة الشمس اليومية.. وقد عثر فى «أبو» غراب عند حافة الصحراء الغربية وعلى بعد عدة كيلومترات شمال غرب مدينة منف، عُثر على بقايا أحد معابد الشمس التى شيدها ملوك الأسرة الخامسة(*): فمعبد نى أوسر رع ومعنى اسمه «تنسب *القدرة إلى رع*» هو أول مجموعة مقدسة وصلت إلينا. إنه معبد غير مسقوف فتغمره الضياء الإلهية. بينما نرى أن المعابد البدائية التى لا نعرفها إلا من خلال صورها التى تعود إلى عصور متأخرة، فضلاً عن المعابد الكلاسيكية، كما سنرى من سياق هذا الكتاب[١٦]، كان قسمها المخصص لقدس الأقداس وملحقاته غارقًا عن قصد فى دياجير ظلمة تستره وتحميه. يبدأ معبد نى أوسر رع عند الوادى بصُفّة ثلاثية ذات أساطين. إن طريقًا صاعدًا لطيف الانحدار، طوله مائة متر وعلى جانبيه سور، يتخذ اتجاها مائلاً مقارنة بمحمور المعبد، لينتهى عند صفة ثانية هى جزء من الجانب الشرقى من السور الملتف حول المعبد. أما المعبد فيتكون أساسًا من مسلة - هى الأولى فيما نعلم - وما زالت عريضة إلى حدّ كبير ومشيدة من كتل حجرية مرصوصة وترتفع إلى علو خمسة وثلاثين مترًا وقائمة فوق قاعدة فى هيئة هرم ناقص وأمامها مائدة قرابين مخصصة لأداء الشعائر. والمسلة رمز شمسىّ تحاكى الـ«بن بن» وهو حجر هليوبوليس المقدس الذى أشرقت فوقه الشمس مع مطلع أول يوم من أيام الكون ويرتبط بالشعائر التى تقام من أجل النصب الصخرى العمودى أو بيت *إيل*(**) فى اللغات السامية أى «بيت الله». كانت مجموعة «أبو» غراب المعمارية محاطة بسور طوله مئة وعشرة أمتار وعرضه ثمانون مترًا. وعلى بعد ثلاثين مترًا إلى الجنوب من هذا السور عثر على بقايا مركب كبير من الطوب - كان تحت تصرف الإله للقيام برحلته اليومية على صفحة «نيل- السماء» و«نيل العالم السفلى». وربما حفرت أحيانًا تجاويف عند سفح الأهرامات لتضم مركب، وكانت على مقربة من المعبد الجنائزى عند

(*) من أسرات الدولة القديمة وامتد حكمها من ٢٥١٠ إلى ٢٣٥٠ قبل الميلاد تقريبًا. (المترجم)

(**) راجع سفر التكوين ١٤:٣٥ وأيضًا ٤٥:٣١. (المترجم)

الواجهة الشرقية للمبنى ففيه كانت تقام يوميًا الشعائر التي تضمن استمرار الحياة في العالم الآخر. وهكذا كانت خمسة مراكب على مقربة من هرم خوفو: ثلاثة جهة الشرق واثنان جهة الجنوب. ومن الراجح أنها كانت مخصصة للملك المتوفى بعد أن صار رفيق الشمس في رحلتها صباح مساء على مدار الأيام. وهكذا وسواء بسبب الورع الشعبي الأكيد الذي كان يكنّه المصريون تجاه جرم السماء واهب الحياة، أم بسبب العمل النابه الفطن الذي قام به كهنة **هليوبوليس**، فإن هذه المدينة القريبة من منف عاصمة مصر السياسية صارت عاصمتها الدينية. أما مقر السلطات الدنيوية والروحية فكان في ذلك الزمن في مصر السفلى قرب الرأس الجنوبي لدلتا النيل.

كان لهذه الهيمنة الشمسية وهذا الالتهام الأول لمجمع الآلهة المصرية تأثيره على عناصر الحياة السياسية. فقد أضاف الملك اعتبارًا من خعفرع إلى قائمة ألقابه الرسمية التي تتحدد يوم تتويجه، اسمًا خامسًا هو لقب ابن رع. وأصبح الاسمان الأخيران في قائمة الألقاب هذه، أي اسم ملك مصر العليا ومصر السفلى وهو رابع هذه الأسماء واسم ابن رع يحاطان من الآن فصاعداً بخرطوش اشتق شكله من العلامة الهيروغليفية شن التي تعني «يحيط بـ» أو «يطوّق». وهكذا اندمج مدار الشمس ومساره، مع اتساع مجال سيطرة الملك، إندماجًا قائمًا على رسم العلامة الهيروغليفية. إن الملك والإله يتمتعان بالسلطة نفسها على الكون، فالعاهل الملكي «سيد *كل ما يحيط به القرص*». وهكذا يتأكد مرة أخرى الإتحاد الجوهري القائم بين الكيان الإلهي الأسمى والملك. وكانعكاس محلي لهذا التصور كان حكّام الأقاليم، في الغالب وفي إطار أقاليمهم، كبار كهنة الإله المحلي. فالسلطة المحلية هي صورة منقولة نقلاً أمينًا عن السلطة المركزية التي تخلط خلطًا تامًا بين ما هو دنيوي وما هو روحاني، ولا تميز بينهما.

وفي إطار هذا النظام الملكي المطلق، نجد أن السياسة والدين والإقتصاد والحياة الإجتماعية خاضعة لشخص *الملك-الإله* وهو بصفته الأساسية هذه، الوسيط الطبيعي والضروري بين البشر والآلهة. ويظل تمثال «أبو» الهول في الجيزة أفضل مثال يوضح هذه الأيديولوچية: فالرأس رأس خعفرع والجسد جسد أسد منحوت في

صخر الحجر للصحراء ويبلغ طوله سبعين متراً وارتفاعه عشرين متراً. إن الوحش الضخم وهو الحارس الملكي الأمين للجبانة، يمدد جسده القوى بين رمال الصحراء الصهباء والسماء. إن صروف الدهر واعتداءات البشر لم تفلح فى طمس المهابة الفائقة العظمة لهذا الوجه الملكي.

عمّ الرخاء المملكة وتعاظم ثراؤها. وأرسل الكثير من البعثات التجارية إلى البلدان المجاورة فجلبت القمح والأبقار من النوبة والذهب من النوبة وسيناء وبلاد بونت[١٧] والنحاس أيضًا والأحجار الكريمة كالدهنج (الملاخيت) والفيروز والزمرد من سيناء. كما أحضرت من بلاد بونت البخور الضرورى لإقامة الشعائر. ومن لبنان جاءت أخشاب الأرْز الضخمة لبناء أبواب المعابد وسفن أعالى البحار. أما الأبنوس والعاج وريش النعام فقد جاءت أساسًا من النوبة.

وتطورت الإدارة المركزية. وازدوجت «*البيوت*»: الأول يدير شئون مصر العليا والآخر شئون مصر السفلى. ولم يحتفظ بوحدته سوى «بيت المياه» الذى كان مسئولاً عن التنسيق بين الملاحظات التى تسجلها مختلف مقاييس النيل المنتشرة على امتداد نهر النيل لتنظيم الفيضان وزيادة مساحة الأراضى الصالحة للزراعة بقدر الإمكان. كما بقيت مصلحة المحفوظات موحدة. وتعاظمت أهمية طبقة الكتبة. كانوا من المتعلمين المثقفين فيضبطون الحسابات بعناية فائقة فى الأملاك الملكية أو الخاصة، على السواء. فيقومون بإحصاء المحاصيل وتقدير عدد القطعان. ويفعلون الشىء نفسه فى «*البيت الأبيض*» أى وزارة المالية ويساهمون مساهمة فعّالة فى حسن إدارة شئون الدولة. وأصبحت مزاولة مهنة الكاتب من المواضيع الأثيرة فى مجال الفنون، فنذكر على سبيل المثال تمثال كاى فى متحف اللوفر(*). وفضلاً عن ذلك فقد أبرزت النصوص الأدبية الدور المتميز الذى اضطلع به هؤلاء الأشخص فى حياة البلاد.

(*) لابد من الإشارة فى هذا الصدد إلى تمثال الكاتب المصرى بمتحف القاهرة، الفائق الروعة بملامح وجهه المعبّرة. الدور الأرضى، القاعة ٤٢. (المترجم)

هكذا يتحدث خيتي المتواضع المنبت إلى ابنه عندما يصطحبه إلى المقر الملكي ليلتحق «بمدرسة *الكُتب*» ليتعلم فيها ليصبح كاتباً:

«وكما ترى لا تخلو مهنة واحدة من رئيس، إلا مهنة الكاتب: فالكاتب رئيس نفسه. وإذا كنت ملمًا بالكُتب فكل شيء سيكون بالنسبة لك على ما يرام. لا ينبغي أن تضع نصب عينيك مهنًا أخرى. انظر! فأنا من جانبي إنسان رقيق المنبت، ولكن لن يقال عن مثل هذا الرجل أنه فلاح. عندئذ عليك أن تنتبه جيداً. وكما ترى فما أفعله من أجلك عندما انحدر في النهر متجهًا إلى المقر الملكي، إنما أفعله حبًا لك. إن يومًا واحداً تقضيه في المدرسة سيفيدك، لأن ما يتم فيها من عمل، يدوم دوام الجبال إلى أبد الآباد... وينظر إلى الكاتب بصفته إنسانًا يُنصت. ومن يُنصت يصبح إنسانًا في مقدوره أن يتصرف. سوف تنهض مع كلمات الترحيب وسوف تسير بخطى ثابتة ولن يضنّ قلبك بشيء. سوف تكون في صحبة الرؤساء ويكون أصدقاؤك أشخاصًا من مكانتك نفسها. انظر، لقد وضعتك على طريق الإله. إن كوع الكاتب هو ثروته(*)، وذلك منذ اليوم الذي ولد فيه. فعندما يصل إلى قاعة الجلسات في المحكمة، ينشط الناس من أجله. انظر، لا يوجد كاتب واحد يفتقر إلى الطعام أو خيرات القصر الملكي. إن المكان المخصص للكاتب يجعله على رأس المحكمة: لذلك أعبد الإله من أجل أبيك وأمك اللذين وضعاك على درب الحياة[١٨]».

عُهد إلى حكام الأقاليم بالإدارة المحلية. إنهم المندوبون المفوضون من قبل الملك لإدارة الثمانية وثلاثين إقليماً التي كانت قائمة آنذاك. إنهم يشرفون على صيانة الترع والقنوات ويدبرون شئون الأراضي الملكية، وتقع على عاتقهم مسئولية جهاز الشرطة وتجنيد الشباب للإلتحاق بالجيش.

وهكذا نشأت كبرى العائلات. كانت صلتهم بالبلاط الملكي وثيقة في بادئ الأمر. وتشهد على ذلك صفوف المصاطب التي لا تنتهي وتضم المقابر الخاصة بكبار

(*) نذكر في هذا الصدد المثل العربي: «لا يعرف كوعه من بُوعه» للدلالة على الجهل المطبق. والبُوع هو العظم الذي يلي إبهام الرِّجل. (المترجم)

الموظفين اعتباراً من الأسرة الثالثة حول هرم الملك، وهى بمثابة إنعكاس متحجر لسلطة البلاط الملكى فى منف. إنه مجتمع لم يعرف بعد سوى القليل من التراتب الهرمى الإجتماعى. فينقسم إلى طبقة حاكمة وجماهير غفيرة من الفلاحين. والكتبة والحرفيون وحدهم هم الذين شرعوا يشكلون أولى الطبقات الوسطى. كما كانت القيم الأخلاقية تلعب دوراً عظيماً فى الحياة الإجتماعية. فقد وصلتنا التعاليم التى دوّنها الوزير بتاح حوتپ من أجل ابنه. عاش هذا الوزير فى عهد الملك إسيسى من الأسرة الخامسة، حول العام ٢٥٠٠ قبل الميلاد. فالمبادئ المعلنة تعبّر عن الموقف الشخصى فى مواجهة الحياة وعن السلوك الفردى فى المجتمع، على حدّ سواء.

● جوهر ممارسة الحقيقة والعدالة:

«الحقيقة – العدالة[١٩]*، عظيمة الشأن وتدوم ثروتها. إنها لم تتعرض أبداً للعواصف منذ زمن خالقها. كل من يخرج على نواميسها يتعرض للعقاب. إنها طريق يمتد أمام الجاهل. فلن تسمح الخسة أبداً أن يرسوَ المرء فى أى ميناء. فى وسع الدناءة أن تستولى على الثروات. ولكن قوة الحقيقة – العدالة، فى كونها تغالب الأيام، ويستطيع المرء أن يقول عنها: «إنها الثروة التى أورثنى إياها أبى*[٢٠]*»».*

● على المرء أن يكون كريماً:

«إذا حرثت، فليكن حقلك مزدهراً وليعطك الله بوفرة ولا تتباه كثيراً بذلك وعندئذ لا تطالب الفقير بشىء».

● أن يكون المرء رحيماً:

«إذا كنت رئيساً فاستمع فى هدوء إلى كلمات الشاكى. ولا تردّه طالما لم «ينظّف» جسده من كل ما كان يفكّر أن يقوله لك. الإنسان التعس يطيب له أن يغسل قلبه أكثر من أن يرى ما جاء من أجله يتحقق(*)*. كم هو مفرح لكل شاكٍ أن يجد معيناً يهتمّ به*[٢١]*».*

(*) مازالت تدور الأمثلة الشعبية الآتية حول المعنى نفسه: «لاقينى ولا تغدينى» و«وش بشوش ولا جوهر بملو الكف» و«بلاش توكلنى فرخة سمينة وتبيتنى حزينة». (المترجم)

● أن يشغل المرء باله بالآخرين، وأن يكون ثابت الجأش:

«لا تشيع الرهبة بين الناس وإلا سيعاقبك الله بالمثل. إذا ظن إنسان أنه قد يعيش بهذا الأسلوب فسوف يُحرم فمه من الخبز. لا تسمح بأن يظهر الخوف من الناس. فمشيئة الله هي التي لابد أن تظهر. وستعمل بحيث يعيشون في سلام. عندئذ سوف يحضرون ويعطونك من تلقاء نفسهم[٢٢]». «إذا كنت رجلاً قويًا، فاعمل على أن يحترمك الناس بسبب علمك وكلامك الرصين. لا تأمر (الآخرين) إلاّ لكي ترشد(هم). أن يكون (المرء) عنيفًا يعني الإنسياق للشرّ. لا تكن متعالٍ حتى لا تحطّ من قدر (الآخرين). لا تكن صموتًا ولكن تجنب الإساءة (إلى الآخرين) أو الرد بكلمة حادة. اشح بوجهك وتمالك نفسك، إن لهيب مزاج أهوج قد «يعصف بالإنسان الطيب»[٢٣]».

● التصدي لكل نزعة تجنح إلى الكبرياء:

«ليت قلبك لا يكون متغطرسًا بسبب ما تعرفه. لا تملأ قلبك بحقيقة أنك عالم. ناقش الجاهل بالطريقة نفسها التي تناقش بها الإنسان صاحب المعارف. لأن المرء لا يبلغ أبدًا حدود فن من الفنون. إن حرفيًا، كائنًا من كان، لا يتحلى أبدًا بصفة الإمتياز. فالكلمة الصائبة قد تتوارى أكثر من زمردة. وقد يجدها المرء عند الخادمات المنحنيات على الرحى[٢٤]».

● تأسيس عائلة تنجب ذرية صالحة:

«(إذ يعتبر الابن مسئولاً عن تأمين استمرار حياة الأب بعد وفاة هذا الأخير وغيابه عن عالم الدنيا وذلك بفضل إقامة الشعائر الجنائزية يوميًا(*)):

«إذا كنت رجلاً رفيع المقام فأسس بيتًا، وأعزّ زوجتك في دارك كما ينبغي. واملأ بطنها واكسها على أحسن وجه. كما أن الأدهان علاج فعّال لجسدها. ومن ثم اجعلها سعيدة ما دمت حيًا. إنها حقل خصب لمن يملكها. لا تحاكمها ولكن ابقها بعيدة عن القيادة، لأنها قد تثير العاصفة. «ربت» على قلبها بواسطة ما يحدث لك (من سعادة). وهكذا ستبقى في دارك[٢٥]».

(*) وحول المعنى نفسه يدور المثل الآتي: اللي خلّف ما ماتش. (المترجم)

● احترام التراتب الهرمى الذى يحقق الترابط الاجتماعى:

«احنِ ظهرك أمام من هو أعلى منك، أمام رئيسك فى القصر الملكى. هكذا سيدوم بيتك كما ستدوم ثرواتك فى آن واحد. وسوف تحصل على راتبك بنزاهة. فالساعد الذى يمتد لن يبقى مشلولاً (لن يمتدّ بلا جدوى بل سينال ما يريد). إنه أمر سيء أن يناهض المرء رئيسًا؛ فالمرء يحيا طالما كان طيّعًا[٢٦](*)».

ولكن الإفادة التى أعلنها نفرسشم - رع المدعو شيشى، الكاهن الجنائزى الملحق بهرم الملك تيتى (الأسرة السادسة حول عام ٢٤٠٠ قبل الميلاد) هى أكثر بساطة وإن كانت تكشف عن أريحية الرجل:

«لقد قلت الحقيقة ومارست العدل.

لقد أحسنت الحديث ورددت (الكلمات) ترديدًا موفقًا.

لقد أرشدت العدالة حتى يحبنى الناس حبًا عظيمًا.

لقد أنقذت الضعيف من يدى الأقوى منه، بقدر استطاعتى.

لقد أعطيت الجوعان خبزًا وملبسًا للعريان.

لقد أتحت لمن ليس له قارب أن يبلغ الشاطئ.

لقد قدمت دفنة لمن ليس له ابن.

لقد اصطحبت فى القارب من ليس له سفينة.

لقد كرّست أبى وكنت وديعًا مع أمّى وربيت أبناءهما.

هكذا يتكلم من يُدعى شيشى[٢٧]».

(*) يقول المثل الشعبى: العين ما تعلاش ع الحاجب واللى يطاطى لها تفوت. (المترجم)

استعرضنا فيما سبق أفكاراً تدعو إلى البّر والعدل. وقد ظهرت بوضوح مراراً وتكراراً فى الإفادات الأخلاقية المنقوشة بالمقابر، والتى تؤكد على السلوك القويم لكل امرئٍ طيلة حياته.

الثورة الاجتماعية

ولكن ظلت السلطة تستهوى البشر، على مرّ العصور. فسرعان ما تعرضت المؤسسة الفرعونية الأولى لتهديدات قوّضت الأسس التى نهضت عليها. فقد بدأ حكام الأقاليم ولا سيما حكام مصر العليا وهم الأبعد من حيث المسافة عن البلاط الملكى فى منف، بدؤوا يدبرون شئونهم بالتدريج بأساليب فيها قدر متعاظم من الاستقلال عن السلطة المركزية. ففى هذا البلد الذى تشكل فيه العائلة نواة المجتمع الأساسية، كان كل شخص يشغل منصب من المناصب يودّ أن يورث وظيفته لابنه، بل إن الحكيم **پتاح حوتپ** ذاته قد ألقى على مسامع الملك **إسيسى** حديثًا مسهباً، كانت تفرض جملته الأخيرة، شكلاً من أشكال الضغط السحرى على قرار الملك:

«أيها العاهل الملكى، يا سيدى، لقد بلغتُ الآن من العمر أرذله. وانقضّت الشيخوخة (علّى). والتدهور يتجدد بلا هوادة بعد أن فرض نفسه. والمرء يغفو طوال النهار. والعينان مريضتان والأذنان صمّاءان. واختفت القوة لأن القلب متعب والفم صامت، لا ينبس بكلمة. وتوقف القلب عن التفكير[٢٨]. بل لم يعد يتذكر الأمس. والعظام تتألم بسبب طول مدة الحياة. وما كان مصدر سعادة صار الآن تعاسة واختفت جميع الأحاسيس... استأذنك إذن أن تصدر الأوامر بأن يتخذ خادمك لنفسه عصًا للشيخوخة[٢٩] حتى استطيع أن أخبره بكلمات الذين كانوا ينصتون فى الزمن الماضى وبنصائح الأجداد الذين أطاعوا الآلهة. عندئذ سيفعل الناس من أجلك الشيء ذاته. وتطرد الشرور بعيداً عن شعب مصر وسوف، تعمل الضفتان من أجلك[٣٠]».

هكذا تكونت أوليجاركية(*) خطيرة. ففي بلدة الشيخ سعيد بمصر الوسطى الكائنة على بعد ٣٠٠كم تقريبًا شمال طيبة - بدأ أمراء إقليم الأرنب البرى(**) يورثون مناصبهم اعتبارًا من الأسرة الخامسة وباتوا منذ الآن يدفنون فى أقليمهم. وانتشرت هذه العادة الجديدة. ولمعالجة هذه المعضلة وتداركها أسس ملوك الأسرة الخامسة منصب «*حاكم الجنوب*» فكانت مهمته تنسيق أعمال حكومة مصر العليا مع مراقبتها فى الوقت نفسه. ولكن مع قرب نهاية الأسرة السادسة أصبح هذا الحاكم لا يتمتع سوى بقدر محدود من السلطات. وبالتدريج فَقُرت المؤسسة الملكية من جراء أعمال النهب والإغتصاب التى أقدم عليها المداره الإقليميون.

بل ظهر من حول الملك ابتداءً من الأسرة السادسة مجموعة من المقربين الذين نزعوا إلى الجمع بين عدد من الإمتيازات الملكية والمراتب الشرفية؛ مما زاد من انحسار فاعلية السلطة المركزية.

ظل الخطر كامنًا غير فاعل فى عهد ملك حازم ونشط مثل پيپى الأول. ولكن سنوات حكم پيپى الثانى المديدة دامت تسعين سنة. إن وهن الملك الطاعن فى السن، بعد أن تجاوز سن المئة، سوف يقود البلاد إلى أزمة خطيرة فى السلطة. وربما حدث أيضًا أن الفلاحين الذين تطلعوا أساسًا إلى مزيد من المزايا فى حقوق الملكية، قد عجّلوا من قيام الثورة. ولكن يظل كل ذلك فى الوقت الراهن محض افتراض إذ لم يقدم نص مصرى واحد تقريرًا واضحًا عن هذا الموضوع. ومع ذلك، فإن البدو «*السائرين - على - الرمال*» القادمين من بلاد كنعان[٣١] قد نفذوا إلى داخل الدلتا.

(*) نظام سياسى تنحصر فيه السلطة فى فئة محدودة من الأشخاص أو فى طبقة ضيقة تتمتع بامتيازات خاصة. والمصطلح مشتق من الكلمة اليونانية «أوليجاركية»، ومعناها نظام القلة.(المترجم)

(**) وهو الإقليم الخامس عشر من أقاليم الوجه القبلى واسمه «ون» فى اللغة المصرية القديمة.(المترجم)

كانت ثورة اجتماعية حقيقية صاحبها غزو أسيوى. واستمر ذلك قرنًا من الزمن من ٢٢٦٠ حتى ٢١٦٠ قبل الميلاد تقريبًا. ولا نعرف على وجه التحديد أحداث هذه الفترة، ولكن عددًا من النصوص كانت صدًى لهذه الإضطرابات:

«لم يعد كبراء البلد يشكلون حكومته. ما كان قد حدث فى الزمن الماضى أصبح وكأنه لم ينجز أبدًا. يتعين على رع أن يعيد الخلق من جديد. لقد هلكت البلاد من أقصاها إلى أدناها فلم يبق منها شىء. بل إن مصائرها المرسومة لم يتبق منها مجرد سواد الأظفار[٣٢]. إن ما أصاب هذا البلد بلغ حدًا خطيرًا حتى أنه لا يوجد من ينتحب عليه أو من يتكلم أو من يبكى... لقد توارى قرص الشمس واحتجب ولم يعد يسطع حتى يمكن للشعب أن يرى... ونهر مصر ناضب فيعبره المرء دون بلل[٣٣]... إن طيورًا جاءت من الخارج تفرخ فى مستنقعات الدلتا. لقد عشّشت على مقربة من المصريين الذين تركوها تقترب بسبب الشقاء (الذى يعانون منه)[٣٤]».

وينوح إيبو – ور وينتحب طويلاً وينظم نصًا شعريًا يحرك العواطف عن موضوع الثورة الإجتماعية المدمرة التى قلبت كل الموازين:

- *انظروا إذن، فالصحراء تنتشر فى البلاد، والأقاليم تُسلب وتُنهب والأسيويون القادمون من الخارج جاؤوا إلى مصر...*

انظروا إذن، لقد اختفت البسمة، فلا أحد يبتسم، ومنذ الآن تعمّ الشكوى أرجاء البلاد وقد اختلطت بالنواح والإنتحاب... انظروا إذن، فقلوب الحيوانات تبكى أيضًا وقطعان المواشئ تئنّ بسبب أحوال البلاد...

انظروا، إن الرجل الذى كان ثريًا (فيما مضى) ينام الآن ظمآنًا. أما الذى كان يستجدى فى الماضى رواسب الأقداح، أصبحت الجعة تفيض الآن عن حاجته. انظروا، من كانوا يملكون فى الماضى ثيابًا كتانية يرتدون الآن الأسمال. ومن كان لا يستطيع أن ينسج لنفسه يمتلك الآن أرقى أنواع الكتان.

انظروا، من كان معوزًا رقيق الحال أصبح ثريًا والثرى أصبح فقيرًا[٣٥].

صاحبت الثورة الاجتماعية ثورة الوعى والضمائر. فبعد أن فقد الإنسان فجأة المرتكزات التى يوفرها النظام الملكى والدين، انقطع إلى نفسه؛ فانتابه الشك، وأخذ اليائس من الحياة يخفف من وحدته قائلاً:

«لمن عساى أتحدث اليوم؟
فالإخوة أنفسهم أشرار
وأصدقاء اليوم أصبحوا لا يحبون.

لمن عساى أتحدث اليوم؟
القلوب طمّاعة
وكل واحد يستولى على ممتلكات الغير.

لمن عساى أتحدث اليوم؟
دماثة الخلق اضمحلت
وعادت السطوة للجميع.

لمن عساى أتحدث اليوم؟
الناس يرضيهم الشر
والخير طرحوه أرضًا فى كل مكان.

لمن عساى أتحدث اليوم؟
فالإنسان الذى كان يُخرج (الآخر) عن طوره بسبب أفعاله السيئة
يثير الآن الضحك عند الجميع عندما تكون جريمته شنعاء.

لمن عساى أتحدث اليوم؟
فالجميع ينهبون
وكل امرئٍ يسلب أخاه..

لمن عساى أتحدث اليوم؟

لم يعد للأبرار وجود
والبلاد أصبحت تحت رحمة مرتكبى المنكرات..

لمن عساى أتحدث اليوم؟
إن البؤس يرهقنى
وقد احتاج إلى صديق.

لمن عساى أتحدث اليوم؟
لقد ضرب الشر البلاد
ولا نهاية له[٣٦]».

إنها قصيدة شعر تلتزم بالنموذج الشائع فى اللغات الساميّة من إيقاعات وسجع ولوازم المواضيع، إنها نداء مؤثر لذات واعية تعيش فى عزلة ووحدة.

وفي أعقاب هذه الأزمة المزدوجة، سوف تنشأ مشاعر أخرى: الشعور بوجود الوطن باعتباره مجمل أراضٍ متلاصقة تشكل وحدة يمتلكها رجال يسكنون الوادى، إنه وطن ينبغي حمايته منذ الآن من الغزوات الخارجية والفوضى الداخلية. ولأول مرة بدأت تظهر في النصوص عبارتا: «*بلدنا*» و«*جيشنا*». واعتبر المصريون أنفسهم مسئولين عن هذا الوطن الذى أصبح وطنهم وصاروا الساهرين عليه. وفي الوقت نفسه وبعد أن تخلص الإنسان من سلطان النزعة الجماعية للمجتمع الفرعونى الأول صار مشغولاً بمصيره الشخصى: وهكذا ازدهرت المعتقدات **الأوزيرية** إلى حدّ كبير لتتيح لكل فرد بلوغ عالم الصيرورة اللانهائية، ودخول عالم التحولات الحرة وأشكال الكائنات الأبدية - الآدمية والحيوانية والنباتية. إنه عالم شاسع قائم على وحدة الوجود(*) panthéisme يتحرر فيه الإنسان من القيود الدنيوية فيتحرك كما يحلو له

(*) تؤمن هذه العقيدة بوحدة الله والعالم. (المترجم)

بلا انقطاع وبلا نهاية. كان الشك حالة عابرة، واستعاد الإنسان إيمانه بالآلهة الخالدة مع استقرار المملكة وحقوقه الفردية الجديدة.

وبعد سنوات من الفوضى، تقاسمت خلالها الحكم نُظم متوازية إبان الأسرتين السابعة والثامنة، يبدو أن عملية توحيد أولى قد تمت على أيدى أمراء **هرقليوبوليس**(*) **Hérakléopolis**، وتقع هذه المدينة إلى الجنوب الغربى من **منف** عند مدخل **الفيوم**. إن هذه المنطقة التى ستلعب دوراً على قدر كبير من الأهمية إبان الأسرة الثانية عشرة، كانت آنذاك عبارة عن واحة شاسعة تتكون من منخفض عميق يقع عند الجانب الغربى من الوادى ويغذيه بالماء ذراع يتفرع من **النيل** هو **بحر يوسف** الذى يخترق سلسلة جبال الصحراء الغربية عبر ممر ضيق ليصب فى بحيرة ضخمة أطلق عليها المصريون اسم مر – ور وقد صحفه الإغريق إلى **مويريس Moeris** ثم أسماها الساميّون **يا – يوم** فتحول هذا الاسم إلى **الفيوم** فى الوقت الراهن. أما البحيرة فقد أصبح اسمها الحالى: **بحيرة قارون**. وشكّل ملوك **هرقليوبوليس** الأسرتين التاسعة والعاشرة. وإذا كان سلطانهم يمتد بوضوع على **مصر السفلى** و**مصر الوسطى** إلا أنه لم يشمل على ما يبدو **مصر العليا** حيث كان أمراء **طيبة** يمارسون من جانبهم سياسة نشطة.

وعن طريق المصاهرة مع أمراء آخرين من الجنوب وفى أعقاب معارك طاحنة ضد أمراء **هرقليوبوليس**، نجح **أناتفة**(**) **طيبة** حول عام ٢١٦٠ قبل الميلاد، فى إعادة توحيد **مصر العليا** و**مصر السفلى**، وأسسوا الأسرة الحادية عشرة فكانت أولى أسرات مرحلة جديدة من الاستقرار الذى ساد المؤسسة الفرعونية. وصارت **طيبة** عاصمة المملكة. وهكذا استهلت تاريخها المجيد بفضل الفطنة النابهة التى تحلى بها أمراؤها على الصعيد السياسى، ومن ناحية أخرى فسرعان ما غدت العاصمة الدينية الجديدة. وهكذا ستصبح **طيبة** على امتداد ألف سنة أقوى مدن الشرق وأعظمها شأنًا.

(*) الاسم اليونانى لمدينة ننى نسوت المصرية القديمة وإهناسيا المدينة حاليًا. (المترجم)

(**) مجموع الملوك الملقبين أنتف. (المترجم)

لقد تربع على عرش البلاد ثلاثة ملوك يحملون لقب أنتف، وامتد حكمهم حتى عام ٢٠٧٠ قبل الميلاد تقريبًا. إن ابن أنتف الثالث سوف يخلف أباه تحت اسم مونتو حوتپ الأول. ثم جاء الدور على ابن هذا الأخير واسمه مونتو حوتپ الثانى ليعتلى سرير الملك. ولا شك أن مونتو حوتپ الثالث كان ابن إحدى محظيات الملك السابق. لقد استعاد هؤلاء الملوك الثلاثة الملقبون مونتو حوتپ اسم جدهم الأعلى والد أنتف الأول، لينتسبوا على هذا النحو إلى الإله الذى كان يعبد فى عاصمة الإقليم[٢٧]. علمًا بأن اسم مونتو حوتپ يعنى «عسى أن يكون الإله مونتو راضيًا». ويذهب البعض إلى أن الملوك الذين يحملون لقب مونتو حوتپ أربعة. وفى هذه الحالة قد يكون أول من لقّب باسم مونتو حوتپ، هو والد أنتف الأول. وبالفعل فقد ذكر اسمه محاطًا بخرطوش فى قائمة الملوك المنقوشة فى الكرنك. ولكن يبدو أن مونتو حوتپ هذا، على افتراض أنه كان بالفعل الجد الأول لهذه الأسرة، إلاّ أنه لم يحكم البلاد فى واقع الأمر قبل ابنه أنتف الأول. بل كان يظن قبل عدة سنوات أن الملوك الذين يحملون اسم مونتو حوتپ فى الأسرة الحادية عشرة كانوا خمسة. ولكن من الواضح فى الحقيقة، أن أولهم قد بدّل على ما يعتقد قائمة ألقابه بينما كان متربعًا على العرش. إن قائمتى الألقاب الملكية هذه، اللتين كان العلماء ينسبونهما إلى ملكين مختلفين هما فى واقع الأمر لملك واحد. إن إعادة صياغة التاريخ القديم يتطلب من الباحث صبر أيوب وقدرًا كبيرًا من الفطنة.

وعكف هؤلاء الملوك على طرد الغزاة الآسيويين من الدلتا وإعادة إقتصاد البلاد إلى سابق عهده، بعد أن خرّبته سنوات الإضطرابات والمجاعات. كما عملوا على استعادة العلاقات التجارية مع البلدان المجاورة.

بل يبدو أن خيتى الثالث من هرقليوپوليس (الأسرة العاشرة) قد سبق له أن بذل الجهد الجهيد لدحر بدو آسيا الغزاة. ففى *تعاليمه إلى ابنه مرى-كا-رع* وكانت التعاليم المكتوبة من أجل الابن تقليدًا أدبيًا موغل فى القدم فى مصر وسوف يستمر على مدى الأيام، فنجده يقول فى هذه *التعاليم*:

«كان هؤلاء الأجانب كالجدار الموصد ففتحته... وعملت بحيث تكيل لهم مصر السفلى الضربات. وسطوت على ممتلكاتهم واستوليت على قطعانهم حتى نفر الأسيويون من مصر وكرهوها. لا تشغل بالك إذن بهذا الأمر، لأن الأسيوى قد صار من الآن تمساحًا على شاطئ (مصر). ففى وسعه أن يسرق شخصًا واحدًا ولكنه لا يستطيع أن يستولى على أرض عدد من المدن[٣٨]».

واصل **الأناتفة والمناتحة**(*) تحرير أرض **مصر** ودعَموه. وكان **مونتو حوتپ** الأول قد أمر بتشييد معبد فى **الجبلين** – على بعد ٢٨كم جنوب **طيبة**– وزخرفه بمشاهد مرتبطة بغمار المعارك التى خاضها من أجل إعادة توحيد البلاد. وقد دُمِّر المعبد ولكن مازال من السهل فهم دلالة نقوش بعض الكتل الحجرية التى أعيد استخدامها فى العصر البطلمى كأساسات لمعبد آخر: فنشاهد الملك وهو يؤدى الحركة الشعائرية التى كانت فى زمن سابق حركة **نعرمر** كما صورتها الصلاية المصنوعة من حجر الشست والتى يحتفظ بها متحف **القاهرة** – نشاهد إبادة الأسرى إبادةً رمزية بضربهم بمقمعته البيضاء وهى المقمعة الملكية برأس من الألبستر. وتحتفظ هذه الكتل الحجرية بصور أربعة نماذج من الأسرى: النوبيين والأسيويين والليبيين والمصرين. ويؤكد متن المشهد على قيام الملك بأعادة النظام إلى الجنوب والشمال والبلدان الأجنبية وأن **الأقواس التسعة** تحت قدميه. إن عبارة **الأقواس التسعة** التى اكتسب استخدامها قدرًا كبيرًا من الأهمية فى عصر الإمبراطورية تشير إلى مصر والأراضى الواقعة تحت سيطرتها. إن قائمة الأسماء التى تنطوى عليها هذه العبارة قد تغيرت على مرِّ العصور[٣٩].

كما استعاد ملوك الأسرة الحادية عشرة سيطرتهم على **النوبة** التى كانت قد تخلَّصت من الوصاية المصرية إبان أزمنة الإضطرابات، بينما تولت أسرات محلية وقبلية زمام السلطة. وأعادوا فتح طرق التجارة فى اتجاه **البحر الأحمر**. واستغلوا ثروات واحات الصحراء الغربية: وقام **مونتو حوتپ** الثانى بضم **الواحات الخارجة**.

(*) مجموع الملوك الملقبين مونتو حوتپ. (المترجم)

حول عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد استولى الوزير أمن إم حات على السلطة ليؤسس الأسرة الثانية عشرة، أسرة آل أمن إم حات وآل سنوسرت. وقد أبقى أمن إم حات الأول عاصمة البلاد في طيبة أما خلفاؤه فقد وقع اختيارهم حتى عام ١٧٨٥ قبل الميلاد تقريباً، على مدينة اللشت في الفيوم ليتخذوا منها مقرهم الرسمي، لا سيما وأن هذه المدينة كانت لا تبعد كثيراً على نقطة إلتقاء المنطقتين الطبيعيتين اللتين تكونان المملكة. وشهدت مصر خلال هذين القرنين تجديد الحياة السياسية والحياة الدينية.

لقد ترك ملوك مصر منذ الآن تأثيراً مختلفاً في النفوس. ويكفي أن يقارن المرء الوجوه الملساء المزهوة بنظراتها التي تطل علينا من علوٍ لتماثيل خعفرع(*) ومنكاورع(**) على سبيل المثال بتماثيل ملوك الأسرة الثانية عشرة التي تشهد على الهموم التي تشغل بالهم وهو ما تعبرّ عنه ملامح الوجه بفمه ذي الصامغين(***) الساقطين والجبين أسفل العينين والتجاعيد الغائرة عند جانبي الأنف والوجنتين الهزيلتين. هكذا ندرك أن تغييراً قد حدث للأيديولوچية الملكية. إن الحاكم المطلق الفائق السلطة والسلطان كما عرفته العصور السابقة قد ظهرت عليه مسحة من الإنسانية. إن درس الأحداث كان قاسياً. وقد سبق أن قدّم خيتي الثالث في *التعاليم* التي أشرنا إليها من قبل، قدّم النصح لابنه مري كارع وهي عبارة عن إرشادات جديدة أحياناً تدور حول تدبير شئون الدولة وسلوك المرء في تعامله مع الآخرين:

«أقم العدالة طوال مدة حياتك على الأرض. طمئن من يبكي. لا تَطْغ على الأرملة. لا تطرد إنساناً من ممتلكات أبيه. لا تتسبب في الإضرار بالعظماء في

(*) يتوسط هذا التمثال الرائع الجمال القاعة ٤٢ من الطابق الأرضي من المتحف المصري بالقاهرة. (المترجم)

(**) تماثيل «منكاورع» موجودة في البهو ٤٧ من الطابق الأرضي من المتحف المصري بالقاهرة.(المترجم)

(***) الصامغان: جانبا الفم في ملتقى الشفتين مما يلي الشّدقين. المعجم الوسيط. (المترجم)

وظائفـهم. تجنب أن توقـع عـقـوبة بالبـاطل. لا تقض على من لا يفـيـدك فى شىء. إذا عاقبت امرأً فلتكن عقوبته الضـرب بالعصـا أو السجن. هكذا يسود الاسـتقرار أرجاء البلاد. أمـا المتـمـرّد فـسـوف تـنكشف مـآربه لأن الله يعـرف الإنسـان صـاحب القلب الخسيس وينزل الله عقوبة الدم بالأفعال السيئة... لا تفضل ابن إنسان ثرى على ابن فقير. قرّب إليك الإنسـان حسب أفعاله لأن كل مهنة يقوم بها (صاحبها) هى من أجل رب القوة (أى الملك)... كن وديعًـا مع من لا يمتلك شـعيرًا يمكنه أن يعطيك إياه، لأن البشر ضعفاء أمامك. كن راضيًا بما فى حوزتك من خبز وجعة... **انظر، لابد أن يكون الملك رب السعادة.** إذا كنت عادلاً يمكنك أن تنام بفضل قوتك. عندئذ اعمل بما تمليه عليك رغبتك وفقًا لما فعلتَه. هكذا لن يتواجد قط أعداء داخل حدودك.

من ينتسب إلى الضـفـتين (أى الملك) يمتلك المعرفة. إن ملكًا وهو سيد رجال البـلاط لا يمكنه أن يكون جـاهلاً. لقـد كـان حكيـمًـا منذ أن خـرج من بطن أمـه، وقـد أصطفاه الله فى حضرة مليون من البشر، إن الُملك وظيفة جميلة وحسنة. إن شخصًا واحدًا هو الذى يجعل إنسانًا آخر فعّالاً. إن كل امرئٍ يتصرف على هدى من سبقه، سوف يحافظ على عمله من سيخلفه.

اعمل من أجل الله وبالمثل فسوف يعمل من أجلك...

لقـد أُنعم بالكثـير على البشـر فهم قطيع الله؛ فـقـد خلق الله السـمـاء والأرض حسب رغبـتهم، وطرد مخلوق الماء الشرير (التمـسـاح) وخلق نسـمـة الحياة من أجل أنوفهم. إنهم صُوَره المنبثقة من جسده. إنه يتألق فى السماء كما يرغبون ومن أجلهم خلق النبات والماشية والأسماك غذاءً لهم... وخلق النور وفقًا لرغبتهم، ويُبحر ليراهم. لقد شيّد معبده من حولهم وعندما ينتحبون فإنه يسمعهم. لقد خلق من أجلهم زعماءً منذ أن كـانوا فى البـيـضــة، إنهم قـادة أنيط بهم أن يكونوا سندًا لظهـر الرجل الضعيف(*)(٤٠)».

(*) حول هذا المعنى يدور المثل الشعبى: «إللى لُه ضَهر ما ينضربش على بطنه». والمراد بالضهر الرجل الحامى لغيره. أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية، مركز الأهرام، ١٩٨٦، ص٥٦.(المترجم)

أصبح الإنسان هدف الكون وغايته. و«الآلهة والملوك سند له ويحافظون على حياته. فالملوك هم الوسطاء الرحماء الذين لا غنى عنهم في هذا العالم الجديد.

وعلينا أن نقارن أيضًا تأليه الملوك على نطاق واسع كما ورد وصفه في متون *الأهرام*[٤١] بهذه الكلمات القانطة التي تفوه بها أمنمحات الأول في حديثه إلى ابنه سنوسرت الأول وقد وصلت إلينا من خلال نص آخر من *التعاليم*:

*أنت الذي ظهرت بجلال كإله، انصت لما سأقوله لك، حتى تصبح ملك البلاد، وتدبر شئون **الضفتين** وتحقق الخير بوفرة كبيرة. احترس من مرؤوسيك حتى لا تتعرض لحدث لم يخطر على بال أحد. لا تقترب منهم ولا تبق بمفردك. لا تثق في أخ. لا تصادق الآخرين. ولا تنشئ علاقات حميمة. فلا فائدة ترجى من ذلك – إذا خلدت إلى النوم، فليتولَ قلبك ذاته حراستك. فالمرء لا يجد أصدقاء يوم الشدة[*]. لقد أعطيت المحروم. لقد نشّأت اليتيم. لقد سعيت ليرتقي مَن كان لا يملك شيئًا بنفس مستوى مَن كان يملك. ولكن مَن كان يأكل من طعامي هو الذي كان يلومني ومَن مددت له يديّ هو الذي كان يثير الرعب. ومَن كان يرتدي أرق أنواع كتاني هو الذي كان ينظر إليّ، مثلما كان يفعل من كان محرومًا منه، ومن كانوا يتضمخون بطيب المرّ الخاص بي، كانوا يبصقون على موقفي العطوف[٤٢].*

على العاهل الملكي أن يصبح من الآن حامي الشعب الذي يتولى مسئوليته، وأن يتجنب تخويل سلطاته إلى بعض المقربين من ذوي البأس، كما لابد أن يكون الملك إنسانًا فاضلاً، فليتزم بالعدل والتجرّد والرأفة عند معالجة الأمور. إنه يحكم البلاد مع ماعت– إلهة الحقيقة والعدالة– إنهما صفتان متكاملتان تحملان اسمًا واحدًا. إنها تؤمّن نظام وتوازن المملكة والكون، كما أنها المرشد الهادي للعاهل الملكي.

وينشد الناس ترانيم الشكران والعرفان بالجميل من أجل الملك الجديد الذي

(*) ويقترب عدد من الأمثلة الشعبية من هذا المعنى: «طول ما أنت طيب تكثر أصحابك» و«إصباح الخير يا جاري إنت في دارك وأنا في داري»...إلخ. (المترجم)

يسهر على استتباب السلام فى ربوع البلاد وازدهارها. إنه نوع أدبى بدأ يظهر فى هذا الزمان، كما سيدوم أيضاً ويستمر:

تحية لك يا خع كاو رع[٤٣]، أيا حورس صاحب الأشكال الإلهية،

الذى يحمى البلاد ويوسّع حدودها،

الذى يصدّ البلدان القصية بفضل تاجه العظيم،

الذى يحتضن الأرضين ويعانقهما بساعديه،

الذى يُخضع البلدان الأجنبية بقوة يديه،

الذى يُهلك الجماعات الهمجية دون أن يحتاج إلى ضربهم بالعصا،

الذى فى وسعه أن يرمى السهام دون أن يشد وتر (القوس).

إن الرعب الذى يثيره فى النفوس ولا شىء سواه، هو الذى ضرب النوبيين فى أراضيهم.

إن الخوف منه ولا شىء سواه، هو الذى قتل الأسيويين.

إن المذبحة التى أقدم عليها سببت آلاف القتلى فى الجماعات الهمجية التى هاجمت حدوده.

إنه يشدّ القوس مثل سخمت[٤٤] ويُجهز على آلاف البشر من بين أولئك الذين لم يعرفوا بعد قوته.

إن لسان صاحب الجلالة يقمع النوبيين وخطبه تجعل الأسيويين يلوذون بالفرار.

إنه الإنسان الشاب، الأوحد والإلهى، الذى يحارب دفاعًا عن حدوده، الذى لا يسمح لشعبه أن يصيبه الإرهاق، الذى يتيح للناس أن يناموا حتى مطلع النهار. وفى وسع مجنديه أن يخلدوا إلى النوم؛ لأن قلبه يوفر الحماية.

لقد رسّمت المراسيم حدود بلاده وجمعت كلماته شمل الضفتين[٤٥].

وعند حـدود الواقع والأسـطورة، يوحي النص أن الوجـود الملكى وحـده، وهو وجود «إلهى»، يطرد العـدو. إنه سـلاح رهيب لكل من يؤمن بفـاعليـة الكلمـة كوسـيلة مساعدة ومعاونة فائقة القدرة فى خدمـة الفراعنة الفاتحين(٤٦). وكمقدمة لكبرى ملاحم التوسع الإمبراطورى، ظهرت منذ ذلك العصـر بعض الملامح القتالية، واستمر الخوف من الغزاة الأجانب.

ومن ثم فقد أصبح الشغل الشاغل لملوك مصر هو حماية أنفسهم، من أى غزو جديد. فأمر أمن إم حات الأول ببناء سلسلة من القلاع فى الشمال الشرقى، تمتد من بلوزيوم(*) Pelusium وحتى هليوبوليس، وأطلق عليها اسم إنبو(**) حقا أى «*أسوار الأمير*». وكانت نظامًا دفاعيًا ناجعًا على ما يبدو. وفى هذه القلاع كانت تقيم حاميات عسكرية بصفة دائمة. لم تكن تضطلع بمهام وقائية فقط، بل كان مطلوب منها أيضًا الإبلاغ عن كل جديد. ومن هنا نشـأت فكرة أنه من الضـرورى بل من المحتم بعد الآن، إقامة سور دفاعى على جانبى مصر ولا سيما حول الدلتا، يتكون من بلدان خاضعة للهيمنة المصرية. وعمًا قريب سوف تتحول طرق التجارة الخارجية إلى دروب تسلكها جيوش مصر الفاتحة. إن اهتمام مصر بحماية أراضيها سوف يترتب عليه تأسيس الإمبراطورية بعيدًا عن أى نزعة إمبريالية. لقد نشـأت الأيديولوچية الإمبراطورية فى بادئ الأمـر تلبيـة لحاجـة مصـر إلى الدفـاع عن أرض الوطن. وسـوف تقـدم كنعـان وموانئ فـينيـقيـا الجزية لمصر(٤٧). بل إن سنوسـرت الثـالث سـوف يصل فى إحـدى حملاته العسكرية إلى مدينة سيشم – نابلس حاليًا.

وفى اتجاه الجنوب استعاد ملوك الأسرة الثانية عشرة سيطرتهم على الأراضـى الإفريقيـة القـائمـة فـيمـا وراء الجندل الأول وكـان ينظر إليـهـا على الدوام باعـتبـارهـا امتدادًا طبيعيًا لمملكة مصر. وقد ثبّتوا هذه السيطرة بل توسعوا فيها، حتى وصلت إلى الجندل الثالث، شمـال السـودان. وإلى الجنوب منه يبدو أن مركـز مـدينة كرمـة

(*) تل الفرما حاليًا وتقع فى أقصى شمال سيناء وغربها. (المترجم)

(**) كلمة إنب تعنى جدار أو سور والواو علامة الجمع. (المترجم)

التجارى كان أقصى نقطة وصل إليها زحف هؤلاء الملوك الذين ظلوا يهتمّون على الدوام بتوفير أماكن إقامة القوات العسكرية وتنظيم إستغلال هذه المناطق ومراقبتها. إن سنوسرت الأول الذى قاد ثلاث حملات على رأس جيشه بدأ مهمة ضخمة تمخضت عن تشييد قلاع قائمة على ضفتي النيل، الهدف منها وقف كل محاولة تمرد يقدم عليها السودانيون من أبناء كوش(*) التى تمتد حدودها من الجندل الثانى وحتى الجندل الرابع. كانت المسافة التى تفصل كل قلعة عن الأخرى تصل إلى سبعين كيلومتراً تقريبًا، فتتصل فيما بينها بواسطة إشارات الدخان. كانت الحاميات العسكرية تتكون من أفراد تم تجنيدهم لفترة عام إلى جانب القوات الدائمة. كان المركز الاستراتيجى يقع عند الجندل الثانى الذى يعتبر عائقًا طبيعيًا. وفى هذا المكان شيدت مدينة جديدة وراء أسوار القلعة، هى مدينة بوهن التى كانت تحرسها أيضًا على مسافة سبعين كيلومتراً جنوبيًا، قلعتان فى منطقة يضيق فيها الوادى فارتفعت قلعة سمنة على الضفة الغربية وقلعة قمّة على الضفة الشرقية. والقلعتان متقابلتان تقريبًا، وكانتا أبعد القلاع جهة الجنوب. وإلى الشمال من بوهن كانت تمتد سلسلة من المدن هى أورونارتى ومرقسة ودبنارتى وعنيبة العاصمة القديمة للنوبة، وكانت كلها بمثابة نقاط حراسة على مشارف مصر(٤٨). إن هذا التواجد المصرى الدائم بفضل ما يفرضه من رقابة سوف يسهل أيضًا وسائل النقل التجارى عبر نهر النيل.

وأنشئ أول جهاز لإدارة هذه المناطق الجنوبية لتواجد السلطة المصرية تواجداً راسخًا لتدبير شئون هذه المناطق. وقام سنوسرت الأول بتعيين سارنپوت أمير أسوان حاكمًا على النوبة. وفى كرمة أناب حاپى چفاى أمير أسيوط وفوضه سلطاته.

وانتهت عملية إحلال السلام فى عهد سنوسرت الثالث الذى سيُعبد فى النوبة بصفته إلهًا، اعتباراً من الأسرة الثامنة عشرة. وحتى يصبح مرور السفن أكثر سهولة ويسراً أمر فى السنوات الأولى من حكمه بحفر قناة صالحة للملاحة عبر صخور

(*) أو النوبة العليا. أما النوبة السفلى فتمتد من الجندل الأول إلى الجندل الثانى أو واوات باللغة المصرية القديمة. أما مصطلح أثيوبيا فهو الاسم الذى أطلقه الأغريق القدماء على منطقة النوبة. (المترجم)

الجندل الأول. وتحتفظ مدونة صخرية فى جزيرة سهيل باسم هذا العمل الضخم: «*جميلة هى دروب خع كاو رع*». فكل إنجاز فى مصر سواء كان مبنيًا أم تشكيليًا يحمل اسمًا. إن كل شكل، سواء ابدعته يد إلهية أو آدمية، ينطوى بالفعل على عنصر حياة أو تأثير فاعل يجسّده الاسم. كان طول القناة ٧٨مترًا و١١٠أمتار عرضًا و٧,٨٠أمتارٍ عمقًا. وتم تقوية تحصينات الجندل الأول. ومنذ نهاية الحملة العسكرية الأولى التى قادها سنوسرت الثالث أقام لوحة حدودية عند بلدة سمنة أوضح فيها: «*لا يحق لأى زنجى أن يعبر عن طريق النهر أو البر*»... إلا بتصريح مستوفٍ لكل التعليمات بطبيعة الحال.

كان تواجدًا عسكريًا ولكن أيضًا أيديولوچيًا ودينيًا، وهو ما سيحدث على الدوام ولا سيما فى زمن الإمبراطورية: إن تحالف الآلهة هو خير ضمان للوحدة السياسية بفضل توافق وعى البشر ووجدانهم. فتبجّل الآلهة المصرية فى النوبة، بينما اندمج الإله النوبى ديدون فى الصقر حورس وتوحّد معه. إن العلاقة القائمة بين هذين الإلهين قديمة على كل حال، قدم ضم أراضى الجنوب إلى مصر: فنجد أن ديدون قد انضم إلى مجمع الآلهة المصرية منذ متون *الأهرام*. وناحية الغرب كانت الواحات البحرية فى الصحراء الغربية تابعة إداريًا للوادى. وبالفعل فقد كانت الواحات البحرية ملتقى عدة دروب فيأتى بعضها من السودان فى حين تتجه الأخرى إلى مصر الوسطى. ومن ثم كانت نقطة استراتيچية، فقد تسمح لأبناء السودان المفطورين على التمرد أن يتصلوا بسهولة ويسر مع مثيرى الشعب المحتملين فى مصر ذاتها، وأن يهاجموا الجيش الملكى من الخلف. ويظهر الدليل الدامغ على هذا الخطر قرب نهاية الأسرة السابعة عشرة[٤٩]. وصارت عملية استثمار واحات الصحراء الغربية على قدم وساق: فزرعت فيها أشجار الكروم التى وفرت بسرعة محصولاً ذاعت شهرته. واهتمَ أبناء الواحة بتربية الحمير.

وبفضل ما أوتى ملوك مصر من فطنة وذكاء بدا أن مصر محمية حماية منيعة على جميع حدودها بفضل «كوكبة» من الدول التابعة.

أمـا في داخل البـلاد فكان لابد من إصـلاح مـا أفـسـدته عـشـرة عـقـود من الفـوضـى، والعـمل من الآن على تجنب المشـاكل التى قـادت إليـهـا. وظل الوزير الذى يعينه الملك محتفظًا بوظائفه نفسها. ومع ذلك، لم يعد معاونوه مجرد رؤساء بعثات يتولى هو شخصيًا إيفادهم. وإنما أصبحوا «عظماء الجنوب الثلاثين»، وكان فى وسع العاهل الملكى أن يكلفهم بمهام سياسية لكونهم محل ثقته. أما حكّام الأقاليم بما عُرف عنهم من رغبة فى الاستقلال فكانوا إذن إلى حدّ كبير وراء الفوضى التى عمت البلاد، ولذلك فقد اقدمت السلطة المركزية على إحكام السيطرة عليهم. ومن جديد خضع الأمراء المحليين للملك ليصبحوا موظفين ملكيين. ومنحت لهم امتيازات شخصية لا تشكل خطرًا: فكان من حقهم على سبيل المثال أن يقدموا تقريرًا سنويًا عن نشاطهم وفقًا للأسلوب الملكى. ولكن الملك كان يراقب عن كثب وراثة الوظائف، ليتفادى ظهورها من جديد. فعند وفاة حاكم الإقليم كانت السلطة المركزية تقوم بتعيين من يخلفه بل وقد تعدل مساحة وطبيعة المنطقة التى يشرف على شئونها. ولكن يبدو مع ذلك أن بعضهم قد ظل يشكل خطرًا كامنًا. فمن الواضح أن منصب حاكم الإقليم قد ألغى فى بعض الأماكن، ليختفى كلية فى عهد سنوسرت الثالث. فبينما كان للجبانات الإقليمية أهميتها فى مطلع الأسرة ونذكر بالتحديد جبانات بنى حسن والبرمشا ومير فى مصر الوسطى، نلاحظ أنها قد هجرت بعد عهد سنوسرت الثالث ولم تعد مستخدمة. فقد اختفت تمامًا مقابر حكام الأقاليم من وادى النيل. وهكذا تحولت نَبالة الأقاليم إلى نَبالة البلاط الملكى الذى أصبح المركز الإدارى للبلاد من أقصاها إلى أدناها.

وظهر مجتمعًا يتميز بتراتبية هرمية أكثر وضوحًا؛ فيضم فئة حاكمة تشمل الموفدين المباشرين للملك وهم رؤساء الجهاز الإدارى والجيش والكهنة: والجمع بين مختلف الصلاحيات كان من الأمور الشائعة. كانت هذه «الكوادر العليا» تحصل على مرتبات كبيرة وهدايا ملكية التى يعتقد أنهم حصلوا عليها «كإنعام من الملك» أو أنصبة تم اقتطاعها من موارد المعابد على سبيل المثال. ومنذ الآن تكونت طبقة وسطى تضم الكتبة والكهنة والحرفيين، كانت مرتبطة بالفئة السابقة وتعمل فى خدمتها، ويقع على عاتقها أداء كل ما يتعلق بالحياة السياسية والدينية، كما تحيا فى بحبوحة من العيش،

أما الفلاحون فكانوا يخضعون إما لنظام العمل بالسخرة(*) فى خدمة أحد المعابد أو الأملاك الملكية أو الخاصة أو كانوا أحرارًا فى حيازتهم قطعة أرض. هكذا أخذ المجتمع يشجع الإنتقال التدريجى إلى المِلكية (بكسر الميم). (*راجع قصة الفلاح الفصيح*).

لقد استعادت المملكة السلام الداخلى. كما ركّز الملوك نشاطهم على ازدهار البلاد. وبالفعل، فمن أهم منجزات ملوك الأسرة الثانية عشرة أنهم عرفوا كيف يستثمرون أراضى **الفيوم**[٥٠]، هذه الواحة الشاسعة القائمة إلى الجنوب الغربى من مدينة منف، بعد أن أسسوا عاصمتهم عند مدخلها فى مدينة **اللشت**. واستحدث الملوك شبكة من القنوات لتنظيم توزيع المياه فأوجدوا بالتالى سهلاً خصبًا مترامى الأطراف. كان هويس شُيِّد فى **اللاهون** عند مدخل المضيق الذى استخدمه **بحر يوسف** للوصول إلى الواحة، يساعد على تنظيم وصول مياه النهر، فى حين شُيد خزان ضخم لحماية الوادى من المخاطر التى قد يشكلها تراكم المياه فى موسم الفيضان. بدأ **سنوسرت** الثانى أعمال هذا المشروع بعد أن أقام عاصمته فى **اللاهون** تحديداً ليتابع عن كثب تنفيذه.

آمون وتأسيس الكرنك

تأثرت الأيديولوچية الدينية بالنتائج التى ترتبت على الأحداث السياسية. فعند تولى أمراء **طيبة** مقاليد الحكم أخذ **آمون** الذى ظل حتى الآن إلهًا خامل الذكر يتحول إلى إله رسمى فشرع مقره المقدس فى **الكرنك** يسير فى مدارج الشهرة والنفوذ. لم يكن **الكرنك** القائم على الضفة اليمنى من نهر **النيل** موقعًا مجهولاً. فإلى الشمال كان الإله **مونتو** يعبد منذ أقدم الأسرات. ولكن ماذا عن الإله **آمون**؟ أكان إله المراكبية؟ إن أصوله ودلالته الأولى غير معروفة على وجه اليقين.

(*) لطول هامش المترجم عن «السخرة» ولأسباب فنية تم نقل هذا الهامش إلى آخر المقدمة، فيمكن الرجوع إليه. (المترجم)

ومن غير المستبعد أنه كان معروفًا منذ أقدم العصور. ويمكن الإستشهاد ببعض النصوص النادرة التي تدور حول هذا الموضوع. فنجد من جهة أن قائمة الملوك التي نقشت في «*حجرة الأجداد*(*)» التي أقامها **تحوتمس الثالث** في إطار معبد الـ «أخ منو»(٥١) الذي شيده شرق معبد **الكرنك** الكبير، تذكر أسماء بعض الملوك: وثاني هذه الأسماء هو **سنفرو**، أول ملوك الأسرة الرابعة، لأن الاسم السابق وجد مهمشًا. ولن نجافي الحقيقة إذا افترضنا أنه كان من ملوك الأسرة الثالثة. وإذا كانت هذه القائمة التي لم تذكر سوى أسماء بعض الملوك قد نقشت في **الكرنك**، فربما كان القصد منها إعداد حصر بالملوك الذين أحاطوا **أمون** في مكانه المقدس بكل مظاهر التبجيل والتوقير(٥٢). ومن ثم فمن حقنا أن نذهب إلى القول بأن أولى الشعائر المحلية قد أقيمت في **الكرنك** لعبادة هذا الإله منذ الأسرة الثالثة. ومن جهة أخرى، يبدو أن بعض الفقرات الواردة في *متون الأهرام* تذكر اسم **أمون**. وهذه النصوص المترابطة، هي فيما نعلم، الأقدم في الوقت الراهن. فقد قيل للملك في الفقرة ١٥٤٠(**): «*أيا ببي، يا ابن جب، لقد جئت في الحقيقة على عرش آمون*». ومن ثم فربما كان ينظر

(*) حجرة الأجداد: احتدم الصراع بين متحف **برلين** وممثله في مصر عالم المصريات «**ريتشارد ليبسيوس**» (١٨١٠-١٨٨٤) Richard Lepsius وعالم المصريات الفرنسي «**بريس دافين**» (١٨٠٧-١٨٧٩) Prisse d'Avennes على من يسبق الآخر في سرقة حجرة الأجداد. ونجح هذا الأخير رغم الحظر الذي كانت تفرضه السلطات المصرية - في سرقة الحجرة في مايو ١٨٤٣. فخلال ثمانية عشر يومًا انتُزعت الحجرة من جدران **الكرنك** وارتفاعها ٣٦٠سم وعرضها ٢٤٧سم وعمقها ٢٦٥سم. وتم نشر الكتل الحجرية ثم وضعت في صناديق. ولم يتمكن «**بريس دافين**» من شحنها إلى **فرنسا** قبل مايو ١٨٤٤. كما لم تستقر في مكانها الحالي بمتحف **اللوفر** إلا في عام ١٩٢٢ حيث يمكن مشاهدتها في الوقت الراهن.

G. Andreu et alii: L'Egypte ancienne au Louvre, Hachette, 1998, pp.114-115.

وما يمكن مشاهدته الآن في معبد **الكرنك** ليس سوى مستنسخ جصي أعدّ إعدادًا رديئًا.(المترجم)

(**) وهي إحدى فقرات المقطع ٥٧٩. (المترجم)

إلى آمون منذ ذلك الوقت المبكر بصفته إلهًا ملكيًا، ولكن إذا اتفقنا أن متون *الأهرام*(*) تقدم لنا فكرًا دينيًا ظل يتطور قبل ذلك طوال قرون مديدة حتى وصل إلى هذه الصيغة الكاملة الأولى، فإن هذه الملاحظة تتيح أن نرخي لخيالنا العنان. ومن هذه المتون ذاتها ننقل نصًا آخر وإن كان تأويله محل خلاف على نطاق واسع. فقد وردت فى الفقرة ٤٤٦(**) إشارة إلى *«نون ونونت، وآمون وأمونت التى تحمى الآلهة بواسطة ظلها»*. ويعزز هذا النص إلى حدٍ ما الفرضية القائلة[٥٣] بأن آمون كان على ما يعتقد إلهًا ينحدر أصلاً من هرموبوليس(***) Hermopolis. وبالفعل كان كهنة هذه المدينة قد صاغوا قصة لاهوتية للخلق مفادها أن ثمانية آلهة يشكلون أربعة أزواج خرجت فوق تلّ من المحيط الأزلى، وذهبوا إلى أن الآلهة قد خلقت بيضة انبثقت منها الشمس فى أول يوم من أيام العالم. كانت هذه الأزواج الأربعة تضم عنصرًا ذكرًا وعنصرًا أنثويًا هو زوج العنصر السابق. وقد أطلق عليها الأسماء الآتية: نون ونونت – الخواء السائل – وححو وححوت – الأبدية الزمنية وأول مقياس للكون الآتى – وكيكو وكيكوت – الظلمات المهيمنه على العالم قبل خلقه – وآمون وأمونت – القوة الإلهية المتوارية فى أعماق المياه. وتكمن صعوبة التأويل فى أن الجذر *إمن*(****) يعنى *«الخفى»*. وبالتالى ربما لم يكن المقصود به هنا الإله آمون إنما المبدأ الإلهى الذى مازال كامنًا متواريًا فى المياه. زد على ذلك أن هذه التصنيفات اللاهوتية قد وصلتنا من خلال نصوص تعود إلى العصر المتأخر. ومن ثم فمن المشكوك فيه أن يكون آمون هو المقصود به فى هذه الحالة بعينها.

أكان آمون منذ الأسرة الثالثة إلهًا محليا فوق أرض الكرنك؟ إن أقدم أثر مؤكد

(*) ظهرت هذه النصوص الجنائزية لأول مرة داخل هرم أوناس (٢٣٨٠–٢٣٥٠ق.م) آخر ملوك الأسرة الخامسة. (المترجم)

(**) وهى إحدى فقرات المقطع ٣٠١. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى لمدينة «خمنو» المصرية القديمة والأشمونيين حاليًا. (المترجم)

(****) النطق المصرى القديم له آمون، وما زلنا نحتفظ بهذه الصيغة القديمة فى أسماء بعض الملوك مثل «أمن حوتب» أى «آمون راضٍ». (المترجم)

عن إقامة معبد كُرّس له في هذه الأماكن جاء من نص منقوش على لوحة سابقة على عهد **أنتف الثاني**، جادت بها منطقة **القرنة** في البر الغربي لمدينة **طيبة**. ويشير هذا النص إلى «معبد (للإله) أمون»، دون أي توضيح(٥٤). إن النواة الأولى لمعبد **الكرنك** الكبير وقد أصابها تدمير بالغ تعود إلى عهد **سنوسرت الأول**. وكانت مشيدة بالكامل من الحجر الجيري، استخدمت بعد ذلك كتلها لتغذية أفران الجير، مع مطلع القرن الخامس الميلادي. وأبقى الدهر على عتبات أبواب من الجرانيت. الأمر الذي يحملنا على تصور وجود ثلاث قاعات متعاقبة تفضي إلى قدس الأقداس. ويوحي العثور على أجزاء صغيرة من أساطين متعددة الأضلاع بوجود رواق ذي أساطين. ومنذ الآن فصاعداً سيحمل معبد آمون **بالكرنك** اسم **إيبت سوت** - أي *«المكان المختار»* ليحتفظ به على امتداد التاريخ.

لا شك أن **آمون** كان في الأصل إلهًا للسماء. فقد لونت بشرته في الغالب باللون الأزرق. وعندما يصور في هيئة آدمية، فإن غطاء رأسه المعتاد هو عبارة عن قاعدة تاج تعلوها قادمتا(*) صقر كبيرتان تعبيراً عن ارتباطه بالأسطورة **الحورية**(**) للآلهة السماوية. إنه إله الريح والنسيم. وسوف يظل محتفظًا بهذه الصفة المميزة لفترة طويلة. وفي عهد **رعمسيس الثالث** بعد انقضاء ما يقرب من ألف سنة كان لا يزال النسمة التي تدعّم قرص الشمس: *«فيُرفع القرص بفضل نسمته»*. إنه الريح المواتية من أجل الجميع: وفي صلاة إلى إله **طيبة** من عصر **رعمسيس الثالث** أيضًا ورد فيها: *«إن أعضاءك هي النسمات من أجل كل أنف(٥٥)»*.

ولأسباب مختلفة انضمت إلى هذا الإله الأول شخصيات إلهية أخرى وعلى رأسها **الإله رع**. ويبدو أن اندماج **آمون-رع** قد حدث منذ الأسرة السادسة. إن تمثالاً صغيراً فقد رأسه ويحتفظ بخرطوش **ببي الأول** وكان ضمن مجموعة **شستر Chester**، ويصور الملك راكعًا، كان يضم دعامة ظهر رأسية نقش عليها سطر رأسي من العلامات الهيروغليفية: *«ملك مصر العليا ومصر السفلى: مري رع. ابن رع: ببي،*

(*) القادمة هي إحدى الريشات في مقدّم الجناح. المعجم العربي الأساسي. (المترجم)

(**) نسبة إلى الإله حورس. (المترجم)

محبوب *أمون–رع*، رب *طيبة*[٥٦]». وقبل وقت قصير وبينما كان فرانسوا دوما François Daumas يقوم بأعمال الحفر والتنقيب فى معبد دندرة عثر على تماثيل شعائرية قديمة، مقدمة من بيبى الأول ذاته إلى آلهة مصر العليا. ومن بينها كان تمثال صغير مكرساً للإله أمون–رع القائم فى طيبة[٥٧]. إن الشعائر المقامة من أجل هذا الإله المركّب الذى ستتعاظم إلى حدّ كبير هالة التمجيد التى تحيط به، قد شهدت طفرة ملحوظة فى عهد ملوك الأسرة الثانية عشرة بدءاً من أمنمحات(*). بل إن اسمه ذاته هو عبارة عن تمجيد لإله الكرنك، فمعناه «*أمون هو الأول (أو فى المقدمة)*». ومن المؤكد أن أمراء المدينة أرادوا أن يُظلِّهم الإله المحلى ويعيشوا فى كنفه وحمايته، وهو ما فعله نعرمر[٥٨] فى الأزمنة الماضية، وإن سعوا فى الوقت ذاته إلى التراضى مع كهنة الإله رع الأقوياء فى هليوبوليس. ومن هنا نشأ تركيب الإله أمون–رع الذى أسند إلى إلههم المفضل مظهراً شمسياً وكونياً، كان لابد أن يستهويهم ويعزز فى الوقت نفسه رُؤاهم السياسية. وفى الواقع كان يُقصد بذلك، فى هذا الزمن، التوصل إلى حل وسط بين إلهين. كان رع إلهاً مستقراً، فى حين كان يُرجى إعلاء شأن أمون. وكان تحقيق هذا الهدف مؤكداً، إذا أخذنا بعين الاعتبار أن سنوسرت الأول – ابن أمنمحات الأول عندما أراد فى العام الثالث من حكمه أن يكسب ودّ كهنة هليوبوليس، دعى إلى اجتماع مجلس فى هذه المدينة ليعلن قراره بإقامة معبد الإله حور أختى – «*حورس الأفقين*»– وهو من أسماء الصقر الشمسى. وتقول المدونة التكريسية:

«*لقد أتى بى حور أختى إلى الدنيا لأنفّذ ما ينبغى عمله من أجله وتحقيق ما أمر بعمله. لقد هيّأنى لأكون الراعى*[٥٩] *الصالح فى هذه البلاد، لأنه يعرف من فى وسعه أن يحافظ على النظام. ولذا، فقد منحنى ما يشكل بغية إهتمامه الدائم: ما تنيره عينه*[٦٠]*، هو الذى صنع كل شىء وفقًا لمشيئته. لقد اختارنى لأصبح سيد الأرضين، بينما كنت لا أزال طفلاً أغلَف، لم يُختن*[٦١]».

إن إلهاً فى مصر، وكائناً من كان، لا يقصى غيره من الآلهة، ولا يحل محلها، بل تجمعها شراكة حميمة وصولاً إلى فاعلية أكبر. وهكذا أصبح أمون–رع الإله الكبير

(*) أو «أمن إم حات» إذا فضلنا الترجمة الحرفية للعلامات المصرية القديمة. (المترجم)

السـيـد العليّ للملكة. ومع ذلك فـإن ترتيب الاسـمين يعطى الأولوية لإله الكرنك. إن التركيب الذهنى يصاحبه تركيب تشكيلى تشهد عليه الصور المنحوته على واجهات الأعمدة المربعة التى تحيط بالمقصورة المخصصة لاستراحة المركب المقدس. ويطلق عليها اصطلاحًا «*المقصورة البيضاء*» بسبب بياض الحجر الجيرى الناصع، والتى شيدها سنوسرت الأول فى الكرنك. وبفضل همة المهندس المعمارى الفرنسى هنرى شيڤرييه Henri Chevrier أعيد تركيبها(*)؛ حيث إن الكتل التى كانت تتكون منها استخدمت فى أساسات الصرح الثالث من قبل أمنحوتپ الثالث فى زمن الأسرة الثامنة عشرة. إن قرص الشمس بدائرته الكاملة قائم فوق قاعدة تاج الإله وعند منبت جناحى طائر كبيرين.

إن الدليل على هذه السيادة التى تم إقرارها منذ عهد قريب تبرهن عليها أيضًا الصفة الجديدة التى ينعت بها آمون-رع: فيطلق عليها على أعمدة هذه المقصورة ذاتها لقب «نسوت نثرو» أى «*ملك الآلهة*». وقد صحّف الإغريق هذا اللقب إلى آمون راسونتير(**) Amonrasonther. ومن ثم تم الإقرار بسيادته على مجمع الآلهة المصرية. إن سيادة مُلكه السماوى والشمسى يسير جنبًا إلى جنب مع سيادة مُلك فرعون الدنيوى..

كان الكبش أحد الحيوانات التى يتجسد فيها آمون رع فى الغالب على ما يظن، فقد كان حيوانًا قويًا كثير الإنجاب، فقوة إخصابه شريكة قوة الشمس، منذ أقدم الأزمنة. إن هذه العملية الروحية نفسها هى التى حملت المصريين إلى النظر إلى الشمس(***) باعتبارها ثورًا. إن الدلالة العميقة التى ترتبط بالآلهة تعود أصلاً فى بعض الأحوال إلى إيجاد علاقة بسيطة بين السمات الطبيعية لعناصر الكون التى تجمعها أوجه شبه ملحوظة. إن كبشًا شمسيًا آخر ببعده الكونى هو حريشف- أى

(*) وتوجد حاليًا فى المتحف المفتوح القائم شمال الفناء الأول من معبد الكرنك. (المترجم)

(**) يقابله الاسم المصرى القديم «آمون-رع نسوت نثرو». (المترجم)

(***) كلمة شمس اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

«*الذى فوق بحيرته*» وهى بحيرة مويريس Moeris. وكان حريشف يعبد فى الفيوم بمدينة هرقليوبوليس Hérakléopolis. وقد علا نجمه وصعد فى مدارج المجد إبان الأسرتين التاسعة والعاشرة.

إن شخصية إلهية أخرى قد اندمجت فى شخصية أمون. ففى مدينة كوبتوس Coptos إلى الشمال قليلاً من مدينة طيبة كان يُعبد الإله مين، وهو بعضو ذكر منتصب، ويرتدى رداءً محبوكًا(٦٢) ويرفع يده التى تحمل السوط كما يضع على رأسه قاعدة تاج تعلوها قامتا صقر. إنه «*رب البنات*» و«*الذى يخطف النساء*». وعلى التماثيل البدائية لهذا الإله - والتى عثر عليها فى هذا الموقع صورت القواقع والأفيال والجبال وكلها مواضيع لا تنم عن طابع مصرى. ولكن كوبتوس تقع عند مصب درب وادى الحمامات الذى يصل النيل بالبحر الأحمر عند مينائى القصير ووادى جاسوس. وربما كان مين فى الأصل إله شطآن البحر الأحمر والصحارى. إنه «*سيد البلدان الأجنبية*» و«رب *اللازورد*» الذى تجلبه القوافل من بلاد أفغانستان القصية. ومن المخصصات(*) الإلهية الدالة على اسمه كما وردت فى متون *الأهرام* فى الفقرة ١٩٢٨(**) المخصص المألوف للصقر القائم فوق محطّه ولكن رأس الطائر عُصِّبت بعصابة يتدلى طرفيها خلف الرأس وتشبه العصابة التى تربط شعر البدو فى الصحراء. اندمج أمون فى هذا الإله المجاور، وهو إله كثير الإنجاب وسيد البلدان الواقعة خارج مصر. وأصبح أمون- مين ذو العضو الذكر المنتصب، إله معبد الأقصر الواقع على بعد ٢٥٠٠متر إلى الجنوب من معبد الكرنك. كما تظهر صورته على أعمدة المقصورة البيضاء التى تعتبر نقوشها مختصرًا يوجز بتصاويرها أهم عناصر مجمع الآلهة القائم آنذاك. فقد صوّر على هذا الأثر مختلف الآلهة والملك فى عناق، له بعده السحرى تأكيداً على الوحدة التى لا تنفصم للنظام الملكى المصرى والدين.

(*) المخصص déterminatif: علامة مفسرة ليس لها أى دلالة صوتية. ويضاف إلى الكلمة لتحديد مجال دلالتها. لمزيد من التفاصيل راجع: برناديت مونى. المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. الترجمة عن الفرنسية: ماهر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٩. ص ص٦-٧ وص ص٢٣-٢٩. (المترجم)

(**) وهى إحدى فقرات المقطع ٦٦٦. (المترجم)

إن مشاعر التقوى التى كان يكنها ملوك الأسرة الثانية عشرة نحو أمون ترتب عليها ظهور جماعة خاصة هامة من رجال الدين، لم تعزز وجودها وثيقة واحدة سابقة على هذا العهد، فتأسست هذه الجماعة منذ زمن أمنمحات الأول، وكانت تضم: أربعة خدَّام إلهيين للإله آمون سيصبح أولهم كبير كهنة الإله ومن أجله أمر سنوسرت الأول بتشييد منزل إلى الجنوب من البحيرة المقدسة. كما تضم أربعة آباء إلهيين وحوالى عشرة كهنة وعب أو «*الكهنة من أصحاب الأيدى الطاهرة*» الذين يؤدون مع صبيحة كل يوم الطقوس الدينية المصاحبة لاستفاقة الإله ونهوضه داخل ناووسه(٦٣). كانوا جميعهم شخصيات رفيعة الشأن: من الأمراء أو حاملى الأختام الملكية ورجال من الثقاة يتمتعون بمكانة مرموقة ومن الحاصلين أيضًا على الألقاب الشرفية. ولم ينقض سوى زمن قصير حتى بات هؤلاء الكهنة يلعبون دورًا بارزًا فى تاريخ مصر، بل وصل بهم الأمر إلى حد اغتصاب السلطة بعد مرور ألف سنة عندما أسسوا نظامًا ثيوقراطيًا(*) فى الحكم.

هكذا يكشف لنا آمون عن نفسه، بكافة أشكاله ووفقًا لمقوماته الإلهية، مع فجر الفتوحات الإمبراطورية كما كان أيضًا في حدود مملكة الوادى وفى زمنها. وإذا ظلت أصول إله **الكرنك** غامضة ومبهمة إلا أنه سيصبح بدءًا من الأسرة الثانية عشرة، الإله الذى يحاط بأكبر قدر من الإجلال والتمجيد مقارنة بسائر أرباب مجمع آلهة مصر.

أوزيريس فى أبيدوس

كما حظيت شخصية إلهية أخرى بقدر كبير من التكريم فى هذا العصر وظلت عبادته الشعبية واسعة الإنتشار حتى نهاية تاريخ مصر الفرعونى. فقد كان **أوزيريس** إله الآلام، فمات ليبعث حيًا من جديد ليعلّم البشر الطريق إلى الخلود. ولا شك أن أصول هذا الإله تعود إلى **الدلتا**، وكان الإله رع قد اضطر أن يتراضى معه فى إطار

(*) **الثيوقراطية**: نظام سياسى يستند إلى التفويض الإلهى، حيث يتولى السلطة رجال الدين أو علماء الدين. كما يجب على السلطة الدنيوية أن تخضع للسلطة الروحية. (المترجم)

تاسوع هليوبوليس(٦٤). استقر أوزيريس في أبيدوس(*) Abydos إلى الشمال من طيبة وأصبحت مدينته المكان الأثير لإقامة شعائر عبادته بعد أن حل فيها محل «*الإله– ابن آوى*» الذي ينطوي على مدلول جنائزي، وهو الإله خنتي–إيمنتيو أو «*الأول على أهل الغرب*». وأصبحت هذه العبارة صفة اقترنت بالإله أوزيريس القوي. إن زرع الإله القادم من شمال البلاد في أحد مواقع مصر العليا، ربما كان له أيضًا في ذلك العصر دلالته السياسية: ويبدو أن الأناتفة كان لهم عظيم الفضل في تحويل أبيدوس إلى مدينة أوزيريس المقدسة؛ فهي جبانة ملوك مصر الأوائل ولا تبعد كثيرًا عن ثني العاصمة الأولى لملكة مصر. وكان الملوك الجدد يعلنون انتسابهم إلى أمجاد الماضي ويتقربون من الأسرات الملكية الشرعية. وبسلوكهم هذا اعتمدوا على الحيوية الجديدة الكامنة في معتقد له شعبية لا نظير لها.

لقد أمر سنوسرت الأول أن يصور في معبده الجنائزي باللشت، في هيئة أوزيريس وهو يرتدي رداءً محبوكًا، وتتقاطع يداه على صدره وممسكًا الصولجان والسوط(**). كان التمثال الكبير المصنوع من الحجر الجيري يستند إلى أعمدة، إذ كان يستحيل على المصري القديم أن يتصور الشكل الآدمي باعتباره دعامة. فلم تعرف مصر تماثيل الصبايا الحاملة(***) caryatide أو تماثيل الذكور الحاملة(***) atlante. فلمّا كان في وسع كل شكل آدمي سواء كان نحتًا أو تصويرًا أن تعود إليه الحياة بوسائل سحرية، كان من الضروري ألا يعوق شيء رغبته في التحرك عند اللزوم في حرية تامة. إن الموضوع المعماري الذي نشأ في هذا الزمن ويصور التمثال الملكي في هيئة أوزيرية أمام عمود سيصبح موضوعًا دائمًا على مرّ الزمان.

ومن الآن سوف تشهد أبيدوس أعيادًا مهيبة تقام تكريمًا للإله. وإبان هذه الاحتفالات يتم محاكاة حياته وموته وقيامته، بعد أن عادت إليه الحياة، وكانت هذه

(*) الاسم اليوناني لمدينة أبجو المصرية القديمة ومنطقة العرابة المدفونة حاليًا قرب البلينا.(المترجم)

(**) المتحف المصري بالقاهرة. القاعة٢٢ من الطابق الأرضي. (المترجم)

(***) وهي تماثيل تقوم مقام الأعمدة لدى الإغريق. (المترجم)

الوقائع تعرض عرضاً تمثيلياً أمام الجماهير بواسطة الكهنة أو كبار الشخصيات وقد ارتدوا على ما يظن أقنعة تصور الوجوه الإلهية. لم تعرف مصر الفرعونية بالطبع المسارح بمدرجاتها(*). ولكن سواد الشعب المتجمهر على شطآن النيل كان يشاهد طلعة الإله على متن قاربه فتتعاقب أمامه المشاهد وتتتابع. وفى العام التاسع عشر من عهد سنوسرت الثالث أوفد حامل الأختام الملكى إيخر نوفرت إلى أبيدوس لإخراج مشاهد «*الأسرار*» الإلهية وتمثيلها. ومن الراجح أنه كان يمثل دور حورس. وقد وصلنا اللوح التذكارى الذى أقامه فى الموقع وهو من مقتنيات متحف برلين فى الوقت الراهن.

«لعبت دور «فاتح – الدروب» عندما يتقدم لينتقم لأبيه. وطردت الأعداء من القارب نشمت (قارب أوزيريس المقدس). *وبحرت المناوئين* (للإله) *أوزيريس، ثم لعبت دوراً كبيراً، وصاحبت خطى الإله وسمحت لقاربه بالإبحار، فى حين كان تحوت يوجه الملاحة توجيهاً سليماً.... وعملت على أن يتقدم* (أوزيريس) *داخل القارب العظيم وأن يحمل هذا الأخير جَماله. إنى أدخل السرور على قلب تلال الصحراء الغربية وأُوجد الغبطة والتهليل فى تلال الصحراء الشرقية* [كانت الجماهير تحتشد إذن عند حافة الأراضى المنزرعة] *عندما رأت بهاء القارب نشمت بينما كنت أرسو عند أبيدوس بالقارب الذى يعيد أوزيريس رب المدينة إلى قصره. وتبعت الإله إلى بيته وهيّأته للتطهر واللحاق بعرشه*(١٥)».

جذبت هذه الأعياد جمهوراً واسعًا من الحجاج. والذين تعذر عليهم أداء الحج إلى أبيدوس وهم على قيد الحياة، من المفترض أن يؤدوه بعد وفاتهم، فينتقلون على هذا النحو إلى جوار الإله بعد أن بُعث إلى الحياة، وذلك طلباً لحمايته السحرية قبل أن يقوموا من جانبهم بالرحلة التى ستقودهم إلى العالم الآخر. وفى التوابيت التى تعود إلى الأسرة الحادية عشرة عُثر على مراكب صغيرة من الخشب، الغرض منها مساعدة المتوفى على الوصول إلى أبيدوس. وإذا أمكن، كان يطلب المتوفى أن يدفن فى هذه المدينة. وإذا تعذّر الأمر، كان يكتفى بإقامة لوح حجرى، نقشت عليه مدونة

(*) ومن أمثلتها المسرح الرومانى بالإسكندرية. (المترجم)

تلتمس من الإله أن يكون فى استقبال المتوفى فى العالم الآخر. كانت هذه الألواح تقام حول «*سُلَّم*» **أوزيريس** إلى جوار المقبرة التى كان يعتقد أن رأس الإله يرقد فيها. وهكذا فقد أحاط الموتى بالإله، كما أحاطوا بالملك وهم على قيد الحياة، فكانوا «*كبراء أبيدوس وعظماءه*».

تطورت شروط الولوج إلى العالم الآخر **الأوزيرى** لتمتد من الآن لتشمل جميع البشر، ولم تعد تخص الملك وحده دون غيره. كان المتوفى مطالبًا بأن يبرر سلوكه فى هذه الدنيا أمام المحكمة المشكلة من **أوزيريس** ومساعديه الإلهيين الاثنين والأربعين. وسوف يُوازَن بين قلبه وعلامة الحقيقة - العدالة. وتصور هذه العلامة ريشة طائر نعام، كانت تستخدم فى اللغة المصرية القديمة لكتابة هذا الاسم. وإذا تعادلت كفتا الميزان سوف يعلن الإنسان ماع خرو أى «*صادق القول*»، ليندمج فى **أوزيريس**، فيتمتع بالتالى بمختلف أطوار صيرورته الأبدية. إن معرفة التعاويذ الفعّالة سوف توضع تحت تصرفه لصالحه ولفائدته من خلال أسفار يستخدمها كدليل ومرشد فى العالم الآخر. إنها عبارة عن مصنفات رسمت نصوصها بالألوان على جوانب توابيت الأفراد المصنوعة من الخشب(*) والتى اشتقت تعبيراتها وتأثرت أيديولوچيتها بأمثالها فى *متون الأهرام*. فإلى مختلف أطوار الصيرورة **الأوزيرية** تضاف مختلف أطوار الصيرورة الشمسية، فى إنطلاقة عظيمة للحرية اللانهائية:

*«أيا **أوزيريس** «الفلانى»[٦٦]، لقد حضرت وبعد أن رُبط السُلَّم من أجلك، صعدت إلى السماء إلى جوار رع، وسط الآلهة.*

*لقد انقشع ندى النهر، أيا **أوزيريس** «الفلانى»» إنك تسير على قدميك، إنك لا تسير رأسًا على عقب. إنك تصعد إلى باطن الأرض وليس نحو فكّى الجدران. لقد هدمت الجدران من أجلك. الجدران التى كانت تحيط بقبرك والتى كان آلهة مدينتك قد شيدتها من أجلك.*

(*) يمكن مشاهدة بعض نماذجها فى المتحف المصرى بالقاهرة: الطابق الأول، القاعة:٣٧.(المترجم)

أنت طاهر، أنت طاهر تمامًا كما يحيا رع. أنت طاهر، أنت طاهر، إن وجهك طاهر، إن ظهرك طاهر، إن مكانك طاهر، بفضل النطرون والبخور... كلمات قالها «فلان»: لقد حضرت، وينفتح العالم الآخر السفلى، وأستطيع أن أتأمل أبى ***أوزيريس*** *القصى. لأننى ابن لأبى الإلهى وحضرت لأحمى* ***أوزيريس*** **من ست (يندمج الإنسان فى حورس).** *ومن الآن فإن الدروب التى فى الأرض والدروب التى فى السماء والدروب التى فى العالم الآخر السفلى – تنفتح من أجلى. إنى أنفذ فى الأفق، إنى أعرف الطريق؛ لأننى متوفٍ ممجّد*[٦٧]».

هكذا حصل الإنسان من الآن على حقه فى الخلود كفرد.

پتاح فى منف

كما أن إلهًا آخر وهو **پتاح** ظل محتفظًا بأهميته فى عاصمته منف الضاربة فى القدم. ولا شك أن تدمير معبده كان وراء الندرة النسبية لصوره قبل الأسرة الثانية عشرة. ولكن وُجد مصورًا على قصعة تعود إلى الأسرة الأولى، عثر عليها فى **طرخان** على بعد ستين كيلومترًا إلى الجنوب من **القاهرة** وتلتزم هيئته بالأسلوب الذى سيحتفظ به فيما بعد، التقليد المتواتر. فيظهر واقفًا حليق الرأس وقد تدثر برداء محبوك والأشرطة تغطى ظهره وتبرز يداه من خلال ثوبه اللاصق ويمسك بصولجان «*واس*» وقد صور داخل مقصورة مفتوحة. كما تظهر هذه الصورة ذاتها على **حجر پالرمو**[*] ونشاهد «وجهه الجميل» أيضًا على أعمدة المقصورة البيضاء فى **الكرنك**، وتكتفى هذه الصورة بتوضيح حدود قامته المشوقة. كان إله الملكة على امتداد ستة قرون واحتفظت طقوسه الدينية بمكانتها المرموقة. فقد كان إذا صح التعبير، ثالث إله وطنى. فبصفته إلهًا خالقًا، فقد تصوّر العالم فى قلبه، ثم أعطاه أبعادًا مادية بفضل كلمات فمه، وفقًا لعملية تكوين ذات بعد ذهنى محض. ولمّا كان إلهًا ملكًا فمن المعتقد

(*) ويعود إلى الأسرة السادسة. (المترجم)

أنه أول من حكم العالم، إستناداً إلى الرواية الخرافية التى سجلها مانتون(*)، ووصلتنا عن طريق يوسابيوس(**) وسينكلوس(***)، واعتماداً أيضاً على قائمة الأسرات الإلهية - وكانت أولى من حكمت مصر وقد وصلتنا عن طريق بردية يحتفظ بها فى الوقت الراهن متحف تورينو، فى إيطاليا. ويصفته إلهاً خالقاً؛ فهو راعى الصوّاغ والنحاتين وحاميهم. وكان كبير كهنة پتاح يحمل لقباً شديد التفرد: *«الكبير، رئيس جميع الحرفيين»*. ويدسفته علكاً فهو *«مالك الحقيقة - العدالة»*. واعتباراً من الأسرة الثانية عشرة يوصف، أيضاً بأنه *«سيد السماء»*، عملاً بتصور يُصبغ على سماته بعداً أكثر عالمية. وفى متون التوابيت فإنه يحمى المتوفى فى مقبرته كما يشارك فى مصائره الجنائزية. وهكذا ظهر الشكل الإلهى الثلاثى الأطراف: پتاح - سوكر- أوزيريس. إن سوكر الذى يصور فى هيئة صقر مدثر فى رداء محبوك هو إله الموتى ويعود إلى أزمنة موغلة فى القدم، ويعبد فى جبانة منف المسمّاة رو - سيتاو أى *«مدخل المغارات»* التى يصادفها المتوفى فى العالم السفلى والملاذ الأخير للأموات الذين لم يبعثوا إلى الحياة من جديد. وفى هذا العالم كان من الضرورى أيضاً التحالف مع إله أبيدوس القوى. وعلى تابوت جادت به بلدة البرشا(****) صوّر پتاح- سوكر عند قيدام قارب المتوفى لمصاحبة هذا الأخير فى رحلته الليلية عى صفحة النيل الأسفل، بغية إبعاد المخاطر التى يصادفها أثناء رحلة العبور. إن پتاح هو الإله الذى يسهر على التوازن العادل على سطح الأرض، كما أنه يقوم من الآن بحماية المصائر الأبدية للإنسان.

بل ومنذ مطلع الأسرة الثانية عشرة بدأت تظهر الخطوط العريضة للنزعة التلفيقية التى ستسود فيما بعد فى عصر الرعامسة، وبعد انقضاء ثمانية قرون، مع

(*) الذى عاش فى القرن الثالث قبل الميلاد وضاع مؤلفه عن تاريخ مصر. (المترجم)

(**) وقد عاش فى القرن الرابع الميلادى. (المترجم)

(***) وهو الراهب جورجيوس المسمّى سينكلوس، وقد وضع كتابه عن تاريخ العالم حوالى عام ٨٠٠م.(المترجم)

(****) بمحافظة المنيا وتسمى أحياناً دير البرشا، وتقع على الضفة الشرقية من النيل أمام ملوى تقريباً. (المترجم)

ظهور ثالوث مقدس يجمع في كيان إلهي واحد ذي وجوه ثلاثة تمثل آمون ورع وبتاح[٦٨].

وإذا كانت ثلاثة كيانات إلهية، سواء كانت آلهة رسمية أو شعبية قد أخذ نجمها يعلو على ما يبدو، داخل مجمع الآلهة، فقد استمرت العبادات المحلية تزدهر بطبيعة الحال في بلداتها الأصلية. وظل الوعي الديني في مصر يمارس حريته عند اختيار إلهه الأثير باختلاف الزمان والمكان. فكان تعدد الآلهة يوفر حماية سحرية أكثر فاعلية.

الآداب والفنون

وأخيراً يشهد تطور الآداب والفنون، في حقيقة الأمر، على أن الحضارة المصرية خلال ثاني عصور ازدهارها على امتداد تاريخها، كانت قد استعادت توازنها وعظمتها الروحية وانعقد لها لواء السيطرة على الأساليب الفنية.

كان تطور الأدب واضحًا منذ نهاية الأسرة السادسة؛ ففي هذا العصر كان المصريون قد تعلموا بالفعل كيفية معالجة نبات البردى الذى كان منتشراً بغزارة ووفرة على ضفاف نهر النيل ليصنعوا منه ركيزة جديدة وخفيفة للكتابة بعد أن كانت علامتها تنقش على الحجر. فالتعامل مع ورق البردى والرسم عليه بواسطة فرشاة من البوص بعد غمسها في المداد الأحمر أو الأسود، كان أسهل بكثير من الحفر بواسطة سكين من الظران على الجرانيت أوالحجر الرملي أو الحجر الجيرى. كما أن استخدام هذه الركيزة الجديدة كان حدثًا سعيداً بالنسبة لنا: وبالفعل فقد كان في وسع الكتبة المبتدئين في *مدارس الحياة*[٦٩] أن يعيدوا من الآن نسخ أشهر النصوص الأدبية التى أدرك المصريون قيمتها أكثر من غيرها أو لاقت نجاحًا شعبيًا واسعاً، وإعادة نسخها مراراً وتكراراً. وهكذا وصلتنا عدة نسخ من القصة نفسها أو من مسارد الحكم نفسها، إلا أن كل نسخة من هذه النسخ تضم بطبيعة الحال عدداً من الثغرات، فورق البردى مصنوع من مادة خفيفة ولكنها معرضة للتلف، ومن ثم فمن النادر أن تصلنا

فى حالة جيدة من الحفظ كما أن فرد لفائفها فى الوقت الراهن يسبب لنا مشاكل خطيرة. ولكن بفضل هذه النسخ المتعددة ولأن الثغرات ليست واحدة دائمًا فى مختلف النسخ ففى وسعنا أحيانًا أن نعيد صياغة النص بالكامل.

فى ذلك العصر كانت اللغة المصرية قد اكتسبت أقصى درجات التناسق والتناغم: فقد ازدادت مفردات اللغة واستقرت تركيباتها النحوية وتحددت قواعدها الأساسية.

إن سعة خيال المصريين وحسّهم المرهف وولعهم بالكلمات والصور جعلت منهم قصاصين موهوبين. إن هذاالجنس الأدبى بكل معنى الكلمة قد شهد ازدهارًا منقطع النظير فى زمن الأسرتين الحادية عشرة والثانية عشرة وسينتشر حتى نهاية تاريخ مصر القديمة. إنها حكايات شعبية وروايات تروى خوارق الأحداث وقصص مغامرات وحكايات أسطورية. ويشكل كل هذا الإنتاج الأدبى «مكتبة» ضخمة تتداخل فيها مصائر الآلهة والملوك والبشر.

إن قصة *الفلاح الفصيح*(*) المعروفة من خلال أربع برديات هى من أقدم هذه النصوص. إنها حكاية فلاح من واحة الملح - **وادى النطرون** حاليًا - كان يمتلك قطعة أرض صغيرة يقوم بزراعتها. ورحل ذات يوم مع حميره متجهًا إلى المدينة المجاورة ليبيع محصول حقله وحصيلة رحلات صيده البرى. وفى الطريق هاجمه لص مسلح واستدرجه إلى مشاجرة غير متكافئة واستولى على حميره وما فى حوزته من خيرات. وذهب **خو-إن-أنبو**(**) - وهو اسم الفلاح - ليرفع شكواه إلى كبير الحجاب **رنسى**. وإذ أعجب هذا الأخير بطلاقة لسانه، تحدّث إلى الملك (**خيتى الثالث**) عن هذا

(*) نشرت ترجمة عربية كاملة لهذه القصة. راجع: نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم: كلير لالويت. الترجمة العربية: ماهر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٦. ص ص٢٧٧-٢٨٩. كما قام المخرج العبقرى شادى عبدالسلام بتحويل هذه القصة إلى فيلم قصير مدته ١٩دقيقة. ويوزعه حاليًا صندوق التنمية الثقافية على شريط ڤيديو. (المترجم)

(**) ومعناه «*ليث «أنبو» (أنوبيس)* يحميه». (المترجم)

الموضوع، ثم تركه يتقدم بتسع شكاوى وجد الملك متعة كبيرة فى قراءتها مراراً وتكراراً ليروح عن نفسه، وبطبيعة الحال فسوف يتم إنصافه فى نهاية المطاف. إنها قصة هادفة، تريد إبراز قيمة الخطابات التسعة التى تشهد على أن المصرى كان شديد الولع بالكلمة والأحاديث التي لا تنتهي، وهى سمة فطرية يتحلى بها المصريون وسوف يحتفظون بها على امتداد تاريخهم(*). إن هذا الإهتمام المتعاظم باللفظ وإن على حساب المعنى يظهر بكل وضوح فى عبارات المديح والتقريظ النفعية التى يعلنها الفلاح الفصيح فى دفاعه عن قضيته:

«أيا كبير الحجاب، يا سيدى، يا أعظم العظماء، يا مرشد ما هو غير موجود وما هو موجود. إذا هبطت إلى بحيرة العدالة لا ريب أنك ستبحر فيها مع الريح المواتية. ولن يُقتلع شراعك ولن تتقدم ببطء، ولن تتحطم عوارض سوارى سفينتك ولن تجرفك المياه ولن تعانى من مشاق النهر ولن تشاهد وجوهاً مرعوبةً. ومع ذلك سوف تتجه الأسماك إليك وقد فزعت بسرعة وسوف تصطاد الطيور السمينة. فأنت أب لليتيم وزوج للأرملة وأخ للمطلقة ومئزر لمن فقد أمه... أقم العدالة أيها الرجل الممدوح الذى يمتدحه الذين يُمدحون...».

كما يظهر هذا الإهتمام فيما يبديه الفلاح المغلوب على أمره من لوم وعتاب:

«أنظر أنت أشبه بمدينة بلا حاكم وفرقة بلا قائد وسفينة بلا ربّان وجماعة من البشر بلا مرشد. أنظر أنت أشبه بشرطىّ يسرق وحاكم يسلب...»

كان المصرى يترجم ما يجيش فى صدره إلى صور حسّية قد ينقلها عن لغة المراكبية. ونقدم على سبيل المثال صورة الأسى كما كان يُطلق له العنان:

«كان جسدى ملآناً وقلبى ثقيلاً، فخرج ذلك من جسدى بسبب ما كان عليه من أحوال. وانفرج فاهى للحديث، وكأن صدعاً أصاب سداً فتسربت منه المياه. عندئذ

(*) وحتى الوقت الراهن. (المترجم)

حرّكت العُقّافة(*) وافرغت مائى وطردت كل ما كان فى جسدى وغسلت ثيابى القذرة. والآن توقفت عن الكلام لأن همومى بكاملها أمام وجهك».

كما تعتبر هذه القصة موحية إلى حدّ كبير بالنظر إلى أن كبرى النصوص الأدبية كانت معروفة على نطاق واسع من سواد الشعب. إنها تلهم بوضوح بعض مقاطع الشكاوى. ونلتقى فيها بقدر من ذكريات الماضى المنقولة عن الأناشيد الملكية:

«يا كبير الحجاب أيا سيدى، أنت رع سيد السماء مع من يحيطون بك. أنت قوت البشر أجمعين، أنت المياه الهادرة، أنت إله النيل الذى يعيد الإخضرار إلى المروج ويخصّب الحقول المحروثة».

وإذا كان الأدب التعليمى قد طبع هذه القصة الشعبية بطابعه، فإن حكمة نابعة مباشرة من الشعب قد أضافت إليه لمسة شديدة الإنسانية:

«من فى حوزته الأملاك عليه أن يكون حليمًا. السرقة أمر طبيعى لمن لا يملك شيئًا» - «لأن أملاك الفقير هى كنسمة الحياة بالنسبة له. ومن يسلبها منه يطبق على أنفه»[٧٠].

تعتبر مغامرات سنوهى(**) أقدم قصص المغامرات وأكثرها شعبية بلا أدنى شك فى نظر المصريين، إذا أخذنا بعين الإعتبار عدد المخطوطات التى وصلت إلينا سواء دونت على أوراق البردى أو الأومستراكا(***)، وتعود إلى الفترة الممتدة من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة العشرين. تبدأ القصة بوفاة الملك أمن إم حات الأول. فيسافر موفدو البلاط الملكى إلى ليبيا لإحضار ولى العهد سنوسرت الذى كان يخوض هناك معارك طاحنة، ولكن سنوهى الذى تصادف وجوده فى هذا المكان ظنّ أنه اكتشف مؤامرة لصالح ابن ملكى آخر. وفجأة وقع فى نفسه الخوف فلاذ بالفرار.

(*) وتد طرفه معقوف. (المترجم)

(**) وليس «سنوحى» كما يكتب أحيانا. وأصله المصرى القديم «سا نهت» أى «ابن الجميزة». (المترجم)

(***) اسم جمع ومفرده أوستراكون ويعنى اللخاف أو الشقف. (المترجم)

واجتاز الدلتا وعبر النيل ووصل إلى الجبل الأحمر على مقربة من هليوبوليس ثم اتجه شمالاً. وإذ أعياه الظمأ وهو فى الصحراء، أنقذه البدو الرحل، وواصل سيره أيضاً فى اتجاه الشمال حتى مدينة بيبلوس ثم اتجه إلى الريتنو(٧١). وهناك استقبله أحد المشايخ وزوّجه ابنته البكر ووهبه قطعة أرض ثم سلّمه قيادة جيشه. وذات يوم دعاه بطل المصارعة فى الريتنو إلى القتال، ونازله فى معركة فريدة واستطاع أن يتصدى لهجمات الرجل القوى وتمكن فى آخر المطاف من قتله بعد أن سدّد إليه سهماً من سهامه، وسط تهليل الآسيويين الذين تجمعوا منذ الفجر فى مكان المعركة. وهكذا عاش سنوات طويلة و«*أصبح آسيوياً* ». وبعد أن شبّ أولاده وكبروا صاروا بدورهم زعماء قبائل.. حتى جاء اليوم الذى أخذ الحنين إلى وطنه مصر يعتصر قلب سنوهى بعد أن تقدمت به السن. عندئذ طالبه مرسوم صادر من سنوسرت الأول بالعودة إلى البلاط الملكى. وحلّ سنوهى بمصر والدنيا لا تكاد تسعه من الفرح. واستقبله فرعون والملكة والأولاد الملكيون استقبالاً حاراً مهيباً. وشرع يعدّ هرمه فى أراضيه الجديدة وانتظر أن توافيه المنية.

تُرى من كان سنوهى؟ لا شك أنه كان شخصية حقيقية فى واقع الأمر، وأخذ القصّاص يضيف ما يحلو له إلى حياة هذا الشخص. وماذا إذن عن هذا الهروب وهذه الإقامة الطويلة فى بلد أجنبى؟ أكان سنوهى إنساناً ميالاً إلى الخوف أم مجرد شخص اختار المنفى طوعاً وبإرادته؟ أم كان بالأحرى موفداً غير رسمى من قبل ملك مصر إلى البلدان الأسيوية فكان أشبه بالعميل السرى. إنه افتراض على قدر من المعقولية فى هذا العصر الذى بدأ الشرق الأدنى يتأثر بتقلبات سياسية خطيرة، وهو ما قد يفسره الإستقبال الودّى الذى حظى به سنوهى عند عودته. إن فقرة منازلته الرجل القوى فى الريتنو تذكرنا بتقدم داوود لمبارزة جوليات(*).

والقصة مكتوبة فى لغة كلاسيكية آية فى الجمال وصورها موحية إلى حد كبير.

(*) راجع سفر صموئيل الأول من العهد القديم من الكتاب المقدس: الإصحاح:١٧. (المترجم)

أما *الغريق* فهى قصة أسطورية بحتة. إن مخطوطًا دوّن على ورق البردى، يعود إلى الأسرة الثانية عشرة يحتفظ بنصها الكامل.

كانت سفينة مصرية تشق عُباب البحر الأحمر عندما هبت عاصفة هوجاء فأغرقت السفينة بما عليها. وتمكّن شخص واحد أن يتعلق بقطعة خشب - ربما كانت جزءًا من سارية السفينة - واستطاع أن يصل بمفرده إلى شاطئ جزيرة نباتها وفير وغزير، إنها جزيرة *الكا*(٧٢). وبعد أن نام لمدة ثلاثة أيام، وعندما استكشف موارد الجزيرة وأكل حتى شبع سمع فجأة هزيم رعدٍ، فى حين كان يتقدم نحوه ثعبان ضخم: «*كان طوله ثلاثين ذراعًا* - أى أكثر من ستة عشر مترًا - *وطول لحيته أكثر من ذراعين وجسده مصفح برقائق من الذهب وحاجباه من اللازورد الحقيقى*». إن الذهب واللازورد من سمات الرمزية الشمسية واللحية إحدى «شارات» الآلهة والملوك. ومن ثم حمله الحيوان الإلهى إلى جحره. وروى الغريق على مسامعه سلسلة مغامراته. وطمأنه الثعبان وأخبره بكلمات تنبّئية قائلا: سوف تصل سفينة بعد أربعة أشهر لتعود به. ثم قص عليه ما ألّم به من نوائب: إن عائلته التى كانت تضم خمسة وسبعين ثعبانًا قد احترقت من جراء نجم سقط من السماء. وأصبح الناجى الوحيد من هذه المحرقة. ووعده الرجل بإرسال هدايا نفيسة بمجرد عودته إلى مصر، وهو ما حدث على النحو الذى تكهّن به الحيوان الإلهى.

وبطبيعة الحال يوفر لنا هذا النص أوجه شبه قاطعة مع غيره من النصوص اللاحقة. فلا يفوتنا أن نذكر ملحمة **الأوديسة**(*) وغرق **أوليسيوس** ووصوله عند شعب **الفياكيس**(**). كما لابد أن نذكر أيضًا رحلات **السندباد البحرى**، ولكن الدلالة الأسطورية لهذه القصة أكثر عمقًا. إن العبرة التى يمكن استخلاصها منها تقربها

(*) ملحمة يونانية تنسب إلى **هوميروس** وتروى مغامرات **أوليسيوس**. (المترجم)

(**) شعب خرافى كان يسكن جزيرة **كورفو** اليونانية الحالية (**كيركيرا**) الواقعة شمال غرب **اليونان**.(المترجم)

أكثر على ما يبدو إلى ملحمة **جلجاميش**(*) البطل السومرى ثم البابلى. إن مواضيعها الرئيسية تقترب أيضًا من كبرى المواضيع الأسطورية الثابتة لفكر **البحر المتوسط** بصفة عامة ومن بعض المواضيع الإفريقية الثابتة. فعندنا، بادئ ذى بدء موضوع الجزيرة: إنها مكان بعيد عن البشر وموقع محمى يعيش فيه إله أو كائن متميز نجى بمفرده من كارثة دمرت كل شىء. إنها جزيرة الحكيم **أوتانافيستين**(**) الناجى الوحيد من الطوفان مثل **نوح**(***). ولما كانت الجزيرة «عنصرًا إضافيًا» إلهيًا مؤقتًا فسوف تختفى بعد رحيل **جلجاميش** مثل جزيرة ***الكا*** أو جزيرة **شيريا**. أما موضوع نبات الحياة فهو الهدف الذى يسعى إليه **جلجاميش** عند **أوتانافيستين**. كما أن جزيرة ***الكا*** تزخر بالبخور وهو النبات «**الذى يضفى صفةً إلهية**» (وهو اسمه فى اللغة المصرية القديمة). أما موضوع الثعبان فإنه يرمز عند القدماء والأفارقة على حدٍّ سواء، إلى الحياة الأبدية والخلود. فيبدو كما لو أن الحيوان يولد من جديد مع كل مرة ينسلخ جلده ويغيره. وفى باطن تربة الأرض يتغذى على عصارة النباتات التى يتجدد نموها على الدوام ومن ثم يتقاسم طبيعتها. ويظل ثعبان جزيرة ***الكا*** ملتزمًا بهذا الدور لأن «*البخور فى حوزته*». أما الشخص الذى يلتقى به **جلجاميش** فسوف يبتلع نبات الحياة.

إن قصة **الغريق** المكتوبة فى لغة كلاسيكية رصينة رشيقة العبارة هى نص أدبى جدير بالإهتمام. وربما كانت فى الأصل قصة منتشرة فى أوساط بحارة شواطئ

(*) عن عرض وترجمة كاملة للمحمة **جلجاميش** راجع: د. نجيب ميخائيل إبراهيم. مصر والشرق الأدنى القديم. الجزء السادس: العراق وفارس. ص ص ٢١٦-٣٦٤. ولا سيما الصفحات من ٣٤٧ إلى ٣٥٩ الخاصة بالطوفان. دار المعارف الطبعة الثانية ١٩٦٧. وأيضًا د. عبد العزيز صالح. الشرق الأدنى القديم ص ص ٤٧٥-٤٨٢، وهى مخصصة لعرض قصة **جلجاميش** والطوفان. مكتبة الأنجلو المصرية. ١٩٨٤. (المترجم)

(**) من أبطال أسطورة **جلجاميش**. وكان الوحيد الذى نجا من الطوفان. وقد منحته الآلهة الخلود. كما أحاطه **جلجاميش** علمًا بوجود النبات الذى يمنح الخلود. (المترجم)

(***) راجع قصة **نوح** كما وردت فى العهد القديم من الكتاب المقدس: سفر التكوين: الإصحاحات: ٦ و٧ و٨. (المترجم)

البحر الأحمر الذين تربطهم علاقات وثيقة بأنباء بلاد ما بين النهرين القادمين فى هيئة قوافل والتى نلتقى بمواضيعهم الثابتة فى الآداب الكلاسيكية لحوض البحر المتوسط بالإضافة إلى بعض القصاصين العرب المقيمين أيضاً عند شواطئ البحر الأحمر.

ومع نهاية الألف الثالث قبل الميلاد تطورت روحانية مصر وانتشرت. كان موقع مصر يضعها عند ملتقى طرق أفريقيا وآسيا والبحر المتوسط، فصارت البوتقة التى ينصهر فيها فكر العالم القديم. والشاهد على ذلك الإنتاج الأدبى الذى أبدعه هذا العصر.

يشهد تجديد الفن وأشكاله على الأهمية التى اكتسبتها منطقة طيبة؛ فقد خرج الأنانفة(*) على تقاليد منف المتواترة وأقاموا جبانتهم على الشاطئ الغربى من نهر النيل على مقربة من الشيخ عبدالقرنة وفى منطقة الطارف(**) تحديداً. وقد عثر فى هذا الموقع على البقايا الشديدة التدمير لمقبرتى أنتف الأول وأنتف الثانى المحفورتين فى صخر الجبل.

إن التصور الذى وجّه تصميم مجموعة مونتوحوتپ الثانى الجنائزية فى الدير البحرى كان يوحى بالعظمة والشموخ. وأقيمت هذه المجموعة عند الطرف الجنوبى من الدارة الصخرية التى تشكل جرف الصحراء الغربية، وعند إحدى تفريعات الجبل الغربى الرئيسى[٧٣]. لقد أملت طبيعة الموقع إلى حد ما شكل هذا المعلم الأثرى. ومن المعبد الأدنى قرب الوادى يمتد طريق لمسافة كيلومتر واحد صاعداً فى اتجاه الغرب يكتنفه جداران. إن هذا الطريق الفخم المحفور فى الرمال الوردية يشكل مدخل المجموعة الجنائزية. ويفضى إلى ساحة فسيحة زرعت بأشجار الجميز فى صفوف منتظمة. لقد غرست الأشجار على جانبى طريق صاعد يتجه من الشرق إلى الغرب، ويتفق مع محور المعبد وينتهى عند شرفتين تلى إحداهما الأخرى وتعلوها. إن أربع

(*) وهم ملوك النصف الأول من الأسرة الحادية عشرة. (المترجم)

(**) وتقع إلى الشمال من بداية الطريق المؤدى إلى وادى الملوك. (المترجم)

شجرات تصطف على جانبي الطريق وتظلّل كل واحدة منها تمثالاً شامخًا من الحجر الرملي يصور الملك. ثم تأتي أربعة صفوف متتالية من الأشجار في الاتجاه الشمالي الجنوبي. وتكتمل على هذا النحو العلاقة السحرية الأوزيرية التي يقيمها الملك مع قوى التجديد والإحياء في عالم النبات. وعند الطرف الغربي من الساحة شيدت صفة تتكون من صفين من الأعمدة المربعة من الحجر الرملي تحمل الشرفة الأولى، وكانت تلتف حول كتلة الشرفة العليا التي أقيم في وسطها هرم الملك. كان يحيط بهذه الشرفة من جوانبها الثلاثة الجنوبي والشرقي والشمالي ممر يتكون من صفين من الأعمدة السداسية الأضلاع. وبالإضافة إلى هذه المجموعة المعمارية التي يعلوها الهرم أقيمت عناصر أخرى مبنية أو محفورة في صخر الجبل. ومن ناحية أخرى ووسط فناء الأشجار الفسيح وإلى الشمال قليلاً من المحور الطولي، كانت حفرة عميقة تشير إلى مدخل ممر طويل يخترق الأرض بزاوية مائلة ليصل على بعد مائة وخمسين مترًا إلى حجرة دفن فسيحة إلى حدٍّ ما، تقع على وجه الدقة، على خط عمودي أسفل الهرم وتضم مقبرة مونتوحوتب الثاني التذكارية. كان كارتر Carter الذي باشر أعمال التنقيب في الموقع عام ١٩٠١ قد عثر في هذه الحجرة على تمثال جالس للملك مرتديًا ملابس أعياد اليوبيل بالإضافة إلى بعض عناصر المتاع الجنائزي. ومن ناحية أخرى، وإلى الغرب خلف الهرم أقيم فناء برواق بأعمدة وعند مستوى الشرفة الأولى التي يتصل بها. ومن هذا الفناء ينحدر ممر طويل مخترقًا صخر الجبل ليصل إلى حجرة الدفن التي لم يعثر فيها سوى على التابوت الحجري للملك. كما أن الفناء نفسه كان يقوم مقام الردهة التي تفضي إلى بهو أساطين كان يشغل مؤخرة المعبد ناحية الغرب وقد اندمج في تجويف طبيعي في الجبل. إن مقصورة جنائزية مقامة في الجانب الغربي من هذا البهو كانت تظلّل كوة محفورة في الصخر تضم تمثالاً للملك.

وإن ظلت هذه المجموعة المعمارية من حيث تصورها قريبة نسبيًا من أسلوب الدفن الذي أخذ به ملوك الأسرات السابقة من حيث اندماج الهرم والمعبد في مجموعة واحدة، إلا أنه في وسعنا ملاحظة بعض إرهاصات العناصر المعمارية التي ستسود إبان الأسرة الثامنة عشرة. فبدلاً من وجود حجرة الدفن داخل الهرم أو أسفله نلاحظ أنها نقلت في طرف سرداب طويل حفر في صخر الجبل. ولكن تقلصت ضخامة الهرم

إلى حدّ كبير. وإن ظلت دلالته الرمزية قائمة بما يتفق مع الأشكال الجديدة التى فرضتها طبيعة الموقع الجديد فى طيبة من ناحية والتطور المتنامى للرمزية الأوزيرية من ناحية أخرى.

إن المقبرة الملكية مركز جبانة شاسعة. فقد دُفن داخل أسوارها بعض الأميرات والمقربين من الملك. لقد تم الكشف عن ثمانية وعشرين قبراً. إن كبراء البلد وأعيانه قد أمروا بحفر مقابرهم الصخرية فى الجانب الشمالى من دارة الجبل أو على المنحدرات الواقعة بين المعبد الجنائزى والجبل. وهو ما فعله على سبيل المثال الوزير إيبى وحامل الأختام خيتى، ولكن اختفى العديد من هذه المقابر من جراء أعمال التشييد التى نفذتها الملكة حتشپسوت. إن هذا المعلم الصرحىّ هو السلف الذى سبق المعبد الذى ستأمر الملكة الطموحة بتشييده شمال هذا المعبد بعد انقضاء خمسة قرون، وربما كان النموذج الذى سعت إلى محاكاته.

أما خلفاء المناتحة وهم ملوك الأسرة الثانية عشرة فقد تخلوا عن جبانة طيبة بعد أن وقع اختيارهم على الفيوم لتقام فيها عاصمتهم وعادوا إلى الشكل الهرمى البحت المتلائم مع التقليد القديم المتواتر. وفى مدينة اللشت تحديداً عند حدود الفيوم الشمالية عثر على هرمين يشبه ترتيب مختلف عناصرهما الأهرامات التى شيدت فى منف فى الماضى. كان هرم أمنمحات الأول يقع فى الشمال. أما هرم ابنه سنوسرت الأول ففى الجنوب. كان ارتفاع هذا الأخير ٦١متراً وطول ضلعه ١٠٦ أمتار ويبلغ إنحناء واجهاته ٤٩درجة. كان بنيانه الداخلى من الكتل الحجرية غير المستوية ومرتبة فى طبقات تمتد من المركز فى اتجاه الزوايا ووسط الواجهات. والكسوة التى ما زالت مرئية فى المدماك الأدنى كانت تتكون من حجر جيرى صقله العمال بعناية فائقة. إن الممر الهابط الذى يصل إلى حجرة الدفن المحفورة أسفل الهرم، يخترق الأرض بدءاً من المدماك الأول للواجهة الشمالية. كان الممر مغطى فى بدايته بالحجر الجيرى ثم بالجرانيت والهرم محاطًا بسورين: فيضم السور الكبير مدخلاً ضخمًا يتوسط واجهته الشرقية أى قرب المعبد الجنائزى. ومن هذا المدخل يبدأ ممشى كبير يحفه جداران وصفان من التماثيل الملكية الأوزيرية(٧٤). إن الأشكال الجديدة لعمارة مونتوحوتپ الثانى قد أثّرت بكل تأكيد، على تنسيق عناصر هذه المجموعة.

وفى **اللاهون** عند مدخل بحر يوسف شيد سنوسرت الثانى هرمه. وقد عثر فى حجرة الدفن على تابوت من الجرانيت هو آية فى الجمال. وفى حجرات الدفن المتاخمة والخاصة بالأميرات، خرجت إلى النور مجموعة رائعة من الحليّ من الذهب والفضة واللازورد والفيروز والزمرد والعقيق الأحمر. إنه عمل رائع صاغته أنامل صائغ ماهر.

وفى **هوارة** فوق الهضبة المشرفة على **الفيوم** نظر الإغريق بإعجاب إلى هرم **أمنمحات الثالث** ولا سيما إلى معبده الجنائزى. بل وشبهوا المعبد **باللابيرانت Labyrinthe** أو قصر التيه، دون أن يدركوا دلالة المعبد الجنائزى فى نظر المصرى القديم. ويستحيل علينا فى الوقت الراهن أن نتخيل مساحة هذا المبنى وتعقيداته، بعد أن أصابه دماراً بالغًا. واستناداً إلى الروايات الإغريقية المتواترة فمن المعتقد أنه كان يضم سوراً عظيماً واثنى عشر فناءً مسقوفًا وطابقين يضم كل طابق ألف وخمسمائة حجرة تشكل عدداً لانهائيًا من المنعطفات والمخارج الزائفة(؟). فكان على حد قولهم، وفيما نعلم، واحداً من أهم المعابد الجنائزية وأكثرها تعقيداً وربما أطلق عليه اسم **اللابيرانت** فى وقت لاحق بسبب تماثل المخارج الصوتية غير المؤكدة لاسم التتويج الذى كان يحمله أمنمحات الثالث وهو نى–ماعت–رع ومعناه بالمصرية القديمة «*الحقيقة – العدالة فى حوزة رع*»– تماثلها مع الاسم اليونانى(*).

كانت هذه المقابر آخر المقابر الهرمية المصرية. أما البر الغربى لمدينة **طيبة** والذى سبق أن استخدمه ملوك الأسرة الحادية عشرة فسوف يتحول عما قريب إلى جبانة شاسعة للأباطرة الجدد وأعيان دولتهم وكبرائها. وهنا وإبان شهر أبريل من كل سنة ومع مطلع الشهر القمرى الجديد سوف تقام من أجل الموتى الراحلين الإحتفالات بعيد *الوادى*.

كان نحّاتو طيبة شأنهم شأن المعماريين مبدعين نشطين. فمنذ إعادة توحيد البلاد على أيدى **الأناتقة** يبدو أن مدرسة جديدة فى فن النحت أخذت تتطور وتزدهر لتفرض أسلوبًا مبتكراً أكثر صرامة وواقعية، جنبًا إلى جنب مع أسلوب منف القديم

(*) وهو **لاخاريس أميريس**(؟). (المترجم)

ونزعته التقليدية المنمقة. وأول شاهد على هذا الإتجاه هو التمثال الملكى الكبير الذى عثر عليه كارتر فى البئر التى تفضى إلى مقبرة مونتوحوتپ الثانى التذكارية. إنه تمثال ضخم من الحجر الجيرى يصور الملك ويبلغ ارتفاعه ١٨٣سم ومن مقتنيات المتحف المصرى بالقاهرة فى الوقت الراهن(*). وإذ أغفل النحات التفاصيل وأهملها، فقد كان يريد إظهار سلطان العاهل الملكى وسلطته من خلال تجسيم الأحجام بأسلوب يكاد يكون هندسيًا. فيُبرز الوجه قوة الشكيمة، والجسد عبارة عن كتلة متجانسة والجزع مستقيم والساقان غليظتان والقدمان عريضتان راسختان. يكشف هذا التمثال عن عزيمة وحيوية تلامسان الخشونة وفظاظة القلب. كما تشهد تماثيل عثر عليها فى الكرنك عن هذا الولع الجديد بكل ما هو ضخم وعملاق. ونذكر فى هذا الصدد على سبيل المثال، الصور الشخصية للملك سنوسرت الأول، ومنها التمثال الملون الذى يبلغ ارتفاعه ٤٧٠سم وهو من الحجر الجيرى، والأعمدة الأوزيرية التى يبلغ ارتفاعها ٣٧٥سم وهى من الجرانيت، وصور سنوسرت الثالث ومنها التمثال العملاق الذى يبلغ ارتفاعه ٣١٥سم وهو من الجرانيت الوردى ومن مقتنيات متحف القاهرة(**) أو صور أمنمحات الثالث ومنها التمثال الذى يبلغ ارتفاعه مترين وهو من الجرانيت ومن مقتنيات متحف برلين. هكذا يبزغ فجر عظمة وشموخ حضارة طيبة. إن ملامح الوجوه واقعية وقلقة ومهمومة، وقد صورت أحيانًا فى مراحل عمرية مختلفة من حياة صاحبها. وفى مقابل هذا الأسلوب الطيبى بسماته الخاصة الشديدة التميز نلتقى على الطرف الآخر بأسلوب نحاتى منف واللشت بوجوههم البشوشة وفنهم الأكثر رقة والأقرب إلى الكمال المثالى والتقاليد المقررة. إن وجود هاتين المدرستين لخير شاهد على حيوية روح المبادرة الخلاقة التى تحلى بها الفنان المصرى، فضلاً عن اهتمامه بتجديد الأشكال ودلالتها.

(*) فى الدور الأرضى: الرواق ٢٦. (المترجم)

(**) فى صحن الطابق الأرضى الواقع أمام مدخل مبنى المتحف. (المترجم)

ربما ظهرت مدرسة ثالثة فى تانيس(*) فى القسم الشرقى من الدلتا. لم تكن مدرسة بكل معنى الكلمة، ولكن تشهد التماثيل التى عثر عليها فى هذه المدينة على تأثيرات متنوعة. وإذا كان أسلوبها يلتزم إلى حدٍّ كبير بالتقاليد المقررة، إلا أننا نلاحظ وجود تأثيرات عناصر أجنبية ومواضيع آسيوية: فقد صور أمنمحات الثالث وهو يحمل قرابين مادية وقد توحّد مع نهر النيل جالب الخير. ويشهد جزءه المكتنز على حيوية أسلوب الحرفيين. ومن حقنا أن نتساءل إذا كان هذا التمثال الذى عثر عليه فى تانيس هو صناعة محلية أم جاء من الجنوب؟ وعلى كل حال فغطاء رأس الملك الفريد فى بابه جدير بالملاحظة لأن جدائله تتقاطع حسب الذوق الآسيوى. كما جادت تانيس بتماثيل الملك أمنمحات الثالث فى هيئة «أبو» الهول. ولم يحط الوجه الملكى كما جرت العادة بغطاء الرأس الملكى المصنوع من الكتان وتتدلى منه على الكتفين قطعتا نسيج ذوا ثنايا، واسمه النيمس عند قدماء المصريين. بل حلّ محله شعر لبدة الأسد وقد صور فى بساطة شديدة كزخرف يزدان به الرأس. لأن ملامح الأسد بصفته «حيوانا» ملكيًّا وإلهيًا، كانت أهم بكثير من ملامح تماثيل «أبو» الهول الكلاسيكية - وفقًا للعادات الآسيوية.

واتسعت المملكة وتنوعت، وظهرت تأثيرات أجنبية. ومن الآن فصاعداً سوف تلعب مصر دورها عند ملتقى أفريقيا وآسيا. وتعاظمت قوة «مدينة *الجنوب*»(**) - طيبة - وعلا نجمها وأصبحت مهيأة لتتبوأ مكانتها فى التاريخ.

ولكن فى هذه اللحظة بالذات ومن جراء التحركات الضخمة للشعوب الهندوأوروبية وما ترتب عليها من تقلبات سياسية فى آسيا - سوف يطرح للمرة الثانية السؤال حول قضية المؤسسة الفرعونية بعد أن قوضتها غزوات شعوب الهكسوس. فعلى امتداد قرنين من الزمن سوف تنقسم مصر من جديد وينفرط عقد

(*) الاسم اليونانى لمدينة جعن المصرية القديمة وصان الحجر حاليًا. (المترجم)

(**) نيوت رسيت فى اللغة المصرية القديمة. وعن مختلف أسماء طيبة وألقابها، راجع: د.سيد توفيق، أهم آثار الأقصر، النهضة العربية، ١٩٨٢، ص ص: ١٥-١٩. (المترجم)

وحدتها، إلى أن جاء من مدينة طيبة أمراء آخرون فحرروها واستعادوا وحدتها. فمع استرداد البلاد قوتها وسلطتها فى ظل الأسرة الثامنة عشرة عاد النظام الملكى إلى سابق عهده.

* * *

ينصب موضوع هذا الكتاب على دراسة هذه الأسرة الملكية. ونلاحظ غياب فكر عظيم وحدانى ومهيمن، وهو ما سيوجد فى وقت لاحق فى عصر *الرعامسة*. ولكننا نلاحظ أن صياغة أيديولوچية جديدة أخذت تتشكل آنذاك، لتنتشر وتطور من عهد إلى آخر، ليترك كل فرعون من الفراعنة بصمته الشخصية. وشهد هذا العصر فيضاً من الأشكال والأساليب والأفكار، شكلت بوتقة روحية سوف ينهل منها *الرعامسة* فيما بعد على نطاق واسع. ففى ذلك الزمان تحولت مملكة وادى النيل إلى إمبراطورية آسيوية وإفريقية مترامية الأطراف. هنا تكمن مصادر الفكر الإمبراطورى بحيويته الوثّابة. وهنا نستطيع أن نفهم مختلف أوجه الروحانية المصرية.

وسعياً وراء توضيح ما قلناه، سوف نحاول من خلال دفتىّ هذا الكتاب أن نقدم للقارئ قدراً كبيراً من النصوص المصرية المألوفة ولكن سوف نقدم فضلاً عن ذلك نصوصاً لم تُترجم من قبل أو لم تنل ما تستحقه من اهتمام. ولن نحاول أن تخضع هذه النصوص لهذه الأيديولوچية أو تلك ولكن سنعمل على ربطها بالفكر القديم دون تحيز وبلا أفكار مسبقة.

إن مهنة عالم المصريات تتطلب منه أن يكون مولعاً شغوفاً بما يقوم به، صبوراً فى عمله. سيساعده ولعه على الإحاطة عن كثب بكنه حياة الرجال الذين عاشوا قبل خمسة آلاف سنة والتعاطف مع تقاليدهم وأفكارهم بأن يتوحد مع صميم الحياة فى مصر الفرعونية ويندمج فيها. وإلى جانب ذلك فإنه مطالب بالتحلى بالصبر وتوخى الحيطة والحذر. فيتجنب الوثوق ثقة عمياء فيما يقوله هذا التأويل أو ذاك، لمجرد ذكره فى كتاب ما، ربما يكون قد عفّى عليه الزمن، أو فيما توصلت إليه أعمال تنقيب محليه دون مضاهاتها بغيرها الأحدث عهداً، وأن يراعى على الدوام تبنى رؤية شاملة

للأحداث والأفكار. ولذلك فلا غنى عن معرفة اللغة. لقد ظل علم المصريات لفترة طويلة وما زال أحيانًا نشاطًا ينكب عليه الهواة، فيقعوا بسرعة تحت تأثير قراءة مضللة لبعض الشروح والتعليقات أو بالاعتماد على المصادر اليونانية التي يصعب في الغالب الوثوق فيها ثقة عمياء. علينا *أن نقرأ النصوص المصرية مرارًا وتكرارًا* بصبر وأناة ونفهمها من خلال الواقع الحي لعصرها والنفاذ إلى صميم جوهرها، ومن ثم علينا بعد ذلك وفي مرحلة لاحقة فقط، ألا نلجأ سوى إلى مراجع مختارة، وهي مفيدة على كل حال لأنها حصيلة جهود أجيال من العلماء. ومن ثم فإذا خاض المرء في المناقشات إنطلاقًا من النظريات المطروحة دون معرفة باللغة، فكأنه يريد دراسة فرچيليوس(*) Virgile وشيشرون(**) Cicèron، بينما يجهل اللغة اللاتينية. إن علم المصريات شأنه شأن كل علم حقيقي يستوجب أن يتحلى الباحث بصفات التجرد وعدم الإنحياز والقدرة على إصدار أحكام صائبة والمواظبة على تناول ما اعتقدنا أنه حقيقة مقررة لطرحه على بساط البحث.

ليتنا نستطيع توفير هذه الشروط حتى نقدّم عن نشأة الإمبراطورية المصرية صورة حقيقية ومنصفة تعتمد على الوثائق المصرية، من معالم صرحية ونصوص، بعيدًا عن أي مراوغة، مع الإلتزام بالنزاهة العلمية. هكذا نعيد إلى الحياة *طيبة عصر الأباطرة*.

(*) **فرچيليوس** (٧١-١٩ ق.م) أعظم شعراء روما. (المترجم)

(**) **شيشرون** (١٠٦-٤٣ ق.م) أكبر خطيب وكاتب ومفكر عرفته روما. (المترجم)

(***) **السخرة la corvée**. لا ينبغي أن ينزعج القارئ من استخدام المؤلفة تعبير السخرة؛ لأنه يتم الخلط في المعتاد بين السخرة وهي من مقومات العمل في النظم الإقطاعية - كما في مصر الفرعونية والعمل القائم على العبيد كما ستعرفه اليونان وروما القديمة، في أزمنة لاحقة، وهو نظام أكثر تخلفًا مقارنة بالنظام السائد في مصر الفرعونية، ولم تعرفه مصر الفرعونية كنظام اقتصادي اجتماعي عام، وإن طبق أحيانا في بعض الحالات الفردية والإستثنائية على أسرى الحرب. لقد أورد الكتاب المقدس في سفر الخروج، الإصحاح الأول الآية١١- أن بني إسرائيل قد عملوا بالسخرة - ولم يكونوا عبيدًا - رغم كونهم من غير المصريين. ويمكن مراجعة هامش المترجم الوارد فيما سبق، عن معاملة العبرانيين في ظل هذا النظام. فعندما ضلوا السبيل في صحراء سيناء بعد خروجهم من مصر ندموا أشدّ الندم على ترك مصر فقالوا: «كنا نجلس

(فى مصر) عند قِدْر اللحم ونأكل من الطعام شبعنا (الخروج ١٦:٣). وأيضًا: «إننا نذكر السمك الذى كنا نأكله فى مصر مجّانًا والقثاء والبطيخ والكراث والبصل والثوم» (سفر العدد ٥:١١). فالصورة أبعد ما تكون عن السياط التى كانت تلهب ظهور العمال كما صورتها أفلام هوليود!... وأود أن أضيف فى هذا المقام ما تقوله أمينة الشفيق: «إن مصر الحديثة المركزية تأسست في جانب كبير منها على جهد وعرق **عمال السخرة**... وإليهم يعود الفضل فى جانب كبير مما نراه الآن من ترع وقنوات ومصارف وسكك حديد وأرض خضراء».. لقد استدعى مشروع محمد على تسخير ما لا يقل عن ٤٠٠ ألف فلاح لمدة أربعة شهور سنويًا (وهى فترة الفيضان-م) واستمرت السخرة طوال عهود عباس الأول وسعيد وإسماعيل وتوفيق إلى أن ألغيت رسميًا فى ١٩ديسمبر ١٨٩٩» (راجع فى هذا الصدد مقال أمينة الشفيق: «السخرة.. حالة مصرية. مجلة وجهات نظر. العدد٣٣. أكتوبر٢٠٠١ والمراجع التى تعتمد عليها). مع ملاحظة أن عدد سكان مصر في عهد محمد علي وقبله وبعده كان على النحو التالي: ثلاثة ملايين نسمة فى أواخر القرن الثامن عشر و٤٠٠ ٥١٤ ٢ عام ١٨٢٣ و٤٤٠ ٤٧٦ ٤ عام١٨٤٥ (عبدالرحمن الرافعى. عصر محمد على. دار المعارف. ١٩٨٢ ص٥٤٣). ويضم هذا العدد بالطبع الشيوخ والنساء والأطفال. كما نصت اتفاقية العمل الدولية رقم٢٩ لسنه١٩٢٠ ورقم١٠٥ لسنه١٩٥٧ على منع السخرة. (معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية. د.أحمد زكى بدوى. مكتبة لبنان ١٩٨٦. ص١٦٥) أضف إلى ذلك، أن قبائل بنى إسرائيل بعد أن بدأت فى اغتصاب أرض كنعان من أبنائها، حوالى القرن الثالث عشر، قبل الميلاد، كما هو وارد فى سفر يشوع من العهد القديم، قد عرفت نظام السخرة، بعد أن أسست مملكتها، نذكر على سبيل المثال لا الحصر، ما ورد فى سفر صموئيل الثانى، ٢٤:٢٠ وسفر الملوك الأول، ٦:٤. بل إن الملك سليمان ذاته «قد سخّر ثلاثين ألف رجل من كل أرجاء إسرائيل» سفر الملوك الأول، ٢٧:٥. واستخدمهم فى بناء معبده وقصره وعدد من المدن، ١٥:٩.(المترجم)

الفصل الأول

العالم فى زمن القرن الثامن عشر قبل الميلاد

١- فى أفريقيا
الهيمنة المصرية: عُرف وتقليد موروث

ينبع النيل من قلب أفريقيا. ومنذ أقدم أزمنة تاريخهم المديد شرع المصريون يبحرون جنوبًا مصعدين مجرى النيل أو يسيرون عبر الدروب القائمة عند ضفاف النهر.

النوبة والسودان

استرعت الأصقاع الواقعة فيما وراء الجندل الأول انتباه المصريين. كان الوصول إليها أمرًا يسيرًا، ولا يصطدم الداخل إليها بأية مقاومة. كانت السلطة المحلية موزعة على عدد من القبائل، لا تجمعهم وحدة سياسية فعلية. كانت هذه المناطق تشتهر بثرواتها المتنوعة: القمح والأبقار والعاج والأبانوس والبخور وريش النعام. وفى وادى العلاقى، وهو وادٍ قفر فى الصحراء الشرقية يلتقى بالنيل عند بلدة عنيبة فيما بين الجندل الأول والجندل الثانى، كان يوجد حجر الكوارتز المحتوى على الذهب وقد استخرجه المصريون منذ وقت مبكر من تاريخهم. وتشهد المخربشات التى عثر عليها على صخور الصحراء على قيام الحملات إلى هذا المكان منذ عهد الملك چت من الأسرة الأولى. وقد فتح چسر(*) المنطقة الممتدة من أسوان إلى تاخومبسو إلى الشمال من عنيبة، وهى المنطقة التى أطلق عليها الإغريق اسم دوديكاخوينوس(**)

(*) من الأسرة الثالثة. (المترجم)

(**) يتكون هذا المصطلح من كلمتين يونانيتين: دوديكا وتعنى: ١٢ وخوينوس: التصحيف اليونانى لكلمة إترو المصرية القديمة وهو مقياس طول يعادل عشرة كيلومترات ونصف: ومن ثم فإن هذا المصطلح يعنى المنطقة الواقعة جنوب أسوان الممتدة لمسافة ١٢٥كم تقريبًا. (المترجم)

Dodekashène. واستناداً إلى ما جاء في حجر پالرمو شن سنفرو والد خوفو حملة عسكرية على النوبة وعاد منها بغنائم لا حصر لها وسبعة آلاف أسير. وفي زمن الأسرة السادسة قام أمراء أسوان باستشكاف أعماق هذه الأصقاع وتوصلوا إلى «دروب جديدة» لاختراقها وعادوا منها تحديداً ببعض الأقزام، لأن البلاط الملكي في مصر كان مولعًا بهم. وقام ملوك الأسرة الثانية عشرة بتدعيم نفوذهم حتى جنوب الجندل الثالث، علمًا بأن «الحدود» الرسمية كانت تقع إلى شمال قليلاً عند بلدة سمنة[1].

ومنذ تلك الفترة كان من السهل التمييز بين منطقتين سوف تصبحان الإقليمين الرئيسيين في نظر الإدارة الإمبراطورية. ويطلق على الإقليم الأول اسم واوات وهو النوبة السفلى الواقعة فيما بين الجندل الأول والجندل الثاني. وكان أبناء هذا الإقليم يُدعون نحسيو. وربما كانت هذه العبارة تشير في بداية الأمر إلى القبائل القريبة من النهر. أما اسم مجايو فكان يطلق أصلاً على رجال السهوب[2]. ومنذ وقت مبكر، جُنِّد المجايو في قوات الشرطة وتحولوا إلى قوات مساندة شديدة الولاء فزاد الطلب عليهم. ولكن يبدو أن كلمة نحسيو قد أصبحت تدل منذ الأسرة الثانية عشرة على مجمل سكان النوبة.

وكانت كوش هي المنطقة الجنوبية الأخرى الهامة. وظهر الاسم لأول مرة على لوح حجري يعود إلى العام ١٨ من عهد سنوسرت الأول، عثر عليه في بوهن. وقد أثار تحديد موقع اسم المكان هذا، بعض المشاكل. فقد شاع استخدامه على نطاق واسع في العالم القديم. «وانتقل الاسم إلى اللغة الأكدية في زمن الأسرة الثامنة عشرة وحظي على شعبية واسعة في آسيا بدءًا من القرن الثامن قبل الميلاد عندما تحولت النوبة إلى قوة عظمى وضمت بلاد الفراعنة إلى ممتلكاتها وباتت تتدخل في شئون فلسطين. وكان الغزاة الأشوريون يعرفون بلاد كوش حق المعرفة. وقد فاقهم الأخمينيون(*) الذين اختاروا هذا الاسم للدلالة على الإقليم النوبي التابع لهم. وأخيراً

(*) أسرة ملكية فارسية أسست الإمبراطورية الفارسية من القرن السادس قبل الميلاد وحتى فتوحات الإسكندر الأكبر. (المترجم)

فإن الكتاب المقدس الذى يذكر اسم كوش مراراً وتكراراً، قد انقذ اسم المكان هذا، من السقوط فى طىّ النسيان، لينقله إلى العصور الحديثة من خلال ترجمته إلى اليونانية واللاتينية[٣]». وقد ترجمه شمپليون Champollion بلفظ «أثيوبيا» متفقاً فى ذلك مع الترجمة السبعينية للكتاب المقدس[*]. وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة أى حوالى عام ١٥٨٠ق.م، يبدو أن كوش كانت تدل إما على الإقليم الإدارى المحصور بين الجندل الثانى والجندل الرابع والذى يلى إقليم واوات أو كانت تدل بشكل عام على مجمل الممتلكات الإفريقية الواقعة جنوب مصر.

وفى القرن الثامن عشر قبل الميلاد، علا نجم مدينة بوهن الواقعة على بعد خمسة كيلومترات جنوب مدينة وادى حلفا الحالية كما كانت مقر الحكومة المصرية. إن أعمال التنقيب التى باشرها إيمرى Emery عام ١٩٥٧ قد أثبتت بلا أدنى تحفظ أن محلات سكنية كانت موجودة فى هذا الموقع منذ الأسرات الأولى. وعُثر شمال المدينة على أوراق بردى وأختام جرار تحمل أسماء ملوك الأسرتين الرابعة والخامسة[٤]. وشيدت القلعة منذ عصر سنوسرت الأول وكانت جزءًا من سلسلة التحصينات التى أقيمت فى ظل الأسرة الثانية عشرة، ولكن وجودها قرب التيارات السريعة للجندل الثانى جعلتها موقعًا إستراتيجيًا على أكبر قدر من الأهمية. كانت بوهن مدينة مستطيلة الشكل محاطة بسور من الطوب سمكه خمسة أمتار ومن حولها خندق جاف عرضه سبعة أمتار وعمقه ثلاثة أمتار ونصف. وسوف يقوم التحامسة[**] بتطوير المدينة والمعابد والحصون بشكل ملحوظ.

إن العمل الذى قام به ملوك الأسرة الثانية عشرة قد ربط هذه الأراضى الإفريقية الجنوبية بمملكة مصر بروابط وطيدة. فكان همهم الأساسى توفير الرخاء الإقتصادى والأمان لمصر ولم يكن هدفهم الغزو السياسى.

(*) وهى أول ترجمة إلى اليونانية، وقد تمت فى الإسكندرية فى القرن الثالث ق.م. (المترجم)

(**) الملوك الذين يحملون اسم تحوتمس. (المترجم)

بلاد پونت

كما أقامت مصر علاقات دائمة مع بلد إفريقى آخر. إنه بلد تنبت فيه أشجار البخور الذى كان ضروريًا لأداء الشعائر الدينية. كما كان المصريون يجلبون منه الزرافات والقردة الكلبية الرأس والعاج والأبنوس والإلكتروم والأحجار الكريمة والأقزام أيضًا فى بعض الأحوال. إنه بلد إفريقى بلا أدنى شك. وإذا كان تحديد موقع پونت قد أثار بعض المشاكل، إلا أنه يبدو فى الوقت الراهن أن المقصود من بلاد پونت ليس الصومال الحالى، على وجه الدقة. ولكنها تغطى منطقة أكثر شمولاً تقع إلى الشرق من السودان جهة البحر الأحمر وإلى شمال أثيوبيا الحالية وغربها[٥]. وبالفعل كانت الرحلات تتم «بحرًا أو برًا» وهو ما يذكره مرارًا وتكرارًا النص الذى يروى وقائع الرحلة التى أرسلتها الملكة حتشپسوت إبان الأسرة الثامنة عشرة. تُرى كيف تمكّن المصريون من جمع معلوماتهم عن هذه البلاد القصية؟ ربما عن طريق تقارير بعض المستكشفين المسافرين بمحازاة نهر النيل السودانى، بل وربما أيضًا من خلال الأقاويل التى تناقلها تجار القوافل الذين كانوا يتولون نقل منتجات هذه المناطق إلى موانئ البحر الأحمر.

إن أول رحلة رسمية كما سجلها حجر پالرمو تمت فى عهد ساحورع من ملوك الأسرة الخامسة. كان السفر إلى پونت يتم فى الغالب على متن سفن. فتبدأ الرحلة من كوپتوس الواقعة على نهر النيل إلى الشمال من طيبة وتحمل معها أخشاب شجر الأرز اللازم لبناء السفن بالإضافة إلى السلع المطلوب مقايضتها وما يلزم الرحلة من طعام وماء. فتسير قافلة المسافرين عبر درب وادى الحمامات الذى يخترق الصحراء الشرقية، وصولاً إلى ميناء وادى جاسوس المطل على البحر الأحمر. كانت هذه الرحلة تستغرق أربعة أيام سيرًا على الأقدام فى صحراء قاحلة تفتقر إلى نقاط مياه إلى أن أمر مونتوحوتپ الثالث بحفر الآبار على امتداد هذا الدرب القفر. وفى وادى جاسوس يتم بناء السفن ثم يبحر الجميع فى اتجاه الجنوب.

كانت پونت جزءًا من «*بلد الإله*» لأنها كانت تنتج البخور وهو النبات الذى «يجعل (الكائن) *إلهيًا* ». وسوف تتدفق «عجائب پونت» على طيبة فى ظل الأسرة

الثامنة عشرة. إن العلاقات مع هذا البلد شبه الأسطورى فى نظر المصريين، سوف تتواصل على امتداد تاريخ مصر الفرعونية.

السهوب والصحارى الليبية فى الغرب

وإلى الغرب من مصر تمتد الدلتا عند شاطئ البحر الأبيض المتوسط فى اتجاه ما يُطلق عليه حاليًا ليبيا التى كانت تضم آنذاك فى جوفها السهوب والصحارى، فكانت منطقة تشجع على القيام بالغزوات. ومنذ قديم الزمن احتلت هذه المنطقة قرب الشاطئ شعوب التحنو الذين يشبهون من الناحية العرقية سلالات أبناء وادى النيل. والشاهد على ذلك صلايات الشست التى نقشت منذ عصور ما قبل التاريخ. وقد جرت العادة على تصويرهم فى هيئة رجال شعرهم طويل مسترسل ويحملون حمّالة ويضعون جراب عورة مستطيلاً. كانت معيشتهم قائمة على زراعة الأشجار وتربية الحيوانات الداجنة وقدر ضئيل من الرعى. أما قبائل التيمحو الرحّل القاطنون فى السهوب ذات النجليات فكانوا يتميزون بشعرهم الأشقر وعيونهم الزرقاء.

ويبدو أنهم عاشوا قبائل متفرقة لم تجمعهم أية وحدة سياسية. ولمّا كانت إقتصادياتهم ضعيفة، يعيشون عيشة الكفاف، ظل ثراء مصر ورخاؤها يشكل لهم على الدوام إغراءً يصعب مقاومته فحاولوا التسرب تدريجيًا إلى الدلتا. لقد شُنّت عليهم بعض الحملات العسكرية الملكية تميزت بالحزم والإقدام وقضت على تهديداتهم بسهولة ويسر. وفى هذا الصدد أيضًا يظل حجر پالرمو مصدرنا المعتمد فيخبرنا أن سنفرو قد عاد من إحدى هذه الحملات وهو يقتاد ١١٠٠٠أسيرًا و١٣١٠٠رأس ماشية. ولم يشكل «الليبيون» خطرًا عظيمًا إلاّ فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد، إبان إحدى غزوات شعوب البحر فى عهد الرعامسة(٦).

كانت سلسلة من الوحات تصطف من الشمال إلى الجنوب، على امتداد الصحراء لتشكل فى آن واحد، محطات للقوافل فيما بين البحر المتوسط وقلب أفريقيا بالإضافة إلى نقاط إستراتيجية هامة. وتقع واحة سيوة فى الشمال. وسوف تصبح

فيما بعد مكانًا فضّ فيه جوبيتر(*)- آمون مغاليق الوحي ليختار الإسكندر الأكبر ويتوّجه ملكًا على مصر. أما وادي النطرون فقد كان أقرب إلى الوادي. ثم تصطف على التوالي في اتجاه الجنوب الواحات البحرية والفرافرة والداخلة والخارجة. ومنذ وقت مبكر قامت الإدارة المصرية بضم هذه الواحات. وفي ظل الأسرة الرابعة كانت واحة الفرافرة مقراً لحاكم مصري، وربما ينطبق الشيء نفسه على الواحات البحرية. وقد عثر في الواحات الداخلة على مصاطب تعود إلى الأسرة السادسة وعلى ألواح حجرية وغيرها من المعالم الأثرية. وفي هذه الواحات الأخيرة يواصل في الوقت الراهن باحثو المعهد الفرنسي للدراسات الشرقية بالقاهرة IFAO أعمال التنقيب. إن الكشوفات التي توصلوا إليها في بلدة بلاط بالواحات الداخلة وفي الواحات الخارجة أيضًا تثبت أن حكامًا مصريين كانوا يتولون منذ ذلك الزمن إدارة شئون هاتين الواحتين الأخيرتين بل وتم تحويلهما بالفعل إلى إقليمين مصريين.

كانت لهذه *«الجزر»* القائمة وسط الصحراء الغربية أهميتها السياسية الإستراتيجية فضلاً عن أهميتها الإقتصادية. فتمدّ مصر بموارد إضافية لا يستهان بها: فقد اشتهرت بزراعة الكروم بدءًا من الواحات البحرية حتى الواحات الخارجة، كما كان أبناؤها يقومون بتربية حمير صغيرة صهباء اللون، فكانت دواب لا غنى عنها في مختلف الأعمال ولنقل السلع والبضائع. كانت الحكومة المركزية تولي هذه الأملاك إهتمامها فأمرت بحفر الآبار الضرورية لإعاشة أبنائها، وشيدت فيها المعابد من أجل آلهة مصر.

٢- بلاد البحر المتوسط. التجارة والسياسة

في الشمال كان البحر المتوسط الذي يصب فيه نهر النيل، يشكل حدود مصر الشمالية الطبيعية. وإن لم تقف هذه الحدود أبداً في وجه الرغبة في التوسع التجاري

(*) وهو عند الرومان المقابل للإله زيوس عند اليونان. (المترجم)

أو قيام أبناء وادى النيل بما يحلو لهم من مغامرات. لقد أثبت المصريون منذ أقدم عصور تاريخهم المديد أنهم ملاّحون جسورون يتحلّون بالجرأة والشجاعة. فشقوا قبل الفينيقيين عباب مياه *«الشديدة الإخضرار»*، فأبحروا على متن سفن تبلغ ستين متراً طولاً وشراعها من الكتان وبدنها من خشب الأرز، يدفعها صفان من المجدفين، صف عند ميسرة السفينة وآخر عند ميمنتها. كان المصريون يطلقون اسم *«الشديدة الإخضرار»* سواء على البحر المتوسط أو البحر الأحمر. إن حركة المياه المتجددة على الدوام فى هيئة أمواج متلاحقة، كانت تعيد إلى أذهان المصريين إيقاع دورة حياة النبات التى لا تكلّ أيضًا ولا تتوقف. كانوا يبحرون بمحازاة الشواطئ مروراً بأرض كنعان متجهين إلى أكبر موانئ المشرق الأسيوى فى فينيقيا، كما دعّموا علاقاتهم بجزيرتى قبرص وكريت منذ وقت مبكر. وإذا عدنا أدراجنا ناحية الجنوب نجد أن سيناء كانت أرضًا ملحقة بمصر.

كنعان – أرض – البدو

وفيما وراء صحراء النقب وإلى الشمال الشرقى من مصر، كانت تمتد أراضى شاسعة تجوب أرجاءها القبائل الرحل: إنها بلاد كنعان. إن القبائل البدوية التى تنحدر من أصول سامية كانت تعيش هنا على سلب ونهب القوافل وقد أطلقت عليها النصوص المصرية القديمة اسم نميو شعى أى *«السائرين على الرمال»* أو اسم حريو شع أى *«القاطنين فوق الرمال»*. وإبان الأسرة الثامنة عشرة قام بدو آخرون هم الشاسو بإثارة القلاقل والإضطرابات فى بلاد كنعان ضد مصر. ومنذ الأسرة الثالثة، كانت مصر مسئولة عن أمن الدروب فى هذه المناطق بواسطة شرطة يرأسها موظف خاص هو *«حامل أختام الأسيويين»*. كانت كنعان منطقة غير محددة من الناحية السياسية وتنتهى عند البحر المتوسط بشاطئ رملى، كما كانت تضم آنذاك موانئ ثانوية مثل غزة وعسقلان وحيفا.

إن هيمنة مصر على هذا البلد واضحة كل الوضوح منذ وقت مبكر، والمحافظة

على هذا الوضع كان يتطلب مراقبة عسكرية متواصلة. فمن شرق الدلتا ومن غربها على حدٍّ سواء، كان ثراء وادى النيل يشكل إغراءً ومطمعًا يحركان بطبيعة الحال البدو الرحل القاطنين فى السهوب والصحارى.

فينقيا

وإذا واصل المرء سيره فى اتجاه الشمال يصل إلى أكثر مناطق الشرق الأدنى القديم ثراءً وازدهارًا، وسرعان ما أصبحت محل أطماع القوى السياسية السائدة فى ذلك العصر. هذه المنطقة هى فينقيا التى لم تكن دولة بل مجموعة «دول- مدن» على رأس كل واحدة منها أسرة حاكمة من الأمراء أو مجلس مدينة. كانت تمتد من قمة جبل الكرمل(*) جنوبيًا وحتى مدينة أوغاريت - رأس شمرا حاليًا - وهى أكثر الموانئ تطرفًا ناحية الشمال. كان البحر المتوسط هو العنصر الوحيد الذى يجمع شمل هذه المنطقة ويوحِّد مدنها. فكان يحد جانبها الشرقى وأكثر الأماكن مواتية للملاحة. كانت فينقيا ذاتها تنقسم إلى قطاعات تفصلها نتوءات لبنان الصخرية التى كانت تصل أحيانًا حتى شاطئ البحر. وكان أهل البلاد يمارسون بعض أعمال الزراعة قرب مصب نهر الليطانى أو إلى الجنوب من عكا. إن أهم موردين كانا يشكلان ثروة فينقيا هما غابات أشجار الأرز الشاسعة التى كانت تغطى منحدرات جبل لبنان بالإضافة إلى مجموعة موانئها التى يحتضنها شاطئ مناسب لرسو السفن. فتمتد من الجنوب إلى الشمال مرافئ صور وصيدا وبيبلوس(**) وسيميرا وأرواد وأوغاريت. أما فى الشرق فكان من الصعوبة بمكان عبور الجبل الشامخ. ولكن الإتصالات كانت سهلة فى الجنوب مع مصر وفى الشمال مع واديْ نهرى دجلة والفرات بعد عبور صحراء أعالى سوريا. كانت فينقيا ملتقى الطرق التجارية على اتصال دائم مع العالم القريب أو البعيد، مما اكسبها مكانة متميزة.

(*) ويشرف هذا الجبل على مدينة حيفا. (المترجم)

(**) أطلق المصريون على هذه المدينة اسم «كبن» فى حين أسماها الأكاديون «جوبله» أو «جبيل». (المترجم)

كانت العلاقات مع مصر قديمة قدم الزمن، كما كانت ثابتة ومستقرة. واكتسبت **بيبلوس** مكانة خاصة. لقد باشر **بيير مونتيه Pierre Montet** منذ عام ١٩٢١، أعمال التنقيب في موقع **جبيل** وهي **بيبلوس** القديمة. فأخرج إلى النور بقايا معبد - كانت قد أشعلت فيه النار ثم تم تسويته بالأرض وغُطِّي ببلاطات كبيرة. وعثر في أطلاله على قرابين جاءت من مصر وأسطوانات لختم لوحات يعود تاريخها إلى العصر الثيني(*)، وتصور منذ هذه الفترة المبكرة إلهة **بيبلوس** وقد ازدانت برموز مصرية. كما تم الكشف عن أواني تحمل خراطيش الملوك من **كاو رع** و**أوناس** و**بيبي** الثاني[٧]. كان السفر إلى **فينقيا** من الرحلات السهلة: سواء اختار المسافرون الطريق البرى بمحازاة الشاطئ أو اختاروا طريق البحر: فإبان شهرى مايو ويونيو عندما تهبّ الرياح الموسمية كانت رحلة المراكب الشراعية الضخمة تستغرق أربعة أيام لقطع مسافة الستمائة وخمسين كيلومتراً التى تفصل دلتا **النيل** عن شاطئ **فينقيا**. وحسبما ورد فى حجر **بالرمو** أرسل **سنفرو** حول عام ٢٦٠٠ق.م إلى **بيبلوس** أسطولاً يتكون من أربعين سفينة بقيادة الأمير الملكى **مر إيب** لاحضار أشجار الأرز الباسقة، لأخشابها الضرورية لبناء سفن أعالى البحار وصناعة أبواب المعابد أيضاً.

يبدو أن المدينة قد اعترفت فى ظل الأسرة الخامسة بالسيادة المصرية. بل من المحتمل أن المصريين شيدوا هناك معبداً وزخرفوه. فقد صُوِّر فيه الملك **أوناس** بينما تحتضنه الآلهة **بعلت** «*سيدة بيبلوس*» فى هيئة الإلهة **حتحور**. أما الإله الشمسى لمدينة **بيبلوس** فقد أطلق عليه المصريون اسم «*رع القائم على بحيرة فرعون*». كما أن ملك **بيبلوس** يدعى «*ابن رع فى البلدان الأجنبية*[٨]». ومنذ ذلك الزمن، كانت البلبة الروحية تشكل سنداً للوحدة السياسية. إن أقدم وثيقة فى **بيبلوس** كانت مدونة بعلامات هيروغليفية مستعارة من مصر. هل تزوج **ساحورع** ذاته أميرة من **فينقيا**؟ حقيقة يمكن

(*) أو العتيق ويغطى الأسرتين الأولى والثانية. (المترجم)

استنتاجها من نقشين نحتا في المعبد الجنائزي لهذا الملك في «أبو» صير(*) وتصور على الجدارين الشمالي والجنوبي، مغادرة أسطول من أساطيل أعالي البحار وعودته. وكان وسط التكوين الجداري تشغله، على ما يظن، صورة الملك. أما في رحلة العودة، فيظهر بعض الفينقيين على متن السفن. ويمكن التعرف عليهم بفضل شعرهم الطويل المربوط بشريط ولحيتهم المدببة. كان في صحبتهم نساء وأولاد وقد انضموا إلى طاقم السفن للترحيب بملك مصر والهتاف له. ومن المعتقد أن الأميرة التي جاءت من أقاصي الأرض إلى بلاط منف كانت موجودة على السفينة التي تتقدم الموكب ولكن صورتها مهشمة تهشيمًا بالغًا في الوقت الراهن. ومع ذلك ما زلنا نقرأ العبارات الآتية: «*إن نفرت – أي «الجميلة» – تأتي إلى هنا بجوار ساحورع، ابن رع*[٩]».

بعد أن وُضع حد للفوضى والإضطرابات التي أعقبت الأسرة السادسة، أعاد الملوك الجدد هيمنتهم على الموانئ الفينقية وعلى بيبلوس بطبيعة الحال. كانت هذه الحماية تمنح مصر مكانة الصدارة في تجارة البحر المتوسط، وتضمن لهم التحكم في طرق التجارة في آسيا . ويعتقد أن ملوك الأسرة الثانية عشرة كانوا يسيطرون ويشرفون على ساحل البحر المتوسط حتى مدينة أوغاريت. ومن غير المستبعد من ناحية أخرى أن حكامًا تساندهم الحاميات، قد وقع على عاتقهم تدعيم الوجود المصري في كبرى مراكز التجارة الدولية هذه.

كان المصريون يطلقون في معظم الأحوال على فينقيا اسم چاهي. لقد احتدم النقاش حول هذه التسمية. ولكن بالرجوع إلى نص *حوليات* تحوتمس الثالث[١٠]، يبدو بوضوح أن منطقة چاهي مطابقة لفينقيا ،لأن الملك كان مسئولاً عن «السهر على سلامة الموانئ[١١]». فكان ذلك أهم إسهاماته لتأمين إزدهار الإمبراطورية الوليدة.

(*) وهو الاسم الحالي للاسم المصري القديم «پر أوزير» أي «بيت أوزيريس». وفي الوقت الراهن يطلق هذا الاسم على عدد من البلدات: أبو صير في محافظة الجيزة وأبو صير الملق عند مدخل الفيوم وأبو صير بنا قرب سمنود وأبو صير غربي الإسكندرية...(المترجم)

مدن الرمال

تعود أهمية المنطقة الواقعة بين أرض كنعان وفينقيا من ناحية، والعمق الصحراوى من ناحية أخرى، إلى وجود مدن قوية ومحصنة في الغالب، وهى أشبه بالوكالات الكبرى التى تتوقف عندها القوافل. فكانت محطات يتزود فيها المسافرون عبر الدروب. ولا شك أن التحامسة قد أقاموا إمبراطوريتهم على أساس فرض هيمنتهم الحازمة على المدن الفينقية لتكون فى يدهم، ولكنهم أعتمدوا أيضاً على مدن الرمال هذه، فكانت فائدتها الإستراتيچية عظيمة الشأن.

كانت العلاقات مع مجدّو تحديداً نشطة. فهذه المدينة تتميز بموقعها عند منافذ معابر جبل الكرمل شمال غرب فلسطين. وقد أوفد سنوسرت الثالث چحوتى حوتپ إلى بلاط مجدّو بصفته سفيراً فوق العادة. كما لابد أن نعيد إلى الذاكرة الحملة العسكرية التى خرج على رأسها القائد خوسويك فى عهد سنوسرت الثالث ليشن هجومًا على مدينة سيشم – وهى نابلس فى الوقت الراهن[١٢]. وبعد فترة قصيرة سوف تضطلع مدن دمشق وحلب وتدمر بدورها فى صياغة تاريخ مصر والشرق الأدنى.

إن لفظ ريتنو – اسم علم يرد فى النصوص المصرية للدلالة على ما يعتقد، على جوف هذه المناطق التى لم تكن قد توحدت حتى الآن، وتضم مدنًا منتشرة فى الصحراء، يحكمها فى الغالب الأمراء ويتوقف عندها المسافرون والتجار، فهى محطات ضرورية فيما بين بلاد ما بين النهرين والبحر المتوسط وبين الجزيرة العربية وآسيا الصغرى. كما أن مشايخ محليين كانوا يتولون السلطة فى واحة انبثقت فجأة من بين رمال الصحراء. وسوف يستقبل أحدهم سنوهى الذى كان، كما سبق أن ألمحنا[١٣]، موفداً غير رسمى لفرعون ويركز اهتمامه على عقد صداقات وتحالفات مع أمراء الصحراء هؤلاء. ولا يخامرنا أدنى شك فى أن ضربًا من ضروب الدبلوماسية الشرقية والسرية – كإرهاص للدبلوماسية الإمبراطورية العظيمة – كانت قائمة، وإن لم تصلنا عنها شواهد أخرى. كما أن لفظ ريتنو قد ظهر لأول مرة فى قصة سنوهى. ويميز البعض أحيانًا بين ريتنو السفلى وريتنو العليا، وإن كنّا لانعرف على وجه التحديد النطاق الجغرافى الذى تغطيه كلتا التسميتين.

جزر البحر المتوسط

يبدو أن بعض الصيادين كانوا يقيمون بشواطئ جزيرة قبرص منذ الألف الرابع قبل الميلاد. وحول عام ٣٠٠٠ق.م جاءت هجرة كارية(*) لتعمّر الجزيرة وتطبعها بالطابع الذى ستحتفظ به طوال العصر اليونانى الرومانى القديم: كان اقتصاد الجزيرة قائمًا من ناحية على الزراعة، كما ازدهر بسرعة نشاطًا تعدينيًا حول أهم مراكز استخراج النحاس فى ترووس فى وسط الجزيرة. كانت قبرص مركزًا تجاريًا كبيرًا له علاقات ثابتة مع فينقيا، القريبة نوعًا ما، ومن المحطات المفضلة للتبادل التجارى مع مصر. ولكن من المعتقد وجود علاقات مباشرة.

وتطلق النصوص المصرية على جزيرة قبرص اسم آلاسيا.

ومنذ العصر الثينى فى مصر استخدمت كريت بعض العلامات الهيروغليفية كمواضيع زخرفية، ومنها المخصص الذى يلحق بالكلمتين الدالتين على الصحارى أو البلدان الأجنبية(**). كانت هذه البلدان تمتد فيما وراء المناطق القاحلة المحيطة بالوادى. كما استخدمت موضوع السهمين المتقاطعين رمز الإلهة نيت التى كانت مدينة سايس(***) بالدلتا مركزًا لعبادتها. وعُثر على أوانى من كريت فى سقارة وسط أطلال المعبد الجنائزى للملك أوسركاف أول ملوك الأسرة الخامسة. ومن ثم يمكن القول إن العلاقات بين كريت ومصر موغلة فى القدم سواء كانت علاقات مباشرة (؟) أو تمت من خلال اتصال التجار والبحارة من أبناء مصر وكريت فى الموانئ الفينقية، بصفتها كبرى مراكز التبادل التجارى الدولى.

وحول عام ٢٠٠٠ق.م وهو التاريخ الذى يتفق وبداية الأسرة الثانية عشرة

(*) نسبة إلى منطقة كاريا فى أسيا الصغرى. (المترجم)

(**) مخصص الصحارى أو البلدان الأجنبية وارد فى المراجع الآتية:

برنادیت مونی. المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. ترجمة: ماهر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٩، ص٢٧.

A. Gardiner. Egyptian Grammar. third edition. 1982 p.33, 488. (المترجم)

(***) الاسم اليونانى لمدينة «ساو» المصرية القديمة وصا الحجر حاليًا. (المترجم)

المصرية عرفت كريت انطلاقة مفاجأة. وهو العصر الذى شهد تشييد القصور فى مدن كنوسّوس وفايستوس وماليا أساسًا. ولكنها دمرت فى القرن الثامن قبل الميلاد من جراء كارثة. أكانت زلزالاً أم حربًا (؟). وسوف يعاد بناؤها لتدخل كريت مرحلة جديدة من حضارتها وتسجل أوج ازدهارها.

كانت العلاقات مع مصر راسخة وهامة. وقبل فترة قصيرة من بداية الأسرة الثانية عشرة لوحظ أن البلدين كانا يستخدمان فى آن واحد الأختام نفسها وهى فى هيئة قرص صغير، قد يزود أحيانًا بمقبض صغير حلقى الشكل. والأختام مزخرفة بمواضيع مختلفة ذات أصول غير مصرية، من رسومات حلزونية أو مجدولة ومتشابكة... وخلال الأسرة الثانية عشرة المصرية استبدلت أحيانًا بهذه الأختام أشكال صغيرة، تصور جعارين(*). وقد لعبت هذه الأشكال فيما بعد دوراً متميزًا فى المناسبات التى كان يراد تخليد ذكراها. وفى ظل الأسرة الثامنة عشرة كان تتويج الملك أو زواجه أو حدث هام فى البلاط الملكى مناسبة لإصدار مجموعة من الجعارين لتذا ع على نطاق واسع وتبلّغ قصور الحكام الأجانب النبأ السعيد. وهكذا اتخذ بعض أبناء كريت من مصر مقامًا لهم واشتغلوا بالتجارة وصناعة الفخار. وكان زيت الزيتون على رأس قائمة ما يستورده هؤلاء الكفتيو، وهو الاسم الذى أطلقه المصريون عليهم. فكانت شجرة الزيتون مجهولة حتى الآن من المصريين.

وقد تخصص ميناء فايستوس الواقع فى جنوب الجزيرة فى التجارة مع الدلتا.

جزر القوقلادس(**) وبحر إيجه

ولا شك أن مصر قد ربطتها علاقات تجارية مع جزر بحر إيجه عن طريق الموانئ الفينقية. ومنذ أولى الأسرات المصرية، يبدو أن جزيرتى ميلوس وساموس قد

(*) مع تجنب الخطأ الشائع. والصواب أن الباء تدخل على المتروك. راجع على سبيل المثال سورة البقرة. الآية٦١. (المترجم)

(**) مجموعة من الجزر فى بحر إيجه. اسمها مشتق من الكلمة اليونانية «قوقلوس» وتعنى «دائرة». تبلغ مساحاتها الكلية ٢٥٧٢كم٢ وعدد سكانها فى الوقت الراهن حوالى ١٠٠٠٠٠نسمة.(المترجم)

أمدتا مصر بالسبج المعروف أيضًا بالزجاج البركانى الذى استخدمه المصريون منذ هذه الأزمنة. كما أن المقابر المصرية الموغلة فى القدم كانت تحتوى أحيانًا بعض الأوانى الفخارية المصنوعة فى جزر بحر **إيجه**.

كانت جزر **القوقلادس** غنية إذن بالسبج والظران والمرمر ويسكنها شعب من العاملين فى صناعة التعدين ومن البحارة وقد أقاموا قبل أهل جزيرة **كريت** ذاتها، علاقات تجارية مع منطقة **طرواس**(*) وجزيرة **أوبويا** وعن طريقها بمنطقة **فوكيس** فى شبه جزيرة اليونان. وحول عام ٢٥٨٠ق.م تأثرت جزر بحر **إيجه** تأثرًا عظيمًا بحضارة **كريت**(**) وأصبحت الإلهة الأم التى تعبد فى **ديلوس**(***) الإلهة القومية لجزر **القوقلادس**.

وفى مصر بل وفى **النوبة** عُثر على أوانى من طراز جزر بحر **إيجه**. ونذكر تحديداً هذا الإناء الرائع الجمال الذى تم الكشف عنه فى مقبرة فى **أبيدوس** ويعود تاريخه إلى الأسرة الثالثة عشرة.

أما المصطلح المصرى **حاو ـ نبوت** المستخدم منذ عهد **خوفو** بل ومنذ عصر ما قبل الأسرات على ما يعتقد، فما زال غموض معناه «لغزاً» محيراً. إن شروحه متعددة. والكلمة تعنى: «*أولئك الذين حول السلة*». فمن الراجح أن كلمة **نبوت** تدل على جزر أو وهدات أو أحواض غرينية (؟). بل إن الكلمة ذاتها ملتبسة المعنى، فقد تدل إما على منطقة جغرافية طبيعية أو على شعب. ويبدو على كل حال أن موقع **الحاو ـ نبوت** كان فى الشمال. وساد الإعتقاد لفترة طويلة أن سكان جزر **إيجه** هم المعنيون بهذه التسمية. وقد حاول **چان ڤيركوتير** Jean Vercoutter أن يبرهن على أن المصطلح يدل بالأحرى على إحدى المناطق الشمالية فى **آسيا**(١٤). ومنذ زمن قريب قيل أن **فينقيا** هى المقصودة(١٥). ويبدو فى واقع الأمر أن تحديد موقع هذا المصطلح قد تغير

(*) تقع هذه المنطقة فى الطرف الشمالى الغربى من آسيا الصغرى، وكانت عاصمتها **طروادة**.(المترجم)

(**) من أهم جزر بحر **إيجه**، وتقع فى أقصى جنوبها. (المترجم)

(***) من أصغرر جزر **القوقلادس**. (المترجم)

باختلاف العصور، استناداً إلى حصافة الفرضية الى تقدم بها فيركوتير ومفادها أن أى تفسير لا يلغى بالضرورة تفسيراً آخر، على امتداد ثلاثة آلاف سنة من التاريخ.

وشمال بحر إيجه وفى القسم الشمالى من شاطئ آسيا الصغرى كانت طروادة قد أصبحت مدينة كبيرة منذ عصر الأسرة الخامسة على وجه التقريب. ويبرهن وجودها على تعاظم أهمية الملاحة منذ ذلك الوقت بين البحر الأسود وبحر إيجه. كانت تجارة عبور البضائع من الشرق إلى الغرب، السبب وراء تأسيس طروادة. وقد تعاظمت ثروتها من جراء ما تحصل عليه من رسوم عبور وتوقف السفن فى مينائها. وسوف تلعب دوراً عظيماً فى السياسة الدولية إبان عصر الملوك الرعامسة.

وإذا حولنا أنظارنا إلى غرب بحر إيجه عند شواطئ البحر المتوسط نجد شبه الجزيرة اليونانية التى كانت لا تزال منطقة فقيرة ومتخلفة. وسوف تشهد أولى تباشير تطورها إبان العصر المينوى(*) تحت تأثير حضارة كريت، ولكن تاريخ اليونان كان لا يزال حتى الآن فى مرحلة الطفولة.

سيناء

وإذا غادرنا غزة وكنعان وغيرنا اتجاهنا من الشمال إلى الجنوب وصلنا إلى شبه جزيرة سيناء الصحراوية المرتفعة، وكانت منطقة شاسعة تابعة لمصر من جهة الشرق وتشكل وحدة متصلة تقع إلى جنوب كنعان والريتنو.

كانت سيناء آنذاك جزءاً لا يتجزأ من مملكة وادى النيل. فكان المصريون يستخرجون منها أحجار الكوارتز الحاوية على الذهب فتغسل فى مكانها ثم ينقل الذهب داخل أكياس مصنوعة من الجلد تحت رقابة عسكرية مشددة. كما كانت مصدراً للنحاس الذى يستخدم تحديداً فى صناعة التماثيل أو فى عمارة المعابد، كما

(*) وهو أقدم عصور حضارة كريت. (المترجم)

كانت توفر لمصر الأحجار الكريمة من فيروز ودهنج وزمرد. وتركز العمل فى منجمين رئيسيين: **المغارة**، وهو الاسم الذى أطلقه أهالى المنطقة على التلال التى حفرت فى سفوحها محاجر الفيروز وليس على وادٍ، كما يقال أحيانًا. وقد تم الكشف عن آثار لحلات إقامة مصرية على بعد ستة عشر مترًا أسفل قمة التل، وهى عبارة عن مئتى منزل مستطيل، شُيد معظمها من أحجار خشنة مرصوصة بلا ملاط ولا يتجاوز ارتفاعها المتر الواحد. كان مدخلها ضيقًا وتحميها الخنادق. كانوا يجلبون الماء من وادٍ قريب لا يبعد أكثر من كيلومترين. كانت المحاجر محفورة فى جانب التل المنحدر على مسافة ٨٥مترًا فوق الوادى. وإلى الشرق قليلاً شمال المغارة يقع ثانى أهم مناجم سيناء وهو **سرابيط الخادم**. إنه عبارة عن هضبة من الحجر الرملى الأحمر، تشكل قمة نتوء جبلى يبلغ ارتفاعه تسعمئة متر وتتشعب منه الوديان[١٦].

ومنذ الأسرات الأولى والمصريون يترددون على سيناء. وتشهد المخربشات المحفورة على صخور مغارة على قيام حملة فى عهد **جسر**. فاستحدثت آنذاك وظيفة «*مدير كافة أشغال الملك*» التابع لدائرة أشغال الملك. كان من كبار الموظفين وأحد أعضاء *مجلس العشرة* ولا تقع على عاتقه مهمة الأعمال الجارية فى محاجر مصر فحسب، ولكن كان يناط به فضلاً عن ذلك، تنظيم الحملات المتجهة إلى سيناء. ويبدو أن **سنفرو** قد خطى بسياسة تواجد مصر فى شبه جزيرة سيناء خطوات واسعة، وتحديداً فى مجال الاستفادة من مناجم النحاس ومحاجر الفيروز فى مغارة. وإبان الأسرة الخامسة زادت إلى حد كبير الحملات المتجهة إلى سيناء، وبدأ العمل يسير بصورة منتظمة: فحفرت مناجم بممرات ذات دعائم. ومع مطلع الأسرة الثانية عشرة، بدى أن مناجم مغارة قد بدأت تنضب. ومن ثم شرع الملوك يرسلون الحملات الضخمة إلى **سرابيط الخادم** التى لم تكن قد استغلت من قبل، على ما يبدو. كانت كل حملة تضم من سبعمئة إلى ثمانيمئة رجل بقيادة ضباط الخزينة الملكية؛ لأن الفيروز كان ملكًا لخزينة فرعون. وكان العمال رجالاً أحراراً وقّعوا على عقود عمل. ومن الملاحظ أن بعض الآسيويين وكانوا غالبًا من **الريتنو** ينضمون إلى هذه الفرق، ولكن بأعداد محدودة مقارنة بأعداد قاطعى الأحجار والنجارين وغيرهم من العمال المهرة. ومن الواضح أنهم كانوا لا يعملون فى المناجم ولكنهم كانوا يختارون بصفتهم «خبراء»

يعرفون هذه البلاد، فيمكن إذا لزم الأمر، أن يقوموا بدور الوسطاء عند الإتصال بالبدو الرحل في هذه المنطقة - وهم قبائل عدوانية يتوقون إلى الاستحواذ على ثروات جبال هذه الأصقاع.

كانت الدروب إلى سيناء كثيرة ومتنوعة. والمألوف منها في المعتاد كان يجمع بين الطريق البرى والطريق البحرى: فتبدأ الرحلة من كوپتوس إلى الشمال قليلاً من مدينة طيبة وتسلك وادى الحمامات مع تسجيل اسم الرحلة عند عبورها، على صخور الصحراء الشرقية ثم تبحر في البحر الأحمر في اتجاه الشمال وصولاً إلى سيناء. أما الطريق البرى فكان يسير بمحازاة الجانب الغربى ثم الشرقى من خليج السويس ليصل إلى الوديان والجبال الغربية من شبه جزيرة سيناء.

سار هذا الوجود البشرى في سيناء جنبًا إلى جنب مع إدخال العقائد الدينية. فأقام ملوك الأسرة الثانية عشرة معبداً في سرابيط الخادم وعمل على تشييده، كل من أمنمحات الثالث وأمنمحات الرابع تحديداً. كان تحوت يعبد في المغارة. ولما كان إلهاً قمريًا فربما اندمج في الإله القمر المحلى الذى يعبده البدو وهذا ما قد يفسّر اللقب الذى أطلق عليه في هذه البقاع فهو «رب *البدو*». أما حتحور «*سيدة البلدان الأجنبية*» فكانت تعبد في سرابيط الخادم. ولكنها لم تكن غائبة عن المغارة: فعلى إحدى صخور الموقع صُوِّر چسر تتبعه حتحور في هيئة بقرة. ويمسك الملك بيديه الصولجان واس وعلامة الحياة. وأخيراً فقد انتشرت في هذين الموقعين الرئيسيين في سيناء عبادة ملكية من أجل سنفرو.

كانت الكتابة المصرية نموذجًا للكتابة المعروفة بالپروتوسينائية أو السينائية الأولى proto-sinaïtique التى عُثر على آثارها الأساسية في سرابيط الخادم اعتبارًا من الأسرة الثانية عشرة: إنها كتابة في خط مستقيم(*) قائمة على عدد محدود من العلامات تشير في معظمها إلى صور العلامات الهيروغليفية. ويعتقد أن هذه العلامات شكلت أولى الأبجديات بالنسبة للآسيويين القاطنين في هذه المناطق وفي المقام الأول

(*) تتميز هذه الكتابة بمقاطعها الصوتية الأحادية القيمة، وتمتد على خط أفقي، وتحل محل صور العلامات الهيروغليفية. (المترجم)

الذين كانوا يرافقون الحملات المصرية. وتستجيب هذه اللغة السامية البدائية لمبدأ **الأكروفونيا acrophonie**(١٧).

أما عن المدونات المصرية الكثيرة التي حفرت على مر العصور على امتداد تاريخ الفراعنة على صخور جبال سيناء أو على الألواح التي أقيمت في هذه المنطقة، فإنها تشكل منهل لا ينبض لفهم هذا التاريخ ومعرفة الملوك الذين نظموا هذه الحملات والرجال الذين قادوها. وهو ما يوفره لنا هذا النص المنحوت على لوح صخرى:

العام ٤٥، من عهد صاحب الجلالة الإله الكامل نى ـ ماعت ـ رع (أمنمحات الثالث)، *محبوب حتحور. إن الصديق الحميم للعاهل الملكى، المنتمى إلى مودته الحانية، قائد الجموع الغفيرة فى بلد الرجال الآخرين، العقل الفطن* عندما يقدم تقريراً *إلى سيده... لقد وصل بقدميه إلى حدود البلدان الأجنبية*، مستكشفاً *الوديان التى* عميت *مسالكها، وبلغ حدود المجهول، إنه* **بتاح ور**، *رئيس الخزائن الملكية، الصادق- القول، الذى أنجبه* **إيتو**(١٨).

لم يذهب **بتاح ور** إلى بلد أجنبى ولكن إلى «*بلد الرجال الآخرين*»، الممتد حتى حدود البلدان الأجنبية. فسيناء أرض مصرية، والفارق الوحيد القائم بين الوادى وشبه الجزيرة هو البشر الذين يعيشون على أرض كل منهما؛ فقد ظل المصريون يشعرون بقدر من الإحتقار تجاه البدو الرحل الذين «*لا يسكنون فى مكان واحد ولكن تمشى* سيقانهم *على أراضى مساراتهم*»(١٩).

٣- إمبراطورية بابل

وناحية الشرق، كانت بلاد ما بين **النهرين** تغطى حوضى نهرى دجلة والفرات، وكانا ينبعان من منطقة مجاورة فى جبال **أرمنيا** ويصبان فى **الخليج الفارسى**(*).

كانت بلاد ما بين **النهرين** منطقة شاسعة للمواصلات: فجبال **عيلام** تحف

(*) أو الخليج العربى كما نطلق عليه. (المترجم)

وديان النهرين من جهة الشرق، أما روافدهما فتقود الإنسان إلى هضاب إيران وبلاد السند، وتحدها من جهة الشمال الشرقى جبال زاجروس وشقت روافد نهر دجلة طرقًا توصل إلى بحر قزوين. وإذا كان مقدر لبلاد ما بين النهرين أن تكون أرضًا زراعية كما هو الحال بالنسبة لمصر، فكان اقتصادها اقتصادًا نهريًا، تغمر أرضها الفياضانات من مارس وحتى سبتمبر، إلا أنها كانت فى المقام الأول طريق عبور عظيمًا على الصعيد الدولى ودروبًا ممتدة للهجرات يقطعها البدو الرحل والباحثون عن موئل مستقر. وفى البداية نشأت المدن عند مخارج الدروب فى المناطق التى تلتقى عندها القوافل بالأنهار: مدينة آشور على نهر دجلة ومارى على نهر الفرات. أما بابل فقد ظلت لفترة طويلة قرية بسيطة شأنها شأن طيبة على نهر النيل، وكان مقدر لعاصمتى الشرق العظيمتين أن يكون مصيرهما مماثلاً.

وفى أعالى ما بين النهرين، استقر فى بلاد آشور شعب ربما انحدر من أصول قوقازية. وقد عثر فى هذه المنطقة على بقايا تعود إلى أواخر العصر الحجرى القديم. «*فكان الملوك من سكان الخيام*» يهيمون آنذاك عبر سهوب نهر دجلة، والبدو الرحّل يسطون على القوافل التى تسلك الدروب القديمة التى تربط القوقاز ببحر قزوين. وتشكلت فى بلاد ما بين النهرين السفلى، فى بداية الأمر أسرات محلية تَولت حكم المدن–الدولة. ونذكر منها كيش فى منطقة أكّاد، وكان يقطنها الساميون ومدن أور وأوروك ولاجاش فى بلاد سومر. إن أصول السومريين متنوعة وما زالت موضع جدال، وبادئ ذى بدء (؟)، فمن المحتمل أن بعض البدو الساميين الذين كانت ترعى ماشيتهم فى الهضاب الوسطى بشبه الجزيرة العربية قد استقروا فى المستنقعات الجنوبية، ولكن سرعان ما ظهر السومريون الذى يعنى اسمهم «*الرءوس السوداء*»، وربما (؟) قدموا من الهضاب الإيرانية حيث كانوا جزءًا من جماعة بشرية انبثقت منها أيضًا شعوب وادى السند. ويمكن عقد مقارنة بينهما تشمل عددًا من النقاط. ولكن أخذت الإسهامات السامية تتعاظم فيما بعد. وبدأت تلوح فى الأفق الصراعات حول السلطة فى لاجاش، ولا سيما بين الملوك وكهنة الإله ننجيرسو. هكذا ظهرت الطموحات السياسية.

وحدث أول «تجمّع» فى القرن الرابع والعشرين ق.م، فى زمن الأسرة السادسة

المصرية عندما وحّد سرجون الأكّادي بلاده وبلاد سومر. «لقد أحيطت طفولة سرجون بالأساطير تذكرنا إحدى فقراتها بقصة سيدنا موسى. لقد ولد من أب مجهول ومن أم كاهنة في قرية صغيرة على الفرات الأوسط. وأرادت أمه التخلص منه فتركته في سلة صغيرة وضعتها في مجرى النهر. والتقطه بستاني يعمل في بستان نخيل فآواه وأشرف على تربيته وعلمه مهنته، فكان في طفولته خامل الذكر. ولكن لم تنقض فترة طويلة حتى بدأ نجمه يعلو. إن رعاية الإله عشتار له أدخلته إلى بلاط أور-زابابا ملك كيش فأصبح ساقيه، يقدم له الشراب. ثم ثار سرجون على سيده وأسس أجادا[٢٠]». واغتصاب سرجون العرش يذكرنا من بعض النواحي بما فعله أمنمحات الأول وزير مونتوحوتب الثالث[٢١] الذي دعّم وحدة مملكته الجديدة بعد أن ثار على سيده. إن مجموعة أساطير الشرق تشكل مجالاً فسيحًا لعلاقات التماثل الروحية.

واستطاع سرجون أن يغزو سومر ويحتلها بأكملها. وفي الشمال اضطر أمراء عيلام إلى الاعتراف بسيادته. كانت عيلام غنية بمناجم الفضة والديوريت، وتتحكم في طرق القوافل التي تبدأ من مدينة سوس لتنتهي في بلاد الهند. وزحف سرجون شمالاً بمحاذاة نهر الفرات إلى أن وصل إلى مدينة ماري فعاث فيها فساداً، ثم سار بمحاذاة نهر دجلة حتى مدينة آشور. بل واصل تقدمه حتى شمال سوريا وربما حتى جبال طورس. وبعد هذا «الانفجار» المفاجئ، لم تعد سلطة سرجون تسيطر في الحقيقة على كل هذه المساحة. فأصبح في واقع الأمر ملك سومر وأكّاد، وأول من وحّد بلاد ما بين النهرين. وأسس نظامًا ملكيًا في عاصمة أجادا التي لا نعرف موقعها على وجه التحديد، وإن أقيمت على ما يرجح في مكان ما حول مدينة كيش. لقد عزز السلطة الملكية في مواجهة سلطة الكهنة وجمع الجزية التي يقدمها الأمراء المحليون. وعندئذ قادت سومر بلاد آكّاد إلى ممارسة التجارة، وتشبعت الحياة السياسية والإجتماعية بالقانون السومري.

وبعد حوالي قرن من الزمن، انقضّت على البلاد شعوب جوتي، وهم من سكان جبال الشمال وانهوا موقّتًا سنوات الإزدهار التي عرفتها المملكة الوليدة. فاجتاحوا المناطق الريفية وافسدوها وانطلقت طموحات المدن إلى الإستقلال الذاتي من عقالها. دام هذا الوضع قرنًا واحداً. فاستطاعت الحضارة السومرية أن تستوعب شعوب

جوتى بالتدريج واستردت مدن الجنوب نشاطها التجارى لتستعيد ثراءها. فى هذه الفترة كانت مصر أيضًا تعيش سنوات من الفوضى. ففى العالم القديم المتحضر بغربه وشرقه، نلتقى بالزخم نفسه الذى يحرك التطور والازدهار وبفترات الصعود والهبوط ذاتها. وفى لاجاش تشهد أعمال الملك جوديا تحديداً على استعادة سومر لأمجادها التليدة. فعندما شرع يشيد معبداً للإله ننجيرسو جلب من جبال أمانوس ومن المناطق السورية المجاورة أشجار الأرز والنقس والأحجار. ومن سواحل عُمان ومن وادى نهر السند، جاء الذهب والديوريت والعقيق الأحمر ومختلف الأشجار، ربما كان الأبنوس من بينها. وقدمت عيلام الأيدى العاملة بأعداد كبيرة. كل ذلك يقف شاهداً، فى آن واحد، على مدى ثراء الدولة التى تستطيع استيراد كل هذه المنتجات النادرة والغالية، وقدرتها على تأمين وسائل النقل(٢٢).

حول عام ٢١٠٠ وقبيل قيام أمراء طيبة بتوحيد مملكة مصر، أسس أور - نامون من الأسرة الثالثة لمدينة أور، إمبراطورية كبيرة. ومن الآن خضعت المدينة لحكومة مركزية. وبالإضافة إلى بلاد ما بين النهرين تحديداً كانت الإمبراطورية تضم مناطق فيما وراء نهر دجلة وحتى عيلام، بل من المعتقد أنها شملت مدينة سوس. هكذا بلغت سومر أوج قوتها. وإذا كان اللقب الملكى الجديد هو من الناحية الرسمية «*ملك سومر وأكّاد*» إلا أن أور - نامون قد ركّز جلّ نشاطه فى إعمار سومر. فرمّم المعابد المهدمة وشق القنوات لتطوير الزراعة والتجارة وأصدر منظومة قوانين لتنظيم العلاقات الإقتصادية والإجتماعية بهدف إشاعة العدالة والتوازن فى المجتمع «*حتى لا يُسلَم الرجل الذى يمتلك شاقلا(*) واحداً لمن يمتلك سبيكة ذهب*(٢٣)».

وفى عهد خلفاء أور - نامون تفتتت الإمبراطورية شيئًا فشيًا. وتحولت آشور عن خضوعها لحكومة سومر وطورت نشاطها التجارى حتى وصل إلى كبد وقيا(**). ومن الآن أصبحت مقاليد السلطة فى أيدى أسرة جديدة عيلامية(***) سيطرت على المناطق الواقعة شرق نهر دجلة. واستولى ملك مدينة لارسا فى سومر، على أور ليصبح «*ملك*

(*) عملة نقدية محدودة القيمة. (المترجم)

(**) فى آسيا الصغرى. (المترجم)

(***) نسبة إلى عيلام. (المترجم)

سومر وأكّاد». وأصبحت تجارة الثروات التى تعبر الخليج الفارسى(*) وتشمل الأحجار والمعادن النفيسة والعاج والنحاس، تتدفق من الآن على لارسا، وحصل عدد من المدن على استقلالها.

فى هذه الأونة وفى القرن الثامن عشر ق.م تحديداً، نجد أن بابل وهى من المدن المطلّة على نهر الفرات، قد شرعت تنافس مدينة مارى فى السيطرة على كبرى الطرق التى تربط الخليج الفارسى بالبحر المتوسط. وكان حامورابى المتربع على عرشها صاحب ذكاء واضح ونفاذ بصيرة فذة وإدراك حاد فى اغتنام الفرص السياسية حتى شبهه البعض بالملك لويس الحادى عشر(**) فى فرنسا(٢٤). فأعاد تجميع مناطق ما بين النهرين وأسّس إمبراطورية شاسعة تغالب الأيام. وخاض بجدارة «حرب *الأنهار*»، فاستطاع تحالف مدن الفرات أن يلحق الهزيمة بتحالف مدن نهر دجلة. وتوحدت من جديد سومر وأكّاد ودُمِّرت مدينة مارى التى كانت تنافس بابل فى السيطرة على طرق التجار. وأخضع حامورابى بلاد آشور. كما أدّت أسباب اقتصادية إلى استعادة بابل هيمنتها. وبالفعل فإن استمرار زحف الرمال على دلتا النهرين بلا هوادة قرب الخليج الفارسى، على الرغم من تنفيذ بعض الأعمال كشق القنوات، حوّل إذن التجارة الدولية بعيداً عن منطقة ما بين النهرين السفلى، بحثاً عن طرق أخرى. واستطاع حامورابى أن يجعل مدينته تتفوق على غيرها من المدن. وفى أعقاب الفتوحات العسكرية، أعيد تنظيم الإمبراطورية الجديدة تنظيماً صارماً. وسوف تفرض قوانين حامورابى قواعدها على سائر بلدان الشرق الأدنى الآسيوى. بل إن مصر سوف تسترشد بمبادئها الرئيسية عندما أرست منذ عهد تحوتمس الرابع أسس الأعراف والعادات التى وجهت دبلوماسيتها الدولية الوليدة(٢٥).

ولكن التوازن الذى عرفته إمبراطورية بابل ومملكة مصر اهتز وتقوض من

(*) أى الخليج العربى. (المترجم)

(**) حكم فرنسا من ١٤٦١ إلى ١٤٨٣ ميلادية. بفضل سياسته الحاذقة استطاع أن يقضى على معارضة تحالفات الإقطاعيين؛ فكان من أهم صنّاع وحدة فرنسا فدعّم السلطة الملكية وطور اقتصاد فرنسا. (المترجم)

جراء الإغارات الهندوأوروبية الكبيرة. ومن أحشاء هذه التحركات التى نزحت معها أقوام مهاجرة سوف يولد عما قريب عالم جديد.

هل قامت علاقات مباشرة بين مصر وبلاد ما بين النهرين؟ الأمر محتمل ولكن لم يقم الدليل عليه. ويبدو أن هذه العلاقات كانت قائمة، على كل حال، منذ أقدم العصور؛ لأننا نلتقى بمواضيع تصويرية من بلاد ما بين النهرين، وسومرية تحديداً، على بعض القطع الأثرية التى تعود إلى عصر ما قبل الأسرات فى مصر. فمن مقتنيات متحف اللوفر فى باريس سكين عثر عليه فى جبل العركى بمصر العليا. لقد نقش على مقبضه وهو من العاج موضوع جلجامش: إن رجلاً يرتدى القلنسوة السومرية المخروطية يمسك بثبات أسدين بذراعيه الممدودتين. كما أن صورة الحيوانات ذات الأعناق المتشابكة التى نشاهدها على صلايات الشست التى تعود، إلى عصر ما قبل التاريخ فى وادى النيل وصورة الحيوانات الواقفة فى تماثل تام على جانبى شجرة، نشاهدها أيضاً فى بلاد ما بين النهرين.

هل قامت علاقات مباشرة عن طريق البحر الأحمر أو الصحارى؟ أم كانت علاقات غير مباشرة من خلال إلتقاء التجار فى بيبلوس أو فى - مدن - *الرمال*؟ أم كانت ما تبقى من آثار حضارة موغلة فى القدم لا نعرف عنها شيئاً، شملت مجمل هذه المناطق الشاسعة؟ من الصعوبة بمكان فى الوقت الراهن أن نتقدم بإجابة شافية. ولكن وجود شواهد على قدم هذه العلاقات أمر محيِّر.

٤- الغزوات الهندوأوروبية فى آسيا

منذ مطلع القرن العشرين ق.م تقريباً وحتى القرن الثامن عشر، تحركت شعوب آرية كانت تقيم فى المناطق الواقعة شمال بحر قزوين والبحر الأسود، وأخذت تزحف فى اتجاه الجنوب. هكذا هبطت شيئاً فشيئاً، من الشمال موجات متلاحقة من

الجماعات البشرية.

ويبدو أن **إيران** قد اجتاحتها في بادئ الأمر أولى الجماعات البشرية **الآرية** وهم **الميديون والفرس** الذين سيلعبون فيما بعد دوراً عظيماً في التاريخ.

كما عبرت أقوام أخرى المضايق واستقرت في **الأناضول**، واتخذت اسم **الحيثيين** الذي كان يطلق على السكان الأصليين، فقد أقام الوافدون الجدد بين ظهرانيهم. لقد عان النظام الملكي **الحيثي** الجديد الكثير من صروف الدهر، قبل أن يتمكن من فرض نفسه كإحدى القوى العظمى في العالم الشرقي، والمنافس المباشر **لمصر**. وسوف يتحقق ذلك في وقت لاحق في زمن **الرعامسة**.

كما جاء غزاة آخرون عابرين مباشرة من شطآن بحر **قزوين** في المنطقة الجبلية لمنابع نهري **دجلة والفرات** واستقروا في بلاد **الميتاني** ليؤسسوا بسرعة فائقة نظاماً ملكياً قوياً، يضم مختلف الممالك **الحورية والسامية** القائمة في المنطقة. وسوف تبرز بصفتها منافساً تجارياً وسياسياً **لمصر**. كان **الحوريون** يقيمون في هذه البلاد منذ عدة قرون. وفي القرن التاسع عشر ق.م كانوا قد أسسوا بالفعل إمارة فيما وراء جبال **طوروس**. ويبدو أن الشعوب الغازية قد دفعتهم شيئاً فشيئاً إلى طرفي الأراضي **الميتانية** وبسطت سلطانها على هذه الشعوب الأقدم منها.

وصمدت الإمبراطورية البابلية وقاومت ببسالة، ولكن في عهد **سمسون - إلونا** خليفة **حامورابي** وابنه، هبط فرسان **كاشيون** من جبال **زاجروس**. وأمكن التصدي لهم في بداية الأمر، ولكنهم استطاعوا أن يتسللوا فيما بعد إلى السهل ليصبحوا عمالاً زراعيين. كانوا منظمين في هيئة جماعات مسلحة فعاشوا أيضاً على السلب والنهب، وعندئذ تمردت من جديد المدن المتطلعة إلى الإستقلال. كانت **بلاد ما بين النهرين** تسكنها شعوب تعود إلى أصول متنوعة ولم تعرف الوحدة الجغرافية التي تميزت بها مصر. لقد ظهر ملوك أشاعوا الرخاء والإزدهار في المنطقة ولكن الظروف العرقية والطبيعية لم تكن تتلاءم مع نشأة الشعور الوطني، كما كان الحال في وادي **النيل**. ومزقت الخلافات «*بلدان البحر*» المطلة على **الخليج الفارسي**. أما **الكاشيون**، وبعد انقضاء فترة، تمكنوا خلالها من التسلل إلى داخل البلاد بالطرق السلمية إلى حدٍ ما،

فقد استعادوا أمجاد إمبراطورية حامورابى القائمة حول بابل وأسسوا أسرة حاكمة جديدة.

ومن الآن، شهد الشرق الأدنى الأسيوى قيام دول كبرى. وبعد أن أنجزت مقومات التأسيس والتنظيم التى استغرقت فترات متفاوتة، بدأت تهدد هيمنة مصر التجارية والسياسية فى البحر المتوسط والبلدان القائمة حول الأنهار. ولكن فى هذه الفترة بالذات كانت مصر تمر بمرحلة جديدة، شهدت أفول نجمها لتتوارى بعيداً فى الظل.

وبالفعل فإن الشعوب السامية التى طردتها تحركات الهجرة الزاحفة، حاولت أن تستقر إلى الجنوب قليلاً وحتى بلاد كنعان، وقد لحقت بهم جماعات آرية. وفى القرن الثامن عشر ق.م ومع تزايد أعدادها، انتهى بها الأمر إلى الدخول فى دلتا النيل. وتطلق عليها النصوص المصرية اسم حكاو خاسوت أى «*أمراء البلدان الأجنبية*»، أما الإغريق فقد ترجموا هذا الاسم بمصطلح هكسوس.

الفصل الثانى

أجانب فى مملكة مصر

١- الغزاة الهكسوس.
مُلك قصير العمر فى وادى النيل

تقاعس السلطة الملكية المصرية

مع نهاية الأسرة الثانية عشرة وبوفاة **أمنمحات** الرابع حول عام ١٧٨٥ ق.م عانت مصر من أزمة في وراثة العرش: فلم يترك الملك وريثا راشداً فخلفته على ما يبدو، ملكة اسمها **سوبك - نفرو** أى «*جمال الإله سوبك*». كانت العاصمة لا تزال فى **الفيوم** وكان يُعبد فيها على وجه التحديد **سوبك**، *الإله- التمساح* للأصقاع التى تنتشر فيها البحيرات والمستنقعات. ولا شك أن الملكة كانت ابنة **أمنمحات** الثالث ومن ثم أخت **أمنمحات** الرابع أو أخته غير الشقيقة. دام حكم **سوبك ـ نفرو** حوالى أربع سنوات. وقد ذكر اسمها فى قوائم ملوك **الكرنك** وسقارة وفى بردية **تورينو**. وفى مقياس **النيل** القائم عند الجندل الثانى فى **النوبة** سجل مستوى ارتفاع الفيضان فى تاريخ يعود إلى العام الثالث من حكمها. وعلى جزء من أسطون يحتفظ به متحف **القاهرة** وعلى لوح حجرى عثر عليه فى **هوارة بالفيوم** يذكر اسم الملكة إلى جانب **أمنمحات** الثالث. وافترض البعض إحتمال أن تكون قد شاركته الحكم[1]، وإن كنا نفتقر، من جهة أخرى، إلى أى برهان يؤكد ذلك. ويذكرنا مصيرها بالملكة **نيتوكريس**(*) التى أنهت الأسرة السادسة فى ظروف مماثلة.

إن الانتقال من الأسرة الثانية عشرة إلى الأسرة الثالثة عشرة يظل فى نظرنا فى الوقت الراهن، سنوات بلا تاريخ. ويبدو أول ملك ثبت وجوده وهو **أمنمحات ـ سوبك حوتپ** الذى لا نعرف شيئًا تقريبًا عن أصوله، قد حاول الإرتباط بأسلافه ويشهد على ذلك الاسم الذى اختاره لنفسه. ومن غير المستبعد أيضًا أنه اتخذ الملكة **سوبك ـ نفرو** زوجة له ليضفى الشرعية على تربعه على العرش. كما يبدو أن هذا الملك قد حكم مصر من أقصاها إلى أدناها، طوال أربع سنوات تقريبًا، وإن لم نجد اسمه على أى

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى نت ـ إقرت. (المترجم)

وثيقة جادت بها **الدلتا**. وشيّد بعض المقاصير في معبد المداموود إلى الشمال من طيبة وفي **الدير البحري**. كما يذكر اسمه على مقياس **النيل** عند الجندل الثاني.

ثم خلفه **سي عنخ تاوي - سخم كارع** الذي يعني اسمه «*هذا الذي يُحيي الأرضين - قوي هو كا رع*». ولكن وحدة مصر كانت قد انفرط عقدها في عهده. فلم تعد السلطة الملكية تشرف على **النوبة**. بل ربما حكم كلاً من مصر **العليا** ومصر **السفلي** نظامان ملكيان منفصلان.

أما المرحلة التالية فهي من أكثر مراحل تاريخ مصر غموضاً. وإذا أخذنا بما تكشف عنه النصوص والمدونات، يبدو أن ملوك الأسرتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة كانوا كثيرين. ولكن من المؤكد أن مصر قد عرفت في هذه الفترة أسرات متوازية. لقد تولى بعض الملوك الحكم في **منف** أو **إيت - تاوي**، قرب **اللشت**، وهي المدينة التي شيدها ملوك الأسرة الثانية عشرة في **الفيوم**[٢]. ويبدو أن ملوكًا آخرين قد اختاروا **تانيس** مقراً لهم ونذكر منهم **سمنخ كا رع - مر مشع** وهذه الكلمة الأخيرة تعني «*القائد العسكري*». ولا شك أنه كان من العسكريين واستولى على السلطة في الشمال. وقد وجدت مجموعة ألقابه منقوشة على تمثالين عثر عليهما في **تانيس** ثم استولى عليهما فيما بعد **أبوبي** من ملوك **الهكسوس**. ومعنى ذلك أنه سبق حكم الملوك الغزاة. ولما كان من المستبعد أن يكون **الهكسوس** قد نقلوا هذين التمثالين من **طيبة** إلى **الدلتا**، فالأقرب إلى الصواب أن المدعو مر مشع كان من ملوك أسرة حاكمة في الشمال.

وفي المقابل، ففي عهد **تحوتمس الثالث** من الأسرة الثامنة عشرة نُقشت على جدران حجرة صغيرة في معبد **الكرنك** أسماء الملوك المنتسبين إلى الأسرة الثالثة عشرة وحكموا **طيبة** ومصر **العليا**. ولم تنبس هذه القائمة بكلمة عن أمراء الشمال.

ولا تقدم لنا قوائم الملوك الأخرى أية معلومات. أما نص بردية **تورينو** الذي دُوّن بلا شك في مصر **العليا** في عهد **رعمسيس الثاني**، فإنه يضم سلسلة من أسماء الملوك مع توضيح عدد سنوات حكم كل منهم وكأنها متعاقبة ودون الإشارة إلى ملوك الذين عاصروا بعضهم لبعض. أما **مانتون** واستناداً إلى من نقلوا عنه، إذ ضاع مؤلفه، فقد كتب يقول: «*تضم الأسرة الثالثة عشرة ستين ملكًا انحدروا أصلاً من* ***ديوسبوليس***[٣]

Diospolis وحكموا *البلاد لفترة أربعمئة وثلاث وخمسين سنة*[٤]». ومن الواضح أن عدد السنوات مبالغ فيه إلى حد كبير ويبدو أنه لم يراعِ تزامن بعض سنوات الحكم المحلية.

وعن الأسرة الرابعة عشرة يقول مانتون: «*كانت الأسرة الرابعة عشرة تضم ستة وسبعين ملكًا انحدروا من* **خويس**(*) *Xoïs*[٥] *واستمر حكمهم مئة وأربعة وثمانين سنة*[٦]». أما بردية **تورينو** فإن نصها شديد الغموض بالنسبة لنا. ويبدو أن الأسرة الرابعة عشرة هذه، قد تسلمت مقاليد الحكم في **خويس** بينما كانت الأسرة الثالثة عشرة تحكم باقي البلاد. وربما حدث ذلك في أعقاب تمرد محليّ في مستنقعات الدلتا، دون أن نعرف أسبابه أو الأحداث التي صاحبته. فزاد الطين بلة، والتعقيد تعقيداً، حتى بات من الصعوبة بمكان تحليل واقع هذه الأسرات الفرعية والمتوازية.

ومع ذلك يمكن تمييز بعض اللحظات الهامة. نذكر على سبيل المثال عهد الملك **سخم رع- سي واج تاوي- سوبك حوتپ** ويعني اسمه: «*رع شديد البأس- هذا الذي يعيد الإخضرار إلى القطرين- ليكن* **سوبك** *راضيًا*». وبفضل هذا الاسم يُستظلّ الملك بحماية اثنين من كبرى الآلهة التي خصتهما الأسرة الثانية عشرة بعبادة خاصة: **رع** و**سوبك**. وكأنه يعلن عن أصوله المنحدرة من الشمال أو عن رغبة في الإرتباط بملوك شرعيين. والفرضية الثانية هي الأقرب إلى الصواب، إذا لاحظنا أن والده كان يدعى **مونتوحوتپ** أي «*ليكن مونتو راضيًا*» وهو اسم طيبي(**) بكل وضوح. ومن جهة أخرى فقد ذُكر هذا الملك **سوبك حوتپ** في إحدى مقابر **الكاب**(***) **بمصر العليا** كما شيد معبداً في **المداموِد** شمال طيبة. ولكن تم الكشف أيضًا عن اسمه في **اللشت بالفيوم**. ولن نحيد كثيرًا عن الحقيقة إذا ذهبنا إلى القول بأن مصر قد استعادت وحدتها لفترة قصيرة في ظل حكمه. ويبدو آنذاك أن أسرة من الملوك الذين يحملون اسم **سوبك- حوتپ** قد حاولت أن تؤسس حكمها للبلاد بعد أن حققت وحدة أرض مصر

(*) سخا، حاليًا. (المترجم)

(**) نسبة إلى مدينة طيبة. (المترجم)

(***) شمال إدفو. (المترجم)

وسياستها. وخلّف سخم رع ـ سى واچ تاوى، أخواه وكان خع سخم رع ـ نفر حوتپ أحدهما. فعندما باشر پيير مونتيه Pierre Montet أعمال التنقيب فى بيبلوس(٧) كشف عن نقش يصور على ما يبدو أمير المدينة إلى جانب أحد ملوك مصر. صور الأول جالسًا وقد تدثّر برداء طويل ويمتد أمامه المتن الآتى: «*إن أمير بيبلوس إنتن*(*) *الذى سوف تتجدد حياته والذى أنجبه الأمير رين، صادق القول*». لقد أنعم على هذا الأسيوى بلقب حاتى-ع (حرفيًا: «*الذى فى المقدمة بفضل ساعده*» وهو اللقب الذى لا يحمله سوى كبراء مصر ومن بينهم حكام الأقاليم). كما مُنح صيرورات أبدية من النمط الأوزيرى. ويصاحب المتن ابتهالاً من أجل رع ـ حور ـ أختى. وكان يوجد أمام إنتن شخص آخر وإن اختفى فى الوقت الراهن، ولكن يمكن استجلاء علامات الاسم المحاط بخرطوش بكل وضوح وصولاً إلى أن صاحبه، هو خع سخم رع ـ نفر حوتپ. إن ما سبق يبرهن على أن هذه الذرية من الملوك قد بلغت درجة من القوة مكنتها من إعادة العلاقات التجارية والسياسية مع بيبلوس كما أكّدت هيمنتها على المدينة الفينقية وأوجدت فى الوقت نفسه وحدة أيديولوچية وثيقة. وربما كان المدعو إنتن هو الأمير يانتين- حامّو الذى عثر على اسمه فى محفوظات مدينة مارى.

إن تمثالاً للملك خع نفر رع ـ سوبك حوتپ شقيق خع سخم رع- نفر حوتپ عثر عليه فى جزيرة أرجو جنوب الجندل الثالث، فى السودان. ومن غير المعقول أن نذهب إلى القول بأن سلطان آل سوبك حوتپ قد وصل بعيداً إلى هذا الحد، جهة الجنوب. ولكن الأقرب إلى الصواب أن يكون هذا التمثال قد نقل إلى هذا الموقع إبان الأسرة الخامسة والعشرين الكوشية فى زمن لاحق، بعد مرور ألف سنة تقريبًا. فلا غرابة أن «*تسافر*» القطع الأثرية وتنتقل من مكان إلى آخر. فلابد من تناول كل كشف أثرى بالفحص والتمحيص، وأن يُقيّمه حق التقييم علماء اللغة والمؤرخون. إن علم المصريات، شأنه شأن سائر علوم العصور القديمة، لابد أن يتوخى الإعتدال والإتزان عند إصدار أحكامه وأن تكون بوحى من العقل. إنه يعتمد على إعادة صياغة وقائع

(*) هذا الاسم هو بلا شك الصيغة المصرية للاسم السامى يوناتان. (المؤلفة)

وأفكار موغلة في القدم، قد تطرأ تعديلات على تاريخها أو يضاف إليها الجديد، بين عشية وضحاها، مع كل كشف جديد.

وبعد هذه النهضة التي شهدت إزدهار البلاد، يبدو أن عدداً من الأسرات الحاكمة المحلية قد تقاسمت السلطة في أعقاب انفراط عقد وحدة الأرضين من جديد. فبعض ملوك الجنوب ذاته الذين نقشت أسماؤهم على معالم أثرية في **الجبلين** وفي **أسيوط** لم تذكرهم بردية **تورينو**، ربما كانوا على رأس أسرات تحكم مدناً تابعة إلى حد ما لمدينة طيبة.

وقبل فترة قصيرة من اجتياح **الهكسوس** للبلاد عرفت مصر ملكين ربما كانا معاصرين ولكن لم يصل ما نعلمه عنهما إلى حد الجهل المطبق. ففي شمال شرق الدلتا كان يحكم **نحسي** الذي يعني اسمه «*النوبي*». كان الجنوب بلا شك موطنه الأصلي؟ وقد كرّس تمثالاً للإله ست في مدينة **أواريس** التي كان من المنتظر أن تصبح عاصمة الغزاة - إن لم تكن قد أصبحت هكذا، كما اتخذوا من ست إلهًا راعيًا وحاميًا. هل كان سلوكًا نفعيًا من أجل التحالف مع الحكام الجدد؟ أم كان نتيجة ورعًا شخصيًا؟ فربما أميط اللثام في المستقبل عن وثائق أخرى تحيطنا علمًا بحقيقة شخصية هذا الملك الغريب الأطوار. أما **ديدومس** فكان ملكًا على الجنوب وتذكره بردية **تورينو**. ولكن يبدو أن الآثار تؤكد على وجود ملكين يحملان اسم **ديدومس**: الأول ولقبه **چد حوتپ رع** ونعرفه بفضل لوحين حجريين عثر عليهما في **إدفو**. أما الآخر ولقبه **چد نفر رع** فنعرفه بفضل لوح حجري عثر عليه في **الجبلين**. ترى هل نحن بالفعل بصدد ملكين أو ملك واحد تغير اسمه الدال على لقب ملك مصر العليا ومصر السفلى؟ وأيًا كان الأمر، فمن المحتمل أن الغزاة قد انتشروا في البلاد في عهده، على حد قول المؤرخ اليهودي **يوسيفوس**(*) الذي نقل روايته عن كتابات **مانتون** في غمار مناظراته وهو يردّ على **أپيون**. «*لقد حكم البلاد في الماضي ملك يدعى* ***توتيمايوس*** (من الواضح أن هذا الاسم هو الصيغة اليونانية للاسم المصري **ديدومس**). وحدث في زمنه، لا

(*) عاش هذا المؤرخ معظم حياته في روما في القرن الاول الميلادي وكتب باليونانية. (المترجم)

أعرف كيف، أن الله كان غير راضٍ علينا. عندئذ وصل فجأة من جهة الشرق قوم أخسّاء المنبت وصلت بهم الجسارة إلى حد اجتياح بلادنا. وكانوا على قدر من القوة مكنتهم من إخضاعها دون أن يطلقوا سهمًا واحدًا. وبعد أن قبضوا على أمرائنا، أضرموا النار بوحشية فى مدننا ودمروا معابد الآلهة فصارت أثرًا بعد عين. وأذاقوا السكان الأمرّين وألوان المعاملات الهمجية، فقتلوا البعض واسترقّوا زوجات وأولاد البعض الآخر. ثم انتخبوا من بينهم ملكًا، اسمه ساليتس وقد اتخذ من منف مقرا له وفرض الجزية على مصر العليا ومصر السفلى وخلّف وراءه الحاميات فى أهم المواقع. واهتم بصفة خاصة بالأقاليم الشرقية فحصنها، تحسبًا لاحتمال قيام الآشوريين بغزو المملكة[٨]».

يجمع هذا النص بين المشاعر التى اعترت مصريى العصر الفرعونى والتى عانى منها مصريو العصر البطلمى وهو العصر الذى عاصر مانتون بدايته. فقد ظل أبناء وادى النيل تتسلط عليهم مشاهد السلب والنهب والعنف التى ارتكبت قبل ذلك بأربعمئة سنة فى القرن السابع ق.م، على أيدى الأشوريين وما عرف عنهم من قسوة وشراسة. وبالمثل سوف نلاحظ أن المصريين الذين عاشوا بعد القرن الثامن عشر ق.م سوف تظل حافظتهم مطبوعة بذكرى بشعة عن غزو الهكسوس. ومن الواضح بطبيعة الحال أن الآشوريين كانوا فى ذلك العصر تحت سيطرة أمبراطور بابل، ومن ثم كانوا لا يشكلون أدنى خطر قد يهدد مملكة مصر. فينبغى إذن التحلى بالفطنة والتبصر عند استخدام المصادر اليونانية ومن ذهب مذهبهم من أخلافهم.

وفى تلك الأزمنة التى عمّت فيها الإنقسامات استمر العمل على ما يبدو فى المؤسسات التقليدية على الصعيد المحلى، وفى مطلع الأسرة الثالثة عشرة على الأقل. لقد احتفظت إحدى البرديات وهى بردية بولاق رقم ١٨ بميزانية البلاط الملكى فى الجنوب، دون أن تعلمنا الوثيقة شيئًا عن الملك المقصود. لقد أعدّ هذه البردية كاتب من مدينة طيبة يدعى نفرحوتپ، كان يسجل ميزانية الملك يومًا فيومًا. وكانت المصاريف تشمل القوائم المدنية التى تخص العائلة المالكة ومرتبات كبار الموظفين والهبات التى ينعم بها الملك على رعاياه ولا سيما بمناسبة الأعياد. وبالطبع كانت الموارد تتكون من

الضرائب وهى الموارد العادية (آخو بالمصرية القديمة أى «*ما يتم تحصيله*») والموارد غير العادية (إينو بالمصرية القديمة أى «*ما يتم إحضاره*»- وهى عبارة تدل أيضاً على الجزية). كان الكاتب يميز بعناية فائقة بين جملة الضرائب المنتظر جبايتها وما تم تحصيله في واقع الأمر، فيحتفظ على الدوام بحصر للمتأخرات الواجب سدادها.

وقد وضع نصب عينيه تسجيل تفاصيل المصروفات: وعلى رأس أكبر المنتفعين من إنعامات الملك: الملكة وأخوات الملك. ويبدو أنهن كُنّ يشغلن مناصب إدارية فى الدولة. الأمر الذى ربما مهّد لبروز دور المرأة فيما بعد فى إدارة دفة الحكم مع بداية الأسرة الثامنة عشرة. إن قائمة الموظفين طويلة ومتنوعة. فيحصل كبراء البلد على مرتبات: لا سيما الوزير وحاملو الأختام الثلاثة الذين يشغلون على التوالى وظائف القائد العام والمشرف العام على الحقول وكاتب المحفوظات الملكية. ومع ذلك لم يطل النسيان أصحاب الوظائف القليلة الشأن كالموسيقيين والمنشدين والعمال والحرفيين الذين يعملون فى خدمة الملك فيحصلون على قوتهم هم وعائلاتهم. أما المصاريف غير العادية فكانت تخص أعياد الإله مونتو الذى استمرت عبادته فى المدامود، فقد أولاه ملوك الجنوب هؤلاء، على ما يبدو بأكبر قدر من الإهتمام، شأنهم شأن ملوك الأسرة الحادية عشرة.

ولكن لم يسقط آمون فى طى النسيان. إن جزءاً من لوح من الحجر الجيرى، عثر عليه فى **الكرنك** ومن مقتنيات **متحف القاهرة** فى الوقت الراهن، يرصد كل ما أغدق به الملك **خع نفر رع- سوبك حوتپ** من خيرات، على معبد إله **الكرنك**.

إن بعض الكشوف الأثرية التى تعود إلى الصدفة البحتة قد أماطت اللثام عن بعض شخصيات كبار الموظفين، كنا لا نعلم عنهم شيئًا: نذكر منهم على سبيل المثال الوزيرين **عنخو** و **إيمرو** الذين عاشا فى زمن الأسرة الثالثة عشرة. فأصبحنا نعرفهم من خلال عدد كبير من التماثيل والألواح الحجرية فضلاً عن البرديات التى تذكر اسميهما. ولكن ما زال من الصعوبة أن نذكر بصددهما مزيد من المعلومات: فربما عرف هذا العصر عدداً من الوزراء الذين يحملون اسم إيمرو. هل كانوا ثلاثة؟

ويصعب التمييز بينهم. والشيء ذاته يقال عن عنخو: فهكذا كان يدعى الوزير الذى كان يعمل فى خدمته الكاتب الهمام نفرحوتپ، وربما عاصر عهد أمنمحات- سوبك حوتپ؟ أو عاش فى زمن سى واج تاوى- سوبك حوتپ الذى لم يذكر اسمه سوى فى بردية بولاق(٩). وعلى كل حال فقد ورث الوزير - أو أحد الوزراء - عنخو منصب والده. وبالفعل تدعى والدته «زوجة *الوزير*» على أحد تماثيل ابنها. فهل كان هذا الوزير هو إيمرو كما افترض البعض؟ وهكذا ينهض البرهان على احتمال نشأة مخصصات عائلية.

إنه تاريخ صاغته الظلال أو عدم اليقين وطبعه تعاظم وهن السلطة وتخاذلها.

الهكسوس فى مصر

إن الغزوات الآرية القادمة من الشمال دفعت أمامها الآسيويين الذين تسللوا شيئًا فشيئًا فى دلتا النيل إبان الأسرتين الثالثة عشر والرابع عشرة المصريتين. ولم يتمكن الملوك من وقف هذا التيار الخطير أو لم يعرفوا. وفى نهاية هذه المرحلة على حد قول مانتون وفى عهد ديد ومس، وبعد أن كانت هذه الحركة متدرجة فى بادئ الأمر، إلا أنها تحولت إلى غزو حقيقى اجتاح البلاد.

ويبرهن علم أسماء الأعلام onomastique أن الغزاة كانوا من الشعوب السامية، وكنعانيين وأموريين أساسًا. ومن المؤكد أنهم لم يكونوا من الحوريين كما زُعم فى بعض الأحوال. فأسماء الأعلام ليست حورية ولا هندوأوروبية.

ومن بين هذه القبائل ربما انضمت إليها ذرية سيدنا إبراهيم. ويعرف الجميع تفاصيل رحلته الطويلة: فقد بدأها من أور فى سومر واتجه إلى حرّان، شرق الفرات وإلى الشمال الشرقى من حلب التى كانت مركزًا هامًا من مراكز عبادة القمر فى بلاد ما بين النهرين، ثم اتجه إلى مصر. ثم عاد أدراجه إلى أرض كنعان؛ حيث مكثت ذريته بعض الوقت قبل أن تعود إلى مصر فى ركاب الهكسوس بعد أن جذبتهم ثروات

وادى النيل. وهو ما يتفق مع التتابع الزمنى الذى فى متناولنا وهو سفر الخروج[10](*) الذى يخبرنا بأن العبرانيين طُردوا من مصر بعد أن أقاموا فيها لمدة ٤٣٠سنة. وإذا كان هروب العبرانيين من مصر قد حدث بالفعل فى عهد رعمسيس الثانى[11] الذى حكم مصر اعتباراً من ١٢٩٠ق.م يصبح هذا التتابع الزمنى أقرب إلى الصواب لأسباب كثيرة، تحملنا على هذا الإعتقاد(**).

أما عن تحديد تاريخ أول مكان أقام فيه الهكسوس لأول مرة على أرض مصر فيمكن أن نفترض تاريخاً هو أقرب إلى الحقيقة: فربما حدث ذلك فى العام ١٧٣٠ق.م تقريبًا استناداً إلى وثيقة شديدة الأهمية ونطلق عليها إصطلاحاً اسم *لوح العام ٤٠٠* وقد أقيم فى مدينة تانيس فى عهد رعمسيس الثانى، وعثر عليها مارييت Mariette فى هذا الموقع عام ١٨٦٣. ثم غطّ اللوح الرمال من جديد بعد أن تم نسخ مضمونه لحسن الحظ. وأعاد الكشف عنه پيير مونتيه Pierre Montet إبان أعمال التنقيب التى باشرها فى تانيس. ويوضح النص أن ملكى المستقبل رعمسيس الأول وسيتى الأول قد احتفلا إحتفالاً يوبيلياً بمناسبة مرور أربعمئة سنة على إقامة عبادة الإله ست فى تانيس. ومن غير المستبعد أن هذه الواقعة تعود إلى عهد حور إم محب بينما كان كل من رعمسيس

(*) وهو ثانى أسفار العهد القديم من الكتاب المقدس. ويضم العهد القديم حسب تصنيف الكنيسة الكاثوليكية ٤٦سفراً، كما أنه ثانى أسفار التوراة، ومعناها بالعبرية الشريعة، وهى أحد أجزاء العهد القديم الأربعة (التوراة والتاريخ والحكمة والأنبياء). أما العهد الجديد فيضم ٢٧سفراً، على رأسها الأناجيل الأربعة. (المترجم)

(**) تقول رواية سفر الخروج أن فرعون خرج على رأس جيش جرار لمطاردة بنى إسرائيل ولكنهم غرقوا جميعًا فى البحر (الإصحاح ١٤ من سفر الخروج). أما رعمسيس الثانى فقد وافته المنية وهو فى السابعة والتسعين من عمره تقريباً. كما أظهر فحص موميائه بوجود أعراض إلتهاب المفاصل الفقارية فيبست وغلظت ومن المؤكد أن هذا المرض قد جعل شيخوخة الفرعون غير مريحة (راجع روچيه ليشتنبرج وفرانسواز دونان: المومياوات المصرية. الجزء الثانى. ترجمة ماهر جويجاتى. ص٣٩. دار الفكر. ١٩٩٩). فهل يعقل بعد ذلك أن يكون رعمسيس الثانى قد خرج على رأس جيشه لمطاردة بنى إسرائيل ويغرق فى البحر بعد أن بلغ من العمر أرذله وأصبحت مجرد حركته عملية مؤلمة؟ (المترجم)

وابنه **سيتي** لا يزالان يخدمان كضابطين في الجيش المصري. أجل إن عبادة ست كانت قائمة في **شرق الدلتا**، منذ أولى الأسرات، ولكن مع وصول **الهكسوس** أدمجوا هذا الإله في الإله سوتخ الأسيوي، وأسبغوا عليه صفات جديدة، منها التاج المخروطي والقرنين، وهي جزء من غطاء رأس بعض الآلهة الآسيوية الأخرى، نذكر منها على سبيل المثال الإلهين **ريشيب** و **تيشوب**. وبالفعل فإن صورة ست كما نقشت في الجزء المقوس في أعلى *لوح العام ٤٠٠*، تلتزم بهذا الشكل الجديد الذي نلتقي به أيضًا على أحد جعارين الهكسوس. ولما كان حور إم محب قد حكم مصر من ١٣٣٠ إلى ١٣٢٠ تقريباً ق.م؛ فمن حقنا أن نذهب إلى القول بأن الآسيويين قد تسللوا لأول مرة إلى مصر اعتباراً من ١٧٣٠ق.م.

استقر **الهكسوس** في المدينة التي أُطلق عليها **أواريس** وبالمصرية القديمة حوت وعرت أي «قصر *المقاطعة*» من الناحية الإدارية، إنها باختصار عاصمة.

وعن هذا الموضوع يقول مانتون:

«لقد وجد (أي ساليتس زعيم الهكسوس) *في إقليم بلدة ستروييت*(*) *مدينة ذات موقع مناسب، شرقي الفرع البوباستي للنهر، وكان يطلق عليها* ***أواريس*** *وفقًا لتقليد لاهوتي قديم متواتر. فأعاد بناءها وحصنها بأسوار متينة. وفضلاً عن ذلك فقد شغلها بأعداد ضخمة من الجنود لحراستها وسلّحهم تسليحًا ثقيلاً وكانوا حوالي ٢٤٠٠٠٠فردًا. وكان يأتي إلى هذه المدينة صيفًا سواء ليكيّل قمحهم ودفع رواتبهم أو تدريبهم تدريبًا راقيًا من خلال المناورات التي بثّت الرعب في نفوس الأجانب... كان يطلق على هذا الشعب اسم «****هكسوس****» ومعناه «****الملوك الرعاة****» لأن* ***هيك*** *تعني في اللغة المقدسة «****ملك****» و****سوس*** *تعني في اللغة الدارجة «****رعاة****». إن اقتران هذين الاسمين يعطينا* ***هكسوس****»*[١٢].

إن الأصل الاشتقاقي لكلمة «هكسوس» كما أورده مانتون خاطئ. فإذا كانت كلمة حقا تعني بالفعل «رئيس» فإن العنصر الثاني من هذا الاسم لا يتفق وكلمة

(*) الواقعة في شمال شرق الدلتا. سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الرابع. الهيئة العامة للكتاب. ١٩٩٣. ص٦٥. (المترجم)

شاسو الدالة على بدو أرض كنعان و شمال سيناء ولكنها تتفق وكلمة خاسوت أى «*البلدان الأجنبية*». إن لقب حقا خاسوت يظهر منذ الأسرة الثانية عشرة للدلالة على زعماء القبائل ومشايخ الصحراء الأسيوية.

ومن المحتمل أن مدينة **أواريس** قد شيدت فوق موقع **الختاعنة - قنتير** قرب **تانيس**. إن أهمية هذا الموقع كانت معروفة منذ الأسرة الثانية عشرة: كان مركزًا إستراتيجيًا يتحكم فى الطرق المؤدية إلى أسيا وملتقى التجارة. هكذا يبدو أن الآسيويين قد تحكموا فى بداية الأمر فى شمال شرق مصر ثم **الدلتا**.

إن تحديد مكان المواقع القديمة يشكل أحيانًا قضية عويصة: فقد اعتبر البعض أن **أواريس وتانيس** شىء واحد[١٣]. كما تم الخلط بين **پر رعمسيس**- عاصمة **رعمسيس** الثانى و**الختاعنة - قنتير**[١٤] و**أواريس**، منذ عهد قريب[١٥].

وإذ ظل الغزاة محتفظين بعاداتهم الساميّة فقد تبنوا أيضًا أعراف المصريين. فكتبوا أسماءهم بالعلامات الهيروغليفية بل واتخذوا أحيانًا أسماءً مصرية، ودونوها على الجعارين وأحاطوها بخرطوش مسبوقٍ بأحد عناصر مجموعة الألقاب الملكية وهو «*ابن رع*»، فى حين كانوا زعماء قبائل، فأرادوا على هذا النحو، أن يندمجوا فى الأمجاد التليدة لملوك الزمن الغابر. وإلى هؤلاء الزعماء الخاملى الذكر، ينسب عدد كبير من الجعارين التى عُثر عليها فى مصر، وكانت مزدانة على الطريقة الآسيوية بزخارف على هيئة وردة أو نجمة أو عناصر هندسية حلزونية أو متشابكة. ومن بين هذه الأسماء يسترعى بعضها اهتمامنا ونذكر منها على سبيل المثال اسمى **يعقب - هر** و **عنات - هر** ويتكونان من اسمين من أسماء الآلهة الكنعانية، ليوفرا دليلاً آخر على الأصول السامية لهؤلاء الغزاة.

ودامت إقامتهم فى هذا المكان لفترة ربع قرن حتى مطلع القرن السابع عشر ق.م. عندئذ تشكل **الهكسوس** كدولة تهيمن على **الدلتا**: وبقيادة زعيمهم **ساليتس** شرعوا أنذاك فى غزو مصر. ولا يبدو أنهم واجهوا مقاومة كبيرة. فكما لاحظنا كانت مصر منقسمة تحكمها عدة أسرات محلية، فكان من الصعوبة بمكان رسم استراتيجية شاملة. زد على ذلك، أن **الهكسوس** كانوا يمتلكون على ما يبدو سلاحًا

حربيًا جديدًا عظيم الفاعلية وهو المركبة الحربية التى تجرها الجياد. فاستطاع التفوق التكتيكى للغزاة أن يقضى بسهولة على جميع أشكال المقاومة المتفرقة.

إن الوثائق التى تحت أيدينا فى الوقت الراهن، لا تساعدنا إلاّ فى أضيق الحدود، على معرفة أسرات **الهكسوس** هذه. وبردية **تورينو** وهى قائمة الملوك الوحيدة التى تذكر **الهكسوس** مليئة بالفجوات. إن **يوسيفوس ويوسابيوس** الإفريقى اللذين نقلوا عن **مانتون** لا يتفقان دائمًا على أسماء الملوك أو تتابع عهودهم. كما يمكن استخدام مصدر مصرى آخر وإن كان محدودًا للأسف. نقصد بذلك قائمة كبار كهنة منف التى وضعت عام ٧٠٠ق.م وتذكر أسماء الملوك الذين أقام هؤلاء الكهنة الشعائر فى عهدهم. ولكنها لم تدون سوى أسماء ثلاثة من ملوك **الهكسوس** الذين لم يذكر إلاّ آخرهم، وهو **أبوبى**، فى المصادر الأخرى.

وبمقارنة هذه المصادر يمكن أن نتفق دون أن نجافى الحقيقة، بوجود أسرتين من ملوك **الهكسوس**(١٦). ويُجمع جمهور العلماء على صحة هذا الإفتراض. ويُظن أن الأسرة الأولى وهى الأسرة الخامسة عشرة فى مصر ضمت ستة ملوك وأن سنوات حكمهم قد دامت مئة وثمانية سنوات وذلك بالاستناد أساسًا إلى بردية **تورينو**. لقد ضاعت جميع الأسماء ما عدا اسم آخر الملوك وهو: **خع مودى**. أما **مانتون** فيذكر أسماء **ساليتس وبنون وأبخنان وأبوبى وياناس وأسّيس أو كيرتوس**. وعلى الوثائق المعاصرة قد يكون **أبوبى** هو عا **أوسر رع - أبيى** فى حين يطلق على **ياناس** اسم سى **أوسر رع - خيّان**. أما الملك **أسّيس** فقد تحقق أن اسمه هو الملك **شيشى** الذى يرد اسمه على عدد كبير من الجعارين.

إن الأماكن التى جاءت منها أصلاً قطع الآثار التى تحمل أسماء هؤلاء الملوك لا تترك أدنى شك حول مدى امتداد سلطانهم. فقد حكموا مصر من أقصاها إلى أدناها وحتى **النوبة السفلى** وشاركوا أيضًا فى حركة التجارة مع مدينة كرما فى **السودان**، والتى استمرت دون انقطاع. وإذا بدا أن المصريين لم يتغاضوا عن وجود هؤلاء الأجانب فى بلادهم، فنلاحظ فى المقابل أن قدرًا من التلاحم قد تحقق على الصعيد الروحانى. فمن المؤكد أن هؤلاء الآسيويين، وكثرتهم الكاثرة من البدو الرحل،

قد حاولوا بعد أن استقروا في أكثر بلدان الشرق ازدهاراً، أن يتكيفوا مع «*النموذج*» المصرى المبهر. فالعديد من ملوك **الهكسوس** يحملون أسماء مركبة من اسم **الإله رع** على الطريقة المصرية. إن الملك **أبوبى** أو الملوك الذين يحملون هذا الاسم، كانوا يلقبون: **عا أوسر رع** أى «*عظيمة هى قوة رع*» - و **نب خپش رع** أى «*رع هو رب القدرة*» - و**عاقنن رع** أى «*عظيمة هى بسالة رع*». كما أن **أبوبى** هو أيضًا على الطريقة المصرية: «*ابن جسد رع*» و«*الصورة الحية* (للإله) *رع على الأرض*». هذه النعوت التى تكشف بعضها عن نزعة حربية لم يعهدها إله **هليوبوليس** حتى الآن، وُجدت مدونة على صلاية حصل عليها الكاتب **إتيو** هدية من سيده الملك **أبوبى**[17]. وهى شهادة على أن الأجانب كانوا يعبدون الإله رع مثلما عبدوا **سوتخ** و **بعل**. فلا غرابة إذن، أن تكون الوحدة الأيديولوچية قد تحققت من حول الإله الشمسى. وكما لاحظنا[18] من قبل كان أمير **بيبلوس** فى زمن **سنفرو**(*)، يحمل لقب «*ابن رع البلدان الأجنبية*». فالجرم السماوى واهب الحياة، كان يُعبد فى شتى أنحاء الشرق وإن تنوعت أسماؤه. وفى عهد **التحامسة** و**الرعامسة**، سنجد أن عبادة الشمس هى التى ستتولى أيضًا تدعيم الأواصر التى تربط مختلف بقاع إمبراطورية **مصر** على الصعيد الروحانى. كما لا ينبغى أن نغضّ الطرف عما قدّمه **الهكسوس** من إسهام أيديولوچى إلى مصر. إن الآلهة الآسيوية **سوتخ** و **بعل** و**عشتروت** التى ستقوم بدور كبير فى الفكر الإمبراطورى الجديد فى عصر **الرعامسة**[19]، بدأت آنذاك فى الدخول إلى مجمع الآلهة المصرى ومعها *الإله- القمر* الذى كان يعبده بدو **آسيا** الرحل: والشاهد على ذلك أسماء الأعلام المستخدمة فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة[20]. إن العالم القديم لم يعرف «*الحدود*» الروحانية. إن الإكثار من الآلهة يعنى تعاظم الفاعلية السحرية التى توفرها الحماية الإلهية. فلم يكن العالم قد عرف آنذاك التعصب وعدم التسامح.

ولكن سرعان ما ظهرت مقاومة سياسية تناهض وجود الأجنبى فى المملكة. وبالفعل فيبدو أن **الهكسوس** قد اختاروا آسيويين لشغل أهم المناصب فى الجهاز الإدارى للبلاد. ونذكر على سبيل المثال حامل الأختام هر الذى يتفق اسمه مع الجذر

(*) من الأسرة الرابعة. (المترجم)

السامىّ الذى يعنى «*الشريف الكريم الأصل*». وقد تولّى هذا الشخص سلطاته قرب نهاية الأسرة الخامسة عشرة وامتدت لتشمل مصر، من أدناها إلى أقصاها، وبلاد النوبة وأرض كنعان(٢١). وربما ساهمت وقائع، من هذا القبيل، فى إيقاظ الشعور الوطنى لدى المصريين.

بعد هؤلاء الملوك الأوائل الذين أطلق عليهم أحيانا اسم «*كبار الهكسوس*»(٢٢) ظهرت مجموعة ثانية من الملوك ربما شكلت الأسرة السادسة عشرة فى مصر. ولا نعرف سوى القلة القليلة عن هؤلاء «**الهكسوس** المغمورين» الذين حكموا مصر على ما يظن اعتباراً من ١٦٢٠ أو ١٦١٠ق.م. وتذكر بردية **تورينو** تسعة ملوك ولكن الفجوات تتخلل معظم أسمائهم. ومن المؤكد أن مساحة سلطتهم قد تقلصت ولم تعد تشمل البلاد بأكملها، وهو ما تؤكده الكشوفات الأثرية: فلم نعد نجد أسماء ملوك **الهكسوس** على آثار **النوبة** فضلاً عن القسم الجنوبى من **مصر العليا**. فقد استعادت **النوبة** استقلالها. ويبدو أن الرغبة فى تحرير البلاد قد بدأت تشغل بال المصريين. ولا شك أن أبناء وادى **النيل** كانوا قد اتخذوا أيضاً من المركبة الحربية سلاحاً جديداً يخوضون به معاركهم.

وإلى هذا العصر تعود قطعة أثرية محيّرة، ربما كانت تعبيراً عن التوتر القائم بين المصريين والآسيويين. المقصود تمثال صغير لأبو الهول يكشف رأسه الملكى عن خصائص آسيوية. إنه يسحق أحد المصريين بمخالبه(٢٣). لقد عثر على هذا التمثال الصغير فى إحدى مقابر **أبيدوس** يعود تاريخها إلى زمن كانت السلطة الأجنبية ما زالت تمتد حتى شمال **طيبة**، وإن كان التمرد قد أصبح تهديداً واقعاً.

إن شخصية بعض هؤلاء الملوك الأجانب تفصح عن ملامحها. ونذكر تحديداً الملك **خيّان** المدعو **ينّاس** عند **مانتون**. كانت سنوات حكمه طويلة إلى حد كبير، فدامت أربعين سنة بلا شك، فى فترة شهدت أوج حكم الأجانب فى مملكة مصر. فقد عثر على آثار تحمل اسمه فى **مصر** وأنحاء **الشرق الأدنى**، من كسفة جادت بها **الجبلين**، شمال **طيبة** وتمثال مشوه من الجرانيت جاء أصلاً من **بوباستيس** فى **الدلتا** وغطاء زلعة من الألبستر عثر عليه فى أساسات قصر **كنوسّوس** بجزيرة **كريت** وجعران وختم

فى أرض كنعان وأسد من الجرانيت فى بغداد. ومن بين مجموعة ألقابه يعبر اسمه الحورى عن طموحاته السياسية، إنه «*هذا الذى يحيط بالأرض*». فهل استطاع كما يقال أحيانًا[٢٤] أن يؤسس إمبراطورية شاسعة امتدت على ما يبدو من مصر العليا وحتى جزيرة كريت شمالاً وبغداد شرقًا، وتضم مصر وجزر بحر إيجه لتصل إلى نهر الفرات؟ هل كان الأول فى قائمة كبار الغزاة الذين فتحوا الشرق؟ ويمكن أن نترك العنان لخيالنا لنتصور ذلك ولكن هذه الفرضية الجذابة والمغرية لا تنهض على أساس راسخ. فمن الممكن أن نذهب أيضًا إلى القول بأن مختلف القطع الأثرية المذكورة قدنقلت بعيداً عن موطنها الأصلى فى أعقاب هزيمة الآسيويين وانسحابهم خارج مصر. ربما كان قولنا هذا هو الأقرب إلى الصواب.

كما أن معلوماتنا عن الملك أبوبى متوفرة إلى حدّ ما. ومع ذلك فما زال يكتنفه الغموض: هل عرف التاريخ ملكًا واحداً يحمل هذا الاسم وتعددت ألقابه بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى، وتنوعت من عا أوسر رع إلى نب خبش رع وأخيراً عا قنن رع، وهى الأسماء التى سبق ذكرها. أم كانت أسماءٌ لُقّب بها ثلاثة ملوك مختلفين؟ وأيًا كان الأمر فقد امتد حكم عا أوسر رع لسنوات طويلة: وبالفعل فإن العام الثالث والثلاثين من عهده مذكور على بردية ريند Rhind الرياضية. كما وصلنا عدد من الشواهد التى تخص هذا الملك. وظل تأثيره قائمًا أيضًا لفترة ما إلى الشمال من طيبة، فقد عثر هناك على ساكف باب نقش عليه اسمه مرتين على جانبى قرص الشمس المجنحة، وهى صورة مصرية تقليدية تدمج الصقر فى الجرم السماوى، وتعود أصولها إلى مدينة إدفو. كما أن إناءً من الألبستر يحمل اسم ابنته هريت تم حفظه فى طيبة على ما يبدو، إلى أن وضع فى مقبرة أمنحوتب الأول، من الأسرة الثامنة عشرة، حيث عثر عليه. وذهب البعض إلى احتمال أن تكون المدعوة هريت قد تزوجت من أحد أمراء طيبة. هل كانت من أسلاف فراعنة الأسرة الثامنة عشرة؟[٢٥]

ولكن هذه «*المغامرة*» كانت حدثًا عابراً. وبالفعل فإن أبوبى الأوحد أو ثالث من حملوا هذا الاسم، وأيًا كان الأمر، فإن اللقب عا قنن رع سرعان ما إصطدم بمقاومة أمراء طيبة الذين استطاعوا تحرير مصر وأتاحوا لها أن تستعيد للمرة الثانية عظمتها القومية وتواصل مسيرة تاريخها المجيد.

٢- أمراء طيبة المحرّرون

طيبة الأبية المتمردة

حول عام ١٦٥٠ق.م وإبان حكم الملوك الهكسوس الأوائل، يبدو أن نسل زعماء طيبة التابعين للأسرة الثالثة عشرة، قد حل محلهم نسل آخر من أمراء مدينة الجنوب ليشكلوا الأسرة السابعة عشرة على حدّ قول يوسابيوس الإفريقي. وفى هذا الصدد، تذكر بردية تورينو خمسة عشر إسماً لملوك تربعوا على عرش طيبة. ومن بينهم تسعة أسماء مذكورة فى قائمة الملوك التى نقشها تحوتمس الثالث فى الكرنك فى المكان المعروف بحجرة الأجداد. كما نعرف عشرة منهم من مدونات الآثار التى عثر عليها فى طيبة ومصر العليا.

إن أهم كشف أثرى يساعدنا على معرفة هذه الأسرة السابعة عشرة هو الكشف عن مقابر ملوكها. وتقع الجبانة الرئيسية على البر الغربى من نهر النيل فى طيبة عند سفح تل دراع أبو النجا وفى السهل الواقع أمامه، ويحدها من الجنوب الطريق الصاعد المتجه إلى معبد مونتوحوتپ فى الدير البحرى و وادى الملوك من جهة الشمال[٣٦]، وتقع هذه الجبانة تحديداً، قبالة معبد الكرنك على البر الشرقى.

إن بردية أبوت Abbott وتعود إلى الأسرة العشرين ومن عهد رعمسيس التاسع، توفر لنا أيضًا معلومات على قدر كبير من الأهمية. إنها عرض لنتائج التحقيقات التى جرت بأمر من وزير طيبة فى أعقاب إنتهاك حرمة مقابر وادى الملوك. ويبدو أن جبانة ملوك الأسرة السابعة عشرة الذين ذكرت أسماؤهم لم يمّسها أحد بسوء، ما عدا مقبرة سخم رع- شد تاوى- سوبك إم ساف. ومن ثم يقدم لنا النص قائمة شبه كاملة بأسماء ملوك الأسرة السابعة عشرة والتى تؤكد فى بعض جوانبها صحة التتابع الزمنى لبردية تورينو.

سعت مملكة طيبة الصغيرة جاهدة، ورغم صروف الدهر ونوائبه، أن تحافظ على الثقافة والأعراف التى تواترتها التقاليد المصرية العظيمة، لتصبح عن قصد وعمد، حصنًا يزهو فى شموخ وأنفة بوطنيته. لم تعد مصر تتلقى خشب لبنان ولا حجر طرة

الجيرى الأملس ولا ذهب النوبة ولا أبنوس وعاج السودان. لقد بات من المستحيل تنظيم الحملات إلى محاجر أسوان أو إلى وادى الحمامات، ولكن الروح المصرية ظلت محتفظة بكيانها. وظلت أهرام دراع أبو النجا محتفظة بشكلها المقدس، وإن كان أقل ارتفاعًا، ومشيدة من الطوب، والتوابيت مصنوعة من خشب الجميز المحلى وأكثر تواضعًا من توابيت الأسرة الثانية عشرة التى كانت من الحجر أو من خشب الأرز. إن الأسلوب الفنى لمدينة طيبة الذى نشأ فى ذلك العصر يتميز بملامحه الشديدة الواقعية. وظل الكتبة فى مدارس الحياة يعيدون نسخ، بلا كلل أو ملل، النصوص الأدبية بصفها الشواهد الحية على أقدم الثقافات، وقد وصلتنا العديد من هذه المستنسخات. إن طيبة الأبية المتمردة تصمد وتقاوم وتحافظ على التراث الوطنى.

إن ترتيب ملوك الأسرة السابعة عشرة ما زال مطروحًا على بساط البحث فى بعض جوانبه[٢٧]. وفى هذا المقام سوف نقتفى بالعالمين ستوك Stock وإدواردز Edwards، فنعتمد أساسًا على بردية تورينو بعد أن قام إيبشر Ibscher تحديداً بترميمها. وربما كان رع حوتپ أى «*ليكن رع راضيًا*» هو أول أمراء هذه الأسرة، وقد شرع ينفذ بعض الأعمال الورعة فى موقعى كوپتوس و أبيدوس المجاورين. إن نص مرسوم صادر فى كوپتوس بهذه المناسبة، قد احتفظ به لوح حجرى عثر عليه مهشماً إلى عدة أجزاء، فى الموقع ذاته وكان مدفونًا على عمق كبير فى أساسات معبد بطلمى. إن القسم المقوس فى أعلى اللوح وهو من الحجر الجيرى قد اختفى تمامًا. وما زال النص مدونًا على امتداد أحد عشر سطرًا أفقيًا، وإن عانى من العديد من الفجوات التى يمكن تعويضها كلما كان المعنى المقصود مرتبطًا بأفكار أو صيغ تقليدية معروفة.

[العام....] من عهد *صاحب الجلالة الحورس: «صاحب – الحياة – الطويلة – الأمد».*

السيدتان: «صاحب– السنوات– المزدهرة».

الحورس الذهبى: «هذا الذى يخضرّ من جديد»...

ابن رع: «رع حوتپ، له الحياة[٢٨]».

[صدر أمر من قبل] *صاحب الجلالة إلى النبلاء وإلى حاشيته...*:

«لقد التقى جلالتى بأبى (الإله مين) القائم على رأس الآلهة جمعاء. إن المدخل (إلى معبده) وبواباته كانت قد تهدمت». عندئذ [اثنوا] *على صاحب الجلاله وقالوا: «أيها العاهل الملكى، أيا سيدنا، فليأمر كا ؤك بما ينبغى أن يحدث، لأن الإله حو قائم فى فمك ولا . الإله سيا ساكن* [فى قلبك][٢٩]. *إن پتاح- سوكر [قد خلقك] والآلهة شكّلتك. إلك نعمل الآن من أجلها لتشيّد معابدها... لقد وحّدت الجنوب والشمال، وقلبك ..... على عرش حورس الأحياء... إنك تتولى إدارة شئون* [كل ما يحيط به] *قرص ا ن... إنك الملاذ المناسب للشعب، ومأوى البشر أجمعين. إنك لا تنام أثناء الليل، ن مر أثناء النهار، ساعيًا من أجل كل مفيد لهذا البلد*[٣٠]. *لقد أقامك رع بصفته صورته*[٣١]...».

بقية المدونة مجرد شذرات محدودة ومن ثم يصعب ترجمتها ترجمة مترابطة.

إن هذا النص من حيث دلالته العميقة يلتزم بالخط الأيديولوچى للنظام الملكى كما عرفته الأسرة الثانية عشرة[٣٢]. ومن الواضح إذن، أن رع حوتپ بصفته أول ملوك الأسرة السابعة عشرة كان يقيم فى طيبة، إما مباشرة قبل أن يستولى الهكسوس على مجمل البلاد بعد أن كانوا يسيطرون على مصر السفلى فقط أو عندما تحولت طيبة إلى المعقل الآمن لحماية الفكر المصرى والحفاظ عليه بعد أن أصبح العدو الغازى يتحكم فى البلاد.

يبدو أن رع حوتپ كان ملكًا سعيداً؛ فقد ظلت ذكراه حية فى طيبة حتى بعد مرور خمسة قرون، على حد زعم حكاية أشباح وصلتنا من خلال أربع أوستراكا هى فى الوقت الراهن من مقتنيات كل من تورينو و ڤيينًا و فلورنسا ومتحف اللوڤر فى پاريس. تروى القصة حكاية خونسو إم حب كبير كهنة آمون - رع والذى يعنى اسمه *«الإله خونسو فى عيد»*. فربما وُلد يوم الإحتفال بعيد هذا الإله الذى كان يعتبر الإله الابن فى ثالوث طيبة القائم حول آمون-رع. لقد عاش خونسو إم حب فى زمن الأسرة العشرين. وتتفق بداية النص مع اللحظة الذى شرع هذا الأخير فى البحث عن مكان يقيم فيه مقبرته عند تل دراع أبو النجا الذى كان آنذاك شديد الإزدحام من كثرة

المقابر المنتشرة فيه. وبعد أن أرسل بعثة لاستطلاع المكان المجاور لمقبرة الملك رع حوتپ، مرّ خونسو إم حب شخصياً بتجربة فريدة فى بابها، فوجد نفسه فى مقبرة مجاورة للموقع الذى وقع عليه الإختيار. وبينما كان بمفرده فى الظلام الدامس ظهرت له روح. وفى هذه اللحظة كان يحدّث نفسه قائلاً:

«لن أرى مستقبلاً نور القرص. لن استنشق نسمات الشمال. وستظل العتمة أمام وجهى على مر الأيام...» وعندئذ (تجلت) روح نورانية وقالت له *«فيما يخصنى وعندما كنت لا أزال حيًا على سطح الأرض كنت خازن رع حوتپ ملك مصر العليا... كما كنت ضابطًا فى سلاح مشاته. ثم سرت أمام البشر وفى أعقاب الآلهة و«رقدت»* (أى توفيت) *فى العام الرابع عشر من عهد من حوتپ رع ملك مصر العليا*[٣٣]». ومن ناحية أخرى يصعب قراءة كلمة رع.

وحول هذين الاسمين الملكيين تدور المناقشات وتؤثر على المكان الذى يخص الملك رع حوتپ. ويذهب البعض إلى القول بأن الاسم الأول ناتج عن خطأٍ ارتكبه الكاتب الذى كان عليه أن يدون نب حيت رع وهو لقب مونتوحوتپ من الأسرة الحادية عشرة، بصفته ملك مصر العليا و مصر السفلى. وليس من السهل دائما اتهام الكاتب بالإهمال. ولا سيما وأن اللقبين الذين يسبقان الخرطوشين يشيران تحديداً إلى نسوت فقط، أى «*ملك مصر العليا*». ويرى وينلوك Winlock[٣٤] احتمال وجود خطأ فى كتابة اسم من حوتپ (رع): إذ كان على الكاتب أن يدون من خپر رع لقب تحوتمس الثالث بصفته ملك مصر العليا و مصر السفلى. ومعنى ذلك افتراض أن العمر قد امتد بهذه الروح النورانية لسنوات مديدة عاشتها في هذه الدنيا. لا سيما وأن حكم تحوتمس الثالث قد بدأ من الناحية الرسمية عام ١٥٠٤ق.م تقريبًا. ويؤسس وينلوك رأيه على العمر المثالى لحياة الإنسان المصرى وهو مائة وعشرة سنوات. وقد نذهب بصدد هذا الاسم الثانى، أنه يخص رابع ملوك الأسرة السابعة عشرة المذكور فى بردية تورينو وهو سى عنخ إن رع مونتوحوتپ. إن هذا الإحتمال يقرّب إلى الصواب، فى آن واحد، كل من طريقة كتابة الاسم فى نص أوستراكون فلورنسا – وإن كانت ناقصة – ومدة حياة هذا الخازن، فضلاً عن توافقه مع القوائم التى تضع رع حوتپ على رأس الأسرة السابعة عشرة.

ومن المرجح أن ابنه «*المولود من الزوجة الملكية العظيمة*» قد خلفه. ولكن ضاع اسمه للأسف. ومن هذا الزواج الأميرى ربما وُلد سخم رع (أى «*رع شديد البأس*») وپ ماعت (أى «*هذا الذى يفتح دروب الحقيقة– العدالة*») إنتف أو أننف القديم أو أيضاً أنتف الخامس بالنسبة لنا، حيث أن الأنانفة الثلاثة الأوائل قد حكموا طيبة فى ظل الأسرة الحادية عشرة[٣٥]. أما رابع الأنانفة فقد حكم فى ظل الأسرة الثالثة عشرة. وقد حكم أنتف الخامس حوالى ثلاث سنوات قبل أن يخلفه أخوه الأصغر. إنه سخم رع هروحر ماعت (أى «*هذا الذى يفرح بالحقيقة– العدالة*»)(*) أنتف (السادس) ويبدو أنه لم يتربع من جانبه على العرش سوى بضعة أشهر. كانت مقبرة أنتف لا تزال سالمة على حالها فى زمن الأسرة العشرين كما يؤكد التقرير المدون على بردية أبّوت Abbott. أما الآن فلم يصلنا سوى هُرَيْم من الحجر الجيرى – هو من مقتنيات المتحف البريطانى – وصندوق آنية كانوبية وتابوت وصلا إلى متحف اللوڤر فى آن واحد، مع تابوت أنتف الصغير. واجتازت «رحلة» التابوتين مغامرات متلاحقة. فقد شاهدهما الرحّالة ويلكنسون Wilkinson عام ١٨٤٩ فى منزل تاجر آثار يونانى يدعى تريانتوفيلوس Triantophilos. وعلى حدّ قوله فقد عثرا معًا قبل عدة سنوات فى دراع أبو النجا عند منتصف الطريق المؤدى إلى سفح التل. ويقول عالم المصريات بروكش Brugsch أنهما كانا عام ١٨٥٤ فى غرفة مهملات عند القنصل اليونانى. وفى هذه السنة ذاتها، شاهدهما مارييت A.Mariette فاشتراهما فى الحال ونقلهما إلى متحف اللوڤر خلال شهر ديسمبر من السنة المذكورة.

كان تابوت أنتف القديم «*هبة من أخيه الملك أنتف محبوب أوزيريس، إلى أبد الآباد*»، استناداً إلى المدونة التى يحملها. وكان البدو الذين يُعتقد أنهم فتحوا التابوت قبل عرضه عند التاجر اليونانى قد عثروا بداخله على مخطوط ذاع صيته الآن وطبّق الآفاق: إنه بردية پريس داڤين Prisse d'Avennes التى نسخت عليها حكم الوزير پتاح حوتپ من الأسرة الخامسة وهى من كنوز مجموعات الآثار فى باريس. وكان الماركيز پريس داڤين شخصيًا قد اشتراها عام ١٨٤٥، بعد فترة قصيرة إذن من «الكشف» عن التابوت.

(*) هذه الجملة ترجمة: هروحر ماعت. (المترجم)

كما أن ملكًا أخر هو **سوبك إم ساف** الذى جاء ترتيبه فى بردية **تورينو** كرابع ملوك الأسرة السابعة عشرة يذكره البعض أحيانًا قبل **الأنانفة**. لقد استمر عهده ست عشرة سنة. ونعرف هذا العاهل الملكى من خلال بعض المعالم الأثرية كعدد من التماثيل عثر على أحدها فى **أسوان** فى المعبد المقام من أجل **حقا إب** من حكام الأقاليم فى عهد **ببى** الثانى والذى تم تأليهه بعد وفاته بفترة قصيرة. وهناك أيضا لوح حجرى دونت عليه هبات لصالح معبد **مونتو** فى **المداموده**. ويؤكد بعض المخربشات فى **وادى الحمامات** والمؤرخة بالعام السابع من عهده، على ما قام به من أعمال فى المحاجر وبالتالى فإنها تشهد على أن مملكة **طيبة** كانت تتمتع بقدر من الحرية. وهو خير برهان على أن عهده يعود إلى فترة متأخرة من الأسرة السابعة عشرة مع بداية أفول نجم **الهكسوس** وتراجع هيمنتهم.

وقرب نهاية الأسرة السابعة عشرة ظهر **أنتف** آخر، الملقب **نب خپر رع** (أى «*رع هو رب الصيرورة*»). إنه سابع ملك يحمل اسم **أنتف**. وكان على رأس أمراء سلالة **طيبة** الذين تحلوا بقوة الشكيمة والبسالة والإقدام، فحملوا على عاتقهم مهمة تحرير أرض مصر. وإلى عهد هذا الملك المدعو **أنتف** يعود مرسوم عثر عليه فى **كوبتوس**. إنه أمر ملكى صادر إلى أمير المدينة. ومعنى ذلك أن **مصر العليا** أو ما يعادل ثمانية أقاليم على الأقل من **أسوان** جنوبًا وحتى **أبيدوس** شمالاً كانت تابعة للأسرة الحاكمة فى **طيبة** وإن وجدت سلطات حاكمة فى كل مدينة. وهكذا شرعت **طيبة** فى تجميع الأقاليم الجنوبية. وقد نُقش المرسوم على الجانب الجنوبى من الباب الشرقى للمعبد. والنص فضلاً عن النقوش الملحقة به، هو من مقتنيات متحف **القاهرة** فى الوقت الراهن:

اليوم الخامس والعشرون، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الثالث، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى – الذى تزهو به ***طيبة*** *– نب خپر رع وابن رع: أنتف(*)، له الحياة مثل رع إلى أبد الآباد.*

(*) من الغريب أن لقب «ابن رع» مدون مع لقب «ملك مصر العليا ومصر السفلى» داخل خرطوش واحد. (المؤلفة)

مرسوم ملكى إلى مين إم حات (أى «الإله - مين- هو- الأول») حامل الأختام وأمير كويتوس وإلى كن إن (أى «صورة- من- أجلنا»(؟)) الابن الملكى وحاكم كويتوس وإلى منخ مين (أى «الإله- مين- خيّر») حامل الأختام وإلى كاتب معبد نفرحوتپ- العظيم، وإلى جيش كوپتوس بأسره وكهنة المعبد.

انظروا، لقد جاءكم هذا المرسوم لتحاطوا علمًا بأن جلالتى قد أوفد الكاتب سا إمن («ابن- آمون») حامل الأختام الإلهى فى خدمة آمون و أوسر آمون (أى «آمون عظيم- البأس») للقيام بالتحقيق فى معبد الإله مين. وبالفعل فقد جاء كهنة من المعبد لدى جلالتى ليخبرونى أن حدثًا مؤسفًا قد وقع فى المكان المقدس بمعنى استقبال الأعداء[٣٦] من قبل تيتى بن مين حوتپ (أى «ليكن الإله مين راضيًا») ملعونًا اسمه. فليطرح إذن أرضًا فى معبد أبى الإله مين، فليطرد من وظيفته الكهنوتية، هو وابن ابنه ووريث وريثه. فليطرح أرضًا ولتصادر أقواته وأطعمته المقدسة[٣٧]، مع تجاهل اسمه فى المعبد من الآن فصاعدًا، مع التصرف بالمثل مع كل شخص يشبهه، (كل شخص) عاصٍ وعدو الله. ونأمر بإتلاف كل ما كتبه فى معبد الإله مين وفى مكاتب الإدارة وعلى كل لفافة بردى.

أما عن أى ملك أو أى حاكم قوى يرأف به،، فلن يستطيع أبدًا أن يتسلم التاج الأبيض ولن يضع أبدًا التاج الأحمر على رأسه، ولن يتربع على عرش حورس الأحياء. والسيدتان لن تؤازراه كما تفعلان مع من تحبانه. كل حاكم أو كل أمير سيقترب من السيد له الحياة والصحة والقوة(*) ليلتمس العفو عنه، فليُقدّم ذويه وممتلكاته وحقوله قربانًا لأبى الإله مين فى كوپتوس. كما لا تسمحوا لكائن من كان، من المحيطين به أو لأقربائه أو لأبيه أو لأمه أن يشغلوا منصبه. اعملوا بحيث يتولى هذه الوظيفة حامل الأختام ورئيس الإستقبال مين إم حات. ولتُعطَ له الأقوات والأطعمة المقدسة. وليُسجل ذلك من أجله بوضوح كتابة فى معبد أبى الإله مين فى كوپتوس، ومن أجل ابن ابنه ووريث وريثه[٣٨].

(*) كان أمراء طيبة يطلقون أيضًا على أنفسهم هذا اللقب الملكى. (المؤلفة)

هكذا كان أمراء مدينة الجنوب يحكمون حكمًا فرديًا واضحًا ويحملون مجموعة الألقاب الملكية التقليدية ويسندون المناصب والوظائف إلى أصحابها في مدن مصر العليا.

إن نشاط أنتف السابع وأعماله تشهد عليها النقوش المنحوتة في معابد كوبتوس وأبيدوس و الكاب والألواح الحجرية التي جاد بها معبدا الكرنك و إدفو. كان ملكًا بنَّاءً ومحاربًا. إن نقشًا جاء من كوبتوس يصور الملك وهو يؤدي حركة طقسية تقليدية، شاهرًا المقمعة البيضاء فوق مجموعة من الأعداء، في حضرة الإله مين. وعلى قاعدة تمثال عثر عليه في الكرنك نُحت خرطوشا الملك فوق صور لأسرى نوبيين وآسيويين مكبلين: إنها صورة تقليدية تنم عن عظمة مصر وسؤددها واتساع السلطة الملكية ومن إرهاصات عصر الإمبراطورية. ويبدو أن حماسًا قتاليًا قد بدأ يلوح في الأفق. فقد عيَّن نخت (أي «*الباسل الجسور*») أحد أبناء الملك، «*قائدًا للجيش*». وسوف يدفن أنتف السابع وإلى جانبه قوسين وسهام ستة وضعت بجوار تابوته.

وتم تأمين ذرية زعماء طيبة. كان أنتف السابع قد تزوج الملكة سوبك إن سا إف. إنه اسم غريب بالنسبة لامرأة لأنه يعني في اللغة المصرية «*سوبك هو حمايته*». وهكذا فإن الضمير في صيغة المذكر! ولكن ربما كانت تحمل اسمًا آخر: حا عنخ إس (أي «واهًا! ليتها تحيا»). كانت إدفو موطنها الأصلي كما دفنت فيها. فتأكدت الوحدة بين أميري طيبة و إدفو كتحالف راسخ. وكان مثل هذا التحالف قد ساهم قبل خمسة قرون في إحياء النظام الملكي المصري. وكشف العلماء في موقع إدفو على عدد من المعالم الأثرية تحمل اسمها، ومنها ألواح حجرية وأسورتان وقلادة ذهبية. وتُدعى على الألواح الحجرية «*أخت الملك وابنة الملك وحفيدة الملك*»، وهي إشارة إلى أصولها المحلية. أما في طيبة فهي «*الزوجة الملكية العظيمة*». ولما كانت قد عاشت قبيل الأسرة الثامنة عشرة التي نهضت بمصر من كبوتها فقد احتفظت عنها المدينة(*) بذكرى طيبة. وعلى لوح حجري من مطلع الأسرة الثامنة عشرة عثر عليه في طيبة، نجد أنها تُعبد جنبًا إلى جنب مع الملكة عح حوتپ والدة الملك أحمس محرر مصر.

(*) إشارة إلى طيبة فقد كان لفظ نيوت من أسمائها ويعني المدينة. (المترجم)

يبدو أن نموذج الأسرة الحادية عشرة كان نصب عيني هؤلاء الملوك الأناتفة الذين حملوا الاسم نفسه الذي لقب به الملوك الذين أعادوا إلى مصر وحدتها في زمن مضى. ومن ثم لا يستبعد كما يقال أحيانًا، أن جدران حجرة دفن أنتف السابع التي لاتحتفظ في الوقت الراهن سوى ببقايا بسيطة لألوان، فصارت أثرا بعد عين، لا يستبعد إذن أن يكون الفنان القديم قد نقش على هذه الجدران نصًا أدبيًا كان المصريون مولعين به ويسجل شهادته عن أزمنة مضطربة ونطلق عليه إصطلاحًا نشيد الضارب على القيثارة. ويعتقد أن تاريخ كتابة هذا النص يعود إلى الأسرة الحادية عشرة ولم يعمل ملوك الأسرة السابعة عشرة سوى إعادة نسخه. ويصعب علينا أن نصدر حكمًا قاطعًا، إذ لم يصلنا النص الأصلي لهذا النشيد ولا نعرفه إلاّ من خلال نسخة نُقشت في مقبرة پا إتن إم حب من الأسرة الثامنة عشرة وهي من مقتنيات متحف ليدن في الوقت الراهن.

نشيد موجود في مقبرة أنتف، صادق القول، والقائم أمام الضارب على القيثارة... إن مصيرًا سعيدًا قد انتهى الآن. ويمضي جيل ويحل محله أناس آخرون، منذ زمن الأجداد الأوائل. ومن كانوا آلهة في الماضي يرقدون في أهراماتهم، وبالمثل الأموات المجدون. ولكن مقار إقامة الذين شيدوا المقابر زالت من الوجود. ترى ماذا حدث إذن؟

لقد أصغيت إلى أحاديث إيمحوتپ و چدف حور[٣٨مكرر]، التي يتفوه الناس أجمعون بكلماتها، ولكن أين هو الآن المكان الذي يقيمان فيه؟ لقد تصدعت جدرانه بل إن موقعه قد زال واندثر وكأنهم لم يوجدا أبدًا.

لا يعود أحد من المكان الذي يقيمان فيه ليخبرنا ماذا ألّم بهما، ليحدثنا عما ينقصهما، لتهدأ قلوبنا، حتى يحين وقت انتقالنا أيضًا إلى حيث ذهبا. تصرّف إذًا بحيث يمتلئ قلبك فرحًا وسرورًا وينسى الآن أنك ستصبح ذات يوم روحًا نورانية. جارِ رغباتك على مدار أيام حياتك. ضع المرّ على رأسك وارتدِ أرقى أنواع الكتان وأنعمها وامسح نفسك بالروائح الحقيقية التي تخص الإله[٣٩]. أكثر من أفراحك ولا تسمح للأتراح أن تتسلل إلى قلبك. جارِ رغباتك والملذات التي تتوق إليها. افعل ما

تريد وأنت على سطح الأرض، لا تكدّر قلبك إلى أن يحين اليوم الذى ينتحب فيه القوم عليك وينوحون. ولكن الإله - صاحب - القلب - الهادئ (أوزيريس) لا يسمع العويل. وصيحات أيام الحداد لا تخلص المرء من العالم الآخر(٤٠).

هذه النبرة لإنسان منهك خابت آماله وتبخرت أحلامه، هذه المجاهرة ذات النزعة الإبيقورية(*) - قبل ألفى سنة على زمن الفيلسوف اليونانى - تبدو أقرب إلى المشاعر التى عبرت عن مكنونها فى عصر الفوضى السابق(٤١). ولكن من الواضح أن أناتفة الأسرة السابعة عشرة - إن لم يكونوا المؤلفين الفعليين لهذا النص - إلا أنهم استعادوا عن طيب خاطر نموذج سَمِيِّهم من الملوك الذين سبقوهم، ليؤكدوا على هذا النحو على شيء من الإستمرارية الأدبية. ومن جهة أخرى، فإن الأعراف التقليدية القاضية بانشاد الأغانى بمصاحبة القيثارة فى المقابر أثناء المآدب الجنائزية، تعود إلى أزمنة موغلة فى القدم. وقد استمرت حتى العصر اليونانى الكلاسيكى وهو ما يؤكده هيرودوت (II, 78-Chant de Linos)، لتظهر فى وقت لاحق فى القصائد الهوميرية (Odyssée, I, 53- Chant de l'aède Phemios) وفى العصر الهللينستى أيضًا (Athènée, XIV, 620b sq.) والعصر الرومانى.

وأمام مقبرة أنتف السابع فى دراع أبو النجا تنتصب مسلتان صغيرتان من الحجر الرملى وكأنهما ترمى إلى الاستخفاف بأقوال المنشد. إن إكليلاً من الفضة يحتفظ به متحف ليدن ما زال يذكرنا بالمصير الملكى الذى كان ينتظر مدينته طيبة، فستصبح بعد فترة وجيزة - المدينة المنصورة.

طيبة المنتصرة

أما عن خليفة أنتف السابع فتذكر بعض قوائم الملوك ملكًا يدعى سى نخت رع (أى «*هذا الذى جعله رع قوى البأس*») ومع ذلك لم نجد له أثرًا على أى مَعْلَم مُشيَّد. إنه مذكور فى قائمة الكرنك المنقوشة على أحد جدران الحجرة المعروفة إصطلاحًا

(*) نسبة إلى الفيلسوف اليونانى أبيقور ٣٤١-٢٧٠ ق.م. (المترجم)

بحجرة *الأجداد* وجاء ترتيبه بعد **أنتف** السابع وقبل **سقنن تاعا**. كما يذكر أيضًا في مجموعة أخرى لأسماء الأجداد الملكيين الأوائل، تحتفظ بها مائدة قرابين من الأسرة التاسعة عشرة ومن مقتنيات متحف **مرسيليا** في الوقت الراهن. كما ورد اسم هذا الملك في مقبرة **خع بخنت** في **دير المدينة**، جنبًا إلى جنب، أيضًا مع اسم **سقنن رع تاعا**. وكان على الأرجح زوج الملكة **تتي شيري** التي سنتطرق إليها فيما بعد ووالد **سقنن رع**[٤٢].

أما **سقنن رع تاعا** (أي *«هذا الذي جعله رع باسلًا، وهو العظيم»*) فقد خلف أباه على رأس مملكة الجنوب وتزوج أختـه **عع حـوتپ** (أي «ليكن القـمـر راضـيًـا») وسينجب منها ستة أولاد. وسيتولى اثنان من أبنائه وهما **كامس** و**أحمس** تحرير أرض مصر بشكل نهائي وإعادة وحدتها.

ولا شك أن هذا الكفاح قد بدأه **سقنن رع تاعا**، بينما كان ملك يُدعى **أبوبي** يحكم في **أواريس** ولكن سلطته الحقيقية كانت قاصرة على الدلتا، ولا تتجاوز مصر الوسطى. وقد وصلتنا رواية أسطورية، كُتبت في عهد **مرنپتاح** من الأسرة التاسعة عشرة، على بردية هي بردية **ساليبه الأولى** Sallier Ier وكان كاتب تحت التدريب يُدعى **پنتاؤور** قد نسـخـها على الأوراق الثلاث الأولى من لفافة البردي. هذا النص الذي لا نمتلك منه في الوقت الراهن سوى هذه النسخة يعاني للأسف من عدد من الثغرات.

حدث ذلك عندما أصـابت الفـواجع أرض مـصـر، فلم يعد فـيـها آنذاك سـيـد مـوهوب الحيـاة والقوة والإزدهـار، ففي ذلك الزمـان، لم يعد فـيـهـا ملك[٤٣]. *أمـا الملك* ***سقنن رع*** *فكان أمير* ***مدينة الجنوب****. كان البؤس يخيِّم على مدينة الآسيويين، عندما كان* ***أبوبي*** *في* ***أواريس****. كانت البلاد بأسرها*[٤٤] *تقدم له منتجاتها قربانًا. وبالمثل فعل الشـمـال المحمَّل بكل مـا لذَّ وطاب من إنتـاج* ***الدلتـا****. لقـد جعـل الملك* ***أبوبي*** *من (الإله)* ***سوتخ*** *سيده. ومـا عدا* ***سوتخ****، كان لا يقدم الخدمة لأي إله من آلهة البلاد. فشيد (من أجله) معبدًا بجوار قصره الملكي فكانت صنعتـه رائعة تغالب الأيام. ومع مطلع كل نهار كان ينهض في مجده ليقدم إلى* ***سوتخ*** *قرابينه اليومية. وكان الكبراء يُحضرون أكاليل الزهور، كما جرت العادة في معبد رع ـ حور أختي.*

وأراد الملك أبوبى أن يبلّغ الملك سقنن رع، أمير مدينة الجنوب رسالة إستفزازية. وبعد انقضاء عدة أيام، استدعى الملك أبوبى [كبار موظفى[٤٥]] [قصر]ه... [وأبلغهم أنه يريد] إبلاغ [رسالة إلى أمير مدينة الجنوب ويرفق بها] تقرير [...خاص] بالنهر [ولكنه كان لا يعرف كيفية تحريره(؟]. عندئذ) تحدث إليه الكتبة والعلماء [...بالإضافة إلى كبار] الموظفين وقالوا له: «أيها العاهل الملكى، [أيا سيدنا نريدك أن تترك (؟)] بركة أفراس النهر [القائمة شرق مدينة الجنوب] لأنها تحرمنا من [النوم نهارًا] وليلاً [فالأصوات التى تصدرها تصم آذان أبناء مدينتنا». وأجابهم الملك أبوبى قائلاً:] «إن أمير [مدينة الجنوب... إن آمون] معه حاميًا. إنه لا يستند إلى أى من الآلهة القائمة فى البلاد بأسرها، ماعدا آمون-رع، ملك الآلهة». وبعد انقضاء عدد من الأيام، قام الملك أبوبى بابلاغ أمير مدينة الجنوب برسالة ضمّنها ما قال له الكتبة وأهل العلم والمعرفة (من أتباعه). ووصل موفد الملك أبوبى عند الأمير ومثل بين يديه. عندئذ قال (الأمير) لموفد الملك أبوبى: «لماذا أُوفدت إلى مدينة الجنوب؟ لماذا ارتحلت لتصل إلىّ؟» فأجابه الموفد قائلاً: «الملك أبوبى هو الذى أرسلنى إليه لأبلغك ما يلى: «تصرف بحيث يتم إبعاد (حرفيًا: طرد) بركة أفراس النهر القائمة شرق المدينة لأنها تقلق منامى نهارًا وليلاً. إن ما تصدره من أصوات يصم بالفعل أذنىّ». وكانت دهشة أمير مدينة الجنوب كبيرة لفترة طويلة حتى أنه لم يصل إلى الرد المناسب وإلى الرسالة التى سيبلغها إلى موفد الملك أبوبى. وأخيرًا قال له: «أحقًا لقد وصل إلى مسامع سيدك الحديث [...عن البركة القائمة] شرق مدينة الجنوب؟» [فقال الموفد: امعن النظر] فى الموضوع الذى أوفدنى بسببه. [وأمر الأمير] بحسن معاملة موفد الملك أبوبى وأن يقدم له [كل ما لذّ وطاب] من لحوم وفطائر [...ثم قال له: «عُد ادراجك إلى الملك أبوبى] وسوف أفعل كل ما ستقوم بإبلاغه. سوف تقول له... (ثغرة فى غير محلها)» عندئذ هم موفد الملك أبوبى وسلك طريق العودة إلى مقر إقامة سيده.

واستدعى أمير مدينة الجنوب كبراء البلاط الملكى وجمع أهم رؤساء حاشيته، وكرر على مسامعهم الرسالة الشفهية التى كان أبوبى قد وجهها إليه. والتزم جميعهم الصمت (حرفيًا: بفم واحد) لفترة طويلة، دون أن يصلوا إلى رد، موفق من عدمه. وأرسل الملك أبوبى[٤٦]...

وعند هذا الحدّ تنتهى للأسف الشديد النسخة التى دونها الكاتب پنتاؤور.

ولأول وهلة قد يثير هذا النص الدهشة. ولكن إنطلاقًا من البرهان الذى توصّل إليه ماسپرو Maspéro وليفيڤر Lefebvre(٤٧)، فإنه يرتبط بلا شك بتقليد قديم، يقضى بأن يتبادل الملوك أحيانًا مسائل مطلوب حلّها مقابل دفع غرامة إذا لم يتوصل أحد الأطراف إلى الحلّ الصحيح. ونعرف السؤال الشهير الذى طرحه نختنبو من الأسرة الثلاثين على إيزوپيوس Ésope فقال له: *«عندى فى مصر إناث أفراس تحمل عند سماع صهيل ذكور الأفراس الواقفة أمام مدينة بابل. ترى بما تجيب؟»*.

ولا يخامرنا أدنى شك أن إجابة سقنن رع التى ضاعت كانت فى مثل رجاحة عقل اليونانى ابن فريجيا(*) Phrygiee، فكانت أيضًا من أساليب البرهنة على تفوق آمون-رع على سوتخ. كما يكشف هذا النص عن الوضع السياسى إبان هذه الفترة. فنجد من جهة أن آمون - رع كان يظهر منذ ذلك الزمان بصفته الإله الكبير. ومن جهة أخرى، فإن *«بركة أفراس النهر»* تنطوى على معنى مزدوج، أحدهما أسطورى والآخر سياسى. فلا شك أن أبناء طيبة كانوا يمارسون شعيرة قديمة يقومون بموجبها بتسديد الخطاطيف فى أجساد أفراس النهر فى بركة بالمدينة. فكانت الغاية من هذه الشعيرة حماية النظام الملكى المصرى، إذ كان ينظر إلى هذا الحيوان باعتباره «مستودعًا» للعناصر الضارة المؤذية. ولكن كان الأمر فى نظر الهكسوس من المحرمات التى تنطوى على تدنيس المقدسات. فإلههم سوتخ المندمج فى الإله ست كان فى وسعه التجسد فى فرس النهر أحد حيواناته المقدسة.

ومن المحتمل أن هذه الرسالة التى قد يقدم لنا كشف جديد نسخة أخرى كاملة وهو ما نرجوه ونتطلع إليه – من المحتمل أنها كانت بمثابة الإعلان عن بدء العمليات الحربية بين طيبة و أواريس. وعلى كل حال فإن مومياء سقنن رع تاعا(**) التى عثر عليها فى خبيئة الدير البحرى داخل تابوتها الآدمى الشكل، تحتفظ بجراح عميقة فى

(*) موطن إيزوپيوس. (المترجم)

(**) ويمكن مشاهدتها فى قاعة المومياوات بالمتحف المصرى: الطابق العلوى، الحجرة ٥٦.(المترجم)

الرأس، ربما كانت من آثار إشتباكات عنيفة مع الآسيويين الأجانب المقيمين على التراب الوطني.

أما سقنن رع تاعا فقد خلفه ابنه كامس (أي *«الثور أنجبه»*). وهكذا سوف تبدأ حرب التحرير.

وصلنا عدد من الوثائق التي تقدم شهادتها عن هذا الحدث. وبالفعل فقد عهد كامس إلى نيشي رئيس الخَزَنة بإقامة لوحين حجريين في الكرنك تخليداً لذكرى انتصاره، والأحداث التي مهدت له. وقد عثر المهندس الفرنسي هنري شيڤرييه Henri Chevrier في العامين ١٩٣٢ و١٩٣٥، على أجزاء من اللوح الحجري الأول في أساسات الجناح الجنوبي من الصرح الثالث من معبد آمون – رع. ويروي النص بدايات الحملة ضد الهكسوس. كما دونت نسخة من هذا النص بالخط الهيرطيقي على لوحة صغيرة تعرف اصطلاحاً بلوحة كارنارڤون رقم واحد Carnarvon nº1 عثر عليها اللورد كارنارڤون عام ١٩٠٨ أثناء أعمال التنقيب التي كان يباشرها في موقع دراع أبو النجا. وفي زمن أحدث، وعام ١٩٥٤ تحديداً، عثر شيڤرييه أيضاً على اللوح الحجري الثاني عند مدخل بهو الأساطين الكبير في الكرنك. إن نص هذا اللوح هو «بقية» النص السابق ويروي نهاية حملة كامس. ويعتقد أن الأثرين قد نحتا في وقت واحد. فالعلامات الهيروغليفية محفورة في كل منهما باللون الأزرق كما أن أسلوبهما وعباراتهما، تجمعها أوجه شبه أكيدة[٤٨].

لوح الكرنك الحجري الأول ولوحة كارناڤون الصغيرة

العام الثالث من عهد الحورس: «هذا الذي يتجلى في مجده على عرشه»،

السيدتان: «هذا الذي يجدد العمائر»،

الحورس الذهبي: «الذي يُسعد القطرين»

ملك مصر العليا ومصر السفلى: [«لتخضرَّ صيرورة رع»]

[ابن رع]: «كامس، له الحياة، محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين، مثل رع للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى».

كامس، الملك القوى القائم فى طيبة، الملك الخيرّ المعطاء. إن رع ذاته قد نصّبه ملكًا، ومن أجله حقًا، أعاد الإخضرار إلى النصر.

المجلس الحربى الأول

تحدث صاحب الجلالة فى قصره إلى مجلس كبراء حاشيته قائلاً: «إن قوتى سوف تُظهر نفسها. إن أميرًا يقيم فى أواريس وآخر فى بلاد كوش. فأسيويًا وزنجيًا يشاركانى مقعدى. كل واحد منهما يمتلك قسمًا من مصر[49] فيتقاسمان معى البلاد... انظروا إن (أبوبى) فى هرموبوليس. ولا يستطيع كائن من كان، أن يستريح مسترخيًا بسبب استعباد الآسيويين له. أما أنا فسوف أخوض المعارك ضده وأسحق جسده. فما أتوق إليه هو تخليص مصر والقضاء على الآسيويين».

هنا تحدث كبراء مجلسه قائلين: «انظر لقد تقدم (؟) الآسيويون حتى القوصية[50] وأخرج جميعهم ألسنتهم(*)(؟). أمّا نحن، فنعيش فى سلام (حرفيًا: «نحن نعيش حياة رطبة[51]») وشئون مصر هى مسئوليتنا. إلفنتين قوية. وقلب البلاد ملكنا حتى القوصية. إن أكثر حقولهم خصوبة تُحرث من أجلنا. إن ماشيتنا ترعى فى مستنقعات البردى. والعلس يلقى به إلى خنازيرنا ولا يستولى أحد على قطعاننا... إن (أبوبى) يمتلك بلاد الآسيويين ونحن نمتلك مصر. ولكن كائنًا من كان، سوف يأتى ويقترب منّا وينشط ضدنا، عندئذ سوف نلجأ إلى العمل ضده».

هذا الحديث الحذر الهيّاب الذى جمع على لسان واحد رجال البلاط، لم يكن من المنتظر أن يلقى آذانًا صاغية من كامس الثابت الجنان الواسع الذراع الشاكى السلاح.

(*) تعبيراً عن الاحتقار، كما نفعل أو نقول الآن. (المترجم)

ونفر قلب صاحب الجلالة من هذا الحديث البغيض: «أما عن نصائحكم.... [فسوف أقاتل] الآسيويين وهكذا يعود الإزدهار... [وتستقبلنى بالهتاف] البلاد بأسرها، أنا الأمير المنتصر فى طيبة، أنا كامس حامى مصر وصائنها.

معركة نفروسى[٥٢]

عندئذ أبحرت فى النهر كرجل قوى للقضاء على الآسيويين، تنفيذاً لأوامر آمون، الإله صاحب المشورات الصائبة. إن جيشى الباسل أمامى مثل وهج اللهب. ورماة السهام من فرقة المجاو[٥٣] فى أعلى الأسوار(؟) ليسددوا السهام إلى الآسيويين، وطردهم من أماكن إقامتهم. إن الشرق والغرب يجلبان الزيت عع[*]، ويتم امداد الجيش بما يحتاجه من طعام فى كل مكان. وأرسلت رماة السهام الأشداء من فرقة المجاو، فى حين توقفت لحظة، فى محاولة لابعاد تيتى بن بيبى إلى داخل المدينة (لا شك أنه كان حليفًا مصرياً للهكسوس متعاوناً مع العدو). ولم أمكّنه من الفرار. وبحرت أيضاً الآسيويين الذين زحفوا فى اتجاه مصر (ولا شك أن النجدات قد وصلت من أواريس)... عندئذ قضيت الليل على متن سفينتى، سعيد القلب.

وعندما ابيضت الأرض – (عند الفجر) – انقضضت عليه كما ينقضّ الصقر، وعندما حلّت ساعة تناول طعام إفطار الصباح، صرعته ودمّرت سوره وذبحت أتباعه، ودفعت زوجته إلى النزول إلى شاطئ النهر. وجنود جيشى كانوا أشبه بالأُسُد التى تحمل صيدها، بينما كانوا يسوقون الخدم والماشية ويحملون اللبن والزيوت عع والعسل ويتقاسمون الغنائم، سعداء القلب. وهكذا استسلمت مدينة نفروسى....

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: محمد عبدالحميد شيمى: العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة، ترجمة: ماهر جويجاتى، المجلس الأعلى للثقافة بالتعاون مع المركز الفرنسى للثقافة والتعاون، ٢٠٠٥، ص: ١٩٦-١٩٧. (المترجم)

هكذا انتهت أولى حملات كامس بإحراز النصر على مدينة نفروسي ومنطقتها التي كانت تمتد إليها سلطة الهكسوس. إنه أول تقهقر تكبده الآسيويون. كان أمون الكرنك يقود منذ ذلك الزمن الهجوم المضاد.

ويكشف هذا النص عن صور واستعارات جديدة ذات أبعاد حربية: ومنها الملك - الصقر والجنود - الأسُد والجيش- اللهب الحارق. كل ذلك فى إطار تآلف عظيم لقوى الكون من حول شخص الملك. إن أيديولوچية جديدة ترى النور إنطلاقاً من طيبة وسوف تتطور على مدار الأسرة الثامنة عشرة ولا سيما فى عهد الملوك الرعامسة(٥٤).

لوح الكرنك(*) الثانى(٥٥)

جاءت عواقب هزيمة نفروسي قاصمة لظهر أبوبى الذى فرَّ على ما يبدو إلى عاصمته أواريس.

التقرير الوارد من مدينتك غير سار. لقد ابتعدت الآن - (لقد هربت) - إلى جانب جيشك. إن خطابك غث، عندما تجعلنى أميرًا بينما تريد أن تكون زعيمًا ملكيًا، مدعيًا امتلاك ما اغتصبته، الأمر الذى سيؤدى إلى الإطاحة بك. سوف يشهد ظهرك هزيمتك، لأن جيشى من خلفك. ونساء أواريس لن يحملن أبدًا، وشهواتهن لن تنتشر فى أبدانهن، عند سماع صيحة حرب جلالتى.

كامس يبحر فى النيل حتى أواريس

لقد رسوت عند پر - چد - كن(٥٦)، سعيد القلب، لأننى جعلت أبوبى يعيش لحظة يائسة، وهو أمير ريتنو(٥٧)، بساعديه الواهنتين، فيتخيل فى قلبه أنه يقوم بأفعال باسلة، لا وجود لها إلا فى نظره. ووصلت إلى إينيت - نت - خنت(٥٨). وابحرت حتى

(*) من مقتنيات متحف الأقصر. (المترجم)

المدينة لسؤال أهلها. وجمّعت بعد ذلك السفن الواحدة خلف الأخرى، وقيدام (إحداها) على كوئل (السفينة السابقة). كان جنودى الأكثر بسالة يطيرون فوق النهر كما الصقر. وسفينتى الذهبية أمامهم، ومثل الصقر كنت فى مقدمتهم.

وتصرفت بحيث تتقدم سفينة الحماية حتى تخوم الصحراء ومن خلفه كانت سفن الأسطول (حرفيًا: المزدهرة) *تشبه النسور التى تشق مستنقعات أواريس. بل وكنت أشاهد النساء فى أعلى قصره يتفحصن الشواطئ من خلال المزاغل. كانت أجسادهن ثابتة لا تتحرك لأنهن كن يروننى، بينما ينظرن بأرنبة أنفهن من أعلى أسوارهن*(٥٩)*، مثل الفئران الصغيرة فى جحورها. وكن يقلن: «إنه هجوم».*

أولى معارك أواريس

انظر، لقد حضرت مع حسن الطالع، وبقية (البلاد) *معى. إن عملى له الدوام. وكما أن آمون الصنديد مزدهر فى الحقيقة*(٦٠) *فلن أتركك هناك واسمح لك أن تطأ حقولنا بقدميك إلا وأنا معك. لقد خار قلبك وومن، أيها الآسيوى الخسيس! انظر سوف أشرب نبيذ مزارع كرومك الذى سيعصره من أجلى الآسيويون الذين أسرتهم. سوف أدكّ مقر إقامتك دكًا* (حرفيًا: سوف أحرثه) *وأقطع أشجارك وأضع يدى(؟) على نسائك لأنقلهن على متن سفنى واستولى على مركباتك.*

وإذا كان النصر حقيقة لا يخامرها أدنى شك، بالنظر إلى ضخامة الغنائم التى تم الإستيلاء عليها وليتم حصرها بالتفصيل فيما بعد، إلا أنه لم يرد أى توضيح يبين طبيعة هذا النصر.

الغنائم

لن أترك مجرد لوح خشبى واحد لمئات السفن المصنوعة من خشب الأرز الناضر، وتحتوى كل ما كانوا يمتلكونه من ذهب ولازورد وفضة وفيروز وبلطات برونزية لا حصر لها، زد على ذلك الزيت والبخور والحبوب والعسل والخشب النفيس،

فضلاً عن كل منتجات الريتنو الطيبة. لقد استوليت على كل شيء ولم أترك مكانًا إلاّ وتركته خاويًا.

أيها الأسيوى، لقد قُضِىَ عليك (من الآن)، ووهن قلبك، أيها الآسيوى الخسيس كنت تقول: «أنا سيِّد، فلا وجود لنظيرى حتى هرموبوليس وحتى بر-حتحور[٦١]، (ولا ممن كانوا يأتون بالجزية) إلى أواريس بين نهريها[٦٢]. لقد تركتهم فى كَرْب. فلم يعد هناك الآن أحد. لقد دمرّت مدنهم، لقد اضرمت النار فى مقار إقامتهم التى صارت تلالاً حمراء للزمن اللانهائى، بسبب الأضرار التى ألحقتها بمصر بعد أن وضعَت نفسها فى خدمة الأسيويين عندما اغتصبوا سيدتهم مصر.

تقدم بقية النص تفاصيل جليلة الفائدة عن الأحداث التى تلت أول معركة مظفرة خاضها كامس ضد الهكسوس. عندئذ سعى أبوبى إلى عقد تحالف مع ملك كوش الذى كانت سلطاته تشمل آنذاك النوبة بأسرها بل ويبدو أنها كانت تمتد حتى إلفنتين عند حدود الأرض المصرية ذاتها التى وقعت بالتالى بين فكى كماشة «الآسيوى والزنجى». كان فى وسع الملكين أن يتصلا بسهولة إلى حدّ ما، إذا سلكا الدروب التى تبدأ من مصر الوسطى لتنتهى عند واحات الصحراء الغربية ولا سيما الواحات البحرية، ثم الإتجاه جنوبيًا عبر دروب أخرى فى الرمال وصولاً إلى كوش. لقد استنجد أبوبى بملك كوش وهو ما يشهد عليه النص المذكور فيما يلى. فأوفد إليه رسولاً يحمل رسالة، نجح كامس فى الاستيلاء عليها قبل أن تصل إلى مقصدها. وبالنسبة لنا فمن العناصر الهامة التى وردت فى هذه الرسالة الإشارة الواضحة إلى حملة عسكرية سابقة كان قد خاضها كامس فى الجنوب، الأمر الذى يتفق كل الإتفاق مع خط سياسة ملوك الإمبراطورية ألا وهو تأمين الحدود الجنوبية قبل الهجوم على الشمال. ولم تصلنا أى شواهد عن هذه الحملة سوى مخربشتين محفورتين على صخور النهر قرب توشكا، إلى الشمال قليلاً من الجندل الثانى وتذكران اسم كامس. وهكذا تحدد هذه المدونة المقتضبة، أقصى ما وصل إليه تقدم أمير طيبة، فى غمار حملته ضد الجنوب، وكان شرطًا لا مناص منه قبل الهجوم المباشر على ملك الهكسوس.

أبوبى وملك كوش

ووضعت يدى على رسالته المكتوبة، إلى الجنوب من الواحة، على الطريق المؤدى إلى كوش. واكتشفت هذه الكلمات التى كتبها أمير أواريس:

«(من) عا أوسر رع، ابن رع أبوبى - أرسل تحياتى إلى ابنى[٦٣] أمير كوش. كيف حدث أن نصّبت نفسك أميراً دون أن تحيطنى علمًا بذلك؟ هل علمت ما فعلته مصر بى؟ إن الأمير المقيم فيها، كامس - القوى، له الحياة، قد شن عدوانًا شرسًا على أراضىّ - رغم أننى لم أهاجمه - تمامًا كما فعل معك. لقد اختار القُطران[٦٤] لتدميرهما، قطرى وقطرك، وعاث فيهما تخريبًا. تعال إذن، أبحر فى اتجاه الشمال ولا تخشى شيئًا، لأنه هنا معى فى الوقت الراهن ولا أحد ينتظرك فى مصر (المقصود إذن هجوم مباغت) ولن اسمح له على كل حال أن يبتعد طالما لم تصل. «بعد ذلك سوف نتقاسم مدن مصر. ومنطقة خنت - إن نفر[٦٥] ستتهلل فرحًا وسعادة».

انتصار كامس التكتيكى

(أنا) واج خبر رع(*)، القوى، له الحياة، المتحكّم فى الأحداث:

لقد أخضعت لسلطتى الصحارى وقيدام الأراضى[٦٦] والأنهار أيضًا. طريق الهزيمة لم أعرفه، لأننى لم أهمل جيشى أبدًا. ولم يُعرض وجه رجل الشمال (أبوبى) عنى ولكنه كان يخافنى فى الواقع بينما كنت أبحر فى النهر وقبل أن تستعر الحرب بيننا. وقبل أن ألحق به، أحسّ بأنفاسى الملتهبة فأرسل (رسولاً) إلى بلاد كوش طلبًا للحماية. ولكننى استوقفته ولم اسمح له بالوصول إلى مقصده. بل أمرت بالإمساك به ليعود أدراجه، وانزاله جهة الشرق عند أطفيح[٦٧].

عندئذ نفذت قوتى إلى قلبه وارتعد قلبه عندما أبلغه رسوله ما فعلته على أرض إقليم الكاب الذى كان لا يزال جزءًا من ممتلكاته. وبعد ذلك أرسلت فرقة من البواسل كانت عندئذ بعيدة جداً، وقامت باجتياح الواحات البحرية فيما كنت متواجداً فى

(*) لقب كامس. (المترجم)

ساكا[٦٨]، لتفادى أى هجوم يشنه العدو على مؤخرة قواتى. ثم أبحرت هابطًا فى النهر وقلبى قوى وسعيد، وقتلت كل متمرد صادفته فى طريقى.

العودة المظفَّرة

ما أسعد الإبحار فى اتجاه الجنوب بالنسبة للأمير الذى يتقدمه جنود جيشه. لم يتكبّد أية خسارة، لم يستفسر أحد عن رفيقه، وقلوبهم لم تكن محزونة. كان يبحر على مهلٍ فى اتجاه إقليم المدينة فى فترة فصل الفيضان. كان كل وجه وضّاءً وتفيض البلاد بالخيرات وشطآن النهر ترقص[٦٩] و طيبة فى عيد. النساء والرجال كانوا يتقدمون لمشاهدتى وكل زوجة تعانق رفيقها، وما من وجه تذرف عينيه الدمع. كنت أحرق البخور من أجل أمون داخل قدس الأقداس، فى المكان الذى يقال عنه «تقبَّل كل ما لذّ وطاب». لأن ساعده كان قد أعطى حسام قدرته لابنه الملك، له الدوام: واج خپر رع، ابن رع: كامس - القوى، له الحياة والثبات والقوة، فقلبه مسرور مع كا ئه، مثل رع، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى.

إحياء ذكرى النصر

فأصدر صاحب الجلالة أمره إلى نيشى الشجاع، الشريف والأمير والمسئول عن الشئون السرية فى القصر الملكى ورئيس البلاد بأسرها وخازن ملك مصر السفلى[٧٠]، وقائد القطرين وأول رجال البلاط ورئيس الخَزَنة (أمره قائلاً): «أطالبك أن تسجّل على لوح حجرى كل ما أنجزه جلالتى ببسالة وأن يقام فى الكرنك و طيبة للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى». وقال (نيشى) فى حضرة صاحب الجلالة: «سأفعل طبقًا لما أمرتنى به». وأثنى عليه الملك إكرامًا له.

هكذا وبعد انقضاء ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة فإن مآثر كامس الذى عقد العزم على تحرير البلاد من سطوة الأجنبى لتستعيد مصر هيبتها وشرف منزلتها - ما زالت هذه المآثر - حية تغالب الأيام.

كما كان ملكًا نافذ البصيرة ثاقب الفكر. فلما أراد أن يؤكد انتصاره على الجنوب أصبح كامس على ما يبدو أول من نصّب «*ابنًا ملكيًا*» لمناطق الجنوب واختار تيتي لهذه المهمة. والشاهد على ذلك مخربشتا توشكا. هكذا استعادت مصر سيادتها على النوبة.

إننا لا نعرف شيئا عن الأحداث التي تشير إلى نهاية عهد كامس. ولكن من المرجح أن المنية قد باغتته، فأدركته قبل الإنتهاء من إعداد مقبرته التي كانت لا تزال سالمة في عهد رعمسيس التاسع، استنادًا إلى ما ورد في بردية أبّوتّ **Abbott**. ولكن في تاريخ لاحق، وللحفاظ على الجسد من انتهاك حرمته، نقل التابوت من المقبرة ليوارى في الأنقاض المجاورة. وقد تم الكشف عنه عام ١٨٥٧ ولم يغتصبه أحد، ولكنه كان في حالة سيئة من الحفظ. وعثر بجوار جسد الملك على بعض المصوغات والمتعلقات الشخصية. وتحمل قطعة حلي اسم أحمس أخي كامس وخليفته والذي وقعت على عاتقه مهمة دفنه. وتحمّل الملك الجديد مسئولية مواصلة تحرير مصر وإعادة النظام الملكي الفرعوني إلى سابق عهده. لقد أصبحنا الآن قرب العام ١٥٨٠ق.م.

٣- أحمس
وإعادة سلطة الفراعنة إلى سابق عهدها

طرد الهكسوس

النصوص التي تروي حملات أحمس ضد الهكسوس قليلة. والمصدر الرئيسي هو *السيرة الذاتية* لأحد ضباطه واسمه أحمس بن أبانا وقد نقشت على جدران مقبرته الصخرية في الكاب جنوب طيبة(*). الجزء الأول ويضم واحد وثلاثين سطرًا دُوّن على الجدار الأيمن من ردهة المدخل ودوّن الجزء الثاني وهو عبارة عن ثمانية أسطر على الجدار القائم مباشرة على يسار المدخل.

(*) وشمال إدفو على وجه التحديد. (المترجم)

يقول قائد البحارة أحمس بن أبانا، الصادق القول: إنى أحدثكم أنتم أيا جميع البشر. سوف أحيطكم علمًا بالإنعامات التى كانت من نصيبى. فبحضور البلاد بأسرها كوفئت بالذهب سبع مرات[٧١]، فضلاً عن الخدم والخادمات[٧٢]. كما مُنحت قطع أرض تفوق الحصر. فسمعة الرجل تعتمد على ما قام به من أفعال، ولن تزول أبدًا فى هذا البلد.

كما قال ما يلى: لقد ترعرعت فى مدينة الكاب. كان والدى قائدًا (فى جيش) سقنن رع صادق - القول، ملك مصر العليا ومصر السفلى. كان اسمه بابا بن رعنت. وأُخذت مكانه قائدًا على متن السفينة (المسماة) «الثور المحارب»، فى زمن رب القطرين نب - پحتى - رع[٧٣]، صادق القول. كنت لا أزال حدثًا ولم اتخذ لنفسى زوجة وما زلت أنام بثياب الصبا.

وبعد أن أسست منزلاً، وأُلحقت بأسطول الشمال نظرًا لشجاعتى، كنت أرافق العاهل الملكى على اليابسة، وألازمه فى نزهاته على متن مركبته. وضُرِب الحصار على مدينة أواريس[٧٤].

لم ينبس أحمس بن أبانا بكلمة واحدة عن تقدم الجيش من طيبة فى اتجاه الشمال أو عن مساره أو الخطة التى نفذها أحمس. ولكن حدث مؤخرًا أن لفت عالم المصريات البلچيكى كلود ڤاندرسليين Claude Vandersleyen انتباهنا إلى الملاحظات المدونة على ظهر بردية ريند Rhind الرياضية، التى تعود نسختها إلى العام الثالث والثلاثين من عهد أبوپى[٧٥]. إن هذه الملاحظات سجلها بلا شك الكاتب الناسخ لحظة وقوع أحداث معاصرة مهمة تعود إلى العام الحادى عشر من عهد ملك، لم يذكر اسمه. هذه الملاحظات موزعة على ثلاثة أعمدة:

العمود الأول - *الشهر الثانى من فصل الجفاف من العام الحادى عشر، الدخول إلى هليوپوليس.*

العمود الثانى - *(١) اليوم الثالث والعشرون من الشهر الأول من فصل الفيضان، الهجوم...*

(٢) ما فى جنوب سيله

(٣) الثانى (....) يوم، وصل إلى مسامعنا

(٤) الدخول إلى سيله

العمود الثالث - (١) (اليوم) الثالث من الشهر الأول من فصل الفيضان العام الحادى عشر مولد ست.

(٢) صدر صوت عن جلالة هذا الإله (لقد دَوِى الرَّعد)

(٣) مولد إيزيس. لقد أمطرت السماء.

لا شك أن هذه العمليات قد جرت من نهاية شهر أبريل وحتى نهاية شهر يوليو.

وإذا كان من المرجح جداً أن العام الحادى عشر المقصود يعود إلى عهد أحمس[٧٦]، تصبح الفرضية السديدة التى ساقها ڤانديرسليين Vandersleyen هى على النحو الآتى: «إن سرعة التقدم البرى التى تشير إليها السيرة الذاتية للقائد أحمس بن أبانا لا يقصد بها تحديداً سوى فتح هليوبوليس وسيله» - ثارو بالمصرية القديمة والقنطرة حاليا. *«وإذ باغت الملك العدو بالإستيلاء على سيله فقد استطاع أن يفصل أواريس عن مؤخرتها الآسيوية. وعندما بلغ خبر الإستيلاء على سيله على مسامع الكاتب، لم يكن الأمر سوى خطوة إلى الأمام فى سلسلة العمليات الهادفة إلى محاصرة أواريس، وإن كانت الأكثر جسارة بالنظر إلى بعدها عن قواعد القوات المصرية، وربما الأكثر إلحاحًا أيضًا لأنها كانت تقطع على الفور الطريق إلى المنطقة المطلوب محاصرتها. إن الاستراتيجيا المطبقة فى هذا المجال واضحة كل الوضوح فورود اسم سيله مباشرة بعد اسم هليوبوليس يؤكد عدم الإستيلاء على أى تجمع سكانى هام فيما بين المدينتين، سواء كانت منف أو أواريس؛ فقد استطاع الملك أن يسلك طريق وادى الطميلات حتى بحيرة التمساح لينحرف هنا فجأة فى اتجاه الشمال».*

إن المسافة التى تفصل هليوبوليس عن سيله تصل إلى حوالى ١٥٠كم، استطاع أحمس أن يقطعها هكذا مخترقًا الصحراء، ليترتب على هول المفاجأة أبلغ تأثير. إن بعض العلامات المبشرة كالرعد والأمطار قد مهّدت لكبرى الأحداث المرتقبة. إنه الأسلوب الذى تختاره دائمًا الآلهة لإبلاغ البشر.

ولا شك أن حصار أواريس التى تحصّن الهكسوس بداخلها قد استمرّ لفترة طويلة، دون أن نستطيع تحديدها على وجه الدقة. ويتحدث أحمس بن أبانا فى سيرته

الذاتية عن العديد من الإشتباكات مع العدو على اليابسة وعلى صفحة مياه الترع والقنوات المحيطة بالمدينة. بل اضطر بعد الإشتباك الثالث أن يقاتل إلى «الجنوب» ليتصدى على ما يظن لهجوم على مؤخرة الجيش الملكى وجناحيه.

*ضُرب الحصار على مدينة **أواريس**. وأتيحت لى الفرصة لأبرهن على بسالتى على الأرض فى حضرة صاحب الجلالة. ثم رُقيت على السفينة «**تلك التى تتألق فى منف**»، وعندئذ دارت المعركة على صفحة الماء فى القناة **پا - چد - كو** عند **أواريس**. وحصلت على غنائم. وعُدت بيدٍ[٧٧] وأُبلغ الحاجب الملكى بهذه الواقعة ونلت ذهب البسالة. ثم دارت المعركة من جديد فى هذا المكان وحصلت أيضًا على بعض الغنائم. فُعدت بيدٍ ومنحت من جديد ذهب البسالة.*

بعد ذلك، كان علينا أن نقاتل فى مصر إلى الجنوب من هذه المدينة. ومن هناك، عدت بأسير رجل. ونزلت إلى الماء. انظروا لقد جئت به وكأنه مغنم ربحته على الطريق إلى المدينة[٧٨]. وعبرت الماء بينما كنت أحمله وتم ابلاغ الحاجب الملكى بما حدث. عندئذ كوفئت مرة أخرى بالذهب.

*ثم تم الاستيلاء على **أواريس**. وأحضرت معى أسرى: رجلاً وثلاث نساء. فكان المجموع أربعة رؤوس. وقدمهم إلىّ صاحب الجلالة خدمًا.*

هكذا كان **الهكسوس** قد طردوا من مصر.

جذور الإمبراطورية

وإذ تحلى **أحمس** بالفطنة والحكمة فقد طارد الآسيويين المهزومين حتى مدينة **شاروهين** فى أرض **كنعان**. ولا شك أنها بلدة **تل الفرعة** الحالية إلى الجنوب من **غزة** وعلى خط عرض **بئر سبع** تقريبًا.

يقول **أحمس بن أبانا**:

*وضُرب الحصار على **شاروهين** لمدة ثلاث سنوات. وفى نهاية المطاف استولى*

عليها صاحب الجلالة. ومن هناك أيضًا عدت بالمغانم: امرأتين ويدٍ. ومنحت من جديد ذهب البسالة في حين أُعطيت الأسرى خدمًا.

وزحف الجيش الملكي في اتجاه الشمال لتأمين حدود مصر الشمالية الشرقية تأمينًا قاطعًا واستعادة بلا شك هيمنتها القديمة على الموانئ الفينيقية. وفي *السيرة الذاتية* لأحد ضباط أحمس الآخرين وهو أحمس - پن - نخبت، وكانت الكاب موطنه الأصلي أيضًا يُقال ما يلي:

لقد تبعت نب - پحتي - رع، ملك مصر العليا ومصر السفلي. ومن أجله أسرت في بلاد جاهي(٧٩) *رجلاً ويدًا*(٨٠).

لقد ذهب أحمس إلى فينقيا ولكن لا يسعنا أن نؤكد أيضًا أنه وصل إلى نهر الفرات(؟) الحد الشمالي المثالي للفاتحين المصريين.

ومن الآن فصاعداً سيلجأ الفراعنة مرغمين، إذا صح القول، إلى «*الخروج*» من الأطر السياسية القديمة المحصورة في الوادي. فلن تنطلق الحملات العسكرية من الآن لأغراض إقتصادية فقط ولكنها ستضع الآن نصب عينيها تأمين حماية مصر، بفضل إحاطتها بحزام من البلدان الخاضعة لهيمنتها وما يشبه الدول العازلة والحاجزة التي سوف تقوم بحمايتها من الغزوات الأجنبية التي كانت خربتها في الماضي القريب. وسوف يضطر فلاّحو ضفاف نهر النيل أن يصبحوا جنوداً، وستتحوّل المملكة إلى إمبراطورية شاسعة.

كان كامس قد استعاد هيمنة مصر على الأراضي الإفريقية في الجنوب. ولكن اندلاع الثورات اضطرت أحمس في أعقاب حملاته السورية - حول العام الخامس عشر من عهده - أن يصعد النهر في اتجاه النوبة والسودان. ويروي هذه الأحداث أحمس بن أبانا رفيق السلاح الوفيّ:

بعد أن أباد جلالته بدو آسيا، صعد النهر في اتجاه خنت - إن - نفر، للقضاء على النوبيين. وقتل عددًا كبيرًا منهم (أما أنا) فقد حملت معي من هنا مغنمًا: رجلين على قيد الحياة وثلاث أيادٍ. ومن جديد منحت الذهب مكافأةً لي وسلّمت لي امرأتين. عندئذ هبط صاحب الجلالة النهر متجهًا ناحية الشمال، وكان قلبه سعيدًا، عن قدرة وقوة، لأنه فتح بلاد الجنوب وبلاد الشمال.

عندئذ اتجه أتا إلى الجنوب (من مصر). وهكذا كان مصيره يقترب من نهايته. فأمسكت به آلهة مصر العليا. والتقى به صاحب الجلالة عند تنت - تاعا - مو(؟) واقتاده أسيراً، في حين تحول سائر شعبه إلى غنيمة. أما من جهتي، فقد أحضرت معي جنديين أسيرين أخذتهما من سفينة أتا. ومنحت خمسة رؤوس فضلاً عن قطع أرض في مدينتي، تعادل خمس أرورات(*)، وعومل جميع البحارة بالمثل.

كما جاء عدو خسيس اسمه تيتي - عن. كان قد جمع من حوله رجالاً قلوبهم شريرة. فقتله صاحب الجلالة وصارت قواته كأنها لم توجد قط. ومُنحت ثلاثة رؤوس وحقولاً في مدينتي، مساحتها خمس أرورات.

كان العدو الأول هو آتا ولا ندرى إن كان هو اسم شخص أو لقب؟ ولكنه كان أجنبيًا وربما نوبيًا استناداً إلى علم أسماء الأعلام. أما الثاني وهو **تيتي - عن** (**تيتي** *جميل*) الذى يدل اسمه أنه مصرى، فربما كان زعيمًا أجنبيًا متمصّراً أراد إعادة إحتلال المنطقة المفقودة جنوب الجندل الأول أو كان بالأحرى مصريًا دبّر مؤامرة ضد **أحمس**.

وأيًا كان الأمر، فقد استعاد **أحمس** سيطرته على الأراضى الجنوبية وإن لم يتجاوز بلا شك مدينة **بوهن**. فرمّم تحصينات المدينة وأعادها إلى سابق عهدها، فأصبحت **بوهن** عاصمة حقيقية لهذه المنطقة يدبر شئونها حاكم. وقام **أحمس** بتعيين **تورع** فى هذا المنصب الذى سيتحول فى عهد **أمنحوتپ الأول** – خليفة **أحمس** – إلى منصب «الابن الملكى ورئيس بلدان الجنوب». إن هذه الوظيفة الرفيعة وهى باختصار منصب «نائب – الملك» كان يشغلها آنذاك **چحوتى** الذى خلف **تيتى**. (راجع مخربشات توشكا السابق ذكرها).

(*) المقابل اليونانى للاسم المصرى القديم ستات الذى يعادل ٢٧٣٥ متراً مربعًا أو أكثر من نصف فدان بقليل. (المترجم)

أحمس، ملكًا وإداريًا

يعتبر أحمس مؤسس الأسرة التاسعة عشرة.

وفي مصر ذاتها كان الأمر يحتاج إلى عمل ضخم لإعادة توحيدها وتنظيمها.

كان لابد من مواجهة السلطات المحلية لحكام الأقاليم بعد أن تحولوا إلى أسرات حاكمة حقيقية والعمل على إدماجهم من الآن، في الإطار الأكثر رحابة لسلطة مركزية واحدة. وتحقيقًا لهذا الهدف يبدو أن أحمس قد استبدل بعض خلصائه الأوفياء بعدد من حكام الأقاليم المشكوك في ولائهم(*) أو ثبّت في مناصبهم من مدّوا له يد العون. ولكن عن هذا الموضوع لم يصلنا سوى غيض من فيض.

يمكن أن نتصور أن أحمس عندما عقد العزم على إعادة الازدهار إلى الإقتصاد المصرى شرع تحديدا في تطهير القنوات والترع القائمة، وشق الجديد منها، وهو تصور لا يجافى الحقيقة. ولا شك أنه ليس مجرد صدفة، أن المقابر الثلاث التى تم الكشف عنها فى جبانة طيبة وأصحابها من موظفى أحمس، كانت اثنتان منها «*المشرفَيْن على مخازن الغلال*» حرى و نخت. كما نشطت التجارة نشاطًا ملحوظًا. ومن جديد وصلت إلى مصر المواد النفيسة القادمة من البلدان الأجنبية. وفى العام ٢٢ من عهده، وبفضل جهود الخازن نفر پرت وبحضور الملك والملكة أحمس ـ نفرتارى، أعيد فتح محاجر المعصرة قرب طرة، وقبالة منف:

أعيد استخراج الحجر الجيرى الجميل من أجل معابده (أى معابد أحمس) لملايين السنين، ومن أجل معبد بتاح فى منف والمعبد الجميل فى الكرنك– معبد آمون – وكل ما شيده صاحب الجلالة(٨١).

والشاهد على هذا النشاط، اللوحان الصخريان اللذان عثر عليهما فى المحاجر ذاتها. كما أمر أحمس بلا شك بفتح محجر جديد للألبستر فى موقع بصرة على البر الشرقى من نهر النيل إلى الجنوب من أسيوط. وبالفعل فقد وُجد اسم أحمس ـ نفرتارى مذكوراً فيه.

(*) مع تجنب الخطأ الشائع، والصواب أن الباء تدخل على المتروك. (المترجم)

ونلتمس هذا الإنتعاش الإقتصادى، على نحو خاص، فى كبرى المشاريع الإنشائية التى نفذها **أحمس** سواء فى **بوهن** أو **الكرنك** أو **هرمونتيس** أو **أبيدوس** أو **منف**. وفى **الكرنك** شيّد معبد على مقربة من معبد **آمون - رع**. كانت جدرانه من الحجر والأساطين والسقف والأرضية من خشب الأرز. وفى القسم الجنوبى من الجبانة **بأبيدوس** أقيمت مبانٍ شُيدت أساسًا من الطوب، ومنها ضريحان تذكاريان أحدهما من أجله، أما الآخر فمن أجل جدته **تيتى - شيرى** والدة الأمير **سقنن - رع تاعا** والتى كانت لا تزال على قيد الحياة.

وفى عام ١٩١٣ أخرج عالم المصريات الفرنسى **ليجران Legrain** إلى النور، لوحًا كبيراً من الحجر الجيرى[٨٢] يحمل اسم **أحمس**، تم الكشف عنه قرب الصرح الثامن فى **الكرنك** الذى شيده **تحوتمس الثالث** وكان **أمنحوتپ** الرابع قد دفنه فى هذا المكان. يتكون النص من ٣٢سطراً وهو عبارة عن نشيد عظيم من أجل الملك الجديد. إنه قصيدة طويلة غنائية الأسلوب، نُظمت للإشادة بالازدهار الذى عمّ البلاد، مع عودة النظام الملكى. إنه أنشودة حقيقية تتغنى بالتحرير.

الحورس : صاحب الصيرورات المهيبة.

السيدتان : صاحب(*) النهضات الجميلة.

الحورس الذهبى: الذى يربط الأرضين.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب - پحتى - رع (أى: رع هو رب القوة).

ابن رع: محبوبه، أحمس، الحى إلى أبد الآباد.

إنه ابن آمون - رع، فهو من جسده ومحبوبه ووريثه، فقد وهبه عرشه.

الإله الكامل فى الحقيقة، القوى الساعد، الذى لا يعرف الكذب. إن ما يفعله مهيبًا على غرار رع.

إنه ابن جب ووريثه المنتصر فى بهجة وسرور.

(*) الإشارة هنا إلى الملك. (المترجم)

إنه من ذرية رع الذى خلقه.

الحامى، فإليه ينسب كل ما على سطح الأرض، إلى الملك النورانى، رب الفرح، فما برح يعطى الأنفاس لأنوف النساء، ويهب الحياة بلا انقطاع، ويقيم الحقيقة والعدل للأمد الطويل.

ملك الملوك فى سائر البلدان، العاهل الملكى الذى ربط الشاطئين، وأتى بالعُجب العجاب. قديرة هى تجلياته بالقوة. إنها تدفع كل من يجلّون الآلهة المفعمة بالحياة والقوة، إلى الإنحناء.

إنه الأول فى السماء والثانى على الأرض، فبهاؤه يخلق النور. إنه محبوب آمون. إن منصبه مضمون للأمد الطويل مثل منصب الإله - صاحب - الوجه - الجميل (أى: بتاح)، إنه رب السنين، وشبيه رع فى جلاله، والذى يسمح له الإله بأن يعرف معبده.

إنه عيد جميع الآلهة، وملك الجنوب فى په، وأمير الشمال فى البلد المحبوب[٨٣]، وعمود السماء ودفة [الأرض]، فيُسيّر شئون كل ما يحيط به القرص، لقد استقر التاج الأبيض والتاج الأحمر فى ثبات على رأسه، إن نصيبَىْ حورس و ست خاضعان لسلطانه.

لقد تجلى متألقًا وجميلاً منذ طفولته، وكانت كل ساعة من ساعاته رائعة، إلى أن نال التاج العظيم، رافعًا الريشتين عاليًا، فى حين أن قدرة الصلين (تعلو) وجهه، مثل قدرة حورس بعد أن تولى زعامة الأرضين.

أيها العاهل الملكى الذى استمال التجليات فى مجدها فى خمّيس[٨٤]، يا رب عمليات الشروق المتألقة، أيا حورس إن الحب الذى من وحيك، يغالب الأيام. فإليك يسعى أهل الجنوب وأهل الشمال وأهل الشرق وأهل الغرب. إنه سيدٌ رابط الجأش، ثابتة هى أرضاه، بعد أن تسلم ميراثه من الذى انجبه، (تسلّم) القطرين. والشعوب التى أجبرها على الهروب أُعطيت له، من قبل والده المعظّم.

لقد أخذ الـ«حنميت» بقبضة يده وأمسك الـ«رخيت»، فى حين يمتدحه الـ«بعت»

مهللين[٨٥]. وكل امرئ يقول: إنه سيدنا. ويقول الـحاو-نبوت»: نحن من أتباعه. وتقول الأراضي: نحن ملك له.

إنه الملك الذى سلّمه رع السلطة وعظّمه آمون. إنهما يعطيانه دفعة واحدة، الشطآن والأراضى التي يسطع عليها رع. ويتقدم الأجانب معًا مذعورين ليظلوا واقفين أمام ساحة عدالته. إن سيفه المسنون فى خنت-إن-نفر، وصيحته - صيحة الحرب فى بلاد الفينقيين، إن الخوف الذى يثيره صاحب الجلالة هو فى هذه البلاد أشبه بالذى ينشره الإله مين، سنة وصوله، عندئذ يُحضرون هدايا جميلة محمّلين بالجزية التى تقدّم للملك.

وعندما يظهر [...] فهو كالقمر وسط النجوم، ساعده جميل عندما يتقدم، وخطاه سعيدة وقدماه ثابتتان ونعلاه سريعان فى حركتهما، إنه الشكل المقدس الذى يحطّ عليه رع. إن آمون هو حمايته، ووالده المعظم الذى ما برح يحبه، بينما يرسم له دروبه.

الشاطئان يقولان: واهًا! ليتنا نراه! الشعب بأسره مفعم بالحب الذى يحركه فى النفوس، والعيون منبهرة عند مشاهدة هذا العاهل الملكى، والقلوب تُسرع نحوه. ونشاهده على غرار رع عندما يشرق، أشبه بتوهج القرص، مثل خپرى عندما يظهر متألقًا للناظر إليه. إن أشعته فى الوجوه مثل أشعة آتوم فى شرق السماء. والنعائم ترقص فى الوديان، هكذا تفعل عندما يسطع الإله النورانى فى كبد النهار وجميع الأفاعى اتقدت نارًا.

إنه الملك المتفرد الذى تعبده سوتيس(*) وتبجّله سيشات[٨٦]. إن هيبة تحوت إلى جواره، (تحوت) الذى يمده بالمعرفة. إنه يرشد الكتبة إلى الحسابات الصائبة، إنه الساحر العظيم، إنه مالك الحب أكثر من أى ملك (آخر)، إنه محبوب حورس ورع. إنه

(*) نجمة الشِّعرى اليمانية وسبيدت عند المصريين القدماء. وهى أيضًا إلهة. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتي. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. ص١٨٣-١٨٤. (المترجم)

يتصرف بحيث تتفانى من أجله القلوب المفعمة بالتهاليل والهتافات، فى حين تظل رغبات الثناء والمديح فى الأبدان.

اسمعوا أيا بعت وحنميمت ورخيت، أيا جميع أهل (مصر). اتّبعوا هذا الملك فى مساعيه، ضعوا مجده إلى جوار غيره من البشر. تطهّروا من أجل اسمه، كونوا أطهارًا من أجل حياته. انظروا، إنه إله فى هذه البلاد، حيّوه مثل رع، اعبدوه مثل القمر، إنه ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب - پحتى - رع، الحىّ إلى أبد الآباد، الذى ربط كافة البلدان الأجنبية.

الثناء أيضًا على سيدة البلاد التى تتسيّد على شواطئ حاو نبوت، إن اسمها مرفوع فوق كل بلد من البلدان الأجنبية وتحدد مصير الجماهير. إنها الزوجة الملكية وأخت العاهل الملكى وابنة الملك والوالدة الملكية المعظّمة. إنها تمتلك المعرفة وتربط مصر وتحيط الجنود برعايتها وحمايتها، إنها تدفع الفارين أمامها إلى الإلتفات وراءهم إنها تطوق البدو(؟) وتعيد الهدوء إلى مصر العليا وتدحر من تمردوا عليها - إنها الزوجة الملكية عح حوتپ، لها الحياة!

كما أمر صاحب الجلالة بصنع ما يخلد ذكرى والده آمون - رع، ومنها: قلائد كبيرة من الذهب وسلاسل من اللازورد الحقيقى وأختام من الذهب وأباريق من الذهب وزلع وآنية من الفضة ومذابح من الذهب وموائد قرابين من الذهب والفضة وقلائد مينات يختلط فيها الذهب والفضة باللازورد والفيروز وإناء من الذهب للـ«كا» بقاعدة من الفضة وإناء من الفضة المموهة بالذهب، بقاعدة من الفضة، من أجل الـ«كا»، وطبق من الفضة وزلع من الجرانيت مملوءة بالأدهان وأطباق كبيرة من الفضة والذهب، مقابضها من الفضة وقيثارة من الأبنوس المكفّت بالذهب والفضة وتماثيل من الفضة لأبو الهول وقاعدة تمثال (؟) من الذهب. كما أمر جلالتى ببناء مركب ضخم ليشق مياه النهر ويكون اسمه «قوى - هو - قيدام - آمون». سوف يصنع من خشب الأرز، من أفضل أنواع لبنان، حتى تتم رحلته الأولى فى مطلع السنة... وسوف تقام السوارى أيضًا من خشب الأرز، وكذلك المقصورة والأرضية[٨٧]...

وإذا كان هذا المقطع الأخير، على وجه التحديد، يؤكد أن مصر قد عرفت من الآن اقتصاداً مزدهراً، وإذا كان الملك قد أصبح من جديد العاهل الأوحد في ربوع الوادي وابن الآلهة وحامي الشعب، وإذا كان عالمًا ومحبوبًا ومهيبًا، شأنه شأن من سبقوه، فسوف تتعاظم هذه الصفات مع اعتلاء الرعامسة العرش، إلاّ أن عنصرين جديدين يبرزان هنا، ويسترعيان الإنتباه: نقصد بذلك إشراك الملكة في إنتصار الملك والثراء الحديث العهد الذي حظي به آمون الكرنك.

السيدات الثلاث في البلاط الملكي

كنّ ثلاثًا، ثلاث سيدات مرموقات وينتظر إحداهن مصيراً إلهيًا. وعلى رأسهن تيتي - شيري والدة سقنن رع تاعا وجدة الفرعون أحمس. ومن بعدها ابنتها عح - حوتپ وأخت سقنن رع تاعا وزوجته ووالدة أحمس. وأخيراً أحمس - نفرتاري ابنة السابقة واخت أحمس وزوجته.

وتأسيساً على ما سبق نلاحظ حقيقتين: فنجد من جهة أن أعداداً كبيرة من الأسماء سواء كانت مؤنثة أو مذكرة يدخل في تركيبها اسم *القمر*. ونلاحظ من جهة أخرى، الأهمية المتعاظمة للنساء في البلاط الملكي ومشاركتهن في الإحتفالات الرسمية.

فتدخل كلمة «قمر» - عح - في تركيب اسم أحمس(*) أي «*القمر وَلَدَه*» أو «*وُلِدَ القمر*». فربما ولد الطفل يوم أحد الأعياد القمرية. وذلك بالإضافة إلى اسم عح حوتپ أي «*ليكن القمر راضيًا*» واسم أحمس - نفرتاري وهو اسم مركب يعني «*أحمس - جميلته*». والأسماء التي تضم المقطع إعح - مع ملاحظة أنه ينطق عح عندما يقع في أول الكلمة - كثيرة في عائلة سقنن - رع - تاعا. إنها الصياغة نفسها التي جاءت منها أسماء تحوتمس(**) أي «*تحوت وَلَدَه*» أو «*وُلِدَ تحوت*». فقد كان تحوت في مصر

(*) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم عح مس. (المترجم)

(**) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم چحوتي مس. (المترجم)

«*إلهًا– قمرًا*» من الطراز الأول. هل نحن أمام برهان على وجود طقس عائلى؟ أو كان من الضرورى دمج هذه الظاهرة فى حركة روحية أكثر شمولاً؟

ففى العالم الآسيوى كانت الشعائر التى تقام من أجل «*الإله ـ القمر*» منتشرة على نطاق واسع منذ أزمنة موغلة فى القدم. ففى بلاد **سومر** ساد تصور عن قصة خلق الكون، مفاده أنه قد وُلد من البحر الأولىّ، فى بادئ الأمر، جبل كونّى يتكون من السماء (=**أن**) والأرض (=**كى**) اللذين أنجبا الإله الهواء ـ **إنليل** ـ الذى فتقهما وفصل بينهما. ويقترب هذا النظر الذهنى من مثيله فى **هليوبوليس**. وانجب **إنليل** القمر **نانًا** الذى أصبح والد الشمس **أوتو**. ومن ثم فقد كان وجود القمر فى عالم **سومر**، وهو إله مذكر، سابقًا على الشمس. ومع إختلافات محلية، يظل هذا النموذج شديد الشبه فى عالم **بابل**. وفى بلاد **آشور** كان يطلق على «*الإله ـ القمر*» اسم **سين**. وقد احتفظ تقويمها بذكرى الأعياد والمؤسسات البدائية التى تعود إلى زمن كان الملوك ما زالوا يسكنون الخيام: ونذكر على وجه التحديد «*الشهر سين*». كان «*الإله ـ القمر*» محل تبجيل وإجلال عظيمين من جانب البدو. وقد سبق أن ذكرنا[٨٨] أن **سيناء** التى كانت أرضًا عاشت فيها القبائل حياة ترحال، استقر فيها بسرعة الإله المصرى **تحوت**، فأدمجه بدو الصحراء، على ما يظن، فى *الإله ـ القمر* المحلى الذى كانوا يعبدونه. وفى منطقة بلاد **ما بين النهرين** أيضًا كانت مدينة **حرّان** شرق **الفرات** وشمال شرق **حلب** إحدى أكبر المراكز الآسيوية المكرسة لعبادة القمر. وكانت من بين المدن التى توقف عندها النبى **إبراهيم** عند رحيله إلى مصر[٨٩]. وفى **الأناضول** أيضًا كان يُعبد القمر **آرما**. وكان **الحوريون** يعبدون كوكب الليل **كوشوش**[٩٠].

ومن جراء كبرى عمليات تداخل الشعوب الناجمة عن الغزوات **الهندوأوروبية** فى آسيا، ربما اختلطت الأفكار الدينية، وإن كانت متقاربة أصلاً كما لاحظنا. ومع أولى الفتوحات التى حققها أمراء *مدينة الجنوب*، عادوا بالأسرى الذين عملوا خدمًا وبدأوا يفلحون حقول مصر. ومن الراجح أن هذه العبادات قد أثّرت فى الفكر المصرى، فأمدّت عبادة الكوكب **عح** والإله **تحوت** بحيوية جديدة تشهد عليها أسماء الأعلام المصرية.

وفي هذا الصدد تشدّ اهتمامنا جزئية بسيطة تتعلق برسم العلامات الهيروغليفية، وهو ما لاحظه ڤانديرسليين Vandersleyen[٩١]: فبينما تُرسم العلامة الهيروغليفية الدالة على القمر في المعتاد على النحو الآتي ، يلاحظ أن الشكل الذي اتخذته هذه العلامة منذ نهاية الدولة الوسطى تذكّرنا برسومات بلاد ما بين النهرين. إن الإختفاء المفاجئ لهذه الطريقة في رسم هذه العلامة في عهد أحمس، سار جنبًا إلى جنب مع طرد الهكسوس بصفة نهائية. ويعبر عن رغبة أكيدة في الإقلاع عن العادات والأعراف الآسيوية. ولكن ظلت مع ذلك الأسماء القمرية شائعة.

أما عن دور النساء في بلاط أحمس فهو ظاهرة لافتة للأنظار.

كانت الجدة تيتي - شيري التي عاصرت في طيبة كافة أحداث حروب التحرير منذ ولادة سقنن - رع تاعا، لا تزال على قيد الحياة بعد طرد الهكسوس. وبالفعل فإن جزءًا من لوح حجري محفوظ في لندن[٩٢] (University College) يسوق الدليل على ذلك. وللأسف فإن الجزء الأسفل من اللوح مهشم. فلم يبق سوى الطرف العلوي من شخصين. فأمام الإله مونتو الذي يكشف عن وجوده المتن الذي يشير إلى «مونتو رب طيبة» كان يقف أحمس ومن خلفه «*الأم الملكية تيتي - شيري*». وتقول المدونة:

اليوم السابع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الجفاف [من العام؟]، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب پحتي رع، ابن رع: أحمس، لقد شيّد مبنىً ليرمم جزءًا من معبد والده مونتو رب طيبة وثور هرمونتيس.

ومن ثمّ وبعد تتويج أحمس، شاركت تيتي - شيري في الإحتفال الرسمي الذي أقيم بمناسبة ترميم معبد مونتو في طيبة. فكانت لا تزال إذن «*السيدة*» الأولى في البلاط الملكي. وقد ضاع تحديد السنة. ولكن إذا كانت ملاحظة ڤانديرسليين التي سبق أن أشرنا إليها صحيحة، فلابد أن يعود تاريخ هذا اللوح الحجري إلى السنوات الأولى من عهد الملك، لأن العلامة الهيروغليفية الدالة على القمر داخل الخرطوش كانت لا تزال تحتفظ بالشكل .

وشأنه شأن ملوك مصر على وجه العموم كان أحمس يكن لأسلافه إحترامًا ورعًا. إن نص لوح حجري يعود تاريخه إلى هذا العاهل الملكي وكشف عنه سير

فليندرز بيترى Sir Flinders Petrie فى أبيدوس فى مقصورة تيتى- شيرى الجنائزية ينقل لنا «حديثا» دار بين العاهل الملكى وزوجته، بشأن جدتهما والأوقاف الجنائزية الخاصة بها:

فى يوم من الأيام، كان صاحب الجلالة جالسًا فى قاعة المقابلات الرسمية، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب- پحتى- رع. وابن رع: أحمس، له الحياة. كانت السيدة النبيلة، لها الثناء كل الثناء، صاحبة السحر المهيب، ابنة الملك، وأخت الملك والزوجة الإلهية(٩٣) والزوجة الملكية العظيمة، أحمس- نفرتارى، (ليتها تحيا!)، كانت جالسة إلى جوار صاحب الجلالة. وتحدّث الملك إلى رفيقته، بحثًا عما قد يفيد الموتى العظماء: كرشّ الماء وتقديم القرابين على المذبح والعمل على استعادة موائد القرابين و«إخضرارها»، عند مطلع كل فصل من فصول السنة والعيد الشهرى لاكتمال القمر بدرًا وعيد طلعة الكاهن سم(٩٤) وعيد القرابين الليلية فى اليوم الخامس من كل شهر وعيد اليوم السادس والعيد حاك والعيد واج وعيد تحوت، واليوم الأول من كل فصل من الفصول فى السماء والأرض(٩٥).

فأجابته أخته قائلة: «لما استرجاع كل ذلك إلى الذاكرة؟ ماذا تقصد بهذا الحديث؟ ماذا ألمّ بقلبك؟»

فقال لها الملك: «لقد تذكرت والدة والدتى ووالدة أبى، الزوجة الملكية العظيمة، تيتى- شيرى، الصادقة القول. أجل فما زالت مقبرتها ومقصورتها قائمتين على أرض طيبة وأرض أبيدوس. لقد قلت لك ما قلته لأن جلالتى يرغب أن يقيم من أجلها هرمًا ومعبدًا فى الأرض المقدسة (الجبانة)، هبةً فخمة من جلالتى. سوف تُحفر بحيرته وتغرس أشجاره وتحدد قرابينه وتُلحق هيئة من الموظفين بالمعبد، وتخصص له الحقول والقطعان، فضلاً عن الكهنة الجنائزيين والكهنة المرتلين الذين سيؤدون عملهم، فكل واحد منهم يعرف واجبه».

تفوّه صاحب الجلالة بهذه الكلمات، فى حين كان ذلك فى طور التشييد. لقد فعل كل ذلك لأنه كان يحبها حبًا عظيمًا. ولم يحدث أبدًا أن صنع ملوك الزمن الماضى من أجل أمهاتهم ما يشبه ذلك.

ثم بسط صاحب الجلالة ساعده ومدّ يده[٩٦] وصنع (كَتَب) أيضًا من أجلها صيغة تقديم القرابين: «قربان يقدمه الملك إلى جب والتاسوع الإلهى والتاسوع الصغير... إلى أنوبيس المشرف على المقصورة الإلهية (حتى يعطى) آلاف أرغفة الخبز و(أباريق) الجعة والثيران والطيور والأبقار... من أجل كا ... [تيتى- شيرى][٩٧]».

إن تيتي- شيرى التي أغدق عليها حفيدها الملك والآلهة كل هذه الخيرات، كان ينتظرها مصير سعيد بعد وفاتها. وحتى تظل على قيد الحياة كانت تمتلك مقبرة تذكارية في **أبيدوس** ومعبداً في **طيبة**. وربما كانت مقبرة **أبيدوس** التذكارية قد لحق بها بعض الدمار. وبالنظر إلى سنّ تيتي- شيرى فمن المعتقد أنه كان قد شيِّد قبل فترة طويلة. ولذلك فقد خصها **أحمس** ببعض المباني الأخرى في **طيبة**. ومن غير المستبعد أيضاً أن بعض الأملاك قد خصِّصت لها في منف[٩٨].

كانت ملكة عظيمة ووالدة ذرية مجيدة ويحتفظ لها **المتحف البريطاني** في الوقت الراهن بتمثال صغير، سوف تظلّ ملامح وجهه الشابة الرقيقة تغالب الأيام، إلى أبد الآباد.

وبوفاة تيتي- شيرى، احتلت ابنتها عح حوتپ والدة أحمس، مكان الصدارة في البلاط الملكي وكان دورها السياسي بكل تأكيد بالغ الأهمية، كما يشهد عليه نص اللوح الحجرى الكبير في **الكرنك** الذى سبق ترجمته. بل من غير المستبعد أنها قامت بدور الوصية على العرش أثناء الفترات الطويلة والمتكررة التي غاب فيها **أحمس**، وهو يحارب بعيداً فيما وراء الحدود.

إن الوثائق الخاصة بها التى وصلتنا قليلة جداً. ومع ذلك فإن لوحاً حجرياً جاء من **إدفو**، ومن مقتنيات **متحف القاهرة** في الوقت الراهن، يشهد على إقامة طقوس جنائزية في معبد المدينة من أجل عدد من الملكات، ومن بينهن **عح حوتپ**. وكان يشرف على هذه الطقوس كاهن وعب[٩٩] مرتبط بالعائلة المالكة وسوف يخلفه ابنه في هذا المنصب. وفى القسم المقوس في أعلى اللوح يؤدى الرجل الطقس الدينى أمام ملكتين:

زوجة آمون الإلهية، الزوجة الملكية العظيمة، عح حوتپ، صادقة القول. والزوجة الملكية، والأخت الملكية، سوبك إم ساف[١٠٠]، صادقة القول.

أما النص المنقوش على اللوح الحجرى فيقول:

قربان يقدمه الملك إلى حورس الإدفوى(*) وإلى أوزيريس وإيزيس ليقدموا القرابين التى تنبعث مع كل صوت[١٠١]: الخبز والجعة والثيران والطيور، وكل ما لذّ وطاب وجميل وطاهر، من أجل كا والدة الملك والزوجة الملكية العظيمة عح - حوتپ، صادقة القول، وأيضًا من أجل ابنها نب - پحتى - رع، صادق القول.

لقد قال: «قمت بترميم مقبرة الإبنة الملكية سويك - إم - ساف، بعد أن وجدتها مدمرة». كما يقول هذا الكاهن وعپ: «أنتم أيها الذين ستعبرون أمام هذا اللوح الحجرى، إنى أتحدث إليكم إنى أتصرف بحيث تدركون إلى أى مدى وصلت الحظوة التى خصّتنى بها الزوجة الملكية العظيمة عح - حوتپ. فقد عينتنى لأوفر لها القرابين وألحقتنى بخدمة تمثال جلالتها ومنحتنى جانبًا من أطعمتها: مئه رغيف خبز بيت والخبز پرسن وإبريقَىْ جعة وقطع متنوعة من لحم البقر. لقد رُقّيت إلى منصب رفيع، بعد أن كنت أشغل منصبًا أدنى. كما أغدقت علىّ بانعامات أخرى. فمنحتنى أملاك مختلفة فى إدفو حتى أتمكن فى المقابل أن أقدم القرابين لجلالتها[١٠٢].

إن «الإرتقاء الإجتماعى» الذى عرفه هذا الرجل وهو خادم الملكات الأمين، سيستمر فى حياة أحمس - نفرتارى. وجدير بالملاحظة أن هيئة كبيرة من الموظفين المرتبطين ارتباطًا خاصًا بالزوجات الملكيات قد بدأت تتشكل[١٠٣]. إنه شاهد آخر يضاف إلى غيره من الشواهد، على الأهمية الجديدة التى تمتعت بها النساء فى البلاط الملكى بمدينة طيبة.

وبوفاة عح - حوتپ ومع تبوّأ الملكة أحمس - نفرتارى - زوجة أحمس - مكانة رفيعة منحتها نفوذًا بالغ التأثير، صار هذا الواقع من البديهيات الواضحة كل الوضوح. ورزقت الملكة الجديدة من زواجها بأحمس بأربعة أبناء وابنة واحدة هى الأميرة سات - آمون (أى *ابنة - آمون*). ومن المرجح أن الابن البكر أحمس - عنخ الذى صوّر على كتلة حجرية من الكرنك[١٠٤] ولا نعرف عنه شيئا خلاف ذلك - قد توفى

(*) نسبة إلى إدفو ومعبدها. (المترجم)

وهو في ريعان الشباب. أما الابن الثاني أمنحوتپ (أي: *ليكن آمون راضيًا*) فسوف يتربع على العرش عند وفاة والده.

وتحمل أحمس - نفرتاري ألقابًا سياسية. إنها «*تلك التي تتولى أمر سائر الأرضين*» و«*تلك التي تقف على رأس مصر العليا ومصر السفلى*». ومن واقع نص لوح أبيدوس الحجري الذي سبق عرضه نلاحظ أنها كانت تشارك زوجها قراراته. وفي جزيرة صاي الواقعة في السودان فيما بين الجندل الثاني والجندل الثالث من نهر النيل، عُثر على معالم أثرية تحمل اسم أحمس - نفرتاري وهي عبارة عن كتل من الحجر الرملي وتمثال. ولكن الحذر واجب عند تناول هذا النوع من الشواهد: لأنه لا يمكن القول تأسيسًا على ذلك، أنها قامت بدور ما في بلدان الجنوب. فمن المحتمل أن تكون هذه القطع الأثرية قد نقلت إلى هذا الموقع في وقت لاحق.

كما أُنعم عليها أيضًا بلقب ديني على قدر كبير من الأهمية فكانت «*الخادمة الثانية للإله آمون*». وفي إطار التراتب الهرمي الكهنوتي كان هذا المنصب يندرج مباشرة بعد كبير الكهنة القائم على الشعائر. وفي عام ١٩٣٥، استخرج هنري شيڤرييه Henri Chevrier كتلة من الحجر الجيري من حشوة الصرح الثالث لمعبد آمون - رع[١٠٥]. وقد نقشت على هذه الكتلة صورة الملك أحمس في صحبة زوجته وابنه أحمس - عنخ، وهو يقدم للإله خبزًا أبيض. كانت تؤطِّر المشهد خمسة أعمدة من نص نُحتت على يمين الكتلة الحجرية وسطرين أفقيين في قسمها الأدنى. وإذ واصل شيڤرييه أعماله عثر فيما بعد على بلاطة أخرى من الحجر الجيري، تضم باقي هذا النص موزعًا على ثمانية عشر عمودًا رأسيًا. والمدونة وهي مهشمة للأسف، تقدم وصفًا للاحتفالات التي أقيمت عند تنصيب الملكة أحمس - نفرتاري في وظيفتها الدينية المرموقة والوهبة التي أوقفها الملك لصالحها في هذه المناسبة:

اليوم السابع، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان(*) *[من العام؟] من عهد صاحب الجلالة ملك مصر السفلى ومصر العليا: نب - پحتي - رع، ابن رع: أحمس فليحيَ للزمن اللانهائي والزمن الأبدي!*

(*) أخت بالمصرية القديمة. (المترجم)

في حضرة [قضاة] ربوع المدينة وكهنة معبد آمون يتم إنجاز ما أعلن عنه في جلالة القصر الملكي... [بإنعام] منصب الخادمة الثانية للإله آمون، على الزوجة الإلهية والزوجة الملكية [أحمس- نفرتاري]... كأملاكها، ابن عن ابن، ووريث عن وريث... قائمة بأملاكها: ذهب: ١٦٠ شنع[١٠٦] - فضة: ٢٥٠ - برونز ٦٧(؟) وكل واحد منها يعادل ٦ شنع. وأعطيتها إياها نصيب أربعة. الجملة حوالي ٢٠٠. الثياب: من ٢٠٠ إلى ٤٠٠ شنع. وأعطيتها إياها نصيب مئتين. وطُرح لتغطية الشعر: ٨٠ إلى ٢١٠ شنع. وما يعادل نصيب ١٥٠. أوعية الأدهان: ١٣ إلى ٧٨ (شنع) ما يعادل نصيب ٥٠. المجموع الكلي: حوالي ١٠١٠ شنع. كما منحتها خادمًا وخادمة و٤٠٠ مكيال قمح وخمس قطع أرض زراعية بالإضافة إلى الـ١٠١٠ شنع هذه. كل ذلك بينما كانت تحصل مقابل منصبها على ٦٠٠ شنع.

وفي ختام الوثيقة (التي تشهد على تسلمها) هذا المنصب، قالت:

«إنني راضية عما صُرف لي». وتمّ التصرف وفقًا لذلك. بحيث لا يأتي أحد ليقوم بتبديل (هذا القرار) وأقسَمَتْ أمام الرب (آمون). عندئذ توجّه إليها كبار قضاة المدينة وكهنة معبد آمون لتسجيل إسناد المنصب إلى الزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة أحمس - نفرتاري، ليتها تحيا! ثم أُلبست ثوب وظيفتها. وهو واحد من بين مئتين منحها إياها صاحب الجلالة، في حين كانت فقيرة ومعدمة. كما أمر جلالتي بأن يُشيّد لها مسكن. ولتجنب أي التماس محتمل قد تتقدم به أُلحق أخوها لخدمتها، وهكذا استبعدت أي مناقشة.

عندئذ عَبدَت الإله لصالح صاحب الجلالة، أمام كبراء البلاط الملكي قائلة: «لقد ألبسني عندما كنت معدمة وأتاح لي أن أكون ثرية بينما كنت فقيرة».

وبعد ختم حجة الملكية في حضرة الملك شخصيًا، وُضعت إلى جوار الصورة الراعية الحامية للإله آمون، يوم عيده إبان شهر كيهك في الأقصر(؟) في حضرة العاهل الملكي والزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة، ليتها تحيا!...

عندئذ تحدث جلالة هذا الإله قائلاً: «أنا حاميها وكفيلها. ولن يحدث أبدًا أن يَطعن في سلامة هذا المنصب، أي ملك من ملوك الأجيال القادمة، ولكنه سيكون حقًا

مسلمًا به للزوجة الإلهية أحمس - نفرتاري، ابن عن ابن، للزمن الأبدي وللزمن اللانهائي باعتبارها تشغل وظيفة الزوجة الإلهية. ولا يحق لأحد سوايا أن يناقش الأمر. ولا أحد غيره في مقدوره أن يجادل فيه(١٠٧).

هذا النص فريد في بابه. إنه يحدد بوضوح طبيعة مختلف الإجراءات الرسمية التي تعزز تسلم أحمس - نفرتاري منصبها الكهنوتي المرموق: الدخل الموقوف عليها وقبول الملكة الشروط المادية لتتبوأ هذا المنصب وتسجيلها بصفة رسمية من قبل كبار الشخصيات العلمانية والدينية في طيبة وشغل هذه الوظيفة التي كان ينظر إليها باعتبارها أشبه «*بطريق جديد*». فيقال علنًا أن الملكة - وإن كانت ابنة وزوجة الملك! - «*فقيرة ومعدمة*». لقد تخلت إذا صح التعبير عما كان يسترها لترتدي الثوب المقدس الذي يبدو أشبه بالوجه الخارجي لشخصية جديدة. إن آمون هو مصدر ثرائها وثروتها عن طريق الملك. لقد نذرت نفسها من الآن للإثنين، الأمر الذي يتضح أيضًا من لقبيها كزوجة.

كل ذلك يختلف كل الإختلاف مع إحتفالات تنصيب كبير كهنة آمون، على سبيل المثال(١٠٨). ويخيلّ لنا أن المقصود هو مجرد منصب شرفي يُورّث، والهدف منه إلقاء الضوء على شخص الملكة وذريتها وإثراؤهم.

وظلت في عهد ابنها أمنحوتپ الأول محتفظة بدورها البارز في البلاط الملكي. ولما كانت ملكة مرموقة، فتنتسب إلى عائلة أمراء طيبة الذين حرّروا البلاد من الوجود الأجنبي، فقد أقيمت من أجلها بعد وفاتها شعائر رسمية. والشاهد على ذلك نقوش معابد طيبة في الكرنك والشيخ عبد القرنة والرامسيوم. ولكن لابد من الإشارة على وجه التحديد إلى الورع الشعبي الذي ارتبط بشخصها، كما تشهد عليه صور لا حصر لها للملكة المؤلهة: لقد تم الكشف عن ألواح حجرية، يصل عددها في الوقت الراهن إلى أكثر من مئة، في أهم المراكز التي أقيمت فيها من أجلها الشعائر؛ ففي منطقة طيبة نذكر الكرنك والقسم الشمالي من جبانة دير المدينة بالبر الغربي فضلاً عن منطقة أبيدوس أو على مقربة من هرقليوپوليس. وتظهر صورة أحمس - نفرتاري

فى رسومات بضع وخمسين مقبره من مقابر الأشراف فى طيبة. إن مجموعة ضخمة من التماثيل والتماثيل الصغيرة تشهد على حيوية الشعائر التى أقيمت من أجلها على امتداد خمسة قرون وحتى الأسرة الحادية والعشرين. وفى معظم الأحوال نجد أن هذه التماثيل سوداء اللون ومن الخشب المطلى بالقار؛ فالأسود هو لون الكلب البرى الضخم، المسمّى خطأً ابن آوى، والذى كان يحوم فى المساء حول الجبانات وأصبح أصل ملامح شخصية أنوبيس[١٠٩]. والأسود هو مادة القار المستخدم لحماية الجسد فى ترتيبات طقس التحنيط، فكان وثيق الصلة بأفكار الموت واستعادة الحياة وتجديدها. ولا شك أن هذه المضاهاة المطلوبة مع كبرى آلهة الخلود تبرر انتشار استخدام اللون الأسود فى التماثيل الصغيرة التى تصور أحمس - نفرتارى.

إن الشعائر التى كانت تقام من أجلها قد ربطتها بكبرى آلهة مصر. كانت والدة أمنحوتپ الأول الذى أُلّه هو أيضًا، وبصفتها هذه، تعتبر مساوية *لإلهة - أم*، فكانت حامية وحارسة. وكان معبدها الجنائزى فى الشيخ عبدالقرنة المركز الرئيسى لإقامة شعائرها. وخصصت لها مجموعة من الكهنة تضم كبير كهنة و«*خدّام الإله*»(*) وكاهنًا جنائزيًا. كان موظفون علمانيون يتولون إدارة أملاك معبدها، التى تشمل الحقول والماشية والمخازن والورش وشونة حبوب. كان هؤلاء «الموظفون» يضطلعون بعملهم هذا، إلى جانب وظيفتهم فى خدمة آلهة أخرى ومنها آمون الكرنك على سبيل المثال.

وعند وفاتها، حُنّط جثمان الملك ليسجّى فى مقبرتها المحفورة فى صخر دراع أبو النجا إلى الشمال الغربى من معبد القرنة. وفى أعقاب أعمال النهب والسلب التى حدثت فى أواخر عصر الرعامسة، نقل التابوت والمتاع الجنائزى إلى المقبرة رقم٣٢٠ فى *الدير البحرى*(**) التى استخدمت كخبيئة لعدد كبير من رفات ملوك الأسرتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة لحمايتها من الاعتداء عليها. وعُثر فى هذه الخبيئة على الجسد المحنط للملكة الإلهية وعلى تابوتها وآنيتها الكانوبية[١١٠] فضلاً

(*) حم نثر فى المفرد، أى كاهن عادى. (المترجم)

(**) وهى مقبرة الأميرة إن حعبى. (المترجم)

عن تابوت «مرضعتها» رايي وجسدها، فقد أرادت ألاّ تفارقها أبداً. ويؤكد علماء الآثار «أن مومياء *الملكة بعد تخليصها من الأشرطة التي كانت تدثرها قد كشفت عن مومياء امرأة طاعنة في السن بيضاء البشرة. ولكن الجسد تحلّل عندما تعرّض للهواء. وكان طول المومياء* ١٦١سم». هكذا هلك الغلاف البدني «*للزوجة الإلهية*» التي تعتبر واحدة من أعظم ثلاث ملكات في بلاط طيبة قرب عام ١٥٨٠ق.م[١١١].

الكرنك ـ أوّل الروائع المهيبة

ما زال النطاق الشاسع الذي يشغله معبد **الكرنك** في الوقت الراهن، وهو المنطقة المقدسة الأكبر على مستوى العالم، ما زال يوحي للمترددين عليه بعظمة **طيبة** التليدة. لقد غالبت المعابد الأيام لتشهد رغم ما أصابها من دمار، على الإيمان العميق الذي كان يحفّز ملوك مصر وشعبها، فقد أصبح آمون «*الأوحد، المتفرد*»[١١٢]، ملك الآلهة الفائق القدرة.

وفي عام ٦٠ق.م وقبيل الغزو الروماني **لمصر** بفترة قصيرة استرجع **ديودورس الصقلي**[*] ما كتبه من قبله **هيكاتيوس الأبديري** الذي عاش على ضفاف نهر النيل وعرف **طيبة** وآثارها، استرجع ما قاله هذا الأخير ليكتب هذه السطور: «*لم يرد إلى أي مدينة على سطح الأرض هذا القدر من القرابين من ذهب وفضة وعاج. كانت تغصّ بعدد كبير من التماثيل العملاقة والمسلات من الحجر الأحادي الكتلة. إن المباني الأربعة التي شيدت فيها يأخذ جمالها وعظمتها بالألباب*» وعن معبد الكرنك قال: «*إن أحدها وهو الأقدم يبلغ محيطه ثلاثة عشر إستاديا*[**] stade *وارتفاعه خمساً وأربعين ذراعًا*[***]. *وسمك الأسوار أربعًا وعشرين قدمًا*[****]. *وفضلاً عن هذه الأبهة*

(*) مؤرخ يوناني، القرن الأول ق.م. كتب تاريخ العالم منذ بدء الخليقة. (المترجم)

(**) مقياس طول في بلاد اليونان القديمة يعادل ١٨٠متراً تقريباً. (المترجم)

(***) كانت الذراع تعادل نصف متر تقريباً. (المترجم)

(****) كانت القدم تعادل ٣٢سم تقريباً. (المترجم)

والفخامة نذكر وفرة القرابين النفيسة التى تكرس للإله فلا تبعث على الإعجاب بفضل روعتها فحسب، بل أيضًا بسبب إتقان صنعتها. لقد ظلت المبانى قائمة حتى الأونة الأخيرة. ولكن سُلب الذهب والفضة والعاج والأحجار الكريمة فى عهد قمبيز(*) الذى أضرم النار فى معابد مصر[113]». بل سبق أن قدم اللوح الحجرى الكبير فى الكرنك وصفًا للثروات التى وهبها أحمس[114] إلى آمون - رع من حُلىّ مقدسة ومتاع ضرورى لإقامة الشعائر التى صنعت من مواد نفيسة. هكذا بدأت كنوز معبد الكرنك تتجمع.

والبقعة التى كانت فى الماضى مجرد قرية فلاحين ومراكبية أصبحت مدينة شامخة رفيعة الشأن. فكانت مسقط رأس الأمراء الذين حرّروا أرض الكنانة مرتين من الفوضى والغزاة. ولما كانت طيبة مهد الملوك الأقوى فى التاريخ، فمن الطبيعى أن تصبح أيضًا أصل الدنيا(**): فتَصوّر كهنة آمون - رع أن هنا فى المدينة المقدسة، انبثقت ذات يوم أكمة مقدسة خارج المياه الأولية ومن حُلكة الخواء الأجدَب. عندئذ، عاشت طيبة أول أيام الكون واستطاع آمون النورانى أن يرسى دعائم العالم ويقيمه عليها. هذا هو آمون.

فأحد أشكاله فى السماء وجسده يقيم فى جبل الموتى وتمثاله فى طيبة، ولكن آمون «واحد». إنه يظل متواريًا عن الأعين، خافيًا حتى على الآلهة الأخرى ذاتها... ومع ذلك، فإنه قريب من مخلوقاته بقلبه ويمحبته ويسهر على مصيرهم. فتقول الأرامل: أنت زوجى. ويقول الأطفال: أنت أبونا وأمّنا. والغنى سعيد ببهائك والفقير يعبد وجهك[115].

وفى نظر المؤمنين به، كان آمون الإله المتعدد الأشكال القوى الرؤوف. إنه الإله الأوحد المتفرد وإن كان من الصعب إغفال الفاعلية السحرية التى تتحلى بها الآلهة الأخرى، كل فى «*حقل إختصاصه*» المحدد. اتسمت الروحانية فى العصور القديمة بطابع التسامح وربما بالتشدّد فيه. كانت مولعة على وجه الخصوص بإقامة الشعائر وترديد التعويذات بغرض الحماية والوقاية. كان البشر يسعون إلى الحصول على

(*) إبان الاحتلال الفارسى الأول (الأسرة السابعة والعشرين). (المترجم)

(**) أو أم الدنيا كما نقول فى الوقت الراهن عن مصر. (المترجم)

العون الإلهى بمختلف أشكاله. ولكن هذا المجمع الإلهى الضخم، بما يوفّره من دعم ومساندة وفاعلية، كانت تهيمن عليه جلالة آمون مدينة طيبة، إنه آمون الكرنك الذى ظل المليك الجليل، سواء اتخذ هيئة إنسان أو كبش، إنه آمون - رع الذى ما زالت صوره المنحوتة أو المرسومة تلاحق المسافرين أثناء تجوالهم فى طيبة. إن آمون، الإله الشمسى لبهاء الشرق ورونقه، كان ينتظره مصير باهر فى المنطقة الممتدة من شاطئ البحر المتوسط وحتى البلدان الواقعة فيما وراء نهر دجلة والبحر الأسود وحتى وسط إفريقيا. وما زال وجوده الإلهى قائمًا فى الكرنك.

الكرنك مدينة مقدسة شاسعة، أشبه بزخرف على هيئة مشبكات تتداخل فيها أبراج الصروح والبوابات الشامخة والمسلات المنتصبة وأبهاء الأساطين والدهاليز السرية ومقاصير قدس الأقداس المظلمة، كلها عناصر تشهد على ورع جماهير شعب، على امتداد ما يقارب الألفى سنة.

وعلى بعد ٢٠٠متر من شاطئ النهر تمتد الأملاك المقدسة بطول ١٦٠٠ متر. وفى الوسط أقيم سور - يحدد مسكن آمون - رع، يبلغ ٦٠٠متر طولاً و٥٠٠متر عرضًا. وفى الشمال يلتف سور أصغر بكثير، حول معبد مونتو. أما فى الجنوب فقد شُيِّد «قصر» الإلهة مُوت زوجة آمون و«*الأم الإلهية*» التى قد تتحول إذا لزم الأمر إلى أسدة(*) مرعبة ومحاربة. ومن هذا «*القصر*» يمتد طريق تحفه على الجانبين تماثيل أبوالهول ليصل إلى سور معبد آمون.

لم يكن المعبد فى نظر المصرى القديم مكانًا للصلاة والخشوع والخلوة مع النفس، بل مكانًا مفضلاً تغمره القوى السحرية. إنه «بيت» الإله الذى كان يقيم فيه، ولابد بالتالى من حمايته من العناصر المعمارية التى قد تنال منه حتى يمكن صون نظام الكون والحفاظ عليه، وهما المهمة التى يتكفل بها الآلهة والملوك. كما أنه مكان للرموز والتناسق والتناغم بين عالم الآلهة وعالم الأحياء. هكذا بدأ تشييد معبد كلاسيكى عند شاطئ النيل، ومرفأ القارب الإلهى. ثم بدأ طريق يمتد من الغرب فى

(*) مؤنث أسد. المعجم الوسيط. (المترجم)

اتجاه الشرق تحفه على الجانبين تماثيل أبو الهول برأس كبش: كان فى وسع الإله أن ينفذ إلى داخل البدن المنحوت فى الحجر الرملى أو الجرانيت، ليشكل على هذا النحو حرسًا أمام «بيته» حمايةً له ولفرض وجوده المقدس على المؤمنين. كان بُرجا الصرح العاليان يتخذان شكل شبه المنحرف ويكتنفان المدخل الضيق. كان شكلهما يشير إلى هيئة جَبَلَيْ الأفق، فمن وسطهما تبزغ الشمس عند الفجر. وهكذا يدخل الإله إلى معبده كما تدخل الشمس إلى أعالى السماء. يلى ذلك فناء تكتنفه الصُفّات أحيانًا وصمم لاستقبال عامة الشعب الذى كان فى وسعه أن يشاهد من هذا المكان، المواكب الإحتفالية بمناسبة الأعياد الدينية. وكان لا يسمح بعد ذلك بدخول بهو الأساطين إلاّ للكهنة فقط وبعض المحظوظين. كان هذا البهو أشبه بغابة شاسعة من الأساطين ذات التيجان المتنوعة: فكانت بردية الشكل أو لوتسية أو نخيلية، فتعكس على هذا النحو وفرة النباتات التى تكسو أرض مصر. أما السقف فكان فى أغلب الأحوال باللون الأزرق ومرصع بنجوم صفراء. لأن النحاس هو المعدن الذى صنعت منه النجوم، كما أن الذهب يشكل بدن الشمس. إنها محاكاة نضرة زاهية الألوان للمشهد الطبيعى. وبينما كان السقف يميل إلى الإنخفاض تدريجيًا، كان المرء «يصعد»(*) فيما بعد فى اتجاه قدس الأقداس الذى يضم ناووسًا من الحجر الصلد، ومن الجرانيت فى أغلب الأحوال، لتوضع فيه الصورة الإلهية. كان الناووس يرمز إلى التل الأولى المنبثق من المحيط الأزلى، فمن فوقه استهلّ الخالق عمله. فى هذا المكان كان يتم اللقاء السامى بين أمون - رع والملك الذى كان لزامًا عليه كل يوم أن يقيم الشعائر الخاصة بإيقاظ الإله ونهوضه وزينته وتناوله وجبات الطعام وبلحظة نومه مع حلول المساء[١١٦]. كان كبير كهنة الشعائر و«*الكهنة أصحاب الأيدى الطاهرة*» (وعب) يحلّون محل العاهل الملكى فى إقامة الطقوس الدينية. كانت الطهارة فريضة واجبة. فعندما يبارح آخر الكهنة المكان مع حلول المساء، يصل الأمر إلى ضرورة إزالة الآثار ذاتها التى تتركها خطواته فى الرمال أمام الناووس، حتى لا تدنس أية نجاسة صورة الإله. وإذ تم الحفاظ على الإله على هذا النحو، فإنه يضمن تماسك العالم وحماية مصر.

(*) مع انخفاض سقف المعبد، كانت أرضيته ترتفع تدريجيًا. (المترجم)

وفى نظر من شاهد الكرنك يبدو أن تتبع هذا المسار المبدئى من الأمور الصعبة. فكل ملك من ملوك مصر، على امتداد أكثر من ألف سنة، أخذ على عاتقه إضافة مبناه الخاص إلى المعبد الكبير - معبد آمون - رع - تعبيراً عن ورعه وتقواه. هكذا تعددت المبانى وأقيمت جنبا إلى جنب أو تداخلت وتشابكت. وقبل الرعامسة شيد ملوك الأسرة الثامنة عشرة معبد الكرنك. ومن خلال استعراضنا لتاريخ هذه الأسرة سوف نقدم تحليلاً لأعمالهم وثرواتهم.

وعن المبانى التى شادها أحمس الذى كان لملوك الأسرة الثامنة عشرة، مثالاً يحتذون به بصفته محارباً وبنّاءً، فإن غيضًا من فيض عناصرها، ما زال قائمًا. ومن بين ما كشف عنه موريس بييه Maurice Pillet فى أساسات الصرح الثالث، عثر على كتل من ألبستر حتنوب، كانت أصلاً جزءًا من مقصورة استراحة القارب المقدس التى شادها العاهل الملكى من أجل آمون.

وشرع أحمس يطور سلك الكهنة فى طيبة فاستحدث إذا صحَّ القول منصب كبير الكهنة وأسبغ على كل حال، على هذا الحبر العظيم منزلة رفيعة جديدة. كان المصريون يطلقون على هذا الكاهن لقب: *«الخادم الأول للإله آمون»*. وفى إطار تراتب هرمى على قدر كبير من التنظيم كان هؤلاء «الخدام» أربعة. لقد فهم الإغريق هذا المصطلح على غير معناه ولذلك فقد ترجموه بكلمة «نبّى» prophète. ولا شك أنهم فسّروا اللقب الخاص بكبير كهنة هليوپوليس وهو كبير «الرائين» تفسيراً خاطئاً. كانت كلمة «يرى» لا تخرج فى هذا السياق عن دلالتها المادية، فتعنى إطالة النظر فى النجم السماوى وتبتعد تمامًا عن القدرة على رؤية ما وراء الواقع وما هو ممكن، ورؤية المستقبل والتنبؤ به.

وقد وصلنا اسمان من هؤلاء الكهنة الكبار الذين عينهم أحمس: الأول هو چحوتى الذى كان بالإضافة إلى ذلك *«رئيس حاملى الختم الملكى»*. والآخر هو مين - موتتو الذى كان أيضًا *«الأب الإلهى لآمون»*. وهكذا ظهر هذا اللقب لأول مرة، ليصبح فيما بعد لقب غيره من *«خدّام الإله»*. فقد كان *«الآباء الإلهيون»* يشكلون ما يشبه تراتبًا هرميًا موازيًا، فكان فى وسع حامل لقب *«الأب الإلهى»* أن يصبح *الخادم*

التالى للإله بل أول هؤلاء *الخدام*. كما كان مين ـ مونتو «*حامل الختم الملكى*». فلم تعرف مصر خطًا فاصلاً واضحًا بين السلطتين الدينية والدنيوية. ولأن ماهية الملك كانت إلهية فى جوهرها، كان من السهل على الكهنة أن يجمعوا بين المناصب الكهنوتية والملكية. وسوف تصبح هذه الظاهرة، فيما بعد مصدر النفوذ الواسع الذى اكتسبه كبار الكهنة، لينتهى بهم الأمر إلى تهديد النظام الملكى.

الفصل الثالث

الفاتحون الأوائل

أو

نشأة الإمبراطورية

في أقل من خمسين سنة، سوف تعود مصر لتصبح من جديد، القوة الأولى في عالم الشرق.

ضرورة الفتوحات وأساليبها

إبان الحروب التى خاضها أحمس من أجل إعادة توحيد مصر وحمايتها، كانت الدول الجديدة التى رأت النور فى آسيا، فى أعقاب الغزوات الآرية قد أسست أنظمة ملكية قوية، ترتب على وجودها تحول عميق الأثر على التوازن الدولى الذى ظل سائداً حتى الآن.

وفى مطلع الأسرة الثامنة عشرة، كانت دولة الميتانى فى وديان أعالى نهرى دجلة والفرات هى الأقوى بين سائر الدول. وإنطلاقًا من عاصمتهم واش شوجانى استطاع ملوك الميتانى أن يبسطوا سلطانهم شرقًا على بلاد آشور المستقلة والمناطق الواقعة شرق نهر دجلة وفى الشمال على المنطقة التى ستعرف فى وقت لاحق تحت اسم أرمينيا وإلى الغرب على أعالى سوريا. أما فى آسيا الصغرى فقد ظل النظام الملكى الحيثىّ لا يقوم سوى بدور ثانوى. وسوف يصل إلى أوج سلطته فى زمن الأسرة التاسعة عشرة المصرية والملوك الرعامسة. أما بابل التى كانت تعيش فى ظل الملوك الكاسيين، فقد استعادت دورها كعاصمة إقتصادية كبرى وتبنت آنذاك سياسية تهدئة سلمية مركزةً جل اهتمامها على ما يبدو، على تأمين طرقها التجارية.

ولكن فى هذا العالم الجديد الذى أخذ يتشكل شيئًا فشيئًا، سوف تقوم دول صغيرة أيضًا بدور له شأنه بفضل موقعها ذاته. وبالفعل فإن فينقيا التى ظلت مصر تفرض هيمنتها عليها، منذ أكثر من ألف سنة، أصبحت الآن النافذة الحيوية المطلّة على البحر المتوسط لكل من الميتانى إلى الشرق منها والخاتى إلى الشمال. وبالمثل

فإن أرزاوا – وربما يقابلها حالياً موقع قيليقية(*)– وكيزوواتنا الواقعة إلى الشرق قليلاً في اتجاه جوف جبال طوروس واللتين تفصلان خاتي عن البحر، سوف تمزقهما دسائس لا حصر لها. إن نفوذ الخاتي ومصر في الدول الثانوية بل وهيمنتها عليها، كان محل صراع بين الدولتين الكبيرتين، فتسعى الأولى بطبيعة الحال إلى التحالف معها في حين كان من مصلحة مصر الحيلولة دون تحقيق هذا التقارب. كما حيكت مثل هذه الدسائس حول نهارينا[1]، إلى الغرب من نهر الفرات وحول نوحاسا إلى الجنوب قليلاً واللذين كانا يقفان حائلاً أمام المنافذ البحرية المباشرة للميتاني. وأخيرا فإن الأمورو وهي مملكة الأموريين التي تأسست إلى الغرب من حلب، كان مقدر لها أن تلعب في المستقبل دوراً إستراتيجياً هاماً، أشبه بالدولة الحاجزة لصدّ الطموحات المتنافسة.

إن النزاعات والدسائس والصراعات حول مناطق النفوذ، أصبحت لأول مرة من سمات السياسة الدولية الجديدة وعملت على تغيير موقف مصر التقليدي المسالم، لتركز جل اهتمامها على أمنها وأمن منافذها التجارية. ومحل الإمارات التي سادت في الماضي وظلت متفرقة حتى الآن، ظهرت إلى الوجود ممالك قوية لتدحض فكرة أن الهيمنة التقليدية التي تمتعت بها مصر على الشرق الأدنى قضية مسلّمة. وقاد هذا الواقع الجديد مصر إلى سياسة الفتوحات، سواء كانت وقائية أو دفاعية، لتنتهي إلى تأسيس إمبراطورية شاسعة.

كان لابدّ من الآن، أن تمتلك مصر أداة قوة لا غنىً عنها: بمعنى جيش شاكي السلاح ومنظم تنظيمًا جيداً يضم قوات برية وبحرية. كان ثمرة الصراع ضد الهكسوس، درسًا فعّالاً، ترتب عليه إدخال تغييرات خطيرة لا سيما على صعيد التسليح وفنون الحرب.

كان لابد أن يتحول الجيش، أكثر من أي وقت مضى، إلى عنصر له صفة الثبات والدوام ليصبح قوة رئيسية وإضافية تعزز السلطة الفرعونية. لقد عرفت مصر عسكريين محترفين جعلوا من الجندية مهنتهم وهو ما لاحظناه عند قراءة سيرة حياة

(*) **قيليقية**: جنوب شرق الأناضول. (المترجم)

أحمس بن أبانا. كان الملك يمنحهم الأراضي والمكافآت السخية والخدم، لا سيما من بين الذين وقعوا في الأسر في أرض المعركة. كانت *ترقيات* هؤلاء الجُند تتوقف على شجاعتهم في ساحة الوغى وإقرار الملك بتميّزهم وتفوقهم، وكان يكافئ ضباطه المخلصين على ما قدّموه من خدمات نزيهة لسنوات طويلة، فيمكن أن يقدم لهم معاشًا مناسبًا. كان العسكريون المحترفون يشكلون في زمن السلم حاميات الحصون والقلاع ويسهرون على حراسة الحدود ومصَبات نهر النيل، بل ويذهبون إلى حد صيانة الأمن في المناطق النوبية والسودانية. كان هذا الجيش من المحترفين تعززه قوات المجندين الجدد. وفيما مضى، كان ملوك الأسرة الثانية عشرة «يجندون» الجند فيختارون فرداً من بين كل مئة تقريبًا. وفي زمن الأسرة الثامنة عشرة، تم تعميم التجنيد بالقرعة. ويبدو أن الخدمة العسكرية الإجبارية بالقرعة كانت تنطبق على مجمل أفراد العائلة وليس على كل فرد على حدة. وقد أنيط بالسلطة المركزية تحديد عدد المجندين الذين تقدّمهم كل عائلة. فقد يتغير هذا العدد وفقًا لأهمية الحملة العسكرية، ويبدو أن بعض الإعفاءات كانت تمنح على أساس معايير لا نعرفها على وجه التحديد وربما كانت تحابي العائلات الكثيرة للأفراد(*). وبالإضافة إلى الجيش الدائم والمجندين بالقرعة كانت قوات المرتزقة تتكون في الغالب من «*أفضل عناصر الأسرى الذين أسرهم صاحب الجلالة في أرض المعركة*». ومن بين هذه الفرق الأجنبية كان أهمها وأكثرها مهارة وخبرة رماة السهام النوبيين الذين كانوا مرهوبي الجانب. واعتبارًا من أمنحوتپ الثالث ظهر الشرادنه - وموطنهم الأصلي ساردس في آسيا الصغرى - ليشكلوا نخبة المرتزقة في الجيش المصري.

بل إن تشكيل الجيش ذاته بدأ يتطور ويتنوع. وظلّ سلاح المشاة الوحدة التكتيكية الرئيسية. وكانت كل سريّة تتكون من مئتي فرد يقودها حامل الراية. ولكن ظهر سلاح جديد: ألا وهو سلاح المركبات. كانت المركبة تتكون من صندوق خفيف من

(*) لاحتياج مصر إلى زيادة عدد سكانها. ألا يمكننا في العصر الحديث أن نطبق عكس هذا المبدأ للحد من زيادة السكان فيتم إعفاء أبناء العائلات قليلة الأولاد، (٢ أو ٣)، وإن كان جميعهم من الذكور. (المترجم)

الخشب مغطى أحيانًا بالجلد أو المعدن ويجرها جوادان وتحمل على متنها رجلين هما قائد المركبة والمحارب. والملك فقط هو الذى كان يقف بمفرده على متن المركبة. وبفضل تحريك خصره الذى التف من حوله عِنان الفرس، حركات بارعة كان يقود المركبة، بينما انشغلت يداه فى التعامل مع القوس، فيمطر الأعداء بوابل من سهامه. كان الفرس صغيراً ومرهفًا ودقيق البدن. ومن الراجح أن جبال وسط آسيا إلى الشرق من بحر قزوين كانت موطنه الأصلى. لم تعرف مصر أبدًا سلاح الفرسان. إذ كان الأمر يتطلب تنظيم عملية تربية الخيول وترويضها على نطاق واسع وهما من الصعوبة بمكان، ويتجاوزان قدرة البلاد على توفيرهما. كانت الإسطبلات الملكية مليئة بالجياد التى تم أسرها فى ساحات القتال أو التى كانت فى عداد الجزية الواردة إلى البلاد أو «*المستوردة*» من بلاد نهر العاصى أساسًا. وكان سلاح المركبات من أفضل ما يضمه الجيش المصرى وعلى رأس قواته المسلحة. وكان ضباطه يتلقون ذات التعليم الموسوعى الذى يحصل عليه الكتبة.

مع ظهور سلاح المركبات تعدّلت الخطط العسكرية. وفى أرض المعركة، ومع بدء الهجوم كانت المركبات المصطفة فى انتظام تنقض على العدو. وفى أعقابها وللحفاظ على ما أحرزته من تقدم يزحف المشاة لتعزيز هذه المكاسب، أما فى حالة فشل هذه الهجمة الأولى، تصبح مهمة المشاة محاولة صدّ تقدم العدو. عندئذ تستعد المركبات للقيام بانقضاض ثانٍ. وأخيراً وبعد إحراز النصر يقع على عاتق المركبات أيضًا مطاردة العدو لتحويل هزيمته إلى انكسار شوكته واندحار قواته. وتصوّر النقوش والرسومات الجدارية الفرسين اللذين يجران مركبة فرعون وقد رفعا قوائمهما الأمامية عاليًا لتشكل خطًا مائلاً وسط اللوحة، يُبرز عظمة تكوين الإنتصار وشموخه. وأسفل بطن الدابتين حُشر الأعداء المهزومين حشراً وهم يهرولون وكأنهم وحوش أثناء رحلات الصيد فى الصحراء. كان الملك الواقف على متن المركبة المشدود القوس صورةً مهيبة للنصر المظفّر.

كما تطور التسليح. فبعد أن كان رماة السهام يستخدمون قوسًا طويلاً ثم مركبًا بعد عصر الهكسوس، أصبحوا يستخدمون سهامًا بسن معدنى. والسيوف

بمقبضها الطويل والمزدانة أحيانًا بنقوش ذهبية أصبح نصلها مصقولاً على الجانبين، كما كان طرفها مستديراً. وهكذا فعند استخدامها بيد واحدة أو بكلتا اليدين كان الهدف منها دائما تجريح الجسد أكثر من النفاذ إلى أعماقه. وعرف المصريون سلاحًا آخر أشبه بسيف نصله منحنى، أطلقوا عليه اسم خپش، كما استخدموا أحيانًا بلطة كانت رأسها من النحاس فى بداية الأمر ثم أصبحت من البرونز[٢] وبمقبض من الخشب. كما كانت الحراب الطويلة المدببة والخناجر القصيرة الحادة والمقامع الكمثرية الرأس، فى عداد قائمة الأسلحة الدفاعية.

أما الترس المصنوع من الخشب المكسو بالجلد فكان يحمي جسد الجنود. وفى كثير من الأحوال كان قائد المركبة الحربية يتحكم فى العنان بإحدى يديه، فى حين يمسك بيده الأخرى ترسًا خفيفًا لحماية المحارب. أما الدروع المصنوعة من البرونز فكانت لا تزال بالغة الندرة. كما كان استخدام الخوذات محدوداً ما عدا بالنسبة للمرتزقة الشراادنة، إذ لم يكن التسليح واحداً بالنسبة لكل من الجيش المصرى وفرقه الأجنبية. فقد سمح لهم الفراعنة أن يحتفظوا بتجهيزاتهم الحربية الأصلية. فوسائل الإجهاز على العدو كانت متنوعة إذن، الأمر الذى كان يشكل له على الدوام عنصر مفاجئة.

ومن الآن فصاعداً سوف تقوم القوات البحرية بدور عظيم الأهمية ولا سيما فى عملية نقل الفرق العسكرية. فسوف تدور رحى كبرى المعارك البحرية فى وقت لاحق فى عصر الرعامسة. كما جرى تجنيد أفراد القوات البحرية عن طريق القرعة ويبدو أنهم كانوا يُختارون أساسًا من بين سكّان الدلتا. وعلى متن كبرى السفن الملكية الشراعية كان المجدِّفون البواسل يقودون الجيش المظفر وفى أعقابها يأتى سلاح الإمداد والتموين على متن سفن اصطبلات. ومن سوريا إلى السودان سوف تبحر سفن الشحن لنقل أموال الإمبراطورية. إنها سفن ضخمة تبلغ ستين متراً طويلاً. وقد صُنعت من خشب البلاد أو من خشب الصنوبريات الوارد من لبنان. كانت القاعدة البحرية الرئيسية موجودة آنذاك فى منف التى كان يطلق على مينائها اسم پرو نفر أى «*الخروج السعيد*» أو «*رحلة سعيدة!*». فحتى الآن لم يكن فى مصر موانئ تطلّ

على البحر. كان تحوتمس الثالث أول من أدرك أهمية جزيرة فاروس(*) إلى الغرب من مدينة الإسكندرية الحالية وشرع يشيد ميناءً كبيراً سوف يتولى الرعامسة تطويره فيما بعد.

كان الملك هو القائد الأعلى للقوات المسلحة. ففي ميادين القتال كان التحامسة لا يكتفون فقط بوضع الخطط الحربية في صحبة ضباط أركان حربهم بل كانوا أيضاً على رأس جنودهم عند الهجوم على العدو. فكانوا «المسئولين» العظام أصحاب الإنتصارات المجيدة.

كانت الإدارة العسكرية تشكل دائرة خاصة من دوائر السلطة، تحت إمرة الوزير، فكان دوره مماثلاً لوزير الحربية في العصر الحديث، ويجتمع بصفة منتظمة بقواد الجيش الذين يعرضون عليه التقارير الخاصة بأحوال الفرق العسكرية والحصون ونقاط الحدود وينقل إليهم الأوامر التي يتعين عليهم تنفيذها. ولكنه يحيط الملك علماً بكل ذلك، بصفته القائد الأعلى.

١- مع الجيش من السودان إلى الفرات

أمنحوتپ الأول: هل كان عامل استقرار أم فاتحًا؟

تولّى أمنحوتپ الأول وهو ابن أحمس والملكة أحمس- نفرتاري زمام الحكم حول عام ١٥٥٧ق.م. وفي وسعنا أن نحدد تاريخ تربعه على عرش البلاد بشيء من الدقة. وبالفعل واستناداً إلى نص مدون على ظهر بردية إيبرز Ebers نعرف أن العام التاسع من عهده شهد شروقًا إحتراقيًا للنجم سوتيس[٢]. وتحدث هذه الظاهرة بعد أن يظل النجم سوتيس (الشعرة اليمانية) غير مرئي لمدة سبعين يومًا وهي فترة

(*) قبل الإسكندر الأكبر. (المترجم)

إقـتـرانه بالشـمس لتـصـبح رؤيتـه ممكنة بـعد ذلك، قـبـيل شـروق الشـمس. وبفـضل الحسابات الفلكية أمكن تحديد تاريخ هذه الظاهرة.

امتدَّ حكم أمنحوتپ الأول ليصل إلى إحدى وعشرين سنة على أقل تقدير. وفى مقبرة ضابط من أبناء طيبة يدعى آمن إم حات يعلن أنه ظل فى خدمة العاهل الملكى طوال هذه الفترة. ومن جهة أخرى صُوِّر العاهل الملكى على أحد أبواب الكرنك «*وهو يحتفل بأول أعياده اليوبيلية*[٤]». وتظهر صورة مماثلة على باب من أبواب معبد الملك الجنائزى فى القرنة. ولما كان الإحتفال بأول يوبيل يقام من حيث المبدأ فى العام الثلاثين من عهد الملك[٥]، وإن لم يوجد ما يجبر الملك أن يتقيّد بهذه المدة، فمن المعتقد أن مدة حكم أمنحوتپ للبلاد تتراوح بين إحدى وعشرين وثلاثين سنة. وحدّد مانتون عشرين سنة فقط. ومجموعة ألقاب الملك الرسمية على النحو الآتى:

حورس : الثور الذى يربط الأراضى،

السيدتان: عظيم هو الرعب الذى يثيره (الملك)،

حورس الذهبى: هذا الذى تدوم سنواته،

ملك مصر العليا ومصر السفلى: چسر كا رع (أى: «مقدس هو كا (الإله) رع»).

ابن رع : أمنحوتپ، (أى: «ليكن آمون راضياً»).

كان لابد من الحفاظ على فتوحات أحمس المجيدة وتعزيزها. وفى أعقاب والده، واصل أمنحوتپ الأول الحروب فى أراضى الجنوب.

ويتحدث الموظف الأمين أحمس بن أبانا قائلاً:

قمت بقيادة سفينة چسر كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى، بينما كان يصعد النهر متجهاً إلى بلاد كوش لتوسيع حدود مصر. وضرب صاحب الجلالة هذا النوبى(؟) الخسيس وسط جيشه ذاته واقتيد مكبلاً بالأصفاد. (ومن الجيش) لم يتبق شيئًا والذين ولّوا الأدبار حُصدوا حصداً وطرحوا على جانبهم وكأنهم لم يوجدوا قطّ... ثم ذهبنا لإحضار الشعب وقطعان العدوّ المهزوم. وجئت بأسير وأهديته إلى

صاحب الجلالة. وبعد ذلك، وفى خلال يومين اصطحبت الملك من البئر العليا (الجندل الثانى) *إلى مصر. وكوفئت بالذهب وأحضرت خادمتين غنيمةً، فضلاً عما قدمته إلى صاحب الجلالة. ومُنحت لقب «محارب الأمير»*[٥].

أن يكون أمنحوتپ الأول قد وصل إلى جنوب الجندل الثانى فى السودان، يؤكّده النص المحفور فى مقبرة أحد النبلاء ويدعى أحمس- پن نخبت وهو ضابط آخر من أبناء مدينة الكاب:

لقد اصطحبت چسر كا رع ملك مصر العليا ومصر السفلى. ومن أجله ألقيت القبض فى بلاد كوش على أسير حىّ. ومن جديد حاربت من أجل چسر كا رع ملك مصر العليا ومصر السفلى ومن أجله استوليت إلى الشمال من إيماو- كِحك[٦]، *على ثلاث أيادٍ*[٧].

ربما كانت كاروى، إلى الشمال من الجندل الثالث، هى أبعد نقطة وصل إليها الزحف المصرى. واستناداً إلى معلم أثرى يعود إلى پن- تا- ورت الملقب «*الكاهن وعب الذى يدخل إلى جوار آمون*»، فإن «*چسر كا رع رب الأرضين أمنحوتپ* (قد وصل) *إلى كاروى*[٨]».

لم نعثر حتى الآن على إفادة واضحة عن قيام أمنحوتپ الأول بحملة عسكرية إلى آسيا. ولكن فى مدونة تعود إلى العام الثانى من عهد خليفته تحوتمس الأول يعلن هذا الأخير أن إمبراطوريته تمتد من طُمبُس فى السودان، إلى الشمال قليلاً من الجندل الثالث، وحتى نهر الفرات. وربما كان من الصعب تحديد تاريخ هذا التقدم الكبير للمصريين فى آسيا بالسنة الأولى من عهد تحوتمس الأول، لاسيما إذا أخذنا بعين الإعتبار عدم وجود وثيقة واحدة تشير إلى قيام هذا الملك بحملة عسكرية آسيوية. والأقرب إلى الصواب أن نذهب إلى القول بأن أمنحوتپ الأول نظراً لطول عهده قد واصل فى اتجاه الشمال التقدم الذى بدأه والده.

وأيًا كان الأمر، فإن نشاطه فى سيناء جدير بالذكر، على كل حال. وتشهد على ذلك المدونات المنحوتة فى معبد حتحور بسرابيط الخادم وبعض مخازن القرابين التى تحمل اسمه[٩].

ولا ندرى شيئا عن ظروف وفاته، إن إنيني من أشراف طيبة وأحد خلصائه والذى ظل فى خدمة التحامسة الثلاثة الأوائل، أمر بأن ينقش فى مقبرته فى الشيخ عبد القرنة(*) النص الآتى:

قضى صاحب الجلالة زمن حياته فى سعادة السنين والرضا. ثم بعد أن ارتفع إلى السماء، اتحد مع قرص الشمس وامتزج بمن كان قد انبثق منه(١٠).

وبالنسبة لعاهل ملكى، يا له من إختلاط تقليدى بالشمس(**) وصولاً إلى ذروة التبجيل والتأليه.

تحوتمس الأول المحارب المنتصر

عند وفاة أمنحوتپ الأول حول عام ١٥٢٠ق.م ثارت مشكلة الخلافة. فمن إقتران الملك بأخته عح حوتپ الثانية، أنجب أبناءً ماتوا وهم فى مقتبل العمر، كما رزق بابنة واحدة على الأقل هى الأميرة أحمس. ويبدو أن الملك قد رزق من سن سفب إحدى محظياته، بابن يدعى تحوتمس الذى كان لا يزال على قيد الحياة عند وفاة والده الذى ربما اختاره ليخلفه، بل من المحتمل أنه شارك أباه الحكم. تستند هذه الفرضية فى الوقت الراهن إلى وجود نقش يصور أمنحوتپ الأول وتحوتمس الأول معًا جنبًا إلى جنب، وقد جادت به مقصورة الألبستر التى شادها الملك فى الكرنك(١١). ولإضفاء الشرعية على تربعه على عرش البلاد، ربما تزوج الأميرة أحمس التى كانت تنتمى إلى سلالة الأسرة المالكة الحاكمة، لأنها ابنة الزوجة الملكية العظيمة. وتذهب فرضية أخرى، إلى أن هذه الأميرة أحمس التى أصبحت ملكة، ربما كانت الأخت الصغرى للملك أمنحوتپ الأول، ومن ثم فقد كانت ابنة الملك أحمس وأحمس نفرتارى(١٢). ولكن تفتقر هذه الفرضية إلى وثائق مقنعة. إن الفرضية الأولى حول تتابع خلافة العرش هى

(*) وهى المقبرة رقم٨١ من مقابر أشراف طيبة. (المترجم)

(**) نعيد إلى الأذهان أن كلمة شمس من النوع المذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

التى تلقى فى المعتاد القبول على أوسع نطاق. وهو ما يؤكده على ما يبدو، نص لوح حجرى نقش عليه المرسوم الملكى الذى وجهه الملك الجديد إلى **تورا** نائب الملك فى **النوبة**. هذه الوثيقة التى تم الكشف عنها فى **وادى حلفا** هى من مقتنيات **متحف القاهرة**، فى الوقت الراهن. كما ورد هذا النص نفسه مع إختلافات بسيطة فى الصياغة، على الجزء المتبقى من لوح حجرى آخر عثر عليه فى **كوبان** فى **الصحراء الشرقية** فى **النوبة**، على مقربة من مناجم الذهب فى وادى **العلاقى**، ومن مقتنيات **متحف برلين** حالياً.

*مرسوم من الملك إلى **تورا** الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب. انظر، لقد سلّم إليك هذا المرسوم الملكى، لابلاغك بأن جلالتى قد ظهر ظهوراً مجيداً بصفته ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى** على عرش **حورس** الأحياء، ولن يوجد أبداً مثله. وهكذا تحددت قائمة ألقابى:*

الحورس: الثور القوى، المحبوب من الحق والعدالة.

السيدتان: هذا الذى يشع مثل شعلة الصلّ، الفائق القوة.

حورس الذهبى: صاحب السنوات السعيدة، الذى يعيد الحياة إلى القلوب.

*ملك مصر العليا ومصر السفلى: **عاخبركا رع**، (أى: «عظيمة هى صيرورة كارع»)*

*ابن رع: **تحوتمس**، ليته يحيا للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى!.*

*افعل بحيث تقدم القرابين لآلهة الجنوب و**الفنتين** وتقام التسبيحات الشعائرية من أجل حياة وازدهار وصحة **عاخبر كا رع**، ملك **مصر العليا** و**مصر السفلى**.*

*كما أطلب منك أن تتصرف بحيث يؤدى القَسَم باسم جلالتى، أنا الذى ولَدَتْه **سن سنب**، والدة الملك[١٣]، لتكن فى صحة طيبة!*

كما أن الهدف من هذه الرسالة إحاطتك علمًا بأن القصر الملكى سالمًا ومزدهراً.

اليوم الحادى والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الأول، يوم حفل التتويج[١٤].

وفى القسم المقوس من أعلى اللوح الحجرى، صوّر **تحوتمس الأول** وهو يؤدى الشعائر الدينية إلى كيانين إلهيين، فى صحبة ملكتين: وهما زوجته **أحمس ونفرتارى** – ولا شك أنها **أحمس نفرتارى** حماته المحتملة التى كانت على ما يظن لا تزال على قيد الحياة. فكان وجودها مؤشراً وضماناً على استمرارية الأسرة المالكة الحاكمة. إنها السند الذى يعوّل عليه لدرْء الصعوبات التى ربما كانت تشوب سلاسة وراثة العرش.

ومن أجل **مصر** شرع **تحوتمس الأول** يغزو إمبراطورية مترامية الأطراف سوف تضمن لها الازدهار والثروات الطائلة. كما ستحميها من ناحية أخرى من كل هجوم مباشر تشنه عليها قوى أجنبية.

وفى العام الثانى من عهده أمر بنقش نشيد النصر على صخور **طُمبس** فى **السودان**، كله تفاخر واعتزاز. ويعد قائمة الألقاب الملكية التى تؤكد على سلطانه وسيادته يقول نص المدونة:

*إنه يظهر ظهوراً مجيداً بصفته كبير القطرين ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس، إذ كانت **مصر العليا** و**مصر السفلى**، نصيبىّ الربّين حورس و ست. والآن لقد اتحدت الأرضين. إنه يجلس على عرش جب[١٥] ويضع على رأسه **البشنت** المتألق. وهكذا تسلم صاحب الجلالة ميراثه. واستراح **حورس** على عرشه ليوسّع حدود **طيبة** وممتلكات «**هذه - التى - أمام سيدها**» (**طيبة**) حتى يعمل من أجلها **الحاونبوت** والبدو (حرفياً: «المقيمون على الرمال»)، وهم سكان الصحارى، الملعونون من الله. ورجال الجنوب يهبطون سائرين مع تيار النهر ورجال الشمال يصعدونه، وقد اجتمعت البلدان الأجنبية قاطبة، وجاءت حاملة الجزية من أجل **عاخپركا رع** الإله الكامل، (إله) المرة الأولى، ليحىّ إلى أبد الآباد!*

*قوىّ هو **حورس**، رب القطرين. البدو يقدّمون له الشكر والحمد، فى حين تسجد قبائلهم أمامه. وأبناء البلد يرقصون من أجل صاحب الجلالة وينحنون أمام صلّه.*

لقد أجهز على زعيم النوبيين. والزنجي الذى أخذه بقبضة يده، خائر القوى، لا يبدى أية مقاومة. لقد وحّد (عند حدوده) حدود جيرانه. لم يبق شخص واحد على قيد الحياة من بين الرجال - من- أصحاب- الشعر- المجعّد الذين تمردوا على حمايته، لم يبق منهم كائن من كان. لقد طُرح النوبيون أرضًا بعد أن أجهز عليهم وألقى بهم على جنبهم، مبعثرين على أراضيهم. وتفوح في وديانهم الرائحة الكريهة للجثث. إن طلاء فمهم أشبه بتدفق وابل من المطر[١٦]. والطيور الجارحة فوقهم بأعداد كبيرة بسبب ضعفهم. إنها تحمل (إلى أوكارها) ما أخذته بمخالبها، بينما يندفع التمساح نحو من يحاول الفرار. ويتوارى من الحورس صاحب الساعد القوى، كل من رزح تحت وطئة مآثره، هو الأوحد المتفرد، ابن آمون الذى أنجبه الإله الخفى الاسم، سليل ثور التاسوع، والصورة المجيدة للجسد الإلهى الذى يُتمم تسابيح باو(*) هليوبوليس الشعائرية[١٧].

وشيّد سادة القصر قلعة حصينة من أجل جيشه. لا يوجد قط رجل واحد من بين الأقواس التسعة مجتمعة، يتجاسر على الزحف نحوه لأنه أشبه بفهد شرس يهيم حول قطعان في مراعيها، ومجد صاحب الجلالة يصيبهم بالعمى.

لقد وصل إلى حدود الأرض كلها، وعبر أطرافها بفضل ساعده القوى الساعى إلى المعركة. ومن الآن لن يجد من يتجاسر على منازلته. لقد اجتاز وديانًا كانت مجهولة من أسلافه، فلم يراها أبدًا من كانوا يرتدون (التاج) پشنت. وتمتد حدوده الجنوبية إلى جنوب هذه البلاد وحدوده الشمالية حتى هذه المياه الشهيرة الشاردة التى يهبط تيار مجراها ناحية الجنوب[١٨]. لم يحدث أبدًا من قبل شىء مماثل، لغيره من الملوك.

أما الآن فقد انضمّ اسمه إلى مدار السماء ولامس أطراف الأرض. ويُقْسِم الجميع باسمه فى كل بلد من البلدان، بسبب عظمة مجد صاحب الجلالة. ولم نلتقِ بشىء مماثل فى محفوظات أسلافه منذ (زمن) خُدّام حورس[١٩]. إنه يعطى النسمة لمن يتبعه وقرابينه تُقدم لمن يسير على سراطه. أجل، إن صاحب الجلالة هو حورس

(*) الواو علامة الجمع. (المترجم)

الذى استأثر بمُلك (بضمّ الميم) ملايين السنين. إن جزر الدائرة الكبرى فى خدمته والأرض قاطبة تحت نعليه.

إنه ابن رع المنتمى إلى جسده، إنه محبوبه تحوتمس، فليحيَ للزمن اللانهائى والزمن الأبدى. إنه محبوب أمون - رع، ملك الآلهة والده البهىّ الذى خلق الكمال، إنه محبوب تاسوع الكرنك الإلهى، فله الحياة والثبات والإزدهار، إنه السعيد على عرش حورس، بينما يقود الأحياء أجمعين، مثل رع، إلى أبد الآباد[٢٠].

يتلوّن هذا النص «*الإمبراطورى*»» الأول بالصور الزاهية والحماسة المتقدة والصيغ المفخّمة والواقعية المفرطة أحياناً. ومن الآن، فإن الإمبراطورية سواء فى قسمها الأسيوى أو الإفريقى، باتت تغطى مناطق شاسعة، وكانت مدينة طيبة الساهرة، عاصمة الشرق الجديدة وقلبها النابض. كان أمون - رع أبا الملك الذى وُلد من صلبه، يرشد العاهل الملكى ويحمى فتوحاته.

ويعززها تحوتمس الأول بإقامة لوح حدودى حجرى عند شاطئ نهر الفرات، كان لا يزال قائمًا فى مكانه فى عهد تحوتمس الثالث الذى شاهده، بعد مرور زهاء خمسين سنة.

ولا نعرف سوى معلومات غير دقيقة عن تفاصيل العمليات العسكرية الطائلة التى كانت ضرورية.

وبادئ ذى بدء اضطر تحوتمس الأول أن يصعد نهر النيل ومعه جيشه.

ويحدثنا أحمس- پن- نخبت عن مآثره قائلاً:

وتبعت عا خپر كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ومن أجله قبضت على أسيرين فى بلاد كوش، عدا الذين جئت بهم أيضًا من كوش ولم أحسب حسابًا لهم[٢١].

ويأتى أحمس بن أبانا على ذكر تمردين محتملين متتاليين فى الجنوب القصىّ:

كنت اصطحب عا خيو كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى على متن سفينته، بينما كان يصعد النهر فى اتجاه خنت - إن - نفر لقمع تمرد (حدث) فى البلدان الأجنبية ودحر إغارة قادمة من جهة الصحراء[٢٢]*. وأقدمت فى حضرته على عمل بطولىّ وسط مياه وعرة كانت تُحدق بالسفينة فى ممر من الجندل بالغ الخطورة* (الفقرة مهمشة. ومن المرجح أن الملك قد أحيط علمًا بوقوع تمرد جديد لايبعد كثيراً عن موقعه). *عندئذ خرج صاحب الجلالة عن طوره وكأنه فهد. وسدّد سهمه الأول ليظل مستقراً فى صدر هذا العدوّ الخسيس.* [وهرب المتمردون] *وقد خارت قواهم بسبب لهب صلّه. وفى لحظة، وقعت هناك مذبحة رهيبة واقتيد جميع السكان أسرى. عندئذ هبط صاحب الجلالة فى اتجاه الشمال، بعد أن أصبحت كل البلدان الأجنبية فى قبضته، بينما كان نوبى خسيس يتدلى عند قيدام السفينة الملكية ورأسه إلى أسفل. ونزلنا إلى الشاطئ عند الكرنك*[٢٣]*، لتكريس العدو للإله آمون - رع وتقديم القرابين لإله النصر.*

بعد انقضاء ثمانية أشهر على هذه الحملة، اضطر **تحوتمس الأول** فى العام الثالث من عهده أن يعود إلى خوض المعارك ضد **كوش**. وتشهد على ذلك المدونات الصخرية الثلاث التى أمر نائب الملك **تورا** بحفرها فى جزيرة **سِهيل** وفى **أسوان**. ويعود تاريخ الثلاث إلى «*اليوم الثانى والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام الثالث، من عهد الملك*»– أى عند بداية شهر **إبريل**.

- **فى جزيرة سِهيل:**

أمر صاحب الجلالة بإزالة العوائق من هذه القناة (التى كان **سنوسرت الثالث** قد شقها عبر صخور الجندل الأول[٢٤]) *بعد أن وجد أن الأحجار قد تراكمت فيها، بحيث استحال على أية سفينة أن تعبرها. ثم هبط فى مجرى النهر سعيد القلب بعد أن أجهز على أعدائه. إنه الابن الملكى تورا*[٢٥].

- **فى أسوان:**

عاد صاحب الجلالة من بلاد كوش بعد أن قضى على أعدائه[٢٦].

واضطر تحوتمس الأول أن يتوغل في أعماق أفريقيا. وبالفعل فإن مدونة للعاهل الملكي سيتولي حفيده تحوتمس الثالث تجديدها، قد حفرت على الصخرة المعروفة إصطلاحاً بحجر المروة، قبالة بلدتي الكنيسة وكرقس، فيما بين الجندل الرابع والجندل الخامس. تعتبر هذه المدونة الأثر الأبعد، جهة الجنوب، الذي تم تسجيله على أرض الواقع. إن الشذرات المتبقية من النص تذكرنا بنص ألواح الحدود الحجرية من عصر سنوسرت الثالث[٢٧].

أما معلوماتنا عن انتصارات الملك في آسيا فهي شحيحة. فمن خلال سيرة حياة كل من أحمس بن أبانا وأحمس - بن - نخبت وهما من خلصاء الملك، نعرف أنهما شاركا أيضاً في الحملات العظيمة التي قادت إلى هذه الفتوحات ونعرف احتدام المعارك التي دارت في بلاد نهارينا الملاصقة للشاطئ الأيمن من نهر الفرات.

● أحمس بن أبانا:

وبعد ذلك (حملات السودان)، رحلنا إلى الريتنو للترويح عن النفس[٢٨] عبر البلدان الأجنبية. ووصل صاحب الجلال إلى نهارينا، وما إن التقى بهذا العدو الخسيس(؟)، حتى دارت رحى المعركة، فوقعت مذبحة كبرى، وكان من الصعوبة بمكان إحصاء عدد الأسرى الذين أتى بهم من انتصاراته. ومع ذلك، كنت على رأس الجيش، واستطاع صاحب الجلالة ملاحظة مدى بسالتي. وأسرت مركبة حربية وجيادها وعُدت بها وقدمتها إلى الملك. ومن جديد كوفئت بالذهب[٢٩].

● أحمس - بن - نخبت:

ومن جديد حاربت من أجل الملك عا خپر كارع. وفي بلاد نهارينا أسرت أيضاً من أجل الملك ٢١ يداً وفرساً واحداً ومركبة حربية. كما اصطحبت الملك وعُدت من بلاد شاسو بأعداد غفيرة من الأسرى لم أستطع حصرهم[٣٠].

تكشف هذه الروايات عن قدر من العنف وحدوث عدد من الإشتباكات المسلحة. ويبدو إذن أن تحوتمس الأول قد وصل إلى شواطئ نهر الفرات. ومن المؤسف حقًا ألاّ تذكر أسماء الأعداء الذين تصدّى لهم آنذاك: هل كان الأموريون والميتانيون قد ظهروا

منذ ذلك الوقت على مسرح الأحداث؟ ثم وبعد أن عاد متجهًا ناحية الجنوب خاض المعارك في الريتنو وفي كنعان.

كما نعرف واقعة غنيمة *الأفيال* التي سجلتها المدونة التي أمرت حتشبسوت ابنة تحوتمس الأول بنحتها في معبدها الجنائزي بالدير البحري لتخلّد إلى أبد الآباد الأمجاد الحربية لوالدها العظيم:

إن بسالة الملك عا خپر كارع قد أعادته من إنتصاراته في بلاد الجنوب وبلاد الشمال، بعدد من الأفيال. كان صاحب الجلالة شخصيًا قد اصطادها في بلاد نهارينا، بينما كان عائدًا على متن مركبته بعد أن قضى على الريتنو العليا. كان صاحب الجلالة قد وصل إلى بلاد نيي عندما التقى بهذه الحيوانات. لم يكن شيء مماثل قد حدث لأي من أسلافه. عندئذ عاد ومعه أفيال هذا البلد وأعطاها لمعبد أبيه آمون رب عروش الأرضين، بعد رجوعه مقتدرًا قويًا منتصرًا، واجهازه على أعدائه[٣١].

هكذا أسس تحوتمس الأول إمبراطورية مصر، فخرج على رأس جيشه ليسلك طرق أسيا وإفريقيا ودروبها. ولكن هذه الهيمنة المصرية التي شملت مناطق مترامية الأطراف سرعان ما أيقظت طموحات منافسه، فلم تمر عدّة عقود حتى حاولت الميتاني أن تتصدى لهذا التوسع ولكن ذهبت جهودها سُدًى.

حكم تحوتمس الأول مصر لفترة عشر سنوات تقريبًا. ثم «*استراح الملك في سلام، وارتفع إلى السماء، بعد أن أتم سنواته، سعيد القلب*[٣٢]».

تحوتمس الثاني والحفاظ على الإمبراطورية

عند وفاة تحوتمس الأول حول عام ١٥٢٠ق.م، ثارت من جديد قضية وراثة العرش. ويعتقد أن ثمرة اقتران العاهل الملكي بالملكة أحمس كانت ولادة خمسة أبناء[٣٣]، نعرف اثنين منهم حق المعرفة: أولهما هو الابن البكر، الأمير آمن مس، القائد العام للجيش المصري، وكان لا يزال على قيد الحياة في العام الرابع من عهد

أبيه[٣٤]. أما الثاني وهو واج مس فتظل أصوله من الأمور المشكوك فيها. وأيًا كان الأمر، يبدو أن هؤلاء الأمراء قد وافتهم المنية قبل وفاة أبيهم الذى رزق أيضًا، على ما يظن من إحدى المحظيات(؟)، وهى على كل حال إمرأة ذات أصول ملكية، تدعى مُوت نفرت (أى «*موت الجميلة*»)، رزق منها ابنًا اسمه تحوتمس سوف يصبح الملك تحوتمس الثانى.

أن تنتسب مُوت نفرت إلى الأسرة الحاكمة واضح كل الوضوح، وإن كنا نجهل اسم والدها على وجه الدقة، وربما كان أمنحوتپ الأول[٣٥]، وفى هذه الحالة قد تصبح أخت الملكة أحمس. ونشاهدها إلى جانب تحوتمس الثانى على تمثال للعاهل الملكى قائم أمام الصرح الثامن فى معبد الكرنك، فتظهر هنا بصفتها «*ابنة الملك وأخت الملك. إنها محبوبته*: مُوت نفرت». وقد وُضع هذا الاسم الأخير داخل خرطوش[٣٦]. كما عثر على تمثال آخر يصور مُوت نفرت فى المعبد الجنائزى للأمير واج مس، على البر الغربى لمدينة طيبة. ويعلن المتن أن «*عا خپر إن رع* (اسم تتويج(*) تحوتمس الثانى) *الإله الكامل ورب الأرضين، أمر بإقامة هذا المعلم الأثرى من أجل والدته مُوت نفرت زوجة الملك ووالدة الملك*[٣٧]».

ولتدعيم حقه الشرعى فى التربع على العرش تزوج الأمير تحوتمس من أخته غير الشقيقة المولودة من اقتران الملك بالأميرة أحمس، وهى الأميرة حتشپسوت التى يعنى اسمها «*الأولى على السيدات النبيلات*». ومن الآن أصبحت هذه الأميرة تحمل ألقاب الملكات العظيمات فى بلاط طيبة: «*ابنة الملك وأخت الملك والزوجة الإلهية والزوجة الملكية العظيمة*[٣٨]».

ويبدو أن تحوتمس الثانى كان فى شرخ الشباب عند ارتقائه العرش: «*كان صقرًا لا يزال فى عشه... ومنذ ذلك الحين كان ملك السوداء*(**) *وحاكم الحمراء*(**)[٣٩] *وانتصر على الشاطئين واستأثر بهما*[٤٠]».

ويبدو أن سنوات حكمه كانت قصيرة نسبيًا وفى حدود عشر سنوات. ومن المحتمل أن العاهل الملكى قد وافته المنية متأثرًا بمرض عضال بلا شك، وهو فى

(*) أو اسم نسوبيتى - ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) راجع الهامش فى آخر الكتاب. (المترجم)

الثلاثين من عمره تقريباً وأن نشاطه العسكرى الشخصى كان محدوداً جداً فى واقع الأمر حتى وإن اضطر الجيش المصرى أن يتحرك منذ السنة الأولى من عهده لسحق تمرد وقع فى السودان.

نعرف هذه الأحداث بفضل مدونة أمر الملك المنتصر بنحتها فى الصخر فى الطريق المؤدى من أسوان إلى جزيرة فيلاى:

فى اليوم الثامن، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان، من العام الأول، الشروق المتألق على عرش حورس الأحياء لصاحب الجلالة:

حورس: الثور القدير، صاحب القوة الباسلة.

السيدتان: صاحب المُلك (بضم الميم) الإلهى.

حورس الذهبى: صاحب الصيرورات المسيطرة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع (أى: «عظيمة هى صيرورة رع»).

ابن رع: تحوتمس، صاحب الإشراقات الكاملة.

إن أباه رع هو حمايته السحرية، مثله مثل أمون، رب عروش الأرضين، فمن أجله يقضيان على أعدائه.

كان صاحب الجلالة فى قصره. قديراً كان مجده والرعب الذى يثيره يعمّ ربوع الأرض. هيبته كانت قائمة على ضفاف الحاونبوت، وحصتا حورس و ست كانتا تحت سيطرته، والأقواس التسعة تحت نعليه. والآسيويون المحملون بالجزية يأتون إليه بينما حُرم النوبيون من النسمة. وتصل حدوده الجنوبية إلى بداية الأرض وحدوده الشمالية إلى تخوم المستنقعات[٤١].

(وبعد مرور ثلاثة قرون سوف يعود سيتى الأول إلى استخدام المصطلحات نفسها عند وصف الإمبراطورية المصرية[٤٢]).

لقد أصبحت آسيا من ممتلكات صاحب الجلالة ولا يُردّ موفده أبدًا على امتداد البلاد الفينقية.

جاء من يُخبر الملك هذا النبأ: «لقد عَم التمرد بلاد كوش الخسيسة، ومن يخضعون لرب القطرين، شرعوا يتمردون ليهزموه. بل إن أبناء مصر (المستوطنين) قد قادوا قطعانهم بالفعل إلى داخل أسوار هذه القلعة التي بناها والدك، إبان حملاته المنتصرة - (والدك) عاخپر كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا للزمن اللانهائي! - ويتأهبون لطرد البلدان المتمردة ونوبيي خنت - إن- نفر. وبالفعل، فإن زعيمًا من شمال بلاد كوش الخسيسة قد انضم إلى التمرد وفي الوقت نفسه كان معهم اثنان من النوبيين وأولاد زعيم من بلاد كوش الخسيسة هذه، الذين سبق أن أجبروا على الفرار أمام صاحب الجلالة يوم المذبحة (التي أقدم عليها) الإله الكامل. كان هذا البلد قد انقسم إذن إلى خمس مناطق وكان كل واحد يسهر على سلامة نصيبه».

(يمكن التأكد من وجود هذه التحالفات التي كان يعقدها زعماء القبائل في أزمنة سابقة، من واقع النصوص التي تسرد تفاصيل الحملات الأفريقية إبان الأسرة السادسة، ومنها الحملة التي خرج حرخوف على رأسها[٤٢]).

عندئذ وبعد أن استمع صاحب الجلالة إلى ذلك، ثارت ثائرته كالفهد. وقال: «حقًا وكما أنني أحب رع وأمتدح أبي آمون سيد الآلهة ورب عروش القطرين، أقسم بأني لن أترك أحدًا من ذكورهم حيًا وسوف أحني ظهورهم».

وأرسل صاحب الجلالة إلى النوبة جيشًا جرارًا، في غمار حملة النصر هذه، للقضاء على كل الذين كانوا قد تمردوا عليه وكشفوا عن عصيانهم على رب القطرين. وصل جيش صاحب الجلالة إلى كوش الخسيسة، وكان بقيادة مجد الملك، بينما كانت سَورة غضبه الحربي تجهز على من يتقدمون نحوه. عندئذ أباد الجيش هؤلاء الأجانب، ولم يترك أحدًا من الذكور حيًا عملاً، بأوامر صاحب الجلالة، ومع ذلك فقد أُستثنى صبي من أولاد زعيم كوش الخسيسة واقتيد أسيرًا مع حاشيته إلى حيث يقيم الملك. كان مكانهم تحت قدمَيْ الإله الكامل، إذ كان صاحب الجلالة قد تجلى مشرقًا على

عرشه، بينما كان يُساق الأسرى الذين أتى بهم جيشه. وعاد هذا البلد ليصبح من أملاك العاهل الملكى، كما كان فى الزمن الغابر.

كانت صياح الشعب تتعالى فرحًا والجيش يتهلّل من نشوة السعادة. كانوا يحيون رب القطرين ويعلنون على الملأ عظمة هذا الإله الخيِّر من خلال أفعاله الإلهية. حدث ذلك بسبب هيبة صاحب الجلالة، زد على ذلك، بمقدار ما كان أبوه آمون يحبه، أكثر من أى ملك آخر عاش من قبل، منذ أقدم أزمنة الأرض.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع.

ابن رع: تحوتمس، صاحب الإشراقات الكاملة(٤٤).

يبدو أنها كانت المرة الأولى التي لا يشارك فيها الملك بشخصه في حملة عسكرية. وقيل أن تحوتمس الثاني كان رقيق الصحة ولهذا السبب على ما يعتقد وافته المنية في سن مبكرة(٤٥).

وفي عهده نشأت عادة جديدة مفادها أن تستقبل طيبة واحداً أوأكثر من أبناء الزعماء الأجانب لتنشئتهم تنشئة مصرية، حتى إذا عادوا إلى أوطانهم، ساعدوا عند الضرورة في الحفاظ على ترابط الإمبراطورية وتماسكها. وفيما بعد، وبعد إنقضاء مئات السنين سوف يلجأ الفاتحون الرومان أيضاً إلى هذا الأسلوب ذاته.

وعن حملة عسكرية محتملة إلى آسيا، لم تصلنا الإشارة إليها إلا من خلال سيرة حياة أحمس- پن- نخبت وإن شابها الغموض:

لقد اصطحبت عا خپر إن رع ملك مصر العليا ومصر السفلى. وعُدت ومعى أعداد غفيرة من أسرى الشاسو أحياءً. ولم أحصيهم(٤٦).

من المحتمل أن بعض القبائل في كنعان أو في الريتنو قد تمردت، ربما بتحريض من الميتاني الذي سيفعل الشيء نفسه فيما بعد. وعرف تحوتمس الثاني كيف يحافظ على الإمبراطورية.

ثم «*ارتفع إلى السماء واتحد مع الآلهة*»(٤٧)، وهو لا يزال في ريعان الشباب.

نحو أيديولوچية جديدة

جميع هذه النصوص التى تقدم سرداً للحملات العسكرية التى تم تنظيمها عند مطلع الأسرة الثامنة عشرة، مع قدر من التفاصيل، ويختلف سياقها من نص إلى آخر، تكشف بوضوح عن وجود أيديولوچية جديدة أخذت معالمها تتشكل شيئًا فشيئًا.

لقد بدأ المصريون يدركون ضرورة قيام الإمبراطورية التى أراد ملوكهم أن تمتد لتصل إلى حدود الأرض. وبعد عدة قرون سوف يتطلع **الرعامسة** أيضًا إلى تحقيق الهدف نفسه. كما عرفت مصر نشاطًا عسكريًا محمومًا نشأ من الخوف من حدوث غزوات أجنبية أخرى، فقد ترك **الهكسوس** ذكرى مؤلمة لا تنسى. ففيما وراء الأراضى التى وفرتها الطبيعة لتأسيس «**الوحدة**» المصرية، تركز اهتمام مصر أيضًا على البلدان البعيدة عنها إلى حد ما، لجعلها مناطق آمنة.

وأصبح الملك الأداة المتميزة لكل نصر. إنه المهيمن و«**المستحوذ**» بفضل نار صلّه، على وجه التحديد، وطبيعته النارية، فهو الابن المنبثق من جسد آمون-رع. وسوف تصوغ هذه الأفكار أحد أعظم الموضوعات فى عصر **الرعامسة**: موضوع الملك الذى فى وسعه أن يندمج فى قوى الكون الحيوانية و**الكوسمية**(*) ويتسلح بالتالى بقدراتها الطبيعية والسحرية. كما أن النصر هو نتيجة التقارب القائم بين الملك والآلهة والمشاركة التى تجمع بينهما: ومن هذه الآلهة نذكر رع، وعلى نحو خاص، آمون الذى سيتعاظم دوره بصفته إله المعارك الحربية. فسوف يمدّ يده ليسلم فرعون بلطة الحرب، ويقف إلى جواره فى وسط المعمعة.

بدأت هذه الأيديولوچية تلوح فى الأفق منذ أولى الفتوحات البعيدة. وقد تأكدت إبان الأسرة الثامنة عشرة لتصل إلى أوج ازدهارها فى عهد ملوك **الرعامسة**. وفيما بعد سيلجأ إليها ملوك العصر المتأخر ذوو الأصول الأجنبية، ليستخدموا هذه الأدبيات الملحمية العظيمة، فى أغراض سحرية، بعد أن تحولت فى نظرهم إلى «**مستودع**»

(*) نسبة إلى كوسموس cosmos أى العالم فى نظامه المحكم المرتب، وبخاصة ما يتصل بتركيبه الفلكى. مجمع اللغة العربية. المعجم الفلسفى. القاهرة ١٩٨٣. ص١٥٣. (المترجم)

للتعويذات الفعّالة، فيمكن أن نلاحظ بينها أوجه شبه شكلية. ولكن من الأهمية بمكان ألاّ يغيب عن بالنا أن النصوص الإمبراطورية التي تعود إلى الأسرة الثامنة عشرة وحتى الأسرة العشرين، لم تؤلف بواسطة صيغ منقولة عن نصوص سابقة، بل تعبّر، في أغلب الأحوال، عن مشاعر متنوعة ومتعددة، في شكل فيض من الكلمات المتكاثفة، وهذا لا يمنع أحيانًا أن تقدم وصفًا موفقًا.

وتشهد قائمة الألقاب الملكية عن هذا التحول الدائم للفكر. فينظر إلى أمنحوتب الأول بصفته «*هذا الذي يربط الأراضي*». وسوف يرد هذا اللقب في كثير من الأحوال ضمن قائمة ألقاب الرعامسة. واعتبارًا من تحوتمس الأول نجد أن الاسم الحوري للملك يلحق به مباشرة صفة «*الثور القوي*» – التي صار وجودها فيما بعد، من الأعراف الثابتة.

ومع نص **طُمبُس** المشهور(٤٨) ظهرت «*لغة*» جديدة، كما تشهد عليه أربع مدونات صخرية مقتضبة منحوتة في هذا الموقع ذاته:

- *الحورس، الثور القوي، المحبوب من* ***الحقيقة ـ العدالة****، الإله الكامل،* ***عاخبر إن رع****،*
  الذي أجهز على بلاد ***كوش****،*

  محبوب *أمون– رع.*

- *الحورس، الثور القوي، المحبوب من* ***الحقيقة ـ العدالة****، ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين،* ***عا خبر إن رع****،*

  الأمير الذي دمّر الزنوج،

  محبوب *آمون*، رب عروش *القطرين.*

- ***السيدتان****: هذا الذي يشعّ مثل لهب الصلّ، الإله الكامل ورب القطرين،* ***عا خبر إن رع****،*

  الذي استولى على الأرض،

  محبوب مونتو، رب *طيبة.*

- *حورس الذهبى: صاحب السنوات السعيدة الذى يعيد الحياة إلى القلوب،*

ابن رع الذى ينتمى إلى جسده، تحوتمس، صاحب الإشراقات الشمسية.

سيد النوبة فى ربوع البلاد وفى كل مكان من أماكنها،

محبوب آمون - رع، رب عروش القطرين[٤٩].

هكذا، فعلى الصخور المشرفة على النهر، ومن جندل إلى آخر، وحتى الجندل الرابع، تأكدت هيمنة مصر وملوكها وآلهة طيبة على أراضى أفريقيا القصية. كانت هذه المدونات أكثر من مجرد إشارات تدل على تبعية هذه البقاع لمصر. فلما كانت الكلمة فى الفكر القديم، عنصر خلاق موهوب الحياة، فقد كانت أيضًا أداة سحرية لردع حركات التمرد المحتملة واقناع القائمين بها بالعدول عن سلوكهم، كما كان لها فاعلية السلاح ذاته وناجعة مثله. كان خيتى الثالث ملك هرقليوبوليس يتحدث إلى ابنه مرى كارع قائلاً: «*الكلمات أقوى من أية معركة حربية*»[٥٠].

وإذ اقتفى تحوتمس الأول بكل من أحمس وأمنحوتپ الأول فقد خلق الإمبراطورية على الصعيدين المادى والروحى.

٢- الأمراء والقادة العسكريون: كبار مؤسسى الإمبراطورية

الوزراء ونواب الملك

الوزير إيمحوتپ وهو ثانى من حمل هذا الاسم، شغل منصبه فى عهد تحوتمس الأول. كان من خلصاء الملك، كما كان المربى المشرف على تنشئة الأمير واج مس والأولاد الملكيين. إن جزءًا من مدونة، جاد به المعبد الجنائزى للأمير يذكر ما يلى:

أما عن عمدة المدينة، الوزير إيمحوتب (أى «هذا- الذى- يتقدم- فى سلام») فقد عُيّن مربيًا لتنشئة الأولاد الملكيين لملك مصر العليا ومصر السفلى: عاخپر إن رع، بالنظر إلى مدى الحظوة التى كان يتمتع بها عند العاهل الملكى(٥١).

المعلومات هزيلة، ولكنها أكثر تحديداً بالنسبة للأفارقة.

فمنذ الآن يتضح بجلاء أحد المبادئ الأساسية لسياسة الإمبراطورية كما سيطورها تحوتمس الثالث(٥٢): ألا وهو بكل بساطة تأمين بقاء الحاميات العسكرية فى آسيا ولكن التأكيد على إقامة إدارة مصرية راسخة فى إفريقيا.

فقبل أن يُنشئ أمنحوتپ الأول منصب نائب الملك، ومنذ عهد أحمس كان شخص مكلفًا سنويًا بجباية الجزية من منطقة واوات ثم إرسالها إلى طيبة. والمقصود بذلك حور- مين أمير مدينة الكاب إلى الجنوب من طيبة والذى يحتفظ له فى الوقت الراهن متحف مدينة فلورنسا بلوح حجرى. يقول نص اللوح:

لقد قال: أتممت سنوات عديدة بصفتى أمير مدينة الكاب مقدمًا منتجاتها إلى رب الأرضين. وكنت موضع مديح، فلم يجد أحد خطأً واحدًا قد ينسب إلىّ. وبلغت سن الشيخوخة وأنا فى بلاد واوات بعد أن نلت ثقة (حرفيًا: ملأت قلب) سيدى. كنت أهبط النهر سنويًا محملاً بمنتجات هذا البلد من أجل الملك، ولم أتوقف عن القيام بهذه الرحلة المظفرة، دون أن يؤخذ علىّ مأخذ واحد(٥٣).

إن وظيفة «*الابن الملكى، رئيس بلاد الجنوب*»- وهى التسمية الرسمية الأولى لمنصب نائب الملك- لم تظهر على وجه اليقين إلاّ فى العام السابع من عهد أمنحوتپ الأول على مخربشة فى سمنة(*) وتحمل اسم أحمس المدعو تورا(٥٤). وفى العام الثامن من عهد الملك نفسه، اسند هذا الأخير إلى تورا مهمة بناء معبد فى جزيرة أورونارتى(**). إن مخربشة صخرية أخرى تعرفه على النحو الآتى:

(*) جنوب الجندل الثانى. (المترجم)

(**) قرب سمنة. (المترجم)

*العام الثامن، من عهد ملك مصر العليا ومصر السفلى **چسركارع**(*). الشريف والأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى، الصديق الأوحد، وموضع ثقة الملك فى بلاد الجنوب، الذى فوّضه رب القطرين لمارسة سلطاته، إنه الابن الملكى **تورا**[٥٥].*

كما رأينا أن **تحوتمس الأول** قد أبقاه فى منصبه[٥٦] فأبلغه نص المرسوم الذى أعلن ارتقاءه عرش البلاد، لإذاعته على الملأ.

ومن ثم يمكن القول أن نائب الملك هو منفذ قرارات سلطات **طيبة** فى الممتلكات الجنوبية.

ونعرف عائلة **تورا** معرفة مثيرة للإهتمام من خلال المدونة المنحوتة على تمثال مكعب لهذا الشخص وهو من مقتنيات **المتحف البريطانى** (رقم 888. من حجر الكوارتزيت. ارتفاعه ٥٢سم). ونجهل الجهة التى جاء منها، وربما كانت **الدير البحرى**(؟). نحتت النصوص على الرداء الذى تدثر فيه الرجل الجالس القرفصاء وتلامس ركبتاه ذقنه. وقد ظهر هذا الموضوع الثابت، فى تشكيل تماثيل الأسرة الثانية عشرة. نقرأ على ظهر التمثال: *الكاتب الملكى وكبير الكهنة المرتلين،... **تيتى بن أحمس- پا ثنى**، كاتب القرابين الإلهية المقدمة إلى آمون، وابن **أحمس- ساتييت**، الإبن الملكى ورئيس بلاد الجنوب*[٥٧].

وتأسيسًا على ذلك، فربما كان أول نائب ملك معروف هو فى الحقيقة **أحمس ـ ساتاييت** والد **تورا**، الذى لا نعرف عنه شيئًا خلاف ذلك.

وتأكدت صحة سلسلة النسب هذه، من مدونات منحوتة على تمثال آخر يعود إلى **تورا**، كشف عنه **ناڤيل Naville** فى أطلال المعبد الجنائزى للملك **مونتوحوتپ** **بالدير البحرى**. كما استأثرت هذه العائلة أيضًا منذ **تورا** بمنصب آخر على قدر كبير من الأهمية، ألا وهو منصب «*كاتب القرابين الإلهية المقدمة إلى آمون*».

وهكذا نشأت حول العائلة الملكية عائلات قوية، كان فى وسعها بفضل الإنعامات الملكية أن تتوارث هذه المناصب العليا، أبًا عن جد.

(*) من ألقاب أمنحوتپ الأول. (المترجم)

كان سن هو الذى خلف تورا ليظل في وظيفته حتى عهد تحوتمس الثاني. والشاهد على هذه الحقيقة مدونة نحتت على باب معبد سمنة:

● فعلى المصراع الأيسر يوصف سن على النحو الآتي:

الأثير الذى ينتسب إلى بطانة الملك، عمدة مدينة الجنوب، المشرف العام على مخزن الغلال المزدوج للإله آمون، الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب. لقد كُلّف بالإشراف على بلاد المجاى بأسرها، بالنظر إلى ما له من تأثير عظيم على قلب ملك القطرين.

● وعلى المصراع الأيمن يقدم سن فروض التبجيل والتكريم للإله خنوم وللعاهل الملكى على النحو الآتي:

التهليل للإله خنوم والسجود أمام من يَضرب[٥٨]. . . (؟) حتى إرتفاع السماء وحتى عرض الأرض وحتى أغوار الشديدة الإخضرار- من قبل سن الابن الملكى وحاكم بلاد الجنوب الذى يقول: «المديح والثناء لك، كما تقول لك آلهة الأفق. فليعبدك أمير النجوم فليثن عليك تاسوع الشمال العظيم، على مدار النهار وللزمن الأبدى وللزمن اللانهائى»[٥٩].

كما استمر سن فى منصبه فى عهدى حتشپسوت وتحوتمس الثالث.

لا شك أن أمنحوتپ الأول، رغبة منه فى مراقبة الإضطرابات التى يثيرها أهل واحات الصحراء الغربية، قد عيّن حاكمًا على غرب الوادى. فمن مقتنيات متحف اللوڤر Le Louvre لوح حجرى للمدعو إيت ـ نفر، أمير الواحة. وبعد صيغ القرابين التقليدية، يؤكد هذا اللوح على أن هذا الرجل كان من الذين نالوا حظوة عند العاهل الملكى:

قربان يقدمه الملك إلى أوزيريس، رب بوزيريس، والإله العظيم سيد أبيدوس- حتى يعطى القرابين التى تخرج مع الصوت (أى أن النطق باسمها يظهرها إلى الوجود): *الخبز والجعة والثيران والطيور والأدهان والثياب الكتانية وكل ما هو طيب وطاهر، يعتمد عليه أى إله فى معاشه، وكل ما جادت به السماء وكل ما خلقته الأرض وكل ما جلبه النيل من مغارته، وكل ما يُطعم فضلاً عن واقع استنشاق نسمة ريح*

الشمال العليلة وشرب الماء عند شاطئ النهر- (حتى يعطيها) إلى كا أمير الواحة، الصديق الحميم للعاهل الملكي ومحبوبه، بالإضافة إلى زوجته المحبوبة يي. إنه أثر أعدّه أخوه الكاتب حور- إم- آخت، ليت حياته تتجدد[٦٠]!

وللأسف نجهل على وجه التحديد طبيعة وظيفته.

أمراء الكاب

عند موقع **الكاب** على مسافة ٨٨كم جنوب **طيبة**، تم الكشف عن جبانة تبعد كيلومترين عن نهر **النيل**. لقد حفرت المقابر في الصخور الواقعة على جانب السهل، ونقرت نقراً في المنحدر الجنوبي لتل صغير. وهنا عثر على «*بَيتَىْ الأبدية*» لرجلين كانا من أشجع رفاق ملوك الأسرة الثامنة عشرة، فأبليا بلاءً حسناً في المعارك التي خاضاها، نقصد **أحمس بن أبانا** و **أحمس بن نخبت**(*). ويفترض أن أولهما ظل يخوض المعارك حتى بلغ سن السبعين تقريباً، بدءاً من عهد **أحمس** وحتى نهاية عهد **تحوتمس الأول**. فختم سيرة حياته بقوله:

لقد أصبحت طاعناً في السن وبلغت من العمر أرزله. ولكن تظل حظوتي كما في السابق... وسوف أرقد في المقبرة التي جهزتها بنفسي[٦١].

حقًا لقد احتفظ الزمن بذكراه، ولا يقلق راحته في «بيت *الأبدية*» سوى تطفّل السيّاح الفضوليين.

ولما كان **أحمس بن نخبت** مزهواً بلا شك بما قدّمه من خدمات جسورة ومخلصة فقد دوّن في مقبرته بدافع من الكبرياء، حصراً بالقائمة الطويلة للملوك الذين ساعدهم في فتوحاتهم وفي تأسيس الإمبراطورية، فضلاً عن الإنعامات التي أغدقوها عليه:

(*) يضم هذا الموقع مقابر أخرى نذكر منها مقبرتي **باحري** و **رني** من الأسرة الثامنة عشرة ومقبرة **سيتاو** من عصر **الرعامسة**. (المترجم)

لازمت الآلهة، ملوك مصر العليا ومصر السفلى. وكبرت وأنا بجوارهم، وكنت فى أعقابهم فى البلدان الأجنبية جنوبًا وشمالاً، وفى كل مكان ذهبوا إليه.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب پحتى رع (أحمس)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: چسر كا رع (أمنحوتپ الأول)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر كا رع (تحوتمس الأول)

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپر إن رع (تحوتمس الثانى)

وصولاً إلى هذا الإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع (تحوتمس الثالث)، له الحياة إلى أبد الآباد[٦٢].

ومنحنى الملك چسر كا رع سوارين وقلادتين وحلقة للعضد وسيفًا وعصابة رأس ومروحة مرصعة وجميعها مموهة بالذهب.

ومنحنى الملك عا خپر كا رع أربعة أساور وأربع قلائد وحلقة للعضد وست ذبابات(*) وثلاثة أسود وبلطتين وجميعها مموهة بالذهب.

ومنحنى الملك عا خپر إن رع أربعة أساور وست قلائد وثلاث حلقات للعضد وبلطتين من الفضة وجميعها مموهة بالذهب[٦٣].

(تتزايد أعداد المكافآت وتتعاظم قيمتها)

هكذا بلغتُ شيخوخة سعيدة، منتسبًا طوال حياتى إلى بطانة الملك ونلت إنعامات أصحاب الجلالة. وكنت مفعمًا بحب القصر الملكى لذاتى.

وتجددت هذه الإنعامات من جانب الزوجة الملكية العظيمة ماعت كا رع (حتشپسوت). وأشرفت على تربية إبنتها البكر، الإبنة الملكية ماعت ـ نفرو ـ رع، عندما كانت لا تزال طفلة رضيعة[٦٤].

إن هذا الجندى العظيم[٦٥] الذى ظل – بعد أن أصبح شيخًا عجوزًا – يحظى برعاية بلاط طيبة الذى تفانى فى خدمته على أرض كافة ساحات القتال فى آسيا

(*) قلادة كانت تمنح للعسكريين تقديرًا لشجاعتهم فى المعارك الحربية. ويحتفظ المتحف المصرى بالقاهرة بنموذج رائع الجمال. الطابق العلوى، القاعة رقم٤. (المترجم)

وإفريقيا، وقع عليه الإختيار قرب نهاية حياته ليكون مربّى الأميرة ثمرة زواج حتشپسوت من تحوتمس الثانى، كدليل على آخر مظاهر التقدير التى حظى بها مقابل إخلاصه الصادق لسنوات طويلة. كان الملوك يعرفون كيف يكرّمون أتباعهم المخلصين. إن پاحرى حفيد أحمس بن أبانا، وهو ابن بنته، كان عمدة مدينتى الكاب وإسنا، فضلاً عن كاتب الخزينة الملكية، وله مقبرة فى الكاب تقع إلى اليمين قليلاً من مقبرة جدّه. وقد ترك لنا شواهد مثيرة للإهتمام. إنه نص طويل يضم تحديداً صلوات جنائزية وتأملات حول العالم الآخر ومحاولة تبرير سلوكه طوال حياته على سطح الأرض.

صلاة من أجل خدمة القرابين

قربان يقدمه الملك إلى آمون، رب عروش القطرين، عاهل الزمن الأبدى وسيد الزمن اللانهائى، الملك صاحب الريشتين الكبيرتين(٦٦)، الأوحد المتفرد، الأزلى، كبير الأزمنة العتيقة [الذى خلق البشر] والآلهة، إنه الشعلة الحية المنبثقة من نون، الذى يهب البشر النور،

- *(وأيضًا قربان يُقدم) إلى نخبت، بيضاء الكاب، سيدة السماء التى تقف على رأس القطرين،*
- *وإلى أوزيريس، أول أهل الغرب، رب ثنى وكبير أبيدوس،*
- *وإلى حتحور سيدة الصحراء، ذات القلب القوى من بين سائر الآلهة،*
- *وإلى پتاح- سوكر، رب شتاييت(٦٧)،*
- *وإلى أنوبيس، سيد رو ستاو(٦٨)،*
- *وإلى التاسوع الكبير وإلى التاسوع الصغير،*

حتى تُعطِى، ما يقارب الألف من أرغفة الخبز ومن أوانى الجعة ومن الثيران ومن الطيور. وما يقارب الألف من القرابين المادية وألف هدية تتجدد على الدوام، وكل ما ينبت على ظهر الأرض، وألف من كل ما هو جميل وطيب وطاهر، مما يقدّم قربانًا لرب الزمن الأبدى.

وحتى تُعطِى القدرة على تناول أرغفة الخبز التى تتراكم أمامه، واللبن الوارد من مائدة قرابينه.

وحتى تُعطِى (إمكانية) شرب الأمواه المتدفقة من إلفنتين[٦٩]...

(كل ذلك) بمناسبة عيد الشهر وعيد اليوم السادس وعيد منتصف الشهر وعيد الطلعة الكبيرة وعيد شروق سوتيس والعيد واج وعيد تحوت وعيد الميلاد الأول وعيد ميلاد إيزيس وعيد خروج مين وعيد خروج الكاهن سم، وإبان وجبة طعام المساء وإبان فيضان النهر وإبان أعياد السماء فى أيامها، وعلى مدار كل يوم من الأيام[٧٠]. لقد أُلبست ثوبًا طاهرًا من أرقّ أنواع الكتان، من الكتان نفسه المستخدم لزينة الجسد الإلهى. لقد مُسحت بزيت صافٍ وسوف تشرب على مقربة من مائدة القرابين وتتقاسم خيراتها، فأنت عين الأعيان الذى يتقدم أصحاب الحظوة،

- من أجل كا أمير الكاب وعمدتها، الكاتب پاحرى (أى: «الرئيس»)، الصادق القول، كاتم أسرار سيده، فى كل خير.

تأملات حول العالم الآخر

سوف تدخل وسوف تخرج سعيد القلب، مشمولاً برعاية سيد الآلهة. عندما يحل كبر السنّ، سوف تنال دفنة جميلة بعد الشيخوخة. سوف تدرك مكانك فى التابوت (حرفيًا: «مالك- الحياة») وتتّحد بالأرض فى صحراء الغرب، وتتحوّل إلى با[٧١] حىّ، يتناول بكل تاكيد الخبز والماء ونسمات الهواء. سوف تنجز تحولاتك إلى طائر العنقاء أو الطائر الخطّاف أو إلى صقر أو بلشون، حسب رغبتك. سوف تبحر مجدّفًا دون أن يصدك أحد وتعبر الأمواه الدافقة لتعود إليك الحياة من جديد. ولن يُطرد باؤك من جسدك، ففى صحبة الأموات المتألقين (النجوم؟) سوف يصبح(*) من الآن إلهيًا. إن أشهر الباو(**) سيتحدثون معك. وتصبح صورتك وسطهم[٧٢] حتى تتلقى ما تجود به الأرض. سوف تتناول الماء وتستنشق النسمة العليلة وترتوى بقدر

(*) هكذا فى صيغة الغائب. (المترجم)

(**) جمع با. (المترجم)

رغبة قلبك. وتعود إليك عيناك لترى وأذناك لتسمع الكلمات. ويتكلم فمك وتسير ساقاك وتتحرك من أجلك يداك وساعداك. ويصبح لحمك مكتنزًا وعضلاتك ملساء. سوف تسعد بكل جسدك، وتُحصى أعضاءك: إنها موجودة بالكامل في صحة تامة وفي أحسن حال ولن يطولها مكروه. وإرادتك تكون معك، في حقيقة الأمر، لأن قلبك كما كان في الماضي سيكون لك إلى الأبد. عندئذ سوف تصعد إلى السماء وتفتح... وتُرفع إليك الإبتهالات على مر الأيام، عند مائدة قرابين ونن نفر (أي: «هذا- الذي- يظل- كاملاً- على- الدوام» = أوزيريس). وتتناول الخبز المكدس أمامه، إنها القرابين الخاصة برب الأرض المقدسة (أي: الجبانة).

- من أجل كا أمير الكاب وعمدتها وأمير إسنا وعمدتها، من أجل من يشرف على إحصاء الغلال من إسنا وحتى الكاب. القادر اليقظ الذي بلا أخطاء، إنه الكاتب پاحرى، الصادق القول.

سوف تأكل الخبز إلى جوار الله، على مقربة من سلّم رب التاسوع. سوف تنفصل عنه، على مقربة من مقرّ إقامته وسط أفراد المحكمة العليا. عندئذ سوف تتجول بينهم وتصبح صديق خُدّام حورس، وتصعد وتهبط دون أن يصدك أحد، ولن تُطرد من باب الدوات[٧٣]. فمن أجلك سوف تُبلج أبواب الأفق بلجًا، وتُفتح مزاليجها وتدخل قاعة الماعتين(*) الكبرى[٧٤]، ويتولى استجوابك الإله المقيم فيها. عندئذ تستطيع التوقف في العالم الآخر والسير بخطى واسعة في مدينة الإله حعپى (النيل). ويسعد قلبك بينما تقوم بأعمال الحرث في حقول البوص[٧٥]. ويوفر لك عملك إعاشتك، وتحصل على حصاد وفير.

وفي المعدّية، تُثبت الحبل المناسب، فتتمكن من الإبحار كما يتوق إليه قلبك، بلا هوادة. ومع كل فجر جديد سوف تغادر لتذهب بعيدًا، لتعود أدراجك في المساء. ومن أجلك سوف توقد شعلة الليل، إلى أن يحين وقت سطوع نور الشمس، من جديد على صدرك. وسيقال لك: مرحبا! مرحبا! في بيتك هذا، بيت الأحياء. وسوف ترنو إلى

(*) مثنى ماعت. (المترجم)

رع فى أفق السماء، وتشاهد آمون عندما يشرق، وتظل يقظًا سعيدًا، طوال النهار. ومن أجلك سوف تُطرد جميع الشرور من الأرض. وتعبر الزمن اللانهائى فى فرح، بفضل مديح الإله الذى فى داخلك(*) (الضمير). وسوف يظل قلبك معك ولن يهجرك. ويبقى طعامك فى مكانه.

- من أجل كا الكاتب پاحرى.

حياة بارة

وقال: «أنا من الأعيان والعظيم الفائدة لسيدى، أنا رأس مُحنَّك، لا أعرف الإهمال. لقد سرت على الدرب الذى سعيت إليه، لأننى أعلم مآل الحياة. لقد قيّدت الحدود فى السجلات و«الشطآن» فى جميع شئون الملك. فجميع ممتلكات القصر الملكى كانت على غرار ممتلكات حعبى، بينما يواصل جريانه فى اتجاه الشديدة الإخضرار(٧٦). كانت لغتى قاطعة للحفاظ على أوضاع (ممتلكات) سيدى الملك. وكنت أخشى ما أخشاه، ارتكاب أى قصور. لم أدّع الصمم عند الوفاء بما يستوجب الدفع، لم استولِ ولو على جزء ضئيل من المصروفات. كان قلبى ذاته هو الذى يرشدنى إلى طريق خلصاء الملك والمقربين منه. كان قلمى المصنوع من البوص، قد حولنى إلى رجل معروف على نطاق واسع ويضمن نجاحى فى المحكمة... وأتاحت لى طبيعتى السديدة أن أرتقى... فإذا وُضعت على الميزان، سوف أخرج كاملاً دون نقصان ومزدهرًا. وفى غدواتى وروحاتى يظل قلبى مماثلاً. لم أكذب أبدًا على الآخرين. وأعلم أن إلهًا يقيم فى الإنسان وأعرفه(**) وأعلم كيف أميز هذا عن ذاك. لقد أنجزت الأمور وفقًا لما صدر من أوامر. لم أطرح أسئلة إلا فيما يخص المسائل التى يُطلب عنها تقرير. لم أتفوه بكلمات رائجة فى أوساط العوام. لم أرو شيئا على مسامع سواد الناس. أنا نموذج لكرم القلب، أنا إنسان محل كل تقدير، حظى بكل المنن، منذ أن خرج من بطن أمه.

(*) من حقنا أن نقارن هذه العبارة بقول أبى المغيث الحلاّج بعد مرور حوالى ٢٥ قرنًا:

رأيت ربى بعين قلبى فقلت من أنت قال أنتَ

ديوان الحلاّج. دار معد ودار النمير. دمشق. ١٩٩٩ ص ٢٨. (المترجم)

(**) راجع أيضًا بيت الحلاج السابق ذكره. (المترجم)

أنا باحرى عمدة الكاب، صادق القول، الذى أنجبه مربى الابن الملكى الكاتب إترورى، صادق القول، وولدته سيدة البيت كام، صادقة القول».

نداء إلى الأحياء

وقال: «انصتوا إذن، أنتم يا من تعرفون الحياة. إنى أتحدث إليكم دون مواراة. أيها الأحياء الذين ما زلتم على قيد الحياة، أنتم يا أيها الأمراء والرجال القائمين على سطح الأرض، أيا خُدّام الإله، أيها الكهنة ذوو الأيدى الطاهرة، والتابعون لهم، أنتم أيها الكتبة الذين يمسكون لوحة الكتابة والعارفين بالكلمات الإلهية، أنتم جميعًا، أيها المتازون مع نويكم، الذين يظهرون تميزهم عندما تمتدحون أعمالكم، إن رع رب الزمان الأبدى سوف يمتدحك وسوف تفعل الشىء ذاته نخبت، بيضاء الكاب، وكل (كيان إلهى) فعّال فى مجال وظيفته. سوف «تستعيدون لونكم الأخضر» من أجل أولادكم حسبما تقولون: «قربان يقدمه الملك» وفقًا لما هو مكتوب (هنا) و«قربان يخرج مع الصوت» وفقًا لأقوال الأقدمين، والذى يصدر من فم الله. إن من يمدّ يده سوف يعمل بما يتفق مع ماعت، منجزًا ما ينبغى أن يكون ومطابقًا للنواميس، ويصبح شاهدًا على ذلك أمام هذا اللوح الحجرى. ومن ثم سوف تصبح آلاف أرغفة الخبز وآلاف أوعية الجعة ومئات الآلاف من كل ما لذّ وطاب، قرابين طاهرة من أجل الأوزيريس عمدة الكاب وعمدة إسنا وكاتم أسرار مسئول الخزينة إبان الترحال جنوبًا، إنه كاتب الحسابات المتميز باحرى، صادق القول.

إنى أقول لكم وأتصرف بحيث تدركون أننى قصدت فيما قلته خطابًا لا يجنح إلى المبالغة ولا ينطوى على تبسيط مجحف أو لبس، ولا يترتب عليه الدخول فى مشاحنات مع الآخر، وعندما يُنطق به لا يسبب إحراجًا للمُعوز. إنه حديث ممتع يروّح عن النفس، ولا يملّ القلب من سماعه. إن نسمة الفم لا يبتلعها المرء ولاتهرب ولا يترتب عليها إعياء. إذا تصرفتم على هذا النحو، سوف يكون الأمر طيبًا فى نظركم وتكتشفون... وتُمتدحون. عندما كنت على سطح أرض الأحياء، لم أرتكب ثمة خطأ ضد الإله. ولذا فقد أصبحت روحًا نورانيةً، يتوفر لها كل شىء، وحولت مكانى فى الجبانة إلى مكان ممتع، فأمتلك كل ما احتاج إليه ولن أكفّ عن الاستجابة[٧٧]. إن

المتوفى والد لمن يعمل من أجله ولا ينسى من صب له قليلاً من الماء. ومن المناسب لكم أن تنصتوا (إلى هذا الحديث)[٧٨]».

يكشف هذا النص عن مختلف جوانب «الآلية» السحرية التى تضمن البقاء على قيد الحياة بعد الوفاة. إنه أشبه بترنيمة لإقامة العدالة فى الأرض ولحرية الحركة فى العالم الآخر، من أجل وجود أبدى يغالب الزمان. إن حرية التحول إلى مختلف الأشكال وحرية السير والتنقل والدخول إلى كافة الأماكن السماوية أو الأرضية فى أرجاء الكون، قد شكّل على الدوام المقومات الجوهرية التى كان المصرى القديم يتطلع إلى تحقيقها من خلال التجديد الأبدى. كما ينطوى النص على نداء محرك للمشاعر موجه إلى الذين ما زالوا على قيد الحياة ويمّرون أمام هذه المدونة لتلاوة صيغة الخلاص التى ستتيح للتقدمات أن تتكدس على مائدة قرابين المتوفى، تكدساً سحرياً بفضل القدرة الخلاقة **للكلمة**[*] عند النطق به. إن **اللوجوس** فى مصر وسيلة لبلوغ الأبدية المادية. وهنا نجد أن شخصية **آمون** عظيمة القدر، إنه الملك الأول والنور البدئى. إن الفكر الدينى الذى ظل يتطور منذ آلاف السنين أخذ يزداد رسوخاً ويزداد شمولاً حول الشخصية المقدسة لسيد **الكرنك**.

أبناء طيبة

تعتبر مقابر الأفراد بالبر الغربى لمدينة **طيبة**، فى نظرنا، سفراً ضخماً يروى تاريخ البشر فضلاً عن تاريخهم السياسى والدينى. ولما كان فكر كبراء ***طيبة*** وعظمائها مشغولاً بأمر تبرير استقامة وجودهم وأهميته، حتى تقدم لهم خدمة القرابين فى الدنيا ويصدر حكم **أوزيريس** لصالحهم فى العالم الآخر، فما زالت تطلّ علينا شخصيتهم من خلال الوصف الذى تقدمه صورهم المنحوتة أو المرسومة على جدران مقابرهم والنصوص المدونة عليها.

(*) مؤنث لفظى ومذكر معنوى، كما فى إنجيل يوحنا (١:١): **فى البدء كان الكلمة**. (المترجم)

إن موائد القرابين في الشيخ عبد القرنة ودراع أبو النجا، الخاصة بالأفراد الذين خدموا أوائل فراعنة الإمبراطورية المصرية لم تعد تموّن الآن بالأطعمة وتشتتت أمتعتهم الجنائزية بل ومومياواتهم أيضًا في أقاصي المعمورة وأدناها، ويأتي السائحون في أفواج متعاقبة ليعكروا صفو «بيتهم» الأخير. ولكن تظل ذكراهم حية ويُنطق اسمهم كما كانوا يودّون. إنها ومضة حياة أخيرة وربما كانت وثبة الوجود القصوى لإحياء العناصر اللامادية لكيان أصحاب النفوذ في طيبة الذين عاشوا قبلنا في سالف الزمان، منذ ثلاثة آلاف وخمسمئة سنة مضت.

إن إينيني كبير المشرفين على مواقع العمل في الكرنك والمدفون في المقبرة رقم٨١ بالشيخ عبد القرنة، ظل يخدم ملوكه في إخلاص وأمانة بدءًا من أمنحوتپ الأول وحتى تحوتمس الثالث. لقد جمع بين أعلى المناصب الدنيوية والروحية، إستناداً إلى مجموعة وظائف تقليدية شائعة، فكان:

الشريف والأمير ومدير كافة الأعمال في الكرنك.

ويمتد سلطانه إلى بيت الفضة المزدوج.

وختمه موجود على بيت الذهب المزدوج.

إنه من يختم كافة العقود في معبد آمون.

إنه الأمير والمشرف العام على شونة غلال آمون المزدوجة(٧٩).

كما كان أيضًا:

مدير الأعمال في الجبانة الملكية،

والمشرف العام على كافة طقوس الخدمة الدينية في معبد آمون(٨٠).

كان من كبار المشرفين على الأموال الملكية وكبير المهندسين، سواء عند تشييد معبد آمون أو مقبرة العاهل الملكي، كما كان كبير إداريي الكرنك وأملاك إلهه.

وإذا بدأنا بعهد أمنحوتپ الأول، نجد أنه كان مشرفًا نشطًا على مواقع العمل:

كنت أتفقد ما صنعه صاحب الجلالة... من البرونز ومن نحاس آسيا والقلائد منات(٨١) *والأواني والقلائد العريضة. كنت أدير كافة الأعمال بينما كانت سائر*

الوظائف تحت إشرافي. كنت أمر بإقامة [الإحتفالات[٨٢]].... بمناسبة أعياد مطلع الفصول أيضًا، من أجل أبي أمون، رب عروش القطرين. كانت هذه الأمور من مسئولياتي، ويتم تفقدها من أجلي، فقد كنت مخططها[٨٣]...

وفيما بعد آثره تحوتمس الأول تقديراً لمهاراته:

وملأ قلبه منّي. عندئذ صرت أميراً والمشرف العام على شونة الغلال المزدوجة. وصارت حقول القرابين الإلهية تحت إدارتي وسلطاني. وكل الأعمال المتميزة تجمعت لتصبح من إختصاصي. وتفقدت كبرى المنشآت التي كان ينفذها (الملك) في الكرنك[٨٤]... كانت مهنة أحبها (حرفيًا: من أجل قلبي)، وكان تصرفي تصرف شخص يعرف. ولم يصدر إليّ أبدًا أمرًا من إنسان يكبرني سنًا. سوف أمتدح لعلمي، بعد انقضاء سنوات وسنوات، من قبل من سيحاولون محاكاة ما حققته، عندما كنت الرئيس... كنت فم السماء لكل عمل من أعمال التشييد. كانت أفضالي مستقرة في القصر استقراراً راسخًا، وكذلك الحب الذي يكنّه نحوي رجال البلاط. وأمدّني صاحب الجلالة بالخدم وكانت شونة الغلال الملكية مصدر قوتي، على مرّ الأيام[٨٥].

كما كان مكلفًا أيضًا عند عودة الحملات العسكرية التي ينظمها العاهل الملكي، باستقبال الأسرى والجزية التي ستزيد، سنة بعد سنة، من ثروة معبد الكرنك. وفوق صورة لأسير زنجي أحضره تحوتمس من الجنوب ويقدمه إلى أمون يوضح المتن:

مشاهدة الزنوج القائمين على رأس الأسرى من أجل قرابين أمون الإلهية، في أعقاب سقوط كوش الخسيسة ـ وفي ذات الوقت (مشاهدة) جزية كافة البلدان الأجنبية التي وهبها صاحب الجلالة لمعبد أمون بصفتها مورداً سنوياً[٨٦].

إنه من «يشاهد» كافة كنوز الآلهة، وربما كان من يتولى توزيع الثروات على مختلف معابد مصر. إن جدولاً منحوتًا في مقبرته يوضح كمية مكاييل البخور المقدمة إلى كل معبد من المعابد، ولا ندري في أية مناسبة، فيؤكد بذلك على مناقبه كمحاسب، فضلاً عن الأهمية المتعاظمة لمعبد الكرنك:

معبد أمون: ٤٤٠

معبد مُوت: ٨ $\frac{1}{2}$

معبد خونسو: $8\frac{1}{2}$

معبد بتاح: $8\frac{1}{2}$

؟ ...

حريم *الجنوب*[٨٧]: $8\ \frac{1}{2}$

معبد *أحمس- نفرتارى الجنائزى*[٨٨]: $14\ \frac{1}{2}$.

وتواصلت مسيرة حياته المهنية فى عهد تحوتمس الثانى:

كنت أملأ قلب الملك في كل مكان. يا لعظمة ما فعله من أجلى، إنه يفوق ما فعله أسلافه أهميةً. ومن ثم أصبحت شيخوختى شيخوخة شخص رفيع الشأن، لأنى مكثت على امتداد الأيام أحظى بإنعامات صاحب الجلالة. كنت آكُلُ (من الطعام) *الذى تجود به مائدة الملك: من خبز قرابين العاهل الملكى وأيضًا من الجعة واللحوم السمينة والخضروات والفواكه بأنواعها والعسل والحلوى والنبيذ والزيت. هكذا ضمنت كل احتياجاتى بأكبر قدر من الوفرة فى الحياة، حسبما قاله صاحب الجلالة شخصيًا، بسبب الحب الذى كان يكنه لى*[٨٩].

تتوطد العلاقة الحميمة عندما يُقدَّم طعام فاخر مكافأةً على الخدمات الحميدة والمخلصة! ففى الأزمنة الخوالى استمال الملك سنفرو الساحر جدى إلى بلاطه وكان قد بلغ من العمر مئة وعشر سنوات، فوعده بتقديم أطعمة دسمة ووفيرة[٩٠]. فمصر بلد تطوّقه الصحارى، فما أن يشهد نهرها فيضانًا منخفضًا حتى تنتشر المجاعة وتعمّ.

كان إينينى نبيلاً مرموقًا يحب أيضًا حياة الحقول وأن يخلد إلى الراحة فى حديقته المزروعة أشجاراً وزهوراً. أحب المصريون على الدوام ما تزخر به الحدائق من نباتات وفيرة وما تضفيه ظلالها من جو عليل وتدخله رؤية الزهور على النفس من راحة وسعادة واسترخاء، وظلوا مولعين بها للتباين الشديد بينها وجدب الصحارى القاحلة المحيطة.

عندئذ «*رحل إينينى ليعاين حقوله وماشيته الموجودة فى الدلتا*[٩١]».

وصُوِّر على جدران مقبرته وهو يتجول فى حديقته أو جالسًا تحت عريش فى صحبة زوجته «ستّ البيت[*] عح حوتپ»، كتعبير واضح عن حبه للطبيعة.

إنه يعبر بحيرته القائمة فى الغرب، ويتناول بعض المرطبات تحت أشجار الجميز، ويشاهد أشجاره الباسقة الجميلة، بينما غمرته مدائح آمون، هذا الإله المعظَّم، رب عروش القطرين[٩٢].

ثم يقدم إلى ذريته متباهيًا متفاخرًا قائمة بتفاصيل مزرعته: ٢٣ نوعًا من مختلف الأشجار منها ٧٣ شجرة جميز و٣١ شجرة برساء و٧٠ شجرة نخيل بلح و١٢٠ شجرة دوم و٥ أشجار تين و١٢ كرمة معرشة و٥ أشجار فواكه و١٦ شجرة أرغفة(؟) و٥ أشجار عُناب و٣ أشجار نخيل بلح مذكر و١٠ أشجار إثل... وغيرها، - ومجموعها ٥٦ - ولم نتوصل إلى التحقق من أنواعها حتى الآن. يا لها من أملاك رائعة مخصصة لصاحبها فى رقدته الأبدية.

إن السلطة التى كان يتمتع بها إينيني وانشغاله بأن يحيا حياة عادلة وهادئة، وهى المثل الأعلى الذى كان يتطلع إليه كل مصرى فى هذه الدنيا، قد تركا أثرًا عميقًا فى وجوده. إنه يستخلص من تجارب حياته درسًا ما زال يحرك مشاعرنا:

إنى أتحدث إليكم أيها الرجال، انصتوا إلىّ وافعلوا الخير الذى فعلته أنا شخصيًا، وتصرّفوا على النحو ذاته. لقد قضيت زمن حياتى فى سلام، دون حدوث مكروه. لقد مرّت أيامى والسرور فى قلبى. لم ينتبانى أبدًا شعور بالعداوة، لم أُشهِّر أبدًا بأحد، لم أرتكب الشرّ أبدًا، لم أسلك سلوكًا مؤذيًا . كنت أقْوى الجميع، ولم تصدر أبدًا من جانبى غلطة أو هفوة. كنت رجلاً صاحب قلب نافع لسيده فلا يعرف الكلل. كنت رجلاً يُنصت إلى ما يقوله رئيسه. لم أكن أعارض الكبراء القائمين فى القصر الملكى. كما انجزت ما كان يرجوه إله مدينتى، وأخلو من أحاديث التجديف فى حق الأمور الإلهية. فمن قضى سنوات حياته وهو رجل يمتدحه الجميع سيظل بإزه حيًا بجوار سيد الكون ويبقى حسن السمعة فى فم الناس. وتنسب ذكراه وفاعليته إلى

(*) مازلنا نطلق أحيانًا هذا اللقب على الزوجة. (المترجم)

الزمن اللانهائى. الكاتب إنيني، الصادق القول، الرجل المبجَّل، الأمير، المشرف العام على شونة غلال آمون المزدوجة[٩٣].

إنه رجل عدل وسلام، ينأى بنفسه بعيداً عن دسائس القصر، رجل ما زال الكرنك يحتفظ ببصمته ويخلد ذكراه إلى الأبد[٩٤].

كما تظهر صورة أخرى لأحد رجال البلاط، الملازمين للسيدات العظيمات فى بلاط طيبة. ويكاد يكون من أصحاب الحظوة فى حريم الملكة عع حوتپ (الثانية)، زوجة أمنحوتپ الأول[٩٥] الذى عاش كارس فى عهده. كان حاجب الملكة، والمسئول أيضاً عن المالية إلى جوار العاهل الملكى. وعلى لوح حجرى جاء من دراع أبوالنجا، يقدم وصفاً لصدق وفاء خدماته «الحميمة» وما ناله من الملكة من إنعامات مكافأةً له: وتحديداً إقامة مقبرته فى أبيدوس بجوار مقبرة أوزيريس التذكارية(*). هل كان رجل دسائس أم رجل بلاط؟ من الصعب إعطاء جواب شافٍ بعد انقضاء كل هذه السنوات. ويظل النص الآتى يغالب الأيام:

اليوم الأول، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام العاشر، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: جسر كا رع، ابن رع: أمنحوتپ، المنتسب إلى جسده ومحبوب أوزيريس، له الحياة.

أمر صادر من الأم الملكية إلى الحاجب كارس، النبيل والأمير وخازن ملك مصر السفلى والصديق الأوحد والمشرف العام على بيتى الذهب والمشرف العام على بيتى الفضة والمشرف العام على أملاك الأم الملكية عع حوتپ، فلتحىَ. لقد أمرت الأم الملكية أن تشيد من أجلك مقبرة على مقربة من سلَّم الإله العظيم رب أبيدوس[٩٦]، *مع الإبقاء على كافة مناصبك فضلاً عن الإنعامات التى حظيت بها. سوف توضع تماثيلك فى المعبد ضمن حاشية الإله العظيم. وسوف تخصص لها قرابين طاهرة*[٩٧]، *ويصبح خبزها عظيم النفع ويتحدد عدده كتابةً... وفيما بعد، سوف تكرس من أجلك قرابين*

(*) المعروفة بالأوزيريون. (المترجم)

جنائزية، وهو ما تفعله الزوجة الملكية من أجل من تحبه. من أجل الحاجب **كارس**، *النبيل والأمير وخازن ملك مصر السفلى والمشرف العام على الأملاك.*

إنه الأوحد المتفرد، إنه رجل ثقة يتحد مع جسد الإلهة **سخمت** *ويصاحب سيدته في كافة ما تتخذه من إجراءات. إنه كاتم أسرار من تتولى أمر الشعب، إنه ابنها الروحى الحقيقى، ومن تدور معه أحاديث سرية ويعرف مقاصد سيدته ويبلّغ القصر الملكى بجميع الأمور ويجد الحلول ويقلل من وطأة المشاكل. وتنهض سيدته عند سماع صوته. إنه القريب من الحقيقة – العدالة، ومن يعرف ما يخصّ القلب ومن يعود حديثه بالنفع على سيدته. عظيم هو الخوف الذى يشيعه فى بيت الأم الملكية. إنه رجل له وزنه فيما يقوم من أعمال ولكلماته تأثيرها الخيّر. إنه صاحب الوجود الغامض السرّى عند تصريف أمور القصر، والرجل ذو الفم المختوم فيما يسمعه من أحاديث، ورجل البلاط «حلاّل العقد»(*)، والمشرف العام على الأملاك– إنه* **كارس** *القائد القوى اليقظ فى خدمة الأم الملكية، لا فرق عنده بين الليل والنهار، إنه الحاجب* **كارس**[٩٨].

إنه رجل غامض. ويبدو أن تأثيره كان عظيماً وإن كنا نجهل أصوله.

إن رئيس النحاتين **چحوتى** وموطنه الأصلى **هيراكنپوليس** إلى الجنوب من طيبة وكان كبير الحرفيين فى عهد **تحوتمس** الأول، أمر بنحت إعلان مبادئ أخلاقية وتقرير عن أنشطته المألوفة على لوح حجرى فى مقبرته. إننا أمام شكل آخر من أشكال هذا الجهاد الأكبر الذى تخوضه الكلمات ضد الموت الذى يتهيأ له **چحوتى** فى صفاء وهدوء، بكل ما أوتى من نشاط:

رئيس النحاتين الذى أثنى عليه إلهه منذ طفولته المبكرة والذى رقّاه الملك. إنه يقظ فيما ينجزه من أعمال. كان رجلاً بصير القلب(**)، عند القيام بأعماله جالبة الخير. ويُنطق باسمه نظراً إلى طابعه (البشوش). لم يرتكب خطأً واحداً فى حق سيده. ولم تخرج من فمه أبداً كلمة سوء. إن قلبه عادل وسط كبار السادة.

(*) هكذا فى الأصل، كما نقول فى أحاديثنا، فى الوقت الراهن. (المترجم)

(**) عكس أعمى القلب. (المترجم)

لقد أنجزت كل ما يرجوه البشر وما تمتدحه الآلهة، على الدوام. وهكذا فليتها تُمكّن داري، دار الأبدية، أن تظل راسخة وتزدهر سمعتي في فم سواد الناس، بعد انقضاء السنوات وبعد أن يوقنوا من بقاء انجزاتي. لقد صَنَعتُ لنفسي مكانًا للمتعة، إنه هذا المسكن في الجبانة. لقد عمل الرجال من أجلي كما كانوا يبتغون. ولم يوجد قط وجه حزين طوال فترة العمل. كنت أخرج من بيتي مبحرًا في اتجاه الحقول التي آلت إليّ عن طريق الميراث. وبمحراثي الذي يجره عجلان، أحرث الأراضي الواقعة على مقربة من مقبرتي في الجبانة وأزرعها بنفسي. إن إلهي هو الذي خصّني بها، لأنني أنجزت ما كان كاؤه لا يتوقف عن مدحه والثناء عليه. وأعطاني الشاهد على ذلك بجوار الجبانة التي ما زالت عامرة مزدهرة وعلى الدوام.

كما كنت أحظى بإنعامات سيد القطرين. لقد أُتيح لي أن أكون في قلب البشر، إذ كان الحب الذي يَكُنّه الناس لذاتي، على مقربة من إلهي. لقد صنع ما صنع، نظرًا إلى امتياز طباعي وفائدة نصائحي، ولن يجد كائن من كان، خطأً واحدًا ارتكبته ضد البشر ولم أسرق أملاك أحد.

ثم يصل إلى فكرة تلاحقه وتشغل باله، وهي النداء إلى الأحياء الذين يدعوهم إلى التعهد بالحفاظ على حياة چحوتي بأن يقوموا بتلاوة صيغة القرابين فلا يتركون قواه الحيوية تضمحل وتفنى.

أيا جميع الكهنة ذوي الأيدي الطاهرة، أيا جميع الكهنة المرتلين، أيا جميع الكتبة، أيا جميع البشر، يا أيها الأحياء الذين ما زلتم على سطح الأرض، سوف تعبرون أمام هذه المقبرة، سوف تمتدحكم آلهة مدنكم على مر الزمان ما دمتم في الدنيا، سوف تعيدون «الاخضرار» إلى وظائفكم لصالح أبنائكم بقدر ما ستقولون، عندما تتوقفون أمام هذا اللوح الحجري: قربان يقدمه الملك من أجل كا الأوزيريس چحوتي، الصادق القول، أمام الإله العظيم، إنه الرجل المبجّل رئيس النحاتين. تفوّهوا إذن باسمي وسوف يكون ذلك مفيدًا لكم. لقد وسّعت الطريق المؤدي إلى موائد قرابيني بمقدار ٢١ ذراعًا(٩٩).

يُظهر هذا النص بوضوح أن المقبرة كانت مكان عيد ومتعة أبدية، يستغرق

تجهيزها جانبًا كبيرًا من حياة المرء، إنها المكان السحرى لاستعادة حياة الرجال وتجديدها، شريطة أن يعاونهم الذين ما زالوا يعيشون على سطح الأرض.

كما شغل **چحوتى** نفسه باهتمامات ذهنية. إن مدونة فى مقبرته تحدد، بعد ديباجة المقدمة المألوفة، أن العطايا المطلوبة تخص القلب والروح:

*قربان يقدمه الملك إلى حورس ميراكنپوليس... حتى تُعطى الفطنة والذكاء والمديح والحب والحكمة وكل ما هو من صميم كا رئيس النحاتين **چحوتى**، الصادق القول*(١٠٠).

٣- المعابد والآلهة

مع الفتوحات تطورت معابد الآلهة وازداد ثراؤها. فقد عاد الجيش المنتصر من **إفريقيا** و**آسيا** ومعه غنائم لا حصر لها وأيدى عاملة سهلة من أسرى الحرب. وتعاظمت أعداد المبانى والمنشآت. وإذ أراد فراعنة العصر الإمبراطورى الإعتراف بجميل الآلهة وعلى رأسها الإله آمون وشكرها على تسديد خطاهم، صاروا من كبار بناة «**القصور الإلهية**».

وفى **الكرنك** على وجه الخصوص اتسعت المنطقة المقدسة المخصصة للإله آمون - رع.

إن **أمنحوتپ الأول**، بمساعدة مدير أعماله الإنشائية **إينينى**، وبالإضافة إلى مقصورة الألبستر التى سبق ذكرها(١٠١) والمخصصة لاستراحة المركب المقدس، شيد بابًا كبيرًا من الحجر الجيرى جنوب معبد آمون، وقد عثر على جزء منه فى أساسات معبد **تحوتمس الثالث** الواقع بين الصرحين السابع والثامن على محور **الكرنك** الشمالى الجنوبى. يقول النص التكريسى:

*لقد شيّد أثرًا من أجل أبيه آمون، فأقام بابًا كبيرًا يبلغ ارتفاعه عشرين ذراعًا (١٠,٤٠أمتار)، إلى جوار بابى المعبد، وهو من الحجر الجيرى الأبيض الجميل الوارد من طرة. هكذا يفعل **أمنحوتپ** بن رع*(١٠٢).

وفي عهد تحوتمس الأول تطور الكرنك إلى حد كبير وزادت مساحته في اتجاه المحور الغربي الشرقي، وأمام المعبد الأصلي الذي بناه ملوك الأسرة الثانية عشرة. وشيّد إينيني سوراً جديداً يلتف حول مجموعة العناصر المقدسة للإله آمون التي كانت قائمة آنذاك. وعلى اثنين من جوانبه أقام فناءً داخليًا تكتنفه الصفات، يتكون من أعمدة من الحجر الرملي متعددة الأضلاع ذات ستة عشر وجهًا. وأقيمت تماثيل أوزيرية عملاقة تمثل الملك. كما شُيد صرحان جديدان كمدخل وهما الخامس والرابع حاليا. كان لا يوجد حتى الآن سوى صرح واحد هو السادس في الوقت الراهن. وفي الواقع فإننا نرقم الصروح طبقًا للمحور الغربي الشرقي، بادئين من نهر النيل، أي أننا نبدأ من الأحدث. وهكذا أصبح الصرح الرابع يشكل مدخل المعبد. كان طوله ١٣ مترا وعرضه ٤ أمتار. إن أبراج الصرحين مهدمة في الوقت الراهن إلى حد كبير ويفترض أنها كانت قائمة فوق قاعدة من الحجر الرملي ومكسوة بحجر جيري ناعم من طرة. وقد ثُبتت عند واجهاتها سَوارٍ عالية ترفرف في أعلاها الرايات لتشير من بعيد إلى وجود المعبد المقدس، كما أقيمت أمامها المسلات. وخلف الصرح الخامس شُيِّد بهو أساطين يتكوّن من خمسة أساطين من خشب الأرز.

ويوفر لنا إينيني في سيرة حياته بعض التفاصيل حول هذه الأعمال:

تفقدت المباني الشامخة التي أقامها (الملك) في الكرنك، وشَيّدت قاعة عظيمة ذات أساطين، كما شَيّدت بجوارها صروحًا ضخمة من الحجر الجيري الأبيض الجميل الوارد من طرة، كما أقمت السواري المقدسة بجوار الباب المزدوج الضخم للمعبد وكانت سوارٍ من خشب الأرز ومن أفضل ما انتجته لبنان، وطرفها العلوي من الذهب الخالص... كما تفقدت الباب الكبير أثناء تشييده (واسمه) «قوية- هي- هيبة- آمون». إن مصراعه الرئيسي من نحاس آسيا. وظلّ الله عليه (أي على الباب) وكان مشغولاً بالذهب. كما تفقدت مسلّتَيْ المعبد السامقتين أثناء إقامتهما وهما من الجرانيت، وقد اقيمتا أمام الباب المزدوج الضخم للمعبد. كما تفقدت المركب المقدس أثناء تسوية خشبه وصنعه وكان يبلغ ١٢٠ ذراعًا طولاً و٤٠ذراعًا عرضًا، وقد خصّص لنقل هاتين المسلتين. فوصلتا سالمتين إلى أرض الكرنك[١٠٢].

هاتان المسلتان وهما من الجرانيت الوردى وطرفهما المدبب مغطى بالذهب الخالص، أقيمتا أمام الصرح الرابع وكان يشكل آنذاك مدخل المعبد، وذلك بمناسبة العيد اليوبيلى للملك، وهو ما تؤكده المدونات التى يمكن قراءتها على الواجهتين الغربية والجنوبية من هذا الأثر:

- الواجهة الغربية: *لقد صَنع أثرًا من أجل أبيه آمون القائم على رأس القطرين. لقد أقام مسلتين باسقتين بجوار بابى المعبد وكان مُرَيَّماهما من الذهب الخالص.*
- الواجهة الجنوبية: *إن سيد الآلهة قد قَدّس من أجله العيد اليوبيلى على الشجرة إيشد*(*)(١٠٤).

ومن حقنا أن نتساءل عن الوسائل التقنية التى كان يستخدمها المصريون لنقل هذه المسلات الضخمة المنحوتة من كتلة حجر واحدة. سوف نروى فى هذا المقام أقوال هنرى شيڤرييه Henri Chevrier الذى ظل لفترة طويلة مدير الأعمال فى معبد الكرنك، وكما نقلها إلينا كلود ترونيكر C.Traunecker وچان- كلود جولڤان J.C.Golvin(١٠٥): «فى عصرنا، حيث تتحول كل صغيرة وكبيرة إلى أرقام حسابية وتتحول إلى معادلات أو رسومات بيانية أو يبتلعها الحاسوب الإلكترونى، من الجدير ملاحظة أن المصريين كانوا يجهلون كل هذه الأدوات المساعدة، ورغم ذلك استطاعوا أن يصنعوا العجائب... واسمحوا لى فى هذا الصدد أن أروى طُرفة أؤكد أنا شخصياً على صدقها. ففى عام ١٩٣٣، كنت قد شرعت آنذاك فى إقامة صقالة حول الأسطون الأيسر من الباب الشمالى للفناء الكبير. فتوقفت فى الأقصر لجنة من المهندسين المتجهين إلى أسوان لكهربة الخزان، وكان الوحيد الموجود آنذاك(**). وجاءوا لزيارة الكرنك وكما تعودت أن أفعله مع الكثير أصبحت مرشدهم السياحى. وعندما شاهدوا ما أقوم به من عمل سألنى أحدهم: «ماذا تفعل هنا؟» فأجبته قائلاً: «كما ترى فإن هذا الأسطون مائل وأريد تصحيح وضعه». ونظر كل واحد منهم إلى الآخر ثم سأل أحدهم: «من أى مدرسة تخرجت؟» فقلت: «من الفنون الجميلة». وكان من الواضح أنهم لم يقتنعوا أننى

(*) شجرة مقدسة. (المترجم)

(**) أى قبل بناء السد العالى. (المترجم)

اخترت الحل السليم. هذا ما حدث. وعند عودتهم من أسوان بعد انقضاء عشرة أيام جاءوا لمقابلتي: كانت الصقالة قد رفعت والأسطون مستقيم، بعد أن اتخذ وضعًا عموديًا واستعاد توازنه. فقال أحدهم: «ولكن ماذا فعلت لتصل إلى هذه النتيجة؟ إذ لا يمكن حساب ذلك». فإذا كان من المستحيل حساب ذلك، فلا يمكن إبتكاره! ولم أجد أن الإجابة ضرورية. ولكن سرت معهم لمسافة قصيرة حتى وصلنا إلى مسلة الملكة(*) وقلت لهم وأنا أشير إلى هذا الأثر الشامخ: «الإرتفاع: ٣٠,٨٠ مترًا والوزن ٨٠٠طن. ماذا فعل سن موت الذي لم يكن خريج مدرسة الفنون الجميلة؟» إن مهندسينا يتجاهلون بل ويهملون قيمة التجريب. فبالتجربة التي اعتمدت عليها استطعت أن أقوّم وضع هذا الأسطون ومقابله الأيمن. وهكذا انجزت العديد من الأعمال الأخرى.... كان المصريون لا يعرفون سوى وسيلة واحدة لمضاعفة القوى، وهي الرافعة. كانوا يجهلون الرّحَوِيّة(**) cabestan البسيطة والبكرات واستخداماتها المتعددة، في هيئة مجموعة بكرات صغيرة... أما الأسلوب الذي كان مستخدمًا في مصر على نطاق واسع فهو المزلقة المصنوعة من طمي النيل، فتشكل مسطحًا مائلاً ميلاً طفيفًا الغرض منه نقل الأثقال. كان الحجر الأحادي الكتلة يوضع فوق زلاقة متينة مصنوعة من الخشب، ثم تبلل التربة الواقعة مباشرة أمام الزلاقة حتى تنساب بسهولة أكبر فوق التربة المبللة. «إن مُعامل إحتكاك الطمي، الرصراص إلى حد كبير، بسطحه المبلل يعادل صفراً تقريبيًا». ويضيف شيڤرييه بأسلوب يميل إلى الخبث: «ربما استخدم من جانبي لغة لم يألفها علماء الآثار، فأطلب منهم المعذرة. ولكن لابد أن أقر أنني فوجئت إلى حدّ ما عندما قرأت أن المصريين عندما كانوا يروون التربة أمام الزلاقات، كان هدفهم تجنب زيادة سخونة الخشب».

هكذا فإن المهندسين المعماريين في العصر الحديث المولعين بعلم المصريات، يستعيدون أساليب الأزمنة الغابرة، وإن كان أسلوبًا تجريبيًا، إلا أنه فعّال وناجع إلى

(*) وهي مسلة الملكة حتشبسوت القائمة بين الصرحين الرابع والخامس. (المترجم)

(**) لفظ أقره مجمع اللغة العربية بالقاهرة ويعني في الميكانيكا: آلة لرفع الأثقال أو جرّها تشبه اللفاف، ولكن أسطوانتها رأسية. المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة، ١٩٦٠.(المترجم)

حدّ كبير. ويكفى أن نشاهد مثال الكرنك. ولا تشكل الآلات بالضرورة تقدماً، ومع ذلك فلا تعتبر بالقطع علاجًا عالميًا للقضايا التقنية التى تصادف البشر. والدليل على ذلك الدرس الذى يقدّمه لنا المصريون.

إن الكرنك بعد أن تعاظمت مساحته وازدان بالذهب، ظهر كبير كهنة جديد هو با رن نفر ليخلف مين - مونتو ويقيم الطقوس الدينية. كانت مكانته لا تزال متواضعة نسبيًا، ولكن زمن كبار الأحبار بات قاب قوسين.

كما أصبحت أبيدوس، وهى مكان أوزيريس المقدس، موقعًا لكبرى أعمال التشييد. إن النص المنحوت على لوح من الحجر الرملى الذى عثر عليه فى أبيدوس ذاتها، ومن مقتنيات متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يعطينا فكرة دقيقة إلى حدّ ما، عن ضخامة الأعمال التى انجزها تحوتمس الأول ومدى وفرة الثروات الإلهية. ويظل الملوك والآلهة متحدين فى تبادل الخدمات تبادلاً مقدسًا، ليجلب الخير لكل منهما.

القسم العلوى من الأثر مهشم تهشيمًا بالغًا. ويفترض أن تحوتمس الأول قد خصص مطلع النص ليستعرض أمام الكهنة المجتمعين الأعمال التى كان يُزمع تنفيذها فى معبد أوزيريس. ويبدأ نصنا برد الكهنة:

...كم هو ممتع فى قلب البشر! كم هو جميل فى نظر الآلهة! إنك تشيّد أثرًا من أجل أوزيريس، وتجلب البهاء إلى أول أهل الغرب، إلى الإله العظيم، (إله) المرة الأولى الذى حوّل أتوم عرشه إلى عرش مرموق وعظّمه ومجدّه أمام أولاده. فمن أجله عمل الملوك منذ تأسيس هذا البلد. فمن أجله وُلِدْت، لقد أنجبك فى استقامة قلبه لاتمام ما خلقه فى هذا البلد وترميم مقاصير الآلهة وجعل معابدها تغالب الأيام. فإليك يعود الذهب، والفضة ملكك، ومن أجلك فتح الإله جب ما بداخله(١٠٦)، وقدم لك تاتنن(١٠٧) ثرواته. إن البلاد الأجنبية بأسرها تعمل من أجلك ومجموع الأراضى المصرية تحت

إشـرافك، والأحـجـار الكريمة من مـخـتلف الأنواع تُرصّع قـصـرك. ومن هم ضـمن حاشيتك لا يحتاجون شيئًا. واقضِ بما لابدّ أن يحدث. ومُرّ بما ينبغي عمله. فما يتوق إليه كاؤك، سوف يحدث.

عندئذ يُصدر صاحب الجلاله أمره إلى الخازن (قائلاً): «باشر الأعمال، بحيث تأتي... بأذكى خُدّام المعبد أجمعين ونخبة كهنة الساعة من الذين على دراية بفن الإدارة، على أن يكون علمهم حكمة وإدراكًا رشيدًا، ولا يخالفون الأوامر الصادرة إليهم. شيّد مبنىً من أجل أبي أوزيريس وأسس مقامه للزمن الأبدي، واجعل الأشياء الأكثر استغلاقًا جالبةً للخير. ولكن تصرف بحيث يستحيل رؤية جسده أو مشاهدته أو التعرف عليه. وابنِ أيضًا من أجله مركبًا يُحمل على الأكتاف، وهو من الفضة والذهب واللازورد والنحاس الأسود ومن سائر أنواع الأحجار الكريمة».

لقد سبق أن وهبته أعدادًا كبيرة من موائد القرابين والصلصلات والقلائد مئات والمباخر والكؤوس. هكذا لن استرد القرابين التي اقدمها له، كما أنها لن تتوقف أبدًا. ومن أجله أيضًا صنعت مركبه المقدس نشمت، من خشب الأرز، ومن أفضل ما انتجته لبنان. إن قيدامه وكوثله من الذهب الخالص. إنه يُدخل الفرح والسرور على الأمواه (ذاتها) عندما يبحر الإله على متنه إبان عيد بلدة بيكر[١٠٨].

كما أمر جلالتي بأن تشكل له تماثيل للمجمع الإلهي العظيم القائم في أبيدوس. وهكذا سُمّيَ كل إله من آلهته باسمه:

خنوم، رب حر ور[١٠٩]، الأبيد وسي.

خنوم، رب الجندل، الأبيد وسي.

تحوت، أكثر الآلهة قدرة والقائم على رأس حسيرت[١١٠].

حورس القائم على رأس ليتوبوليس(*).

حورس المنتقم لأبيه.

واپ - واوات الجنوب.

(*) التصحيف اليوناني لمدينة خم المصرية وأوسيم حاليًا. (المترجم)

واپ - واوات الشمال[111].

كانت أجسادها الرائعة تكتنفها الأسرار. (وموضوعة) على حوامل من الذهب الخالص. كانت صنعتها أفضل من تلك التي وجدت من قبل وأروع من التي توجد في السماء. كانت أكثر استغلاقًا من الوضع القائم في الدوات. كانت جديرة بمزيد من الإحترام مقارنة بالآلهة (الأولية) الساكنة في نون.

صَنع جلالتي كل ذلك من أجل والدي أوزيريس، من شدة حبي له، وأكثر من سائر الآلهة. ومن ثم، سيبقى اسمي، ويدوم عملي، في منزل أبي أوزيريس، أول أهل الغرب، ورب أبيدوس، للزمن الأبدي وللزمن النهائي.

استمعوا إليّ إذن، أيها الآباء الإلهيون لهذا المعبد، أيها الكهنة ذوو الأيدي الطاهرة، أيها الكهنة المرتلون... وأنتم يا جميع كهنة الساعة[112] في هذا المكان المقدس، قدموا القرابين من أجل مقبرتي، موّنوا مائدة قرابيني، اعملوا على تخليد العمل العظيم الذي قام به صاحب الجلالة، انطقوا اسمي، استعيدوا في ذاكرتكم مجموعة ألقابي، مجّدوا صورتي، ويجّلوا تمثال جلالتي وضعوا اسمي في فم خدامكم وذكراي بجوار أولاد أولادكم- لأنني ملك قدير بسبب ما فعله، إنه أكثر الجميع بسالة، وسوف يتذكر الجميع اسمة في «مقابل» ما حققه في هذا البلد، أكثر بكثير مما تعرفونه. هذه الأقول لا تنطوي على إفك أو مغالاة.

لقد شيدت المباني من أجل الآلهة، وجعلت معابدها رائعة، من أجل المستقبل، وشكّلت معابدها على أحسن وجه، لقد رممت منها ما كان مهدمًا، لقد تفوقت على كل ما صنع من قبلي. وتصرفت بحيث يعرف الكهنة ذوو الأيدي الطاهرة واجباتهم والمطلوب منهم. وأرشدت الجاهل إلى ما كان لا يعرفه. لقد حققت أكثر بكثير مما فعله الملوك الآخرون الذين سبقوني. إن آلهة زمني قد غمرها السرور ومعابدها تهلل فرحًا.

لقد رسمت حدود البلد المحبوب لتصل إلى حدود ما تحيط به الشمس. لقد زدت الرازحين تحت وطأة الخوف قوةً، لأنني طردت الشر بعيدًا عنهم. لقد جعلت مصر الأولى و(أبناء) الأرض قاطبة خُدّامها.

لا تؤبّوا فقط المديح والثناء للإله آمون(١١٣).

يكشف هذا النص بكل وضــوح عن كـبـرياء الفـاتحين الأوائل وشــمــوخ الإمبراطورية التى كان تحوتمس الأول مؤسسها ومدشن شكل جديد من أشكال الفكر السياسى، سوف يصل إلى أوْجه فيما بعد فى عصر الرعامسة.

كما أقيمت غيرها من «قصور الآلهة» فى ربوع البلاد تمجيداً للآلهة المحلية، بعيداً عن الموقعين الكبيرين فى الكرنك وأبيدوس. وفى مدينة هابو على البر الغربى لمدينة طيبة بدأ أمنحوتپ الأول تشييد معبد، واصل العمل فيه تحوتمس الأول، ثم قام تحوتمس الثانى بتوسيعه على نطاق كبير. إنه مبنىً تحيط به الأعمدة وقدس الأقداس فى هيئة «سيلاّ»(*) cella. كان الرواق يتكون من جدار منخفض، يسمح لضوء الشمس بالدخول من خلال فتحات عريضة. وسيتولى الملوك الكوشيون والبطالسة استكمال وتوسيع ما بدأه ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل. إن السور الأصلى سوف يضمه السور الكبير للمعبد الجنائزى للملك رعمسيس الثالث(**).

٤- المقابر والشعائر الجنائزية:

وادى الملوك

عند إعداد مقبرته دشّن أمنحوتپ الأول موقع جبل طيبة. وفى عام ١٨٨١ تم الكشف عن مومياء أمنحوتپ الأول فى «خبيئة» الدير البحرى. كان طولها ١٦٥سم. كما دثرت بالكامل بنسيج برتقالى اللون، مثبت بقطع عادية من النسيج، وكان قناعه الجنائزى من الخشب والورق المقوى الملون. كانت المومياء مغطاة من قمة رأسها إلى أخمص قدميها بأكاليل من الزهور الزرقاء والصفراء والحمراء. وقد تعرّف عليها عالم

(*) وهى الهيئة التى يتخذها قدس الأقداس عند الإغريق والرومان. (المترجم)

(**) الذى يطلق عليه اصطلاحاً فى الوقت الراهن معبد مدينة هابو. (المترجم)

النباتات شڤينفورث Schweinfurth واسماؤها العلمية هي Sesbania aegyptiaca(*) وAccacia nilotica(**) وCarmanthus tinctorius(***) وDelphinium orientale. يا لها من أبهة نباتية فخمة تعبيراً عن تجديد الحياة بألوان السماء والشمس ودماء الحياة. وقد عثر على زنبور عمره ثلاثة آلاف وخمسمائة سنة في التابوت المصنوع من خشب الأرز. لقد جذبته رائحة الزهور وظل محبوساً بعد إطباق غطاء التابوت الثقيل ليطنّ دون شك لفترة طويلة قبل أن يصبح آخر رفاق العاهل الملكي في أبديته.

وفي عام ١٨٩٦ و١٨٩٨ كشف سپيجلبرج Spiegelberg ونيوبيري Newberry عن معلمين أثريين متجاورين في منطقة دراع أبو النجا. أحدهما وهو الشمالي يخص الملكة أحمس- نفرتاري أما الآخر وهو الجنوبي فكان المعبد الجنائزي لابنها أمنحوتپ الأول، والذي شيده إينيني النشط المثابر باستخدام مواد نفيسة: «*لقد أقيمت الأبواب من النحاس المصنوع من قطعة واحدة وكانت تماثيله من الذهب الخالص*[١١٤]». من المحتمل أن الملك قد اختار أيضاً الدير البحري، في مكان يقع تحديداً عند الشرفة الوسطى من معبد حتشپسوت ليقيم قبراً تذكارياً أو بدأ في إقامة قبره قبل أن يعدل عن هذا المشروع[١١٥].

وبالفعل فإن مقبرة الملك الحقيقية قد حفرت في صخر الجبل الغربي وفي دراع أبو النجا أيضاً. وقد كشف عنها اللورد كارناڤون Carnavon عام ١٩١٤. ومنذ ذلك الوقت، كان تخطيطها هو التخطيط الكلاسيكي ذاته الذي التزمت به المقابر الملكية في الأسرة الثامنة عشرة: فبدءاً من المدخل الذي تخفيه صخرة ضخمة يمتد دهليز طويل هابط مخترقاً صخر الجبل. وعند منتصف المسافة تكتنفه من على الجانبين حجرة وكوة، وينتهي بباب يطل على بئر شديدة العمق يصل إلى تسعة أمتار ويضيق عرض الدهليز تدريجياً كلما سرنا هابطين، لينتهي بقاعة أولى طولها ثلاثة عشر متراً ونصف تفضي إلى حجرتين لصرف أنظار اللصوص على ما يظن وتضليلهم، وكانت هذه الظاهرة موجودة في أهرام الأسرة الرابعة. كانت صخرة ضخمة تسد الباب

(*) وهي زهرة السسبان. (المترجم)

(**) وهي زهرة السنط. (المترجم)

(***) وهي زهرة القرطم. (المترجم)

الموجود بين قاع البئر والقاعة الأولى، وبعد ذلك ننتقل إلى قاعة ثانية طولها سبعة أمتار ونصف تقودنا مباشرة إلى حجرة الدفن المستطيلة الشكل ذات الأبعاد الشاسعة، إذ يبلغ طولها ١٢,٢٠ متراً. أما السقف فتحمله أربعة أعمدة مربعة. إن مجمل هذا المسار انطلاقاً من مستوى الأرض عند مدخل المقبرة، كان يتطلب من المرء أن يسير على مهل على امتداد اثنين وستين متراً تقريباً(١١٦). كانت هذه المقبرة المنقورة في الصخر لا تزال سالمة في عهد رعمسيس التاسع، أي بعد مرور خمسة قرون، وهو ما تؤكده بردية أبوت Abbott، ولكن تم الاعتداء عليها فيما بعد ونهبها وسلبها.

واعتباراً من تحوتمس الأول تبدل التنسيق العام للمجموعة الجنائزية. فبعد أن كانت المعابد الجنائزية والمقابر متجاورة في المجموعة الهرمية، انفصلت عن بعضها وفقاً للموقع الجديد المستخدم. فمن الآن فصاعداً سوف تشيد المعابد عند الحدود الفاصلة بين الأرض الزراعية والصحراء الغربية. وسوف يكون تصميمها عبارة عن «قصور» للآلهة والملوك الذين تقام لهم معاً الشعائر الدينية. وتطلق عليها النصوص المصرية اسم قصور ملايين السنين. إن رسمها التخطيطي ورموزها مشابهة لمثيلاتها في المعابد الإلهية: كان صرح المدخل يتقدم فناءً كبيراً تكتنفه أحياناً الصُفّات ويليه بهو أساطين واحد أو أكثر وعدة حجرات ملحقة ثم قدس الأقداس. كانت طقوس الخدمة اليومية متماثلة. أما المقبرة الملكية الصخرية فهي منفصلة عن المعبد وكانت تنقر في سفح الجبل الغربي الذي يصل إليه المرء عبر وادٍ جفت مياهه ووسط مشهد طبيعي من الجبال الصخرية والصحاري القاحلة. وربما وقع الإختيار على هذا الموقع لأنه مكان منعزل وموحش. وأطلق عليه العرب اسم بيبان الملوك وأسميناه نحن الغربيون وادي الملوك. وبعد تحوتمس الأول سوف يدفن فيه ثمانية وخمسون من ملوك الإمبراطورية وهم جميع الفاتحين العظام الذين صنعوا مجد مصر وضمنوا ثراءها وازدهارها.

كان تحوتمس الأول ملكاً مبدعاً في مختلف المجالات. هل كان إينيني وراء اختيار هذا الموقع المنعزل؟ وعلى كل حال فقد كان هنا أيضاً مدير أعمال الملك وأشغاله وكاتم أسراره.

لقد تفقدت أعمال الحفر (التى تتم من أجل) المقبرة الصخرية لصاحب الجلالة. لم يكن فى وسع أحد أن يرى، ولم يكن فى وسع أحد أن يسمع. كنت أسعى إلى عمل كل ما قد يكون مفيداً، إذ كان رأسى يقظًا ومنتبهًا[١١٧].

ولكن كل هذه الثروات الى تحتفظ بها هذه المقابر الفسيحة، لم يكن من المنتظر ألاّ تشدّ إليها أطماع البشر وجشعهم.

نشأت آنذاك عبادة خاصة فى جبانة طيبة وتحديداً فى قرية العمال الجديدة بدير المدينة: وهى عبادة أمنحوتپ الأول الذى كان كما عرفنا أول من افتتح موقع طيبة على البر الغربى وأسس كما هو واضح النقابة الطائفية لعمال الجبانة الملكية التى يطلق عليها اصطلاحاً «خُدّام مكان الحق». ومن المحتمل أن هذا هو السبب الذى حمل العمال من قلاّعى الأحجار وقاطعيها ومن نحاتين ونجارين ورسامين – حملهم على النظر إلى أمنحوتپ الأول بصفته إله المنطقة وقديسهم «الحامى الراعى». كانت هذه العبادات متنوعة، وأصبحت عدة تماثيل للملك محل تبجيل وإجلال، وربما كانت قد نقلت من معبد الكرنك إلى البرّ الآخر: كانت التماثيل تُعرف بأسماء مثل «أمنحوتپ البلاط» و«أمنحوتپ الحديقة» و«أمنحوتپ المبحر على سطح الماء». وكلها صور قد تكون جاءت من أحد أفنية الكرنك أو إحدى حدائقه وكانت من أخفها وزنًا بحيث تستطيع بالفعل أن تبحر على صفحة نهر النيل أيام الأعياد. كما نجد أيضًا «أمنحوتپ رب المدينة» – وربما كانت دير المدينة هى المقصودة. وقد ورد هذا الاسم مراراً وتكراراً على الأوستراكا(*) التى عثر عليها فى قرية العمال. ومن الراجح أيضًا إقامة معبد مخصص للملك أمنحوتپ الأول، بصفته راعيًا وحاميًا مبجلاً ولكن بصفته المستشار الناصح أيضًا. كان يستشار فى هذا المكان فى كل صغيرة وكبيرة من شئون الحياة اليومية. كان العمال يلجؤون إليه لحل نزاعاتهم البسيطة وخصوماتهم. وكان أمنحوتپ الأول مشاركًا فى ممارسات العرافة[١١٨]. كان فى استطاعته أن يرشد إلى السارق فى حالات السرقة، إما بتحريك تمثاله أو بأن يتحدث أحد الكهنة باسمه، ومن ثم يمكن أن نقرأ الآتى على سطح أوستراكون القاهرة رقم ٢٥٢٤٢:

(*) جمع أوستراكون. (المترجم)

*في اليوم العشرين، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٢٩، قام العامل **خع إم واست** بابلاغ **أمنحوتپ**، بما يلى قائلاً: «تعال إلىّ، يا سيدى وقيِّم من أجلى الأعمال التى أنجزتها، من أجل العامل **قنّا بن روتى**، أقصد بذلك جانبًا من تابوت، كان خشبه ملكًا لى». وطأطأ الإله رأسه وقال مؤكدًا: «هذا يعادل ١٥، وسرير من خشب: ١٢، وأربعة قوائم سرير: ٣ **حقات**[119]، ومروحة: ٢ **حقات**... **غار**[120] من العلس: ٣حقات.. المجموع ٣١دبنًا ونصف[121] من النحاس[122].*

وبالعودة إلى ظهر **الأوستراكون**، يفهم أن **قنّا** كان قد دفع إلى **خع إم واست** ٢٤دبنًا من النحاس، مقابل بعض الأعمال، ولكن اعتبر هذا الأخير أن هذا المبلغ غير كافٍ، فالتمس تدخل **أمنحوتپ** الأول الذى قدّر مبلغ ٣١ **دبن** ونصف.

كان من إختصاص المحاكم العمالية أن تصدر أحكامًا فى الشئون المحلية البسيطة. ولكن كان من الممكن فى جميع الأحوال الأخذ بالحكم الصادر من **أمنحوتپ** الأول. وطبقًا للأيديولوچية الملكية فى **مصر**، وإذ كان الملك هو «**الراعى الصالح**» الذى يرعى شعبه ويحميه، كانت روابط حميمة تجمع العاهل الملكى ورعاياه من البشر حتى أدق تفاصيل مشاغلهم الحياتية.

كانت الأعياد الشعبية تصاحب هذه الطقوس الدينية التى تقام من أجل الصورة الملكية. فيشهد الوادى مواكب إحتفالية ضخمة تظهر أثناءها صورة العاهل الملكى وسط جموع الشعب التى تهلل فرحًا. كان حاملو الصورة المقدسة وكهنة الشعائر الدينية هم عمال **دير المدينة** الذين يتخذون عندئذ ألقاب الكهنة العظام ليصبحوا لفترة هذا العيد «*كهنة من أصحاب الأيدى الطاهرة*» و«*خدّام الإله*». كان البشر أمام الآلهة، سواء بسواء، لا فرق بينهم.

وقد عثر على وقائع الترتيبات الشعائرية الخاصة بعبادة **أمنحوتپ** الأول، على عدد من البرديات، نذكر منها بردية **شيستر بيتى Chester Beatty** رقم٩، من مقتنيات **المتحف البريطانى**، وهى نسخة حرّرت فى عصر **رعمسيس** الثانى. كما أن نصين مماثلين يعودان إلى العصر ذاته، يحتفظ بهما فى الوقت الراهن **متحف القاهرة** و**متحف تورينو**. وفضلاً عن ذلك فإن بعض النقوش التى نحتت فى عهد **سيتى** الأول

على الجدار الشرقى من بهو الأساطين فى معبد أمون الكبير، تقدم وصفًا لهذه الشعائر الملكية التى غالبت الأيام. وفى مدينة هابو أيضًا وتحديداً فى معبد رعمسيس الثالث الجنائزى، سُجّلت على الجدار الشمالى من الفناء الأول إشارة إلى هذه العبادة. وترتبط الفقرات الرئيسية بالترتيبات الخاصة بالقرابين وخدمتها(١٢٣).

وبعد عودة النظام الملكى إلى سابق عهده وتأسيس الإمبراطورية، شهدت مصر إزدهاراً جديداً. ومع تربع امرأة على عرش البلاد كادت هذه الإنجازات أن تتعرض للضياع. ولكن تحوتمس الثالث، وهو من أبرز التحامسة وأكثرهم تألقًا، كان يتحلى بسمات بطولية كقائد عسكرى وبفكر ثاقب كإدارى فطن، فاستطاع أن يستعيد عظمة الإمبراطورية ويدعمها.

الفصل الرابع

حتشپسوت، الملكة الغاصبة

١- غموض وراثة العرش داخل الأسرة الحاكمة

عند وفاة تحوتمس الثانى حول عام ١٥٠٤ق.م، ثارت بحدّة قضية وراثة العرش داخل الأسرة الحاكمة.

كانت الزوجة الملكية العظيمة حتشپسوت قد رُزقت من اقترانها بالعاهل الملكى الراحل بابنتين: الأولى هى الأميرة نفرو رع أى «*جمال رع*». وعندما كانت لا تزال فى سن الطفولة، وكما سبق أن ذكرنا، تولّى المعلم المربى أحمس - پن - نخبت تنشئتها، ليتمتع، على هذا النحو، فى نهاية حياته المهيبة بمنصب مرموق. ثم خلفه فى هذه الوظيفة، الأثير سنن موت[1]. أما الأميرة الثانية التى انجبها الزوجان الملكيان فهى مريت رع - حتشپسوت أى «*محبوبة رع، حتشپسوت*» المسماة حتشپسوت الثانية. ومع ذلك فقد أنجب تحوتمس الثانى ابنًا من الخادمة أست أى إيزيس، وأطلق عليه اسم تحوتمس الذى سيصبح فيما بعد، تحوتمس الثالث. ومن الواضح أنه سوف يتزوج الأميرة الشرعية مريت رع - حتشپسوت التى لن تقوم بدور ملحوظ فى التاريخ، وإن كنا لا نعرف على وجه التحديد تاريخ هذا الزواج. إن الخطوط العريضة لتعاقب وراثة العرش معروفة، ولكن لما كان الأمير لا يزال حديث السن، فقد اصطدم بطموحات زوجة أبيه.

إننا ندرك بوضوح إلتباس الموقف عند قراءة النص الوارد فى سياق حياة إينينى:

وحل مكانه ابنه، بصفته ملك القطرين. وحكم متربعًا على عرش هذا الذى انجبه. وأخته الزوجة الإلهية «حتشپسوت» كانت تدير شئون البلاد، وخضعت الأرضان لسلطانها. وعمل الجميع من أجلها وحنت مصر رأسها من أجلها، من أجل بذرة الإله النورانية. إنها قلْس(*) قيدام مصر العليا ووتد رسو أبناء الجنوب وقلْس كوثل مصر

(*) حبل غليظ من حبال السفن. (المترجم)

السفلى وسيدة الأوامر[٢]*. خيّرة هى مقاصدها والشاطآن راضيان عندما تتحدث*[٣].

أغلب الظن أن **حتشبسوت** قد تولت وصاية العرش عندما كان الأمير **تحوتمس** لا يزال حدثًا في سن الطفولة، الأمر الذى يفسّر أنها قامت بتصريف شئون البلاد. ولكن وصاية العرش سوف تتحول إلى مبرر فى خدمة طموحاتها الأخرى.

الملك المصطفى

عند تحليل النصوص الرسمية، يبدو من الواضح أن الأمير **تحوتمس** قد ظلّ لصغر سنه ملكًا بالاسم حتى العام الخامس (أو السادس؟)، بل ربما كانت **حتشبسوت** قد شاركت من قبل **تحوتمس** الثاني الحكم. وبالفعل فإن مدونة منقوشة على الصرح السابع من معبد **آمون - رع** فى **الكرنك**، تضع هذه الكلمات على لسان **تحوتمس** الثالث:

*لقد تصرّف أبى **أمون - رع** - حور أختى بحيث أتجلّى متألقًا على عرش حورس الأحياء. فأُدْخِلْتُ فى حضرته إلى المعبد وأُخبرت آنذاك بنبوّة مفادها أننى سوف اتسلّم حكم القطرين (واستحوذ) على عروش **جب** وعلى منصب **خپرى**، إلى جانب أبى، الإله الكامل **عا خپر إن رع**، ملك مصر العليا ومصر السفلى، له الحياة إلى أبد الآبار*[٤].

وفى زمن لاحق، وفى العام ٤٢ من عهده، أمر **تحوتمس** الثالث بنقش نص فى معبد **الكرنك** على الواجهة الخارجية من الجدار الجنوبى من حجرة قائمة جنوب قدس الأقداس. يوضح هذا النص ظروف اختياره من قبل **آمون**. ويبدو أن وقائع هذا المشهد قد حدثت فى حضرة **تحوتمس** الثانى:

*أنا ابنه (ابن **أمون**). لقد أمر بأن أبقى على عرشه بينما كنت لا أزال صغيراً فى عشّه. لقد انجبنى من بذرة شهوته.... كنت صبيًا فى معبد مدينته، بينما لم أكن قد فُتحت لى المغاليق حتى الآن بصفتى «خادم الإله»، بل كنت منذ ذلك الزمن قد*

اتخذت شكل وهيئة «عمود- أمه»(٥)، وأشبه الصبى حورس فى خمّيس. وذات يوم، بينما كنت واقفًا فى القسم الشمالى من القاعة الخضراء..(٦) كان آمون قد جعل السماء فى عيد بسبب جماله، فنال عجائب طائلة، فى حين كانت أشعته فى عيون البشر بصفتها تجليًا (للإله) حور آختى(٧). كان الشعب يغدق عليه المديح والتهليل... عندئذ أمر جلالته بأن يُحرق البخور من أجله، بينما كانت تقدم له فى الوقت ذاته قرابين طائلة من أبقار وعجول وصغار حيوانات الصحراء... كان (آمون) يقطع المسافة عند جانبى القاعة الخضراء، وكانت قلوب الذين أمامه(٨) لا تفهم معنى تصرفه، فى حين كان يبحث عن جلالتى فى كل مكان. وفجأة تعرّف علىّ، وتوقّف... فسجدت أمامه وانبطحت أرضًا وانحنى ساعداى فى حضرته. فأقامنى بعد ذلك أمام جلالته، بينما كنت واقفًا فى مكان الرب(٩). عندئذ حقق من أجلى العجائب... ففتح من أجلى أبواب السماء العليا، وأزاح من أجلى مصراعى الأفق. وارتفعت نحو السماء مثل صقر إلهى، وتأملت هيئته الخفية القائمة فى المنطقة العليا وعبدت جلالته(١٠)... وشاهدت صيرورات إله الأفقين على دروبه السرية فى السماء. لقد أقامنى رع ذاته. وارتقيت فى المدارج الرفيعة بفضل التيجان التى على رأسه وصلّه المتفرد مثبت على جبينه... ووُهبت كل تألقه وشَبَّبت على حكمة الآلهة وأخذت منها كفايتى وكأننى حورس الذى نشأ وترعرع فى بيت أبيه آمون- رع. وأخيرًا منحت بالكامل كل الامتيازات الإلهية.

وثُبّت تيجانى وانتظمت قائمة ألقابى.

وبادئ ذى بدء، وَضَع الصقر فوق السرخ(١١)، وجعلنى شديد البأس كالثور القوى، وتصرّف أخيرًا بحيث أتجلّى فى طيبة بصفتى اسمى:

حورس: الثور القوى الذى يتجلّى فى طيبة.

وجعلنى أرفع السيدتين: وأعاد مُلكى الذى يغالب الزمن مثل مُلك رع فى السماء بصفتى اسمى:

السيدتان: ذلك الذى يدوم مُلكه مثل مُلك رع فى السماء.

ثم شكّلنى كصقر ذهبى ومنحنى قوته وبسالته وكرّسنى على عرشى عن طريق تيجانى بصفتى اسمى:

*حورس **الذهبى**: صاحب القوة، شديد البأس والتجليات المقدسة.*

وجعلنى بعد ذلك أشرق كملك مصر العليا ومصر السفلى وثبّت صيروراتى مثل صيرورات رع، بصفتى اسمى:

ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين، من خپر رع (أى: «فلتبق صيرورة رع!»).

أنا ابنه، المنبثق منه، والصورة التى تشكلت على هيئة الذى يترأس حسيريت[١٢]، كما أنه يوحّد كافة صيروراتى، بصفتى اسمى:

ابن رع: تحوتمس المتحد من حيث صيرورته - ليته يحيا للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى...

وتصرّف بحيث تأتى البلدان الأجنبية بأسرها منحنية بسبب مجد صاحب الجلالة، فالخوف الذى أثيره استقر فى قلب الأقواس التسعة والأراضى المصرية وُضعت تحت نعلىّ. ويسلّمنى النصر فى يدىّ حتى أوسّع حدود مصر...

لقد صنع أبى آمون كل ذلك بسبب عظمة الحب الكبير الذى أكنّه نحوه. إنه يبتهج بسببى أكثر مما فعل من أجل أى ملك آخر عاش فى البلاد من قبل، منذ أن «رُبطت». فأنا ابنه ومحبوبه. هذا ما يرجوه كاؤه الذى سيتحقق[١٣].

هذا النص موشّى بالإشارات إلى أصول تحوتمس الثالث الإلهية، وعلاقته الحميمة بالإله آمون ـ رع الذى قام هو نفسه بتحديدد عناصر قائمة ألقابه الملكية. إن العاهل الملكى الشاب قد اختارته الآلهة واصطفاه والده الملك المتربع على العرش.

إن إعلان التتويج بصفة رسمية والذى نقش نصه على الصرح السابع من صروح الكرنك قد حدث فى القصر الملكى بمشاركة كبار رجالات مصر وأشرافها:

فى اليوم الرابع، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام الأول (أى فى مطلع الربيع)، حدث أنذاك التجلى المتألق للابن الملكى... تحوتمس، ليته يحيا للزمن النهائى وللزمن الأبدى، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى...

قال جلالتى (لرجال البلاط المجتمعين لحضور الإحتفال): «اعلموا إذن ما يلى: إن قلب جلالتى يتجه إلى الخير والفاعلية... كابن خيّر يحقق من أجل من أنجبه أفعالاً مفيدة... إن مشيئة جلالتى هى أن يفعل عملاً حسنًا لصالح من خلق كمالى»...

هنا أجاب رجالات البلاط وأشرافها على صاحب الجلالة قائلين: «أنت حامى سيد الآلهة... كم هو رائع أن تودّ تجميل معبد أبيك أمون-رع، ملك الآلهة، من خلال تشييد مبانٍ جديدة ومعالم صرحية تدوم إلى الأبد، أنت وريثه. اعمل إذن، اعمل إذن. واصل عملك، وأنت حىّ ومتجدد وشاب على الدوام، مثل رع على مرّ الأيام[١٤]».

وكما جرت العادة فإن نبأ تربع ملك جديد على عرش البلاد[١٥] كان يذاع فى التوّ واللحظة، فى الأراضى النوبية والسودانية. كما تشهد مدونات منحوتة فى العام الثانى فى معبد سمنة بالسودان على مدى إهتمام الملك الشاب، فور تسلمه السلطة، بهذه البقاع القصية من أراضى الإمبراطورية. وقد أضيفت إلى قائمة ألقابه «المحلية» وإلى اسم حورس الذهبى تحديداً، صفة «*المحبوب من الإله ديدون القائم على رأس النوبة*[١٦]».

وتتولى الآلهة المصرية «تقديم» العاهل الملكى إلى آلهة الجنوب، حتى تمنحه السلطة على مناطقها:

كلمات قالها يون موتف إلى ديدون القائم على رأس النوبة، الإله العظيم، رب السماء: «ليت ابنك ومحبوبك من خپر رع يركن إلى الراحة فى معبدك ويرث عرشك. ليته يكون ملك مصر العليا ومصر السفلى، فى هذا البلد دون أن يحتاج أبداً إلى التجديد. ليتك تضع مجده، وتشكل هيبته فى قلوب النوبيين والمانتيو، مكافأة له على قيامه بتشييد هذا المبنى الجميل من أجلك ليغالب الأيام».

كلمات قالها ديدون القائم على رأس النوبة: «أيا بُنىّ الذى ينتسب إلى جسدى، أيا محبوبى تحوتمس. إنى أُثبّت من أجلك مقامك كملك، أنت الشبيه (بالاله) حورس

الجالس على العرش. إنك توحّد القطرين، بالنظر إلى أنك حىّ إلى أبد الآباد. لقد رَفعتك قدرتك، لقد رَفعتك فطنتك، لقد رُفعت لتصبح سيد البشنت[17]. إن قرنيه على رأسك، وينبثقان أمامك، إن ريشتيه تلتقيان فوق شعر رأسك. إن الخوف منك استقرّ فى البلاد الساهرة والهلع الذى تثيره قائم فى أجساد الجهلة. إن اسمك يتقدم اسم الآلهة، ليتك تعمل بصفتك حيًا مثل رع[18]!»

إن الآلهة والملوك «رفاق» أساسيون. لقد قام تحوتمس الثالث بتشييد معبد فى سمنة كرّسه للإله ديدون، وفى الوقت نفسه أمر بترميم المعبد الذى سبق أن أقامه سنوسرت الثالث:

لقد شيّد الإله الكامل من خپر رع مبنًى، هو معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل من أجل أبيه ديدون، القائم على رأس النوبة، ومن أجل خع كاو رع(*)، ملك مصر العليا ومصر السفلى. وبالفعل كان جلالتى قد وجد المعبد المشيد من الطوب قد أصابه دمار شديد. ومن ثم فقد تصرف بصفته ابنًا يمتلئ قلبه حبًا لأبيه، بعد أن أُسند إليه الشاطان، وبعد أن رُفع ليصبح الحورس، سيد هذا البلد. لقد وضع الله فى قلبى (الرغبة) فى إقامة مبنى من أجله. لقد تصرفت بحيث يكون السيد. تمامًا كما سمح لى أن أكون سيداً. لقد جعلت معبده راسخًا متينًا للزمن الأبدى، بقدر ما هو عظيم، وأعظم من أى إله آخر[19].

(كان ديدون فى هذه الأماكن هو الولى الراعى والحامى لها).

تؤكد جميع هذه النصوص على القَدَر الملكى الذى كان ينتظر الملك الشاب الذى يبدو أنه استهل عهده محاطًا فى نظرنا، بأفضل ما يكون من رعاية وحماية.

وفى العام الثالث من عهده، قام بإجراء تعيينات لكبار الكهنة. وقد دوّن نب واوى كبير كهنة أوزيريس الجديد فى أبيدوس النص الآتى على لوح حجرى:

حدث ذلك فى العام الثالث، عندما أنعم علىّ سيدى من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، برعايته بسبب ما فعلته من أجله. فتم ترقيتى إلى منصب كبير

(*) من ألقاب سنوسرت الثالث. (المترجم)

كهنة أوزيريس، واستعاد جميع وظائف هذا المعبد إخضرارها، تحت سلطة جلالة الملك[٢٠].

وشغل هذه الوظيفة حتى العام السادس.

وفى العام الخامس، اختار تحوتمس الثالث الوزير أوسر ـ آمون الذى يُدعى أحيانًا أوسر. ويحدد هذا التاريخ نص بردية هى من مقتنيات متحف تورينو فى الوقت الراهن:

اليوم الأول، من الشهر الأول، من فصل الفيضان، من العام الخامس، من عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع، ابن رع: تحوتمس. فى هذا اليوم، مَثُل الكاتب والخازن الملكى أوسر ـ آمون التابع لمعبد آمون – مَثُل بين يدى صاحب الجلالة. عندئذ قال الملك: «إن قلبى يميل إلى حد كبير، نحو اختيار أوسر ـ آمون وزيرًا. إنه رجل غنى بالسنوات منذ ميلاده. إن ثلاثين من سنواته (كُرِّست؟) للفرعون السيد الطيب. إنها لفترة طويلة»[٢٠مكرر].

وإذ ما-زلنا فى العام الخامس، فإن الجزء العلوى من لوح حجرى عثر عليه فى سيناء بسرابيط الخادم، يُظهر الملك الشاب بمفرده وهو يقدم قربانًا للإلهة حتحور[٢١].

ويلاحظ بعد العام الخامس، أن تحوتمس الثالث لن يظهر فى إطار تتابع وقائع الإحتفالات الرسمية أو يُصور مع حتشپسوت، ولكنه فى الصف الثانى فى أغلب الأحوال. ومن الراجح أن طموح زوجة أب الملك، قد حملها فيما بين العامين الخامس والسادس، على تحويل وصاية العرش إلى مَلَكيّة مغتصبة. ولكن ما زال من الصعوبة بمكان فى إطار مجموعة الوثائق المتوفرة فى الوقت الراهن، أن نتعرف على وجه الدقة على طبيعة المؤامرات أو الدسائس التى مهدت لهذا الوضع.

الولادة الإلهية والسياسة

فى العام السابع جرت الإحتفالات الرسمية التى شهدت تتويج حتشبسوت. وتحددت قائمة ألقابها:

- حورس *(أو حورس الأنثى): ذات الكامات القوية.*
- *السيدتان: التى تستعيد سنواتها إخضرارها .*
- حورس *الذهبى: ذات التجليات الإلهية.*
- *ملك*(*) *مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كارع* («الحقيقة – العدالة، هى كا الإله رع»).
- *ابنة*(**) رع: خمنت- *إيمن*- حتشبسوت *(تلك التى تتحد مع آمون، إنها أكثر* السيدات نبلاً وشرفًا).

ولإضفاء الشرعية على تربعها على العرش، لجأت حتشبسوت إلى تبريرات سياسية وأسطورية.

كانت تريد اقناع الآخرين بأن أباها تحوتمس الأول قد ميزها وفضلها منذ زمن طويل وأشركها فى شئون الدولة. وإذا كانت تستنجد بأبيها تحوتمس الأول وفضلته على زوجها تحوتمس الثانى، فسبب ذلك على ما يظن، هو أن أباها كان ملكًا لامعًا ومهيبًا، ولكن يمكن أن نضيف إلى ما سبق أن الملك المتربع على العرش كان فى حقيقة الأمر، وفى ظروف نجهلها، قد وقع اختياره بالفعل بصفة رسمية على الأمير الشاب تحوتمس ليخلفه على كرسىّ الملك. وهو ما قد يبرهن عليه بعض النصوص التى سبق ذكرها. وتأكيداً لمزاعمها أمرت الملكة بنحت مدونة على الواجهة الشمالية من الصرح الثامن القائم جنوب معبد آمون-رع بالكرنك. إن نقشًا يصور الملك تحوتمس

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

الأول، واقفًا أمام ثالوث طيبة: آمون ومُوت وخونسو. ويلقى العاهل الملكى خطاباً من أجل آمون:

إنى قادم إلى جوارك، أيا سيد الآلهة. إنى أسجد أمام جلالتك، لأشكرك على إعطائك السوداء والحمراء إلى ابنتى ماعت كا رع ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، ليتها تحيا إلى الأبد! تمامًا كما فعلت من أجلى... إنى سعيد لأنك استجبت لدعائى. وفى المرة الأولى التى فعلت شيئًا من أجل جلالتى، منحتنى مُلكك فى حضرة القطرين، وأشَدْت بكمالى عندما كنت لا أزال صبيًا... وخضعَت السوداء والحمراء لسلطانى. أنا راضٍ عن الإنتصارات التى منحتنى إياها، وكل بلد من البلدان الأجنبية التى سبق أن تمردت، هى من الآن تحت نعلَىَّ، هذه البلدان التى طوقّتها تلك التى على الجبين (أى الصل) فيأتى أبناؤها الآن محملين بالجزية. لقد قوّيت هيبتى فى أجسادهم بينما تعبر صيحاتى - صيحات الحرب - بلدانهم، فترتعد أطرافهم. لقد استحوذت عليهم منتصرًا، عملاً بأوامرك، وصاروا خدامًا إلى جوارك. وزعماء البلدان الأجنبية بأسرها يُطأطئون رؤوسهم. إنهم يخضعون من الآن للجزية، ويعملون لصالح معبدك... ومن أجلك نفّذت كل توجيهاتك، وقلبك فرح بسبب كل ما فعلت. لقد أسندت إلىّ مُلكى، أنت، يا سيد الزمن الأبدى وأقمتنى أمام التاسوع....

إن قلب جلالتى مشغول الآن بها... لقد فعلت ما لا يكفّ كاؤك عن الإشتياق إليه. لقد أصدرت الأوامر وفقًا لتوجيهاتك. وكم كانت كل أفعالى موفقة... ومن أجلى، جدّد انعاماتك، من أجل ابنتى ذات الكاءات المقتدرة، ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، (ابنتى) التى أحببتها والتى اتحّدَت بك، إنها أثيرة الآلهة. فليستَعد هذا البلد الذى فى قبضتها إخضراره وامنحها سعادة سنوات مُلك مديدة... كم هو جميل وطيب ما سبق أن صنعته من أجلى، ليتك تسمعنى إذن وتنصت إلى النداء (الذى أُعلنه) للمرة الأولى، فضلاً عن الأدعية التى أرفعها من أجل محبوبتى[٢٢].

هكذا يمكن أن يُقال أن عهد حتشبسوت كان قائمًا على خدمات متبادلة بين الإله (آمون) والملك (تحوتمس الأول). فمقابل سلوك الملك الذى سارع على الدوام إلى تلبية الأوامر الإلهية كان ينبغى على آمون أن يستجيب لمطلبه.

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

إن عدداً من الوثائق ومنها جعران يحتفظ به متحف **اللوفر** يُظهر اسمى **تحوتمس الأول** و**حتشپسوت**، جنبًا إلى جنب[٢٣]. ولكن ربما يعود إلى تاريخ لاحق لاستئثار الملكة بالحكم.

هل نحن أمام ملك وملكة قام أبوهما باختيار أحدهما ليخلفه؟ وفضلاً عن «معركة» الإلهين الأبويين، تضاف إليها معركة أصداء هاتف الوحى الإلهى.

لقد نُحتت مشاهد تتويج **حتشپسوت** على الكتل الحجرية للمقصورة المعروفة إصطلاحًا *بالمقصورة الحمراء* التى شيدتها الملكة لتكون استراحة لمركب **آمون**، فيما بين العامين ١٦ و١٧، من عهدها والتى أعيد استخدام عناصرها عند إقامة مبانٍ أخرى. فبعد أن أعلن الإله **آمون** الذى صُوِّر على رأس موكب إحتفالى طويل، ما يكشف عنه الوحى الإلهى لصالح **حتشپسوت**، نشاهد هذه الأخيرة خارجة من «*إشراقات قصرها* » مرتدية ملابس «*زوجة الإله*» لتنضم إلى الموكب الذى سيتوقف فى معبد **الكرنك**، فى عدد من الأماكن، فى حين يستمر الإله فى إعلان أقوال الوحى الإلهى، كشواهد متعددة على نهار «*رائع مثير للإعجاب*». ومع عودة **حتشپسوت** إلى قصرها تتربع على العرش الكبير. وعلى جبين الملكة تستقر *الإلهة– الصلّ* **وارت حكاو** أى «*ذات الفاتن السحرية العظيمة*». وبعد أن خلعت الملكة ملابسها بصفتها «*زوجة الإله*» ترتدى «*زينة رع*». وتتسلّم توجيهات **آمون** وتشكره على اعتلائها عرش المملكة[٢٤].

ما تقدم يعتبر التفسير الأسطورى الأول للسلطة التى استحوذت عليها ابنة **تحوتمس الأول**. ولكن **تحوتمس الثالث** أيضًا ينطلق من اختيار شخصى افصح عنه الإله.

وللبرهنة على شرعية **حتشپسوت** فى المُلك، يوجد تبرير أسطورى ثانٍ. إنه نص مسهب تصاحبه الصور. وقد نقش على جدران معبد الملكة الجنائزى فى **الدير البحرى** وعلى الرواق الغربى من الشرفة الثانية. تبدأ النقوش عند الطرف الجنوبى من الصُفة وينتهى عند طرفها الشمالى. وإذ تسعى الكلمات والصور من خلال إزدواجية فاعليتها السحرية إلى إضفاء الواقعية على مسردها، فإنها تروى ولادة **حتشپسوت** بعد أن جامع **آمون - رع** الملكة **أحمس**، عندما اتخذ ملامح والدها.

لا يُقصد بذلك كما يقال أحيانًا أنه نص «دعائي»- لأن هذه الكلمة لها دلالة ملتبسة في عصرنا، ولكن المقصود أسطورة حقيقية تعود إلى أصول موغلة في القدم، وإن اتخذت هنا شكلاً رسميًا بفضل بعض الكهنة المخلصين لملكتهم، على ما يظن. إن موضوع *الولادة الإلهية* الذي يؤكد على الأصول الجسدية الإلهية للملوك، سبق صياغته في شكل حكاية شعبية(٢٥)، بمناسبة ميلاد ملوك الأسرة الخامسة الثلاثة الأوائل، بصفتهم أبناء رع وامرأة أحد الكهنة. إنه موضوع شائع في الفكر القديم، ظل مزدهراً في مصر لفترة طويلة. وبعد مرور ألف سنة على هذه الأحداث وبعد أن كانت *الولادة الإلهية* قد صاحبت ميلاد ملوك آخرين، سوف يقدم كتاب كاليستانوس المنحول عرضًا يوضح فيه كيف أن نختانبو آخر ملوك مصر قد لجأ إلى بلاط پلاّ(*) Pella وكان ساحراً عظيمًا قد أخبر الملكة أولامپياس(**) من خلال رؤيا رأتها في نومها، أنها ستحمل بابن من معاشرة الإله آمون لها. ومن المعتقد أن نختنبو ذاته قد قام بدور الإله، ومن اقترانهما وُلد الإسكندر، ومن ثم استطاع أن يبرر تربعه على عرش الفراعنة، أسوة بما فعله البعض الآخر من قبله. ربما كانت هذه الحكاية الخرافية تستند إلى قصة روّج لها الملوك المقدونيون في مصر، واستلهموها من تقاليد وطنية متواترة، سياسية وأدبية، موغلة في القدم.

أصبح نص الدير البحري موضوع عدد من الدراسات. ونذكر على سبيل المثال، دراسة عالم المصريات الألماني هلموت برونر(٢٦) Hellmut Brunner الذي اعتقد منذ عهد قريب، أنه تعرّف على ستة عشر مشهداً متتاليًا، جاءت من ثلاثة مصادر: رواية أسطورية وخطابات الآلهة وشذرات من طقوس دينية. أما فرانسوا دوما F.Daumas فيتحدث عن متتالية مسرحية، وهو على حق فيما ذهب إليه(٢٧).

يبدو أن النصوص والصور، تعبّر عن ثلاثة مواضيع كبرى: ١) *الحمل والولادة*- ٢) *القبول في عالم الخالدين*- ٣) *الْمُلك الأرضي*. ويعتقد إن كل موضوع من هذه المواضيع، أو كل فصل من هذه الفصول، ينقسم بدوره إلى عدد من المشاهد. بل وفي

(*) مدينة يونانية قديمة وعاصمة مقدونيا. (المترجم)

(**) والدة الإسكندر الأكبر. (المترجم)

وسعنا أن نتساءل – ولا سيما أن النص ذاته والصور نفسها قد صُوِّرت في معبد الأقصر لصالح أمنحوتپ الثالث، ثم جزئيًا من أجل رعمسيس الثاني، في المعبد المكرس لوالدته الواقع شمال الرامسيوم – في وسعنا إذن أن نتساءل إذا كنا لا نتعامل هنا مع «كراسة مسرحية» تضع على خشبة المسرح الآلهة والملوك، جنبًا إلى جنب. إنه أشبه *بالمسرح الديني الذي عرفته القرون الوسطى في الغرب والذي كانت تقدم عروضه بهدف معنوي من أجل الملوك*، وهذا ما يمكن أن نفترضه على الأقل.

أولاً: الحمل والولادة

١ – *المشورة الإلهية*

يُبلِّغ أمون الآلهة بانجاب ملك جديد سوف يولد كثمرة لجماع إلهي:

هكذا تحدّث أمون إلى الآلهة بشأن ميراث رب القطرين. لقد اشتهيت رفيقة ومحبوبة الملك (تحوتمس الأول)، الملكة أحمس والدة ماعت كارع ملك(*) *مصر العليا ومصر السفلى.... سوف أكون حامي جسدها* (في فجوة سابقة في النص، ربما وردت إشارة إلى «ثمرة» هذا الإقتران ألا وهي حتشپسوت). كنت منذ *ذلك الوقت قد وهبتها كافة الأراضي المصرية وكافة الأراضي الأجنبية*، وسوف تتولّى *قيادة الأحياء أجمعين... من أجلها وحّدت الأرضين في سلام... سوف تشيّد معابدكم*[٢٨]، وتجمّل مقاصير قدس *أقداسكم فخمة... وتعمل من أجل دوام قرابينكم* وحتى يعود *الإخضرار إلى موائد قرابينكم، وفي زمنها سوف تأمر بتساقط الأنداء من السماء. أمّا أنتم* فستعملون *على تدفق أنهار نيل عظيمة*(**) *إليها*. وتبسطون *خلفها حمايتكم السحرية* من حياة وقوة.

ووافقت الآلهة[٢٩]. إنه التمهيد أو العرض العام «للمسرحية» التي سيرد فيما بعد وصف لمشاهدها، من خلال استرجاع الماضي.

(*) هكذا في المذكر. (المترجم)

(**) أي مياه الفيضان الوفيرة. (المترجم)

٢- آمون وتحوت أو السيد وكاتم أسراره

(خطاب آمون مشوه إلى حدٍّ كبير)

كلمات قالها تحوت:

«هذه المرأة التى تحدثت عنها والتى تُدعى أحمس، جميلة بل وأجمل من سائر نساء هذا البلد بأسره. إنها زوجة العاهل الملكى عا خپر كا رع(*)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا إلى الأبد[٢٠]».

يقوم تحوت باصطحاب آمون إلى جوار الملكة أحمس بعد أن اتخذ هيئة الملك تحوتمس الأول.

٣- الاقتران

يوضح نقش الصورة الإله والملكة جالسين وجها لوجه وقد تداخلت سيقانهما.

آمون، هذا الإله النبيل، سيد عروش القطرين قد تحوّل ليتخذ هيئة صاحب الجلالة عا خپر كا رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى زوج الملكة. ووجد هذه الأخيرة بينما كانت تستريح فى بهاء قصرها. واستيقظت على رائحة الإله وابتسمت فى حضرة صاحب الجلالة. وفى الحال اقترب منها وهو يتحرق شوقًا وحمل إليه شهوته، وتصرف بحيث ترى هيئته كإله. وبعد أن دنا منها وبينما كان مسرورًا لرؤية جمالها، إذا بحب آمون ينفذ إلى جسدها. وغمرتها رائحة الإله، التى جاءت جميع شذاه من بلاد پونت... وفعل معها جلالة آمون كل ما كان يشتهيه. كما تصرفت هى بحيث يُسرّ بفضلها وعانقته.

كلمات قالتها أحمس الزوجة الملكية والأم الملكية فى حضرة جلالة آمون، هذا الإله النبيل، سيد عروش القطرين:

(*) لقب تحوتمس الأول. (المترجم)

«أيا سيدى كم هى عظيمة قدرتك، إنه أمر عزيز الشأن أن يُرى صدرك بعد أن اقترنتَ بجلالتى فى روعتك، بينما تنتشر أنداؤك فى مختلف أعضائى».

وبعد ذلك صنع جلالة هذا الإله معها ـ من جديد ـ كل ما كان يشتهيه. كلمات قالها آمون سيد عروش القطرين للملكة:

«حقًا، إن خمنت– إيمن–حتشبسوت، هو الاسم الذى ستحمله هذه الفتاة التى وضعتها فى جسدك (وفقًا) لهذه الكلمات التى تفوهتِ بها. سوف تتولى هذه الوظيفة الملكية الجالبة للخير فى هذا البلد بأسره. بسالتى وقدراتى لها وقوتى لها وتاجى الكبير ملكًا لها، فتتسيّد على القطرين وتقود الأحياء أجمعين... وصولاً إلى ما يحيط بالسماء... وسوف أتألق عليها. وتتّحد الأرضان من أجلها، وفى كافة أسمائها، على عرش حورس الأحياء. سوف أؤمّن حمايتها السحرية من خلفها، كل يوم، وبالتزامن مع الإله القائم فى قرصه (أى: «رع»)(٣١)».

٤– الإله خنوم، الصانع الرسمى الذى يشكّل جسد الطفل الإلهى

يطلب آمون من الإله الفخارى فى جزيرة إلفنتين أن يشكّل على دولابه جسد *«الابنة المحبوبة التى أنجبها»*.

خنوم :

«سوف أشكّل ابنتك هذه، ماعت كارع. فعليها تتوقف الحياة والإزدهار والصحة والقرابين والأطعمة والمتعة والحب وكل ما لذّ وطاب. سوف تكون هيئتها أروع من هيئة الآلهة بفضل منصبها المرموق بصفتها ملك(*) ***مصر العليا ومصر السفلى»***.

بينما كان خنوم يعمل على دولابه، كان يتحدث إلى الطفل الذى أخذ جسده يتشكل شيئًا فشيئًا. و«ترتطم» الكلمات بالغلاف الجسدى الذى ما زال مبهمًا، شأنها شأن أعداد من المفاتن السحرية، فتختلط باللحم الذى يظهر إلى الوجود وقد أبدعته

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

الأنامل البارعة للإله الصانع العظيم. والحقائق التى تعبر عنها سوف «يضمها ويدركها» إذن، جسد الطفل الإله ذاته. ولا يقتصر الأمر على مجرد أحاديث بل إننا أمام سحر خالق الحياة، إنه من صنع فخّاريّ جليل فى سموه، فيمزج الصلصال البسيط بروائع **الكلمة** وأعاجيبها:

إنى أشكلك أنتِ المنبثقة من جسد هذا الإله، رب الكرنك. لقد أتيت إليكِ لأخلقكِ أجمل من سائر الآلهة. إنى أعطيك كل الحياة وكل القوة وكل الثبات وكل فرح القلب، الآتية منى. إنى أعطيكِ كل الازدهار والأراضى المصرية، فى آن واحد. إنى أعطيكِ كل البلدان الأجنبية والشعب بأسره. إنى أعطيك كل قربان وكل طعام. إنى أعطيكِ أن تظهرى فى مجد عرش حورس، مثلكِ مثل رع. إنى أمنحك البقاء على رأس كاءات الأحياء أجمعين بعد ظهوركِ متألقة بصفتك ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى - كما أمر به أبوك أمون - رع الذى ما برح يحبك على الدوام[٣٢].

٥- البشارة من قبل الإله تحوت

[كلمات قالها تحوت رب الكلمات الإلهية]... إلى السيدة النبيلة، ابنة جب ووريثة أوزيريس، القائمة على رأس القطرين، وإلى مصر العليا ومصر السفلى، وإلى الأم الملكية أحمس:

«إن أمون رب عروش القطرين، فرح بمنصبك المرموق بصفتك السيدة النبيلة، ذات الجاذبية الآسرة والحظوة المرموقة والتى تشرف على الملذات، إنها غاية فى الرقة، والمحبوبة إلى أبعد الحدود. إنها ترى حورس وتتأمل ست[٣٣]*، إنها محبوبة الكبش (أى: «أمون») وتسعده... وتتحّد بالإله حورس، فهى محبوبته التى يقال عنها، أن كل شىء يحدث من إجلها*[٣٤]*».*

(*) هكذا فى الذكر. (المترجم)

٦- الولادة والمصائر

الإله خنوم والإلهة حقات يرافقان الملكة إلى حجرة الولادة. وأمامهم تاسوع من الآلهة يتكون من ثلاثة صفوف يضم كل صف منها ثلاثة آلهة. ويؤكد الرقم تسعة على التعددية وأهمية العون الإلهي. ويصطحب آمون هذا التاسوع. وأمام إله الكرنك ربما كانت توجد مدونة من ثلاثة عشر سطراً تشرح وقائع عملية الوضع ولكنها مهشمة فى الوقت الراهن للأسف تهشيماً بالغًا.

أما الصورة التالية فتُظهر الملكة جالسة على عرشها وهى تحتضن الطفل الحديث الولادة. وأمامها تقدم أربع *آلهات– قابلات* علامة الحياة إلى ابنة الإله. وخلفها أربع آلهات أُخرى: ومن بينها صُوِّرت **إيزيس** ونفتيس وهما معاونتان ضروريتان لكافة أشكال الولادة وإعادة الولادة. وعلى اليمين تجلس مسخنت التى تشرف على عملية الوضع عملاً بتقليد قديم متواتر.

كلمات تقولها مسخنت:

«لقد نُصِّب الطفل بصفته ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، سوف أؤمِّن على الدوام من خلفك حمايتك السحرية، على غرار رع. إنى أمنحك الحياة والقوة أكثر من أى كائن آخر. إنى أسند إليك الحياة والإزدهار والصحة – والفاعلية والشهرة والسعادة – والأطعمة والقرابين وكل ما هو طيب وجميل. ليتك تظهرين متألقة بصفتك ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، إبّان أعدادٍ كبيرة من احتفالات اليوبيل – أنت الحية(**) الثابتة فى دوامها، القوية فتظل لذة القلب مع كائك، فى هذين القطرين اللذين تتسيّد(***) عليهما على عرش حورس للزمن اللانهائى[٣٥]».

هكذا نجد أن الصفات الجسمانية والصفات المعنوية والروحية، وهى المصادر المتجددة للطاقة الحيوية، قد اكتسبتها الملكة منذ ولادتها.

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) مؤنث حىّ. (المترجم)

(***) هكذا فى المذكر. (المترجم)

ومن اللافت للنظر أن خمسة من المعاونين الرئيسيين الحاضرين هذه الولادة وهم خنوم، وحقات ومسخنت، وإيزيس ونفتيس كانوا من القائمين بأدوار رئيسية في وقائع ولادة ملوك الأسرة الخامسة الأوائل استناداً إلى رواية الحكاية الخرافية القديمة. وتعود فكرة الولادة الإلهية إلى تقاليد مصرية موغلة في القدم قامت حتشپسوت بتطويرها وصبغها بطابع رسمي لتستمر ويكتب لها الدوام، بعد ذلك.

ثانيًا: القبول في عالم الخالدين

١ - تقديم *الطفل إلى آمون*

يتقدم هذا الإله الجليل لرؤية ابنته ومحبوبته، ملك(*) ***مصر العليا ومصر السفلى: ماعت كارع،*** *ليتها*(**) *تحيا، وذلك بعد أن ولدت فكان قلبه سعيداً، إلى أبعد الحدود. ومدّت حتحور ساعدها إلى صاحبة الجلالة* (إذ كانت الإلهة - الأم تتولّى رعاية المولود الجديد) *واحتضنت بقوة، الطفل الصغير* (حرفياً: «فرخ البطة»).

آمون إلى حتحور:

«إنك تقدمين إليّ ابنتي ذات السنوات العديدة، ملك(*) ***مصر العليا ومصر السفلى*** *الذي يقف على رأس الأحياء أجمعين، رب الزمن الأبدي وكافة الشهور. إني أهبه كل حياة وكل قوة وكل صحة، من أجل حمايته السحرية».*

آمون إلى الطفل:

«التحية لك يا ابنتي التي من جسدي، أيا ***ماعت كارع،*** *الشكل المتألق المنبثق مني. سوف تكونين*(**) *ملكًا*(*) *وتستأثرين بالقطرين على عرش* ***حورس مثل رع».*** *عندئذ عانقها وضمها بين ساعديه واهتم بشئونها لأنه يحبها، أكثر من أي شيء آخر.*

(*) هكذا في المذكر. (المترجم)

(**) هكذا في المؤنث. (المترجم)

أمون إلى حتحور:

«لقد أعطيتها كل حياة وكل قوة وكل صحة نابعة منّى».

أمون إلى الطفل:

«أهلاً ومرحبًا، أهلاً ومرحبًا، فى سلام، أيا ابنتى التى تنتمى إلى جسدى، أيا محبوبتى ماعت كارع. سوف تكونين(*) ملكًا(**) وتستأثرين بالتاج على عرش حورس الأحياء، للزمن اللانهائى».

حتحور إلى الطفل:

لقد جعلك أبوك تشرقين متألقة على عرش حورس. إنى أمنحك إذن إلى جوارى كل حياة وكل قوة. إنى أمنحك كل ثبات. إنى أمنحك كل صحة. إنى أمنحك كل لذة القلب. كما أمنحك أيضًا الأراضى المصرية قاطبة والأراضى الأجنبية قاطبة، حتى يكون قلبك مسرورًا، بينما تدبرين شئون الأحياء بأسرهم، متجلية على عرش حورس مثل رع للزمن الانهائى[٣٦]».

٢- الرضاعة الإلهية

وتقوم حتحورتان(***) برأس بقرة برعاية المولود. واثنتان أخريان تتوليان إرضاعه هو وكائه. وعلى يمين النقش نشاهد اثنى عشر كا سبق إرضاعها ويتم تسليمها للإله ـ النيل. هكذا فإن العناصر الخصبة للكون والسماء فى هيئة حتحور زوجة الشمس(****) ووالدته(*****) والنهر الغَدَق- تروى ظمأ الصبى الصغير وتمد

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(***) مثنى حتحور. (المترجم)

(****) مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(*****) التزمنا بالمذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

مصادر طاقته بالغذاء، وإذ أطعم المولود الجديد بالسائل الإلهى ذى القيمة الروحية، فسوف تكون حياته شبابًا أبديًا نشطة وخالدة(٣٧). الأمر الذى سيحدث مع هيراقليس(*) الذى سترضعه هيرا(**) عندما تم تأليهه.

أمر أمون بإطعام صاحبة(***) الجلالة فى آن واحد مع كاماتها، بكل حياة وبكل قوة، وبكل ثبات وبكل ازدهار وبكل سعادة، وأن تتحقق لها ملايين السنين على عرش حورس جميع الأحياء، للزمن اللانهائى.

(إن ترديد هذه العبارات مراراً وتكراراً ترديداً ضروريًا، بما لها من قيمة سحرية، يؤكّد بلا كلل أو ملل على صفات الملكة ومناقبها بفضل قوة الكلمات، فتخلقها على هذا النحو خلقًا).

جوقة الآلهة المرضعة:

«لقد حضرنا لنمارس حمايتنا السحرية فنعطى الحياة والثبات والقوة من خلفها، فضلاً عن حماية كائها مثل رع، للزمن اللانهائى».

الحتحورتان اللتان ترضعانها:

سوف نُنشئك بصفتك ملك مصر العليا ومصر السفلى، لها(***) الحياة والدوام والقوة، ليكون قلبك سعيدًا على عرش حورس، لتكونى على رأس الأحياء أجمعين وتدبرين شئون القطرين فى سرور وتستأثرين بتاجى الجنوب والشمال، أنت القائمة على عرش أتوم – طبقًا لما أمر به سيد الآلهة(٣٨)».

(*) من أبطال الميثولوجيا اليونانية ويطلق عليه اللاتين اسم هرقل. (المترجم)

(**) فى الميثولوجيا اليونانية إلهة الزواج والأمومة. (المترجم)

(***) هكذا فى المؤنث. (المؤلفة)

٣- *تجديد المصائر*

يبدأ بالإتحاد مع عالم الآلهة. وتتقدم بعض الآلهة الأخرى لتجدد الوعود السابق قطعها والتمنيات بمُلك يغالب الأيام ويمتدّ إلى أركان العالم. إنها الآلهة تحوت وآمون للمرة الثانية وأنوبيس وخنوم والإله ـ النيل.

٤- *يشب الطفل ويترعرع فى حماية حتحور والآلهة*

أ – صورة حتحور وهى لاتزال ترضع الطفل ويتعبّد لها تحوتمس الثالث(!).

كلمات تقولها حتحور البقرة الذائعة الصيت القادمة على رأس الآلهة جمعاء – إلى ماعت كارع، ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، سيد القطرين:

«يا ابنتى، يا محبوبتى، يا ماعت كاع، أنا أمّك التى خلقت جمالك، لقد أقمتك على عرش حورس (ولك) مُلك الجنوب والشمال. إنى أمنحك السنوات التى تعود إلى الزمن الأبدى».

ب- البقرة المقدسة التى يسير العجل أبيس فى أعقابها تلعق يد الطفل الذى شبّ وترعرع.

عنوان *المشهد:*

معانقة الجسد الإلهى ولعقه والإتحاد بالملك، حياةً وقوةً.

هكذا يتم الإعلان عن المصير الإلهى والملكى للصبية وهو ما يؤكده أيضاً بمزيد من الوضوح الحديث الذى أفاضت به حتحور، *سيدة دندرة، سيدة السماء وملكة الآلهة المقيمة فى معبد الدير البحرى:*

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

«يا ابنتي المحبوبة ماعت كارع، لقد حضرت سعيدة بما تكنّين نحوى من حب. أنا راضية عن هذا المبنى المقدم منك، عن مكان الراحة الكاملة هذا، الذى شيديته من أجلى.

(المقصود المقصورة التى كرست لها فى **الدير البحرى** والتى شيّدت فى عهد **حتشپسوت**. إنه تزامن بين رواية فى الحاضر وواقعة سوف تحدث، فى المستقبل. إن **حتحور** تُطعم **حتشپسوت** وتشرف على تنشئتها. وعندما تصبح هذه الأخيرة ملكة سوف تأمر بإقامة مقصورة لهذه الإلهة. وهكذا يتداخل الزمانان: الماضى والحاضر).

*«إنى قادمة من **په**، إنى ذاهبة إلى **دپ**، إنى أتجول فى المستنقعات القائمة فى* تخوم دروب **حورس** *وأتوقف فى* **خمّيس**[٣٩] *لتأمين حماية* **حورس**. *إن عطرى هو عطر* شعب **پونت** *وشذاك سيكون أزكى من شذا الآلهة. أيا ابنتى ماعت كارع التى تنتمى إلى جسدى، أيتها «الحورس المؤنثة» الذهبية، أنا والدتك ذات اللبن العذب، إنى أُرضع جلالتك من ثديى حتى يصبح هذا اللبن الذى ينفذ فيك حياةً وقوةً. إنى أعانقك. إنى ألعق جسدك بلسانى الرقيق الخارج من فمى. ليتك تولدين وتتجددين على مر الأيام، على يدَىّ أبيك آمون الذى وضع تحت نعليك الأراضى قاطبة».*

ومن الآن، أصبح مصير **حتشپسوت** هو مصير الآلهة ذاته. إنها أحد أوجه «*مربيتها*» **حتحور** ووالدها آمون. كما أن **أپيس** يوجه كلامه إلى *الطفل-الإله* ويقدم له مساهمته:

*كلمات يقولها **أپيس** الثور الجميل الذى يسافد إناثه:*

«لقد حضرت لحماية ابنتى المحبوبة... ماعت كارع ملك(*) *مصر العليا ومصر السفلى. فلتقدم لها قطعان أكثر المستنقعات بعداً، فلتتكاثر من أجلها المواشى، هى التى أُنجبت من أجل حسات* (اسم بقرة مقدسة)».

ج - إذا كان **حتحور** و**أپيس** يشكلان هنا قرينين، فإن مشهداً آخر هو بمثابة

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

«مقابله». إذ يضع حتحور وأنوبيس معًا. وتنطق حتحور بكلمات مشابهة لما قالته فى المشهد السابق. فى حين يساهم أنوبيس، مثله مثل الآلهة الأخرى فى تربية الصبية:

«أيا ابنتى ماعت كارع إنى قادمة إلى جوارك. إنى أُعظّمك فى منصبك المرموق بصفتك ملك(*) مصر العليا ومصر السفلى. إنى اضع حب الآخرين لك، فى قلب كل الناس... ليت قلبك يكون سعيدًا مع كائك على عرش حورس الأحياء أجمعين، للزمن اللانهائى(٤٠)».

إن أبيس هو رمز سخاء الحياة الخصبة الخلاقة.

إن أنوبيس هو رمز الحياة المحمية حماية سحرية، إلى أبد الآباد.

إن حتحور تتجدد إلى الأبد، مثل السماء والشمس.

إننا فى عالم من التوافقات الروحية التى تسعى إلى الفعاليات الناجعة على أكمل وجه، فتضمن الخلود للملكة المستقبل التى أنجبتها الآلهة وأطعمتها ونشّأتها.

٥- *التطّهر من قبل آمون و رع حور آختى*

يصب الإلهان الماء المقدس على الطفل.

«كونى طاهرة، أنت وكاؤك، ومقدسة فى عظمتك كملك(*) مصر العليا ومصر السفلى، أيتها المفعمة بالحياة».

- *آمون: كلمات تقال أربع مرات (ويُنطق بها على الأرجح بالاستدارة على التوالى نحو الجهات الرئيسية الأربع، وفقًا للطقس الدينى الشمسى فى المقام الأول).*

«كونى طاهرة، كونى طاهرة، أيا ماعت كارع المنتمية إلى جسدى. إنى امنحك الإحتفال بملايين الأعياد اليوبيلية، بأعداد لا حصر لها، بصفتك ملك(*) الأرضين ورب(*) الأحياء».

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

● *رع ـ حور آختي: كلمات تُقال أربع مرات:*

«كوني طاهرة، كوني طاهرة، أيا ماعت كارع، يا محبوبتي. إني أعطيك الإستئثار بالقطرين بصفتك ملك(*) مصر العليا ومصر السفلي وأعطيك الإشراقات المتألقة على عرش حورس وقيادة الأحياء أجمعين، كما أمر به والدك آمون ـ رع الذي ما برح يحبك(٤١)».

هكذا فإن الإلهين الشمسيين يُبلّغان الكون في جهاته الرئيسية الأربع، بطهارة الطفل المقدسة وتولّي المُلك في المستقبل.

٦ . *آمون يتولى تقديم حتشبسوت إلى كافة آلهة مصر*

آمون جالس على عرشه يحتضن الطفل وأمامه تقف ستة آلهة: تمثل ثلاثة منها، «جميع آلهة الجنوب» والثلاثة الأخرى «جميع آلهة الشمال». كان الرقم ثلاثة يدل في مصر القديمة على الجمع، وإن كان يشير أيضًا إلى التعددية اللانهائية.

يتقدم آمون لشاهدتها واحتضانها. ثم يتصرف بحيث يتأملها جميع آلهة مصر العليا ومصر السفلي. كلمات يقولها آمون–رع سيد السماء وملك الآلهة:

«شاهدوا ابنتي خنمت ـ إن ـ حتشبسوت، ليتها تحيا. أحِبّوها، ظلّلوا عليها!»

كلمات قالتها جماعة الآلهة إلى آمون:

هذه الفتاة خنمت ـ إمن ـ حتشبسوت وهي لك، ليتها تحيا! سنظللها في الحياة وفي السلام. أجل إنها ابنتك، إنها صورتك التي انجبتها ووفرت لها كل شيء. لقد وهبتها بسالتك وقدرتك وقوتك وسلطاتك السحرية وتاجك العظيم. إنها من ذرية جسدك. الأراضي المصرية تابعة لها والبلدان الأجنبية مِلك لها، فضلاً عن كل ما تشمله سيدة السماء (حتحور) وتغطيه وما تحيط به الشديدة الإخضرار. لقد خلقتها

(*) هكذا في المذكر. (المترجم)

على صورتك، أنت العارف بالزمن الذى لا حدود له. لقد وهبتها نصيب حورس حياةً وسنوات ست قوةً... سوف نمنحها كل حياة وكل قوة ونوفرهما لها، وكل صحة وكل سعادة القلب اللتين نقدمهما، وكل أنواع القرابين والأطعمة التى نعطيها. سوف تبقى مع كائنها على رأس كائنات الأحياء، بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى على عرش حورس مثل رع للزمن اللانهائى[٤٢]».

إن العلاقة الحميمة التى ربطت ابنة «ملك الالهة» بآلهة مصر، هى بمثابة المقدمة الضرورية التى مهدت لتتويجها الأسطورى. ومع خروجها من دائرة الخالدين أصبحت تدبر بالحق الإلهى شئون البشر.

ثالثًا: الملك الأرضى

١- الهالة الإلهية. الرحلة وتسلم السلطة السياسية

الفتاة الجميلة حتشپسوت بقدها الممشوق، تصاحب أباها فى رحلة على صفحة نهر النيل، بينما تستقبلها الآلهة فرحة مهللة.

أرادت صاحبة(*) الجلالة أن ترى كل شىء بنفسها. وبادئ ذى بدء، تحدثت إلى الشعب الذى استمع إليها وخرّ ساجدًا بسبب هيبتها. وبالفعل فقد أصبحت جلالتها ممشوقة القوام وجميلة المظهر، وأكثر من أى شىء آخر. كانت وقارتها إلهية، وهيئتها هيئة إله(**)، وإلهًا(**) فى كافة تصرفاتها، ونورانية مثل إله(**). هكذا فكلما كبرت صاحبة الجلالة كانت تتحول إلى صبية جميلة وناضرة وإلى واچت فى أفضل أحوالها. وتُقدّم مظاهر التبجيل لهيئتها الإلهية لسعادة من خلقها. كان ساعدها قويًا ومنذ ذلك الحين كان فى إمكانها إقامة الشعائر.

رحلت صاحبة الجلالة إلى مصر السفلى (فنحن فى طيبة) فى صحبة والدها عاخپركارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ليته يحيا إلى الأبد! عندئذ جاءت

(*) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

والدتها حتحور التى على رأس طيبة، وواچت مدينة دپ، وأمون رب عروش القطرين، وآتوم سيد هليوپوليس، ومونتو سيد طيبة، وخنوم سيد المياه الرطبة، وكافة الآلهة المقيمة فى طيبة وكافة آلهة مصر العليا ومصر السفلى.

(وعلى امتداد المسار النهرى للمركب الملكى، يتم إخراج تماثيل الآلهة لاستقبال تحوتمس الأول وابنته).

كانت (الآلهة) تُجزل لها المديح وتجوب الدروب الجميلة من أجلها. وعند قدومها تحضر معها كل حياة وكل قوة وتبسط من خلفها حمايتها السحرية. فيأتى أحدها تلو الآخر، وهكذا تقضى خلفها سحابة كل يوم. وكانت (الآلهة) تقول:

«مرحبًا! مرحبًا! أيا ابنة أمون! فبعد تفقّد عناصر حكومتك فى ربوع البلاد، ها أنت تعيدين إرساء أسسها الجوهرية، وترمّمين كل ما كان قد تهدم وتشيدين البنايات الصرحية فى المعابد وتزودين بالأطعمة، موائد قرابين من أنجبك.

(هنا أيضًا تتداخل الأزمنة فى هذه الرواية الأسطورية).

إنك تجوبين الأراضى المصرية وتوقعين فى الأشراك البلدان الأجنبية، بأعدادها التى لا حصر لها. إنك المنتصرة وسط الشحنو. وتضربين النوبيين بساعد قوى، بواسطة مقمعتك البيضاء وتبيدين قادة الجيوش وتأسرين زعماء بلد ريتنو، بعد أن أُنهكوا من جراء المذبحة التى اثخنها والدك. وقوائم الجزية التى جلبتيها تعدّ بملايين البشر، إنها غنيمة بسالتك. وتوجهين الآلاف منهم للعمل بمعابد المدن. إنك تكرسين قربانًا عظيمًا فى الكرنك، فى سلّم آمون، ملك الآلهة ورب عروش القطرين.

ومكافأةً لك، تمنحك الآلهة السنوات، وتمنحك حياةً وقوةً، إنها تتمدحك، لأن قلبها وهب الحكمة للبيضة التى شكّلتها. وتُرسّم الحدود بعيدًا جدًا، بقدر عرض السماء وحتى تخوم الظلمات التى تتحّد مع الليل. وتمتلئ الأرضين بأولاد أولادك، لأن كمية بذرتك وفيرة. وبأسك فى قلب شعبك، سوف يعمل عملاً خلاّقًا، أنت يا ابنة ثور ـ أمه التى ما برحت تحبها الآلهة(٤٣)*».*

٢- *التتويج الأسطورى*

أ . تَمثُل الملكة الشابة فى صحبة حتحور بين يدى آتوم وخنوم وغيرهما من الآلهة التى سوف تسلمها التيجان كرموز مُلكها الأرضى، فضلاً عن المواهب التقليدية.

- (كلمات يقولها) *آتوم رب الأرضين، الهليوبوليتانى القائم على رأس التاسوع، رب المعبد: «إنى إعطيكِ سنوات حورس والزمن الأبدى ونصيب حورس وست، حياةً وقوةً. سوف تدبرين شئون الأراضى المصرية، فى حين تعمل البلدان الأجنبية وتكونين حيةً*(*) *مثل رع».*

- (كلمات يقولها) خنوم رب *السماء:*

«إنى أعطيكِ كل حياة وكل قوة وكل ثبات وكل صحة، نابعة منى. إنى أعطيكِ ميراث جب ووظيفة آتوم. إنى أعطيكِ سنوات الربين (حورس وست) فى متعة القلب. إنى أمنحكِ إدارة الأراضى المصرية القاطبة وكل البلدان الأجنبية».

إن كيانًا إلهيًا يُدوّن هذه المواهب.

عندئذ حضرت نخبت و واجت وقد أمسكتا فى يديهما بالتاجين، وتقولان: *«إننا نضع من أجلها التاجين على رأسها، حتى تمتلك الأرضين بفضلهما...»* عندئذ *ترفعهما الملكة وتظل سعادتها على عرش حورس للزمن اللانهائى. وتضعهما أمامها وتستأثر بالتاجين: الأبيض والأحمر، وتتّحد بهما».*

عندئذ تُدوّن أسماء العاهلة الملكية، من قبل الإله تحوت وقرينته الإلهة سيشات.

ب- وتتكرر مثل هذه الإحتفالية فى حضرة آمون. وتقف الملكة أمام آمون الجالس على عرش، وقد ارتدت الزى الملكى وتضع اليشنت على رأسها. وصوّرت خلف الملكة باو مدن مصر الرئيسية أو ربما أرواح الملوك الموتى والمؤلهين[٤٤] الذين يربطون الملكة الشابة بسلالة الأسرة الحاكمة. كما يُدوّن تحوت وسيشات للمرة الثانية قائمة الألقاب الملكية.

(*) مونث حىّ. (المترجم)

إنهما مشهدان توأمان يتصدرهما من ناحية الإلهان الكبيران الخالقان فى الشمال وفى الجنوب وهما آتوم وخنوم والإلهتان الحاميتان للنظام الملكى المصرى، ومن ناحية أخرى يقف على رأسهما آمون الطيبى(*)، سيد مجمع الآلهة. هكذا تعترف آلهة عواصم أقاليم مصر بالنظام الملكى الجديد.

٣- *التتويج الدنيوى*

إننا الآن على ما يعتقد فى القصر الملكى. ولكن من غير المستبعد أن وقائع المشهد تدور فى الحقيقة فى الدير البحرى، وهو ما قد يدل عليه بعض العبارات. فتُظهر الصورة تحوتمس الأول جالسًا على عرشه على يسار المشهد واضعًا يده على كتف ابنته حتشبسوت وساعدها الأيمن، فى حين أنها ترتدى نقبة الرجال. وعلى اليمين نشاهد ثلاثة صفوف من رجال البلاط.

ويراها جلالة أبيها، هذا الحورس، كم هو إلهى هذا الذى خلقها، وعلى قدر كبير من البسالة. إن ذهنها ثاقب وتاجها عالٍ. إنها تزن أقوالها وفقًا للحقيقة والعدالة. إن مركزها الملكى رفيع من جراء ما يفعله كاؤها. والأحياء قائمون فى فجوة ساعديها... وقال لها جلالته:

«تعالَىْ أيتها النورانية التى ضممتها (فى الماضى)*، حتى تتمكنى من رؤية حكومتك فى القصر وأفعال كاءاتك المرموقة، وحتى تتمكنى من تسلّم منصبك الملكى، أنت الذائعة الصيت بقدراتك السحرية، القوية بفضل بسالتك، أنت المتسيِّدة على القطرين. سوف تمسكين بالرجال ذوى القلب الخسيس (أعداء حتشبسوت؟) وتظهرين متألقة فى قصرك ورأسك يزينه البشنت الذى سيستقر على هذا النحو فوق رأس وريثة حورس التى أنجبتُها، أنت ابنة التاج الأبيض ومحبوبة واچت. سوف تُمنحين التيجان من قبل من يقف على رأس العروش الإلهية».*

وتصرَّف جلالتى الآن، بحيث يدخل نبلاء الملك وكبراء الدولة والأصدقاء ورجال

(*) نسبة إلى مدينة طيبة. (المترجم)

البلاط وزعماء الرخيت، ليبلغهم أمرًا يتعلق بإقامة جلالة ابنته حورس، أمامه فى قصره. عندئذ جلس الملك شخصيًا فى قاعة الإستقبال الرسمية المخصصة «للكهنة الجنائزيين»(٤٥) (قد تعزز هذه العبارة الرأى القائل بأن وقائع هذا المشهد تحدث فى الدير البحرى؟). وبينما خرّ جميع الحاضرين سُجّدًا «فى القصر»(؟)، قال لهم صاحب الجلالة:

«إن ابنتى هذه، خنمت- إمن- حتشپسوت، ليتها تحيا! إنى أقيمها مكانى على عرشى، فسوف تتربّع بكل تأكيد على أريكة الأعاجيب هذه. سوف تُصدر أوامرها إلى الشعب فى أرجاء القصر الملكى وسوف تقودكم، وتنصتون إلى أقوالها وتتّحدون مع أوامرها. من يعبدها سوف يحيا، ولكن من يقول عنها أقوالاً مسيئة مجدفًا ضد صاحبة الجلالة(*)، سوف يموت. أما كل من يطيعها «بقلب واحد» باسم جلالتها، عندئذ وبصفة مؤكدة، سوف يذهب فى الحال إلى الحجرة المخصصة لخلصاء الملك(**) المقربين، مثلما كان يُستقبل فيها، من سبق أن عمل من أجلى. لأنكِ إلهية بالطبع، يا ابنة الإله، فمن أجلها تقاتل الآلهة فى واقع الأمر. إنها تبسط قوتها السحرية من خلفها على مرّ الأيام، وفقًا للأمر الصادر عن أبيها، سيد الآلهة».

سمع نبلاء وكبراء الدولة وزعماء الرخيت هذا الأمر الذى يرمى إلى الإرتقاء إلى مكانة مرموقة، بابنته ماعت كارع، ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، ليته(**) يحيا إلى أبد الآباد! عندئذ خرّوا ساجدين عند قدميها، إذ «سقطت» الكلمة الملكية هكذا، وسطهم. ثم عبدوا الآلهة جمعاء، من أجل ماعت كارع، ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، ليته(**) يحيا إلى أبد الآباد! وخرجوا أخيرًا، بكلمات سعيدة وكانوا يرقصون ويصلّون. وجميع الرخيت القاطنين فى المقر الملكى سمعوا ذلك. كما جاءوا بالكلمات السعيدة ذاتها، رافعين أدعية، بلا حدود. وانفتحت جميع قاعات المقر الملكى عند النطق باسمها. وجميع الجنود يهللون ويرقصون من شدة الإبتهاج ويعلنون على الملأ اسم صاحبة الجلالة الملكة، وإن كانت لا تزال فتاة صغيرة. ولكن الإله العظيم كان يحرك

(*) فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

قلوبهم نحو ابنته ماعت كارع، ليتها تحيا إلى أبد الآباد! هكذا عرفوا أن آمون هو والد هذه الطفلة الإلهية وساهموا بكل تأكيد في إظهار مجدها على أكمل وجه. وكل إنسان، كائنًا من كان، يحبها في قلبه بلا انقطاع ويعبدها على مرّ الأيام، سوف يبقى متألقًا ومزدهرًا إلى أبعد الحدود. ولكن كل إنسان، كائنًا من كان، سيتفوه بالسوء ضد اسم صاحبة الجلالة، سيفنيه الله في الحال، والآلهة التي تؤمّن حمايتها السحرية على مرّ الأيام، سوف تتصرف على النحو ذاته.

كان جلالة أبيها قد استمع إلى كل ذلك. (ومن ثم استقبلت) جماهير الشعب في توافق تام اسم ابنته بصفته الاسم الملكي (الجديد). أجل إن صاحبة الجلالة(*) كانت لا تزال صبية، ولكن قلب الملك كان يميل إليها، إلى أبعد الحدود.

عندئذ أمر صاحب الجلالة باحضار الكهنة المرتلين من أجل إعلان أسمائها(*) العظيمة التي تتحكم في استئثارها بمنصبها الملكي بصفتها ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، وأن تدوّن في الوقت نفسه، على جميع المباني وعلى جميع أختام «تلك التي توحّد الأرضين والتي تُتم الرقض- حول- الجدار[٤٦]». وجميع الآلهة التابعة لاتحاد الأرضين (مصر) قد تزيّنت. كان الملك يعرف أنه من المناسب الإحتفال بهذا التتويج في رأس السنة، قبل السنوات المسالمة لتلك التي ستقوم بالاحتفال بملايين أعياد اليوبيل المهيبة التي لا تعدّ ولا تحصى. عندئذ، أُعلنت أسماؤها (على الملأ)، بصفتها ملك مصر العليا ومصر السفلى. وتصرّف الإله بحيث يُستدعى في قلوبهم جميع الأسماء التي سبق له أن حدّدها شخصيًا. (يلي ذلك سرد لقائمة الألقاب[٤٧]).

ورغم أن الصور بالغة التشوّه، فإن ما بقي منها يدفعنا مع ذلك، إلى الظن أن الملكة كانت تؤمّ بنفسها مختلف الاحتفالات الطقسية التي سبق الإشارة إليها.

(*) هكذا في المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا في المذكر. (المترجم)

٤- *الحفل الختامى لتكريس تتويج الملك*

وبعد ذلك يقوم الكاهن يـون مُوتـف(*) باصطحـاب حتشبسوت إلـى الـ«پر - ور»[٤٨] حيث تقام للمرة الثانية شعائر التطهّر. ويصب عليها الكاهن الماء وعلامات الحياة من إبريق على هيئة صليب بعروة. والإله حا-البُحَيْرة الذى كان يُعبد فى الفيوم وغرب الدلتا- يكرر العملية:

إنى أطهّرك بهذا الماء المفعم بالحياة والقوة، وسيّد كل ثبات وكل صحة (وكل) فرح. *ليتك تحتفلين بأعياد يوبيلية عظيمة لا حصر لها، مثل رع، للزمن اللانهائى*[٤٩]».

هذا الماء هو خليط امتزج فيه السائل بالكلمات.

عندئذ يصطحبها حورس *الإدفوى* لتتويجها مرة أخرى وأخيرة، مدعمًا سيادتها وسلطانها بشكل قاطع وللمرة *الثالثة*.

إن حورس وست وهما «الراعيان الحاميان» للنظام الملكى منذ القدم، يقومان أنذاك بتسليمها التاجين على دفعتين.

- *ليت منصبك الرفيع بصفتك ملك*(**) *مصر العليا يظل ثابتًا، فتتجلين متألقة*(***) *على عرش حورس وتقومين بقيادة الأحياء أجمعين مثل رع، للزمن اللانهائى*[٥٠].

تظهر حتشبسوت أمام قصرها مرتديةً تاج الجنوب الأبيض تتقدمها خمسة بيارق.

- *ليت منصبك الرفيع بصفتك ملك*(**) *مصر السفلى يظل ثابتًا، فتتجلين متألقة*(***) *على عرش حورس*[٥١].

ظهور جديد للملكة، يشبه الظهور السابق، ولكنها تضع على رأسها هذه المرة التاج الأحمر.

(*) أى «عمود- أمه»- من أسماء حورس. (المؤلفة)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(***) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

إن حتشپسوت فى نظر الآلهة والملك والبشر وفى حضرتهم، هى ملكة مصر.

يا لها من دراما طقسية مهيبة. إنه اخراج مسرحى ضخم جرى صياغته بطبيعة الحال بعد أن استأثرت الملكة الطموحة بالسلطة فى ظروف مازلنا، فى الحقيقة، نجهل كل أبعادها. ولا يعتبر هذا العمل كما يقال فى كثير من الأحيان «دعاية رخيصة». إن هذا الفكر يكشف عن فكر حىّ، بالإضافة إلى أن تنسيق وقائعه ومشاهده وترابطها، تعود فى مجملها إلى تراث روحى عرفته مصر منذ أقدم العصور. والشىء المؤكد أن حتشپسوت قد أحاطت نفسها بأصدقاء أقوياء أوفياء توصلوا إلى صياغة مجموعة شعائر دينية مستوحاة من تقاليد دينية وأدبية، هدفها تبرير إقدام الملكة على إغتصاب عرش مصر.

هذا النص الذى وُضع خصيصًا من أجل حتشپسوت، وفى ظروف محددة سيصبح نموذجًا سوف يعود ملوك العهود اللاحقة إلى «نسخه من جديد».

ومن غير المستبعد، وإن كنا نفتقر إلى دليل قاطع، أن الإقرار بألوهية الملوك ألوهيةً جسدية وتكريس تتويجهم كانا، على هذا النحو، موضوع لتصاوير مهيبة يتم تمثيلها تمثيلاً إيمائيًا. ويعتبر النص الذى عرضنا له أول مثال حقيقى. إن نشاط الملكة لا يعتبر سياسيًا بقدر ما هو دينيًا. إنه يقدم إسهامًا عظيم الأهمية للأسطورة الملكية بمختلف مقوماتها. ولكن منذ الآن بات يلوح فى الأفق خطر بالغ الأثر. فهل سيستطيع كهنة آمون أن يتحكموا فى اختيار وريث العرش، اعتمادًا على كشف مغاليق الوحى وعلى الأسرار الدينية؟

تظهر مع حتشپسوت صورة متجددة للعاهل الملكى المصرى، صارت مصدر نظرية فى المُلك، ستظل فى جانب منها، النظرية السائدة عند الرعامسة، بعد أن شهدت تطورات ملحوظة، على أيدى ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأخرين.

فيتمتع الملك منذ ولادته وبإصرار، بصفات جسمانية ومعنوية: ومنها الجمال. إذ نقرأ فى مدونة فى سپيوس أرتميدوس(*) Speos Artèmidos جنوب بنى حسن بمصر الوسطى العبارة التالية: «أنت جميلة وجميلة الجميلات»[٥٢]. كما توصف بالقوة

(*) إسطبل عنتر حاليًا. (المترجم)

والعظمة والمجد والصحة والبهجة. إن الملك هو سيد الزمان والمكان إلى مالانهاية. إن حتشپسوت بصفتها ملكة الكون هي «*سيدة كل ما تحيط به العين العليا*[٥٣]» أي الشمس، وفقًا للصورة القديمة للسماء ـ الصقر الذى كانت عيناه تمثلان الأزهران أى الشمس والقمر. وطيبة مركز هذا الكون(*). ففى سياق مدونة سپيوس أرتميدوس نفسها، تقول حتشپسوت: «*لم أعطِ ظهرى لمدينة سيد العالم ولكن ولّيت وجهى شطرها*[٥٤]». ومن هذه المدونة أيضًا ننقل هذه الصورة عن نظام ملكي يغالب الأيام ويقاوم الزمن:

راسخة هى قائمة ألقابى، مثل الجبال. وعندما يسطع قرص الشمس، فإن أشعته تلامسها. إن حورسى عالٍ فوق السرخ للزمن اللانهائى[٥٥].

وتؤكد النصوص بشكل أكثر وضوحًا على العلاقة المتزايدة بل والجسدية، على الإتحاد الصيق القائم بين الآلهة والملوك. إن حتشپسوت هى «*بذرة النور*»، إنها «*أعضاء الإله*». ونسجل من مدونة سپيوس أرتميدوس هذه الجملة التى قد تعبر عن سَوْرة العاطفة العشقية: *إن ابتلاع أندائه هو خبزى. إنى أحيا من أعضائه، فأنا وهو واحد*[٥٦].

الملكة والملك

ترى ماذا حدث للملك الشاب تحوتمس الثالث بعد العام السابع؟ وما هى الدسائس الخطيرة التى دفعت من سيصبح الإمبراطور العظيم إلى الرضوخ موقتًا وقبوله القيام بدور ثانوى؟ لا نعلم شيئا. ولكنه حاضر فى المشاهد الدينية والسياسية وغيرها.

وكما رأينا[٥٧] فى الدير البحرى، فإن صورة حتحور وهى ترضع حتشپسوت يعبدها تحوتمس الثالث. وبطبيعة الحال فقد كانت لفتة من جانب أتباع الملكة تنم عن سياسة حكيمة.

وفى نقش يحتفظ به متحف القاهرة، صُوّر مركب أمون المقدس فى إطار موكب إحتفالى. وعند بداية رحلته، نرى تحوتمس الثالث يؤدى شعيرة إطلاق البخور. أما فى

(*) فى نظر اليهود، أورشليم القدس، هى مركز الكون! (المترجم)

المحطة الثالثة، فإن حتشپسوت هى التى تقدّم القربان. وعند ابحار المركب على صفحة النهر فإن تحوتمس الثالث هو الذى يقوده بالمجداف، فى حين تقف حتشپسوت أمام الناووس الذى يضمّ التمثال الإلهى(٥٨).

وفي بعض الأحوال تحتفظ معابد النوبة بدليل وجود الملكة والملك. ففى بوهن(٥٩) دوِّن نصان تكريسيّان:

- النص الأول داخل الباب الأول:

لقد شَيّد هذا المبنى من أجل أبيه حورس، رب بوهن، إنه معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل.

- والثاني على أحد أبواب القاعة الثانية:

لقد شَيّدَت هذا المبنى من أجل أبيها حورس، رب بوهن، إنه معبد من حجر النوبة الأبيض الجميل(٦٠).

هل كانتا مدونتين تكريسيتين متعاقبتين؟ من الممكن. ولكن توجد مشاهد يظهران فيها معًا، جنبا إلى جنب.

ففى معبد سمنة(*) حيث كان يعبد أيضًا الملك سنوسرت الثالث، تقف الإلهة ساتيس – إلهة إلفنتين – والإله ديدون النوبى، أمام الملكين الذين يرتبط كلاهما فى سياق المدونة بسلالة الأسرة الحاكمة:

- حديث موجه إلى ساتيس:

إن ابنتك ومحبوبتك [ماعت كارع] ووريثتك المفعمة بالخير وزوجة الإله والزوجة الملكية العظيمة المنبثقة منك، قد أطعمتيها من لبنكِ. إنها ابنتك المنتسبة إلى جسدك. لقد شَيّدَت من أجلكِ مبنى، تعبيراً عن شكرها لك.

(*) جنوب الجندل الثاني. (المترجم)

• كلمات قالها ديدون القائم على رأس النوبة:

يا بنيّ، يا محبوبي من خبر رع كم هو جميل هذا المبنى الكامل الذى شيدته من أجل ابنى المحبوب، ملك مصر العليا ومصر السفلى خع كاو رع(*). ومن الآن سيبقى اسمه مزدهرًا، للزمن الأبدى[٦١].

ونلتقى فى معبد قمنة بالتوأم ذاته بين الآلهة والعاملين الملكيين:

• يتحدث خنوم إلى حتشبسوت:

يا ابنتى، يا محبوبتى... فى الثناء والمديح لهذا المعبد الجميل الذى يقاوم الزمن، وشيدته من أجلى.

• حتحور تتحدث إلى تحوتمس الثالث:

مرحبًا، مرحبًا، فى سلام... ملك مصر العليا ومصر السفلى من خبر رع. إن قلبى سعيد عندما أتأمل كمالك. كم هو راضٍ والدك خنوم بسبب هذا المبنى[٦٢].

كما يلتقى «الصنوان» الملكيان بمناسبة العيد اليوبيلى. وهكذا فعلى أحد أعمدة الشرفة الثانية بالدير البحرى...

• ... صورت حتشبسوت أمام آمون:

الإحتفال الأول بالعيد- سد ليتها تؤدى منه أعدادًا لا حصر لها!

• كما صور تحوتمس الثالث أمام رب الكرنك:

الإحتفال الأول بالعيد- سد. ليته يؤدى منه أعدادًا لا حصر لها![٦٣]

وفى الدير البحرى أيضًا يقف أنوبيس أمام الملكين ويتحدث إلى حتشبسوت قائلاً:

إنى أجدد من أجلك الإحتفال بالأعياد ـ سد بعظمتها وأعدادها الكثيرة.

(*) سنوسرت الثالث. (المؤلفة)

في حين تتحدث حتحور إلى تحوتمس الثالث قائلة:

إنى أجدد من أجلك الأعياد- سد[٦٤].

ونصل إلى هذه الصيغة الغريبة للعبارات المنقوشة على تمثال «*الابن الملكى*[*]»، قائد حاملى الأقواس: **إينيني**. وربما كانت هذه العبارات تستعيد الموقف الملتبس حتى في أذهان الأشخاص الذين عاشوا إبان هذا العصر:

أداء المديح والثناء من أجل ماعت كارع، الإلهة الكاملة وسيدة القطرين، بالتزامن مع تبجيل الإله الكامل من خپر كارع، سيد إقامة الشعائر... حتى يقدما القرابين التى تخرج (إلى الوجود) عند النطق بها...[٦٥]

إن ألقاب الملك الأساسية المصاحبة لصفة «**الإله الكامل**» التقليدية موزعة توزيعاً حصيفاً ودقيقاً على الملكين وقد اتحدا معاً من خلال الإجلال والإحترام ذاتهما.

إن **نحسي** المنحدر من أصول نوبية، كما هو واضح من اسمه، والمشرف العام على الخزينة قد أمر بنقش أسماء الملكة والملك على ساكف باب مدخل مقبرته التذكارية في **جبل السلسلة**.

ويبدو أن **تحوتمس الثالث** قد خرج في العام ١٦، على رأس حملة عسكرية إلى **وادى المغارة** في شبه جزيرة سيناء. إن اللوح الحجرى الذى يخلد ذكراها والذى أقامه **خروإف** أحد قواده يعبر عن «*الحرج*» ذاته. ففى الجزء المقوس فى أعلى اللوح نشاهد **حتشپسوت** و**تحوتمس الثالث** وهما يقدمان قرباناً إلى الإله **سوپدو** والإلهة **حتحور**. ويوضح المتن ما يلى:

العام ١٦، من عهد جلالة ماعت كارع ملك[**] *مصر العليا ومصر السفلى محبوب*[**] *الإله سوپدو، رب الشرق.*

الإله الكامل من خپر رع، محبوب حتحور، سيدة الفيروز.

(*) إنه مجرد لقب شرفى. (المؤلفة)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

وتؤكد المدونة ذاتها على الآتي:

كان الملك على رأس جيشه ليطأ بقدميه وديان خفية ويملأ قلب الحورس القائم في القصر بأن يجلب لصاحب الجلالة.... [باقي النص مهشم][٦٦].

إن تحوتمس الثالث الذي ظلت صفته الملكية مؤكدة، جنبا إلى جنب، مع الوضع ذاته للملكة، ربما ظل يقوم آنذاك بدور قائد الجيش؟ ولا شك أنه كان عاجزا في هذه الفترة وظل ينتظر لحظة تسلمه مقاليد السلطة. فهل كان الجيش مجالاً مناسبًا له، ليساعده على استعادة عرش أجداده فيما بعد؟ وكما سيتأكد لنا سيصبح قائداً صنديداً وأكثر القواد بسالة وإقداماً في التاريخ. ومن المحتمل أن رجال الجيش كانوا من المؤيدين المخلصين له.

ولكن زمرة عريضة كانت تلتف حول حتشبسوت وتضم رجال البلاط الذين أسندت إليهم كبرى مناصب الدولة وكان وجودهم يفسر العجز المؤقت للملك الشاب.

كما أن إلتباسًا آخر يضفي في نظرنا، عدم اليقين على هذا العصر، وينبع من «الطبيعة» ذاتها للملكة. أكانت ملكًا أم ملكة؟ فكما لاحظنا، كانت النصوص تشير إليها تارة، في صيغة المذكر أو في صيغة المؤنث، تارة أخرى. كما يكشف فن صناعة تماثيلها عن «عدم اليقين» ذاته، عند تشكيل ملامحها الجسمانية: وجه نحيف وجسد شبابي يرتدي نقبة ملكية أو فستان بحمالتين كما شاع استخدامه عند النساء، وبصدر قوي العضلات أو بثديين مستديرتين، وعلى الرأس التيجان التقليدية أو غطاء رأس حتحوري، بخصلات مقصبة كما في تمثال أبو الهول في أحد متاحف روما[٦٧]. أما تمثال نيويورك لأبو الهول[٦٨] فإنه يبرز أنوثته رغم كل شيء: إن لبدة الأسد الكثيفة وأذني الحيوان العريضتان تطغى على الوجه الرقيق بقسماته اللطيفة للمرأة التي حاولت التنكر لطبيعتها، فأرادت أن تكون ملكًا لتحقق طموحاتها على أكمل وجه.

٢- صعود نجم كهنة آمون
وهيمنة أصحاب الحظوة

شكّل عهد حتشبسوت تهديداً للإستقرار الداخلى للدولة. وبالفعل، فقد تقاعست الملكة بلا شك، عن الإهتمام بالمصالح العليا للحكومة المصرية وصار شغلها الشاغل تدعيم حكمها، بأن أحاطت نفسها بمجموعة من الخلصاء الأوفياء وعهدت إليهم بأعلى المناصب.

حپوسنب

هكذا فقد كان حپوسنب فى آن واحد، وزيراً وكبير كهنة آمون- رع، الأمر الذى لم يحدث أبداً من قبل. فكان أشبه فى العصر الحديث برئيس وزراء يشغل فى الوقت نفسه منصب بابا روما. وكافأت حتشپسوت كهنة آمون الذين ساندوها وشدّوا من أزرها، فخصّتهم بأرفع المناصب الواسعة السلطات، وهو وضع ظل يرتاب منه على الدوام أسلافها فتجنبوه. فكان أول «تنازل» بالغ الخطورة، سوف يترتب عليه فيما بعد متاعب ومشاكل جمة للملوك الذين خلفوها.

كان حپوسنب ينتمى إلى عائلة من الكهنة. كان أبوه حپو «*كاهنا طاهر اليدين والكاهن المرتل الثالث فى خدمة آمون*»[٦٩]. كانت هذه الرتبة تحتل وضعاً وسطاً فى السلم الهرمى لكهنة الكرنك. كما كان أخوه أيضاً مرتبطاً بمبعد آمون. وكان لهذه العائلة مكانتها فى البلاط الملكى: فوالدته كانت «مرضعة ملكية». وكان يقع الإختيار على المرضعات الملكيات، من بين زوجات الضباط وكبار الموظفين الذين تربطهم، تأسيساً على ذلك، علاقة حميمة بالعاهل الملكى، لأن قرابة الرضاعة كان لها القدر نفسه من الإحترام مقارنة بقرابة الدم. وللحصول على هذا اللقب، لم يكن من الضرورى بلا شك أن تستمر الرضاعة لفترة من الزمن، بل كان يكفى أن تقرّب المرأة ثديها من الطفل الملك لحظات محدودة[٧٠]. كما كانت زوجة حپوسنب مخلصة للإله

وللملكة. وعُثر في الفناء الأول من المعبد الجنائزي للملكة بالدير البحري على أوستراكون صغير من الحجر الجيري، دُوِّنت عليه قائمة قرابين جلبتها **أمنحوتپ** زوجة **حپوسنب** إلى معبد **أمون** راعي هذا المكان، ولا سيما خمسة آنية بخور من أجل إحراقه. ويبدو أنها كانت تقدمة شخصية من العائلة، خلافًا للقرابين التي أحضرها كبير الكهنة ذاته(٧١).

كانت اختصاصاته تمتد لتشمل مجمل أملاك آمون. وعلى تمثال **حپوسنب**، وهو من مقتنيات متحف **اللوڤر**، يمكن أن نقرأ:

*لقد شغلت منصبي بصفتي كبير الرؤساء في **الكرنك** في معابد آمون، وفي كل الأراضي التابعة (للإله) آمون، لأن الذهب كان على ختمي*(٧٢).

وبالإضافة إلى هذا المنصب المرموق شغل أيضًا منصب «مدير جميع كهنة(*) *الجنوب والشمال*». ولأول مرة نجد أن منصب كبير كهنة آمون يخوله حق الرئاسة على سائر العبادات.

إن النص الجنائزي الخاص «**بتبرنته**» المدون على أحد تماثيله الموجود حاليا في متحف مدينة **بولونيا** **بإيطاليا**، يقف شاهداً على علو كعب هذا الشخص من الناحية السياسية:

النبيل الأمير الذي يقترب من الجسد الإلهي، صاحب النِعَم الثابتة. عظيم هو الحب الذي يبعثه في النفوس. إنه يرتقي بالقصر الملكي ذاته، إنه العالِم الذي يفض مغاليق أسرار التاسوع الإلهي... رئيس أسرار الصلّين، ومدير أعلى المناصب، كبير كهنة آمون، إنه حپوسنب، فيقول(**):

«كنت من الأعيان وأقيم العدل في الأرض كما يفعل إلهي. لقد حضرت الآن إلى مدينة الزمن الأبدي، إلى إقليم الزمن اللانهائي. لقد انجزت ما كان يرجوه البشر

(*) أي «خدام الإله». (المؤلفة)

(**) من الملاحظ أن وظيفة الوزير لم تذكر إلاّ على تمثال **اللوڤر**. هل معنى ذلك أنه لم يشغلها إلا بصفة موقتة؟ (المؤلفة)

وما كان يمتدحه جميع الآلهة. لقد اصطحبت الحورس، سيد القصر واطعت كل الأوامر التى أصدرها إلىّ. لم أقصّر فى أى عمل انجزته، من أجل رب القطرين. لم ارتكب من جانبى أى خطأ فى القصر ولم يوجه إلىّ رجال البلاط أى لوم ولم يُؤخذ علىّ أى إهمال فى تصرفاتى فى معابد المدن. ولا يوجد أى عمل سرّى أفشيته للخارج. لقد ارتقيت مستفيدًا من الأفضال والمنن التى يتمتع بها خلصاء الملك، وأرقد الآن فى الغرب الجميل. إن بائى فى السماء وجسدى فى القبر. لقد اتّحدت بالإله الذى أخلصت له على الدوام(٧٣).

شارك حيوسنب فى كل أحداث عصره الهامة: من كبرى الإنشاءات إلى الرحلات والأسفار. إن النص المنقوش على تمثال اللوفر يقدم حصراً بالعديد من الأعمال الضخمة التى كان يسهر على متابعتها وتفقدها، من بوابات ومقاصير الناووس ومركب آمون وصروح. إنها سلسلة طويلة من الأعمال وهناك جملة استرضائية تذيل كل انجاز من انجازاته وكأنها، لازمة تتكرر بلا انقطاع:

صُنع لصاحبة(*) الجلالة ماعت كارع، ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين ليتها تحيا(*)، فى حين كنت مدير الأعمال بفضلها(*)(٧٤).

وكان يطيب له أن يصور نفسه فى قاعة مقبرته الرئيسية وهو يشرف على قطع أشجار البخور فى بلاد پونت: فنشاهد حيوسنب واقفًا بين الصحراء الوردية والبحر، مرتديًا نقبة طويلة، مستندًا إلى عصا كبيرة، وينظر إلى الرجلين اللذين لم يتبق سواهما وهما يقتلعان أحد الأشجار النفيسة التى ستنقل إلى مصر(٧٥)، هكذا سجّل أعظم حدث شهده عهد حتشپسوت!

وشأنه شأن عظماء عصره شَيد حيوسنب لنفسه مقبرة تذكارية(٧٦)- هى المقصورة رقم١٥ حاليًا- وسط تلال جبل السلسلة على البر الأيسر من نهر النيل على بعد ١٣٠كم جنوب الأقصر و٦٠كم شمال أسوان. كما كان الموقع يضم محاجر عظيمة

(*) هكذا فى المؤنث. (المترجم)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

الأهمية للحجر الرملي الناعم. وكانت مقبرته في الشيخ عبدالقرنة فسيحة إلى حدٍّ ما. إن أساطين متصلة تحدد المدخل عن يمينه ويساره. وكان ممر طويل يفضي إلى قاعة مزدانة بالرسومات وإن كانت مشوهة تشويهًا بالغًا في الوقت الراهن، وما زالت تحتفظ بقواعد أربعة أساطين مستديرة. وكانت بئر تؤدي إلى حجرة الدفن.

سن موت...

كان سن موت من أكثر رجال البلاط المقربين إلى حتشپسوت.

إنه: الصديق الأوحد والمشرف العام للزوجة الإلهية والمشرف العام على المقر الملكي والمشرف العام على كافة الأعمال الملكية، ويمتد سلطانه إلى كل وظيفة إلهية، والمشرف العام على شونة آمون المزدوجة والمشرف العام على حقول آمون والمشرف العام على قطعان آمون والمشرف العام على حدائق آمون وخادم المركب أوسرحات للإله آمون ومدير خدم مونتو في هرمونتيس وخادم ماعت[٧٧]. هكذا كان من نصيبه ألقاب البلاط الملكي ومناصب الكهنة المتعددة ويدين بكل شيء، إلى إنعامات الملوك.

كان والداه رع مس و حات نفر وشهرتها تيوتيو، رقيقي الحال، وإن كانت والدته تمتلك بعض الأراضي. وعلى حد قول بعض علماء المصريات[٧٨] ربما كان سن موت جنديًا في مستهل حياته. وتستند هذه الفرضية إلى نص أحد التماثيل الذي يطلق عليه وصف...

...المقاتل الباسل بفضل ساعده، المصاحب للملك في البلدان الأجنبية جنوبًا وشمالاً وشرقًا وغربًا ... فظل يُمنح ذهب الحظوة على الدوام[٧٩].

من المحتمل إذن أنه رافق في بداية الأمر تحوتمس الأول في حروبه الأجنبية. ومن ثم فقد تُشبه مسيرة حياته المهنية في بعض جوانبها حياة أحد الرجال البواسل الآخرين، نقصد أحمس- پن- نخبت[٨٠]. وبالفعل فقد كان سن موت أيضًا مثل هذا الأخير، المعلم المربي لأميرة ملكية هي نفرو رع المولودة من اقتران تحوتمس الثاني بحتشپسوت. لقد ارتبط بالبلاط الملكي منذ عهد تحوتمس الثاني. وربما دفعه طموحه

منذ وقت مبكر، ليصبح أحد أفراد الجماعة الملتفة حول الملكة الشابة وسرعان ما نجح فى الفوز بتقديرها. والشاهد على ذلك، على وجه التحديد، التماثيل العديدة التى تصوره، وكلها هبات ملكية. وقد أقيم أحدها فى معبد الإلهة مُوت بالكرنك...

...حتى يظل فى معبد مُوت، سيدة إيشرو[٨١]، ويتلقى القرابين التى تتراكم أمام هذه الإلهة العظيمة[٨٢].

إن مصدر الوجبات الغذائية المخصصة للعظيم **سن مُوت** فى العالم الآخر، سيصبح المصدر نفسه الذى تأتى منه وجبات الإلهة زوجة **أمون**.

ومن عهد إلى آخر، سيظل مرتبطًا بأصحاب السلطان، فى وقت من الأوقات. ويصوره تمثال – مكعب يحتفظ به متحف **برلين** وهو يمسك بربيبته الطفلة **نفرورع**. ويقول النص بلا مُداورة:

أنا من الكبراء والأعيان، المحبوب من سيده والذى يلمّ بأعاجيب سيدة القطرين. لقد أعلى(*) من شأنى أمام القطرين. لقد رقّانى إلى «الفمّ الأعلى» فى منزله، بل وفى ربوع البلاد قاطبة. كنت أعمل وأنا أترأس أسمى الأفراد وأبرزهم. كنت أعظم مديرى الأعمال. كنت فى هذه البلاد تحت إمرته، إلى أن تحين لحظة رُسوه (وفاته). والآن فأنا على قيد الحياة، إلى جوار سيدة القطرين ماعت كارع ملك(**) مصر العليا ومصر السفلى، ليتها تحيا إلى أبد الآباد[٨٣]!

وبالفعل فبقيادة **سن موت** السديدة، أُنجزت كبرى أعمال **حتشپسوت**، فكان على وجه التحديد، المهندس المعمارى الذى شيّد معبدها الجنائزى **بالدير البحرى**. وقدّم هو شخصيًا وصفًا لأنشطته المتنوعة فى سياق النص المنقوش على تمثال الكرنك:

*صدرت الأوامر إلى المشرف العام **سن موت** بإدارة كافة أعمال الملك فى **الكرنك** وفى **هرمونتيس** وفى معبد **أمون** (الذى يطلق عليه) «رائعة الروائع» (أى معبد الدير*

(*) تحوتمس الثانى. (المؤلفة)

(**) هكذا فى المذكر. (المترجم)

البحرى) وفى معبد موت فى إيشرو وفى حريم آمون الجنوبى (أى معبد الأقصر)، إرضاءً لجلالة هذا الإله المعظّم، جاعلاً منشآت سيد القطرين مباركة وخيّرة.

(كما صدرت إليه الأوامر) بتعظيم الأعمال... وجعلها مباركة وخيّرة، دون أن يظل وجهه أصمّ، طبقًا لأوامر القصر الملكى. كما صدرت إليه الأوامر بأن يكرّس نفسه لذلك، لفرط ما كان له من تأثير على قلب (تحوتمس الثانى؟ أم الملكة؟) وتحقق ذلك، على أكمل وجه، تنفيذاً للأوامر الصادرة، وكان ذلك مفيداً فيما أنجز، وفقًا لرغبة صاحب الجلالة حول هذا الموضوع. أنا مخلص وعادل ولا مثيل لى وذو قلب شديد البأس. (أنا أعمل) بلا انقطاع فى المعالم الإنشائية لسيّد الآلهة، أنا سن موت، خازن ملك مصر العليا ومصر السفلى، وخادم الإله آمون(٨٤).

أكان متكبراً مزهواً بنفسه؟ ربما، لا سيما إذا أخذنا بعين الإعتبار هذه القصيدة القصيرة التى نظمت تمجيداً له، وهى جزء من هذا النقش ذاته:

إنه يقول:

أنا أعظم العظماء فى هذا البلد بأسره، أنا الذى يُنصت إلى ما ينبغى الإنصات إليه، أنا المتفرد الأوحد من بين سائر المتفردين- والمشرف العام فى خدمة آمون، أنا سن موت.

أنا، فى الحقيقة، صديق الملك الحميم، أنا الذى ينجز كل ما يمتدحه سيده، على مدار الأيام - والمشرف العام على قطعان آمون، أنا سن موت.

أنا من يكتشف الحقيقة ولا يظهر بمظهر المتحيز ويَسعد بكلماته رب الأرضين، أنا فم نخن - وخادم الإلهة ماعت، أنا سن موت.

أنا من يُصدر الأوامر... فى مخزن قرابين آمون كل عشرة أيام - والمشرف العام على شونة آمون المزدوجة، أنا سن موت.

أنا من يؤمّ أعياد الآلهة على مدار الأيام، من أجل حياة وازدهار وصحة السيد الملكى - والمشرف العام على حقول آمون، أنا سن موت.

أنا أقوى الأقوياء، على رأس العظماء، فأدير كل الأعمال الإنشائية من أجل القصر الملكي وأشرف على كافة أعمال الحرفيين - ورئيس خدم مونتو في هرمونتيس، أنا سن موت.

أنا من تُعرض عليه شئون القطرين ورئيس الجنوب، بينما الشمال تحت ختمي، فمساهمات منتجات البلدان الأجنبية تحت سلطاني.

أنا من يعرف الجميع، ما اتخذه من إجراءات في القصر الملكي، أنا كاتم أسراره الحق، أنا محبوبه، والمشرف العام على حدائق آمون(٨٥)، أنا سن موت.

وتشهد مدونة صخرية قرب أسوان أنه كُلّف أيضاً بقطع مسلتين كبيرتين وربما كانتا المسلتين اللتين اقيمتا من أجل آمون في معبد الكرنك(؟) أو اللتين اقيمتا على الأرجح في إلفنتين:

أنجز هذا العمل من أجل الزوجة الإلهية التي تدبّر شئون ربوع القطرين، من قبل حامل ختم ملك مصر السفلى، الصديق المفعم بالحب، والمشرف العام العظيم، أنا سن موت وأنا النبيل والأمير وكاتم الأسرار المقرب من الزوجة الإلهية، ومن يُسعد بكلماته سيدة القطرين، وخازن ملك مصر السفلى والمشرف العام العظيم في خدمة الأميرة الملكية نفرو رع، لقد جئت لإقامة المسلتين الكبيرتين لملايين السنين، أنا سن موت...

حدث ذلك من أجل مجد صاحبة(*) الجلالة(٨٦).

كان طموحاً بلا شك، ومتكبراً بكل تأكيد، ولكنه وفيّ مخلص للملكه التي جمعته بها أوجه اتفاق كثيرة. تلك هي الصورة التي يمكن أن نرسمها للشريف النبيل سن موت. كما كان لشخصيته ملامح أخرى.

أقام سن موت لنفسه مقبرة تذكارية في جبل السلسلة، هي المقصورة رقم١٦. وتتكون أساساً من حجرة تبلغ ٢٤٧سم عمقًا و٢٤٥سم عرضًا و١٩٨سم ارتفاعًا.

(*) هكذا في المؤنث. (المترجم)

وتضم كوة بها تمثال لصاحب المقبرة. ويحتفظ السقف بآثار ألوان تُشكل زخرفًا هندسيًا على هيئة دوائر حلزونية، خضراء في وسطها ومحيطها باللون الأحمر، وأشرطة أفقية خضراء أو عديمة اللون بالتناوب ولكنها محاطة باللون الأصفر(٨٧). تلك هي ألوان الكون والحياة الأساسية. كما رسمت على الجدران مشاهد دينية تصور سن موت وهو يتعبد للآلهة.

حفرت أولى مقبرتيه في **الشيخ عبد القرنة** وتحمل رقم٧١. ومن المعتقد أن العمل فيها قد بدأ في العام السابع(٨٨). وشُيدت الأخرى وهي الثانية في وقت لاحق، كإنعام تفضلت بها صاحبة الجلالة، وكانت في **الدير البحري** ذاته وتحمل الرقم٣٥٢، وحفرت أسفل معبد الملكة وتوجد حجرة الدفن في الجزء المقدس من هذا الأثر العظيم. ويفضي ممر هابط إلى حجرة تتميز على نحو خاص بسقفها الفلكي الذي يصور **الديكان**(*) **Decan** والكوكبات **constellations**: نذكر منها الجوزاء والشعرى اليمانية والمشترى وزحل والدب الكبير ونجم القطب الشمالي ودوائر شهور السنة الإثني عشر. ويظهر الاسم **الحوري** للملكة وهو «*ذات الكاءات القوية*»(**) وسط الكوكبات لأن صورة **حتشبسوت** موجودة في كل مكان. كما أن صورة **سن موت** موجودة في معبد **الدير البحري** ذاته. فخلف أبواب مقاصير **أنوبيس** أو **حتحور** أو **تحوتمس الثالث**، على حدٍ سواء، يمكن رؤية صورة الأثير القوى صاحب الحظوة، راكعًا وقد أدار يديه في وضع التعبد في اتجاه قدس الأقداس «*لتقديم المدائح إلى ماعت كارع*».

إن شكل تابوت **سن موت** يشبه تابوت الملكة الثاني. إنه شاهد محرك للمشاعر يعبر عن مودة حقيقية. وقد عثر عليه عالم المصريات الأمريكي **وينلوك Winlock**

(*) من كلمة Decanus اللاتينية وهي من مشتقات Deka أي عشرة. والديكان هو الجنيّ المهيمن على كل عشر درجات من دائرة البروج السماوية. لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتي. دار المستقبل العربي-٢٠٠١. ص١٥١.(المترجم)

(**) «أوسرت كاو»، بالمصرية القديمة. (المترجم)

مهشمًا، إلى أكثر من ثلاثة آلاف جزء، ولكنه استطاع ترميمه وإعادته إلى شكله الأصلي. فكانت لعبة كبيرة احتاجت منه تحمل ما لا يطاق من صبر وجلد.

وآخر المطاف دفن سن موت في مقبرته في القرنة. هل كان قد فقد حظوته؟ أمن جانب الملكة؟ أو بتحريض من حزب تحوتمس الثالث؟ وما زال تاريخ اختفائه وظروفه الدقيقة سرًا دفينًا. ومن المرجح أنه توفي قبل الملكة. وشُوِّهت تماثيله وحُطِّمت، شأنها شأن تماثيل حتشپسوت، وقام بهذا العمل تحوتمس الثالث بعد أن أصبح العاهل الملكي الوحيد وانفرد بالسلطة.

بعض أعيان الدولة الآخرين..

كان حپوسنب و سن موت اللذان يتحكمان في كافة المناصب الكهنوتية والدنيوية الكبرى، من أهل الحول والطول ومن أصحاب السلطة والنفوذ في عهد الملكة. وينظر إليهما بصفتهما من المقربين إليها ومن ذوي الحظوة.

ولكن هناك آخرين من الذين انحازوا إلى حزب الملكة وتصدَّوا لأكثر من عقد من الزمن، لحزب تحوتمس الثالث.

ونذكر وزيرًا آخر نال بعض الأهمية في عهد حتشپسوت: إنه أحمس وشهرته عامثو، وربما كان سابقًا على حپوسنب؟ أو حاكمًا في جنوب البلاد؟ وإليه تنتسب سلالة حقيقية من الوزراء. إن ابنه أوسر كان وزيرًا منذ العام الخامس(٨٩) وسوف يصبح حفيده رخ مي رع وزيرًا في عهد تحوتمس الثالث. ولا نعرف أحمس سوى معرفة محدودة، إذ لم تصلنا عنه سوى وثائق قليلة نسبيًا. ففي مقبرة في الشيخ عبد القرنة نقرأ هذا النص الأخلاقي، بجمله وصيغه المألوفة أحيانًا:

لم يضرب أباه. لم يدخل التعاسة على أمه. لقد حقق كل ما برح الملك يمتدحه على مرّ الأيام. كان الكذب مكروهًا له. لم يقترفه أبدًا. لم يأكل مما تمقته الآلهة، ومن ثم سوف يتناول إلى جانبهم من الطعام الذي يقدم على مائدة رع، كل يوم وللزمن اللانهائي واللزمن الأبدي... إنه أحمس المقتدر والنبيل والأمير وشهرته عامثو الذي يحقق تحوله إلى با حي. إنه المشرف العام على المدينة والوزير الذي يعزز الحقيقة

والعدالة ويطرد الشرور، إنه العظيم فى مقامه الرفيع. ومن ثم سوف يرى من جديد بيته إبان زمن حياته. ويضمن الحماية السحرية لأولاده على مرّ الأيام، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى(٩٠).

ويخفى علينا «ترتيب» هؤلاء الوزراء. ومن المعتقد أن **تحوتمس الثالث** قد صعّد إلى هذا المنصب فى العام الخامس أحد العاملين الممتازين فى خدمة الملك وهو **أوسر أمون** وشهرته **أوسر**. هل عُزل عندما تسلّمت **حتشپسوت** مقاليد السلطة؟ من المحتمل. وربما شغل هذا المنصب **حپوسنب** لفترة قصيرة أو **أحمس** وشهرته **عامتو**، بيد أن هذا الأخير كان والد **أوسر**. هل حدثت نزاعات عائلية؟ أم مصالح وراثة عرش متعارضة؟ سوف نفهم بوضوح هذا العهد «المزدوج» واغتصاب **حتشپسوت** للحكم عندما ستصبح تحت تصرفنا وثائق جديدة. إن إعادة صياغة تاريخ مصر هى أيضاً لعبة كبيرة تحتاج إلى صبر ورجاحة عقل.

كما كان **چحوتى** وفيًا **لحتشپسوت** مخلصًا لها وخازنها الأكبر، وخلف **إينينى** فى هذا المنصب. فقد قام بإمداد كبرى المنشآت فى **الدير البحرى** و**الكرنك** على حد سواء، بما تحتاجه من معادن. وعند عودة رحلة **پونت**(٩١) كان هو الذى يزن المنتجات المجلوبة أو يكيلها. إن نصّىْ اللوحين الحجريين اللذين عُثر على أولهما فى فناء مقبرته **بدراع أبو النجا** وحاليًا فى متحف **نورثهامپتون Northampton** والآخر عند الجدار الشمالى من الحجرة الأولى - يشهدان بإسهاب على أنشطته:

*كل أعاجيب البلدان الأجنبية وكل ضرائب جزيتها وأفضل منتجات بلاد **پونت** الرائعة، تقدم بأسرها إلى **آمون**، رب **الكرنك** من أجل حياة وازدهار وصحة صاحب الجلالة، وحتى يمتلئ بيت هذا الإله المعظَّم الذى وهبها القطرين. هذا الإله كان يعلم أنه(*) يقدمها له.*

أنا الذى كنت أعدّ حصراً بكل ذلك، تعبيراً عن مدى تأثيرى على قلب صاحب

(*) الضمير فى المذكر رغم أنه يشير إلى حتشپسوت. (المترجم)

الجلالة. كانت حظوتى وطيدة لديه(*)... منذ أن ميّزنى من بين أفراد حاشيته. كان يعرف أننى مخلص وفىّ نحوه، عارفًا أننى أنجز، ما يُقال. كان فمى لا ينبس بكلمة حول شئون بيته. وصعّدنى إلى منصب مدير قصره، لأنه كان على علم بذكائى فيما أفعل. أنا الذى كنت أختم الخزينة. إن مختلف أنواع الأحجار الكريمة كانت فى معبد ***آمون بالكرنك*** *الذى كان مكدسًا حتى السقف بنسرائب الجزية. أبدًا لم يحدث شىء مماثل، منذ زمن الأجداد.*

وأمر صاحب الجلالة أن يصنع... بالذهب الخالص، وبأفضل ما يأتى من الصحارى، داخل قاعة الأعياد الكبرى، وحُدّدت المقادير بالمكيال ***حقات***[٩٢]*، من أجل* ***آمون*** *فى حضرة البلاد قاطبة. المجموع الكلى: ٨٨* ***حقات*** *من الذهب الخالص أو ما يعادل ٨٥٩٢* ***دبن*** *ونصف (حوالى ٨٠٠ كجم) لحياة وازدهار وصحة* ***ماعت كارع*** *ملك(*)* ***مصر العليا ومصر السفلى،*** *ليته(*) يحيا إلى أبد الآباد*[٩٣].

يلقى هذا النص الضوء على خطرين مرتبطين بعهد المغتصبة التى أرادت أن تكون فرعونًا. نقصد بذلك إبراز أصحاب الحظوة المتميزين والثروات التى حصل عليها آمون ومعبده.

وفى معبد موت أقامت حتشبسوت أيضًا تمثالا يحمل اسم سن إم إعح وتصفه مدونات مقبرته رقم١٢٧ فى **الشيخ عبدالقرنة** بألقاب «*الكاتب الملكى وحامل ختم ملك* ***مصر السفلى*** *والمشرف العام على الخزينة وكاتب الحسابات*». كان كبير المشرفين على صندوق مالية الحكومة ومن ألقابه: «*المشرف العام على مكان النبيذ والمشرف العام على النباتات الناضرة والمشرف العام على الريشة والصَدَفة*». وكان يشغل وظائف مماثلة فى الأملاك الإلهية بطيبة: «*المشرف العام على أملاك* ***مونتو فى هرمونتيس*** *وكاتب حسابات مواشى* ***آمون***». إن الصفات التى يُنعت بها تبرز الإمتيازات التى كان يتمتع بها إلى جوار الملكة. إنه «*عينا وأُذنا ملك* ***مصر السفلى*** *وكاتم أسرار الملك فى كل وظيفة والمعلّم الحكيم والعظيم حبًا*[٩٤]».

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

إن مدونات مقبرته جديرة بالملاحظة إلى حد كبير. فيتم تعريف آمون فى ديباجة أحد النصوص على النحو الآتى:

رب الحقيقة والعدالة، ملك الآلهة جمعاء، أعظم العظماء، أبو الآباء، سيد الملايين، فلا مثيل له، الأوحد المتفرد، الذى خلق ما يكون وشكّل ما يوجد، الذى ربط أعضاء البشر، الذى يلهب الحياة المنبثقة من نون ويفتح كل العيون(٩٥).

ومن جهة أخرى فقد نسخ سن إم إعح فى مقبرته النص الذى دونه پاحرى فى مقبرته(٩٦). فهل جمعتهما روابط عائلية؟ أو كانا على علم بنص وجد سن إم إعح متعة فى إعادة نسخه؟

ومقارنة بالنص السابق، فإن قراءة المدونة المنقوشة على تمثال من الحجر الرملى ومن مقتنيات متحف نيويورك فى الوقت الراهن، تكشف بوضوح طبيعة الفكر الدينى المصرى. هذا التمثال يعود إلى ساتپ كا و، أمير ثنى ورئيس خُدَّام الإله فى الإقليم الثينى.

فليتكرم الملك بمنح قربان إلى أونوريس(*) (إله الإقليم المحلى)، *أعظم الآلهة وملك السماء، حاكم القطرين وسيد الكون فى كل مقرّ من مقارّه، الإله العظيم الذى جاء إلى الوجود بذات نفسه، الأقدم الأصلى الذى خلق الأقدمين الأصليين. لقد كان يتمتع بالقوة والذكاء، منذ أن انبثق من نون، هو الذى يعطى تألقه للبشر والذى يضئ نوره التاسوع، الذى يحيا لرؤيته*(٩٧).

الإيمان واحد ولكن الآلهة وأسماءها وأشكالها مختلفة. إن الإرتباط الحميم بأحد الآلهة سواء كان آمون أو أونوريس، يحمل المؤمن على سلوك الدروب الروحية ذاتها: فكل إله هو الأعظم والأوحد المتفرد والأقدم والأصل. ولكن هذه الرؤية لا تعنى أى امتياز لهذا الإله على حساب غيره من الآلهة. إن مجمع الآلهة المصرية هو مستودع ضخم للقوى الفائقة للطبيعة التى تتراص عناصرها الخيِّرة المباركة، جنبًا إلى جنب، وتتراكب لسعادة البشر. إن فكر أمنحوتپ الرابع الذى شاع الإشادة بروائع إبداعاته، من جراء إغفال فترة الإختمار الروحية الطويلة التى تشهد عليها

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم إن-حرت. (المترجم)

النصوص التى سبقته – إن هذا الفكر لم يأت من فراغ. إنما ينطلق كما سنرى من التقاليد المصرية المتواترة وأكثرها عمقًا. ولكن الملك الشاب المتصوف ظلّ على امتداد أربعة عشر عاماً، يضيف إليها التعصب وعدم التسامح.

كان كل إنسان يعبد فى مدينته الإله الذى وقع عليه اختياره. ولكن **آمون - رع**، «*ملك الآلهة*»، يظل إله الملوك المقيمين فى طيبة.

إن وجود «حزب» يناصر **تحوتمس** الثالث شىء ملحوظ، وإن كان من الصعوبة بمكان تأكيده، مع ذلك. وبالفعل نجد أن بعض الشخصيات فى سياق المسارد التى تروى مراحل حياتهم الوظيفية يتجاهلون الملكة، قصداً وعمداً.

فقد سبق أن لاحظنا[٩٨] أن **نب واوى** قد عُيِّن فى منصب كبير كهنة **أوزيريس** فى **أبيدوس** من قبل **تحوتمس** الثالث فى العام الثالث. ويبدأ النص بإعلان، يهدف إلى التأكيد على ما يبدو، على تسلّم العاهل الملكى الشاب مقاليد الحكم:

وُهب مع إنعامات الملك من خبر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، إلى ***نب واوى*** *كبير كهنة* ***أوزيريس***[٩٩].

وعندما أخذ هذا الأخير يقدم حصراً بقائمة ترقياته، يذكر الملك مرة أخرى، ولكنه لم ينبس بكلمة عن الملكة.

هذه المشاعر أكثر وضوحًا فى مدونة لوح حجرى عثر عليه فى مقبرة **نب آمون** بدراع أبو النجا:

إن سيّدى ***عا خبر إن رع***(*)*، ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد جنّد من أجلى إنعاماته. فنصّبنى مُشرفًا عامًا فى إدارة القصر الملكى.*

إن سيّدى ***من خبر رع***، *ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد حدّد من أجلى إنعاماته. فرقّانى لأصبح الأول، وعيّننى مشرفًا عامًا على أملاك الزوجة الملكية* ***نبتو*** (إحدى زوجات **تحوتمس** الثالث).

(*) من ألقاب تحوتمس الثانى. (المترجم)

إن سيّدى من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى قد جدّد من أجلى إنعاماته. فنصّبنى مشرفًا عامًا على كافة سفن الملك. لأننى لم أقترف أفعالاً سيئة. ويستحيل على المرء أن يجد خطأً ينسب إلىّ، كما لم أصبح رفيقًا لمجرم. ومن ثم فقد ارتقيت إلى مرتبة إيماخو(١٠٠)*، فى حين احتفظت بالحظوة التى تجعلنى صديق الملك الحميم*(١٠١).

إن حياة وظيفية بدأت فى عهد تحوتمس الثانى وتعاظمت فى ظل تحوتمس الثالث تتجاهل تماماً حتشپسوت.

ولا شك أن هذه الأخيرة كان لها معارضون متشددون، عقدوا العزم على أن يظل ابن تحوتمس الثانى محتفظًا، بمفرده بالسلطة.

وإذ أرادت الملكة بلا شك أن تضفى رونقًا وأبهة على عهدها، فقد نظّمت حملات تجارية فخمة وأقامت العديد من المعالم الإنشائية فى مصر والنوبة، على حدّ سواء.

٣- عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلابة: الحملات التجارية

كان من الصعب على الملكة أن تخرج على رأس حملات عسكرية. ومع ذلك فقد تترك بعض المدونات شكًا يراود الباحث. ولكن الفرعون إنطلاقًا من تقليد متواتر، هو الظافر المنتصر. ومن المحتمل أن حتشپسوت إذ أرادت أن تتباهى بألقاب تمجدّها وإن لم تكتسبها، استأثرت لصالحها بقائمة مصطلحات أسلافها. وهذا ما يفسّر سيطرتها على آسيا كما وردت فى نص الولادة الإلهية(١٠٢).

وقبل فترة قصيرة كشف عالم المصريات المصرى لبيب حبشى(١٠٣)(*) فى جزيرة سهيل على مخربشة يقول نصها:

(*) يحمل أحد شوارع الأقصر اسم هذا العالم الجليل ويقع بجوار فندق إيتاپ، ويصل شارع معبد الكرنك بكورنيش النيل. (المترجم)

إن تى، النبيل، حامل ختم ملك مصر السفلى، الصديق الأوحد، المشرف العام على الخزينة، المسئول عن ضرائب الجزية، إنه يتحدث قائلاً: «لقد اصطحبت [ماعت] كارع، الإله(*) الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى ليته يحيا. ورأيته بينما كان يصرع النوبيين فى حين تم اقتياد زعمائهم أسرى ليمثلوا بين يديه. رأيته يدمر بلاد النوبة بينما كنت فى معية جلالته».

ولكن قيام حتشبسوت بحملة عسكرية إلى النوبة يظل أمرًا مشكوكًا فيه. فلا ريب أن شواهد أخرى كان يُفترض العثور عليها وهو ما لم يحدث. ومن جهة أخرى فإن بداية الخرطوش الملكى فى هذا النص مشوهة والعلامات المتبقية قد تسمح لنا بقراءة أخرى هى من خپر رع. هذه الفرضية الأخيرة هى الأقرب إلى الصواب، بالنظر إلى أن تحوتمس الثالث قد اضطر عند تولّى حكم البلاد بمفرده، أن يعود إلى فتح أراضى الأمبراطورية التى كانت التهديدات تحاصرها من كل جانب، بسبب خمول الملكة على الصعيد العسكرى، كما هو واضح كل الوضوح. فمن بين المقربين منها لا يُذكر سوى عدد قليل من العسكريين. ولا شك أن الجيش قد ظل إلى جانب الملك الشاب.

الرحلة إلى بلاد پونت

إنها أهم الحملات التجارية التى قامت بها الملكة. إن رواية وقائعها يرويها نص مسهب ومصوّر بالنقوش المنحوتة على الجانب الجنوبى من الرواق الثانى بالدير البحرى. إنها مجموعة مقابلة لمجموعة الولادة الإلهية المنحوتة على الجانب الشمالى من الرواق نفسه.

قامت هذه الحملة فى العام التاسع، وكانت بقيادة حامل الختم نحسى.

(*) هكذا فى المذكر وفى بقية النص أيضاً. (المترجم)

يصور النقش الملكة واقفة أمام آمون الجالس على عرش. وخلف الملكة صُوِّر مركب الإله المقدس محمولاً على أكتاف الكهنة ويتولى تحوتمس الثالث إطلاق البخور في اتجاهه.

- المديح:

الحورس : ذات الكاءات القديرة.

السيدتان : ذات السنوات التي تستعيد إخضرارها.

الحورس الذهبي : ذات التجليات الإلهية.

ملك مصر العليا ومصر السفلي: ماعت كا رع،

صورة آمون المقدسة، فقد رغب أن تجلس على عرشه.

من أجلها أعاد الإخضرار لميراث القطرين ومُلك مصر العليا ومصر السفلي.

لقد منحها كل ما يحيط به قرص الشمس، وما يحتضنه جب و نوت.

فمن الآن لا أعداء لها في بلدان الجنوب، ولا غرماء لها في بلدان الشمال.

السماء والبلدان الأجنبية التي خلقها الله، تعمل جميعها من أجلها.

إنها تتقدم نحوها بقلب مذعور وزعماؤها يطأطئون رؤوسهم، ويحملون على ظهورهم ضرائب الجزية.

ويقدمون لها أولادهم حتى تُعطى لهم نسمة الحياة، بفضل عظمة أمجاد أبيها أمون الذى وضع جميع البلدان تحت نعليها(١٠٤).

● **أمون يفضّ مغاليق الوحي ووعود الإله:**

الملك(*) ذاته، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، صاحب الجلالة المنتمى للقصر الملكى، اقترب من سُلَّم سيد الآلهة. سُمع أمر صادر عن العرش العظيم، إنه هاتف من الله ذاته، يوصى بالبحث عن دروب تفضى إلى بونت وشق الطرق المؤدية إلى مرافئ البخور. ويستدعى الأمر أن ينقل الجيش على صفحة الماء وبرًا، من أجل جلب أعاجيب بلد الإله لتقديمها إلى هذا الإله الذى شكّل جمالها(**). وتصرّف الجميع وفقًا لما أمر به جلالة هذا الإله المعظّم ووفقًا أيضًا لرغبة صاحبة(**) الجلالة، فى هذا الصدد.

كلمات قالها أمون، رب عروش القطرين:

«مرحبًا، مرحبًا، فى سلام أيا ابنتى الوديعة التى فى قلبى، أيا ماعت كارع ملك مصر العليا ومصر السفلى الذى شيد المعالم الصرحية الجميلة وطهّر مقر التاسوع العظيم وملأ معبدى بذكرى حبها.

أنت الملك، أنتِ(**) التى استأثرت بالقطرين، أنت غنمت إمن حتشپسوت، فقرابينك عظيمة، وطاهرة هى أطعمتك، إنك تدخلين الرضى إلى قلبى، فى كل لحظة. لذلك فأنا أعطيك كل حياة وقوة إلى جانبى، وكل ثبات إلى جانبى، وكل صحة إلى

(*) هكذا فى المذكر. (المترجم)

(**) هكذا فى المؤنث. (المؤلفة)

جانبى، وكل سعادة إلى جانبى. كما أعطيك كل الأراضى المصرية وكل الأراضى الأجنبية، حتى يفرح قلبك بفضلها. لقد خصّصتها لك منذ زمن بعيد.

كما أعطيك بونت بأكملها حتى حدود الأراضى الإلهية، أعطيك أرض الله التى لم تطأها الأقدام حتى الآن، ومرافئ البخور التى يجهل وجودها شعب مصر. كانت تصل إلى مسامعه أحاديث كثيرة عنها، نقلاً من فم إلى فم، واستناداً إلى أقوال رجال الزمن الماضى. وبالفعل، فقد سبق أن جُلبت الأعاجيب من هذا البلد إلى جوار آبائك ملوك مصر السفلى ولكن واحدة تلو الأخرى، وذلك منذ زمن الأجداد، وإلى ملوك مصر العليا أيضًا، إلى أولئك الذين عاشوا فى الماضى ولكن مقابل عدد كبير من الهدايا. ولن يصل أحد أبدًا إلى هذه الأراضى باستثناء موفديك. وبالفعل سوف أتصرف بحيث يتجه جيشك إليها، سوف أوجهه على صفحة الماء وبراً، ومن أجلها سوف افتح الطرق بل والسرية منها. سوف «أحرث» مرافئ البخور، هذا الإقليم المقدس من البلد الإلهى. حقًا إنه مكان للمتع والملذات. لقد أوجدته من أجلى، لإنعاش قلبى وترطيبه، بالتزامن مع قلب والدته حتحور، سيدة تاج بونت الكبير، سيدة السماء، الساحرة العظيمة التى تقف على رأس الآلهة جمعاء.

سوف يستولون (أى جنود الجيش المصرى) على البخور كما يرغبون، ويحمّلون سفنهم بأشجار البخور الناضرة وبمختلف المنتجات الطيبة لهذا البلد، إلى أن ترضى قلوبهم. لقد فتنت أبناء بونت الذين كانوا يجهلون شعب مصر، لقد استملت ملتحى[١٠٥] البلد الإلهى نحو حبك. سوف يرفعون إليك الهتافات والتهاليل وكأنك إله، بقدر ما كان مجدك عظيمًا، فى ربوع البلاد. أما أنا فأعرفهم لأننى سيدهم. إنهم يعرفون أننى آمون - رع المنجب الذى قامت ابنته بربط «الجزر» (ربما تشير هذه الكلمة إلى حاو - نبوت؟)، ابنته ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى.

لقد فعلت ذلك لأننى والدك الذى أشاع الفزع منك وسط الأقواس التسعة. سوف يتقدمون فى سلام نحو الكرنك، حاملين معهم أعاجيب عظيمة، وكل الأشياء الجميلة والطيبة من البلد الإلهى والتى ستقوم جلالتك بإرسال من يحضرها: إنها أكوام من البخور وأشجار ثابتة محملة بالبخور الناضر وسوف يختلطون فى بهو

الأعياد، حتى يراها جميع الآلهة. سوف تتولى صاحبة الجلالة شخصيًا الإشراف على نموها في الحديقة التي تحف بمعبدي، حتى يفرح قلبي بفضلها.

سوف يصبح ذلك (مصدر) شهرتي وسط الآلهة وسوف يصبح ذلك (مصدر) شهرتك وسط الأحياء للزمن اللانهائي. السماء والأرض ستفيضان بخوراً والعطور سوف تحل في بيتك الكبير. سوف تقدمينها لي طاهرة وصافية لتُستخرج منها (الأدهان) المخصصة للأعضاء الإلهية، كي يُقدّم البخور وكي تُعدّ الأدهان وكي يُحتفى بتمثالي بالقلائد. وبينما أقوم برشّ الماء الطهور من أجلك، سوف يهلل قلبي فرحًا عند رؤيتك[١٠٦].

● مرسوم ملكي:

حتشبسوت متربعة على العرش توجه كلامها إلى رجال البلاط. يقف أمامها ثلاثة من كبراء الدولة ولكن صورهم مشوهة تشويهًا بالغًا. يذكر النص اسم اثنين منهم: نحسي و سن موت.

العام التاسع - عندئذ تنعقد جلسة في قاعة الإستقبالات ويظهر الملك وسط إشراقات قصره المقدسة متربعًا على العرش العظيم المصنوع من الذهب الخالص، واضعًا التاج آتف[١٠٧] على رأسه. يُسمح للكبراء والأصدقاء بالدخول للاستماع إلى مشروع المرسوم.

مرسوم ملكي صادر إلى عظماء الكبراء والآباء الإلهيين وأصدقاء الملك: «سوف أتألق في وجوهكم للزمن الأبدي، كما تمناه أبي. وعلى كل حال، ظلت (رغبة) العمل العظيمة في قلبي. سوف أفعل كل ما يُمجّد من انجبني، عملاً بما تنبأ به. من أجله سوف أكرّس قرابين كان يجهلها في الزمن الماضي، آبائي المبجلين. سوف أعمل عملاً رائعًا من أجل سيد الزمن الأبدي. سوف أفعل أكثر مما أُنجز من قبل. سوف أفعل بحيث يمكن أن يقال في الأزمنة القادمة: كم هو كامل كل ما حدث بسببها!» وذلك من فرط ما كان اهتمامي به مباركًا وخيّراً وكان قلبي مهتمًا كل الإهتمام بما أمر به.

أنا نوره الوضّاء... لقد نفذت إلى داخل الإله العظيم، لقد أنارني، لقد اختارني

لأنه يعرف امتيازى. سوف أقول لكم شيئا هامًا فتنصتون إليه ليصبح سُطوعى من أجلكم على أرض الحياة: «اقتفوا أثر أفعالى». أنا الإله الآمر بما هو آتٍ إلى الوجود، لا أتفوه أبدًا بما هو مُضـرّ، أنا محبوبته. إن كـائى هو الذى يُخرج كل شىء إلى الوجود، حسب رغبته. تمسكوا بما أمرت به، لأن طول عمركم فى الحياة، فى فمى. انصتوا إذن، سوف يكون كل ذلك مباركًا وخيراً بالنسبة لكم فى الزمن القادم، ومفيدًا فى المستقبل.

انظروا، لقد أمَرَت جلالتى أن تكرس قرابين لمن خلقنى وأن تزاد كمية الأدهان من أجل الأعضاء الإلهية، الأدهان التى أمرت بإعدادها له. وأن تكون كمياتها أكبر مما كانت عليه، فى الزمن الماضى، بفضل أرقى أنواع شحم البقر النقى وأن يتم إمداد احتياجاته من القرابين، على أكمل وجه.

ومن ثم أمَرَت جلالتى بإرسال (حملة) إلى مرافئ البخور وأن تفتح لها أفضل الطرق وتتعرف على ما يجاورها من أماكن وتستكشف دروبها وفقًا لأوامر أبى آمون... سوف تقتلع الأشجار من البلد الإلهى ليعاد زرعها... فى حديقة ملك الآلهة. سوف يتم جلبها إلى هنا محملة بالبخور فى حقيقة الأمر ليتم فى الحال عصر الأدهان التى طَلَبْتها، لأعضاء الجسد الإلهى(١٠٨).

ينطوى الحديث فى بعض مقاطعه على تهديد ضمنى، فيؤكد على نحو خاص على الخيرات والبركات التى توزعها الملكة على كل من يذعن لما تقوله. كما أنه خطاب من أجل تعظيم المجد الأوحد للإله آمون. هذا النص الذى يتخذ شكل المرسوم، يكشف بوضوح عن الإتجاهين اللذين اتّسم بهما هذا العهد.

الرحلة

- ركوب السفن:

صُوِّرت خمس سفن من سفن أعالى البحار: ما زالت اثنتان منها راسيتين. أما أشرعة الثلاث الأخرى فمفتوحة للريح. يمكن مشاهدة مقصورة القيادة بمسطحيها،

أحدهما في المقدمة والآخر في المؤخرة. القيدام والكوثل مرتفعان. السفينة بلا سطح ولها سارية واحدة وعدة أشرعة والدفة تتكون من مجدافين عريضين تحركهما من الخلف قطعة خشب معقوفة إلى الداخل(١٠٩).

تضم الحملة مائتين وعشرة رجال: أي ثلاثين مجدفًا لكل سفينة، وطاقم مكون من واحد وعشرين فرداً، يرافقهم ثمانية جنود وضباط. ومنذ البداية تبدو هذه الرحلة مسالمة إلى أبعد حدّ. وقد نقل معها تمثال ضخم من الجرانيت الوردي يُصوّر آمون والملك لإقامته عند شواطئ بونت:

لقد صَنَعتُ تمثالاً من أجل أبيها آمون - رع، رب عروش القطرين، إنه صورة شامخة (تمثل) ماعت كارع وآمون - رع، رب مجاي وأمير بونت (البلد) المحبوب. لقد شكلتها صاحبة الجلالة بمقتضى ما يمليه قلبها، لتقام في البلد الإلهي. هكذا تقترن صورة هذا الإله بصورة ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. لقد شُكلتا من كتلة واحدة من الجرانيت الصلد. والتاسوع الكبير القائم في بلاد بونت سوف يضمن من خلفهما حمايتهما السحرية، سوف تزدهران وتبقيان في مكانهما للزمن اللانهائي وللزمن الأبدي، أمام مرافئ بخور بونت، المكان المقدس لسعادة القلب(١١٠).

عندئذ تنطلق الرحلة:

وأبحر جيش صاحبة الجلالة على صفحة الشديدة الإخضرار (المقصود بها هنا: *البحر الأحمر*) *وسلك الطريق الجميل الذي يفضي إلى البلد الإلهي ورسى في بونت في سلام، وفقًا لكلمات آمون سيد الآلهة وربّ عروش القطرين الذي يقف على رأس الكرنك - ليعود منها بكافة أعاجيب المنطقة بأسرها، ذلك بقدر ما كان* (آمون) *يحب ابنته ماعت كارع، أكثر من الملوك الذين عاشوا في الزمن السابق. ولن يحدث ذلك لغيرهم من ملوك مصر السفلى الذين سيأتون إلى الوجود في هذا البلد، على امتداد الزمن اللانهائي.*

- **الوصول والاستقبال**

رست السفن عند شاطئ **بونت**، وما زالت قيدامها متجهة ناحية الجنوب. المشهد الطبيعي مشهد إفريقي نموذجي: فيضم أشجار نخيل البلح والجميز ونخيل الدوم وجوز الهند والبخور، إلى جانب أكواخ مخروطية الشكل، محمولة على مجموعة أوتاد. ويصعد المرء إليها على سلَّم. أما الفونة فتضم بعض القردة وأحد الطيور.

تجرى وقائع الإستقبال فيما بعد وفي مكان لا يبعد كثيراً عن الشاطئ الذى يشير إلى وجوده المجاور لشريط من الماء. وعلى اليسار يقف قائد الحملة **نحسي** الذى يتّكئ على عصا طويلة، ويتقدّم الضابط والجنود المسلّحين بالبلط والحراب والتروس. وعلى مائدة منخفضة وضعت الأشياء المعدّة للمقايضة: قلائد ذهبية ولآلئ وأساور وسيف. ومن جهة اليمين يأتي الزعيم **پارحو**، فيتقدّم ناحية المصريين وتتبعه زوجته **إيتي**، بأردافها الممتلئة شحمًا، لأنها كانت تعانى من بدانة مفرطة مَرضية ومصابة بداء انحناء العمود الفقرى إلى الأمام. هل المقصود صورة كاريكاتورية أم سمة من السمات العرقية لدى قبائل **الهوتانتوت** أو **البوشمان** أو الأقزام؟ وسار من خلفهما ابناهما وابنتهما. هكذا تواجدت القبيلة بأكملها. ويقود الحمار الذى يحمل الملكة ثلاثة من أبناء البلد.

ويقدم النص شرحًا لما سبق:

*وصل الموفد الملكى فى صحبة الفرقة التى كانت فى معيته إلى البلد الإلهى والتقى بكبراء **بونت**. كان محملاً بأشياء جميلة وطيبة مقدمة من القصر الملكى، من أجل حتحور، سيدة **بونت** - ذلك لحياة وازدهار وصحة صاحب الجلالة.*

*عندئذ جاء كبراء بلاد **بونت** منحنين مطأطئين رؤوسهم، لاستقبال هذه الفرقة الملكية. وعبدوا آمون ـ رع، فهو الأول الأقدم فى الأرضين، الذى يطأ بقدميه البلدان الأجنبية. كانوا يقولون متوسلين السلام: «لماذا وصلتم إلى هذا البلد الذى يجهله شعب مصر؟ هل هبطتم عبر دروب السماء؟ أم سافرتم عن طريق البحر والبر؟ كم هى خضراء أرض البلد الإلهى الذى وطأه رع بقدميه، من أجلكم. أما ملك البلد المحبوب، ألا يوجد طريق يؤدى إلى جلالته حتى نحيا بفضل النسمات التى يهبها[١١١]؟».*

• **التجارة والمساومات**

على يمين المشهد نُصبت خيمة الموفد الملكي، وتكدست أمامه منتجات **پونت**. وعلى اليسار، صف طويل من أبناء پونت يُحضَرون أشياء أخرى مماثلة. وعلى رأسهم نشاهد أيضاً الزعيم **پاراحو** وزوجته الضخمة الجثة.

*أُعدّت خيمة الموفد الملكى وفرقته، فى مرفأ البخور فى **پونت** على شواطئ **الشديدة الإخضرار** ليستقبلوا كبراء هذا البلد. عندئذ يُقدّم لهم الخبز والجعة والنبيذ واللحوم والفواكه وكل شىء وارد من البلد المحبوب، وفقًا للأوامر الصادرة من القصر الملكى. (وبدوره) تقدم زعيم **پونت** حاملاً هداياه عند شواطئ **الشديدة الإخضرار**، أمام الموفد الملكى*[١١٢].

وبعد ذلك لا تسمح المدونة المشوهة سوى بقراءة كلمتى: «ذهب» و«بخور»، وهما من منتجات **إفريقيا** التقليدية. أما الباقى فكان عبارة عن مقايضة ومساومات.

• **تحميل الشحنة وركوب السفن**

وانهمك المصريون فى أعمالهم. فبعد إقتلاع أشجار البخور حُمّلت بمدَرَها(*) ووضعت فى سلال عريضة مثبتة بحبال فى أوتاد من خشب لتُحمل على أكتاف ستة رجال، ثلاثة فى المقدمة وثلاثة فى المؤخرة. وتنتمى هذه الأشجار إلى الأنواع التى تعرف علميًا على النحو الآتى:

- **Bosweila thurifera** (بوسڤيلا ثوريفيرا)
- **Bosweila carteri** (بوسڤيلا كارتيرى)
- **Bosweila papygera** (بوسڤيلا پاپيجيرا)
- **Commiphora pedumculata** (كوميفورا پيدومكولاتا)[١١٣]

(*) طين لزج متماسك. المعجم العربى الأساسى. (المترجم)

وكما هو فى المعتاد فى المشاهد المصرية، تنجز الأعمال فى جو من المرح والبهجة. فيصيح أحد الرفاق مخاطباً زميلٌ له:

«انتبه لقدميك، يا زميلى! لأن الحمولة ثقيلة جداً»

أو:

*«كل شىء سيسير على ما يرام بالنسبة لنا. إن أشجار بخور البلد الإلهى سوف تصل إلى معبد آمون. سوف تستقر هناك، حيث ستقوم **ماعت كارع** بغرسها لتنبت فى حديقتها، قرب معبدها، كما أمر به والدها[١١٤]».*

والحمولة على قدر كبير من الأهمية

*كانت السفن محملة بمقادير ضخمة من أعاجيب بلاد **بونت** البالغة الوزن: كافة الخلاصات العطرية الزكية الرائحة، من بلاد الإله، وأكداس من البخور وأشجار بخور ما زالت تحتفظ بنضارتها، والأبنوس والعاج الأصيل والذهب الأخضر من بلاد عامو واللادن والقرفة والمر والبخور ومسحوق تجميل أسود والقردة والنسانيس والكلاب وكمية كبيرة من جلود نمور الجنوب، فضلاً عن أناس بأولادهم. ولم يحدث أبداً من قبل أن نقلت أشياء مماثلة (على أيام)، أى ملك من الملوك الذين ظهروا على وجه الأرض، منذ قديم الزمان[١١٥].*

كما صُوِّرت فى النقوش أبقار وزرافة وفهد. وفضلاً عن ذلك فقد أحضر أمير بونت كمية من المُرّ وجاء أحد أبنائه بقصعة تحتوى تبراً.

أما تمثال آمون والملكة المقام على الشاطئ فسيظل شاهداً على عظمة مصر وقوة إله طيبة:

*هكذا أتيح لهذا البلد أن يرى صاحبة الجلالة وأباها، أمير **بونت** على مدار كل يوم من الأيام، بقدر ما كان مجده مهيباً وخيّراً وعزيزاً، وأكثر من مجد سائر الآلهة الأخرى وبقدر ما كان حبه لابنته **ماعت كارع** عظيماً[١١٦].*

*عاد جيش رب القطرين فى سلام، ونزل إلى الشاطئ عند **الكرنك** فى فرح وسرور. كان كبراء **بونت** فى معيته وقد احضروا معهم ما لم يجلبه أبدًا إلى مصر من قبل، ملوك مصر السفلى الآخرون (-احضروا) أعاجيب بلدهم - بقدر المجد المهيب الذى كان يتمتع به آمون- رع، هذا الإله المعظم، رب عروش القطرين.*

• الملكة على رأس المستقبلين

يتقدم حاملو الجزية فى صفوف طويلة قادمين من **بونت** وبلدان **إفريقيا**.

*زعماء **بونت** يحيون **ماعت كارع** ويسجدون أمام «ذات الكاءات القوية». ..ونوبيو خنت- إن- نفر وسائر البلدان الواقعة إلى جنوب مصر يأتون منحنين، خافضى الرأس وهم يحملون الجزية حتى المكان الذى تقيم فيه صاحبة الجلالة... إن جميع البلدان فى خدمتها...*

*ويقول زعماء **بونت** وهم يتوسلون منها السلام: «تحية لك، أيا ملك البلد المحبوب، أيتها الشمس(*) التى تنير مثل القرص (**آتون**)، أيا سيدتنا وسيدة **بونت**، أيا ابنة آمون، ملك الآلهة. لقد انضم اسمك إلى المدار السماوى ومجد **ماعت كارع** جاب عبر الدائرة الكبرى* (المحيط الذى يحيط بالعالم)».

*كما يقول زعماء **نيمايو**[١١٧] وزعماء **إيرم**[١١٨] إلى صاحبة الجلالة، متوسلين منها السلام: «تحية لك»[١١٩]».*

حدثت هذه الوقائع وسط تهليل جماهير الشعب فرحًا وابتهاجًا. أكانت فى الحقيقة عيدًا من أعياد الإمبراطورية؟ أم إنفعالاً حماسيًا مقصودًا، اقتضته صور الملكة والنص المرافق؟

(*) فى المؤنث رغم أنها اسم مذكر فى المصرية القديمة. (المؤلفة والمترجم)

- **القرابين المقدمة إلى *أمون***

سوف تضاف المنتجات القيمة الواردة من بونت والنوبة والسودان إلى كنوز إله الكرنك وثروته، فتعظّمها بفضل من تعلن أنها ابنته الملكية.

الملك ذاته، ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، يكرّس أعاجيب بونت وثروات البلد الإلهى وقد اختلطت بجزية بلدان الجنوب وأعاجيب منتجات كوش الخسيسة وإسهامات البلد النوبى، من أجل أمون رب عروش القطرين الذى يقف على رأس الكرنك...

٣١ شجرة بخور *ناضرة، أعجوبة بونت من أجل أمون.*

وتحت الأشجار تتكدس غيرها من القرابين:

ذهب - (فى هيئة العديد من الحلقات)

مسحوق تجميل *أسود* - (فى أكياس صغيرة)

عُصىّ رماية أبناء بونت

أبنوس (فى هيئة جذوع)

أكداس ضخمة من البخور النضر.

ومن النوبة والسودان ورد:

ذهب *خالص* (فى هيئة حلقات أو فى قصعات).

جلود نمور *بكميات كبيرة.*

نمر حىّ، تم أسره من أجل صاحبة الجلالة.

٣٣٠٠ *رأس ماشية*(١٢٠).

كما تم إحضار ريش النعام وبيضها وأقواس وخشب نفيس ولا سيما الأبنوس، بالإضافة إلى زرافة.

إن حتشبسوت «تدفع» مقابل تربعها على العرش، فتوزع على كهنة طيبة ثروات الإمبراطورية الإفريقية.

إنه مشهدٌ نضر أسر وجذاب. فوسط الشمس والأتربة يزن الآلهة والبشر جزية الجنوب ويكيِّلونها. وتؤم الملكة الإحتفالات أمام أمون الجالس على عرش. إن موازين ضخمة وهى موازين تحوت البالغة الدقة تتكدس عليها حلقات الذهب. ويراقب عملية الوزن الإلهان حورس و ديدون (النوبى) وتتولى الإلهة سيشات تدوين النتائج بكل دقة.

ويسجل المقادير چحوتى الصائغ ورئيس الخزينة(١٢١) الذى يرفع تقريره إلى الملكة. ويفعل الإله تحوت الشىء نفسه مع أمون.

- **حتشبسوت الإلهية**

وإذ بدى أن الملكة تشارك فى هذه العمليات، ستقوم بأداء فعلٍ سرِّيٍ صوفيّ، من الأفعال المألوفة فى الشعائر الإلهية والذى يعتبر فى نظر جماهير الشعب المجتمعة للإحتفال بالعيد، عملاً يحدد بشكل قاطع ألوهية الملكة.

إن الملك شخصيًا، إن ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، يمسك بمكيال من الذهب الخالص ويمد ساعده فى اتجاه قمة كوم. إننا نشاهد هنا أول الأفعال الميمونة: كَيْل البخور الطازج المخصص للإله أمون، رب عروش القطرين وسيد السماء، فضلاً عن أفضل منتجات شتى «المحاصيل» الرائعة الواردة من بلاد پونت.

عندئذ بدأت صاحبة الجلالة ذاتها، (تمسح) بيديها كل جسدها بأفضل أنواع البخور. ويصبح عطرها أشبه بالشذا الإلهى؛ إذ اختلطت رائحتها برائحة پونت، ثم (تظهر) بشرتها كما لو كانت مكفتة بالذهب الخالص، متألقة كالنجوم، داخل بهو الأعياد، فى حضرة جميع أهل البلاد. عندئذ يُقدم جميع أفراد الشعب على أداء شعيرة التهليل والإبتهاج ويحيّون فى الوقت نفسه رب الآلهة. ويشيدون بالعظيمة ماعت كارع، وصفاتها الإلهية، بسبب ما حدث لها من أعاجيب رائعة(١٢٢).

بعد المساهمات العظيمة التى صبّت فى خزينة الكرنك وما أضيف إليها من

ثروات طائلة نصل إلى ذروة «المشهد» الذى أمكن صياغته صياغة بارعة. أهى مجرد حيلة لبقة؟ دون أدنى شك. لقد لاحظ **ڤيكتور لوريه Victor Loret**(١٢٣) أن **كتاب الموتى** يؤكد على ضرورة رسم الصور بألوان مخلوطة بماء مذاب فيه صمغ البخور. إن هذا المحلول السائل القابض يعطى لونًا دافئًا. وتصبح البشرة لامعة عند مسحها بهذا المحلول. هكذا تبدو **حتشپسوت** فى نظر الشعب موهوبة، فى آن واحد، بعطر أبيها الإله **أمون** وبشرته المتألقة. إنه تأكيد على النتائج المترتبة على الولادة الإلهية.

كانت الخطة بارعة. فقد عرفت **حتشپسوت** كيف تستفيد بحذق وذكاء، من ميل البشر إلى السذاجة وسرعة التصديق. كان كهنة **آمون** والملكة الطموحة «*شركاء فى الخداع*»، فالتقت مصالحهم وارتبطت. ولكن أين مصلحة مصر من كل ذلك؟(*)

أما **تحوتمس الثالث** فأين هو؟ إن تصاوير **الدير البحرى** لم تهمله. ففى إطار ما يعتقد أنه سيصبح موكبًا إحتفاليًا رسميًا، نراه مرتديًا التاج الأزرق ويرافق مركب **أمون** ويطلق البخور فى اتجاهه وتسير **حتشپسوت** فى أعقابه، وتضع **الپشنت** على رأسها وتمسك بيدها العصا الكبيرة، رمز القيادة الآمرة.

ومن المرجح أن رحلة **پونت** هذه، كانت روتينية، شبيهة برحلات أخرى تم تنظيمها من قبل. ولكن كهنة وحرفيى **طيبة** عملوا على تعظيم هذه الرحلة تحديداً، وتمجيدها من خلال رواية حماسية، قُصد تخليدها من خلال نقوش آية فى الجمال ونص مسهب، تمجيداً للملكة الساعية إلى الشرعية.

الحملة إلى محاجر أسوان

كانت المسافة التى قطعتها هذه الحملة أقل بكثير من سابقتها وإن تم إبرازها أيضًا والتأكيد على قيمتها.

(*) ألا يقوم هذا الحكم على مفارقة تاريخية؟ (المترجم)

ففى العام ١٥، وهو عام الإحتفال بيوبيلها، قامت حتشپسوت بارسال سن موت- إلا إذا كان خليفته أمنحوتپ - على رأس عدد من السفن بحثًا عن كتلة واحدة من الجرانيت فى محاجر جزيرة سهيل قرب أسوان لاستخدامها فى تشكيل مسلتين. وتُروى هذه الأحداث على الجدار الغربى من الصُفّة الأولى من معبد الدير البحرى.

فقد أُلهمت ذات يوم وهى مستكينة فى القصر بتفاصيل العملية:

كنت قد خلدت إلى الراحة فى القصر وتذكّرت من خلقنى. عندئذ أمرنى قلبى بأن أقيم من أجله مسلتين من الذهب الخالص قد يتداخل هُرَيْمهما(*) مع السماء (وقد تقامان) فى القاعة الجليلة ذات الأساطين، بين الصرحين الكبيرين (اللذين شيدهما) الملك، الثور القوى، عا خپر كارع (تحوتمس الأول)، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الحورس الصادق القول. عندئذ قادنى قلبى، ودفعنى إلى التفكير فى كلمات البشر الذين سيشاهدون معلمى الإنشائى بعد مرور سنوات وسنوات، ويتحدثون عما صنعته. فإياكم والتحدث قائلين:

«لا أدرى، لا أدرى حقًا، لما صُنع ذلك، ليشكّل حتى أقصى إرتفاعه تلاً من الذهب وكأنه شىء جاء على نحو طبيعى إلى الوجود».

إنى أقسم

وكما أن رع يُعزّنى،

وكما أن أبى آمون يمتدحنى،

وكما أن أنفى يعود إليه الشباب فى الحياة والقوة،

وكما أننى أرتدى التاج الأبيض واتجلى متألقة بالتاج الأحمر،

وكما أن حورس و ست وحّدا حصتيهما من أجلى،

وكما أننى أدبر شئون البلاد مثل ابن إيزيس وقوية مثل ابن نوت (ست)،

وكما أن رع يغرب فى قارب المساء ويستقر فى قارب النهار استقرارًا يقاوم الزمن ويتحّد بوالدتيه(**) فى القارب الإلهى،

(*) هُريم المسلة هو قمتها المدببة. (المترجم)

(**) هكذا! مثنى والدة. (المترجم)

وكما أن السماء راسخة وثابت هو كل ما خلقته،

وكما أنني سأبقى للزمن اللانهائي مثل نجم لا يفنى، وأرقد في الحياة مثل آتوم،

وكما أن هاتين المسلتين الشامختين اللتين صنعتهما جلالتي من الذهب الخالص، من أجل أبي آمون، حتى يظل اسمي مخلداً وراسخاً في هذا المعبد للزمن الأبدي والزمن اللانهائي، فإن (هاتين المسلتين الشامختين) هما من كتلة واحدة من الجرانيت الصلد، دون رباط أو وصلة.

لقد أمرت جلالتي بالقيام بهذا العمل في اليوم الأول، من الشهر الثاني، من فصل الإنبات، من العام الخامس عشر. (ليستمر العمل) حتى اليوم الأول، من الشهر الرابع، من فصل الجفاف، من العام السادس عشر، أو ما يعادل سبعة أشهر، منذ بدء (العمل) في المحاجر [١٢٣مكرر].

إن نصاً آخر يعزو هذا الأمر إلى **تحوتمس الأول**:

إن أباك عاخپر كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى هو الذى أصدر أوامره بإقامة هاتين المسلتين وسوف تقوم جلالتك بتجديد هذا المعلم الصرحي[١٢٤].

تمّ نقل المسلتين من **أسوان** إلى **الكرنك**، في بداية الأمر، من المحاجر وحتى شاطئ **النيل** فوق زحّافات من خشب. ثم وضعتا على متن صندل طويل وربطتا بحبال متينة، عندئذ تحرك الصندل هابطاً نهر **النيل** تسحبه ثلاثون سفينة موزعة على ثلاثة صفوف، يضم كل صف منها عشر سفن. وربطت السفن بحبال مثبتة في القلاع. إن تسعمئة وثلاثين مجدّفاً وملاحاً بمعدل ثلاثين مجدّفاً لكل سفينة – كانوا يعملون بفضل سواعدهم المفتولة على سير هذا الموكب الطويل. وعند شاطئ **طيبة** كان البحارة والمجندون ينتظرون على رصيف المرفأ، وصول الحمولة الثقيلة لإنزالها إلى البرّ. وبالتزامن مع هذه الواقعة، كانت تقدم القرابين إلى الآلهة احتفالاً بوصول المسلتين، وذلك في حضرة الكهنة وكبراء البلاط. كان الجميع يهلّلون تحية للملكة و**لتحوتمس الثالث** في المقام الثاني.

وأمرت الملكة بإقامة المسلتين داخل قاعة الأساطين(*) التى شيدها تحوتمس الأول، فيما بين الصرح الرابع والصرح الخامس. إنه مكان غير مألوف لإقامة المسلات التى تنتصب فى المعتاد، أمام صرح المعبد فى حين أن المقصود من هذه القاعة أن تكون قاعة الإحتفال بتنصيب الملك أو بعيده اليوبيلى. ومن جانب الملكة، ربما كان ذلك عبارة عن شهادة جديدة عن اهتمامها من جهة، بربط أعمالها الإنشائية بأعمال أبيها وهو ما أكّده من قبل على ما يبدو، النص الذى سبق الإشارة إليه، كما أرادت من جهة أخرى، أن تؤكد على صفتها كملكة فى قاعة مخصصة لإحتفالات التتويج. ولإدخال المسلتين فى هذه القاعة الضيقة كان لابد فى البداية من إحداث ثغرة فى الجدار، وهدم أربعة أساطين فى الشمال وأسطونين فى الجنوب وفتح السقف ثم العمل على عبور المسلتين الصرح الرابع البالغ ثلاثة عشر مترًا طولاً وأربعة أمتار عرضًا. إن هذا العمل الشديد الصعوبة هو مفخرة يستحق عليها مهندسو طيبة المعماريون كل التقدير.

كان إرتفاع المسلة الشمالية التى ما زالت فى مكانها ثلاثين مترًا تقريبًا. أما المسلة الجنوبية فهى محطمة. وتوجد بقاياها عند مدخل المعبد وقرب البحيرة المقدسة، وجزء أخر منها تحول إلى رحاية طاحونة، عثر عليه فى أبو تيج بمحافظة أسيوط.

تؤكد المدونات أننا أمام معلمين صرحيين أقيما تمجيداً للملكة، وفقًا لأسلوب ينشد غزارة الصور والصفات تأكيداً على التطور الملحوظ الذى عرفته الأيديولوچية الملكية وهو ما سبق أن لاحظناه:

...ابنة آمون - رع القائمة فى قلبه، المتفردة فى نظره،

التى جاءت إلى الدنيا بجواره،

الصورة المتألقة لسيد الكون،

(*) وهى خلاف بهو الأساطين الذائعة الصيت الذى يقع فى الوقت الراهن بين الصرح الثانى والصرح الثالث. (المترجم)

التى خلقت باو(*) هليوبوليس كمالها،

التى استأثرت بالقطرين، على غرار الإله الذى خلق ذاته، بذاته وأتى بها إلى الوجود لترتدى تيجانه،

التى جاء وجودها مثل وجود خپرى[١٢٥]،

ذات الإشراقات الوضّاءة مثل إشراقات إله الأفقين،

إنها البيضة الطاهرة، والبذرة المتألقة التى غذّتها الساحرتان العظيمتان والتى أظهرها آمون ذاته على عرشه، فى هليوبوليس الجنوب، واختارها لتسهر على مصر وتحمى النبلاء والشعب.

إنها الحورس المنتقم لأبيه،

إنها محبوبة ثور ـ أمه الذى أنجبه رع ليخلق من أجله «بذرة» نورانية على الأرض ويؤمن ازدهار البشر.

إنها صورته الحية. ماعت كارع، ملك مصر العليا ومصر السفلى[١٢٦].

- **من أجل هيبة آمون**

لقد أقامت مَعلمًا صرحيًا من أجل أبيها آمون، رب عروش القطرين، الذى يقف على رأس الكرنك. فمن أجله شَيّدت مسلتين شامختين من جرانيت الجنوب الصلد، كان قسمهما العلوى من الذهب الخالص، ومن أفضل أنواع الصحارى. فيشاهدهما المرء من شاطئَى النهر. إن أشعتهما تغمر القطرين، فى حين يسطع بينهما القرص (آتون) كما يتجلى من شرق السماء[١٢٧].

من أجل ذلك مَنحت الذهب الخالص بلا حدود. لقد كيّلته بمكيال، كما يُكيَّل القمح. وأعلن جلالتى كميته بمرأى الأرضين المتحدتين. والآن يعرف ذلك، الجاهل والحكيم، على حدّ سواء[١٢٨].

(*) جمع با. والواو علامة الجمع. (المترجم)

● **من أجل سيادة الكرنك وهيمنته**

أنا أعلم أن الكرنك هو أفق السماء وأكمة المرة الأولى والعين المقدسة لسيد الكون ومقر قلبه، فيحمل جماله وهو «غلاف» أولئك القائمين فى معيته(١٣٩).

فى غبش القاعة تفرض المسلتان نقوشهما الملونة ولمعان الذهب الذى يكفت قاعدتيهما، فى حين يبزغ من الظلمة الهريمان المصنوعان من الذهب الخالص و«يختلطان بالسماء». إنها ترجمة فى هيئة معلَم صرحىّ للأيديولوچية المرتبطة بشكل المسلة: إنه الحجر المتميز المنبثق من ظلمات الخواء، ففوقه سطعت الشمس فى اليوم الأول من أيام العالم.

٤- مبانٍ شامخة فى مصر والنوبة

إن العديد من المبانى الأخرى، تخلد عهد حتشپسوت على أرض مصر وفى الأراضى الإفريقية. إنها عبارة عن مبانى جديدة أو معابد قديمةٌ، تهدّمت وأعيد ترميمها بفضل رعاية الملكة واهتمامها وجهد سن مُوت ومثابرته. فقد عقدت العزم على أن تظل فى خدمة الآلهة.

الدير البحرى

عندما يمضى المرء مبتعداً عن نهر النيل الهادئ، ويتقدم غرباً عبر رمال الدير البحرى الوردية، من الصعب عليه عند مشاهدة عظمة وشموخ «معبد ملايين السنين» الخاص بالملكة، ألاّ تهتز مشاعره. إن صعود الشرفات الثلاث والأحادير عند سفح جبل الصحراء الغربية، صعوداً وئيداً، وتماثل الصُفّات وتناظرها، ورشاقة الأساطين، بالإضافة إلى التوازن الرائع للكتل الشامخة وما تضفيه على هذه المجموعة من انطباع غريب بالرقة والسلاسة، وبياض الحجر الجيرى الساطع تحت أشعة الشمس، نجد أن هذه العناصر مجتمعة تجعل من وجود الملكة ذات البشرة الذهبية وجوداً فعليًا، حقًّا إن هذا المعبد هو چسر چسرو أى «*أروع الروائع*». لقد عرف سن

موت كيف يصوغ مجموعة معمارية تتآلف خطوطها وأحجامها وألوانها طبقًا لنسب توافقية تصل إلى حدّ الكمال: إن الخط الرأسي الصاعد الممتد عبر الأحادير والشرفات المتدرجة، يقابله الخط الأفقي العريض للصفات فيُحدث توازنًا رائعًا، بينما يُشكّل الحجر الجيري الأبيض ببريقه الذهبي وحدة متناغمة، لا يكاد يخلّ بها سوى بابين من الجرانيت الوردي.

لقد حُفر نصف المعبد فقط، ومنه قدس الأقداس، في صخر الجبل.

لم يكن سن موت مبدعًا بالكامل في كل ما صمّمه. فإلى الجنوب قليلاً كان مونتوحوتپ الأول[١٣٠] قد شيد معبده الجنائزي وكان تخطيطه قريب الشبه بمعبد الدير البحري إلى حد كبير، من حيث مراعاته الموقع الطبيعي ببراعة ومهارة.

وعند الحد الفاصل بين الأرض المنزرعة والصحراء كان سن موت، قد شيد في الأصل معبد الإستقبال الذي كشف عنه كارتر Carter وكارنارڤون Carnarvon عام ١٩١٠، ولكنه كان مهدمًا إلى حدّ كبير.

من هنا كان يبدء طريق صاعد يسير في الإتجاه شرق-غرب، نحو معبد حتشپسوت. كانت تحفّه تماثيل أبو الهول ويفضي إلى فناء فسيح بعد أن يكون على ما يعتقد قد اجتاز صرحًا. وفي الأصل كان هذا الفناء محاطًا بأسوار تحطمت في الوقت الراهن. وكان يضم حوضين على شكل حرف T تنمو فيهما نباتات البردي والزهور وتحيط بهما الحدائق. وحاولت حتشپسوت أن تُؤَقلم فيه أشجار البخور التي جلبتها من بلاد پونت.

يتكون المبنى الشامخ ذاته من ثلاث شرفات متدرجة ترتبط فيما بينها بواسطة أحدور صاعد يخترق محور المعبد.

كانت الشرفة الأولى أو الفناء الأدنى تكتنفه، أسوار منخفضة وعريضة تنتهي عند الغرب بصُفة مزدوجة ذات صفّي أساطين وتستند إلى الجدار الذي يحمل الشرفة الثانية وينقطع امتدادها عند الوسط لعبور الأحدور الصاعد. كان كل جناح من جناحي الصفّة يضم صفّي أساطين يتكون الأول من أحد عشر عمودًا واجهته الأمامية مسطحة وواجهته الخلفية مستديرة ومقنّاة. ويضم الصف الثاني أحد عشر أسطونًا،

يتكون كل أسطون من ستة عشر ضلعًا، أطلق عليها **شمبليون** الأساطين **البروتودورية** **Protodoriques**، إذ كانت في نظره قريبة الشبه من الأساطين الكلاسيكية اليونانية. ترى هل كان **سن مُوت** مصدر إلهام المهندسين اليونانيين؟ وعند كل طرف من طرفى الصفة كان ينتصب تمثال **أوزيرى** عملاق للملكة. ولم يتبق في مكانه، في الوقت الراهن، سوى التمثال الشمالي. إن نقوشًا موزعة على عدد من الصفوف تزخرف الجدار الخلفي من الصفّة: فصورت في الجنوب عملية إقامة المسلتين القادمتين من **أسوان**. أما في الشمال، فصُورّت مشاهد الصيد البرى والصيد النهرى، كما صورت الملكة في هيئة أسد منتصر على أعدائها، عملاً بالأيقونوغرافيا الشعائرية التقليدية.

كما كانت تكتنف الشرفة الثانية، من جهة الغرب، صفة مزدوجة ينقطع إمتدادها عند الوسط لعبور أحدور، وتتقدم الجدار الذى يحمل الشرفة الثالثة. تتكون هذه الصفة من صفين من اثنين وعشرين عمودًا مربعًا. كان يحف الشرفة من الناحية الشمالية صفة أخرى غير مكتملة تضم خمسة عشر أسطونًا من الطراز **البروتودورى** ذى الستة عشر ضلعًا وتفضى إلى أربع كوات غير مزخرفة. ينتهى امتداد الصفّة الغربية ناحية الشمال وناحية الجنوب، بأعمدة مقصورتين محفورتين في صخر الجبل وبسقف مقبّى. مقصورة الشمال مكرسة للإله **أنوبيس** وتتكون من بهو أساطين والسقف باللون الأزرق المرصع بالنجوم الصفراء ويرفعه اثنا عشر أسطونا من الطراز **البروتودورى**، وعلى الجدران تصور النقوش **حتشبسوت** و**تحوتمس الثالث**، وهما يقدمان القرابين للآلهة. وبعد هذه القاعة تتعاقب ثلاثة مقاصير، أما مقصورة الجنوب فمكرسة للإلهة **حتحور**، وهى محفورة في الصخر وتضم بَهْوى أساطين **بروتودورية** وتيجان **حتحورية** للمقصورة الأولى التى تتقدم سلسلة من الحجرات المحفورة في صخر الجبل. وقد حفرت كل واحدة منها عند مستوى أعلى من الأخرى وتتصل فيما بينها بواسطة درجات. فعلى جدار المؤخرة من الصفة الغربية نقشت جهة الشمال مشاهد ونصوص الولادة الإلهية. أما رحلة **بونت** فقد نقشت في الجهة الجنوبية.

وتتكون صُفّة الشرفة العليا من ستة وعشرين عمودًا **أوزيريًا** للملكة. إن بابًا من الجرانيت يفضى إلى الفناء الداخلى الذى يبلغ أربعين مترًا عرضًا وستة وعشرين مترًا عمقًا. وربما كان يشكل في الأصل بهو أساطين يضم مئة وثمانية أساطين ذات

ستة عشر ضلعًا لكل أسطون. وتقوم في الوقت الراهن(*) بعثة مصرية بولندية بإعادة تشكيل صفوف الأساطين. ويعتبر هذا البهو تتويجًا حقيقيًا للشرفة الثالثة وتكتنفها من جهة الشمال مقصورة شمسية غير مسقوفة. أما من ناحية الجنوب فتوجد مقصورة جنائزية مقباة مكرسة للملكة ولوالدها تحوتمس الأول. وجدارها الخلفي، وهو الجدار الغربي، يزدان بباب وهمي. ويعتقد أن هذه المقصورة كانت تستخدم في إقامة الشعائر الجنائزية الملكية.

ووفقًا لمجموعة علاقات أيديولوجية تتوافق نسبها بحصافة وتتوازن توازنًا يعادل العلاقات القائمة بين مختلف العناصر المعمارية، يتشابك موضوعا الحياة والموت ويتداخلان، باعتبار أن الوفاة ليست سوى لحظة يمكن قهرها وتجاوزها تجاوزًا سحريًا. وعلى جانبي الشرفة الثانية نجد أن الإله الجنائزي أنوبيس المشارك النشط في بعث المتوفي وعودته إلى الحياة، كان محل توقير وتكريم في الجهة الشمالية. أما حتحور الإلهة السماوية والمرضعة واهبة الحياة، فكانت تعبد في الجهة الجنوبية. وعلى جانبي الشرفة الثالثة كانت تقام الشعائر الشمسية من أجل الإله حور أختي في الجهة الشمالية، أما في الجهة الجنوبية فتقام الشعائر الجنائزية من أجل الملوك. إن الانسجام القائم بين مختلف المواضيع على قدر كبير من التطور. إن عناصر معبد الدير البحري من حيث موقعها واتجاهها، تتوفر فيها أبعاد منظومة نجمت عن تبادل الأفكار وإعمال الذهن، سواء من حيث التوازن القائم بين كتله أو التوافقات الروحانية السامية.

تتداخل مع ما سبق، كبرى الرموز المصرية المرتبطة بالحياة المتجددة على الدوام: وهي الحدائق والزهور والأشجار في الشرفة الأولى، والأسود التي تحمي الطريق الصاعد إلى مدخل الشرفة الأولى، والثعابين التي تلتف على نفسها، على امتداد حاجزي الطريق الصاعد إلى الشرفة العليا. كل هذه العناصر هي رموز واستدعاء سحري للحياة. فقد كان المصريون مولعين ولعًا شديدًا بالنظام والإعتدال والتوازن والسحر، معًا وفي آن واحد.

(*) صدر الأصل الفرنسي من هذا الكتاب عام ١٩٨٦. (المترجم)

ومن وسط الجدار الغربي، من معبد ملايين السنين هذا، نصل إلى القسم المخصص لقدس الأقداس الذى ندخل إليه عبر باب ثانٍ من الجرانيت الوردى. كان يتكوّن من ثلاث حجرات متلاحقة على التوالى، تضم على جانبيها عدداً من الكوات لحفظ كل ما هو ضرورى لإقامة الشعائر.

كانت تقام الطقوس الدينية فى الدير البحرى من أجل الملكة وأبيها تحوتمس الأول والإله أمون ـ رع ومن أجل أنوبيس وحتحور وحور أختى، فى المقاصير الملحقة.

وتعبّر الآلهة عن الإعتراف بالجميل:

كلمات قالها أمون ـ رع، رب عروش القطرين الواقف على رأس «أروع الروائع»:

«مرحبًا، مرحبًا فى سلام، أيا ابنتى التى من صُلبى، يا محبوبتى ماعت كارع، فى هذا المعبد الطاهر، المزدهر ببركاته وخيراته الذى شيدتيه فى المكان النورانى، (مكان) المرة الأولى. إن قلبى سعيد، إلى أبعد الحدود. وأتجلى متألقًا عندما أشاهد جمالك، بينما تمسكين المجداف، وتقدمين الماء الرطب، أنت يا صاحبة اليدين الطاهرتين... الإبنة المباركة الخيرة لأبيها، وريثة من أنجبها. ليتك تمتلكين هذا الميراث لملايين السنين!... إن اسمى هو الذى يتقدم اسم التاسوع الإلهى، إن اسمك هو الذى سيتقدم اسم الأحياء، مثل رع للزمن اللانهائى(١٣١)».

الكرنك

أما فى الكرنك فقد أمرت حتشبسوت بإقامة مقصورة لاستراحة مركب أمون عندما كان يشارك من خلال تمثاله فى المواكب الإحتفالية. ونطلق عليها إصطلاحًا المقصورة الحمراء(١٣٢)، بالنظر إلى لون الحجر الذى شُيدت منه، وهو حجر الكوارتزيت الوردى، الذى يميل لونه أحيانًا إلى الأحمر الطوبى ويُجلب من منطقة الجبل الأحمر شرق مصر الجديدة. وقد استطاع هنرى شيفرييه Henri Chevrier أن يجمّع أجزاء هذا البناء الصرحى، لأن خلفاء حتشبسوت قد أعادوا استخدام أحجارها فى منشآتهم ونذكر منهم فى المقام الأول أمنحوتب الثالث الذى استخدمها

في أساسات الصرح الثالث. وتم الكشف عن كتله الأولى والتعرف عليها، من قبل ليجران Legrain في الرابع من يناير ١٨٩٩، عند الزاوية الشمالية الشرقية من هذا الصرح. وعثر على كتل أخرى موزعة داخل مبانٍ لاحقة في الكرنك، كالممر الذي يربط الصرح الثالث بالصرح الرابع ومعبد پتاح وغير ذلك...

ربما كان هذا الأثر الجميل قائمًا في الأصل أمام مقصورة قدس الأقداس الرئيسية أو أمام مسلتَي تحوتمس الأول(١٣٣). وقد نقشت عليه مشاهد طقسية تتصدرها حتشپسوت: منها مشاهد إعتلاء الملكة العرش وتتويجها، كما لاحظنا من قبل(١٣٤)، ومشاهد تقديم القرابين والتعبد وشعائر تأسيس المعبد ومواكب الأعياد الإحتفالية. كما صور تحوتمس الثالث أحيانًا، وإن كان يحتل المكانة الثانية(*).

وعلى المحور الشمالي الجنوبي من المعبد الكبير، أمرت الملكة ببناء الصرح الثامن من الحجر الرملي. ومن المحتمل من جانب آخر، أن تشييد هذا الصرح كان قد بدأ في عهد تحوتمس الثاني، إذ أقيم تمثالان عملاقان لهذا الملك عند واجهته الجنوبية.

في مصر، بعيدًا عن الكرنك

وبعيداً عن الكرنك، وفي مصر تحديداً، أمرت حتشپسوت فيما بين العامين الخامس والسادس، بإقامة مقصورة من الحجر الرملي ومسلتين في جزيرة إلفنتين، كُرست جميعها للثالوث المحلي: خنوم وساتيس وأنوكيس.

وفي هرموپوليس، حيث كان يعبد الإله تحوت والآلهة الثمانية الآخرون من ثعابين وضفادع التي خلقت العالم، أمرت ببناء معبد من الحجر الجيري الأبيض وأعادت تنظيم شعائر العبادة:

(*) يمكن مشاهدة هذه المقصورة في الوقت الراهن في المتحف المفتوح بمعبد الكرنك بعد أن تم تجميع ما عُثر عليه من أحجارها وإعادة بنائها في فترة التسعينات من القرن الماضي، بمعرفة المركز الفرنسي المصري بالكرنك، تحت إشراف المهندس الفرنسي لارشيه Larché. (المترجم)

تحوت العظيم سليل رع... لقد صنعت من أجله مذبحًا من الفضة والذهب، فضلاً عن صناديق لحفظ الأقمشة وشتى أنواع الأدوات، من أجل محل إقامته. (إن الكاهن) الذى يدخل وجهًا لوجه (مع الإله) والذى يقود التاسوع الإلهى بأكمله فى موكب إحتفالى كان يجهل مهمته. كان المكان يفتقر إلى الشخص الكفء. كانت رؤوس الآباء الإلهيين خاوية... عندئذ شيدت معبده الكبير من الحجر الأبيض الوارد من طرة وكانت أبوابه من ألبستر حتنوب والمصاريع من النحاس والنقوش من الذهب الخالص، ورائعة (كانت صور) صاحب الريشتين العاليتين. وجعلت جلالة هذا الإله يشرق متألقًا فى أعياده فى هيئة نحب كاو(*). وأقمت من جديد الإحتفال بعيد تحوت(١٣٥).

وصلنا هذا النص من المدونة الكبيرة التى أمرت حتشبسوت بنحتها فوق باب مدخل المعبد المحفور فى الصخر التى أشرفت على إقامته إكرامًا للإلهة باخت(**) على مقربة من بنى حسن فى مصر الوسطى. أطلق الإغريق على هذا المعبد الكهف اسم سپوس أرتميدوس Speos Artemidos، وعرفه العرب تحت اسم إسطبل عنتر. أما المصريون فقد أسموه «البيت الإلهى فى الوادى». لقد أقيم فى العام العاشر، بالنظر إلى ورود إشارات إلى حملة پونت.

إن جزءًا كبيرًا من الصُفّة التى تتكون من صفين من الأعمدة المربعة مُدمّر. وما زال ممر ضيق طوله ثلاثة أمتار يفضى إلى القسم الخاص بقدس الأقداس. وفى مؤخرته كوة كانت تضم على ما يعتقد التمثال الإلهى:

كانت باخت العظيمة تحوم فى الوديان عند الشرق. إن الطرق التى عصفت بها الأمطار قد تعطّلت. وتوقف التطهر بالماء. عندئذ أعَدْتُ بناء معبدها من جديد بأن حفرته (فى صخر الجبل)... من أجلها ومن أجل تاسوعها. كانت مصاريع (الأبواب)

(*) ثعبان يمنّ بالنعم ويجود بالخيرات. معنى اسمه «ذاك الذى يمدّ الكاءات بالمؤن». لمزيد من التفاصيل، راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى. ٢٠٠١. ص ٢٩٢-٢٩٣. (المترجم)

(**) إلهة أسدة أو قطة واهبة الأمطار الغزيرة. (المؤلفة)

من السنط ومكفتة بالنحاس و... كان من الذهب الخالص. ومن جديد استعاد الكهنة ذوو الأيدى الطاهرة وظائفهم(١٣٦).

وعلى امتداد وادي النيل واصلت الملكة أعمال ترميم المباني الشامخة التي خرّبها الهكسوس، تحديداً:

أقيمت مذابح النار وتعاظمت مساحات المقاصير وهى المقار المحببة إلى جميع الآلهة، (واستعاد) كل إلهٍ المعبد الذى كان مُغرمًا به، فيستريح كاؤه على عروشه... لقد أقمت حجرة سرية داخل (كل) معبد، بعيدًا عن المكان الذى تطأه الأقدام. لقد شُكل جسد كل إله من الذهب الخالص الوارد من بلاد عامو، وتم تأمين إقامة أعياده منذ افتتاح (المعبد)، وفي الفصل المحدد لها، مع الإلتزام بالقاعدة التى وضعتها. لقد أعدت العمل بالتقاليد والأعراف التى سبق تحديدها منذ الأزمنة السحيقة. إن فكرى الإلهى يستشرف المستقبل وقلبى الملكي يبشر بالزمن الأبدى(١٣٧).

اسمعوا إذن، أنتم جميعًا، يا أيها الأشراف ويا عامة الناس، مهما كانت أعدادكم. لقد أنجزت كل ذلك بدافع من قلبى... فما كان خربًا صار مزدهرًا. وقوّمت ما كان قد تقوّض، منذ زمن إقامة الآسيويين فى قلب الدلتا، فى أواريس، بينما كان البدو بين ظهرانيهم يدمّرون ما كان قد شُيّد. أرادوا أن يحكموا ويتسيدوا، وهم يجهلون رع.

كان سلوك البشر قد توقف عن الإلتزام بما أمر به الله إلى (حين قدوم) جلالتي. عندئذ تربعت بثبات على عروش رع، فوُعدت بسنوات لا حدود لها، عندما تسلمت مقاليد السلطة. لقد أقبلت بصفتي حورسًا متفردًا مثل لهب يحرق أعدائى. وطردت ما كان مقيتًا فى نظر الله العظيم. عندئذ ذهبت الأرض بنعالهم (أى نعال الهكسوس). تلك هى قاعدة أبى آبائى الذين ظهر كل منهم فى زمنه. فلن يخالف أحد أوامرى وقائمة ألقابى راسخة رسوخ الجبال. وعندما يتألق القرص الشمسى (آتون)، فإنه يبسط أشعته عليها (على القائمة). شامخ هو حورسى فوق السرخ، للزمن اللانهائى(١٣٨).

ما تقدم هو تعريف موغل فى المصرية للنظام الملكى. فهل ذهبت حتشبسوت إلى الظن بأنها طردت الهكسوس؟ هذا ما قد يستنتجه الفكر العقلانى فى أيامنا هذه، الشديد الإلتصاق بالمعنى الحرفى للنصوص. أما بالنسبة للمصريين، فإن عهد كل فرعون من الفراعنة، هو فى حدّ ذاته مجمل التاريخ، الموزع على سنوات عهده الشخصى. ومع تنصيب كل ملك من الملوك، وبالتزامن مع تسلمه التيجان والصوالج(*)، فإنه يستأثر لحسابه بأعمال أسلافه. وإذا صح التعبير، فإنه يأخذها على عاتقه لتصبح من منجزاته. فلا وجود للملوك كأفراد، ولكن لذرية شرعية واحدة، يمثلها كل ملك على امتداد سنوات حياته على الأرض. ولا يقصد بذلك الفرعون بمعناه المجرد، بل الفرعون الدائم الوجود، إلى أبد الآباد، قد تختلف وجوهه وأسماؤه، ولكنه يظل بعيداً عن الزمن بفصوله ومختلف مواسمه. إنه الصورة الحية للعاهل الملكى. فيستمد النظام الملكى المصرى معظم مقوماته من فكرة، ومن عمل يتواصل عبر الزمان، أكثر مما يتجسد فى فرد. ويتولّد تناغم هذا التاريخ الفريد وتناسقه فى المقام الأول من الألفاظ والسحر المؤثر والكلمة التى تخلق الرباط الذى لا غنى عنه، للتآلف المتواصل للنظام الملكى.

ولذلك وكلما ظهرت ثغرة فى هذه السلالة السليمة، سوف يتم ملاحقة ذكرى هذا المغتصب الباغى مثل حتشبسوت أو محطّم التقاليد المتواترة مثل أمنحوتپ الرابع. لذا كان لابد من تدمير اسميهما كعنصر من عناصر الحياة، ليسقط فى طىّ النسيان. كانت حتشبسوت تعرف ذلك حق المعرفة، عندما سعت بشتى الطرق إلى الارتباط بملوك مصر وتتابعهم، فى محاولة منها لتربير تربعها على عرش البلاد. وبفضل النصوص التى أمرت بنقشها تحقيقًا لهذا الغرض، فإننا نقف بطريقة أفضل على أبعاد التصور المتسامى للنظام الملكى فى نظر المصريين فيستجيب، فى واقع الأمر للقواعد نفسها التى تعرّف عالم الآلهة: شدة الاهتمام بالحقيقة والعدالة واحترامهما وحماية البشر والحفاظ على نظام العالم. فمنذ أمد بعيد، وعلى الدوام، ظل الملوك والآلهة مرتبطين ارتباطًا لصيقًا، سواء فى الاحتياجات اليومية أو فى

(*) جمع صولجان. المعجم الوسيط. (المترجم)

ضرورة تأمين التوازن الكوني. إن نصًا آخر في سپيوس أرتميدوس بالغ الدلالة. فتقول حتشپسوت عند حديثها عن آمون:

إني أرتقي بالحقيقة والعدالة اللتين يحبهما، لأنني أعرف أنه يحيا بفضلهما. ولذا فهو خبزي أنا أيضًا، وارتوى من أندائه. وفي الحقيقة فأنا وهو جسد واحد. لقد انجبني لأنشر قوته وهيبته في هذا البلد، فأنا سيد كافة الملوك(١٣٩).

لا شك أن حتشپسوت كانت شديدة الذكاء، أو أن كهنة آمون كانوا يعملون من أجلها... لصالحهم؟

في النوبة

كما سعت حتشپسوت إلى تأكيد وجودها في أراضي الجنوب أيضاً.

وفي موقع بوهن على بعد خمسة كيلومترات جنوب وادي حلفا، وقد غمرت مياه بحيرة ناصر هذا الموقع في الوقت الراهن، وعند ملتقى واوات وبلاد كوش، كان سنوسرت الأول قد أقام في زمن سابق معبداً مكرسًا للإله حورس في بوهن. ومن المحتمل أن تحوتمس الثاني كان قد شرع في إقامة معبد آخر، إلى الجنوب قليلاً، وإن كان يعتبر من انجاز حتشپسوت في معظمه. لقد شُيِّد من الحجر الجيري والحجر الرملي وقُطعت أحجاره وسُوِّيت بدقة فائقة. كان يتكون من بهو أساطين تحمل سقفه ثلاثة صفوف من ستة أساطين، يليه القسم الخاص بقدس الأقداس، المقسَّم إلى خمس حجرات وتكتنفه من الجانبين صفة مكونة من أساطين ذات أربعة وعشرين ضلعًا. كان يحيط بالمعبد سور من الطوب. ومن هذه المجموعة كلها التي سيواصل تحوتمس الثالث زخرفتها، لا يتبقى سوى بعض المداميك.

وإلى الشمال قليلاً عند موقع إبريم أمرت حتشپسوت بإقامة مقصورة محفورة في صخر الجبل على البر الشرقي من النهر. وقد فعل خلفاؤها الشيء نفسه. وكافة هذه المقاصير التي أقامها تحوتمس الثالث وأمنحوتپ الثاني ورعمسيس الثاني، تتميز بتماثل رسمها التخطيطي وبساطتها: فتتكون الواجهة عند مستوى سفح التل من باب

ضيق يعلوه ساكف منحوت وتحده دعامتان تحمل بعض المدونات باستثناء مقصورة حتشپسوت. ثم يدخل الزائر إلى حجرة صغيرة إلى حدّ ما، محفورة في الصخر ومفتوحة في الجهة الغربية وتطلّ على النهر. وهي مستطيلة الشكل والجانب الأطول عمودي على المدخل وسقفها منخفض ومن المحتمل أنه كان ملونًا. وجدار الخلفية وهو الشرقي تشغله كوة تضم تماثيل تواجه المدخل(١٤٠). وعلى الجدران نُقشت النصوص والمشاهد. هذه المقاصير قريبة الشبه من حيث تخطيطها وتشييدها من مقابر جبل السلسلة التذكارية. والمقصورة التي أقامتها حتشپسوت مكرسة لكل من حورس وساتيس جزيرة إلفنتين.

كما أمرت الملكة بإقامة مسلة صغيرة من الجرانيت في إبريم.

مقبرتا حتشپسوت(١٤١)

أمرت الملكة بتشييد مقبرتها الأولى في منحدر صخري يشرف على الوادي الغربي(*) القائم بين وادي الملوك ووادي الملكات، وسوف يدفن فيه في زمن لاحق أمنحوتپ الثالث وآي. إنه أحد الوديان الصحراوية بالبر الغربي لمدينة طيبة. وتوصل كارتر Carter وماسيه Mace عام ١٩٠٢ إلى الكشف عن المقبرة. كانت محفورة على مسافة ٤٠مترا من أعلى الجرف الصخري وعلى ارتفاع ٦٧متراً من الوادي. ولأنها تتجه مباشرة ناحية الغرب، كانت أشعة الشمس الغاربة تدخل مباشرة في ممرّ المقبرة عند الاعتدال الخريفي(**). كان منعطف يفضي بعد ذلك إلى القسم الأوزيري من المقبرة. وأخيراً كان ممر ثانٍ يؤدي إلى حجرة الدفن التي وضع فيها التابوت الأول المعدّ للملكة وهو من الكوارتزيت الأصفر. بل وشرع الحرفيون ينقشون مقتطفات من

(*) ونصل إليه من الطريق نفسه الذي يؤدي إلى وادي الملوك الرئيسي، ولكن يتفرع منه طريق آخر يقود الزائر إلى الوادي الغربي وقبل حوالي ٤٠٠متر من وصوله إلى الوادي الرئيسي.(المترجم)

(**) أي عند تسامت الشمس على خط الاستواء أو يوم ٢٣ سبتمبر تقريباً. وهي ظاهرة مشابهة لما يحدث في معبد أبو سمبل الكبير، وإن في تاريخ لاحق. (المترجم)

كتاب الموتى. ثم هُجر كل شيء وتُرك فى مكانه. وظلت المقبرة ناقصة لم تكتمل. وفى زمن لاحق سطى عليها اللصوص ونهبوها بأن تدلوا بواسطة حبل من أعلى الجرف الصخرى. ولم يتبق سوى التابوت الذى تم انزاله بصعوبة بالغة إلى قاع الوهدة وهو من مقتنيات متحف القاهرة(*) فى الوقت الراهن.

واعتباراً من العام السابع، بدأ تشييد مقبرة ثانية وهى مقبرة ملكية. ووقع الإختيار على مكان فى الوادى الذى كان يرقد فيه تحوتمس الأول ويقع على الجانب الآخر من الجرف الصخرى(**) الذى كان يستند إليه معبد الملكة الجنائزى. وأشرف حپوسنب على تشييد المقبرة التى استمر العمل فيها حتى العام ١٦، وحفرت فى عمق صخر الجبل وتضم ممرات يبلغ طولها ٢١٣,١٥م. وتقع حجرة الدفن على عمق ٩٧م ولا تضم أبار. ويعتقد هايز Hayes أن التخطيط الأولىّ كان يفترض وجود وسيلة اتصال بالمعبد[١٤٢]. وقد وضع فى الحجرة تابوت الملكة الحجرى، ولكن سرعان ما تحول ليسجى فيه جثمان والدها تحوتمس الأول. لماذا هذا الإستبدال؟ لا ندرى. فلم يُعتدَ على مقبرة الملك ولم تقع فيها أعمال سلب ونهب. ولكن هذا الانتقال تم على جناح السرعة: بل إن التعديل الذى أدخل على التابوت الحجرى جرى بطريقة خرقاء يعوذها الحذق والمهارة. كان تابوتا الملك الخشبيان كبيران ويصعب إدخالهما فى التابوت الحجرى. فتركا فى مكانهما ووضعت المومياء مباشرة فى التابوت الحجرى. وأعدّ تابوت ثالث للملكة. هكذا ليرقد الأب وابنته، جنباً إلى جنب.

تعتبر هذه الواقعة بمثابة تبرير أخير من جانب الملكة، لما حدث فى حياتها وإن جاء بعد وفاتها.

لا نعرف على وجه التحديد ظروف وفاة حتشپسوت، بعد أن اغتصبت عرش مصر، لمدة ستة عشر عاماً.

(*) فى صحن الطابق الأرضى. (المترجم)

(**) هذا الجرف الصخرى يفصل وادى الملوك عن الدير البحرى ويحلو لبعض الهواة أن يتسلقوه للعبور من الدير البحرى إلى وادى الملوك أو العكس. (المترجم)

الفصل الخامس

تحوتمس الثالث

أو المجد الإمبراطورى

في العام ٢٢، من «عهده»، أى عام ١٤٨٠ق.م تقريبًا، تبوأ تحوتمس الثالث أخيراً بمفرده عرش مصر، ليحتفظ بعد ذلك بسلطاته لفترة ثلاثين سنة، ويصبح واحداً من ألمع ملوك تاريخ مصر وأكثرهم مهابة. وإذ تحلّى بالشجاعة ونفاذ البصيرة، فسوف يبدأ بإعادة فتح الإمبراطورية الآسيوية التى كانت تحاصرها التهديدات من جراء انحسار نشاط حتشپسوت العسكرى، وأرسى القواعد الأساسية لإقامة الجهاز الإدارى الذى سيتولى الإشراف على مجمل البلدان الخاضعة لهيمنته وابتدع أيديولوچية إمبراطورية حقيقية وجديدة.

الإله الكامل، رب السعادة، سيد التجليات الوضّاءة الذى استحوذ على التاج الأبيض ووحّد القوتين (الپشنت)، حياةً وقوةً. إنه صورة رع ووريث الإله الذى وهبه حكومة الشاطئين، وابن التاج الأبيض الذى أنجبه التاج الأحمر[1]، والذى أقامته الساحرتان (الصلاّن)، وبذرة أتوم المتألقة، وبيضة خپرى الفطنة، ومن أعيان ماعت، منذ أن كان فى بطن (أمه).

لقد مُنح الأسود والأحمر، كما أن مصر العليا ومصر السفلى فى قبضته. ومجده فى عنان السماء والتخوّف منه يخترق الأرض، والرعب الذى يثيره فى النفوس يجوب كل بلد من البلدان الأجنبية.

إنه ملك الملوك وأمير الأمراء والقرص الشمسى (أتون) لكافة البلدان،

إنه ابن رع: تحوتمس، صاحب الصيرورات الكاملة[2].

١- الملحمة البطولية:
حملات الفرعون السبع عشرة إلى آسيا

عندما وجد تحوتمس الثالث نفسه، سيد مصر الأوحد، كان الوضع فى الشمال خطيراً.

وبالفعل، فإذا كان ملوك الأسرة الثامنة عشرة الأوائل، قد هَزموا بقدر من السهولة، على ما يبدو، الأمراء الآسيويين، فلأنهم وجدوا أنفسهم يتعاملون على الدوام مع أعداء متفرقين لم يربطهم وفاق أو اتفاق. ولكن الممالك الهندوأوروبية الجديدة كانت قد زادت من قوتهم: ونذكر على وجه التحديد الميتاني الذى فرض سيادته على أعالى الفرات، فسعى بعد ذلك بالضرورة إلى التوسع حتى الشاطئ الشمالى من سوريا ليكتسب على هذا النحو، منافذ بحرية لا غنى عنها. كانت المنطقة الواقعة بين حلب وكركميش هى الطريق الطبيعى الذى يربط النهر العظيم بالبحر المتوسط. فمن استحوذ عليها فرض هيمنته المؤكدة على القسم الأمامى من آسيا الشمالية. وشأنها شأن سوريا، كانت هذه المنطقة مقسمة إلى عدد من المدن والإمارات. ويبدو إذن أن ملوك واشوجانى(*) قد انتهزوا فرصة الضعف المؤقت الذى عانت منه مصر عندما كانت تحكمها ملكة لا تستطيع الخروج على رأس جيش لشن الحروب، فسعوا إلى تشكيل تحالف عريض معادٍ لها بقيادة أمير قادش من الناحية الرسمية. كانت قادش قلعة منيعة تقع على نهر العاصى فى سهل البقاع وسوف تظل حتى فى زمن رعمسيس الثانى، مركز كل الحروب ضد مصر.

يُعيد تحوتمس الثالث إلى الأذهان هذه الأحداث على لوح حجرى نُقش فى العام ٤٥ من عهده، وأقيم فى جبل برقل. تقول المدونة:

لقد أناط (آمون - رع) بى حكم بلاد ريتنو، خلال الحملة الأولى. لقد تقدموا ليحاربوا جلالتى. كان الرجال بالملايين وبعشرات الآلاف، وزعماء كافة البلدان الأجنبية يمتطون جيادهم. كانوا ٣٣٠ أميراً ومع كل أمير من الأمراء جيشه(٢).

(*) عاصمة الميتانى وهى تل الفخارية حالياً. (المترجم)

ولما كان تحوتمس الثالث مدركًا الخطر الذى يتهدده، قام بالحملة الأولى، منذ السنة الأولى من حكمه. وسوف يصل عدد هذه الحملات سبع عشرة، قادها الملك الشاب إذ كان عمره يناهز الثلاثين آنذاك. وقد تحلى برؤية سياسية وبراعة استراتيجية جديرتين بالملاحظة.

إننا نعرف هذه الحملات معرفة مؤكدة، على وجه التحديد، بفضل المدونة المسهبة التى أمر الملك المنتصر بنقشها على الجدارين الشمالى والغربى من الممر الملتف حول قدس أقداس معبد آمون- رع الكبير بالكرنك. إنها عبارة عن ٢٢٥سطرًا من النصوص يبلغ كل سطر ٢٥ مترًا طولاً. إنها أطول وأقدم رواية تاريخية، معروفة إلى يومنا هذا، ونطلق عليها إصطلاحًا *حوليات* تحوتمس الثالث(*). احتاج الأمر من حرفيى طيبة قدرًا كبيرًا من المهارة والصبر لإعداد هذا النص. ولكن بفضل مجهودهم هذا، كانوا ينجزون عملاً عظيمًا، ليس من الناحية المادية فحسب، بل من الناحية الروحية أيضًا، فكان مقدر له أن يخلّد أمجاد مصر ويبقيها حية. كان الماضى فى نظر المصرى، وبمعنى آخر كان التاريخ، لا يتكون فقط من مجموعة وثائق تصنَّف فى المحفوظات، ولكنه يضم كبرى الروايات التى تعظّم الأفعال والأحداث وتمجدها، من خلال الألفاظ، لتستعيد حياة فعلية، عندما يقرأ المرء هذا النص، وبفضل السحر الذى تنطوى عليه الكلمة.

قاد العمليات العسكرية ملكًا، فكان ضابطًا مرموقًا، استطاع إبان حملاته الأربع الأولى، أن يكسر شوكة تحالف الأمراء الآسيويين، فأحرز النصر فى معركة مجدّو وحافظ بعد ذلك على فتوحاته على أكمل وجه. وربما كانت الحملات الأربع التالية أهمها جميعًا، إذ أتاحت لمصر أن تصل إلى حدود نهر الفرات وتؤكد لمرتين متعاقبتين

(*) يحتفظ متحف اللوفر بأجزاء من هذه الحوليات وتروى وقائع ست حملات من الخامسة إلى العاشرة وارتفاعها خمسة أمتار تقريبًا ويتجاوز عرضها المتر بقليل. وهى من مجموعة سالت Salt وحصل عليها المتحف عام ١٨٢٦ بناء على توصية من شمبليون Champollion.

G. Andreu, M.-H. Rutschowscaya, Ch. Ziegler, L'Egypte Ancienne au Louvre, Hachette, 1997, pp. 109-110. (المترجم)

سيطرتها التامة على الموانئ الفينيقية. كان للحملات اللاحقة مجرد قيمة شكلية غايتها تأمين الوجود المصرى فى آسيا. وجاءت الحملة السابع عشرة لتقرر بشكل قاطع فى أعقاب عدد من المعارك، على تماسك الإمبراطورية برعاية الفرعون.

معركة الاستيلاء على مجدّو والزحف نحو الشمال

من يرازا (مدينة فى شمال غرب فلسطين) *وحتى مستنقعات الأراض* (الفرات) *كان الجميع قد تمردوا ضد صاحب الجلالة*[٤].

ذهب تحوتمس الثالث لاستشارة آمون فى معبده قبل أن يتجه ناحية الشمال:

خرجت من معبد أبى آمون، ملك الآلهة الذى أمر بأن يكون النصر من نصيبى[٥].

سيجرى العرف من الآن فصاعداً، استشارة إله طيبة قبل قيام كل حملة عسكرية. وفى عهد الرعامسة، سوف يستطيع پتاح إله منف أن يصدر أوامره بزحف القوات العسكرية أو يبلّغ الملك برؤيا مطمئنة يراها فى منامه.

تحرك الجيش فى مطلع شهر يوليو. ويدأ الزحف الكبير للعجلات الحربية وحاملى الأقواس والمشاة والجهاز الإدارى. سارت فرق التموين فى أعقاب الجيش، أو بمعنى آخر قطعان الأبقار والماعز. إنه صف غاية فى الطول، كثير الضجيج والصخب يتقدمه الملك:

إن الملك ذاته، هو الذى يرشد جيشه على الطريق، إنه الباسل المقدام أمامه، وأشبه بوهج لهب[٦].

فى اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الرابع، من فصل الإنبات (١٤يوليو تقريباً)، *من العام الثانى والعشرين من عهده، اجتاز صاحب الجلالة حصن ثارو* (القنطرة)، *إبان حملته الأولى المظفرة* (التى شنها) *لدحر المتمردين وطردهم وتوسيع حدود مصر فى بسالة وقوة وسلطان ونشوة النصر*[٧].

وفى التاسع عشر من يوليو تقريباً، وهو تاريخ رأس السنة المصرية المدنية، بدأ العام الثالث والعشرين من عهد الملك الشاب. وبعد انقضاء تسعة أيام على عبور الحدود وصل الجيش إلى غزة، ليرحل فى اليوم التالى، ويصل بعد أحد عشر يوماً إلى مدينة يحم الواقعة على بعد ١١٧كم تقريبًا شمال غزه، ويعتقد أنها يما الحالية، عند السفح الجنوبى من جبال الخليل. بدأت سرعة تقدم الجيش تتباطأ، كلما ابتعد عن مصر، علمًا بأنه لم يخض حتى الآن، أية معركة على ما يبدو. فقد كانت القوات المتحالفة تنتظر فرعون بعيداً إلى الشمال، ربما لإبعاده بقدر الإمكان عن قواعده. كان هدف تحوتمس الثالث موقع مجدّو الحصين القائم عند منافذ ممرات جبال الخليل، شمال غرب فلسطين، حيث كان الأمراء الذين ناصبوه العداء قد تجمّعوا.

عند هذه النقطة من تقدمه رأى فرعون من الضرورى إحاطة ضباطه علمًا بحقيقة الموقف والتشاور معهم فى أفضل الطرق التى يجب أن يسلكها. كانت أمام الجيش ثلاثة طرق: الأول هو عبارة عن ممر ضيق يتميز بإمكانية مفاجأة العدو ولكنه يتطلب مزيداً من الوقت لتجميع الجيش. أما الطريقان الآخران فكان يفضى الأول إلى الشمال من مجدّو والآخر إلى الجنوب منها، ويفترض أن تتقدم القوات فى أرض مكشوفة، الأمر الذى قد يتيح للقوات المتحالفة إمكانية شن هجوم مفاجئ.

فى اليوم السادس عشر، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام الثالث والعشرين من عهده، وصل الجيش إلى مدينة يحم. وهناك أمر صاحب الجلالة بعقد مجلس حربى لجيشه المنتصر.

(يُوصف جيش فرعون على امتداد هذا النص بأنه جيش «منتصر» ويوصف أعداؤه بأنهم «أخسّاء». ولا يقصد بذلك لَغْو ولغط بغير طائل، بل الفائدة المرجوة من القدرة الإبداعية للألفاظ والكلمات. هذا ليس حشواً أو كلامًا فى الهواء، بل هو بالأحرى سلوك ذهنى واعٍ).

إنه يقول: «هذا العدو الخسيس من أبناء قادش، قد دخل إلى مجدّو، إنه هنا فى هذه اللحظة، وقد جمع من حوله زعماء كافة البلدان الأجنبية الذين كانوا على صفحة ماء مصر (إنها استعارة نهرية تؤكد على التبعية المتواصلة والوفاء والخضوع)

والنهارينا ... والسوريين وأبناء قودا (كيليكية(*) وجيادهم وجيوشهم وأقوامهم. بل إن (هذا العدو الخسيس) قد قال: لقد نهضت لأحارب صاحب الجلالة، هنا فى مجدّو. فقولوا لى إذن ماذا يدور فى خلدكم.

وبنبرة مشوبة بالحذر تحدّث أفراد أركان حرب أرض المعركة معًا وبصوت واحد قائلين:

كيف نسير عبر هذا الطريق الضيق؟ فيُروى أن العدو متواجد هناك، خارج (قلعة مجدّو) بأعداد لا حصر لها. ألا يقول الواقع (إننا إذا سلكنا هذا الممر) أن الجواد سيضطر إلى السير فى إثر جواد (آخر) وبالمثل سيتقدم الجيش ومن معه من رجال؟ فهل ستضطر مقدمتنا أن تحارب فى حين تظل مؤخرتنا متوقفة هنا فى عرونا (وهى آخر محطة يتوقف عندها الجيش قبل مجدّو عند منفذ الممر على بعد ستة أو سبعة كليومترات من المكان) فلا تستطيع المشاركة فى المعركة؟ فى حين يوجد طريقان (آخران).... ولكن فليتقدم سيدنا الجسور على الطريق الذى يبدو الأنسب إلى قلبه. ليته يتصرف بحيث لا نضطر إلى السير فى هذا الطريق الصعب الوعر.

حَميَّة الملك الشاب وبسالته:

أُقسم، أن ما دام رع يحبنى، وما دام أبى آمون يكرمنى ويستعيد أنفى شبابه حياةً وقوةً، أقسم أن جلالتى سوف يتقدم عبر هذا الطريق (الضيق) المؤدى إلى عارونا. فمن منكم يريد السير عبر هذين الطريقين اللذين تحدثتم عنهما فليذهب. ولكن من منكم يريد أن يكون فى معيّة جلالتى فليتبعنى...

عندئذ قالوا فى حضرة الملك: «فليتصرف والدك آمون، رب عروش القطرين القائم بالكرنك وفقًا لرغبتك. أجل، سوف نبقى فى معية جلالتك، أيًا كان المكان الذي ستتجه إليه، هكذا يتصرف الخادم فى إثر سيده».

عندئذ أصدر جلالته أوامره إلى الجيش بأسره: سوف يحمى سيدكم المقدام خطاكم فى هذا الممر. انتبهوا! لقد أقسم جلالتى قائلاً: «لن أسمح لجيشى أن يخرج من هذا المكان أمامى». كان العاهل الملكى قد عقد العزم فى قلبه، أن يتقدم على رأس

(*) جنوب شرقى الأناضول. (المترجم)

جنوده. ونظّم كل شيء. بحيث يعرف كل فرد ترتيبه في هذه المسيرة، وجواد في إثر جواد، وكان صاحب الجلالة يتقدم الجيش[٨].

قضى الجميع ثلاثة أيام في يحم. وعبروا الممر في اليوم التاسع عشر، بعد رحيلهم من مصر. كان جنود المقدمة «*قد ملؤوا بالفعل وهدة الوادي*»، أمام مجدّو، بينما كانت تسعى المؤخرة إلى اللحاق بهم على مهل إنطلاقًا من عارونا.

ومع حلول المساء بدأت سهرة الإستعداد للمعركة، في ليل الصحراء الرطب.

عسكر صاحب الجلالة وصدرت الأوامر إلى الجيش بأسره: «استعدوا! اشحذوا أسلحتكم! فمع مطلع الفجر سوف نزحف لمحاربة العدو الخسيس...» كان الملك يستريح في خيمته. وتم إمداد القادة بما يحتاجون إليه. وقُدّمت حصص أغذية للفرق اللازمة وتم نشر حرّاس الليل. عندئذ أخذوا يصيحون: «فليكن قلبكم ثابتًا! فليكن قلبكم ثابتًا! كونوا يقظين! كونوا يقظين!» كما كان الجميع ساهرين في خيمة صاحب الجلالة، وجاء من يقول لجلالته: «الصحراء هادئة وأيضًا مشاة الشمال ومشاة الجنوب[٩]».

طوال سهرة الاستعداد للمعركة، ربما كان يدور بخلد الشاب تحوتمس، أن على شجاعته ورجاحة عقله، سوف يتوقف غداً مصير مصر.

وفي اليوم التالي، في اليوم الحادي والعشرين، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام الثالث والعشرين، من عهده (أي بعد يومين من الرحيل من يحم) *وفي اليوم المحدد لعيد رؤية الهلال الجديد، نهض الملك مع تباشير الفجر. وصدرت الأوامر إلى الجيش بأسره بالإنتشار*[١٠].

يبدو أن هذه الأوامر، كانت تقضي بتوزيع الجيش المصري إلى جنوب الحصن وشرقه، بل وربما إلى شماله، وحتى جانبه الشمالي الغربي[١١]. فقد نذهب إذن إلى القول، بأن قسمًا من الجيش قد سلك على ما يظن أحد الطريقين العريضين، المؤدي إلى شمال القلعة. إنه سلوك حذر محسوب من جانب تحوتمس الثالث. هكذا كان العدو قد دُفع دفعًا إلى الممرات الجبلية لجبال الخليل مما اضطره إلى خوض المعركة وهو يواجه الشمس المشرقة.

ومع طلوع النهار، بدأ الاستعراض العظيم للأسلحة، وسط تطاير غبار الرمال والصراخ وصهيل الجياد. كان ذهب وفضة العجلات الحربية يتألقان على ضوء النهار. كان فرعون الشجاع أول من انقضّ على العدو وهو فى وسط المعمعة، فالآلهة تؤازره.

يتقدم صاحب الجلالة على متن مركبته المصنوعة من الذهب الخالص، وتزدان بعُدّة الحرب، مثل حورس صاحب الساعد القوى ورب القدرة، ومثل مونتو مدينة طيبة، فى حين يعضّد آمون ساعده... وفى خضم المعركة تسرى قوة ست فى مختلف أعضائه[١٢].

أما عن المعركة ذاتها، فالمؤرخ المتعطش إلى الوقائع يخرج خالى الوفاض. إن النص الذى يتّسم بقيمة سحرية أكثر منها تاريخية، بالمعنى الحديث للكلمة، يشيد على الفور بانتصار الملك ويمجده دون إغفال لمسة فكاهية أحيانًا:

عندئذ استحوذ صاحب الجلالة على الأعداء وهو على رأس جيشه. وعندما رأى هؤلاء أن صاحب الجلالة قد تأكد من تشديد قبضته عليهم، لاذوا بالفرار فى اتجاه مجدّو وقد تعثرت خطاهم وسقطوا على رؤوسهم والفزع يرتسم على وجوههم. لقد تركوا جيادهم ومركباتهم المصنوعة من الذهب والفضة. وتم سحبهم، ورُفعوا على أسوار المدينة بشدّهم من ملابسهم، لأن الجماهير كانت قد أغلقت أبوابها. بل تركوا أحيانا ملابسهم تتساقط لتسهيل رفعهم إلى أعلى السور. واهًا! لو أن جيش صاحب الجلالة «لم يشغل قلبه بالسلب والنهب»، لاستولى على مجدّو على الفور! هكذا «سُحب» على جناح السرعة عدو قادش الخسيس، وفى الوقت نفسه عدو مجدّو الخسيس (أى الأمراء الممثلون للمدن)، لادخالهم إلى المدينة، لأن الفزع الذى يثيره صاحب الجلالة، تسرّب إلى أبدانهم وظلت سواعدهم بلا قوة. كانت «نورانية» (الصل) الملك قد استحوذت عليهم.

عندئذ استولى جنود الملك على المركبات الحربية المصنوعة من الذهب والفضة، بعد أن أصبحت غنيمة لهم. وقتلوا المطروحين أرضًا الذين تناثروا هنا وهناك، وكأنهم أسماك وقعت فى سلة صيد. وبدأ الجيش المنتصر لصاحب الجلالة يُعَد حصرًا بأملاك الأعداء. كما تم نهب خيمة هذا العدو الخسيس المكفتة بالفضة...

كان الجيش بأسره يطلق صيحات الفرح ويجزل من المدائح والتهاليل للإله آمون بسبب النصر الذى وهبه لابنه فى ذلك اليوم. كان الجنود يكرّمون صاحب الجلالة ويمتدحون قدراته. وقدموا له الغنائم التى جمعوها: من أيادٍ ومركبات من ذهب وفضة وأشياء كثيرة رفيعة القيمة(١٣).

يبدو أن هذه المعارك لم تكن شرسة. فقد ضُرب الحصار حول المكان، دون مقاومة ظاهرة من جانب العدو. ومنذ أن قُهر للمرة الأولى، انصرف الجنود للهو والفرح وأخذوا يسلبون وينهبون أرض المعركة. ولكن استطاع أمراء آسيا أن يلجؤوا إلى القلعة الحصينة ولإخراجهم منها، كان لابد من حصارها حصاراً مانعاً، استغرق سبعة أشهر. وألقى تحوتمس الثالث فى قواته خطبة عصماء ناشدهم فيها قائلاً:

إن جميع زعماء الشمال محتجزون الآن داخل هذا الموقع. فالاستيلاء على مجدّو يعنى الإستيلاء على ألف مدينة. فاستولوا على المدينة بإقدام وبسالة!(١٤)

بدْء الحصار وترتيباته:

قدّروا طول وعرض المدينة التى أحيطت بخندق وسُوّرت بأشجار صغيرة تنتمى إلى مختلف الخلاصات العطرية الطبية. ووقف صاحب الجلالة ذاته فوق موقع محصن شرقى المدينة، ساهراً عليها ليل نهار... (موقع) محاط بسور من تشييده... اسمه «من خپر رع هو الذى حاصر الآسيويين». ووزّعَ الرجال للسهر على خيمة صاحب الجلالة. وقال لهم: «فليكن قلبكم ثابتًا! فليكن قلبكم ثابتًا! كونوا يقظين! كونوا يقظين!» ولم يُسمح لكائن من كان منهم، أن ينتقل إلى الخارج، خلف هذا السور، إلا للقيام بأعمال الحصاد عند باب الموقع الحصين(١٥).

وعلى الصرح السابع بمعبد الكرنك، نشاهد صورة حية تعبيراً عن هذا السهر الملكى. يالها من صورة تذكرنا بعصر لاحق، عصر الرعامسة:

جلس جلالتى أمام المدينة مثل أسد يتأهب للهجوم. كنت يقظًا ليل نهار، على حدّ سواء(١٥مكرر).

وعلى دعامة من دعامات معبد بوهن تم نحت النبأ فى الحال، مع تمجيد أبعاد الإنتصار وتعظيمه، لأن الكلمات تكتسب هنا قوة ردع لثْنى أبناء أراضى الجنوب عن

مجرد احتمال التفكير في التمرد:

تحوتمس هو: *الملك الذى ينشط بسيفه. البطل الذى لا مثيل له، الذى يُجهز على الأجانب ويدوس بقدميه بلاد* **ريتنو** *ويقتاد زعمائهم أسرى أحياء ويستولى على مركباتهم المصنوعة من الذهب والفضة التى ما زالت جيادها مشدودة إليها.*

وأبناء بلاد **ثحنو** *ينحنون بسبب مجد صاحب الجلالة، وقد حُمّلت جزيتهم على ظهورهم، ويمشون مشية الكلاب، حتى تُعطى لهم نسمة الحياة*(١٦).

إنه زهو وعُجب المنتصرين سواء كانوا من **التحامسة** أو **الرعامسة**.

إن نص لوح حجرى أقيم بمعبد **پتاح بالكرنك**، يعلق على هذه الأحداث على النحو الآتى:

لقد منحنى أبى آمون كافة بلاد **چاهى** *الأجنبية، بعد أن تجمعّوا واحتجزوا فى مدينة واحدة. عندئذ تسرّب إلى قلوبهم الخوف الذى أثيره. كانوا يتساقطون وقد خارت قواهم بينما كنت أقترب منهم. ومَن ظل على قيد الحياة لم يستطع الهروب. لقد حاصرتهم فى مدينة واحدة. لقد شيّدت أمامهم جدارًا سميكًا حتى أحرمهم من نسمة الحياة، بفضل أمجاد أبى آمون الذى يرشدنى إلى الطريق المستقيم وبفضل كافة النصائح المفيدة التى يغدقها علىّ*(١٧).

إن نص اللوح الحجرى المقام فى **جبل برقل** فى العام ٤٥، يقدم وصفًا لعملية الإستسلام التى تمت بعد سبعة أشهر بسبب المجاعة، أكثر حيوية وأكثر طرافة من نص **الحوليات** الرسمى:

تساقطوا على وجوههم وانقلبوا، ثم ولجوا إلى داخل **مجدّو**. *واحتجزهم جلالتى فيها لمدة سبعة أشهر. لم يكن فى استطاعتهم الخروج. عندئذ توسّلوا إلى جلالتى قائلين: «اعطنا النسمات، أيا سيدنا! فلن تتمرد أبدًا بلاد* **ريتنو**، *مرة أخرى». عندئذ سُمح لهذا العدو الخسيس والزعماء الذين كانوا فى صحبته، بالخروج للمثول بين يدى جلالتى، وجاء معهم كافة أولادهم. كانوا محملين بجزية طائلة من ذهب وفضة، وجلبوا معهم كل ما يمتلكونه. جاءوا بجيادهم ومركباتهم الحربية المصنوعة من الذهب*

والفضة، فضلا عن المركبات المدهونة بمختلف الألوان وكافة زرودهم وأقواسهم وسهامهم وكل ما يمتلكون من أسلحة. فكل ما أتوا به لمحاربة جلالتي، حملوه إلىّ الآن، بصفته جزيتهم. ومن وقفوا فوق الأسوار كانوا يهللون ويهتفون لي، كي أمنحهم نسمة الحياة. وسمحت بأن توزع عليهم الأطعمة. عندئذ أعلنوا قسمًا قائلين: «لن نعود ثانية إلى اقتراف أفعال سيئة في حق سيدنا من خپر رع طوال زمن حياتنا، لأننا شاهدنا مجده وقدرته. ليته يعطينا النسمات، حسبما يرغب!» إن ما حدث هو من فعل أبي آمون - رع، رب عروش القطرين وليس من فعل بشر.

عندئذ أعاد إليهم جلالتي الطرق المؤدية إلى مدنهم ورحلوا جميعًا وقد امتطوا الحمير.

(إنه وضع مشين في نظر المصري القديم. فالحمار وهو حيوان ينتسب إلى ست، كان مخصصًا تقليديًا لنقل الأحمال).

لأنني كنت قد استوليت على جيادهم. واقتدت أقوامهم إلى مصر بالإضافة إلى ما يمتلكون من خيرات[١٨].

وإن كانت الحملات العسكرية، تؤمّن الدفاع عن القطر المصري واتساع رقعته، فإنها تعتبر فضلاً عن ذلك، مصدراً مهولاً لتعاظم ثروات مصر، ومن ثم الإزدهار الداخلي.

الشاهد على ذلك على وجه التحديد، الغنائم التي دخلت البلاد نقلاً عن أرض معركة مجدّو والتي وردت عنها قوائم تفصيلية أعدّها كتبة الجيش في سياق نص الحوليات:

- *بيان بالغنائم التي جلبها جيش صاحب الجلالة من مدينة مجدّو: ٣٤٠أسيرًا حيًا، ٨٣يدًا، ٢٤٠١حصانًا، ١٩١مهرًا، ٦ أحصنة للسفاد...*

مركبة حربية مطعمة بالذهب، كان بدنها من الذهب أيضًا، وتخص هذا العدو الخسيس. (الإشارة هنا، إلى أمير قادش، على ما يعتقد). *ومركبة جميلة مطعمة بالذهب كانت تخص أمير مجدّو، ٨٩٢ مركبة تابعة لجيشه، المجموع الكلي: ٩٢٤.*

زَرَد واحد جميل للقتال من البرونز كان يخص هذا العدو الخسيس، زرد واحد جميل من البرونز للقتال يخص أمير مجدّو، ٢٠زرد قتال (من البروز) تخص جيشه الخسيس، ٥٠٢ قوسًا، ٧ أوتاد وأساطين صغيرة مطعمّة بالفضة كانت جزءًا من خيمة هذا العدو الخسيس.

كما استولى صاحب الجلالة على ماشية هذه المدينة...: ١٩٢٩ بقرة و٢٠٠٠ عنزة و٢٠٥٠٠ خروف.

(احتاج الأمر إلى جهاز إدارى ضخم. فياله من موكب طويل كثير الجلبة، كان يسير فى أعقاب جنود الملك!)

- قائمة بما أحضره الملك بعد ذلك، ويعود إلى مقتنيات هذا العدو الخسيس فى ينعم وفى **نجس** وفى **حرنكرو** (كلها مدن تقع إلى الشمال من **مجدّو** والتى حالت على ما يعتقد دون تقدم الملك فى اتجاه مدينة **صور** وإن وصل إليها بعد ذلك). *كما جلب فى الوقت نفسه مقتنيات المدن التى وضعت نفسها على مياهه.*

ما جُلب لفخامة صاحب الجلالة:

نساء هذا العدو الخسيس والزعماء الذين كانوا معه [٤٧٤ شخصًا] و٣٨ ماريانو تابعين لهم (أسماء المحاربين الأسيويين)، *وأولاد هذا العدو الخسيس والأمراء الذين كانوا معه: ٨٧ شخصًا و٥ماريانو تابعين لهم، ١٧٩٦ خادمًا وخادمة بما فى ذلك أولادهم، ١٠٣ من غير المحاربين الذين كانوا قد تخلوا عن هذا العدو الخسيس بسبب الجوع، المجموع ٢٥٠٣ أشخاص.*

ووُجدت أيضًا أقداح من الأحجار الكريمة ومن الذهب. وأدوات أكل متنوعة. وجرّة ضخمة على الطراز السورى. وأوانى وقصعات وأطباق وأحقاق للشرب وجرار وسكاكين، أو ما مجموعه: ١٧٨٤ دبن (أكثر من ١٦٤كجم).

حلقات ذهب عُثر عليها بينما كان جارى صياغتها ومعها فضة فى هيئة حلقات عديدة، و٩٦٦ دبن وقت واحدة (أو ما يعادل ٨٩كجم تقريبًا من الذهب الخام والفضة الخامة).

تمثال واحد من الفضة كان جارى تشكيله... وتمثال لهذا العدو الخسيس كان رأسه من الذهب. ثلاث عصى برؤوس آدمية. ستة كراسى تُحمل على الأكتاف مصنوعة من الأبنوس والعاج وخشب الصندل، كانت تخص هذا العدو الخسيس ومعها ستة مقاعد. ست موائد كبيرة من العاج وخشب الصندل، وسرير من خشب الصندل مغشّى بالذهب وكافة أنوا ع الأحجار الكريمة، على طريقة الصولجان الخاص بهذا العدو الخسيس المغشّى بالكامل بالذهب. تمثال لهذا العدو الخسيس من الأبنوس المغشى بالذهب رأسه من اللازورد. وأدوات أكل من البرونز، والعديد من الثياب الخاصة بهذا العدو الخسيس.

- *وبعد ذلك قُسمّت الأراضى المزروعة إلى حقول، عُيّن عليها مراقبو القصر الملكى لجمع المحصول.*

قائمة بالمحصول الذى أحضره معه صاحب الجلالة من حقول مجدّو: ٢٠٧٣٠٠ غِرارة حنطة وشعير، بعد استبعاد ما حُصد وتم الإستيلاء عليه من أجل جيش صاحب الجلالة(١٩).

إن المحتويات النفيسة فى مغارة على بابا، شىء لا يذكر مقارنة بهذه الثروة من الغنائم. ولكن الشرق الأدنى الذى تتقاطع عنده دروب التجارة التى تسمح بانتقال ثروات أفغانستان الأكثر بعداً وبابل والجزيرة العربية لتصل إلى البحر المتوسط، كان منطقة لتبادل ثروات الشرق على نطاق واسع. وكانت موانئ فينقيا مكانًا بالغ الأهمية لتجارة كل ما هو نادر ونفيس ومن هذا المنطلق نفهم طموحات القوى العظمى التى احتلت الساحة الدولية آنذاك، فسعت إلى بسط هيمنتها على هذه البلاد.

لم يكن جميع هذه المغانم مخصصة للخزائن الملكية. فقسم منها كان يصب فى خزائن آمون، سيد الإنتصار ومرشد العاهل الملكى. فمن مدونة الصرح السابع بالكرنك نقرأ:

أتى جلالتى بالنساء اللواتى كنّ ينتسبن إلى هذا العدو الخسيس مع الأولاد، وأتيت فى الوقت نفسه بنساء الزعماء الذين كانوا معه وكافة الأولاد. وقدّم جلالتى هؤلاء النساء وهؤلاء الأولاد إلى مخازن أبيه آمون بصفتهم خدمًا. وقدمت منتجاتهم إلى معبد الإله بصفتها الإسهام الأول لبلاد ريتنو[٢٠].

وبعد انتصار مجدّو، واصل تحوتمس الثالث بما تحلى به من حذر وفطنة، سيره شمالاً حتى مستوى مدينة صور تقريبًا، محققًا النجاحات نفسها.

هكذا حطّم التحالف الذى قاده أمير قادش، وحشده على ما يظن سوتاتار ملك الميتانى. وضمن السيطرة على بلاد ريتنو والتحكم فى الموانئ الفينقية. وبدءًا من هذه السنة ذاتها نظّم غزو ريتنو:

وعيّن صاحب الجلالة مجددًا الزعماء لكل مدينة من المدن[٢١].

ولما كان يسعى إلى عدم الإخلال بالتوازن التقليدى فى آسيا - الأمر الذى ظل على الدوام شغله الشاغل - فقد أبقى على الحكاّم المحليين وأسرات الأمراء الحاكمة، ولكنه قام «بتعيينهم». وكما لاحظنا لقد تم تقسيم البلاد إلى مقاطعات خاضعة للضريبة العقارية. كما فرض رسومًا على وجه التحديد على محاصيل الحصاد.

سوف تصبح صروح المعابد الأماكن المكرسة من الآن، لإعلان الإنتصارات الملكية المرتبطة على هذا النحو بالآلهة التى تأمر بها ولعرضها على المشاهدين، كما يثبّتها الحجر ويخلّدها، إلى أبد الآباد.

ويحتفظ الصرح السابع من معبد آمون - رع بالكرنك، بتكوين رائع يصور بأقل قدر من التفاصيل السيلُويت الشامخة للملك تحوتمس الثالث، المهيمن بجسده المائل فى شموخ على «أكوام» الأسرى الراكعين أمامه، فى حين يكرسهم للإله آمون بمقمعته البيضاء التى رفعها إلى أعلى، تعبيرًا تقليديًا، عن قدرة فرعون الممتدة إلى خارج حدوده، وإن اتخذ هذا التعبير هنا، شكلاً حماسيًا به قدر من المبالغة.

وفى هذا المقام، يستهل العاهل الملكى عملاً سوف يصبح فيما بعد من الأعراف

الثابتة، فيأمر بنحت على الصرحين السادس والسابع قوائم بشعوب الشمال التى وقعت فى الأسر[٢٢]، ويشار إليهم بموطنهم الأصلى، سواء كان مدينة أو قطراً، أو باسم الشعب الذى ينتمون إليه، مع الإلتزام برسم العلامات المقطعية عند كتابة الأسماء الأجنبية، وذلك دون التقيد بأى ترتيب جغرافى محدد، ودون إمكانية التعرف على «خط سير» حملة الملك. وتأكيداً على هيمنته الإمبراطورية وإبرازاً لها بشكل أفضل، يُلحق بهذه القائمة بياناً بأسماء شعوب الجنوب التى تم إخضاعها[٢٣].

وفى العام التالى وهو العام ٢٤، خرج تحوتمس الثالث، من جديد على رأس جيشه متجهاً إلى الشمال. ويبدو أن الأمر اقتصر على مجرد مناوشات محدودة. ولكن منذ ذلك الوقت، ظهرت ملامح السياسة البارعة التى اتبعها العاهل الملكى الشاب: فأراد من جهة، أن يتأكد بنفسه من الأوضاع القائمة فى البلدان التى تم فتحها، ومن جهة أخرى، فإن تواجده هو وجنوده، قمين بإجهاض أية محاولة تمرد أو عصيان.

هذا السلوك النابه الشجاع من قبل فرعون، جعل الشرق القديم ينظر إليه نظرة كلها هيبة. وهكذا ترسل إليه أشور القصبة الجزية إكراماً له، فتقدم له على وجه التحديد «*اللازورد فى هيئة كتلة واحدة*»[٢٤]. وللأسف فإن هذا المقطع شديد التشوه. إنه تعبير عن سياسة صائبة، فلما كانت أشور تبحث عن حليف محتمل يقف إلى جانبها ضد الميتانى، وكانت لا تزال خاضعة له فى ذلك الزمان، سعى ملوك أشور على ما يعتقد، إلى التخلص من هذا الوضع بالإرتباط بحلفاء أقوياء.

وقام فى العام ٢٥، بحملة جديدة لمراقبة الأحوال فى آسيا. ويتميز «*التقرير*» الرسمى، بسمة خاصة يشهد على ولع المصريين بالتعرف على البلدان الأجنبية والأشياء المجلوبة منها. فقد أمر تحوتمس الثالث بأن تحفر بالنقش البارز صور، هى آية فى الجمال «*للفلورة*(*) *التى التقى بها فى الريتنو الأعلى*[٢٥]»، فضلاً عن بعض أنواع الحيوانات. وإذ لم يجد مكاناً كافياً على «*جدار الحوليات*»، صُوِّرت هذه المشاهد

(*) لفظ دخيل أقره مجمع اللغة العربية ويعنى: أنواع النبات فى مكان ما وفى زمن معين. مجمع اللغة العربية. المعجم الجغرافى. القاهرة. ١٩٧٤. ص٧٥. (المترجم)

الرائعة فى الحجرات الواقعة، فى مؤخرة معبد الكرنك الكبير. ويعرف هذا المكان باسم «*الحديقة النباتية*». أحقًا كان قلة المكان هو السبب؟ أم كان اختيارًا مقصودًا عن عمد للدلالة التى ينطوى عليها المكان؟ وبالفعل تتصل هذه الحجرات بقدس الأقداس الذى يشكل الحجرة المحورية الثالثة لمبنى آخ ـ منو[٣٦] الذى شيده تحوتمس الثالث، على محور يتعامد على محور المعبد الكبير والقائم إلى الشرق منه. هكذا فإن الآخ ـ منو أو معبد «*استعادة حياة* (الملك) *وتجديدها*» كان يتصل اتصالاً مباشرًا بالمشاهد التى تصور العالم الطبيعى لاسيما فلورة آسيا التى كانت تساهم على هذا النحو فى اكتمال ازدهار القوى الحية للفرعون – بفضل القدرة السحرية للصور والتماثل القائم منذ زمن سحيق بين الحياة الأبدية وتجديد الحياة النباتية. كانت الإمبراطورية تشارك فى استعادة حياة الملك وتجديدها، إبان الأعياد الطقسية التى تقام بهذه المناسبة.

وبعد ذلك، لا يرد ذكر سوى للحملة الخامسة التى خرجت فى العام ٢٩. ربما لم نعثر على نص وصور الحملة الرابعة. وعلى كل حال، فإن مدونة *الحوليات* الطويلة لا تنبس عنها بكلمة واحدة.

لم يصلنا سوى بعض الشواهد عن نشاط تحوتمس الثالث فى سيناء، حيث أوفد كبراء البلاط الملكى على رأس بعض الحملات. إن لوحًا حجريًا عثر عليه فى سرابيط الخادم يشير إلى سا مونتو، خازن الملك والصديق الأوحد والمشرف العام على مصبات النيل، عندما خرج فى العام ٢٥...

...على رأس جنود الملك ليجلب لصاحب الجلالة، كل ما يتوق إليه من منتجات البلد الإلهى، من فيروز بكميات *لا حدود لها. فسلك الطريق نفسه الذى سار فيه سيده وتجاوز ما كان قد أُمر به...* ومنحت حتحور *العظيمة* (كل نعمها) *إلى* قدرة صاحب *الجلالة: فأصبحت الآبار أشبه ببحيرات فى زمن الفيضان والمنحدرات الصخرية تفضى (تلقائيًا) إلى كنوزها المكنونة*[٣٧].

وعلى لوح حجرى آخر، عثر عليه فى سرابيط الخادم أيضًا، ومؤرخ بالعام ٢٧، صُوِّر تحوتمس الثالث فى الجزء المقوس العلوى من اللوح، وهو يقدّم قرابين فى هيئة

أنية إلى الإلهة حتحور سيدة هذه الأماكن. والنص المدوّن عبارة عن أمدوحة مسهبة تعظّم الملك. فالصفات الحربية التي ينعت بها، تعتبر إرهاصاً للشاعرية الغنائية لعصر الرعامسة:

*إنه بطل لا مثيل له، الملك القادر الذي يفخر به البشر... واضعًا الرعب الذي يثيره وسط **الأقواس التسعة**، إن الخوف منه قد كبّل البلدان الأجنبية... إن قوة ابن **نوت (ست)** على ساعديه... إنه الثور صاحب القلب الصارم*(٢٨).

هكذا ولدت مع **تحوتمس الثالث**، أيديولوچية جديدة.

لقد أعاد العاهل الملكي الشاب فتح إمبراطورية **آسيا**، وانهار التحالف الذي تزعمه أمير **قادش** بتحريض من **الميتاني** وتقوض. وفي مرحلة لاحقة سوف يوفر **تحوتمس الثالث** كل التدابير التي تضمن الأمن لممتلكاته الآسيوية.

حدود نهر الفرات

إن الحملات الأربع التي قادها فرعون في **أسيا** من العام ٢٩ إلى العام ٣٣، من عهده كانت حاسمة وفاصلة في تأسيس الإمبراطورية. وبكل ما أُوتي من حذر تكتيكي وفطنة سياسية نابهة، أمّن **تحوتمس الثالث** سيطرته عى الموانئ **الفينيقية**، لمرتين متتاليتين إذن، من خلال الحملتين الخامسة والسابعة، كما تصدى لأحد عدويه الرئيسيين الذين سوف يوقع بهما الهزيمة، وهما أمير **قادش**، إبان الحملة السادسة وملك **الميتاني** إبان الحملة الثامنة. إن هذه الهيمنة الوطيدة الراسخة على موانئ **فينيقيا**، لم تكتسب هنا بعداً تجارياً فقط، بل عسكريًا بالإضافة إلى ذلك، الأمر الذي أتاح للعاهل الملكي أن ينقل قواته العسكرية والفرق الإدارية إلى المناطق السورية بطريقة أسهل مقارنة بالطريق البري. هكذا نشأ طريق بحري إمبراطوري سيعود **الرعامسة** إلى استخدامه.

إن الحملات العسكرية والمآثر البطولية، إلى جانب الإنتصارات وأعمال السلب والنهب، هي لُحمة وسداة نسيج ملحمة **تحوتمس الثالث**.

على غرار جنود هانيبال(*) في كابوا(**)

في العام ٢٩، كان صاحب الجلالة في بلاد **جاهي**، *يثخن تقتيلاً في البلدان المتمردة عليه، إبان حملته الخامسة المظفرة. وجرى سلب ونهب* **ميناء وارتت** *في الشمال، ثم مدينة* **تونيپ** *وجلب منهما غنائم وفيرة:* ١٠٠ *دبن من الفضة و*١٠٠ *دبن من الذهب ولازورد وفيروز وأواني الطعام من البرونز والنحاس. وبعد ذلك أبحر صاحب الجلالة ناحية الجنوب متجهًا إلى مصر، إلى أبيه آمون-رع، في سعادة القلب.* (وفي طريق العودة إذن) *استولى على مدينة* **أرواد** *ومحاصيلها.* (**أرواد** ميناء هام تمتد من خلفه سهول جوف **سوريا** *الخصبة). واقتُلعت كل أشجارها الجميلة.*
عندئذ *اكتشف صاحب الجلالة بلاد* **جاهي**، *من أقصاها إلى أدناها، فضلاً* عن *بساتينها الزاخرة بالفواكه. كما عثر على النبيذ وكان لا يزال في معاصره، غزيرًا متدفقًا كمياه الأنهار، وحبوب القمح في الصوامع أكثر عددًا من حبات الرمال على الشطآن. غُمر الجيش بهذه الثروات... وكان جنود صاحب الجلالة سكارى، ويمسحون بشهرتهم يوميًا بالزيت، كما في أيام العيد في البلد المحبوب*(٢٩).

الرهائن من الأسر الحاكمة

في العام ٣٠، تم الإستيلاء على قلعة **قادش** «*وقُطعت أشجارها، وحُصدت غلالها*»، وهما عملان رمزيان يعادلان الحكم بالإعدام: يعنيان تدمير القُدرتين الحيويتين الكامنتين في النبات، فإشاعة الجوع(***). ومن جديد كان المصير نفسه ينتظر مينائي **سيميرا** و **أرواد**.

عندئذ استعاد **تحوتمس** تقليداً حديثًا وعمل على تعميمه بعد أن كان والده **تحوتمس الثاني** قد استهله(٣٠).

(*) **هانيبال** (٢٤٧-١٨٣ق.م). قائد قرطاجي. حارب الرومان. وكاد يستولي على **روما**. (المترجم)

(**) **كابوا**: مدينة في جنوب **إيطاليا**. احتلها **هانيبال** عام ٢١٥ق.م. وأقام فيها معسكر إستراحة شتوية. استعادها الرومان عام ٢١١ق.م. (المترجم)

(***) ألا تفعل قوات الإحتلال الإسرائيلية الشيء نفسه، في **فلسطين** المحتلة. (المترجم)

واصطحب أولاد الزعماء وإخوتهم إلى مصر ليبقوا فيها بصفتهم رهائن. وعند وفاة زعيم من هؤلاء الزعماء، سيطلب صاحب الجلالة رحيل ابنه ليحل محله. كان مجموع الأولاد الذين تم اصطحابهم خلال هذه السنة: ٣٦ غلامًا(٣١).

هكذا أصبحت ذرية الأسرات الحاكمة من أبناء وإخوة، تحت سيطرة ملك مصر. وخُصِّص حيٌ بعينه في **الأقصر** لاستقبالهم. فكانوا يتلقون في هذا المكان تنشئة وتعليمًا مصريين. وأصبحوا في وسعهم، إذا آن الأوان، أن ينقلوا إلى بلدهم عادات مصر التليدة وثقافتها، وهكذا يصبح تمردهم أقل احتمالاً. وغدت هذه الفكرة مبدءًا سياسيًا دائمًا.

تدفق الثروات

مع كل حملة كانت منتجات آسيا النفيسة والنادرة تتدفق على طيبة بكميات كبيرة. ولضخامة هذه الثروات، فإن سرد وقائع الأحداث العسكرية لكل حملة من الحملات، كان يلحق به بيان بأنواعها ومقاديرها، باستثناء حملة واحدة، هي السابعة التي تعود إلى العام ٣١ بالنظر إلى كمياتها الوفيرة:

كل ميناء يرسو عنده صاحب الجلالة، كان يُمدّه بكافة المؤن من خبز لذيذ ومختلف أنوا ع الأرغفة وزيت الزيتون وبخور ونبيذ وعسل وكافة أنوا ع فواكه هذه المنطقة. كل ذلك بكميات كبيرة، لم يعهدها من قبل جيش صاحب الجلالة. هذه الحقيقة ليست إفكًا. فكل شيء مدون في سجل القصر الملكي. ولكن لا يُذكر على هذا المعلم الصرحي لتجنب الإكثار من الكلمات والألفاظ لتوفير المكان (اللازم لتوضيح) الظروف التي أحاطت بجمع هذه الغنائم. وبالتالي لن تذكر (أيضًا) محاصيل بلاد ***ريتنو*** *التي تضم كميات كبيرة من الحبوب والشعير والعلس والبخور وزيت الزيتون الطازج والنبيذ والفواكه ومختلف طيبات هذا البلد. وسوف تُسجّل في الخزينة كما تسجل منتجات النوبة*(٣٢).

عبور نهر الفرات

وفي العام ٣٣، جنّد تحوتمس الثالث كل قواه لقهر الميتاني بعد أن كرّس جلّ اهتمامه استعدادًا لهذه الحملة.

ويبدو أن قسمًا من الجيش سلك الطريق البرى، لتأمين الإستقرار فى بلاد ريتنو، فى حين ركبت فرق أخرى البحر وصولاً إلى بيبلوس.

وفى المدينة أمر ببناء السفن:

وأمرتُ بالقيام بأعمال التجارة لبناء أعداد من السفن من خشب الأرز الوارد من جبال بلد الإله، عند مشارف سيدة بيبلوس (يوضع اسم الإلهة بعلت أو حتحور محل اسم المدينة). *وحُمّلت على عربات تجرها الأبقار*[٣٣].

إنه موكب عسكرى طويل وغريب يخترق صحراء أعالى سوريا: فيا له من مشهد مثير للدهشة يتكون من أبقار بخطواتها المتثاقلة فوق الرمال، تجر عربات شدّت عليها السفن التى ستستخدم لعبور نهر الفرات وصولاً إلى البر الآخر فى بلاد الميتانى. لم يترك العاهل الملكى شيئًا للصدفة، ففكّر مليًا قبل تنفيذ مشروعه، متحليًا بعبقرية تكتيكية لا تقبل الجدل.

من المؤكد أنه ملك يستحق كل مديح بالنظر إلى ما حققه من نجاح بقوة السلاح، هو الذى عبر المجرى العظيم أثناء مطاردته الذين هاجموه، فخرج على رأس جيشه بحثًا عن العدو الخسيس حتى بلاد الميتانى[٣٤].

يبدو إذن بكل وضوح أن موقع الميتانى هو البر الأيسر من نهر الفرات ويتميز إذن عن نهارينا التى يميل البعض إلى الخلط بينهما إستنادًا إلى النص الآتى:

عندئذ أقام صاحب الجلالة لوحًا حجريًا فوق تل نهارينا، بأن حفر هذا التل على يمين المجرى العظيم[٣٥].

إن نص لوح جبل برقل يؤكده نص الحوليات:

قام صاحب الجلالة على رأس جيشه بعبور المجرى العظيم فى نهارينا حتى البر الأيسر من هذا النهر. ثم أقام لوحًا حجريًا آخر بجوار لوح «أبيه»، عا خبر كارع(*)*، ملك مصر العليا ومصر السفلى*[٣٦].

(*) لقب تحوتمس الأول وهو جدّ تحوتمس الثالث فى واقع الأمر. (المترجم)

لقد فرّقت النصوص بكل وضوح بين اسمي **الميتاني** و**النهارينا**. ومن ثمّ، فمن المعتقد أن الأولى كانت قائمة على البر الأيسر من النهر، في حين كانت الثانية على البر الأيمن. وهو ما يؤكده أيضًا التاريخ. ففي زمن الرعامسة عندما سيقوم **الخاتي** بابتلاع **الميتاني** بالكامل أو تقريبًا، سيظل ينظر إلى أمير **نهارينا** بصفته حليفًا مستقلاً عن **الخاتي**[٣٧].

كل ما فعله إذن **تحوتمس الثالث**، هو مجرد الإغارة على **الميتاني**، دون أن يكون في نيته خوض معركة تقوده إلى أبعد من ذلك، ليندفع بعيدًا جدًا عن قواعده. هكذا يشكل نهر **الفرات** بالنسبة للمصريين «*الحدود*» الشمالية المثالية، ليظل هكذا.

ولكن هذه الإغارة كانت استعراض عضلات على قدر كبير من الأهمية، إذا اعتمدنا على ما تقوله المدونة المنحوتة على لوح حجري قائم في معبد **هرمونتيس**:

*عبر (الملك) نهر **المجرى العظيم** وداس بقدميه أراضي الشاطئين اللذين أحرقهما اللهب، للزمن الأبدي...*[٣٨]

ولكن هذه الإغارة في الأراضي **الميتانية** توغلت لمسافة **إيتر** واحد إستنادًا إلى ما جاء في **الحوليات**، وهو ما يعادل عشرة كيلومترات:

ما من (عدو) كان ينظر خلفه، بل كانوا يفرون وقد أطلقوا سيقانهم للريح، وكأنهم قطعان من ماعز الجبل، في حين انطلقت جيادهم مسرعة[٣٩].

بعد هذه الملحمة الحربية التي لا سابق لها، لم يرجع **تحوتمس الثالث**، هذا القائد المحنك، مباشرة إلى **طيبة**:

*فلم يتوقف عن الترحال في بلاد **جاهي** ليقتل المتمردين الذين لا زالوا موجودين، ويوزع الخيرات على الذين يقيمون على مائة*[٤٠].

ومن الجندل الرابع على نهر **النيل** وحتى نهر **الفرات**، عادت الأراضي الأسيوية والأراضي الإفريقية التي أُخضعت بفضل هيبة الفاتح العظيم فقط، لتصبح من جديد «في قبضة» مصر:

لا وجود للمتمردين في بلاد الجنوب، وبلاد الشمال تأتي منحنية بسبب مجدي. إن رع هو الذي أمر بذلك، من أجلي. لقد طوّقت كل ما تحيط به العين النورانية. لقد أعطاني البلد في طوله وعرضه، لقد ربُطت ***الأقواس التسعة*** *وجزر وسط الشديدة الإخضرار والحاو ـ نبوت والبلدان الأجنبية المتمردة. وعندما عدت أدراجي إلى الجنوب في اتجاه البلد المحبوب، بعد أن وضعت خنجري (على)* ***النهارينا*** *، فإن هول الخوف الذي أثيره، كان في فم الساكنين ـ على ـ الرمال. كانوا قد أوصدوا أبوابهم على أنفسهم ولم يتجاسروا على الخروج بسبب الخوف من الثور، الملك ـ البطل*[٤١].

إن ما يربط بلدان الإمبراطورية المصرية هو مجد السلاح والخوف من الفاتح العظيم.

ولأول مرة أُقيم في الكرنك تمثال ضخم «لطيبة المنتصرة»، في هيئة إلهة تمسك قوساً وسهماً.

مطاردة الأفيال وقنصها

يقف تحوتمس الثالث، على رأس سلسلة الفراعنة المعروفين بالرياضيين[٤٢]. فبين معركة وأخرى، كان يتفرغ لممارسة رياضة الصيد. ففي منطقة نيي وهي مدينة هامة في بلاد نهارينا، تصدى لقطيع مكون من ١٢٠فيلاً. كانت هذه المأثرة، شأنها شأن كل الأفعال البطولية، من صنع الآلهة ويأمر منها:

فعل آخر من أفعال القدرة التي كلفني بها رع. لقد أتاح لي أن أبرهن من جديد، على عظمة بسالتي في مياه ***نيي (الفرات)*** *، عندما أمر بأن التقي بقطيع من الأفيال. صارع جلالتي ١٢٠ منها. لم يحدث أبداً، منذ زمن الإله، أن أقدم، على مثل هذا العمل، ملك من هؤلاء الملوك الذين ارتدوا في الماضي التاج الأبيض. إني أقول ما أقوله، بلا مبالغة أو كذب. لقد تصرفت على هذا النحو، طبقًا لما أمرني به أمون ـ رع، رب عروش القطرين*[٤٣].

يبدو من الواضح أن تحوتمس الثالث، بينما كان يمارس رياضة الصيد العظيم هذه، تعرض لخطر جسيم عندما هاجمه أحد هذه الحيوانات، وانقذه من هذا الموقف أحد رفاقه الأوفياء، هو القائد المقدام آمن إم حب الذى روى هذا الحدث، فى مدونة نحتها بمقبرته فى طيبة:

وشهدتُ مأثرة أخرى موفقة، قام بها رب الأرضين فى نيى. كان يطارد مئة وعشرين فيلاً للحصول على أنيابها. وأمسكتُ بأضخم هذه الحيوانات الذى كان قد هاجم صاحب الجلالة. وبترت يده (أى خرطومه) *عندما كان لا يزال حيًا أمام الملك، وبينما كنت فى الماء وسط صخرتين. كافأنى سيدى الملك فأعطانى ذهبا ومنحنى... ثلاثة ثياب وخمسة أزواج* (من النعال)[٤٤].

حراسة الإمبراطورية

من العام ٣٤ وحتى العام ٤١، ظل العاهل الملكى الفطن يُنظم سنويًا حملة عسكرية إلى آسيا لسحق بعض حركات التمرد التى قامت هنا أو هناك، ومن ثم فقد أمَّن الوجود الدائم لمصر فى هذه المناطق ليعود محملاً بغنائم وفيرة:

فى العام ٣٥:

كان صاحب الجلالة فى بلاد **جاهى** *إبان حملته العاشرة المظفَرة. ووصل صاحب الجلالة إلى* **عارينا** (وهى مدينة فى منطقة حلب). *إن* **نهارينا** *- هذا العدو الخسيس - كان قد حشد هناك الجياد والرجال...* (من المعتقد أن **الميتانى** لم يكن غائبًا عن هذه الحشود. إن فجوة طويلة فى النص وفى غير محلها، تعترض سياق النص الذى يستأنف روايته عند عبارات *«أطراف الأرض»* التى قد تعضد ما ذهبنا إليه من تأويل). *كانت أعدادهم أكثر من حبات رمال الشطآن، وفى حالة تأهب لخوض المعركة ضد صاحب الجلالة. عندئذ تقدم هذا الأخير، وقام جيشه بشن الهجوم دون توقف إلا «للإمساك والإصطحاب». واجتاح صاحب الجلالة هؤلاء الأجانب بفضل قدرة*

أبيه آمون الذى وهبه البسالة والقوة.... ولاذوا بالفرار وسقط الواحد فوق الآخر، من قدام الملك(٤٥).

تلى ذلك قائمة بالغنائم ومنها ١٠ أسرى و٨٠ فرساً و٦٠ مركبة حربية.

وفى العام ٣٩ تمرد البدو شاسو فى النقب ولكن سرعان ما قام الجيش المصرى بسحق هذا العصيان.

الحملة الأخيرة

فى العام ٤٢، شكّل ملك ميتانى وأميرا **قادش وتونيپ**، تحالفًا أخيراً. وصل **تحوتمس الثالث** إلى **سيميرا** عن طريق البحر، وسار على الطريق الساحلى واستولى على ميناء **إيرقاتا** المجاور والموالى للمتحالفين. ثم زحف صوب **تونيپ** التى استولى عليها وسار مُصعداً فى نهر **العاصى** حتى وصل إلى **قادش**، وكان من المنتظر أن تدور هناك، رحى معركة فاصلة.

إن بعض الإيضاحات عن سير وقائع هذه المعركة يوفرها لنا **آمن إم حب** رفيق الملك فى جميع مآثره الحربية:

أطلق أمير قادش أنثى فرس فاخترقت، وهى تعدو جيش الملك.

(يا للهياج الذى أثارته وسط سلاح مركبات فرعون).

وعدوت وراءها على قدمىّ شاهرًا سيفى. فبقرتها وقطعت ذيلها الذى وضعته أمام العاهل الملكى. عندئذ تعبّد الجميع للإله، من أجلى ومن أجل ذلك.

(كانت شعيرة التعبد للإله تؤدى أحيانًا لصالح شخص يُراد جلب البركات الإلهية عليه).

ومنحنى الملك الفرح. وبعد أن عانقنى تسرب الإبتهاج والإغتباط إلى جسدى(٤٥مكرر).

(توقف الملك هنا، عن الإنعام على جنديه العظيم بالذهب مكافأةً له، ليخصّ رفيق السلاح بعطفه الودود).

وبعد إحباط حيلهم، لجأ الأعداء إلى داخل قادش. ولا يبدو أن الحصار قد دام طويلاً. ويضيف آمن إم حب قائلاً:

وبعد ذلك اختار من وسط جيشه كافة الرجال البواسل لتحطيم الجدار الجديد الذى كانت قادش قد أقامته. أنا الذى حطّمته، فكنت أول البواسل أجمعين، فليس أمامى من يستطيع عمل ما فعلته. وعندما خرجت من المدينة اصطحبت أسيرين من الماريانو. ومن جديد كافأنى سيدى الملك بكل الأشياء الطيبة التى ترضى القلب(٤٦).

بعد هذه الحملة المظفرة الأخيرة، لم يعد أحد ينازع تحوتمس الثالث سلطته. أصبحت هيبته عظيمة القدر فى الشرق وفى إفريقيا، على حدّ سواء. وتدفقت الثروات على طيبة: بدءًا من جباية الجزية، بالإضافة إلى ما تقدمه بعض البلدان ولا سيما قبرص أو خاتى أو آشور، كعلامة من علامات التقدير لأمجاد الفاتح المغوار وإكرامًا له.

ملحمة أسطورية

عن هذه السنوات المديدة التى شهدت كل هذه الحملات العسكرية، وعن مآثر الملك البطولية وقادته وجنوده، ومن أمثلتها حياة إمن إم حب - تولّدت على وجه اليقين المسارد الأسطورية والحكايات. وعاشت إحداها من خلال حكاية *الإستيلاء على يافا* على يدى جحوتى، أحد قادة تحوتمس الثالث والذى وُجد وجودًا حقيقيًا(٤٧). ومع ذلك يصعب علينا ربط هذا الحدث، بهذه الحملة أو تلك، من الحملات التى نُظّمت على امتداد أكثر من سبع عشرة سنة.

وعلى كل حال فإن مخطوط *الحكاية*(٤٨) يعود إلى منتى سنة لاحقة على عهد تحوتمس الثالث. ولكن ذهن البشر المولع بحبك القصص حول وقائع حقيقية، يحلو له أن ينسج الحكايات الخرافية التى تتناقلها فيما بعد، الذاكرة من جيل إلى آخر.

لقد ضاع مطلع النص. كان **چحوتی** قد ضرب إذن الحصار حول **يافا**. ويبدو أن دفاعات المدينة كانت منيعة. ومن المحتمل أيضًا أن **چحوتی** قد خطر على باله أن يلجأ إلى الحيلة. وبالنسبة لنا تبدأ القصة في اللحظة التي تشهد اجتماع القائد المصرى وأمير **يافا** فوق أرض محايدة بلا شك، وأقاما في الطعام والشراب واللهو.

بعد انقضاء ساعة. ولما كان الشراب قد أخذ فيهما، تحدث **چحوتی** *إلى* [أمير **يافا**].... (فجوات متعاقبة في النص).

فى هذه الأثناء (وصلت مقمعة) *الملك من خپر رع، وجاء من يخبر* **چحوتی** *بذلك. فقال له الأمير: «أتحرّق شوقًا لرؤية مقمعة الملك من خپر رع الكبيرة والتى تسمىّ... الجميلة. أقسم وكا الملك من خپر رع، فما دامت فى حوزتك الآن... أحضرها لأراها!» وهو ما فعله* **چحوتی***: فأحضر مقمعة الملك... وتقدّم ناحية الأمير قائلاً: «انظر إلىّ، أيا أمير* **يافا***! ها هى* [مقمعة] *الملك من خپر رع، الأسد المتوحش، ابن سخمت، لقد أعطاه آمون* [قدرته]». عندئذ رفع يده وضرب *أمير* **يافا** *على صدغه. فسقط هذا الأخير... أمامه. ثم وضعه* **چحوتی** *على وتد* [وربطه بوثاق] من جلد و[أحضر] *وزنًا من نحاس... وربط هذا الوزن الذى يعادل أربعة نمس(؟) فى قدمىّ الأمير.*

عندئذ أمر **چحوتی** *بإحضار مائتى سلة كان قد طلب صنعها وأُنزل فيها مئتا جندى. وملئت سواعدهم بالحبال والأوتاد ووضعت الأختام* (على السلال). *كما أُعطى الجنود نعالهم وعصيهم وأسلحتهم(؟). ثم قام خمسمئة رجل أقوياء بحمل* (السلاسل). *كان قد قيل لهؤلاء الرجال: «عندما ستدخلون المدينة ستخلصّون رفاقكم ثم تستولون على أفراد الشعب كله وتوثقونه فى الحال بالحبال».*

وخرجوا وقالوا لقائد مركبة أمير **يافا***: انصت إلى ما قاله سيدك: ستذهب إلى أميرتك لتقول لها: «فليفرح قلبك لقد أعطانا سوتخ الآن* **چحوتی** *مع زوجته وأولاده. انظرى لقد أخضعهم وقارى». وهذا ما ستظنه بشأن هذه السلال المئتين المملوءة* (فى الحقيقة) *برجال محملين بالأوتاد والحبال. عندئذ سار أمامهم، ظنًا منه أنه يُرضى قلب أميرته قائلاً: «لقد ألقينا القبض على* **چحوتی***».*

عندئذ فُتحت الأبواب أمام الجنود الذين نفذوا إلى داخل أسوار المدينة المنيعة. وانقذوا رفاقهم وقبضوا على شباب أهل المدينة وشيوخها. وفى الحال أوثقوهم بالحبال (وربطوهم إلى) الأوتاد. هكذا تسلّط ساعد فرعون القوى على المدينة.

وأثناء الليل، أوفد **جحوتى** *(رسولاً) إلى مصر، لدى سيده ملك مصر من خپر رع ليقول له: «فليفرح قلبك! إن ربك الكامل آمون قد أعطاك أمير يافا، وكل شعبه ومدينته. ابعث إذن رجالاً ليتسلموا الأسرى. هكذا ستملأ بالخدم والخادمات، أملاك أبيك آمون - رع، ملك الآلهة، لأنهم سقطوا تحت نعليك للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى».*

إننا أمام حيلة قديمة تذكرنا بغيرها من الحيل، هى جزء من رصيد الحكايات وخرافات العصور العتيقة. فالجنود الذين ضربوا الحصار حول طروادة، دخلوا إلى المدينة وهم قابعين داخل حصان من خشب. الأكثر إثارة، وجه الشبه مع على بابا فى *الألف ليلة وليلة*: فالسلال تذكرنا بالزلع التى استخدمها زعيم الأربعين حرامى لإخفاء ونقل القتلة المكلفين باغتيال على بابا وعائلته. ومن الراجح أن المؤلف العربى، وكانت مصر بلا شك موطنه الأصلى، كان على دراية بهذه الحكاية القديمة التى تعود إلى عصر الفراعنة.

٢- مصر الإمبراطورية: الثراء والروحانية

من أجل تعريفٍ للإمبراطورية

إنه ثور قوى القلب. وتصل حدوده الجنوبية إلى بداية الأرض وحتى الحدود الأولى لهذا البلد. وتصل حدوده الشمالية إلى مستنقعات آسيا **(الفرات)** *وحتى أعمدة* **نوت[٤٩] (أى الأعمدة التى ترفع السماء).**

العالم فى طوله وعرضه ملك لفرعون.

وفي أزمنة الملاحم الأسيوية هذه، لم تشكل الإمبراطورية الإفريقية أي مشاكل للعاهل الملكي. ويوجد مؤشر واحد على قيام حملة في العام ٥٠ من عهده، استناداً إلى مدونة منحوتة على أحد صخور جزيرة سهيل. فقد خرج تحوتمس الثالث على رأس جيشه في اتجاه الجنوب، بعد أن نمى إلى علمه بلا شك، نبأ تفجر تمرد سوداني. وتعطل تقدمه عند إلفنتين بعد أن وجد أن القناة التي أعدت في عهد سنوسرت الأول قد غطتها الأحجار.

في اليوم الثاني والعشرين، من الشهر الأول، من الفصل الجاف، من العام ٥٠، من عهد صاحب الجلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى من خبر رع،

أمر صاحب الجلالة بتنظيف هذه القناة بعد أن وجدها ممتلئة بالأحجار، إلى حد كبير، حتى أن سفينة واحدة لا تستطيع الإبحار عبرها. وبعد أن اجتازها، أقلع في اتجاه الجنوب، سعيد القلب وذبح الأعداء. ومن الآن سوف يُطلق على هذه القناة «تلك التي تفتح طريقًا مواتيًا من أجل من خبر رع».

ومنذ الآن سيتكفل صيادو إلفنتين سنويًا بتنظيف هذه القناة(٥٠).

من الواضح أن تحوتمس الثالث قد بسط سيطرة مصر إلى ما وراء الجندل الرابع.

وبعد أن انتهى العاهل الملكي من فتح أراضي الإمبراطورية، قام بتنظيمها تنظيمًا صارمًا. كان تحوتمس الثالث قائدًا عسكريًا مرموقًا، وكان فضلاً عن ذلك، إداريًا نافذ البصيرة ثاقب الفكر، إنه مؤسس حقيقي لإمبراطورية مترامية الأطراف. وعند اختيار وسائل ربط أجزائها بالسلطة المركزية في طيبة، قسّم أراضي الإمبراطورية إلى «شطرين» كبيرين وفرّق بينهما.

كان حكام وموظفون مصريون يقومون بإدارة الأراضي الإفريقية وفقًا للمبادئ التي سبق أن طبقها أسلاف العاهل الملكي. كان نائب الملك الذي اختار مدينة بوهن مقراً له، تابعًا تبعية مباشرة لفرعون، وتحت إمرته حكومة مستقلة بذاتها. وكان قائمقام ينوب عن نائب الملك في الإدارة الخاصة لإقليمي واوات وكوش. وتم استثمار

هذه الأراضي استثماراً منظمًا، تجسد في إرسال الجزية السنوية، وفضلاً عن ذلك، فقد تم تمصيرها وتشييد المدن والمعابد[٥١] مع وحدة الشعائر الدينية.

أما مبادئ إدارة الأقاليم الآسيوية فكانت تختلف إختلافًا جذريًا. فالأراضي التي تم فتحها من القنطرة وحتى الفرات، تغطي مساحة شاسعة وتشكل لمصر مصدراً متعاظمًا من القوى والثروات. كان عدد سكان مصر يقدر آنذاك، على ما يرجح، بستة أو سبعة ملايين نسمة. ومن المحتمل أن عدد سكان الأقاليم السورية بما في ذلك فلسطين كان يتراوح ما بين ثلاثة أو أربعة ملايين نسمة. كانت الزراعة مزدهرة وغنية بمحصولها من القمح. كان سهل مجدّو الذي يضم ١٥٠كم من الحقول المزروعة يدر على وجه التقريب محصولاً قدّره تحوتمس الثالث بحوالي ١٥٠٠٠٠هكتوليتر من الحبوب أي ٢٠هكتوليتراً للهكتار(*) الواحد. وهو محصول يعادل مثيله في مصر. كما أن الواجهة المهيبة لشاطئ بحر فينقيا كانت تفتح أمام مصر كبرى الطرق التجارية الدولية.

ففي حين لم تعرف إفريقيا سوى حكومات قبائل، كانت آسيا تتمتع بماض قائم على حضارات عريقة، فكانت كنعان وفينقيا وريتنو وحصون الرمال المنيعة منظمة على هيئة عدد كبير من الدول والإمارات والجمهوريات الحضرية. إن القائمة التى نقشها تحوتمس الثالث في معبد الكرنك تضم مائة وعشرة أسماء. فلم يكن في مقدور العاهل الملكى أن يتجاهل كل هذا الماضى التاريخى، فيقوض ازدهار المدن السورية، فيفرض عليها حكومة مركزية، على طريقة ما فعله مع ممتلكاته الإفريقية. ومن ثمّ فلم يغيرَ شيئًا من البنية السياسية للإمارات التى فتحها. إن «*الدول*» المئة وعشرة التى ضُمت إلى الإمبراطورية، أصبح بعضها بأسراتها الإمراتية الحاكمة، وبعضها الآخر بمؤسساتها الجمهورية، «*فى حماية*» ملك مصر الذى فرض عليها أقل قدر من الأساليب القسرية. فترك لكل مدينة ولكل إمارة حق إدارة شئونها إدارة مستقلة، واكتفى تحوتمس الثالث بتكوين «هيئة إدارية»، موزّعة على مجموعة من المقاطعات

(*) الهكتوليتر يساوى ١٠٠ لتر، و١٩٨ لتراً تساوى أردبًا. أى أن الهكتوليتر يساوى نصف أردب تقريبًا. أما الهكتار فيساوى فدانين وثلث. (المترجم)

الخاضعة لحكّام مصريين. وفى واقع الأمر، لم يشكّل هذا التقسيم سوى هيكل إدارى يسهّل جباية الضرائب. كان هذا النظام يمثل فى الواقع أهمية كبيرة بالنسبة للإدارة المصرية، يفوق ما يعنيه بالنسبة لأمراء الإمبراطورية ومدنها. كان الحكّام المصريون فى الأساس موظفين إداريين مهمتهم تصريف الشئون المالية، ومكلفين بجباية الجزية المفروضة على كل دولة، بما يتناسب وثرواتها.

هكذا قامت بين طيبة ومدن آسيا علاقات قائمة على المنفعة وقانون الأعراف والعادات، كانت على قدر كبير من الأهمية لمستقبل العلاقات الشخصية: وكما سبق أن لاحظنا[٥٢] كان الفرعون يقوم بتنشئة أبناء الأمراء تنشئة مصرية، فى رفقة الأولاد الملكيين فى البلاط الملكي وازدهرت العلاقات الإدارية إزدهارًا ملحوظًا. وقام المصريون بشق الطرق التى سار عليها الموفدون الملكيون متعجلين، فى همة ونشاط. فكانت فى واقع الأمر وسيلة اتصال سريعة. كان القادة العسكريون يقومون بجولات تفقدية، وينتقل فرعون سنويًا إلى هذه الأقاليم عملاً بسياسة تضمن إقامة علاقات ثابتة ووجود دائم. وانشئت فى طيبة دائرة حكومية خاصة، مهمتها الجمع فى مركز واحد كافة المراسلات مع وكلاء الإدارة المصرية فى المقاطعات المتبادلة مع مدن وأمراء الإمبراطورية، وحفظها بعناية فائقة فى محفوظات هذه الدائرة الحكومية. لقد تم الكشف عن جانب كبير من هذه السجلات فى تل العمارنة، وإن كانت تنسب فى الحقيقة إلى عهدى أمنحوتپ الثالث وأمنحوتپ الرابع. ولما كانت الصيغ والديباجات المستخدمة فى هذه الدائرة الحكومية قد استقرت على أكمل وجه، فى هذا العصر؛ ففى وسعنا أن نستنتج أن القواعد الإدارية التى كانت سائدة فى السابق فى عهد تحوتمس الثالث، كانت مشابهة إلى أبعد حد.

ونشأت علاقات قانونية. كانت حكومات آسيا مطالبة أساسًا بالقيام بالتزامات مالية بل وعسكرية كالمشاركة فى بعض العمليات الحربية. فتقدم الأساطيل الفينقية عونًا لا يستهان به فى حماية الشواطئ، وكما لاحظنا كان إسهامًا عظيمًا فى نقل القوات المسلحة وتأمين تموينها. وذلك فضلاً عن الإلتزامات السياسية: فكان محظور على أية دولة من الدول أن تتعامل مباشرة مع بلد أجنبى آخر. ومقابل هذه الإلتزامات

كان لكل دولة حقوقها. فيتولى فرعون توفير ما تحتاجه من حماية وتأمين وحدة أراضيها.

هكذا نشأت وازدهرت أيديولوچية جديدة تهدف إلى تحويل العاهل الملكي في طيبة إلى شخصية *إلهية* عظيمة، توحّد أراضي الإمبراطورية في تضافر روحي رحب، فتأتي الأقوام من كل حدب وصوب، لتلتف حول شخص فرعون(٥٣).

ولما كان تحوتمس الثالث حريصًا على تأمين ازدهار اقتصاد الأراضي التي «ربطها» وتنميتها تجاريًا فقد **كان أول من فكر في تزويد مصر بميناء يطل مباشرة على البحر**. حتى الآن كان جميع موانئ مصر نهرية. كانت منف على نحو خاص، تقوم بدور بارز في التجارة الدولية، وأخذت طيبة تنافسها، ولكن هذه المدينة كانت أكثر بعدًا من البحر. كما ازدهرت أيضًا موانئ الدلتا ونذكر على رأسها سايس وبوباستس(*). ولكن إنشاء ميناء كبير يطل على البحر، سيصبح ميناء عبور دولي، فيزيد من اجتذاب ثروات الشرق إلى مصر.

وعندما عقد تحوتمس الثالث العزم على إقامة هذا الميناء البحري وقع إختياره على موقع، كشف عن عبقرية العاهل الملكي، إذا صح القول أو على أقل تقدير عن بعد نظر وبصيرة ثاقبة. فقد كان مقدر لهذا الموقع أن يقوم فيما بعد بدور بارز في وسائل مواصلات العصور القديمة عن طريق البحر: ونقصد بذلك الموقع، الجزيرة الملاصقة للساحل المصري والتي سيطلق عليها الإغريق في زمن لاحق جزيرة **فاروس Pharos**. فكان أول من أدرك أهمية موقعها. كانت قائمة غرب الدلتا وبالتالي مرسى حتمي للسفن المتاجرة مع مصر: فالسفن الشراعية القادمة من الجزر **الإيونية**(**) أو **الإيجية**(***) كانت تدفعها بطبيعة الحال الرياح الموسمية التي تهب من الشمال، خلال

(*) وهما صا الحجر و تل بسطا، حاليًا. (المترجم)

(**) نسبة إلى البحر الإيوني ويحد بلاد اليونان من جهة الغرب. (المترجم)

(***) نسبة إلى بحر إيجه ويحد بلاد اليونان من جهة الشرق ويفصلها عن تركيا: (المترجم)

فصل الصيف. كما كانت فى طريق السفن الفينقية القادمة من صور أو صيدا أو بيبلوس والمتجهة إلى موانئ قورينائية(*) ثم إلى قرطاجنة فيما بعد. كما كانت الجزيرة محطة مراقبة فريدة فى بابها، تسمح برصد، فى آن واحد، أعالى البحار ومجمل شاطئ الدلتا، بدءًا من التخوم الليبية وصولاً إلى مصب الفرع الكانوبى من النيل. وقد تم الكشف إلى الشمال الغربى من جزيرة فاروس وإلى الجنوب منها، عن بقايا منشآت بحرية ضخمة غمرتها فى الوقت الراهن مياه البحر، وقد بدأ تحوتمس الثالث فى إنشائها واستكملها من بعده الملوك الرعامسة(٥٤).

ضرائب الجزية والعظمة والوفرة

من العام ٢٣ وحتى العام ٤٢، وبعد تقرير كل حملة من الحملات، توفر لنا نصوص الحوليات، تفاصيل بالغة الدقة، حول ضرائب الجزية الطائلة التى تصب فى مدينة طيبة العاصمة الإمبراطورية.

ويميز النص بكل وضوح بين عبارة إينو (أى «*ما يتم جلبه*») التى تشير إلى جزية بلاد آسيا وعبارة باكو (أى «*حصيلة العمل*») القادمة من البلاد الإفريقية. ونجد أن مفردات اللغة ذاتها تؤكد هنا على الفوارق الإدارية التى حددها تحوتمس الثالث.

وخلاف هذه الضرائب السنوية المفروضة على مختلف مناطق الإمبراطورية الشاسعة ونذكر منها جاهى وريتنو فى الشمال وواوات وكوش فى الجنوب، كانت مصر تتلقى أيضًا الجزية الى تقدمها بلدان بعيدة إلى حدّ ما، تعبيراً عن ولائها وإن كانت خارج نطاق الهيمنة المصرية المباشرة، فتنشد ودّ فرعون ورضاه أو الرغبة فى التحالف معه. كان هذا هو وضع قبرص الجزيرة القريبة الواقعة فى البحر المتوسط، وآشور أيضًا وخاتى، ربما بقصد «التصدى» لدولة ميتانى وبابل القصية، فضلاً أيضاً عن بونت بحكم التقاليد المتوارثة.

(*) منطقة برقة فى ليبيا. (المترجم)

وتخصصت أشور بالإضافة إلى بابل فى إرسال اللازورد الجميل النقى، القادم من أفغانستان عبر وديان روافد نهر دجلة. وكانت قبرص ترسل النحاس وخاتى الأحجار الكريمة وبونت البخور.

ولكن كانت الثروات متنوعة وكمياتها التى لا تحصى مذهلة:

منتجات الزراعة وتربية الماشية

كانت محاصيل كوش وواوات تملأ سنويًا الشُون المصرية. وعند عرض كل قائمة من القوائم، وبعد ذكر المنتجات المقدمة حتى أدق تفاصيلها، تتكرر الجملة الآتية وكأنها لازمة ثابتة: «*كل ذلك فضلاً عن السفن المحملة بكل منتجات البلد الطيبة، بالإضافة إلى محاصيل هذا المكان*». وعلى امتداد أربع سنوات أيضًا ظلت چاهى ترسل قمحها.

وجاءت الفاكهة بمختلف أنواعها من آسيا: من چاهى فى العام ٢٩ ومن ريتنو فى العام ٣٣.

من هذه المناطق ذاتها، كان يُستورد العسل والنبيذ أيضًا بكميات كبيرة، لا سيما من ريتنو: ٦٠٨ زلعة فى العام ٣٤ و٢٠٩٩ فى العام ٣٥ و١٤٠٥ فى العام ٣٩. كما كانت مصر تتسلّم أيضًا الزيت من چاهى ومن ريتنو فى المقام الأول.

كانت الأبقار والأغنام ترد سنويًا بكميات ضخمة من البلدان الشمالية والجنوبية نذكر منها على سبيل المثال:

العام ٢٤: ٤٥ بقرة وعجلاً، و٧٣٩ ثورًا و٥٧٠٣ رأس ماشية من خراف وماعز، مقدمة من ريتنو.

العام ٢٩: ٦١ رأس من الأبقار و٣٦٣٦ رأس ماشية، مقدمة من چاهى.

العام: ٣١ من ريتنو: ١٠٤ ثيران وأبقار و١٧٢ عجلاً وعجلة و٤٦٢٢ رأس ماشية. ومن كوش: ٣٤٣ رأسًا من الأبقار. ومن واوات: ٩٢.

العـام ٣٣: من ريتنو: ٥٩٢ رأس من الأبقار و٥٣٢٣ عنزة، ومن كـوش: ٤١٩ رأسًا من الأبقار، ومن واوات ١٠٤ رؤوس من الأبقار.

يا لها من صفوف طويلة وصاخبة، كانت تعبّر، على طريقتها، عن عظمة مصر وهيبة الإمبراطورية!

كما كانت الحمير تأتي من آسيا: *٧٠ من چاهى فى العام ٣٤، و٤٦ من ريتنو فى العام ٣٨.*

كما لم تعرف مصر تربية الخيول التي أصبحت من الآن، حيوانًا لا يمكن الاستغناء عنه، في سير المعارك الحربية، فكانت تأتي من آسيا. ويتم تربيتها وترويضها في بلاد نهر العاصي.

ففى العام ٢٤ أرسلت ريتنو ٢٤ جوادًا.

وفى العام ٢٩ أرسلت چاهى ٣٢ جوادًا.

وفى العام ٣٠ أرسلت ريتنو ١٨٨ جوادًا.

وفى العام ٣٣ أرسلت ريتنو ٢٦٠ جوادًا.

وفى العام ٣٥: ٢٢٦ جوادًا.

وفى العام ٣٨: ٣٢٨ جوادًا.

وفى العام ٣٩: ٢٢٩ جوادًا.

وفى العام ٣٨ (!) ارسلت قبرص جوادين.

كما أن توفير ما تحتاجه مصر من جياد، كان يعتمد أساسًا على ما يتم الإستيلاء عليه في أرض المعركة.

المواد النفيسة

كانت مصر بلد الذهب. وفضلاً عن مناجمها في سيناء، كانت تتدفق من هذا المعدن النفيس كميات كبيرة، تأتي أساسًا من إفريقيا. وإلى جانب جمال الذهب

المتألق، كانت له قيمة رمزية: فلا يصيبه تلف أو فساد، شأنه شأن لحم الآلهة، الذى يتكون منه. كانت توابيت الملوك تصنع من الذهب لضمان سلامتها ولتغالب الزمن، فهكذا تتحول إلى بيوت إلهية للأبدية، ومقدسة مثل أجساد الآلهة. وفى زمن لاحق، سوف تُصنع من أجل أجاممنون(*) الأتريدى(**) أقنعة ذهبية، ليكتسب وجهه التألق الأبدى للآلهة النورانية والخلود الجسدى. هكذا تتقارب الأفكار.

فى العام ٣٢ أرسلت ريتنو ٤٥ دبن من الذهب (يعادل الدبن ما يقارب ٩٢ جرامًا) *وأرسلت كوش: ١٥٥.*

فى العام ٣٤ أرسلت ريتنو ٥٥ دبن وكوش ٣٠٠ دبن و واوات ٢٥٥٤ دبن.

فى العام ٣٧: ٧٠ دبن من كوش.

فى العام ٣٨: أرسلت واوات ٢٨٤٤ دبن (٢٦١ كيلو جرامًا!) *من الذهب.*

فى العام ٣٩: أرسلت كوش ١٤٤ دبن.

فى العام ٤١: أرسلت كوش ١٩٥ دبن و واوات ٣١٤٤ دبن (٢٩٠ كجم).

فى العام ٤٢: أرسلت واوات ٢٣٧٤ دبن (٢١٨ كجم).

وكانت مناجم صحراء النوبة منتجة للذهب على نطاق واسع.

إلى جانب الذهب كانت الفضة متوفرة فى بلاد النهرين.

ففى العام ٣٩: سلمت ريتنو إلى مصر ٤٩٥ دبن من الفضة.

كما كانت قبرص ترسل النحاس بكميات كبيرة. ولم يقتصر الأمر على قبرص، بل كان يرسل أيضًا عن طريق جاهى وريتنو. والأمر اللافت للإنتباه فى نص الحوليات أن النحاس والقصدير يذكران دائما، جنبًا إلى جنب، فى قوائم الجزية. الأمر الذى يحملنا على الإعتقاد بالنظر إلى القيمة التى كان المصرى يضفيها على الكلمات

(*) ملك يونانى أسطورى ابن أتريه، قام بضرب الحصار حول طروادة. (المترجم)

(**) نسبة إلى الملك الميكانى أتريه Atrée. (المترجم)

ومنطوقها، أن بعض صناعات البرونز(*)، كانت قائمة منذ ذلك الزمان في مصر. وهكذا، ففي العام ٢٩، جاء النحاس والقصدير من چاهي، وفي العام ٣١ من ريتنو، وكذلك في السنوات ٣٤ و٣٨ و٤١ و٤٢.

كانت تصل إلى مصر من آشور وبابل وقبرص وخاتي أنواع مختلفة من اللازورد. ونذكر تحديداً، من بابل في العام ٣٣، في أعقاب الحملة الثامنة الذائعة الصيت التي شنها تحوتمس الثالث على الفرات.

أما الأحجار الكريمة فقد قدمتها خاتي في العام ٣٣ وريتنو في العام ٤٢.

كانت الممتلكات الإفريقية بطبيعة الحال، ولكن ريتنو أيضًا، ترسل العاج والأبنوس والخشب العطريٰ ولا سيما خشب الصندل.

المواد المصنّعة

ومن ريتنو أيضًا كانت ترد كل سنة في واقع الأمر، مواد مصنّعة من الذهب، أو الفضة أو النحاس، نذكر منها أساسًا، الأواني والكؤوس ولكن أيضا الموائد المصنوعة من خشب الصندل المطعم بالعاج.

كما ترد من ريتنو شحنات الأسلحة:

ففي العام ٣٨ كانت تضمّ ٤١ زردٍ ورماح من البرونز وتروس وأقواس ومختلف أنواع أسلحة القتال.

في العام ٤١: زرد واحد من البرونز وبلطات ورماح من البرونز.

في العام ٤٢: زرد واحد من البرونز وأسلحة قتال.

كما كانت هناك مركبات من معادن نفيسة:

في العام ٣١: وردت تسع عشرة مركبة من الفضة.

وفي العام ٣٣: مركبة واحدة من الفضة.

وفي العام ٣٤: وردت تسعون مركبة من الذهب والفضة أو من الخشب الملون.

(*) وهو سبيكة من النحاس والقصدير. (المترجم)

وفى العام ٣٥: مركبة واحدة من الذهب وأكثر من عشر مركبات من الفضة.

وفى العام ٣٨: تسع مركبات من الذهب والفضة و٦١ مركبة من الخشب الملون.

وفى العام ٣٩: مركبات من الفضة والذهب.

البخور

كان البخور والمر من منتجات پونت الرئيسية إلا أنهما كانا جزءًا من جزية چاهى وريتنو. ففى العام ٣٣ أرسلت پونت ١٦٨٥ حقات أى ما يعادل ٧٤٨٢ لترًا، فى حين سلّمت ريتنو فى السنة نفسها ٨٢٨ زلعة و٦٩٣١ زلعة فى السنة التالية....

الخدم والنساء

وأُرسل الخدم والنساء من أفريقيا وريتنو. ومن هذه المنطقة الأخيرة، تلقى فرعون كعلامة تقدير واحترام على ما يبدو، بنات الزعماء لينضموا إلى حريمه وجاءت معهن «*بائنات*»(*) قيمة. ولا شك أن نساء ريتنو كنّ يوصفن بالجمال والحسن، فيُمتعن الناظر إليهن.

ففى العام ٢٤ استقبل تحوتمس الثالث:

ابنة أحد الزعماء، محملة بذهب ولازورد بلدها. إن الحرس والخدم والشغالين والخادمات المصاحبين لها، كان عددهم ثلاثين فردًا(٥٥).

وإذا كانت النوبة والسودان تساهمان، على ما يبدو، فى جميع المجالات، ولا سيما فى ازدهار مصر الإقتصادى، فإن أهم مواقع التجارة الدولية كانت چاهى بمعنى الموانئ الفينقية بطبيعة الحال، ولكن ريتنو أيضًا. إن مدن الرمال كانت مركز

(*) البائنة: ما تحمله العروس من بيت أبيها من مال أو جهاز عند زفافها. المنجد فى اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق. بيروت. طبعة ثانية. ٢٠٠١. (المترجم)

هام لتجارة المنتجات النفيسة الواردة من بلاد النهرين أو الجزيرة العربية أو آسيا الصغرى. كانت محطات ضرورية لا مناص منها تتوقف عندها القوافل التى تقطع الدروب التجارية الطويلة عبر الصحارى. فكم من عمليات التبادل والصفقات، كانت تتم داخل أسوارها، حيث كان يتركز آنذاك جانب من ثروات الشرق. ومن هنا نفهم لماذا أراد تحوتمس الثالث، أن يضم إلى إمبراطورية، هذه الأماكن الإستراتيچية والوكالات المتخمة بالثروات.

كانت طيبة الإلهة المنتصرة، قد أصبحت المخزن الضخم الذى يحتوى على المنتجات الحيوية والنفيسة للعالمين الآسيوى والإفريقى. وعلاوة على كل ذلك لابد أن نضيف المنتجات الخاصة بمصر ذاتها من ذهب وفيروز ودهنج(*) ونحاس سيناء والغنائم الوفيرة التى يتم جمعها من أرض المعارك. كانت مصر أرض الكنوز الأسطورية، ووصلت إلى قمة الإزدهار، كما لم يحدث من قبل، بفضل بسالة وفطنة ملكها وبفضل مؤازرة الآلهة.

أعياد النصر
واعتراف الملك بجميل الآلهة

أقيمت الإحتفالات الخاصة احتفاءً بالإنتصارات. أما برنامجها فيستعرضه نص *الحوليات* فى الكرنك:

العام ٢٣ . عاد جلالتى من أولى حملاته المظفرة... وعلى امتداد ثلاثة أشهر ظل يدعم فتوحاته... فى بلاد ريتنو. إن حصنًا أمرتُ بتشييده يخلّد انتصاراتى وسط أمراء لبنان. سوف يحمل اسم «من خپر رع هو الذى ربط البدو».

والآن، لقد نزل إلى البر فى طيبة(٥٦). إن أبى آمون فى فرح وسرور... لقد احتفل جلالتى إكرامًا له، بعيد النصر، فكان أمرًا مبتكرًا، عند عودتى من الحملة

(*) أو الملاخيت. (المترجم)

الأولى المظفّرة، بعد أن أجهزت على الريتنو الخسيس ووسعت حدود مصر في العام الثالث والعشرين من عهدي، في زمن الانتصار الأول الذي خصّني به أمون.

وسوف يُحتفل بأول أعياد النصر هذه، بمناسبة أول عيد يقام من أجل أمون. واستمرّ خمسة أيام.

ويُحتفل بثاني أعياد النصر هذه، يوم «دخول – الإله» بمناسبة ثاني عيد يقام من أجل أمون. واستمرّ خمسة أيام.

أما الإحتفال بعيد النصر الثالث فإنه يتزامن مع خامس أعياد أمون في حنكت–عنخ (معبد تحوتمس الثالث الجنائزي) عندما *يعود هذا الإله الجليل من عيده الجميل في الوادي*[٥٧]*. واستمرّ خمسة أيام.*

لقد حدّد جلالتي قربانًا وفيرًا من أجل أمون بمناسبة عيد النصر هذا، الذي ابتكره مؤخرًا. يضم (القربان) *خبزًا وجعة وأبقارًا وعجولاً وثيرانًا وطيورًا وظباءً وغزلانًا وبخورًا ونبيذًا وفاكهة وخبزًا أبيض، ومختلف ما لذّ وطاب، وذلك على مدار السنة*[٥٨]*.*

هذا الإعتراف بجميل آمون، بعد أن أصبح المرشد الهادي الذي يوجه المعارك يجد ترجمته أيضًا في الثروات الضخمة التي كانت من نصيب طيبة، فتدفقت عليها بكميات وفيرة.

لقد أعطاه جلالتي كل الغنائم... التي جلبها ساعدي القدير، من الإنتصار الأول الذي خصّني به، ليمتلئ مخزنه. لقد وهبته الخدم لينسجوا من أجله الكتان الملكي والكتان الأبيض وكافة أنواع الكتان (ووهبته) الفلاحين ليعملوا في حقوله ويحصدون محاصيله ويملؤون شُوَنه بالقرابين الإلهية. قائمة بالآسيويين رجالاً ونساءً، وبالنوبيين والنوبيات الذين وهبهم جلالتي لأبي آمون، منذ العام ٢٣ وحتى وضع هذه الوثيقة في المعبد: ١٥٨٨ سوريًا... (وللأسف تمنعنا فجوة في النص من تحديد عدد الإفريقيين).

وسلّمه جلالتي بقرة حلوبًا كانت تخص ماشية ***مصر العليا ومصر السفلى*** *وبقرتين حلوبين تخص ماشية* ***جاهي*** *وبقرة حلوب تخص ماشية* ***كوش*** *فكان المجموع*

أربع بقرات حلوب، ليتم حلب لبنها فى أباريق من الذهب الخالص على مرّ الأيام، وإتاحة تقديمه على هذا النحو إلى أبى آمون.

كما منحه جلالتى ثلاث مدن قائمة فى ريتنو العليا: اسم إحداها نوجس والثانية ينوعم والأخيرة حرنكرو.

(كانت المدن الثلاثة جزءًا من التحالف الذى انعقد ضد تحوتمس الثالث).

والرسوم التى سيتم جبايتها بصفتها ضرائب سنوية، ستخصص للقرابين الإلهية التى يحصل عليها أبى آمون.

كما يقدم له جلالتى، مختلف أنوا ع الثروات من ذهب وفضة ولازورد وفيروز ونحاس أسود وبرونز ونحاس وقصدير وألوان بكميات كبيرة، من أجل تشييد مبانى ومعالم أبى آمون، وذلك من شدة حبى له الذى يفوق حبى (لغيره) من الآلهة.

وجمع جلالتى من أجله سرب إوز لماء البركة وكانت مخصصة للقرابين الإلهية اليومية. ومنحته إوز سمينة، كل يوم من الأيام. إنه دخل ثابت للزمن الأبدى من أجل أبى آمون[٥٩].

قد يقال أنه حصر «لا يلتزم بأى ترتيب»، فيخلط بين الطعام الضرورى والماشية والمواد النفيسة والإيراد الوارد من ثلاث مدن أجنبية وينتهى بوصف حظيرة الطيور. ولكنه حصر يجيد التعبير عن مدى اهتمام الملك بإرضاء آمون. إن نقوشًا منحوتة على الحائط الجنوبى من الممر الواقع جنوب منطقة قدس أقداس المعبد الكبير، تستكمل بصريًا هذا العرض المتنوع، وتؤكد بطريقة عينية على ضخامة الثروات التى كانت تُسلّم لكهنة طيبة: ونشاهد تحديداً المسلتين الشامختين اللتين قدمهما الملك، وتوجد إحداهما فى إسطنبول فى الوقت الراهن[٦٠]، بالإضافة إلى ساريتين براياتهما، وقد خصصتا لصرح المعبد وصنعتا من خشب الأرز وغُشّى طرف كل منهما بالذهب الخالص. كما صورت أشياء هامة نفيسة من ضروريات إقامة الطقوس الدينية: من صناديق صغيرة إلى أدوات رقيقة وموائد قرابين وقلادات عريضة وأدوات زينة

للتماثيل الإلهية، فضلاً عن الذهب والفضة والبرونز والأحجار الكريمة. إن آمون يتربع على العرش ويسهر تحوتمس الثالث على «خدمته».

ولا تتوقف عند هذا الحد، مظاهر العرفان بالجميل، كما يفصح عنها العاهل الملكي الذي يبدو أنه أشرف بنفسه بعد العام ٢٣، على التوسع في أملاك الكرنك المقدسة وحسن إدارتها. أكانت لفتة سياسية؟ أم نظرة إرتياب نحو كهنة طيبة؟ أو على عكس ذلك نتيجة تفاهم، تعاهد عليه كل من الملك والكهنة في أعقاب اختفاء حتشبسوت، وربما عجّل من هذا التفاهم، تربع العاهل الملكي الشاب على العرش؟ لا يسعنا في هذا المقام سوى أن نعرب عن بعض التكهنات حول الحقائق التي أوحت بالوقائع التي ترويها *الحوليات*، من جديد:

لقد مسحتُ من أجله، الحقول والبساتين وأراضي الحرث الشاسعة، ووقع إختياري على أفضلها في مصر العليا ومصر السفلى، لأشكل منها الأراضي الصالحة للزراعة وتقديم ما تنتجه من قمح إلى القرابين الإلهية اليومية. لقد حدّد جلالتي ذلك مؤخراً، بالإضافة إلى ما كان قائمًا من قبل.

كما حدّد جلالتي القرابين الإلهية المخصصة للمسلاّت الأربع الشامخة(٦١) *التي أقمتها حديثًا، من أجل أبي آمون: وهي عبارة عن ١٠٠ رغيف خبز متنوعة و٤أباريق جعة أي ما يعادل ٢٥ رغيفًا وإبريقًا واحداً لكل مسلّة* (كان الكتبة المصريون مولعين بالحسابات الدقيقة...)

كما أعدّ جلالتي من أجله حديقة جديدة مزروعة بمختلف أنواع النباتات المفيدة لإنتاج الخضروات لإمداد القرابين الإلهية اليومية. وقد حدّد جلالتي ذلك، بالإضافة إلى ما كان قائمًا من قبل.

وإلى حريم الإله جاء الملك....

... بالنساء الجميلات من أركان الأرض.

وقام بإدارة الكرنك:

*انظروا، لقد أعدّ جلالتى كل أثر وكل قانون وكل قاعدة، من أجل أبى **أمون**، رب عروش القطرين الذى يقف على رأس **الكرنك**، وذلك من شدة إدراكى لمجده وقدرته.*

أنا حكيم بفضل (إرشاداته) المفعمة بالبركة، فاستكين فى جسده... لم أهمل شيئًا مما أمرنى به، سواء بالنسبة للأشياء التى كان يتطلع إلى وجودها أو ما يحبه كاؤه. وأنجزت ذلك من أجله طبقًا لأوامره، مدفوعًا من قلبى، فاعلاً بساعدى من أجل أبى، فخالقى يسعى إلى انجاز كل ما هو مفيد له... وكشف جلالتى عن هذه الأشياء المفيدة: كتوسيع المبانى لتصبح فعّالة للزمن الآتى، وتوضيح أعراف الطهارة ونظم الإدارة وتزويد هذا المعبد بالمؤن من أجل أبى أمون...

إنى لا أبالغ، ولا أقول كلامًا على سبيل المباهاة أو التفاخر قائلاً: «لقد فعلت كذا»، فى حين أن جلالتى لم يفعله. كما لم أنجز شيئًا من أجل سواد الشعب، يمكن أن يوصف بالمبالغة. لقد فعلت ما فعلته من أجل أبى سيد الآلهة... فإنه يعرف عندما يقول المرء أنه فعل شيئًا، فى حين لم يفعله فى واقع الأمر. فهو الذى يعرف السماء، وهو الذى يعرف الأرض، وهو الذى يشاهدها بالكامل، فى ظرف ساعة. إنى أقسم، تمامًا كما أن رع يحبنى، وأن أبى آمون يمتدحنى، وأن الشباب قد عاد إلى أنفى، حياةً وقوةً، أنى حقًا، فعلت كل ذلك.

ويوجه كلامه إلى الكهنة قائلاً:

اسهروا على القيام بواجباتكم، لا تهملوا أيًا من تقاليدكم. كونوا أطهارًا، كونوا نزهاء، فى كل ما يتعلق بالشئون الإلهية، تجنبوا الأفعال المحرمة(٦٢).

وفى **الكرنك** لا تقدم «الخدمة» للإله **آمون** وحده دون غيره من الآلهة. ولكن تقدم أيضًا للإله **پتاح** المنفى(*) الذى أقيم له معبد داخل أسوار **الكرنك** المقدسة(**). ولكن هذه «*الخدمة الإلهية*» كانت تأتى بعد «خدمة» **آمون** من حيث الترتيب. وعلى لوح حجرى أقيم فى معبد **پتاح** يُصدر **تحوتمس** أوامره الآتية:

(*) نسبة إلى مدينة منف. (المترجم)

(**) وتحديداً فى القسم الشمالى. (المترجم)

أمر جلالتى، أن توضع من جديد قرابين وفيرة من أجل أبى أمون فى الكرنك، عندما يستريح فيه: اثنتى عشرة كومة قرابين تضم كل شىء، وذلك فى يوم «دخول الإله»، وفى كل عيد من أعياد آمون، بالإضافة إلى ما كان مومجوداً من قبل.

وعندما يأخذ جلالة هذا الإله المعظّم كفايته مما قُدّم له من أطعمة، سوف يتم رفع كومة واحدة من هذه الأكوام التى تضم كل شىء، لتسلم إلى كهنة الساعة، فى معبد أبى آمون بالكرنك.

وبعد ذلك سيتم وضع كومة قرابين تضم كل شىء، وستة أرغفة سنو لترتفع أمام تمثال ملايين (السنين) لجلالتى الذى سوف يمدّ عندئذ يده فى اتجاه هذا الإله المعظم وهذه القرابين...

وعندما يأخذ هذا التمثال كفايته مما قُدّم له من قرابين، يتمّ رفعها لصالح معبد بتاح، رب الحقيقة والعدالة، القائم إلى جنوب جداره، طبقًا لقاعدة القرابين الموضحة فى هذا المعبد[٦٣].

تأمين تبادل الخدمات:

أمر جلالتى بوضع قرابين جديدة لصالح أبى بتاح، القائم إلى جنوب جداره فى طيبة: تضم ٦٠ رغيفًا من أصناف متنوعة وإبريقى جعة وخضروات وأرغفة خبز، وذلك من أجل القرابين اليومية، بالإضافة إلى ما كان موجوداً من قبل. وعندما يأخذ الإله كفايته من هذه الأشياء، فلتوضع عندئذ أمام تمثال جلالتى[٦٤].

- ثم تعود الأطعمة إلى كهنة الساعة فى معبد بتاح.

يوضح تبادل «*الأطعمة*» على هذا النحو، الصلة الوثيقة التى تربط «*الآلهة*» الثلاثة: آمون وبتاح بصفتهما إلهىَ عاصمتىَ المملكة القديمة والإمبراطورية الجديدة وثالثهما الملك.

وبعد عودة فرعون من حملته الآسيوية الأولى «*ملأ أيضًا معبد بتاح بكل ما لذّ وطاب، من مختلف الأنواع: من ثيران وطيور وبخور ونبيذ، بالإضافة إلى قرابين الفاكهة من كل صنف*[٦٥]».

وأحيانًا بمناسبة بعض الأعياد الخاصة تحديداً، كانت هذه الأطعمة تحرق، على هيئة محارق ضخمة، فتقوى رائحتها وتنتشر صعوداً إلى عنان السماء، إذا أخذنا بعين الإعتبار كمياتها الضخمة والمتنوعة. وهكذا، فمن أجل بتاح:

وضع جلالتى من أجله: ثوراً وزلعة نبيذ وإوزتين سمينتين وأربع حمامات وفاكهة وأربعة مكاييل راتنج ودقيق وأربعة أرغفة خبز أبيض ونباتات وخضروات وعشرين إناء وعشرة أباريق جعة وخمس دجاجات للمائدة ومئتى رغيف خبز للقرابين المتنوعة، واردة من معبد آمون وأربعة مكاييل بخور وحلوى وعشرين رغيف خبز، واردة من مخازن فرعون.

تحدد ذلك، بصفته حقًا يورّد سنوياً، ويحرق يومياً فى حضرة الإله(٦٦).

كما أن رع - حور أختى إله هليوبوليس العتيق يتلقى أيضًا الأطعمة من الفرعون الهُمام.

كما حدّد جلالتى قرابين إلهية للقيام بالمدائح الشعائرية من أجل أبى رع - حور أختى عندما يسطع... وحدّد جلالتى من أجله قرابين من البذور لضمان استمرارية الإحتفالات الشعائرية بمناسبة عيد رؤية الهلال الجديد وعيد الأيام الستة ويومياً، وفقًا لما هو متّبع فى هليوبوليس. لأن جلالتى قد اكتشف أن حرث البذور فى حقول جاهى، أمر حسن(٦٧).

إنها صورة فرعونٍ فى الحقول. إن القيمة الرمزية للبذور التى تعيد الحياة إلى النباتات، تشبه شمس الأفق التى تعيد الحياة إلى البشر.

أجل إن عرفان تحوتمس الثالث بالجميل يتجه إلى الآلهة جمعاء، وإن تميزت ثلاثة منها على وجه التحديد. وبعد انقضاء قرنين من الزمن، وفى عهد رعمسيس الثانى، سوف يصور آمون وبتاح و رع - حور أختى... وفرعون، جنبا إلى جنب، فى قدس أقداس معبد أبو سمبل الكبير متحدين إتحاداً مقدساً، لخير البشرية.

إن منابع أيديولوجيا الرعامسة تنهل من معين التحامسة. فمع تأسيس الإمبراطورية نشأت حركة فكرية قوية وتجديد روحانى، سيترتب عليها تحديداً، تصور جديد لشخص الملك ومصير مصر.

أيديولوچيا الإمبراطورية الأولى

صـار الملك من الآن «*بطلا*» ضـروريًا، لا مناص منه. إنه الأول في المعـارك. والأعداء يسيرون في أعقابه «*كما تسير الكلاب*». إن قوته «تشبه *قوة ابن نوت*[٦٨]». وفرعون «*قلعة حصينة، عظيمة الفائدة لجيشه*[٦٩]»، فهو سور من نحاس ويتحد بالعالم في أشكاله الحيوانية «*إنه الصقر ذو الساعد المقدام*» و«*الثور القدير القلب*[٧٠]» وفي أشكاله الكونية «*إنه يتألق وسط الأقواس، مثل النجم الذي يعبر السماء*[٧١]»، إنه الابن المولود من صلب الآلهة.

سوف يعمل الرعامسة على تطوير هذه المواضيع[٧٢] في سياق فكر شديد الثراء، مع تنوع تعبيراته المرموقة، في أغلب الأحوال، التي تبرهن على استقلاليتها الروحانية، وإن ارتبطت بتقليد إمبراطوري تواتر منذ ظهوره، إبان الأسرة الثامنة عشرة. لم يكن الأمر كما يقال أحيانًا، مجرد نسخ كلمات وعبارات، يتم تصنيفها في محفوظات سرية، بل كان انتقال أيديولوچيا تأكدّت بوضوح على امتداد مئات السنين، بعد أن نشأت في عهد تحوتمس الأول، لتصل إلى ذروة تطورها في عهد الملوك الرعامسة. إن الملوك الأجانب الذين سيحكمون مصر فيما بعد، هم الذين سيستخدمون هذه النصوص ليستقوا منها مجرد شرعية لفظية.

أدرك تحوتمس الثالث لأول مرة أبعاد الإمبراطورية، فتصورها من جانبه، على ما يبدو كمجموعة بلدان أعضاء في دولة إتحادية، في حالة البلدان الآسيوية، أما بالنسبة للبلدان الإفريقية، فكان يعتبرها مرتبطة ارتباطًا مباشرًا بالبلد الأم، فتشكّل معه امتدادًا طبيعيًا لا ينفصل. إن الرباط الذي يشدّ وثاق هذه الإمبراطورية الشاسعة المكونة أساسًا من دول اتحادية، كان لابد أن يتجسد في شخص الملك، الإله ذاته، القادر على الإندماج في مختلف آلهة المدن والمناطق التي تم فتحتها. هكذا لم تصبح الإمبراطورية من الآن، مجرد مجموعة سياسية مترابطة ومتماسكة ولكن كانت أيضًا، وربما منذ تلك الأزمنة القديمة تحديدًا، وحدة روحية ضخمة.

إن تحليل نص منحوت على لوح كبير من حجر الجرانيت، يبلغ ارتفاعه ١٨٠سم، كان قائمًا في حجرة تقع إلى الشمال الغربي من قدس أقداس معبد الكرنك

الكبير، ومن مقتنيات متحف القاهرة، في الوقت الراهن، يكشف لنا الكثير عن هذا الموضوع. كما أنه ترنيمة تتغنى بانتصارات الفاتح العظيم. إنه نشيد إمبراطورى حقيقي، الأول في هذا المضمار، نشيد جَزْل وغنائي ومزهو:

كلمات قيلت من قبل آمون - رع، رب عروش القطرين: مرحبًا بك بجوارى، أنت الذى تفرح لرؤية جمالى، أيا ابنى، يا حامىّ، يا من خپر رع، ليتك تحيا إلى أبد الآباد!

إنى أتألق بسبب ما تكنه لى من حب، ويفرح قلبى عند قدومك الميمون إلى معبدى. إن ساعدىّ تنضمان إلى جسدك، لتؤمّنان حمايتك السحرية وحياتك. كم هى ممتعة رقتك بين أحضانى. سوف أبقيك فى مسكنك إلى الأبد. ومن أجلك سوف أصنع العجب العجاب.

إنى أعطيك القوة والنصر على كافة البلدان الأجنبية. وفى كافة الأراضى(٧٣)*، أقيم مجدك والرعب الذى يثيره*(*)*. إن الفزع الذى تستشعره (النفوس) فى حضرتك يصل إلى حدود أعمدة السماء الأربعة.*

إنى أشيد بهيبتك فى الأجساد جمعاء. وانشر صيحة حرب جلالتك، على امتداد الأقواس التسعة. فأمراء كافة البلدان الأجنبية قد تجمّعوا فى قبضتك. إنى أبسط شخصيًا الساعدين وأربطهم من أجلك.

إنى أقيّد النوبيين بعشرات الآلاف وبالآلاف. لقد وقع أهل الشمال فى الأسر بمئات الآلاف. إنى أعمل ليسقط أعداؤك تحت نعليك، وتطئ الأعداء أصحاب القلوب الخسيسة، طبقا لما أمرت به، من أجلك.

ومن الآن، فالأرض فى طولها وعرضها، وأهل الغرب وأهل الشرق، خاضعون لسلطانك. إنك تدوس بقدميك كافة البلدان الأجنبية وأنت سعيد القلب. ولا أحد من حاشيتك يستدير إلى الوراء، فأنا هاديك ومرشدك، وسوف تتمكن من اللحاق بهم.

(*) من الأهمية بمكان أن يراجع القارئ الهامش ٧٣ فى آخر الكتاب، ضمن هوامش الفصل الخامس، لدلالته فى توضيح المصطلحات المستخدمة فى هذه الجملة. (المترجم)

لقد عبرت مياه ثنية نهارينا العظيمة، بقوة واقتدار كما أمرتك. وعندما يسمع الأعداء صيحتك – صيحة الحرب – يدخلون في جحورهم. عندئذ أحرمهم من نسمة الحياة، لأنني أضع الخوف منك، في ثنايا قلوبهم.

إن متوهَّجتي (الصلّ) التي على جبينك تُحرقهم، إنها تبدد الفسقة والأثماء، وتحرق سكان الجزر بلهيبها . إنها تقطع رؤوس الآسيويين. فلم يبق منهم أحدً، وتم القضاء على أولاد زعمائهم.

وجعلت (أنباء) إنتصاراتك تنتشر في ربوع البلاد، بينما ثعبان جبيني يضئ جسدك.

فلا وجود لإنسان واحد قد يتمرد عليك، على امتداد كل ما تحيط به السماء. إنهم يأتون حاملين جزيتهم على ظهورهم وينحنون أمام جلالتك، بناء على أوامري. وأتصرف بحيث تخور قوى أعدائك عندما يحضرون إلى جوارك وقلوبهم محترقة وأطرافهم مرتعدة.

لقد أتيت،

وحملتك على سحق أمراء فينقيا . وأمدَدهم تحت أقدامك،

في ربوع البلاد .

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بصفتك رب النور،

وتتألق في وجوههم مثل صورتي.

(كانت المدن الفينقية تعبد شمش(*) إله الشمس العظيم في الشرق الأدنى القديم(**). وكانت بعض المدن مثل بيبلوس تعبد آمون - رع. وعندما يتجلى تحوتمس

(*) هكذا بالشين. ويمكن عقد مقارنة مع كلمة شمس العربية وشمش العبرية. (المترجم)

(**) ويشمل بلاد بين النهرين وآسيا الصغرى وأرمينيا وفارس وسوريا وبلاد العرب. (المترجم)

الثالث بصفته الشمس الإلهية كان يضفى بلا منازع الشرعية، لسلطانه على هذه المناطق).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق شعوب أسيا وضرب زعماء أسيويى ريتنو.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، بعد أن ارتدى حُلة (الحرب)،

بينما تمسك أسلحة المعركة، على متن مركبتك.

(فى مواجهة الآسيويين الذين يجنحون إلى التمرد، كلما تغير الملك المتربع على عرش مصر، يؤكد تحوتمس على قدرته وقوته، بالكشف عن استعداده لخوض المعركة).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق الأرض الشرقية والسير فوق أبناء مناطق بلد الإله.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك نجمًا يُطلق ضياءه مثل لهب،

ويُعطى أنداءه.

(إن استخدام مصطلح «سحق» بالنسبة لبلاد پونت هو مجرد استخدام شكلى. ويقدم النص وصفًا لانطلاق النيزك الذى يختلط تألقه عند وصوله إلى الأرض مع تألق الأنداء. فالفكر المصرى هو فى الغالب فكر إنطباعى، يترجم العواطف التى تتركها فى نفس المرء الصور الحسية. ويقوم النيزك بدور بارز فى حكايات بلاد پونت. راجع فى هذا الصدد قصة الغريق. فربما عرفت پونت عبادة النجوم؟).

لقد أتيت،

لقد حملتك على سحق الأرض الغربية، فتنحنى كريت وقبرص بسبب مجدك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، ثورًا دائم الشباب، قلبه ماضى العزيمة

وحاد القرنين، فيستحيل مهاجمته.

(كانت عبادة الثور الأبيض، وهو ثور شمسي إذن، منتشرة على نطاق واسع في كريت)

لقد أتيت،

لقد حملتك على سحق سكان الجزر، وترتعد بلاد الميتانى

تحت وطأة التخوف منك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك تمساحًا، فهو رب الرعب وسط المياه،

يصعب الإقتراب منه.

(الإشارة هنا إلى عبور نهر الفرات واختراق الميتانى)

لقد أتيت،

وحملتك على سحق جزر الوسط (السيكلاد(*)) والشديدة الإخضرار

ترزح تحت وطأة صيحاتك. صيحات الحرب.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك منتقمًا جَبارًا، فيظهر ممجداً،

على ظهر الثور الصريع.

(*) أرخبيل يونانى فى جنوب بحر إيجه. موطن حضارة كانت مزدهرة فى الألف الثالث قبل الميلاد.(المترجم)

(يظهر الملك هنا مندمجًا فى حورس المنتقم لأبيه أوزيريس، فى حين أن الثور الصريع هو ست).

لقد أتيت،

*وحملتك على سحق الليبيين وبلاد **الأوينتيو** رهن قوة مجدك.*

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك أسدًا متوحشًا،

بينما تحولهم إلى جثث على امتداد وديانهم.

(تظل المعارك شكلية. فإذا كان المقصود **بالأوينتيو** فى واقع الأمر **الدانيون**(*) **Danaéens**، يكتسب هذا المقطع أهمية بالغة لمعرفة التاريخ الدينى. وبالفعل فإن وادى **نيميا Némée** كان يقع فى بلاد **الدانيين**(**). ويقال أن **هيراكليس**(***) قد صرع الأسد الذائع الصيت فى هذا الوادى، ومن ثم فإن الحكاية الخرافية المصرية تعود إلى زمن أقدم بكثير مقارنة بالكلاسيكية اليونانية).

لقد أتيت،

*وحملتك على سحق الأراضى الأكثر بعدًا، وما تحيط به **الدائرة الكبرى**،*

مربوط فى قبضتك.

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك، صقرًا بجناحين،

يستولى على ما يراه حسب رغبته.

(*) نسبة إلى دانيه Danaé وهى من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(**) فى منطقة كورنثوس الحالية ببلاد اليونان. (المترجم)

(***) من أبطال الأساطير اليونانية. (المترجم)

(الدائرة الكبرى هى المحيط الذى يحيط بالعالم المخلوق. ومن ثم فالكون بأكمله ملك لفرعون. فبصفته صقراً محلقًا فى السماء، فإنه يشمل بنظراته أملاكه الشاسعة من أقصاها إلى أدناها).

لقد أتيت،

وحملتك على سحق النوبيين، وحتى بلاد شاعت فى قبضتك،

لقد حملتهم على مشاهدة جلالتك مثلك مثل أخويك اللذين ضممت

سواعدهم من أجلك، تعبيراً عن النصر.

(إن اتحاد حورس وست فى شخص فرعون، خير ضمان لاستتباب السلام والتوازن فى مصر. ومن ثم لن تتاح للنوبيين فرصة التمرد).

لقد وَضعت أختيك (إيزيس ونفتيس) خلفك لتأمين حمايتك السحرية، بينما ساعدا جلالتى فى السماء لطرد الشر.

إنى أقوم بحراستك يا بنىّ، يا محبوبى، أيا حورس «الثور القوى الذى يظهر فى طيبة»، الذى انجبته من صُلبى، أيا تحوتمس الذى أنجز من أجلى كل ما كان يتطلع إليه كائنى.

لقد شيّدتَ معبدى، إنه إنجاز من إنجازات الزمن الأبدى. لقد جعلته أضخم وأكثر اتساعًا مما كان عليه فى السابق. إن روعة جمال بوابة من خبر رع المزدوجة الكبيرة، كان لها وقع بهيج عند آمون - رع.

إن مبانيك أضخم من مبانى أى ملك من الملوك الذين سبقوك إلى الوجود. لقد أمرتك بتشييدها وأنا راضٍ عنها. ومن ثم، أقيمك على عرش حورس فتغالب الزمن، لملايين السنين، وتقود الأحياء للزمن اللانهائى(٧٤).

إن ملك الكون، الكيان الإلهى العظيم المتعدد الأشكال، هو الضامن الأسمى لتماسك الإمبراطورية وترابطها، بعد أن كفل فتح أراضيها. وإذا ظلت دول آسيا تحتفظ كل واحدة منها، بحكمها الذاتى من الناحية السياسية وبإدارتها الخاصة، إلا أن كيانًا روحيًا واحداً شاملاً، يهيمن عليه الفرعون- الإله، يجمعها فى أسرة واحدة مع مصر إلى جانب ممتلكاتها الإفريقية. ويستمد الملك شرعية سلطته الدنيوية من اندماجه الشخصى فى كافة كبرى آلهة الشرق والبحر المتوسط.

كانت إمبراطورية التحامسة تتكون من بلدان تنتظم فى مجموعها، فى دولة إتحادية، تلتف حول شخصيتين مقدستين تتمثلان فى الفرعون وإله الكرنك آمون - رع، اللذين أصبحت لإرادتهما السيادة على صعيد العالم.

وفى وقت لاحق وبعد انقضاء مئتى سنة، سوف يتطلع الرعامسة إلى جعل إمبراطورية مصر مجموعة مرتبطة أيضًا على الصعيد السياسى، وتتكون من إمبراطورية شاسعة موحدة خاضعة لسلطتهم التى ما زالت روحية ولكنها دنيوية أيضًا، وعاصمتها الجديدة پر - رعمسيس، الواقعة فى قلب أراضى الإمبراطورية، عند الحدود الفاصلة بين مصر وآسيا(٧٥).

٣- الشئون الداخلية وكبار موظفى الإمبراطورية

كانت العائلة الملكية تقيم فى قصر الأقصر. وثلاث زوجات كنّ بجوار الملك، اثنتان منهن حملتا لقبًا مرموقًا، هو «*الزوجة الملكية العظيمة*». الأولى وهى حتشپسوت - مريت رع (أى «*محبوبة رع*»)، من الراجح، أنها كانت ابنة تحوتمس الثانى وحتشپسوت، فبفضلها اكتسب الأمير الشاب تحوتمس المولود من تحوتمس الثانى وإحدى محظياته، شرعية إنتسابه إلى الأسرة المالكة. فكانت «*تلك التى ترافق*

أخاها الإله الكامل. إنها الزوجة الملكية الأولى التى لا تبتعد أبدًا من جوار رب القطرين[٧٦]». أما الثانية وهى سات-إعح (أى «*ابنة- القمر*») فكانت والدتها «مرضعة *الإله الكبرى*». أما الثالثة وهى نبتو، فكانت زوجة «عادية». وسجلت الأسماء الثلاثة فى مقبرة الملك بوادى الملوك، على وجه التحديد.

جاءت ثمرة هذه الزيجات الثلاث ابنين هما أمنحوتپ الذى خلف أباه وتحوتمس وثلاث بنات هن نفرتارى (أى «*جميلته*») ومريت أمون (أى «*محبوبة آمون*») وباكت.

إننا أبعد ما نكون عن «*الكثرة*» التى شاعت فى عصر الرعامسة، رغم وجود بيت الحريم الذى تعمَّره فى المقام الأول، الأميرات الأجنبيات اللواتى يُرسلن إلى فرعون لكسب ودِّه. إنها بداية سياسة سوف يترتب عليها، عما قريب، ازدحام قصور طيبة أو پر-رعمسيس بالجميلات القادمات من آسيا، فكنَّ بلا شك، هدايا يقدرها الملك حق قدرها. وعلى الجدار الشمالى، من إحدى «حجرتى *الحوليات*» بالكرنك وهى الحجرة الشمالية تحديداً، يصور نقش تحوتمس الثالث ترافقه سيدات البلاط، وهن يحركن المصلصلات بينما يقوم الملك بتكريس كميات ضخمة من الجزية من أجل الإله آمون وذلك فى أعقاب حملاته السورية.

وشأنه شأن ملوك وادى النيل، كان تحوتمس الثالث يوقِّر ويجلّ السلالة التى انحدر منها والتى يؤمِّن مستقبلها. فمنذ العام ٢٢ وهو عام بداية حكمه الفعلى للبلاد، قام بترميم وتزيين تمثال للملك أمنحوتپ الأول، أمام الصرح الثامن فى الكرنك، بالإضافة إلى تمثال لوالده تحوتمس الثانى. وفى العام ٤٢، وبعد أن وضع حداً لحملاته الأسيوية العسكرية «*وبينما كان لا يزال فى الطريق نحو مدينة الجنوب*» أصدر أوامره بترميم وتزيين تمثال آخر لأبيه تحوتمس الثانى «*حتى يظل اسم أبيه الإله الكامل، عا خپر كا رع، ثابتًا يقاوم الزمان، فى معبد آمون، للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى*[٧٧]». هكذا يُسجِّل مدى اهتمامه بمشاركة الملوك الذين سبقوه وبانتمائه إلى سلالتهم، مشاركتهم فيما يشيده من معالم أثرية إبان عهده. لا شك أنه مظهر من مظاهر البرّ بالوالدين، ولكنه فضلاً عن ذلك، ضرورة أساسية من أجل وحدة الأسرة الحاكمة[٧٨].

كما يتجلى ذلك بوضوح أكبر، فى المقصورة المسماة آخ منو[٧٩] المشيدة إلى الشرق من المعبد الكبير. فتعلن المدونة التذكارية المنحوتة فى دهليز القسم الجنوبى:

أقام الملك من خبر رع، بناية من أجل آبائه ملوك مصر العليا وملوك مصر السفلى. لقد شيد من أجلهم مجدداً، معبداً كبيراً لملايين السنين من الحجر الأبيض الجميل- الحجر الجيرى المستخرج من طرة، وكان فى روعة أفق السماء ومفعماً بالبركة، بقدر أى عمل أُنجز ليغالب الأيام، على امتداد الزمن اللانهائى. وأمر صاحب الجلالة أن تُدوّن على سطحه أسماء آبائه، لتدوم على مرّ الزمان وتظل قرابينهم مزدهرة[٨٠].

وإذ أراد تحوتمس الثالث مشاركة أجداده، فقد صور نفسه فى هذا المبنى فى حجرة تقع عند الجانب المواجه للغرب من قاعة الأعياد، وهى القاعة الرئيسية من آخ منو- فنشاهده وهو يقدم القرابين لواحد وستين ملكًا من آبائه، بدءًا من سنفرو أول ملوك الأسرة الرابعة. وقد صُوِّر هؤلاء جالسين، أمام آخر الأبناء الذين من نسلهم. لقد قام بريس دافين Prisse d'Avennes بتفكيك جدران هذه الحجرة عام ١٨٤٣ ونقلها إلى باريس، لتصبح فى الوقت الراهن من مقتنيات متحف اللوفر Le Louvre وتعرف تحت اسم «قائمة ملوك الكرنك»(*).

كما كان البلاط يضم كبار موظفى الإمبراطورية. إنهم جميع رفقاء الملك المخلصين الذى اصطحبوه فى معاركه وسهروا على حسن إدارة الأراضى المصرية والأجنبية. ونعرف هؤلاء الرجال، على وجه التحديد، من خلال الصور والنصوص التى نقشوها على جدران مقابرهم المحفورة بالشيخ عبدالقرنة فى البر الغربى من النهر. إنهم بعد وفاتهم الظاهرية على سطح الأرض، لا يبعدون كثيرا عن العاهل الملكى الذى ظلوا يعيشون «*على مياهه*».

يلتزم ترتيب النقوش والرسومات فى أغلب الأحيان ببعض الأعراف. فبجوار مدخل المقبرة يمكن أن نرى مشاهد تقديم القرابين للآلهة الشمسية، ثم مع الإبتعاد إلى غبش الداخل نرى الآلهة الجنائزية. وعلى جانبىّ باب المدخل وفى اتجاه الحجرة

(*) وقد حل محلها حاليا فى معبد الكرنك مستنسخ ردىء. (المترجم)

الداخلية، يستعرض صاحب المقبرة واجبات منصبه، فيصورها فى مشاهد نضرة تنبض بالحياة. وفى هذا المكان وإبان الأسرة الثامنة عشرة، كان يصور فى الغالب الملك الجالس على العرش. أما بقية الزخارف فهى متنوعة وتساعد فى بعض الأحيان، على فهم شخصية صاحب المقبرة ومعالم حياته.

الوزراء

ثم نتطرق إلى الحديث عن كبراء الدولة أو أعيانها الذين فوضهم العاهل الملكى جانبًا من سلطاته.

ومن الآن، ونظراً إلى التطور الملحوظ الذى عرفته مصر وتعاظم أهمية الشئون المطلوب معالجتها وكثرة عددها أصبح منصب الوزير مزدوجًا: فعُين وزير لمصر العليا ومقره طيبة، ووزير آخر لمصر السفلى يقيم فى منف، فى أغلب الأحوال. كانوا رجالاً اختارهم الملك ومن ثقاته الذين يعتمد عليهم.

وتشكلت عائلات كبيرة من الإداريين، أصبحوا من المقربين للملوك ونالوا حظوة عندهم. كانت حتشبسوت قد عيّنت أحمس وشهرته عامتو وزيراً[٨١]. وكما سبق أن ذكرنا، قام تحوتمس الثالث فى العام الخامس من «عهده» بإسناد هذا المنصب إلى ابن عامتو، واسمه أوسر آمون الملقب أيضًا أوسر. وفيما بين العام ٢٨ والعام ٣٢، أُسند هذا المنصب إلى رخ مى رع حفيد عامتو وابن أخى أوسر. وقد اتخذ كلاهما من طيبة مقرًا لهما. وربما كان نفر وبن وزير الشمال أخا أوسر.

وخلّف العم وابن الأخ وهما أوسر و رخ مى رع فى مقبرتيهما، فى طيبة، مدونة عظيمة الشأن فى نظرنا، لأنها تحدد بوضوح أبعاد واجبات منصبهم.

أوسر

إن أوسر آمون الذى يعنى اسمه «*آمون قدير*»، استطاع أن يجمع بين كبرى الوظائف والألقاب الدينية. وقد ورث معظمها عن أبيه عامتو. ولما كان وزيراً، فمن

الطبيعي أنه كان أيضًا «خادم ماعت» و«هذا الذى يملأ أذنىّ حورس عدالةً وحقيقةً» و«هذا الذى يقضى سحابة يومه فى زراعة العدالة». وكان الخازن الأكبر «المشرف العام على بيت الفضة وبيت الذهب» و«كاتب الأحجار الكريمة من مختلف الأنواع». كما كان «المشرف العام على المعابد الستة الكبرى» و«الكاهن وعب فى خدمة أمون» و«القائم فى بطانة الإله مين»(٨٢).

وفى مقبرته رقم ١٣١ بالشيخ عبدالقرنة يروى أوسر الإحتفالات التى صاحبت تنصيبه فى وظيفته:

عندئذ انعقدت جلسة ملكية فى قاعة المقابلات الرسمية الكبرى الغربية (فى حضرة) من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى. وسُمح بدخول كبراء البلد والأصدقاء وكبار الموظفين الملكيين وأعيان «المكان الأوحد» وشخصيات القصر المرموقة والرفيعة الشأن وحاشية حورس، ليقدموا تحياتهم للعاهل الملكى. ثم صدر الأمر بدخول الوزير عامثو لبحث الوضع فى القطرين وإعلان... وقال صاحب الجلالة إلى الأصدقاء المتواجدين هنا: «... إن الشيخوخة تحسب الآن حساب ساعاتها». عندئذ أردف هؤلاء قائلين: «أيها العاهل الملكى، يا سيدنا، أنت تعرف أن الوزير قد تقدم فى السن، وبدأ ظهره ينحنى، والنظم (التى يمليها) تتجاوز مدينته. ومن ثم ارتقِ بالرغبة التى فى قلبك واصدر قراراً عادلاً، مفعمًا بالخير. امعن النظر فى هذه الحقيقة : «قد يكون من المفيد للقطرين أن يقام شخص آخر، كعصى شيخوخته». وقال لهم صاحب الجلالة: «حسنًا، ولكن ابحثوا إذن من أجلى (عن شخص مناسب) لمعاليكم، تكون قراراته مُرضية فى أفعال...». عندئذ انبطحوا على بطونهم، وسجدوا أمام صاحب الجلالة. واستعرضوا عدداً من الأفعال المفيدة وأحيط هذا الأخير علمًا بها: «إنك تحمى القطرين، بصفتك مخلوق أبيك، إنك توفّر الأمن لمصر... إنك تسنّ القوانين لملايين وملايين السنين، لإرضاء الشعب، إنك تجلب الإزدهار على عامة الناس، إنك تسوس القطرين بحيث تحتل الوظائف مكانها (الصحيح). إنك تدعم حدودك فيما وراء الأقواس التسعة. إن رع يسطع وفقًا لما تقرره وتَرضى بميراث ابن إيزيس. إن أباك هو الذى أجلسك على عرشه. وشديد هو الرعب الذى تثيره فى ربوع البلاد، أنت الذى تتجلى ممجداً، مثل الفائق القدرة الذى فى السماء. اسمع إذن لابنه (أى ابن الوزير

عامشو) واسمه أوسر، وكان كاتب الخزينة الإلهية فى معبد آمون منذ عهد أبيك عا خپر كا رع، الصادق القول... (اسمح بابلاغه) بتعيينه الصادر عن القصر، وأن يذاع النبأ. إنه ذكى وماهر وحسن السجيّة وسيصبح عصا شيخوخة كاملاً». وفى أعقاب ذلك، وجه صاحب الجلالة كلامه إلى الوزير قائلاً: «يا لها من فائدة، أن تكون شعبيته قد استقرت، من قبل فى القصر، حيث لم ترتكب فيه، أنت شخصيًا خطأً واحدًا، أو أى فعل يستوجب اللوم ولم يصلنى أبدًا بلاغ واحد ضدك. إنى أعرف حق المعرفة، أن ابنك أوسر، موات ومفيد فى تصريف شئون البلاد. إنه شخص عادل (وفقًا) لتعاليمك، كما أن قلبه وعقله «قد تفتّحا»، بفضل حكمتك. تصرف بحيث يستمد فاعليته منك. هكذا سيصبح لك عصًا للشيخوخة، وهو ما ينبغى أن يتم لشخص يستحق الإشادة بمناقبه، تعبيرًا عن الإمتنان لذيوع صيته. فمن المفيد أن يحل محل أى شخص، آخر مثيل له»...

(تزخر السطور المتبقية من النص بالعديد من الفجوات فتحول دون تقديم ترجمة ذات معنى)(٨٣).

يكشف النص عن خواطر حول توريث الوظائف، بشأن اختيار ربما سبق لفرعون أن قرره. ولكن انتقال المناصب من الأب إلى الابن، فى بلد كانت العائلة هى الخلية الأساسية التى يتشكل منها المجتمع، كان على الدوام من الأمور المطلوبة(*). فمنذ حوالى عام ٢٥٠٠ق.م، فى عهد الملك **إيسيسى** من الأسرة الخامسة، كان الوزير **پتاح حوتپ**، يطالب الملك بأن يصبح ابنه البكر «عصا الشيخوخة»، ويخلفه فى وظائفه المرموقة. ومن ثم برزت خطورة أن تظل كبرى مناصب الدولة بين أيدى عائلات واسعة النفوذ من أصحاب الحول والطول. وفى ظل ملك قوى الشكيمة مثل تحوتمس الثالث، لم يكن الخطر ذا بال. ولكن ما أن يظهر ملك ضعيف حتى يتعرَّض النظام للمخاطر.

(*) مازال المثل الشعبى يقول: «ابن الوزّ عوام» و«ابن الفاره حفّاره». (المترجم)

وكرجع الصدى لما تقدم، وصلتنا شهادة الوزير أوسر التى أعلنها منحوتة على لوح من حجر الجرانيت الرمادى المحفوظ فى الوقت الراهن فى متحف مدينة جرينوبل(*) Grenoble.

أنا من الأعيان المرموقين. كنت كاهنًا طاهر اليدين، ينفذ إلى داخل معبد آمون. لقد وضعت الأدهان على الأعضاء الإلهية. لقد زينت آمون ـ مين. لقد حملت آمون إبان عيده، ورفعت مين على منصته. لم أرفع الكتف فى بيت السيِّد الذى ينحنى أمامه الجميع. لم أرفع الساعد فى بيت «هذا الذى يرفع الساعد» (من صفات آمون ـ مين). *لم أتحدث بصوت عالٍ فى معبد سيد الصمت. لم أتفوه بالأكاذيب فى بيت رب الحقيقة. لم أدنّس الطهارة الإلهية. لم اقتطع شيئًا من قرابين الإله... أنا أوسر. لقد رُقّيت إلى هذه الوظيفة المرموقة، عمدةً للمدينة ووزيرًا*(٨٤).

لقد تم الكشف عن العديد من تماثيل هذا الشخص. ويمثله أحدها راكعًا، وقد عثر عليه فى الكرنك، وهو من مقتنيات متحف اللوفر حاليًا. إن مقبرته التذكارية رقم ١٧ فى جبل السلسلة، مدمرة تدميراً بالغًا، فى الوقت الراهن(٨٥).

رخ مى رع

إن ابن أخيه الذى خلفه أصبح وزيراً «*رفيع المقام والقدر*». كان ابن نفر وين أخى أوسر ووزير الشمال.

ويفصح اسمه عن ذلك، فقد كان «*عالمًا مثل رع*» وتعرفه مدونات مقبرته المحفورة فى الشيخ عبد القرنة على النحو الآتى:

إنه النبيل والأمير ورئيس رؤساء الإستقبال ورجل الأسرار، الذى يدخل فى مقاصير قدس الأقداس، فلا يوجد باب بينه وبين الإله. لا يجهل شيئًا مما هو فى السماء أو على سطح الأرض أو فى أى جانب من الجوانب الخفية فى الدوات. إنه

(*) مدينة فى جنوب شرق فرنسا. (المترجم)

الكامن سم فى پر ـ نسر وكبير الرائين فى پر ـ ور[٨٦]*... الأقوى بين «جميع من يرتدون النقبة»* (أو جميع الرجال)... *إنه الأوحد المتفرد، المفعم بالبركة، المفعم بالبركة*[٨٧].

ويتفجر اللغو المصرى ممتدحًا سلطانه وقدرته، والشيء نفسه يكشف عنه[٨٨] شموخ مقبرته رقم ١٠٠ التى حفرت فى الطرف الجنوبى من جبل القرنة وتخطيطها على هيئة حرف T الإفرنجي ويمتد رواقها الأوسط لمسافة ٣٠مترًا داخل الصخر. والحجرة التى نصل إليها ضيقة إلى حد كبير وتتميز بسقفها الموازى لمنحدر الجبل ويبلغ ارتفاعه ثمانية أمتار. وإلى الغرب نجد أن الكوة ترتفع ستة أمتار فوق مستوى المقبرة. ويذهب نورمان دى جاريس ديڤيز N.de Garis Davies، إلى أن هذا التدرج اللافت للنظر، ربما كان مستمداً من عمارة الدير البحرى التى تستطيل شرفاتها المتراكبة.

كما يجدر بالملاحظة، أن أهمية هذه المقبرة تعود إلى ما تزدان به من نصوص ونقوش، إذ يشكل كلاهما مصدرا بالغ الثراء، بل وفريد فى بابه، للتعرف على مقومات «وظيفة» الوزير.

- تنصيب رخى مى رع والتعليمات الملكية:

تم إدخال كبار موظفى المجلس فى بداية الأمر إلى قاعة الإستقبالات الرسمية لفرعون، ثم حضر الوزير رخى مى رع الذى رُقّى حديثًا (إلى هذا المنصب).

قال له صاحب الجلالة: «عليك أن تسهر من الآن، على حجرة استقبالات الوزير وتراقب كل ما يحدث فيها، لأنها ركيزة البلاد قاطبة. لاحظ، فأن يكون المرء وزيراً، ليس بالأمر الهين والسار، بل قد يكون ذلك أحيانًا، مُرًا مرارة الصبر.

الوزير هو النحاس الذى يحمى ذهب بيت سيده.

(فالذهب هو مادة لحم الآلهة الذى يمثل فرعون ابن رع. أما النحاس الأقل

بريقًا ومادة النجوم، فإنه يمثل الوزير الذى يبدو أنه قد أصبح منذ حياته الأرضية مشاركًا فى الطبيعة الكونية لسيده).

فلا يخفض وجهه أمام كبار الموظفين والقضاة، ولا يختار تابعيه من بين كائن من كان، من الأفراد. وإذا أقام امرؤٌ فى كنف سيده، عليه أن يبذل كل ما فى وسعه، وهو يعمل من أجله، ولكن لا يصح أن يفعل الشىء نفسه مع شخص آخر.

سيأتى إليك أصحاب المظالم، من الجنوب والشمال، ومن أرجاء البلاد... عليك أنت، السهر على أن يتم كل شىء، طبقًا للقانون، وطبقًا أيضًا لحقهم، مع كفالة العدالة لكل امرىءٍ. على القاضى أن (يحيا) سافر الوجه، لأن الماء والهواء ينقلان مختلف تصرفاته ولا يجهل أحد أفعاله. إذا حدث خطأ فيما يفعله قاضٍ آخر وإذا لم يُعلن بفم المكلف بالتحقيق القضائى، فيسعرفه الجميع من خلال كلمات الشخص المقدم للمحاكمة. وبالفعل فلما كان هذا الأخير يقف بجوار المكلف بالتحقيق القضائى فسوف يعلن قائلاً: «إن ما يحدث هنا، لا يُعضّد صوتى» (أى لا يُنصفنى).

*أجل، إن المأوى المضمون لكل قاضٍ، هو أن يتصرف وفقًا للناموس، عند حكمه فيما يلتمسه الشاكى. وهكذا لن يستطيع من يحاكم أن يقول: «لم تقض بالعدل». امعن النظر فى هذه الحكمة الواردة فى كتاب منف والقائلة: «**الملك المبجّل يقابله وزير يراعى القوانين ويحترمها...**». [تجنب أيضًا] ما يقال عن الوزير **خيتى**، ومفاده أنه كان يهضم حقوق المقربين إليه لصالح الآخرين*(*) (من شدة حرصه على توخى الحياد، حتى لا يظهر بمظهر من يحابى خلصاءه)... *وإذا استأنف شخص* (من المقربين إلى **خيتى**) *حكمًا كان يودّ الوزير أن يصدره من أجله، وإذا أمعن هذا الأخير فى رفضه، فكان إسرافًا فى العدالة ومغالاة فيها... ولكن المحاباة سلوك ممقوت فى نظر الله.*

(*) ويقترب من هذا المفهوم المثل الشعبى: «سألوا الزبون: مال لحمتك مشفتة؟ قال: أصل الجزار معرفة». (المترجم)

وإليك توصية عليك الإلتزام بها: انظر إلى من تعرفه، نظرتك إلى من لا تعرفه، ومن تربطك به أواصر القرابة نظرتك إلى البعيد عن بيتك. فالقاضى الذى سيتصرف على هذا النحو سوف يكون من الناجحين الفالحين فى وظيفتهم. لا تصرف أى شاكٍ، قبل أن تنصت باهتمام إلى كلماته. وإذا جاءك من يرفع شكواه إليك، فلا ترفض ما يقوله باعتباره أمرًا سبق قوله، من حقك إبعاده ولكن بعد أن تُفهمه لماذا تبعده. لقد اعتاد الناس القول: يود الشاكى الإنصات إلى ما يقوله فى رفق ولطف، أكثر من الإستجابة إلى شكواه(*).

لا تستشط غضبًا بلا حق على إنسان. اكتفِ فقط بإظهار سخطك على من يستحق ذلك. عليك أن تثير الخوف حتى يخشاك الناس. إنه قاضٍ (حقيقى) هذا الذى يتهيّبه الناس.

أجل، سوف تحقق النجاح عند القيام بوظيفتك إذا توخيت العدل، فما يرغبه الناس فى المقام الأول، ضمان العدالة والإنصاف فى تصرفات الوزير. إنه من يسهر على القوانين بكل ما أُتى من دقة، منذ زمن الله (أى منذ اليوم الذى شهد خلق العالم)...

لاحظ أيضًا، أن المرء يظل يشغل وظيفته، طالما يعمل وفقًا للتعليمات الصادرة إليه. كل شىء يسير بالنسبة له، على أحسن وجه، إذا ظل يعمل طبقًا لما قيل له. لا تتوقف لحظة واحدة عن إقامة العدل الذى تعرف قوانينه. لا تنضم إلى الإنسان المتعجرف، لأن السيد الملكى يفضل الوَجِل على المعتدّ بنفسه. إعمل إذن طبقًا للتعليمات الصادرة إليك. أجل، لقد وُضع كل ذلك أمامك لكى تقوم بانجازه[٨٩].

لم تقتصر واجبات الوزير على العدالة والتجرد والإنصاف، وإن كانت واجبات أخلاقية ضرورية فى الحقيقة، ولكن أعباء الوظيفة ومسئولياتها عديدة ومتنوعة.

(*) إن الكثير من الأمثلة الشعبية مازالت تعبر عن هذا المفهوم، ومنها على سبيل المثال لا الحصر: «لاقينى ولا تغدّينى» و«وش بشوش ولا جوهر بملو الكف».. (المترجم)

- **واجبات الوزير ومقتضيات آداب الرسميات:**

القواعد المنظمة لجلسات عمدة المدينة ووزير مدينة الجنوب، فى القاعة الكبرى لاستقبالات الوزير وما ينبغى أن ينجزه الوزير الشريف عند انعقاد الجلسات.

سوف يجلس على متّكأ له ظهر، وتوضع حصيرة على الأرض، ويرتدى ملابس وظيفته. وتوضع وسادة خلف ظهره وأخرى تحت قدميه... ويقبض بيده على صولجان السلطة. وتُفرد أمامه أربعون لفافة من جلد (تضم نص القوانين). وكبراء الجنوب العشرة حاضرون متواجدون على الجهتين: المشرف العام على القصر على يمينه، ومراقب من له حق الدخول على يساره، أما الكتبة فهم الأقرب إليه.

وإذا خاصم أحد المتظلمين، كائنا من كان، من القائمين بجواره، فسوف يصغى الجميع إلى أحدهم تلو الآخر. ولن يتم الإصغاء إلى آخر الحاضرين قبل أول الحاضرين. ولكن إذا قال أول الحاضرين. «لن نستمع إلى أى شخص من الذين بجوارى (أى قبلى)». عندئذ سوف يحتجزه حجّاب الوزير.

سوف يُقدم تقرير إلى الوزير عن إغلاق المواقع الحصينة فى اللحظة المواتية وعن فتحها، عندما يحين ذلك. كما يقدم له تقرير حول حالة حصون الجنوب والشمال، وعن كل ما يخرج من القصر الملكى وما يرد إليه، على حدّ سواء، وكل ما يخرج أيضًا من أراضى المقر الملكى وما يرد إليها. ويقع على عاتق الموفدين التصريح بهذا الخروج أو هذا الوارد. كما يقدم له المشرف العام على الحجّاب والحجاب والمشرفون على الأطيان، تقارير عن أنشطتهم.

كما يتعين استقبال الوزير يوميًا، ليحَىّ السيد الملكى ويقدم له فى قصره، تقريرًا عن أحوال القطرين. سوف يدخل إلى البيت الكبير، فى حين يقف حامل الأختام بجوار أسطون الشمال. وعندما يستهل الوزير سيره ويظهر عند مدخل الباب العالى المزدوج، عندئذ يذهب حامل الأختام لاستقباله ويقدم له تقريرا قائلاً: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة. لقد حضر جميع المفتشين ليبلغونى قائلين: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة والقصر الملكى سليم ومزدهر». عندئذ يقدم الوزير تقريراً إلى حامل الأختام قائلاً: «كل أعمالك سليمة ومزدهرة إذن، وكل مواقع المقر الملكى سليمة ومزدهرة. كما

أخبرنى جميع المفتشين بناءً على جولاتهم، فغلق المواقع الحصينة وفتحها كانا يتمان فى الوقت المناسب». وبعد أن يتبادل هذان الموظفان من أصحاب الرتب الرفيعة التقارير، سوف يأمر الوزير بفتح كافة أبواب القصر الملكى، ليُسمح بدخول كل من يحق له الدخول وبالخروج بالمثل. ويشير إلى ذلك كاتب الوزير كتابةً.

لن تمنح سلطة إقامة العدالة فى القاعة الكبرى المخصصة لاستقبالات الوزير لأى نبيل. وإذا صدر اتهام ضد أحد الكبراء المرتبطين بهذه القاعة، عندئذ سوف يُحال إلى مكان المحاكمة، ليتولى الوزير (شخصياً) معاقبته بما يتناسب مع ما ارتكب من ذنب. لن تمنح السلطة لأى نبيل لتوقيع عقوبة الضرب فى قاعة الوزير الكبرى، إذ سوف يُقدم لهذا الأخير التقرير المتعلق بكافة «الدوافع والبواعث» ثم ينتقل (شخصياً) إلى قاعة المحاكمة.

أما عن كل مبعوث مكلف بمهمة، يوفده الوزير إلى أحد الأعيان، سواء كان من أرقى الرتب أو من أحطها، فعليه ألا ينحنى وألا يتلكأ بجواره بل يلتزم بإبلاغ رسالة الوزير، وهو واقف أمامه فيتحدث ثم يهمّ بالإنصراف. فمبعوث الوزير هو الذى يصطحب حكام الأقاليم ومديرى القصور[٩٠] إلى قاعة المحاكمة. ومبعوث الوزير هو الذى يضع القواعد... وإذا حدث عندما قدّم هذا المبعوث تقريره أن اشتكى قائلاً: «لقد أوفدت مكلفًا بمهمة إلى جوار أحد الأعيان ولكنه احتكم (إلى العدالة) وأمر بأن أُصفع صفعةً مؤلمة على قفاى(*)». عندئذ سيقدم الشخص المعنى للمحاكمة... وفى قاعة الإستقبال الكبرى يتولى الوزير شخصياً توقيع القصاص الذى يتناسب مع الخصومة محل النزاع. إنه ليس مجرد جزاء، بل عقوبة قد تصل إلى حدّ بتر أحد الأعضاء...

أما عن كافة الوثائق المنسوخة التى يرسلها الوزير إلى كائن من كان، من العاملين بقاعة المحكمة – وهى وثائق غير سرية – فلابد من إعادتها إليه، على أن

(*) ألا تزال هذه الممارسة شائعة فى بعض الظروف؟ بل هناك مثل شعبى يقول: «ضرب الحاكم شرف». وهو من الأمثال الدالة على ما كان فى نفوس المصريين فى العصور الخوالى من الخنوع للحكام المستبدين حتى كانوا يعدون الإهانة منهم شرفًا يفخرون بنواله. راجع: أحمد تيمور باشا، الأمثال العامية، مركز الأهرام، ١٩٨٦، ص٢٩٨. (المترجم)

ترفق بها السجلات الخاصة بها، ويختمها القضاة والكتبة المنوط بهم متابعة هذه القضايا. ثم يفضها الوزير، وبعد أن يطّلع عليها يعيدها إلى جهتها الأصلية، بعد أن يبصمها بختمه. ولكنه إذا طلب وثيقة سرية، فإن المسئولين عنها لا يستطيعون التصريح بتداولها. ومن جهة أخرى، فإن أى مبعوث أوفده الوزير بشأن هذا الموضوع، بناء على طلب المدعى، فمن حقه أن ينتقل بها.

أما فيما يتعلق بأى عريضة مرفوعة إلى الوزير، بشأن الأراضى الزراعية، فإنه ينظر فيها بنفسه، بالإضافة إلى الجلسات التى عقدها المشرف العام على الحقول ومحاكم السجل العقارى. وقد يحدد مهلة شهرين، لأراضيه فى مصر العليا ومصر السفلى. ولكن لن تتجاوز هذه المهلة ثلاثة أيام للأراضى الزراعية المتاخمة لمدينة الجنوب أو لمقر إقامة الملك، وذلك طبقًا للقانون. وسوف يحدد جلسة لكل مدعى وفقًا للقانون الذى بين يديه.

ويناط به، استدعاء قضاة الإقليم ثم صرفهم، بعد أن يقدموا تقاريرهم عن أحوال المنطقة الخاضعة لسلطتهم القضائية. لابد أن يُعرض عليه نص كل وصيّة، فمن إختصاصه وضع الختم عليها.

كما يناط به، منح الأراضى فى كل حوزة جنائزية(؟). أما بالنسبة للشاكى الذى سيقول: «إن حدودنا متحركة». فلابد من النظر، إذا كانت هذه الحدود ثابتة بفضل ختم شخصية رسمية. وفى هذه الحالة سيقوم الوزير بسحب الأراضى الممنوحة من قبل المحكمة التى غيرت حدود (الحوزة).

أما المحاجر جميعها، فإذا جاء إليها، كائن من كان، للوقوف على ما تحتويه والذى سيقدم عريضة خطية، فلن يسمح له بالدخول إلى قاعة الجلسات. وكل مدّعى سيقصد مباشرة السيد الملكى، بعد تحرير وثيقة خطية، سوف «يعاد» إلى الوزير.

ومن اختصاص الأخير، إرسال كافة مبعوثى القصر الملكى وإيفادهم إلى حكام الأقاليم ومديرى القصور.

ويناط به، إرسال خطابات القصر وكافة أوامره ومراسيمه.

ويناط به، اختيار كبراء مصر العليا ومصر السفلى ورأس مصر العليا والأرض الشاسعة (إقليم أبيدوس) لتعيينهم فى سلك القضاء. ويتعين عليهم تقديم تقرير، عن كل ما يجرى فى المنطقة الخاضعة لولايتهم القضائية، مع بداية كل فصل من الفصول الثلاثة (أى كل أربعة شهور)، على أن يصطحبوا معهم الكتبة المعنيين والقضاة التابعين لهم.

ويناط به، حشد الجنود الذاهبين والعائدين، لمرافقة السيد الملكى عند هبوطه نهر النيل أو صعوده.

ويناط به، تحديد موارد مدينة الجنوب والمقر الملكى (ذاته)، وفقًا للتعليمات الصادرة عن القصر الملكى.

ويمثل بين يديه، مسئولو طائفة مورّدى الأمير، لتموين قاعة استقبالاته الخاصة، بالإضافة إلى قضاة الجيش لإعلامهم بالقانون العسكرى.

كما يسمح أيضًا بدخول كافة الموظفين، من أصحاب الرتب العليا والدنيا إلى قاعة الوزير الكبرى، حتى يتمكن كل واحد منهم أن يُحيّ زميله.

ويناط به، إرسال (الرجال) لقطع الأشجار، وفقًا للتعليمات الصادرة من القصر الملكى.

ويناط به، إيفاد مستشارى الإقليم لشق قنوات الرى فى ربوع البلاد.

ويناط به، إيفاد حكّام الأقاليم ومديرى القصور لتأمين فلاحة الأرض مع حلول الفصل الجاف.

ويناط به، تعيين المشرف العام على الحجاب فى القاعة الكبرى بالقصر الملكى.

ويناط به، تعيين من سيستمع إلى حكام الأقاليم ومديرى القصور ومن يسافر إلى مصر العليا ومصر السفلى. وسيتم إبلاغه بجميع الكلمات وبأحوال القلاع الجنوبية وحبس أحد اللصوص، (على حدّ سواء). ولكن سيتولى شخصيًا أمر السلاّب النهّاب، فى أى إقليم من الأقاليم ويتولى محاكمته.

ويناط به، إرسال الجنود وكتبة مسح الأراضى، استعداداً لرحلة السيد الملكى.

ولابد أن تبقى تقارير الإقليم المكتوبة، فى قاعة استقبالاته للإستفادة منها فى كل دعوى مرتبطة بالأراضى المزروعة.

ويناط به، ترسيم حدود كل إقليم وكافة الحقول وتقدير كل القرابين الإلهية وإعداد العقود.

ويناط به، صياغة الأحكام وإمعان النظر فى التظلمات، عندما يتشاجر شخص مع جاره.

ويناط به، تعيين كل من يتم ترقيته فى قاعة المحكمة.

وإليه تُسلَّم كافة التبليغات الصادرة عن القصر الملكى.

ويناط به، الاستماع إلى الأوامر.

ويناط به، إبداء الرأى فى مسائل العجز فى الإيرادات الإلهية.

ويناط به، فرض الضرائب على كل من يخضع لها، (فيحدد) كافة الرسوم الواجب سدادها له.

ويناط به، الفصل فى كافة الدعاوى.

ويناط به، تحديد التخفيضات فى إيرادات الأجهزة الإدارية....

ويناط به، فتح بيت الذهب بالمشاركة مع حامل الختم.

ويناط به، إعداد حصر بكافة الثيران المطلوب حصرها.

ويناط به، التفتيش على المخزون من الماء كل عشرة أيام ويفعل الشيء نفسه مع المخزون من الطعام....

وينبغى أن يقدم له تقرير عن شروق النجم سيريوس(*) و....النيل، كما ينبغى أن يقدم له تقرير عن أمطار السماء.

(*) الاسم اليونانى للنجم سبدت فى المصرية القديمة والشعرى اليمانية فى العربية. (المترجم)

ويناط به، تجهيز الأسطول....(٩١)

(نهاية النص مشوهة تشويهاً بالغاً).

مما لا شك فيه أن الوزير شخص ذو حول وطول: إنه القاضي الذي يحكم في كافة المنازعات، الكبيرة منها والصغيرة، على حدّ سواء. إنه سيد الأراضي التي يرسّم حدودها مع تعيين زمن الحرث والفلاحة والإشراف على عمليات الريّ والأمر بقطع الأشجارومراقبة مخزون المياه والطعام، مراقبة منتظمة، والقيام بحصر قطعان الماشية إذا لزم الأمر. إنه على رأس الجهاز الإداري: فيعين الموظفين ويرقيهم، ويشكل الصلة الأساسية التي تربط الحكومة المركزية بسلطات الأقاليم. إنه المدبِّر، المشرف على الخزينة وجابي الضرائب ومختلف الإيرادات ويتسلم جزية البلدان الأجنبية. إنه يدير الجيش بقواته البرية والبحرية، ويسهر على انتقالات العاهل الملكي في حلّه وترحاله. ويراقب الظواهر الطبيعية والكونية.

إن الرسومات البالغة الجمال الى تزدان بها مقبرة رخ مي رع وتبعث الحياة في عالمه، بفضل أشكالها وألوانها النضرة، تكشف في الوقت نفسه عن أنشطته بصفته السيد العظيم الواسع الذراع. إن المتون التوضيحية التي ذيلت بها هذه الرسومات جليلة الفائدة.

كان رخ مي رع يستيقظ مبكراً ويتلقى عرائض الفقراء، لحظة خروجه من منزله عند مطلع الفجر:

إنه يخرج مع طلوع النهار لأداء الشعائر الدينية اليومية والإستماع إلى مظالم الشعب والإصغاء إلى عرائض مصر العليا ومصر السفلى. إنه لا يصدّ أحداً، أكان من سواد الشعب أم من كبرائه، ويُغيث التعساء، ويساعد من يرزح تحت حِمل ثقيل ويردّ الشر إلى من اقترفه(٩٢).

ربما كان أيضاً، شأنه شأن المصريين الذين عاشوا في ذلك الزمن، قريباً من الأرض السمراء يعشق الحياة وسط الحقول، محباً للريف. فنشاهده من خلال هذا

النص وسط الفلاحين وعلى مقربة من طيور محلّقة وبجوار قطعان من الماشية في المراعي:

«إنه يروّح عن نفسه وهو يشاهد الأبقار، والعمل في الحقول تسليته، فيتأمل الأعمال الموسمية في الفصل الجاف وفي فصل الإنبات[٩٣].

كان خبيراً في الشئون المالية، له شأنه. فالعديد من المشاهد المصورة في مقبرته تشير إلى أن تسليم الضرائب والرسوم وإسهامات مختلف المنتجات، يتم على أفضل وجه[٩٤]. إن صوراً حية كلها نضارة، لا تخلو من بعض الدعابات، ترسم صورة خلابة للوزير رخ مي رع، وهو يتسلّم نيابة عن الملك الجزية الواردة من الإمبراطورية. إنه يدخل إلى قاعة الإستقبال، يتقدمه الكتبة والخدم حتى...

... يتسلم جزية بلاد الجنوب، بالإضافة إلى جزية بلاد بونت وريتنو وجزيرة كريت، إلى جانب غنائم كافة البلدان الأجنبية التي ما برحت تجلبها أمجاد صاحب الجلالة من خبر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى[٩٥].

وعلى امتداد أربعة صفوف، تسير المواكب التي لا تنتهي، لدافعي الجزية محملين بمنتجاتهم ومواردهم النفيسة[٩٦]. إن مشاهد هزلية تساعد على تجنب رتابة المناظر التي تتتابع على وتيرة واحدة: إن قرداً واقفاً فوق قطعة خشب أبنوس يمسك نوبي، ويضع رجله فوق رأس هذا الأخير، في حركة ترمي إلى محاكاة شعيرة الحماية الطقسية. إن قرداً أخر، أخضر اللون يتسلق العنق الطويل لزرافة وردية اللون. وفي هذا الصدد نجد أن الألوان تبرز الجانب الفكاهي من اللوحة. وفي الغالب يتم مراعاة الأنماط العرقية. إن تنوع الأزياء المبرقشة، تُحوّل مشهد تقديم الجزية إلى عيد فولكلوري. أما الصف الخامس من هذه اللوحة الرائعة، فيصور تتابع الغنائم أي موكب الأسرى. ويُعرّف المشهد على النحو الآتي:

استصحاب زعماء بلدان الجنوب، ومعهم في آن واحد، أبناء زعماء بلدان الشمال وأفضل الغنائم التي أحضرها صاحب الجلالة من خبر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، من كل البلدان الأجنبية لتمتلئ المخازن، وليعملوا خدماً للقرابين

الإلهية، لأبيه أمون، رب عروش القطرين، حسبما وضع هذا الأخير مجمل البلدان الأجنبية فى قبضته، فى حين يترنح الزعماء تحت نعليه(٩٧).

كان رخ مى رع مسئولاً نشطًا عن إقتصاد مصر، وفضلا عن ذلك، كان يتفقد المشاغل ويسهر على حسن إدارة حرفيّى معبد آمون ويتسلّم الهبات المخصصة لخزينة الإله(٩٨).

وفى لحظات راحته، وهى نادرة ومحدودة بلا شك، كان يمارس رياضة القنص والصيد النهرى، ويقضى أوقاته فى لهو وبهجة. فيقيم الموائد العائلية أو الرسمية، وكان المصريون مغرمين على الدوام، بالاحتفال بالأعياد(*). فيجلس رخ مى رع فوق أريكة، بجوار زوجته مريت أى «*المحبوبة*»، ويلامس المصلصلات التى تقدمها له بناته، فى حين يُحضر له ابنه الزهور والفواكه التى قطفها من حديقته:

خُذ زهور اللوتسّ هذه، الواردة من حديقتك، لا تحرم نفسك منها. ليت حديقتك تمدّك أيضًا، بمختلف أنواع الفاكهة والنباتات النضرة التى تنبت فيها، حتى تشبع من كل ما تقدمه لك من أطعمة وحتى تتدفق عليك قرابينها. فليتوحّد قلبك بهذه الأزهار المتجددة، وعليك أن تتمتع بالجو المنعش الرطب فى ظلال أشجارها. افعل فيها، كل ما يرغبه كاؤك للزمن اللانهائى والزمن الأبدى(٩٩).

(الإنسان والحديقة متّحدان، كما تتحد حياة الإنسان بحياة النبات. ويتجددان إلى أبد الآباد على الطريقة الأوزيرية).

ويوجد عازف على القيثارة ضرير وموسيقيون، احتفاءً بعيد الطبيعة هذا. ويتعالى شدو الأغانى.

- وينشد ثلاثة مغنين معًا بصوت واحد:

فلتكن نسمة الشمال العليلة، من أجل أنفك. اتحد بالقرابين التى وهبها الملك

(*) وما زالوا. (المترجم)

والتى ترتفع فوق مائدة سيد الكون. ليت كاهك يرضى بها! أنت يا عمدة المدينة، يا من يمتدحه آمون...

- **العازف على القيثارة:**

فلتتألق هذه السنوات التى اختصك بها الله. ليتك تتممها وقد ألفت الثناء والمديح، وفى ازدهار وفرح. ليت صوتك يكون عادلاً، بينما تقع الهزيمة بأعدائك فى المكان الذى تتّحد فيه، بالزمن الأبدى وبالزمن اللانهائى.

- **العازف على العود:**

ليتك تقضى يومًا سعيدًا فى المديح والثناء! ليتك تقضى يومًا سعيدًا! وبالمثل يُكافأ شخص ممدوح، بأن يمضّى تمثاله (حرفيًا: صنوه) أيضًا، يومًا سعيدًا. أنت، يا عمدة المدينة، الذى ستبقى ذكراه عطرة حتى بعد انقضاء السنين[١٠٠].

تنطوى هذه النصوص وهذه الصور على قيمة مزدوجة: إنها تقدم لنا مشاهد من واقع الحياة، ولكن أصداءها ودلالاتها أكثر عمقًا. لأن غايتها ضمان أبدية أعياد الطبيعة هذه، فى إطار الحقول والحدائق بفضل سحر الصورة والكلمة. ومن ثم وبعد أن يحل الجسد المصنوع من الحجر محل الجسد الحقيقى من لحم ودم، ستبقى سعادة الأيام كما هى دون تبديل بفضل السحر.

القادة العسكريون البواسل

آمن إم حب، صديق الصبا للملك

إن آمن إم حب هو من أكثر عناصر الجيش الملكى بسالةً، ومن الذين نعرفهم أكثر من غيرهم. فقد نجح ذات يوم، فى إنقاذ حياة العاهل الملكى فى مستنقعات نهر الفرات القصية، إبان رحلة صيد لقنص الأفيال[١٠١]. كان ضابطًا فى الجيش وقائد حملَة الأقواس، ومن المعتقد أنه كان رفيق صبا لمن سيصبح تحوتمس الثالث. وبالفعل

فإنه يحمل لقب «*ولد الكاب*». ويدل هذا اللفظ الأخير، على المؤسسة المسئولة عن تربية أمـراء العـائلة المالكة إلى جـانب أولاد بعض أعـيـان البلد وأبناء أمـراء البلدان الأجنبية(١٠٢). وتأسيسًا على ذلك نزداد فهمًا للعلاقة الحميمة التى ربطت الرجلين والصفات المتميزة التى نُعت بها أمن إم حب:

النبيل الأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى، والصديق المحبوب وكاتم الأسرار المفعم بالبركة فى خدمة رب القطرين وأثير الإله الكامل، ورفيق الملك منذ أن كان فى عُشّه وأثيره منذ طفولته والقائم على رأس الأصدقاء والأول فى حاشية العاهل الملكى... فَمّ ملك مصر العليا وأذنا ملك مصر السفلى والمقيم فى قلب حورس فى قصره... فيرافقه أثناء سيره على الماء وعلى الأرض وفى كافة البلدان الأجنبية... لا يهجر رب القطرين فى أرض المعركة، عندما يدور القتال ضد ملايين البشر... الذى يدخل بمفرده إلى جوار الملك... الرجل المقتدر الساهر على رب القطرين(١٠٣).

هذه الصداقة المديدة وهذه العلاقة الحميمة فى المعارك، ربما دعّمهما أيضًا رباط شخصى آخر: فقد كانت باكى زوجة أمن إم حب «مرضعة» الأمير الطفل تحوتمس. وكما سبق أن لاحظنا، كان هذا اللقب شرفيًا، فى بعض الأحيان:

إنها المرضعة العظيمة لسيد القطرين وأثيرة الإله الكامل، صاحبة الرضاعة العظيمة الفائدة والثدى الرقيق والساعدين اللذين يحتضنان الإله الكامل(١٠٤).

إنهما شخصان كانا يعيشان فى ظل الملك.

وكما رأينا كان أمن إم حب متواجدًا، فى كافة حملات تحوتمس الثالث العسكرية. وعندما تربع ابن هذا الأخير أمنحوتپ الثانى على العرش، ظل أمن إم حب، يخدم العاهل الملكى الجديد ببسالة وإقدام.

كما تحتفظ مقبرته رقم ٨٥ فى الشيخ عبدالقرنة بوصف لمشاهد هادئة، وهو يتناول قسطًا من الراحة فى حديقته ويمارس رياضة الصيد فى مستنقعات النيل وشعوره بالبهجة والسرور وهو يستقبل نور الشمس.

إنه يخرج من المدينة ويتأمل آمون ويستقبل النور المتألق الذى يهبه قرص الشمس (آتون) دون توقف. إنه يرفّه عن نفسه فى المستنقعات، إنه يدخل إلى حديقته ويخرج منها، ليرطّب قلبه تحت أشجار الجميز. ويرتوى من ماء البحيرة ويستنشق عبير أزهار اللوتس الأبيض ويقطف أزهار اللوتس الأزرق[١٠٥].

تلك هى الحياة التى كان يعشقها المصريون، وإن كانوا محاربين أشاوس مرهوبى الجانب.

القواد العسكريون

بالحيلة والدهاء استطاع حجوتى أن يستولى على يافا[١٠٦]. ومن خدعته هذه، نشأت حكاية خرافية. وتتقاسم متاحف أوروبا ما تبقى من مقبرته(*): كأس من ذهب وإناء من الألبستر فى متحف اللوفر Le Louvre وأربعة أحقاق من الألبستر فى فلورنسا وجعران القلب مطعم بالذهب فى ليدن وخنجر فى دارمشتات Darmstadt بألمانيا. فالأشياء التى كانت مخصصة لمساعدته على استمرار حياته فى العالم الآخر تحولت إلى قطع معروضة فى المتاحف، ليشاهدها الزائر. يا له من ضرر مادى بل وأخلاقى، أساسًا فى حق «*الذى كان يحتل مكانًا فى قلب رب القطرين*» و«*الذى كان يملأ المخازن باللازورد والفضة*».

كان قائدًا عسكريًا تقيًا، فإلى جانب مناصبه العسكرية المرموقة، كان يشغل وظائف «*الأب الإلهى*» للإله أونوريس(**) فى مدينة ثنى القريبة من أبيدوس والعاصمة

(*) ربما كانت هذه الظاهرة من سلبيات توزيع آثارنا على متاحف العالم. فلا تسمح أن يلمّ المشاهد من نظرة واحدة شاملة، بما عثر عليه الأثريون فى مكان واحد. ومثال ذلك أن آثار توت عنخ آمون معروضة كلها فى جناح واحد من المتحف المصرى. فهل كانت تترك هذا التأثير بالإنبهار لو كانت موزعة على عدة متاحف. (المترجم)

(**) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم إنوحريت ومعناه «*ذاك الذى أعاد القصية*».(المترجم)

القديمة لملوك مصر الأوائل. ولكن التميز بين ما هو دنيوى وما هو روحانى ظاهرة حديثة.

أما ثانونى الذى حمل أيضًا لقب القائد العام، فقد كان أساسًا «كاتب الجيش». كان من كبار الضباط الإداريين ومؤرخًا رسميًا ومن خلصاء الملك. وعلى لوح حجرى عثر عليه فى مقبرته رقم ٧٤ يقدم وصفًا لمسار حياته المهنية:

لقد اصطحبت الإله الكامل، القيّم على الحقيقة والعدالة، ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع... لقد تمكنت من مشاهدة مآثر الملك البطولية وكل ما أنجزه فى كافة البلدان الأجنبية. فاقتاد زعماء بلاد چاهى أسرى إلى البلد المحبوب، وسلب ونهب كل مدنهم وقطع أشجارهم. لم يوجد بلد واحد يستطيع مقاومته. فأنا الذى جعلت الإنتصارات التى حقّقها، تغالب الأيام، لأننى دوّنت الأحداث كما جرت. كنت رفيق الإله الكامل وكاتم أسراره، وهكذا ضمنت رعايته على مرّ الأيام... لقد كتبت من أجله (تقريرًا) عن حملاته العسكرية العديدة...(١٠٧).

كان چوانڤيل(*) Joinville عصره بالنسبة لمصر. ولكنه اضطلع بالعديد من الأنشطة الأخرى:

حَشْد فرق المجندين. إحاطة كل رجل من رجال الجيش بواجباته... إعداد قوائم بالجنود والكهنة وعبيد وخدم الملك وكافة حرفيى البلاد والثيران والطيور والماعز(١٠٨).

ولما كان مكلفًا بفرض رقابته على أملاك الجيش وحسن مظهر أفراد الفرق العسكرية، فقد صوّر فى مقبرته موكبًا عسكريًا من «*الفرق الأجنبية*»: أربعة نوبيين يتقدمهم حامل العلم، وجميعهم بدناء، إبرازًا لقيمة العناية التى توفرها لهم الإدارة العسكرية. إن جوادًا رائعًا وردى اللون، يرفع فى أباء رأسه بعرفه الأصهب، لأن سلاح المركبات كان عنصرًا أساسيًا فى ميادين القتال. ولما كان اللون الوردى قد

(**) چوانڤيل: ١٢٢٤-١٣١٧. كاتب حوليات فرنسى. دوّن تاريخ حياة ملك فرنسا لويس التاسع الذى قاد إحدى الحملات الصليبية على مصر وأسره المصريون فى المنصورة. (المترجم)

دخل حديثا ضمن الألوان التي تستعملها، فرشاة الرسام المصرى، كان ينظر إليه كلون نفيس، تزدان به أيضًا بشرة النساء الجميلات وأبدان الفراشات. كان الرسّام المصرى رسّامًا إنطباعيًا، من جميع الجوانب.

كان ثانونى مكلفًا أيضًا باقتياد دافعى الجزية الأجانب ليمثلوا بين يدى الملك. وكان أيضًا:

عينى ملك مصر العليا وأذنى ملك مصر السفلى... والذى يمعن النظر فى القرص (آتون) *فى الأفق* (والمقصود به هنا الملك فى قصره)، *فى كل لحظة من اللحظات، لفرط تأثيره على قلبه... والذى أشاد به الملك بسبب نصائحه السديدة وتطبيق القواعد* (الصادرة) *عن إرادة صاحب الجلالة*(١٠٩).

واعترافًا بجميل العاهل الملكى الذى رقّاه إلى منصب رفيع، فإنه يشدو من أجله بترنيمة تذكرنا مضمونها وعباراتها بعصر الرعامسة، وكان أمرًا غير مألوف فى ذلك الزمن:

تحية لك، أيا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة. إنه مونتو، وأكثر الأمراء بسالة، إنه من يربط البلدان الأجنبية، وسيد الجند الشجعان (الذين يضاهى عددهم) *رمال الشطآن*(١١٠).

يظهر فى هذا النص لأول مرة لقب إضافى يلحق بلقب «*ملك مصر*»، إنه لقب إمبراطورى، فينعت الملك بعبارة «*شمس الأقواس التسعة*». إنه نتاج أيديولوچية التحامسة(١١١)، وسيعود الرعامسة إلى استخدامه فى إطار مادى وروحانى، أكثر شمولاً أيضًا.

العسكريون

كان أمن مس قائد حاملى الأقواس والمشرف العام على بلدان الشمال. وقد صوّر فى مقبرته رقم ٤٢ بالقرنة مشهدًا، هو فى المعتاد جزءًا من الأيقونوغرافيا

الملكية(١١٢): وهو استسلام قلعة محصّنة، وينحنى «زعيم *لبنان*» أمام «**آمن مس**»، ومن خلفه يُحضر بعض الرجال الهدايا إكرامًا للمنتصر، وهى عبارة عن إناء مزخرف زخرفة فاخرة وقطعة قماش وبعض الأحجار الكريمة وثورين. وإذا كانت الهدايا تفتقر إلى الغزارة، إلا أنها تعكس تنوع موارد البلاد. ويخرج المهزومين من قلعة على النمط السورى الواضح، بأسوارها المسننة وأبراجها الصغيرة. وفى مقدمة المشهد يسير الجيش المصرى بمشيته العسكرية ويمرّ الجنود حاملين البلطات والرماح والتروس. والغابات الباسقة تشكل خلفية المشهد. كوفئ **آمن مس** على خدماته الجسورة بتعيينه فى منصب المسئول عن أقاليم ريتنو فى الشمال، أى مهمة جباية الجزية لصالح الخزينة الملكية. ومما له دلالة أكيدة أن هذه المقبرة التى تخص عسكريًا، يغلب على رسوماتها اللون الأحمر، وهو لون القوة والقدرة، ولون الإله المحارب مونتو(١١٣).

وفى حياته فى العالم الآخر، سيجد **آمن مس**، أن الآلهة توفّر له كل ما يحتاج إليه طبقًا لأمنياته:

عسى رع، يمنحه أن يكون متألقًا فى السماء،

عسى جب، يمنحه القدرة على الأرض،

عسى حو، يمنحه كل الأطعمة،

عسى حعبى (النيل)، يمنحه ما بداخله فيشبع فى جميع الفصول،

عسى أوزيريس، يتصرف ليصبح فى مقر إقامته وفى حاشيته للزمن اللانهائى،

عسى حورس، يسمح بأن تعيش أنت، دون أن تُبعد من جواره، إلى الأبد(١١٤).

إن لوحًا حجريًا يحتفظ به متحف **اللوفر** Louvre (C 59) ولوحًا آخر فى متحف تورينو يحتفظان بذكريات قائد مركبة الملك الذى يحمل اسمًا رفيعًا هو **رو إن حقاو** أى «*أسد- الأمراء*»، كما يفتخر بأنه «*حامل علم الأسطول الحربى*».

أما «زعماء المجاى»، قوّاد الفرق النوبية، فكانوا أيضًا شخصيات عظيمة الشأن. نذكر منهم على سبيل المثال ديدو ومقبرته فى القرنة(*) وكان «*المشرف العام على البلدان الأجنبية فى غرب طيبة وقائد الفرق العسكرية لصاحب الجلالة وموفد العاهل الملكى فى جميع البلدان الأجنبية، من فرط ما كان مؤثرًا على قلب* (الملك). *لقد مُنح الذهب والمديح، بسبب ما أبداه من بسالة، لمرات عديدة*»(١١٥).

إن الطبقة العسكرية التى كان يُغدق عليها الملك أسمى المراتب والإنعامات، أخذ نجمها يعلو وتزداد أهميتها مع تعاظم الفتوحات. إن كوكبة من القواد البواسل كانت تعيش بكل تأكيد فى البلاط الملكى بالأقصر، بصفتهم رفاق العاهل الملكى الأوفياء.

كبار الكهنة وغيرهم من رجال الدين

ومن أبرز الشخصيات الدينية فى عهد تحوتمس الثالث، نذكر تحديداً كبير كهنة آمون واسمه من خپر رع سنب. لا شك أنه كان أيضًا أحد الخلصاء المقربين من العاهل الملكى.

كان جده حاپو ضابطًا فى الجيش وجدته ووالدته «مرضعتين ملكيتين». وإلى «قرابة النسب بالرضاعة»، أضيفت إليها بلا شك رابطة الزمالة فى سن الطفولة بمدينة الأقصر. كان فى بداية الأمر «أبًا إلهيًا» ثم «الخادم الثانى للإله آمون»، فهكذا ارتقى تدريجيًا فى اتجاه هذا المنصب المرموق فى سلم التراتبية الكهنوتية قبل أن يخلف حپوسنب فى منصبه كبيرًا للكهنة: كان من خپر رع سنب يخدم سيدين، فأخلص لهما بكل ما أوتى من وفاء: أولهما إله الكرنك وثانيهما الفرعون. إن نص تمثال من تماثيله يحتفظ به متحف القاهرة، فى الوقت الراهن، يوضح واجباته:

سن القوانين وتحديد القواعد وجعل الحقيقة والعدالة مفعمين بالبركات، من أجل آمون- رع، وإقامة كرامته على امتداد الشاطئين وهيبته على مقربة من الآلهة (الأخرى).

(*) وفى الخوخة تحديداً وتحمل رقم ٢٠٠. (المترجم)

الثناء على جلالته طوال النهار وإرضاء كائه يوميًا، والتعبد لوجهه الجميل، وتعظيم مجده في كل فصل من فصول السنة، لحساب ملك مصر العليا ومصر السفلى من خپر رع، محبوب آمون.

إقامة كافة الشعائر الدينية حتى نهايتها، والعمل بحيث يعرف كل شخص ما ينبغي عمله في معبد آمون الكرنك(١١٦).

ومن جهة أخرى، فمن المحتمل أنه لم يطلق عليه اسم من خپر رع سنب أى «عسى من خپر رع يكون مزدهراً»، منذ ولادته، ولكن في وقت لاحق إكرامًا للعاهل الملكي. كانت وظائفه المرموقة كهنوتية ودنيوية، في آن واحد. ففي مقبرته رقم ٨٦ في القرنة يمكن أن نقرأ النص الآتي:

النبيل الأمير الصديق المحبوب إلى حدّ كبير، الذى سعى إليه رب القطرين بسبب خصاله وارتقى به إلى دائرة الأصدقاء واختاره من بين مئات الآلاف، ورفع من شأنه، منذ أن كان طفلاً وأقامه ليحتل مكان الصدارة فى القصر. إنه حامل الأختام الملكى ومدير الخدمات الإلهية اليومية فى مصر العليا وفى مصر السفلى... مدير (كافة) الوظائف المرموقة فى (فى معبد آمون) والمشرف العام على بيت الذهب المزدوج وبيت الفضة المزدوج والمشرف العام على أشغال معبد آمون (المسمّى) «هذا الذى يرفع التيجان» ورئيس الأسرار المكنونة للإلهتين، أول خدّام آمون، إنه من خپر رع سنب الذى أنجبته نبتو، شقيقة الملك (فى الرضاعة).

النبيل الأمير محبوب الإله والصديق المرموق المرتبط بالقصر، فإليه امتد ساعد الملوك، إنه قلب الملك فى طول البلاد وعرضها، الذى يحصى كل ما هو كائن، ويُعدّ حصراً بكل ما هو موجود فى أرجاء مدن مصر العليا ومصر السفلى. إنه المشرف العام على شونة آمون المزدوجة، والمشرف العام على النسّاجين الملكيين فى الجنوب والشمال، إنه الأثير المفضّل عند الملك الكامل (أول خُدام آمون)، إنه من خپر رع سنب. النبيل الأمير وكاتم أسرار الملك، من أجل تشييد معالمه الصرحية ورئيس الحرفيين والمشرف العام على أشغال (معبد) آمون. «هذا الذى يرفع التيجان». إنه من خپر رع سنب، أول خدّام آمون(١١٧).

إنه رجل من طراز حپوسنب.

وتُصوِّره رسومات مقبرته وهو يزاول مهام وظائفه ويقتاد أمام الملك خمسة صفوف من دافعي الجزية القادمين من مناطق الإمبراطورية(١١٨).

القادمون من الشمال: أمير كريت ساجداً وأمير خاتي رافعًا يديه متعبداً، وأمير تونيپ مصطحباً ولده أمير قادش رافعًا فروض الولاء:

إنهم يحيون رب القطرين، ويسجدون أمام الإله الكامل، ويمجدون إنتصارات صاحب الجلالة. إنهم يتقدمون حاملين على ظهورهم كل منتجات بلاد الإله، من فضة وذهب ولازورد وفيروز وأحجار كريمة، من مختلف الأنواع، حتى يُمنحوا في المقابل نسمة الحياة(١١٩).

ومن القادمين من الجنوب يتسلم الملك «*ذهب صحراء كوپتوس ومعه في الوقت* نفسه ذهب كوش *الخسيس*، بصفته ضريبة سنوية».

إن من خپر رع سنب القائم على إدارة معبد آمون والمهندس المعمارى، يتفقد قطعان الماشية ويشرف على عمل الحرفيين في معبد الإله(١٢٠): من صوّاغ ونجارين وعمال جلود ومعادن، بينما ينجزون أعمالهم تحت بصر النظرات الثاقبة للكتبة المشغولين.

إنه يتفقّد ورشة أشغال معبد آمون وأعمال الحرفيين باللازورد النقى والفيروز النقى، التى أمر صاحب الجلالة بانجازها وفقًا لفكر قلبه، من أجل مباني أبيه آمون في الكرنك، لتظل راسخة ومزدهرة كما (ينبغى أن يكون) *عمل* (مقدّر له أن يقاوم الأيام) *للزمن الأبدى*(١٢١).

هكذا ستنبعث إلى الوجود الصروح وممرات الأساطين الفخمة والمسلات من بين الأنامل البارعة لعمال طيبة تحت إشراف كبير الكهنة.

إن كاهنا معمارياً وخادم آمون الثاني، اسمه پوى إم رع، مارس أنشطة مماثلة. كان يشغل منصبه منذ عهد حتشپسوت. إن نقوش مقبرته رقم ٣٩ في

الخوخة(*)، تصوره وهو يتسلّم هبات الإمبراطورية، من أجل معبد آمون: وهي الهبات الواردة من مستنقعات *آسيا* (من المناطق الواقعة قرب) دروب حورس *وواحات الجنوب والشمال*»[١٢٢]. إنه يزن أكوام البخور الضخمة ويحصي «*ثلاثة آلاف من النباتات الطبية بأنواعها المختلفة. ويقوم بحصر الأسرى الأحياء الذين عاد بهم صاحب الجلالة من معاركه المظفرة*».

وبصفته معمارياً، شارك على وجه التحديد سن موت و «چحوتي» في تجهيز وإقامة المسلتين الشامختين، في بهو أساطين تحوتمس الأول.

أما أمنحوتپ الذي خلف پوي إم رع في منصب خادم آمون الثاني وارتبط ارتباطاً كاملاً بمعبد إله طيبة، فقد كان مشرفاً عاماً على خزائن آمون ومشرفاً عاماً على شونة آمون المزدوجة. كانت بناته الأربع «*منشدات آمون*». وكرّست هذه العائلة نفسها لخدمة معبد الكرنك، وصُوِّر أمنحوتپ في مقبرته بالقرنة وهو يقدم للملك قرباناً من الزهور:

إنه يتقدم في سلام، حتى مكان وجود العاهل الملكي، حاملاً باقة من زهور آمون، رب عروش القطرين في الكرنك. «إن آمون يثني عليك ويحبك ويحملك على مغالبة الأيام. ليته يعطيك الحياة أيضاً والثبات والقوة والبسالة والنصر على شتى البلدان، ولتكن صيحتك، صيحة الحرب، في كافة البلدان الأجنبية، وفقاً لما يأمر به أبوك العظيم آمون، فتظلّ تحت نعليك[١٢٣].

كما يصطحب أمنحوتپ الملك لتفقد الأعمال الجارية في المعبد.

ولما كانت تستهويه مشاهدة لحظة الفجر الصادق المتألقة، كانت من أمنياته الجنائزية أن يتمكن من «*الخروج من المقبرة ليشاهد آمون عندما يشرق في* «روعة الروائع»[١٢٤] (معبد حتشپسوت الجنائزي).

(*) تل صغير يعترض الوادي، وجبانة الخوخة امتداد لجبانة القرنة، من جهة الشرق. (المترجم)

جدير بنا أن نلاحظ الإرتباط الوثيق، القائم بين الإدارة الملكية وإدارة معبد أمون.

كان نخت مين رئيس هيئة موظفى آمون، والمشرف العام على مخزن الإله، بالإضافة إلى مناصب الكاتب الملكي والمشرف العام على الشونة المزدوجة لمصر العليا ومصر السفلى، والمشرف العام على موقع النبيذ والمشرف العام على جياد رب القطرين.

ورث ابنه من خپر الجانب الكبير، من مناصب أبيه، وفضلاً عن ذلك، أضيفت إليها وظائف المشرف العام على شُوّن الإله والملك، كما كان من كهنة طيبة بصفته الكاهن صاحب اليدين الطاهرتين. ويرفع إلى الآلهة صلوات مؤثرة من أجل دوام حريته إلى الأبد:

إنه يقول: أيتها الآلهة التى تقيم فى السماء، والآلهة القائمة على الأرض وآلهة العالم السفلى. أيها الإلهان اللذان يجعلان سفينة رع تشق الماء بقوة دفع المجاديف ويقودان الإله العظيم إلى الأفق الغربى من السماء، ارفعى أقوالى إلى رب الزمن الأبدى، إنها صلاة خادم يثنى عليه سيّده. كنت على الأرض، من المقربين المفضلين لدى العاهل الملكى. ليته يتصرف الآن، بحيث أرقد فى مكانى فى الأبدية واتحد بمقرّى للزمن اللانهائى. ليته يهبنى أن أكون متألقًا فى السماء، قويًا على الأرض ومبررًا فى العالم الآخر. ليته يسمح لى أن أدخل إلى المقبرة وأن أخرج منها، على حدّ سواء، حتى انتعش بفضل ظلّك، وارتوى فى بِركتى، على مرّ الأيام، وأن يعود «الإخضرار» إلى جميع أعضائى، ليت حعپى يعطينى الأطعمة والقرابين والنباتات النضرة فى موسمها. سوف اتنزه فى حديقتى يوميًا، دون توقف، سوف يحط بائى على أغصان الأشجار التى زرعتها، واتمتع بالجو الرطب فى ظل أشجار الجميز وآكُل من ثمارها. سوف يكون الفم الذى اتحدث به ملكى، مثلى مثل خُدّام حورس. سوف أصعد إلى السماء، ثم أهبط ثانية على الأرض ولن يعترض أحد طريقى، لن يُبعد كائى ولن يُسجن بائى. سوف أبقى وسط المقربين المفضلين ووسط الأجلاّء. سوف أحرث الأرض

فى حقول البوص، وانضم إلى حقول القرابين[١٢٥] *ليتهم يخصّوننى بإبريق من الجعة وأرغفة الخبز الواردة من قرابين رب الزمن الأبدى. ليتنى أتلقى أيضًا وجبات وفيرة من اللحوم، على مائدة قرابين الإله العظيم*[١٢٦].

لا تكمن السعادة الأبدية فى الإقامة فى جنة قصية وخيالية، ولكن أن يعيش المتوفى من جديد، يومًا بعد يوم، اللحظات السعيدة التى عرفها على الأرض، وفقًا لحرية مطلقة وفائقة تتمتع بها حركاته. إن اللحظات السعيدة تعنى التنزه فى الحديقة والإنتعاش فى ظلال الأشجار الباسقة والمشاركة فى أعمال الحقول الإلهية، وأن يأخذ من الأكل كفايته. إن جنّات مصريى الأزمنة القديمة تعنى حياة يتوفر لها رغد العيش وحرية الحركة والنشاط.

وكانت مُتع الدنيا وملذاتها، على القدر نفسه، من الواقعية.

الاستمتاع فى بيته القائم فى طيبة بجوار منزل سيد الآلهة، ثم الذهاب إلى البيت الكبير.... ويروّح عن نفسه بالتطلع إلى كل ما هو جميل، وقضاء وقته فى أعمال إلهة الحقول، وعبور المستنقعات واستكشاف الأعشاش والترفيه عن نفسه بطعن الأسماك بالخطاف[١٢٧].

كان من خبر بن مين (أو نخت مين) رجلاً بسيطًا وحكيمًا بطبيعة الحال. ولكن ملذاته ومسراته الطبيعية، تشبه مثيلتها عند عامة المصريين، فيعشق الجمال والإنسجام والوقائع الملموسة. كان شاعرًا أكثر منه فيلسوفًا.

كان أمنحوتپ أحد أبناء نخت مين الآخرين وأخا الآخرين وأخا من خبر إذن، «*الابن الملكى الأول للإله آمون*». ويشير هذا اللقب إلى قائد الموكب الإلهى الإحتفالى[١٢٨]. كما كان ملحقًا بالشعائر الجنائزية الخاصة بالراحل تحوتمس الأول. كانت العائلة مستقرة تمامًا فى طيبة، فتقدم خدماتها للإله والملك.

كما تميز بعض الشخصيات الدينية الأخرى، مع انتسابها إلى فئات أخرى من الكهنة، غير كهنة الإله أمون القوى.

كان مين من مدينة أبيدوس، أمير مدينة ثنى(*) والواحة ويشغل منصبى حامل أختام ملك مصر السفلى وكبير كهنة الإلهين أونوريوس وأوزيريس. كان ابنه خادم الإلهة - العقرب سرقت. ويلحّ موضوع ثابت فى جميع هذه المقابر الطيبية، فنلاحظ إصراراً على تكرار المشاهد نفسها التى تصور الملذات الإبيقورية(**). فيتأمل مين حديقته المزروعة نخيلاً وأشجار جميز، تتوسطها بركة فسيحة، تعطرها أزهار اللوتس وتسبح فيها الأسماك. إنه يتناول الأزهار التى يقدمها له ابنه، ويسعى إلى التمتع بالمسرات المفيدة نفسها، التى سعى إليها الآخرون:

الإستمتاع بقسط من الراحة فى حديقة الغرب ومشاهدة كافة النباتات النضرة... وعبور المستنقعات واستكشاف الأعشاش والترويح عن النفس بطعن الأسماك بالخطاف(١٢٩).

إن ما سبق لا يعتبر صيغاً جاهزة تم نسخها، أو مشاهد أعيد نقلها، ونذكر على وجه التحديد التصاوير الكلاسيكية عند القيام بصيد العصافير بعصا الرماية وسط نباتات البردى أو الصيد النهرى بواسطة الخطاف. ولكنه تعبير عام عن وجه من وجوه اللهو البدنى، والترويح عن النفس، كما يستشعرها كل فرد حتى الأعماق.

كان مين أحد الذين يشرفون على تعليم وتربية الأمير الشاب الذى سيصبح فيما بعد أمنحوتب الثانى. وقد علّمه تحديداً رياضة الرمى بالقوس. وعلى سطح أحد جدران مقبرته رقم ١٠٩ فى القرنة، صُوِّر فى مشهد بعيداً عن أى تكلّف وقد أجلس الطفل الملكى على ركبتيه.

أما سن نفر الهليوبوليتانى فقد كان كبير كهنة آتوم و«منسق أعياد آتوم». وإلى

(*) لم تحظ هذه المدينة بأى عمل من أعمال التنقيب، ويعتقد أنها تقع على مقربة من مدينة جرجا أو أسفلها.

B. Midant - Reynes. Aux origines de l'Egypte. Fayard, 2003, p. 130. (المترجم)

(**) نسبة إلى الفيلسوف اليونانى أبيقور (٣٤١ - ٢٧٠ ق.م). دعا إلى الاستمتاع بالملذات المعنوية.(المترجم)

جوار العاهل الملكى كان أيضًا «حامل الأختام والمشرف العام على الشونة المزدوجة والمشرف العام على صحارى ذهب آمون».

كانت مغامرة حياته، هى الرحلة التى قادها إلى بيبلوس، بناء على الأوامر الصادرة من فرعون، لإحضار خشب الأرز المطلوب لإقامة الساريتين الباسقتين فى معبد الكرنك. أما المدونة التى أمر بنحتها حول هذا الموضوع على جانبى باب من أبواب مقبرته فى القرنة فقد أصابها للأسف تشويهًا شديدًا(*).

مدراء طيبة

آمن إم حات، الكاتب

كان آمن إم حات كاتبًا مجداً، شغل مناصب «*المشرف العام على بيت الوزير* (أوسر) ومدير *كافة ممتلكاته*». كما كان «*الكاتب الذى يحصى غلال آمون فى شونة الإله، ورئيس هيئة موظفى آمون*».

كان مولعًا بالتعرف على أنسابه، فدوّن فى مقبرته أسماء والديه وجده وجدته وزوجتيه. وبذل فى هذا العمل عناية ودقة تشهدان على مدى إرتباطه بأسرته. إن مقبرته رقم ٨٢ فى *القرنة*، من المقابر النادرة فى الجبانة التى زُخرفت فيها حجرة الدفن.

كان على ما يبدو، رجلاً قويًا مخلصًا لسيده الوزير الذى يشيد به فى نص صيغ بأسلوب منمق، وهو أشبه بتمرين أدبى لكاتب موهوب. ففى نظر المصرى القديم،

(*) تحمل مقبرته فى الشيخ عبد القرنة رقم ٩٩. وهى خلاف مقبرة شخص آخر يحمل الاسم نفسه ورقمها ٩٦، وتعرف بمقبرة العنب وعاش صاحبها فى عهد أمنحوتپ الثانى، وسيشار إليها فيما بعد فى الفصل السادس. (المترجم)

كان جمال النص أو المشهد المصور، على حد سواء، يتألف فى المقام الأول من التوازن الصارم لعناصره المكونة والتوافق والإنسجام التشكيليين والسمعيين للعبارات.

تحدّث قائلاً: أنا خادم ورفيق مخلص لسيده، وصاحب قلب بارع ينفّذ ما يقوله. لقد وضع بيته بأكمله فى معيتى. إن صواب ختمه يعود إلى نصائحى. أنا إنسان فطن، عند إعداد حصر بممتلكاته، ساهر على حسن إدارة أشغاله.

وفى ثلاث فقرات منظومة يبدأ آمن إم حات فى استعراض الأنشطة المواتية للوزير أوسر فى خدمة الملك والآلهة والبشر:

إن عمدة المدينة(*)، الوزير أوسر، يؤدى الطقوس الشعائرية، من أجل الكا الملكى الحىّ على مدار كل يوم من الأيام. إنه يرفع ماعت نحو سيده، (ماعت) التى ما برح صاحب الجلالة يحبها، فى كل لحظة من اللحظات. ففى كل ساعة من الساعات، يشار إلى أفعاله المباركة.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، يؤدى ما تنشده الآلهة جمعاء. إنه يخلق القوانين التى تؤسس القاعدة ويشيّد المعابد وينظم قرابينها ويوّرد أطعمتها ويقدّم لها ماعت التى ما برحت تحبها.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، يؤدى كل ما يرغبه الشعب، ويستشير الرقيق الحال والمقتدر، على حد سواء، ويحمى الأرملة التى بلا عائلة ويلطّف قلب العجوز الطاعن فى السن. ويقيم الصبية على مقعد الآباء، ويسمح أن تظل البلاد بأسرها فى سلام.

وبعد ذلك، تروى ست فقرات منظومة الأعمال البارعة والبنّاءة التى قام بها الوزير بمشاركة آمن إم حات.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، قد أعدّ عددًا من الأشياء للقصر الملكى، وهى من فضة وذهب ولازورد وفيروز وأحجار كريمة من مختلف الأنواع، فضلاً عن أوان

(*) نيوت بالمصرية القديمة وهى من أسماء طيبة. (المترجم)

من فضة وذهب ونحاس وبرونز وأثاث من العاج والأبنوس وخشب الصندل. وعُبد الله من أجله، بسبب ذلك. أما أنا، فكنت مشرفًا على هذه العمال.

إن عمدة المدينة، الوزير أوسر، قد صنع عدداً من التماثيل للقصر الملكى، وهى من الفضة والذهب والنحاس والبرونز والأبنوس... ومن كل حجر صلد.... أما أنا فكنت مشرفًا على هذه الأعمال.

وفضلاً عن ذلك، فقد صنع هذا النبيل العظيم لنفسه، عددًا من التماثيل من النحاس والبرونز وكافة أشكال الخشب الثمين، لتقام فى معابد آلهة مصر العليا ومصر السفلى، وكنت أنا المشرف على هذه الأعمال.

وأعدّ هذا النبيل العظيم لنفسه، حديقة كبيرة هى آية من الجمال، تقع إلى الغرب من مدينة الجنوب(*)، فيها أشجار رائعة حيث تنبت أطيب الخلاصات العطرية... أما أنا فكنت مشرفًا على هذه الأعمال.

وأعدّ هذا النبيل العظيم لنفسه مقبرة كبيرة، رائعة الجمال فوق التل الصخرى بالأرض المقدسة وكانت جدرانها الخارجية الشامخة ملوّنة... أما أنا فكنت مشرفًا على هذه الأعمال[١٣٠].

أما نص الفقرة السادسة المنطوقة، فهو مشوه تشويهاً بالغًا.

كان يحلو للنبيل آمن إم حات أن يؤلف نصوصاً فى أسلوب منمق.

ويقدم لنا أمنياته عن الأبدية، فى هيئة قصيدة أيضاً:

سوف تدخل إلى الغرب وتخرج منه. وبخطوات واسعة، سوف تعبر باب الدوات. سوف تعبد رع عندما يشرق فى تله وتقدم له الشكر والعرفان، عندما يغرب فى أفقه. سوف تتلقى القرابين وتأخذ كفايتك من الأطعمة (المكدسة)، فوق مائدة قرابين سيد الزمن اللانهائى.

سوف تتنزّه فى كل مكان تشتاق إليه، عند الأطراف السعيدة من حديقتك،

(*) نيوت رسيت بالمصرية القديمة وهى أيضًا من أسماء طيبة. (المترجم)

ويبتهج قلبك (لرؤية) أشجارك، وتنتعش في ظلال أشجارك، (أشجار) الجميز. سوف تكون نفسك في سلام، بينما ترتوي من ماء البئر التي أقمتها. وذلك للزمن الأبدي والزمن اللانهائي. سوف تفتح تلال الجبانة وتشاهد من جديد بيتك، (بيت) الأحياء وتسمع الأصوات والأغاني والموسيقى القادمة من بابك الكائن على الأرض، وتؤمّن حماية أولادك للزمن الأبدي والزمن اللانهائي(١٣١).

هذا التسكع الأبدي والسعيد عبر أرجاء الكون، وفي العالم العائلي على سطح الأرض، هذه الرحلة المفتوحة الخالية من أية قيود، المتجددة على الدوام، تنتقل من السماء إلى الأرض ثم إلى الجبانة، إن هذا العود الأبدي إلى أحضان أفراد العائلة، هو المستقبل الذي يتطلع إليه نخت مين أو مين أو آمن إم حات، فضلاً عن كافة المصريين الآخرين.

أنتف، الأمير والموفد العظيم

إن المقبرة رقم ١٥٥ في جبانة دراع أبو النجا تخص «*أنتف، أمير مدينة ثني ورئيس كافة الواحات وكبير موفدي الملك وحامل أختام ملك مصر السفلى وكاتب الحسابات*». وفي هذه العائلة، كانت وظيفة الكاتب يورثها الأب إلى ابنه أو إلى أخيه، ولكن كان أنتف على ما يبدو، ممثلها الأكثر شهرة.

إننا نعرف الأنشطة الهامة التي كان يمارسها هذا الشخص بفضل لوح حجري كبير، هو من مقتنيات متحف اللوفر (C26) في الوقت الراهن، ويحيطنا نص أنتف علمًا بمقومات منصب «*موفد الملك*». إنه عظيم الفائدة وفريد في بابه تقريبًا، ولكن هذه المعلومات أقل دقة ووضوحًا من نص الوزير رخ مي رع الذي قدّم لنا وصفًا لأعباء منصبه.

إنه النبيل، الأمير، حامل أختام ملك مصر السفلى والصديق الأوحد وكاتم أسرار الملك في قيادة الجيش والذي يجمع القضاة والجنود ويحصر الأصدقاء ويتقدم النبلاء ويصطحبهم ويقيم كبراء البلاط الملكي في أماكنهم. إنه أقوى الأقوياء ومرشد

ملايين البشر ورئيس أرقى الوظائف وأرفعها. إنه صاحب المقعد الأول والحاذق المحنك في حضرة (صاحب الجلالة) والذى يسجّل كلمات سواد الشعب، ويبلّغ عن أوضاع الشاطئين وأحوالهما ويتبادل أطراف الحديث في المكان السرّى، ويدخل حاملاً عدداً من النباتات ويخرج محاطاً بالمديح، ويقيم كل امرىء على مقعد أبيه، ويجعل القلب هادئًا وديعًا ويثنى على المقربين المفضلين، ويدفع الكبراء إلى النهوض عندما يتحدث، ويضمن حسن سير الأمور في قاعة المحكمة، ويحدد القاعدة في القصر الملكى ويخبر كل امرىء بواجباته ويوزع الهدايا في القصر... ويهدئ الأصوات ويأتى بأسمى مراتب الشرف و«يحمي القدم» في مكان الصمت. إنه الخيط ذو الثقالة في ميزان الإله الكامل، والذى يرشد البشر إلى ما ينبغى إنجازه. عندما يقول ما يجب عمله، فإن ذلك يحدث على الفور، كما لو أن فم الله هو الذى تفوّه بهذه الكلمات. (إنه) يُصدر التوجيهات إلى سواد الشعب، حتى يمكن حصر ما تبقى من أعمال (مطلوب إنجازها)، من أجل الملك، كما يستدير ليواجه كل بلد أجنبى ويعين حكومة زعمائه. إن مشغولياته عظيمة الأهمية، عندما يُعدّ حساباته. (إنه) من يعرف ما فى قلب العاهل الملكي، وهو لسان حال المقيم في القصر وعينا الملك وقلب سيد المقر الرسمي ومصدر التعاليم للبلاد بأسرها. إنه من يكبّل الأعداء ويهدئ المتمرد... رجل قوى الساعد في مواجهة اللصوص، فيطبّق العنف على من يزرعونه، وقوى ضد الأقوياء. ويخفّض ساعد المتكبر (حرفيا: «من كان ظهره عاليا»(*). ويحطّم في (كل) لحظة الإنسان صاحب القلب القاسى (حرفيًا: الحاد). وبتصرفه يحمل الإنسان العنيف على تطبيق القاعدة والقوانين العادلة التى يمقتها قلبه. كما يتعاظم الرعب الذى يثيره في نفس المجرمين. إنه رب الخوف وسط أصحاب القلب السئ، والذى «يقطّع» الأعداء ويدحر المعتدين. (إنه) رخاء القصر ويسنّ القوانين ويُسعد الجماهير من أجل سيده، إنه الموفد الأول في قاعة المحاكمة(١٣٢).

(*) نذكر في هذا الصدد المثل المصرى الذى يدور حول المعنى نفسه: «من له ضهر ما ينضربش على بطنه». ويراد بالظهر هنا الرجل الحامى لغيره. ويقولون فلان له ظهر، أى له من يعتمد ويستند عليه. أحمد تيمور باشا. الأمثلة العامية. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص٥٦. (المترجم)

إن فيضًا من الكلمات والنعوت على الطريقة المصرية(*)، يعرِّفنا بمهام موفد الملك. إنه في آن واحد، المشرف على الإحتفالات ومنظّمها وكاتم أسرار العاهل الملكي والناطق بلسانه لدى الجهاز الإداري، في مصر وأقطار الإمبراطورية، كما أنه يحشد أفراد الجيش ويستدعي المحاكم للإنعقاد. فمن الواضح أنه كان المبعوث الفطن من قِبل فرعون.

بعد هذه المجاهرة بأبعاد وظيفته يعلن أنتف صفاته الشخصية وسجاياه ويروى بعض أحداث حياته المهنية:

أتاح لي قلبي إنجاز هذه المهام بفضل التوجيهات التي أملاها عليّ. كان بالنسبة لي شاهدًا مفعم بالبركة، ولم يحدث أبدًا أن تجاهلت ما قاله. بل كنت أخشى الخروج على خطة العمل التي رسمها. وهكذا ولهذا السبب كنت في غاية الإزدهار. كنت مفيدًا لأنه كان هو بعينه يوجه أفعالي. كنت فطنًا حاذقًا تحت قيادته.... فهاتف الوحي الإلهي يكمن في كل كائن. إن مستشاري هو الذي قادني على السراط المستقيم للعمل الناجز. أجل، هكذا كنت.

لقد اصطحبت ملك القطرين وتتبعت خطاه في بلاد الجنوب وبلاد الشمال. ووصلت إلى قمة الأرض والتحقت بها في أطرافها، بينما كنت «تحت قدميّ» صاحب الجلالة. كنت باسلاً مقدامًا ومن أرباب السيف. لقد غزوت باعتباري أكثر (جنوده) شجاعةً.... كنت أسير في مقدمة الجيش، (فكنت) الأول. وعندما يصل سيدي في سلام على مقربة مني، كنت قد أعددت (المعسكر)، وجهزته بكل الأشياء الطيبة التي يشتهيها المرء في بلد أجنبي، وزيّنته، فصار أجمل من قصر مصر، وطهّرته ونظّفته وجعلته سريًا وزخرفت أجنحته وجهزت كل حجرة بما يلزمها. لقد تصرّفت على هذا النحو، حتى يظل قلب الملك في سلام... وحصرت الجزية (المقدمة من) أمراء أركان البلاد وهي جزية من فضة وذهب وزيت وبخور ونبيذ[١٣٣].

وفضلاً عن ذلك، كان الموفد الملكي يتولى توفير كل ما يحتاجه الجيش الزاحف من إمدادات وتموين. فكان الشخص الذي يوكل إليه العاهل الملكي بكل المهام المادية

(*) مازال المصري المعاصر يحلو له ممارسة هذا اللون من الهوايات. (المترجم)

التى تضمن تصريف الشئون الإدارية على أحسن وجه والسهر على راحة المحاربين أثناء الحملات العسكرية.

لقد ذاع صيت موفداً آخر، فى خدمة فرعون وطبّقت شهرته الآفاق حتى وصلت إلينا.

آمو ـ نجح، المهندس والموفد والحاجب

عُثر مؤخراً فى حقول طيبة، وعلى بعد مئتى متر إلى الشمال الشرقى من أطلال معبد تحوتمس الثالث الجنائزى، على تمثال مكعب من الجرانيت الأسود، يخصّ آمو ـ نجح[١٢٤]، وكنّا نعرف هذه الشخصية من خلال مدونات مقبرته رقم ٨٤ فى القرنة. كان التمثال قد وضع فى هذا المعبد، بإنعام خاص من الملك ليشارك صيرورات فرعون. والتمثال موجود حالياً فى متحف القاهرة. أما صاحبه فتُعرفه النصوص على النحو الآتى:

رفيق الملك فى تنقلاته، المرتبط بخطوات الإله الكامل والذى لا يبتعد عن رب القطرين، فى ساحات القتال، فى كافة بلدان الشمال والذى عبر التيار العظيم (نهر الفرات) فى أعقاب صاحب الجلالة، لتحديد حدود مصر. إنه الموفد والحاجب الأول فى خدمة الملك وحارس الباب والذى يرضى رب القطرين بفضل نصائحه. إنه موفد الملك وصاحبه: آمو ـ نجح.

فى وسعنا أن نعيد صياغة سيرة حياته المهنية على وجه التقريب. وبالفعل فإن لوحًا حجريًا عثر عليه فى مقبرته، يروى لحظاتها البارزة. ومن الراجح أن الرجل قد ولد فى عهد تحوتمس الثانى وحصل على أولى امتيازاته، فى عهد تحوتمس الثالث:

إنه يقول: *رُقّيت لأول مرة إلى منصب مهندس فى خدمة رب القطرين فى العام* ١٥ (وذلك) *حتى العام...* (فجوة يؤسف لها، نظراً لأهميتها!)... *لقد تفقدت إقامة المسلتين الشامختين التى صنعهما صاحب الجلالة، من أجل أبيه آمون، لقد تفقدت إقامة...* (التى صنعها صاحب الجلالة) *من أجل أبيه آتوم، رب* هليوبوليس، عند مدخل *الصرح المزدوج الكبير الذى قام صاحب الجلالة بترميمه وذلك عندما كنت مهندساً.*

عندئذ رقّيت إلى منصب الموفد والحاجب الأول فى خدمة الملك، فى حضرة البلاد قاطبة. وكُلّفت بالعديد من المهام. وأقمت العدالة من أجل رب العدالة، لأننى كنت أعرف أنها كانت محل رضاه... لقد أنجزت ما كان يتطلع إليه البشر وما يثنى عليه الآلهة... لقد اصطحبت الإله الكامل فى مختلف بلدان الشمال الأجنبية، ولم ابتعد عنه فى ساحات القتال(١٣٥).

واشترك فى العام ٣٣ فى عملية عبور نهر الفرات. فصار عندئذ أحد المقربين من فرعون والمفضّل لديه:

إنه قلب رب القطرين والصديق الذى يقترب من الجسد الإلهى وعينا الملك وأذناه... الذى لا يسأم أبدًا من الأوامر الصادرة إليه، إنه الساهر ليلاً... الذى يؤتمن على الأفكار... داخلاً محملاً بالأشياء المفيدة إلى المكان الذى يتواجد فيه العاهل الملكى... إنه إنسان مستور الفم(*)*، فيما يتعلق بشئون الملك*(١٣٦).

وجمع بين عدد من الوظائف فعيّن أيضًا «*المشرف العام على الشونة المزدوجة لمصر العليا ومصر السفلى*». كما كان مكلفًا بتقديم حاملى جزية الشمال والجنوب إلى فرعون. كان رجلاً من رجال العاهل الملكى.

كان أمو - نجح صيادًا بارعًا يهوى القنص فى الصحارى. كان يعشق «*أن تطئ قدماه التلال ويستكشف الوديان ويروّح عن نفسه بتسديد السهام فى غزلان الصحارى*(١٣٧)». كما كان يحلو له ممارسة رياضته المفضلة فى مستنقعات الدلتا.

كان إنسانًا تقيًا ورعًا، يشدو إلى الشمس بترانيم آية فى الجمال. وقد احتفظ اللوح الحجرى الثانى الذى عثر عليه فى مقبرته على هذه النصوص الشعرية:

تحية لك، يا رع، يا سيّد الزمن الأبدى، أيها الأوحد المتفرّد، القيّم على الزمن اللانهائى، وأول من أتى إلى الوجود فلا ثانى لك أيضًا، أنت الذى رفع السماء وأقام

(*) نشير فى هذا الصدد إلى الأمثلة الشعبية التى تدور حول المعنى نفسه.

«اللسان عدو القفا» و«لولاك يا لسانى ما انسكّيت يا قفايا». أحمد تيمور. المرجع السابق. ص. ص: ٤٢٢ و٤٢٩. (المترجم)

رواسى الأرض. أنت الصبى الجميل الذى انبثق من نو والذى أخذ يعدو منذ يوم مجيئه إلى الدنيا. أنت الصقر الرائع المتجلّى فى تألقه فى الأفق فيحتفى به القطران بسبب توهّجه. يجوب مصر ويلتف حول الصحراء. إنه الطائر الجارح الذى أنجب الأقواس التسعة. تحية لك بلا وهن، لملايين المرات فى ساعة واحدة. من أجلك، تتجمّع الهتافات والتهاليل، على قدر عظمتك. لقد جعلت المرء يحصل على المعرفة بلا حدود. إنك تسهر فى سلام، والنور العظيم الذى جاء من تلقاء ذاته إلى الوجود ساهر، ويسمح للإنسان أن يمضى هادئًا سالمًا، فى روحاته.

إنى قادم إلى جوارك، أيا سيدى رع، إنى أعبدك، إنى أثنى على مجدك. المديح لك، أنت الذى ترضى بالبخور فى حضور نجم الليل، أيا رع، بجميع أسمائه، انصت إلىّ، إنى أتحدث إليك، حوّط قلبك بصلاتى، لا يوجد إله قط، ينسى مخلوقه. ونسمتك، نسمة الحياة، يستطيبها أنفى. أجل، إننى أقف مع الريح العليلة (المفيدة) لشئون القلب ومدائحى تظل فى القصر الملكى، طوال كل يوم من الأيام، لقد رافقت الأمير فى روحاته وغدواته، ولم ارتكب فى أى حال من الأحوال عملاً خسيساً. ويظل قلبى بجوار الله. أنا إنسان مزدهر القلب ومزدهر الفم ومزدهر اليد[١٣٨].

لقد ساهم غيرهم، والكثير غيرهم، فى الإرتقاء بالجهاز الإدارى فى طيبة، واحتفظ الدهر عن هؤلاء الآخرين بذكراهم، فوصلت إلينا، بفضل الصور والنصوص الواردة مثلاً فى مقبرة أصابها الدمار، إلى هذا الحدّ أو ذاك، أو على لوح حجرى أو تمثال. فنذكر منهم، نب أمون[*] المشرف العام على أملاك الملكة نبتو ونفر پرت الساقى الملكى وينر - ميروت (أى «الرقيق حبًّا»)، المشرف العام على بيتى الذهب والفضة والمشرف العام على مواقع أشغال العاهل الملكى والمتعبد لتمثال أبو الهول فى الجيزة، بعد أن صار حورس - فى - الأفق....

(*) وهو صاحب المقبرة رقم ٢٤ فى دراع أبو النجا. (المترجم)

إن شخصًا آخر يحمل اسم نب آمون قد خلف وراءه المقبرة رقم ١٧ فى جبانة دراع أبوالنجا وهى على قدر كبير من الأهمية. كان طبيبًا، سوف يواصل ممارسة عمله فى عهد أمنحوتپ الثانى، ومن المحتمل أن شهرته كانت قد طبّقت الآفاق، فيأتى الناس من بعيد لاستشارته، وبالفعل صُوِّر على الجدار الشمالى الغربى من القاعة الكبيرة من مقبرته، وصول سورىّ ميسور، حضر بلا شك ملتمسًا إستشارته الطبية. كانت أتعابه عبارة عن سبيكة نحاس وأوانى ومصنوعات فخارية وجرار نبيذ وأربع فتيات سوريات لخدمة نب آمون. وصُوِّرت فى الصف الأدنى، سفينة سورية من المحتمل أن طالب الإستشارة، قد جاء على متنها، إلى جانب مركبة يجرها ثوران. فهل كانت مخصصة للإنتقال على الطرق البرية بعد أن تلقى السفينة مراسيها فى الميناء؟ أم كانت هدية أخرى؟ ويبدو أن شهرة الأطباء المصريين كانت قد ذاعت، فى أركان الأرض.

الأفارقة

عند نهاية عهد تحوتمس الأول كان سينى المشرف العام على مدينة الجنوب والمشرف العام على الشُوَن - قد خلف تورى فى وظيفة «*الابن الملكى ورئيس بلاد الجنوب*» وهى الوظيفة التى ظل يشغلها فى عهد تحوتمس الثانى.

أما نحى فقد شغل بعد ذلك، منصب نائب الملك، ربما منذ عهد حتشپسوت، ولكن بكل تأكيد منذ عهد تحوتمس الثالث، واعتبارًا من العام ٢٣ من عهد هذا الملك على ما يظن، أى منذ بداية تسلمه الفعلى لزمام السلطة، وعندما أقام فى وادى حلفا مدونة النصر، ولا ندرى، كم من الزمن على وجه التحديد ظل يشغل هذا المنصب، ولكن لعدد كبير من السنوات، بالنظر إلى العدد الضخم إلى حد ما، من المعالم الصرحية التى تحمل اسمه(١٣٩). كان نحى فى الأصل كاهنًا مرتلاً فى خدمة آمون وهى الوظيفة التى شغلها أيضًا ابنه. وكان نواب الملك يُختارون من بين رجال الإدارة أو الكهنة، وفقًا للإرادة الملكية.

ومن أسوان وحتى جزيرة صاى وفى مصر ذاتها، على حد سواء، يشير العديد من المدونات إلى اسم نحى.

إن نصاً من صاى الواقعة بين الجندلين الثانى والثالث لنهر النيل، يذكره على النحو الآتى:

الرجل القوى الفطن المنتسب إلى رب القطرين، لا أحد يستطيع أن يقف أمامه(١٤٠).

كان موظفًا إمبراطوريًا يحضر سنويًا إلى طيبة، ومعه الموارد النفيسة من أراضى الجنوب. ومن جديد صُوِّر موكب حاملى الجزية النوبيين والسودانيين فى المقصورة رقم ١ التى أمر نحى بتشييدها فى قصر إبريم إلى الشمال من الجندل الثانى:

أنا الخادم المفيد لسيده والذى يملأ بيته بالذهب ويضىء وجه الحورس، بفضل منتجات بلاد الجنوب، (أنا) صاحب المدائح التى ترتفع فى حضور ربه(١٤١).

كما أن مدونة فى معبد سمنة تكشف عن أمر ملكى صادر إلى نائب الملك:

يُصدر الملك أمره إلى الابن الملكى نحى، المشرف العام على بلاد الجنوب، بأن ينقل بالسفن حجر بلد شاعت... على متن الصنادل، لإعادة تشييد معبد من أجل أبيه ديدون القائم على رأس النوبة – وكان هذا المعبد قد شيِّد فى السابق من الطوب وتهدَّم الآن(١٤٢).

إن هذه الوحدة الروحية بين الآلهة المصرية والنوبية واضحة للعيان فى تصوير منحوت على الجدار الشمالى من مقصورة نحى فى قصر إبريم. فأمام آمون - رع المتربع على عرشه فى عظمة وجلال، يقف صف من سبعه آلهة «إقليمية»: «حورس رب ميعام، الإله العظيم سيد السماء» و«حورس رب بوهن، الإله العظيم سيد مصر العليا» و«حتحور سيدة إيبشك» (أو غرب فارس بشمال وادى حلفا) المقيمة فى إلفنتين و«حورس سيد باك» و«خنوم(*) سيد الجندل»(؟) و«ساتيس(*) سيدة إلفنتين» و«أنوكيس(*) القائمة على جزيرة سهيل، سيدة السماء وسيدة القطرين(١٤٣)».

(*) لمزيد من التفاصيل راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى. دار المستقبل العربى، ٢٠٠١. (المترجم)

وباختصار فإن هذه الآلهة يجمعها واقع الجوار وتوحّد بينها رابطة إمبراطورية، يقف على رأسها ملك الآلهة، آمون - رع.

لم يُعثر على مقبرة نحي. ولكن عدداً من الشواهد يرجّح وجودها في طيبة: فقد عثر له على تمثال في الدير البحري[١٤٤]، وتم الكشف عن تمثال أوشبتي[١٤٥]، خلف الرامسيوم يحمل اسمه[١٤٦].

كان تمصير بلاد النوبة قد قطع شوطًا كبيراً. وفي عام ١٩٥٥ وبناء على توجيهات چان ڤيركوتير Jean Vercoutter جرت أعمال التنقيب في موقع غرب دبيرة على بعد عشرين كيلو متراً شمال وادي حلفا. وتم الكشف عن مقبرة منحوتة في الصخر لصاحبها چحوتي - حوتپ أمير بلدة سيرة(*)[١٤٧]. وفيما نعلم، فإنها المقبرة الوحيدة المزخرفة في النوبة وتعود إلى الأسرة الثامنة عشرة. ونعرف هذا الشخص من خلال قطع أثرية أخرى: إنه تمثال عثر عليه في بوهن وجزءان من لوح حجري. كما كان أبوه أمير سيرة. هل كان مصرياً ضابطًا يقيم في الجنوب، وكان نوبياً متمصراً؟ إن الفرضية الثانية هي الأقرب إلى الصواب.

كان معاصراً للحكم المزدوج للملكة حتشپسوت وتحوتمس الثالث. وبالفعل فقد كان «القائد المقدام لسيدة القطرين». ولكن من بين الأمنيات التي أبداها، رغبته في الحصول على *«الحظوة والحب والشهرة، في حضرة العاهل الملكي، وعلى الحياة المديدة* بصفته *رئيس الأجنحة الخاصة بالملك»*. ويبدو أن تحوتمس الثالث كان يُنظر إليه منذ ذلك الزمن، بصفته الإله المتربع على العرش. ويطلق عليه عبارة *«الإله العظيم في بلدة سيرة»*. وهذا يفسّر تقديم القربان التقليدي في هيئة باقة زهور، إلى العاهل الملكي، وهو الموضوع الثابت الذي يُصوّر أيضاً في أغلب مقابر طيبة:

تقبّل باقة زهور حور أختي هذه. ليت الإله يثني عليك ويحبك ويمنحك طول الحياة... ليته يعطيك البسالة والنصر على كافة البلدان.

(*) تبعد ٢٠ كم شمال وادي حلفا. (المترجم)

وقد نلتقى بمشاهد الحفلات الموسيقية والرقص ومشاهد الولائم، فى أية مقبرة من مقابر طيبة. فالمواضيع والألوان والأسلوب واحدة. أما مشهد الحديقة بمشتل النباتات ورىّ الأشجار، فهو فقط الذى يستحضر المَنظر الطبيعى النوبى، ويذكّرنا به.

كل ذلك يبرهن على أن رجال الجنوب، ومنذ عهد تحوتمس الثالث، وبعد أن اتخذوا لأنفسهم أسماءً مصرية، كانوا قد استوعبوا أعراف وعادات وتقاليد عاصمة البلاد، فاندمجوا إذا صح التعبير فى الإمبراطورية، ولكن هذه المقولة سليمة وصحيحة بالنسبة للنوبة(*). أما كوش(**) فقد ظلت أكثر معاندة وصعبة المراس.

٤- الفن والخلود

الفن فى مصر خط دفاع لمقاومة الموت. إنه زخرف مهيب وسحرى غايته البعث واستعادة الحياة. إن المعالم الأثرية الشامخة من معابد أو مقابر، هى بيوت لملايين السنين أو الأبدية، خصصت للآلهة أو البشر. إنها تحمى الحياة التى تولد من جديد إلى أبد الآباد. إن المنحوتات وفنون الرسم تقدم أغلفتها، وهى من حجر أو ألوان، لفائدة العناصر الحيوية للكائن المتطلّع إلى استعادة الحياة، فيولد من جديد. فالتماثيل والنقوش والرسومات ليست أشياء ثابتة أو «لقطات فورية»، تصور لحظة بعينها، بل إنها مستودع عناصر كامنة، مهيأة لاستقبال الحياة فتنتعش بالحيوية، إستناداً إلى تصور روحانى للفن، له جذور متأصلة وعلى قدر كبير من التطور. كما أن الإسم الذى يطلق فى كثير من الأحوال على النحّات، خير شاهد على ذلك: فهو سى عنخ أى «*هذا الذى يعيد إلى الحياة*». فمع كل حركة من حركات منحاته أو إزميله، يستعيد العمل الأصلى الذى قام به الإله الخالق.

(*) أو واوات عند المصريين وهى النوبة السفلى. (المترجم)

(**) أو النوبة العليا وتمتد إلى الجنوب من الجندل الثانى. (المترجم)

في هذه الأزمنة التي شاهدت الفتوحات في البلدان القصية وعندما كانت المواد الأولية والأيدي العاملة متوفرة، كانت المباني الشامخة تُشيّد بأعداد كبيرة وتقف شاهداً على عظمة أمون - رع والآلهة الملهمة التي أوحت بتحقيق توجيه هذه الإنتصارات وكبرى مآثر العاهل الملكي وازدهار البشر. كان الفاتحون المصريون على الدوام بُناة نشطين، سواء في مصر أو في الأراضي الإفريقية، التي كانت تعتبر امتداداً طبيعيا للوطن الأم، ناحية الجنوب.

معالم مصر الصرحية

من المعتقد أن الكرنك في عهد تحوتمس[١٤٨]، كان يظهر للناظر إليه، في هيئة موقع عمل شاسع، فترتفع فيه المباني، ويعمل فيه عمال ينحدرون من أصول مختلفة، وينكبون على تشكيل المواد الأكثر قيمة. فأقيم صرحان جديدان عند المحور الشمالي الجنوبي للمعبد، هما الصرح السابع والصرح الثامن. ويتكون الصرح السابع من برجين من الحجر الرملي يكتنفان باباً من الجرانيت الوردي. إن سلّماً داخليًا يخترق كتلة الصرح، ليرتفع من قاعدة الواجهة الشرقية من البرج الشرقي ليصل إلى أعلى الصرح. ومن المحتمل أن ارتفاع الباب كان يصل إلى ١٣ متراً. ويمكن أن نشاهد على الواجهتين الجنوبية والشمالية للبرجين تحوتمس الثالث في هيئة ممجّدة وهو يذبح أعداءه[١٤٩]. وأمام دعامتي الباب أقيم تمثالان عملاقان ملكيّان من الجرانيت الوردي، وعلى قاعدتي التمثالين صُورت أشكال بيضوية مسننة تضم أسماء الشعوب المهزومة بما يتفق والأيقونوغرافيا التقليدية. فدّون النوبيون في الجانب الشرقي والآسيويون في الجانب الغربي. وأمام التمثالين الملكيين أقيمت مسلتان من الجرانيت الوردي أيضاً. إحداهما في إسطنبول في الوقت الراهن. أما الأخرى فقد تهشمت ويرقد حطامها على الأرض.

لا شك أن بناء الصرح الثامن قد بدأ في الفترة التي كانت فيها حتشبسوت «وصيّة» على العرش. وبعد وفاة الملكة قام تحوتمس الثالث بإزالة اسمها ليحل محله

اسم تحوتمس الثاني. وأقيمت ستة تماثيل ملكية عملاقة من الكوارتزيت الأحمر والحجر الجيرى أمام الواجهة. ومن الأمور الفريدة غير المألوفة، أن جداراً منخفضاً من الحجر الجيرى، مستدير القمة كان يحيط بالصرح عند قاعدته.

وكان جداران يربطان طرف جناحي الصرح الثامن بطرف جناحي الصرح السابع ليحددا مساحة فناء. ولم يحفظ لنا الدهر سوى جزء من الجدار الشرقى وفى حدود صفه(*) الأدنى.

وعلى محور المعبد الغربى الشرقى شيّد تحوتمس الثالث الصرح السادس فى الفناء الذى تكتنفه الصُفّات والذى أقامه تحوتمس الأول، وإلى الشرق من الصرحين الرابع والخامس. وقد شُيّد من الحجر الرملى. والنقوش التى يزدان بها الصرح تخلد انتصارات مجنّو، على البرج الشمالى، والإبقاء على شعوب الجنوب خاضعة لمصر، على البرج الجنوبى.

وفى مدونة العام ٤٢، المنحوتة فى الحجرة القائمة جنوب قدس أقداس الكرنك، وعلى الواجهة الخارجية من الجدار الجنوبى قام تحوتمس الثالث شخصياً، باستعراض مجمل المبانى التى نفّذها فى معبد آمون. إن هذا النص جزء متمّم لنص إختيار الملك من قبل آمون. إن المقارنة بين النصين ليست محض صدفة.

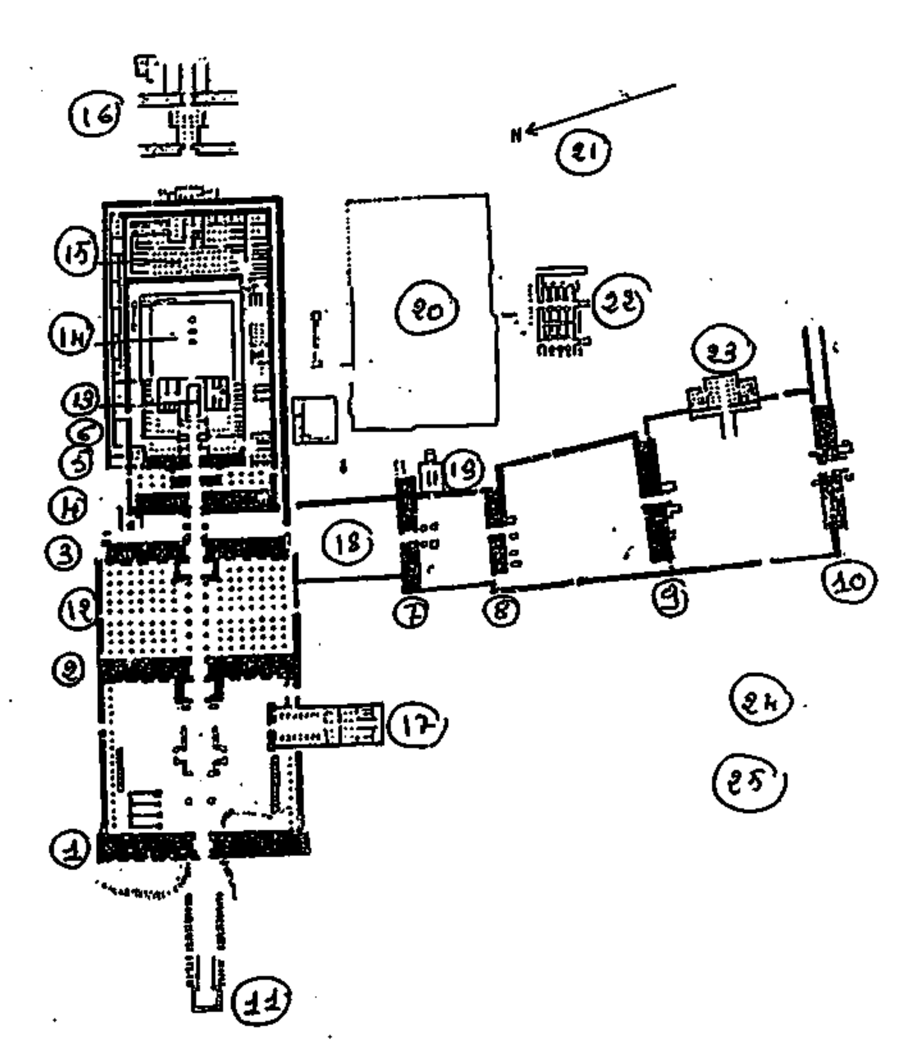
لقد أقام جلالتى معبداً (اسمه) «مقرّ قلب آمون». إن عرشه العظيم يشبه أفق السماء، وقد بُنى من الحجر الرملى الوارد من الجبل الأحمر، والداخل مُكفت بالذهب الخالص...

لقد أقام جلالتى ثلاثة أبواب. (اسم) الأول: «من خپر رع وآمون يتمتعان بمكانة مقدسة». والثانى: «إن حظوة من خپر رع ثابتة بجوار آمون». والثالث: «عظيم هو مجد من خپر رع وآمون». كانت (الأبواب الثلاثة) مكفتة بالذهب الخالص.

(*) الصف régistre: تقسيم أفقى فى الزخارف الجدارية المصرية، ينقسم بدوره إلى عدد من اللوحات. (المترجم)

بيانات معبد الكرنك

1 الصرح الأول
2 الصرح الثانى
3 الصرح الثالث
4 الصرح الرابع
5 الصرح الخامس
6 الصرح السادس
7 الصرح السابع
8 الصرح الثامن
9 الصرح التاسع
10 الصرح العاشر
11 المرسى
12 بهو الأساطين
13 مقصورة المركب المقدس
14 فناء الدولة الوسطى
15 الآخ منو (تحوتمس الثالث)
16 معبد رعمسيس الثانى الشرقى
17 معبد رعمسيس الثالث
18 فناء الخبيئة
19 معبد تحوتمس الثالث
20 البحيرة المقدسة
21 مساكن الكهنة
22 حظيرة الطيور
23 معبد أمنحوتپ الثانى
24 معبد خونسو
25 معبد أوپت



مسقط أفقى لمعبد الكرنك

(إن عناصر أية بناية تحمل جميعها اسماً محدداً. وهكذا كلما ذكر هذا الاسم كان يعنى ذلك بث الحياة فى الأمجاد التى يعبِّر عنها. وهذه الأبواب الثلاثة هى أبواب حجرة الحوليات بجوار منطقة قدس الأقداس).

ويفضلها كان بوسع ماعت أن تدخل... لتشيع أجواء العيد فى المبنى. كان (آمون) يبتهج بسبب العبادات التى تخصه. فأفعل ما كان يحبه. كما يتحَّد بصاحب الجلالة فى الحياة والقوة والسعادة للزمن اللانهائى.

كما أقام جلالتى صرحًا مقدسًا كان جزءًا من داخل المعبد (وهو الصرح السادس). كان مكفتًا بالذهب. وأقمتُ من أجله بابًا شامخًا مشغولاً بخشب الأرز النضر ومكفت بالذهب، ومغشى بالنحاس الأسود الصافى...(؟) والبرونز. والاسم العظيم (الذى كان مدونًا) عليه كان من الذهب الخالص والذهب المزدوج والنحاس الأسود...

كانت قواعد الأساطين من الذهب المزدوج، كما صنعت، لتشبه أفق السماء. كان ذلك أجمل من كل ما وُجد من قبل...

... ومقاصير من الحجر بأبواب من خشب الأرز النضر، لتضم تماثيل جلالتى فضلا عن تماثيل آبائى من ملوك مصر العليا ومصر السفلى.

تم توفير إحتياجات الأملاك المقدسة على نطاق واسع:

وأعدَّ جلالتى من جديد حديقة لتقديم مختلف الأزهار والنباتات النضرة والجميلة للإله. كما وهب جلالتى الحقول: ١٨٠٠ أرورا (حوالى ٥٠٠ هكتار)(*) لإنتاج القرابين الإلهية. كما وهبت فضلاً عن ذلك أملاكًا أخرى عديدة فى مصر العليا ومصر السفلى.

ووفرت لمعبده... وألحقت به الخدم والخادمات. وحشدت فيه أسرى من بلاد الجنوب والشمال: وهم أولاد زعماء ريتنو وأولاد زعماء خنت – إن نفر، وهو ما أمر به أبى آمون، رب عروش القطرين.

(*) أو ما يعادل ١١٩٠ فدانًا. (المترجم)

كما وهبه جلالتى أيضًا بقرات حلوب لتوفير اللبن الطازج على مدار، كل يوم من الأيام وخصّص (لله) أباريق من الفضة والذهب والبرونز، أعاد جلالتى صنعها من أجله...

كما قدّم له جلالتى أشياءً متعددة عظيمة الأهمية:

- إناء كبير من الذهب الخالص ارتفاعه سبعة أذرع....

- (مراكب)... من الفضة والذهب والبرونز والنحاس. كانت تتألق على صفحة الماء فيغمر لمعانها القطرين، وكأنها النجوم العالقة بجسد نوت.

- كان تمثالي ملازمًا لمائدة قرابين من الذهب الخالص...

لقد صنعت ذلك من أجله، وكأنه إبداع من خلق قلبى، تنفيذًا لتوجيهات الإله ذاته، وكأنه عمل (خرج) من بين يدى هذا - الذى - يقيم - جنوب - جداره (پتاح، راعى الصواغ والحرفيين). ولم يكن قد صُنع شئ مماثل من قبل، فى هذا البلد، منذ زمن الأجداد.

كما قدّم له جلالتى زلعتين كبيرتين من الفضة.... وصنعت من أجله العديد من قطع الأثاث المكفتة بالفضة والنحاس الأسود.... وقيثارة نفيسة مطعمة بالفضة واللازورد والفيروز وكافة أنواع الأحجار الكريمة الرائعة، حتى أتعبد لجمال جلالته إبان إشراقاته المتألقة وفى أسمائه(١٥٠)...

ما نشاهده اليوم فى **الكرنك**، ليس سوى هيكل عظمى من الحجر للمعبد فى زمن **التحامسة** الذى كان مهيبًا وضّاءً يتألق ذهبه ويتلألأ من غزارة بريق الفضة والبرونز والنحاس، وسطوع ألوان الأحجار الكريمة التى تغطى الصروح والأساطين ومقاصير قدس الأقداس والقطع المقدسة(*). كان معبد **الكرنك** بأشكاله(١٥١) وألوانه

(*) الزائر الذى يتجول فى أيامنا هذه، فى أرجاء **الكرنك**، إذا أراد أن يشحّذ خياله بهذه الرؤية، سوف يشهد معبداً جديداً، بُعثت فيه الحياة، فصار أشبه بما كان عليه، فى أوج إزدهاره. (المترجم)

مختصراً موجزاً للكون. كان «طريقًا» آخر تسلكه الشمس. وعلى الأساطين الأربعة التي أضافها تحوتمس الثالث إلى قاعة الأساطين(*)، أمر بتدوين الجملة الآتية: «*الكرنك ثابت ثبات السماء، على عُمدها الأربعة*». كل شئ هنا قائم على علاقات التماثل والتوافق والروابط الأسطورية، في إطار فكر يرى أن أعمال «*البناء والتشييد*» لا تختلف عن عمل الإله الخالق. فيُقبل المصري على محاكاة هذا الفعل الأخير، لتظل أيضاً المباني التي يشيدها أبدية تغالب الزمن، أسوة بعالم اليوم الأول.

كما تشهد أيضًا، على التوافق الذي ظل قائمًا بين الآلهة والملوك. فيقدّم آمون الشكر على كل هذه الروائع التي جعلت من الكرنك، أحد الأماكن المقدسة الأكبر والأكثر ثراء، على مستوى العالم:

مرحبًا، مرحبًا، في سلام، يا بنيّ الذي من صلبي، أيا محبوبي من خپر رع. إن قلبي سعيد بسبب الحب الذي تكنّه نحوي. إني أستريح في هذا الأثر الذي شيدته من أجلي، لقد جمّلت معبدي. إني أمنحك ميراثي على امتداد حياتك وبالقوة، فتستحوذ على القطرين بفضل القدرة، بينما تتجلى متألقًا مثل أبيك رع [١٥٢].

وإلى جوار معبد آمون – رع العظيم في الكرنك أقام تحوتمس الثالث معبداً أملى تصميمه مفهوم له سماته الخاصة. وأسماه آخ - منو أي «*البناء المتألق*». تم افتتاحه «*في اليوم الأخير، من الشهر الثاني، من فصل پرت*(**)، *من العام ٢٤، يوم العيد العاشر من أعياد آمون في الكرنك*»[١٥٣]، وذلك استنادا إلى النص الوارد على لوح حجري تذكاري. ويرى پول برجيه Baul Barguet[١٥٤] أنه معبد مخصص لتجديد العاهل الملكي وإحيائه. فيتصل شخص الملك إتصالاً مباشراً بأبيه آمون - رع الذي

(*) وهي بالطبع غير بهو الأساطين الذائع الشهرة الذي أقامه سيتي الأول ورعمسيس الثاني بين الصرحين الثاني والثالث. أما قاعة الأساطين المقصودة هنا، فتقع بين الصرحين الرابع والخامس. راجع:

J.C. Golvin et J.C. Goyon. Les Batisseurs de Karnak. CNRS. 1987. PP. 63-64(المترجم)

(**) وهو فصل البذر أو الشتاء. (المترجم)

يمدّه بجوهره الإلهى، فى مجرى الإحتفالات الدينية السرية التى تحدث إبان العيد سد، وهو العيد اليوبيلى الذى يمنح الملك بصفة دورية، القدرة على تجديد حيويته وشبابه(١٥٥). لقد أقيم هذا البناء إلى الشرق من المعبد الكبير، على المحور الشمالى الجنوبى، وهو إذا صح التعبير قلب القسم المخصص لأجنحة قدس أقداس الكرنك والذى تدور فيه الشعائر التى تقيم رابطة حميمة، بين الله والفرعون. وتسعى هذه المشاهد وهذه النصوص، إلى تخليد هذه العملية التى ترمى إلى إعادة النشاط إلى العاهل الملكى وإنعاشه، فضلاً عن تخليد هذه المشاركة مع الإله.

وأمام مدخل هذا البناء الشامخ، أقيم أسطوانان من الحجر الرملى ذوا ستة عشر ضلعًا، يطلق عليهما اصطلاحًا البروتودوريان(*) Protodoriques. ومن الباب ذاته، لم يتبق سوى العتبة، وهى من الجرانيت الوردى. وعلى الجانبين كان تمثالان عملاقان يصوران الملك مرتديًا الملابس اليوبيلية. وبعد أن يعبر المرء الباب، يصل إلى دهليز يفضى إلى حجرتين واحدة فى الشمال والأخرى فى الشرق. وعلى اليمين، أى جهة الجنوب، كان دهليز طويل يؤدى إلى تسع حجرات مخازن تزدان بمشاهد التعبد والقرابين. ونُحت نص مسهب فوق واجهة الحجرات الست الأولى. فبعد أن ينتهى الإله تحوت، الكاتب الإلهى، من قراءة مرسوم آمون – رع لصالح تحوتمس الثالث، على مسامع آلهة مصر العليا ومصر السفلى، بدأت هذه الأخيرة تردّ على ما قيل:

لقد حضرنا إليك، يا [سيد كلمات] الآلهة، القائم فى حسرت (مكان عبادة تحوت)، *لقد لحقنا بك بعد أن تحدثت إلينا، كما أننا سعداء الآن، لأنك استعنت بنا. لقد استمعنا إلى هذا المرسوم الذى أصدره آمون – رع لصالح ابنه من خپر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى،* محبوبه تحوتمس، *الحاكم الإلهى وحاميه الذى أشرق فى طيبة وخليفته الملكى له الدوام، إنه ابنه، الإبن البكر* (حرفيًا: هذا الذى فتح بدنه) *ووريثه الذى بلغ حد الكمال ورب القطرين من خپر رع. إننا نطهّر* مكان وجود صاحب

(*) مصطلح بروتودورى يعنى الطراز الدورى الأولىّ أو السابق عليه. والطراز الدورى من الطرز المعمارية اليونانية. (المترجم).

الجلالة، إننا نربط من خلفه حمايتنا السحرية، إننا نعبد جماله المتألق، إننا نجمّع من أجله كافة القرابين، تنفيذاً لمرسوم أمون لصالح ابنه من خپر رع للزمن اللانهائي(١٥٦).

الجدار الشمالي من الدهليز مزخرف بمشاهد تصور مختلف فقرات العيد اليوبيلي(*) وهكذا فمنذ لحظة دخوله هذه المقصورة، تتم مراسم تنصيب الملك وإضفاء القداسة عليه، بفضل الشعائر الدينية ومن قبل الآلهة.

يتكون وسط آخ منو من بهو كبير طوله ٤٠ متراً، نطلق عليه "بهو الأعياد". وقد شُيِّد بالكامل من الحجر الرملي. إن ٣٢ عموداً مربعاً تحيط به، لتشكل حدود صحن شاسع، يتكون من صفين من عشرة أساطين لكل صف، وترفع سواكف السقف. وتتخذ التيجان شكلاً مميزاً يحاكي أوتاد الخيمة(**). إن مكعّبًا يفصل التاج عن الساكف. ولأن السقف صورة من السماء، فهو باللون الأزرق ومرصّع بنجوم صفراء، فالنحاس هو المادة التي تتكون منها النجوم(١٥٧). إن مجمل الأعمدة والأساطين تقسم البهو إلى خمسة أروقة، ويرتفع سقف الصحن قليلاً مقارنة بسقف الجناحين الجانبيين ليلتزم بالتخطيط البازيليكي الذي سيسود في عصر الملوك الرعامسة(***)، وتعتمد الإنارة الداخلية على الكوات الجانبية التي فتحت قرب سقف الصحن.

تلتزم المشاهد المنحوتة باتجاه له وجاهته ودلالته. وبالفعل فإن المحور الغربي الشرقي للمعبد الكبير يقسم **بهو الأعياد** هذا، تقسيماً إفتراضيًا إلى قسمين، يتجه أولهما ناحية الجنوب والآخر ناحية الشمال. إنهما الإتجاهان الرئيسيان للنظام الملكي المصري ويقومان بدور بارز في المشاهد الطقسية. إن آخ - منو ليس بناية مستقلة عن المعبد الكبير. إنه إضافة مادية وروحية مكمّلة له.

وعلى الأساطين نحتت نصوص بعلامات هيروغليفية هي آية في الجمال. وتدب

(*) أو العيد سد. (المترجم).

(**) يطلق على هذه الأساطين مصطلح أسطون الخيمة، ومن أمثلتها الأخرى أساطين مركب خوفو في المتحف المخصص له خلف هرم فرعون مصر العظيم. (المترجم)

(***) لينتقل بعد ذلك إلى كنائس الغرب. (المترجم)

الحياة في مجمع الآلهة المصرية وتنادى بعضها بعضًا، لتنظر بإعجاب إلى عمل تحوتمس الثالث:

كلمات قالها تحوت إلى التاسوع الإلهى:

تعال لمشاهدة هذا المعبد الجميل، المتين، الكبير، المفعم بالبركة الذى أقامه من أجلك، ابنك المحبوب ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خبر رع.

كلمات قالها ملك الآلهة آمون ـ رع إلى التاسوع المقيم فى آخ ـ منو: تعال لمشاهدة هذا الأثر الجميل الطاهر الذى أقامه من أجلى ابنى الذى من صلبى، إنه محبوبى من خبر رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الذى خلقته، منبثقًا من أعضائى، المتفرد من بينكم، إنه ابن رع، تحوتمس حاكم طيبة، الذى جعل هذا المكان رائعًا، من أجل الآلهة، أعطوه الحياة والثبات والقوة، مثل رع، للزمن اللانهائى.

كلمات قالها التاسوع المقيم فى آخ ـ منو إلى آمون ـ رع، أول الآلهة:

يا لجمال ما صنعه من أجلك، ابنك المحبوب «من خبر رع – الذى – أنجبه – رع». لقد جَمل معبد أبيه آمون – رع بفضل أحجار طرة الجميلة البيضاء. هكذا صرت عظيما. أجعله يتجدد ليظل شابًا على الدوام، حتى يستطيع العناية بمعبدك والحفاظ عليه. أمنحه سنوات مديدة، مكافأة له، ليظل قلبه سعيدًا على عرش حورس مثل رع للزمن اللانهائى.

كلمات قالها آمون – رع ملك الآلهة (إلى العاهل الملكى):

أيا بنىّ المحبوب، أيا «تحوتمس – صاحب – الصيرورات – المتحدة»، الذى شيّد معبدى وجمّل معبدى بواسطة بناية كاملة الكمال. إنك ابنى، حامى آبائك، الذى يكرّم الأجداد الذين خلقوك، إنى أعطيك الحياة والثبات والقوة كلها، والإزدهار كله إلى جوارى، مكافأةً لك، مقابل هذا الأثر الذى سيدوم إلى الأبد والذى شيدته من أجلى. ليتك تظل تعمل وأنت على قيد الحياة، على امتداد الزمن اللانهائى[١٥٨].

إن مجموعتين من الحجرات الملحقة تكشف عن أيديولوچية راسخة الأركان: فالحجرات الواقعة إلى الجنوب الشرقى مكرسة للإله سوكر، وكان فى الأصل الإله

الجنائزى لجبانة منف. إنها مرتبطة بالعالم السفلى. وقد صوّرت مشاهد تشير إلى إحياء الملك بعد وفاته الإفتراضية والعابرة. وفى الشمال الشرقى، كُرّست الحجرات - الشمسية إلى أمون ذى العضو الذكر المنتصب، كشاهد على استعادة الملك حياته وتجديدها، على غرار ما يحدث للشمس، على امتداد دورات لا نهاية لها.

إن نصًا مشوهًا للأسف تشويهًا بالغًا، يؤكد على ما كان عليه هذا الأثر العظيم فى الأصل من روعة وبهاء. وما زال فى إمكاننا أن نقرأ أن الأبواب كانت من خشب الأرز والأعمدة والأساطين مغشاة بالذهب الخالص والفضة واللازورد والفيروز. حقًا لقد كان الكرنك «أفق السماء»، متألقًا بما يشع من ضياء.

وخارج معبد أمون - رع ولكن على المحور شرق - غرب نفسه، ويرتبط به إرتباطًا لصيقًا، أمر تحوتمس الثالث بإقامة معبد آخر ينفتح جهة الشرق، ويستند إلى جدار السور الذى شُيّد فى العام ٣٠. إنه معبد تحيط به الأساطين ويضم حجرة عند الواجهة وستة أعمدة أوزيرية تربطها الجدران، بالإضافة إلى ثلاث حجرات تطوق الناووس الذى قُطع قطعًا فى كتلة ضخمة من الألبستر ويظلّل تمثالين يجلسان جنبًا إلى جنب ومتصلين عند الكتف. إنهما تحوتمس الثالث الذى دوّن اسمه على عروة الحزام وأمون الذى فقد أعلى جزءه. كانت مسلتان شامختان تكتنفان هذا المعبد وقد شيدتهما الملكة حتشبسوت واغتصبهما تحوتمس الثالث.

وفى الكرنك أيضًا، وفور عودته من الحملة العسكرية الأولى، أمر العاهل الملكى بترميم معبد مكرس للإله پتاح يقع إلى الشمال من فناء الدولة الوسطى. أما الأعمال التى تم تنفيذها فيرويها لوح حجرى ضخم من الجرانيت الأسود ارتفاعه ١٥٠سم، عثر عليه فى المعبد ذاته ونقل إلى متحف القاهرة.

أمر جلالتى بإعادة بناء معبد پتاح - الذى - يوجد - جنوب - جداره والقائم فى طيبة، ويشكل «محطة» يتوقف عندها أبى آمون - رع، رب عروش القطرين، يوم «دخول الإله»، وإبان كافة الأعياد على مدار السنة، عندما يسير فى إتجاه كنوزه فى الجنوب.

لقد اكتشف جلالتى أن هذا المعبد الذى سبق أن شُيّد من الطوب وبأساطين

وأبواب من الخشب قد تهدّم. عندئذ أمر جلالتى بمدّ الطمار عليه(*) ليشيّد بحجر رملى أبيض جميل. أما السور المحيط به فهو من الطوب. إنه عمل صُمّم ليدوم للزمن اللانهائى. ومن أجله، أقام جلالتى أبواب من خشب الأرز النضر، ومن أحسن الأنواع الواردة من موانئ البحر المتوسط، وقد غُشّيت بنحاس آسيا. هكذا سيعاد تشييد معبد بتاح الجديد، على اسم جلالتى. لم يحدث أبدًا من قبلى، أن أُنجز مثل هذا العمل من أجله.

كما سمح جلالتى بأن يكون راسخًا متينًا. كما شيدته ضخمًا وأكبر مما كان عليه، من قبل. ومن أجله طهّرت عرشه العظيم المصنوع من الذهب الخالص ومن أفضل ما أخرجته الصحارى. كانت جميع الأوعية (المقدسة) من الذهب والفضة والأحجار الكريمة المتنوعة والرائعة. كانت الأقمشة من أرق أنواع الكتان الأبيض والأدهان ضمن ممتلكات الآلهة وذلك من أجل إقامة الطقوس الشعائرية، إبان الأعياد (عند الإحتفال) بمطلع كل فصل من الفصول، والتى كانت تقام من قبل فى هذا المعبد.

هكذا أمر جلالتى بأن يُسمح (للإله بتاح) بأن يأتى ليستفيد راضيًا بعرشه، وملأت معبده بكافة الأشياء الجميلة والطيبة بأنواعها(١٥٩).

وعلى البر الغربى من مدينة طيبة وفى مدينة هابو تحديداً، واصل **تحوتمس الثالث** بناء المعبد الذى بدأه جدّه **تحوتمس الأول** - بل ربما **أمنحوتب الأول**. وفى الوقت الراهن يتوارى المعبد جزئيًا خلف المبانى الشامخة التى أقامها **الرعامسة** فى وقت لاحق(**). إنه جزء من مجموعة أطلال تضاهى مثيلتها فى **الكرنك**، بما لها من وقع حسن فى النفس. إن تناسق البناية التى تحيط بها الأعمدة تناسق أنيق، وأبعد ما يكون عن الإبتذال. وتتكون أساساً من قدس أقداس، محاط برواق خارجى، يستند من ناحية الشمال إلى كتلة مكونة من ست حجرات صغيرة تعلو فوق ركيزة ارتفاعها ٧٧سم. وللرواق حوائط نصفية توفر فتحات فسيحة يدخل منها النور. وينتهى

(*) خيط يمدّ على البناء فيبنى عليه. المعجم الوسيط. (المترجم)

(**) وعلى رأسها معبد رعمسيس الثالث الجنائزية، المعروف إصطلاحاً بمعبد مدينة هابو. (المترجم)

التخطيط بحجرتين جانبيتين إضافيتين. وقد قام الملك **طهرقا** السوداني من الأسرة الخامسة والعشرين، بإضافة الفناء والصرح اللذين يتقدمان، في الوقت الراهن، هذه البناية. كان للمعبد سوره الخارجي الخاص الذي ضمه فيما بعد السور الخارجي الكبير الذي أحاط بمباني **رعمسيس الثالث** والذي يعلو السور الأول جهة الجنوب. كما قام **البطالمة والرومان** بتوسيع بناية **تحوتمس الثالث** التي كانت تحمل اسم *«آمون القائم على رأس المكان المقدس»*.

وفي مصر العليا وفي مصر السفلى على حدٍّ سواء، أكثر **تحوتمس الثالث** من المباني المقدسة والهبات النفيسة إكرامًا للآلهة. ففي **إلفنتين** أقام مقصورة من أجل آمون والإلهتين المحليتين **ساتيس**(*) و**أنوكيس**(**)، وأخرى من أجل الإلهة **نخبت** في **الكاب**. أما في **أبيدوس** فقد أكثر من القرابين المخصصة للإله **أوزيريس**، وزادها ثراءً. وفي **هرمونتيس** جنوب **طيبة**، فإن المعبد الذي كرّسه **تحوتمس الثالث** للإله المحارب **مونتو** كان معبداً مهيباً وينظر إليه باعتباره أضخم مباني عصره، وذلك إستناداً إلى العدد الضخم من المدونات التي تحمل اسم الملك. كما صُوِّر صرح المعبد في إحدى مقابر **طيبة**. وفي **كوبتوس** أقام معبداً من أجل **حور – نج – يت-ف** أي *حورس – المنتقم – لأبيه*، ومعبد في **هليوبوليس** *«من أجل أبيه أتوم»*. وفي العام ٤٧، *«أمر بإحاطة هذا المعبد بجدار سميك وعريض جداً وأن يكون بناءً متينًا وذلك من أجل أبيه رع – حور آختي»*(١٦٠). هكذا كان الفاتحون المصريون يخدمون الآلهة ويكرمونها.

معالم النوبة الصرحية

تتجلى الروابط المادية والروحية الوثيقة القائمة بين مصر وأراضيها الإفريقية في الجنوب، في إنشاء العديد من المعابد بعيداً، فيما وراء الجندل الأول، من نهر النيل. وفي هذه المعابد كانت تقام الطقوس الدينية نفسها، من أجل الآلهة المصرية والنوبية.

(*) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم سثت. (المترجم)

(**) التصحيف اليوناني للاسم المصري القديم عنقت. (المترجم)

وفى عمدا على البر الأيسر من نهر النيل، أمر تحوتمس الثالث بتشييد معبد «*من أجل أبيه رع – حور آختي، الإله العظيم، رب السماء*». وقد أكمله أمنحوتپ الثاني. إن أبعاده محدودة نسبيًا، إذ يبلغ ٢٢ مترًا عمقا و٩ أمتار عرضًا و٤٣٨ سم ارتفاعًا. ويتقدم المعبد رواق من اثنى عشر عمودًا مربعًا موزعة على ثلاثة صفوف وينتهى بصف من أربعة أساطين پروتودورية. بعد عبور المدخل، يصل المرء إلى قاعة تحتل عرض المعبد وفى مؤخرتها تفضى أبواب ثلاثة، إلى قدس الأقداس الذى تكتنفه مقصورتان جانبيتان ألحقت بهما حجرتان أصغر حجمًا.

إن معبد عمدا الذى كانت المياه ستغمره بعد تشييد السد العالى عام ١٩٦٠، قد تم نقله من مكانه ككتلة واحدة لمسافة ٢٦٠٠ مترًا. لقد كانت مأثرة من العمل الباهر على الصعيد التقنى، أنجزه الفنيون الفرنسيون. إن هشاشة الرسومات والنقوش الشديدة الرقة التى كان يزدان بها المعبد قد وقفت حائلاً دون تفكيكه(*). فتم تطويقه بحزام من الحديد الصلب والأسمنت المسلح لينقل على خط حديدى، من ثلاثة قضبان، أُعدّ خصيصًا لهذا الغرض(**).

وفى بوهن العاصمة الإدارية للممتلكات المصرية شيّد التحامسة معبد الجنوب المكرس للإله حورس المحلى. أما معبد الشمال الذى أقامه أحمس فسيتولى أمنحوتپ الثاني ترميمه، فى وقت لاحق. إن معبد الجنوب الذى بدأت حتشپسوت فى تشييده فى موقع سبق أن استخدمه سنوسرت الأول[١٦١]، قد انتهى منه واستكمله تحوتمس الثالث الذى هشّم خراطيش الملكة ووضع مكانها خراطيشه.

لقد شيّد من أجل أبيه حورس، رب بوهن، بهو أعياد كبير يُدخل الفرح والسرور على القطرين بفضل جماله... وأقام أساطين جديدة من الحجر[١٦٢].

(*) كما حدث بالنسبة لبعض معابد النوبة الأخرى. (المترجم)

(**) بدأت الرحلة يوم ١٩٦٣/١٢/١٢ وسار الموكب بسرعة ٢٥ مترا (هكذا: خمسة وعشرين مترًا) فى الساعة ووصل إلى هدفه يوم ٢٦ مارس ١٩٦٤ على إرتفاع ٤٠ مترا من الموقع الأصلى.

(Guides Bleus. L'Egypte. Hachette. 2002. P. 444). (المترجم)

واهتم نائب الملك نحي بنحت على أحد أعمدة المعبد نص يمجّد النصر الذى تحقق فى العام ٢٣، من عهد الملك، وأثناء عودته المظفرة من حملته العسكرية الأولى:

فى العام ٢٣، من عهد جلالة حورس، الثور القوى الذى يتجلى متألقًا فى طيبة، ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خپر رع، محبوب آمون – رع، رب عروش القطرين الذى يسطع فى وجه (البشر) مثلما يسطع القرص (آتون). ويُدخل نوره جوًا من الأعياد على القطرين، كما يحدث عند شروق الشمس فى أفق السماء. إنه الإله الكامل، رب الفرح والسرور، ابن رع: تحوتمس، صاحب الصيرورات الكاملة، محبوب حورس سيد بوهن.

(من خلال التوزيع الفطن للكلمات يقف كل من آمون – رع وإله بوهن على خط متوازٍ توازيًا مطلقًا) ويحدث بعد ذلك «تبادل» بين الإله النوبى والملك، من خلال خلط مفردات الوصف والأحاديث.

لقد انضم إلى آلهة تاسوعة حتى يُخلق الملك فى أبدانها. فمن أجله «أعاد الإخضرار» إلى ميراثه، بينما كان لا يزال فى بطن (أمه). كان يعرف ضرورة أن ينطق بنبوءة بشأنه، حتى يثبت تاجاه، بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى، على عرش حورس الأحياء، ثباتًا راسخًا لصالحه. لقد وضع خوفه لدى سكان بلاد فينقيا وخلق رعبه فيهم.

– أنا الملك الذى أتى به إلى الوجود، أنا ابنه المحبوب الذى خلقه من أجله، ولذلك، فإنى أشيّد معبده، وأبنى معلمه الصرحىّ، تمامًا كما أتاح لى أن أستحوذ على الشاطئين. فالابن يسعى إلى ما يفيد أباه، فيظل يقظًا منتبهًا إلى من انبثق منه، جاعلاً أسماءه تحيا، خالقًا قرابينه، جاعلاً أيضًا اسم كل إله يحيا، ومجددًا ولاداته بفضلهم...

والآن، فكل ما يضيئه القمر وكل ما يحيط به قرص الشمس (آتون)، عندما يتألق، وكل ما يلتف من حوله جب ونوت، قد وضعها فى دائرة ساعديه. ويقف صاحب الجلالة عند مدخل الأرض، على أهبة الإستعداد للقضاء على الأسيويين.

– أنا الثور القوى الذى يتجلى فى طيبة، أنا ابن آتوم، ومحبوب مونتو، أنا الذى يحارب بشخصه، فى مقدمة جيشه، حتى يشاهده القطران. إنى لا أقترف هنا كذبًا، لقد خرجت من معبد أبى آمون ملك آلهة، الذى خصّنى بالنصر.

لقد سلك الملك شخصيًا هذا الطريق، وجيشه المقدام أمامه، مثل وهج اللهب. إنه ملك يحارب بساعده القوى، إنه بطل لا مثيل له، ذابحًا الأجانب، دامسًا الريتنو بقدميه، مصطحبًا زعمائهم أسرى ومركباتهم الحربية المطعمة بالذهب المقيدة بجيادهم. يمكن حصر أبناء تحنو الذين يأتون منحنيين بسبب مجد صاحب الجلالة، حاملين جزيتهم على ظهورهم، إنهم كلاب تتصرف كالكلاب، لتُعطى لهم نسمة الحياة. إنه الإله الكامل، الجسور اليقظ، رب الإشراقات المتألقة مثل حورس، فى الأفق والذى يشيع خوفًا شديدًا وتبقى هيبته فى قلب الأراضى الأجنبية، بعد أن أصبحت كافة البلدان خاضعة لسلطانه وتجمعت الأقواس التسعة تحت نعليه(١٦٣).

هنا يصل اندماج الآلهة فيما بينها إلى أقصى درجاته. فالملك ابن آمون – رع وابن آتوم، هو أيضًا فى هذا المعبد ابن حورس المحلى فى بوهن. وفى النصوص المنحوتة فى معابد النوبة وأكثر من أى مكان آخر، يمكن أن ندرك هذا التسامح الدينى الطبيعى فى العصور القديمة، وهذه الحرية *الدينية والروحية* التى كان يمارسها البشر على نطاق واسع فى هذا الزمن. كما أن هذه المدونات كانت تهدف إلى صرف الأهالى عن القيام بأى تمرد *سياسى* محتمل. كان العاهل الملكى ابن آلهة مصر والآلهة المحليين والقائد العسكرى المنتصر فى آسيا وليبيا، فأخذ يكشف عن نفسه، بصفته السيد الطبيعى للأراضى الجنوبية، بعد اضافة ما يثيره من خوف إلى ألوهيته، إضافة مفيدة. هكذا نلتقى بالأيديولوچية الإمبراطورية المتحامسة وقد أخذت تعبّر عن نفسها بأشكال متنوعة وفى مختلف الأماكن(١٦٤).

كما شُيِّد فى سمنة معبد بُنى بالحجر الرملى من أجل الإله النوبى «الوطنى» ديدون. وسوف يسمّى تحوتمس الثالث بابن الإله، ابنه «*الذى من صلبه*». وجنبًا إلى جنب مع الشعائر التى كانت تقام من أجل ديدون، أقيمت الشعائر من أجل سنوسرت

الثالث(*) الذى كانت أعماله فى النوبة على قدر كبير من الأهمية. وفى قمة على الجانب الآخر من النهر، أقام تحوتمس الثالث أيضًا معبدًا فريدًا فى بابه. كان يتكون من مستطيل كبير من الطوب، ويزدان من الداخل بجدران من الحجر الرملى المزخرف. أما قدس الأقداس الذى يحتل الجانب الغربى من مؤخرة المبنى، فكان مزدوجًا ومكرسًا للإله خنوم إلفنتين وسنوسرت الثالث.

مسلات العالم

إنها أربع مسلات أقامها تحوتمس الثالث، تنتصب فى الوقت الراهن بالمدن الرئيسية، فى أوروبا وأمريكا.

أقيمت أقدمها، بعد عبور الفرات فى العام ٣٣، بمناسبة الإحتفال باليوبيل الثالث للملك وتوجد حاليا فى إسطنبول، لتعلن لدى الأتراك عن أمجاد آمون وشرف منزلته. إنها مسلة من الجرانيت كان هريمها من الذهب الخالص، فكان يمتزج فى زمن إزدهار طيبة بتألقات الشمس وإشعاعاتها، «كامتداد» لها على سطح الأرض، امتدادًا دائمًا، يغالب الأيام. وعلى جوانب المسلة الشمالى والشرقى والغربى يلقب العاهل الملكى، على التوالى بالصفات الآتية:

● *هذا الذى نشأه آتوم عندما كان طفلاً على ساعدى نيت، الأم الإلهية، ليصبح الملك الذى يستحوذ على كل الأراضى، للزمن المديد، إنه رب أعياد اليوبيل.*

● *سيد القوة الذى يربط البلاد جمعاء، الذى يُرسَم حدوده عند بدايات الأرض وحتى مستنقعات نهارينا.*

● *هذا الذى يعبر الثنية الكبرى فى نهارينا، فى بسالة وقوة على رأس جيشه، ليُنزل المذابح الرهيبة بين أعداء هذه المنطقة الأجنبية*(١٦٥).

أما المسلتان اللتان أقيمتا فى معبد هليوبوليس، بمناسبة الإحتفال باليوبيل الثالث للملك، فموجودتان فى الوقت الراهن، الأولى فى لندن والثانية فى نيويورك.

(*) من الأسرة الثانية عشرة. (المترجم)

وفي روما في ميدان پيازا دي لاتيرانو Piazza di Laterano وقباله كنيسة سان ـ چان Saint - Jean تقف شامخة وممشوقه المسلة الوحيدة التي أقامها تحوتمس الثالث قرب نهاية حياته أمام معبد آمون – رع الكبير، في الكرنك وقام حفيده تحوتمس الرابع على كل حال بإكمالها. وفي هذا المكان وفي تجاور مستديم، تتجابه طيبة وروما اللتان كانتا ذات يوم، سيدتا العالم. الشرق في مقابل الغرب، والديانة الوثنية في مقابل ديانة سماوية منزّلة. وفي النصوص المدونة تأكدت ألوهية الملك بشكل مطلق. ففرعون هو...

... ابن آمون الذي من صلبه؛ الذي ولدته من أجله الإلهة موت في إيشرو، ليشكّل جسداً واحداً مع من أنجبه(١٦٦).

* * *

أكمل الملك زمن حياته التي امتدت لسنوات عديدة وسعيدة (تميزت) بالبسالة والقوة والإنتصارات – منذ السنة الأولى من عهده، وحتى العام الواحد والخمسين، في عهد جلالة ملك مصر العليا ومصر السفلى، من خپر رع، الصادق القول(*). *عندئذ ارتفع إلى السماء ليتحد بقرص الشمس (آتون)، واختلطت أعضاء الملك الإلهية بأعضاء خالقه.*

عندما ابيضت الأرض عند الفجر (من اليوم التالي)، وبزغ فجأة القرص المتوهّج (آتون) وإذ كانت السماء ملساء متألقة كالزيت، عندئذ أقيم ملك مصر العليا ومصر السفلى: عاخپرو رع، ابن رع : أمنحوتپ، حاكم طيبة، على عرش أبيه مبتهجاً بألقابه الجديدة(١٦٧).

هكذا تحدّث القائد آمن إم حب، رفيق الملك الوفي، في ثنايا مسرد سيرة حياته.

كان تحوتمس الثالث قد مجّد منصب الملك، وعظّم من شأنه، تاركًا لابنه إمبراطورية مترامية الأطراف.

(*) فالمتحدث هو أحد رفاق الملك. (المترجم)

المقبرة الملكية

نحن فى وادى الملوك، فى عمق تجويف بصدع الجبل، يضيق حتى لا يتجاوز عرضه المتر الواحد، وعلى ارتفاع حوالى عشرة أمتار، فوق مستوى سطح الوادى، هنا توجد مقبرة الفرعون الإمبراطورى، وهى المقبرة رقم ٣٤ من مقابر وادى الملوك. وبعد دهليز طويل هابط تعترضه بئر، حُفرت فى صخر الجبل قاعة كبيرة يستند سقفها على عمودين مربعين. ولن تغيب عن هذا المكان الحماية الإلهية اللازمة للعاهل الملكى فى العالم الآخر: فمن واقع الرسومات التى تزدان بها الجدران، أمكن إعداد قائمة تضم ٧٤٠ كيانًا إلهيًا. وفى أحد أركان القاعة، نصل من خلال فتحة عريضة إلى سلّم يفضى إلى قاعة فسيحة (٩×١٥م)، يستند سقفها على عمودين مربعين. وأركان القاعة مستديرة، فيتخذ شكلها هيئة خرطوش ملكى ضخم. وتغطى الأعمدة والجدران رسومات تميل أحيانا إلى الأسلوب التنقيطى وهى مشاهد تصور قيام الإلهة شجرة الجميز، بإرضاع الملك. إن علامات هيروغليفية مبتسرة تنسخ نص كتاب ما هو فى الدوات، وهو من الأسفار الملكية التى تروى رحلة العاهل الملكى فى العالم الآخر، فيتوقف نجاحها على الإرشادات القائمة على معرفة التعاويذ المقدسة، على أحسن وجه.

وفى مؤخرة القاعة يرقد فوق قاعدة من الألبستر تابوت من الحجر الرملى الأحمر ولكنه مفتوح وخاوٍ. وعُثر على مومياء تحوتمس الثالث فى «خبيئة» الدير البحرى[١٦٨]. حيث نقلت فى زمن الأسرتين العشرين والحادية والعشرين، بمعرفة كهنة أتقياء ورعين، تجنبًا لأعمال النهب والسلب.

إن وجه المومياء مجرد جلد على عظم وأنفها ضخم مقوس، وتحتفظ بمسحة المشرحة، وزهو وإباء زمن الحياة.

الفصل السادس

أمنحوتپ الثانى

نصير الإمبراطورية

الحورس: الثور القوى، صاحب البسالة المجيدة.

السيدتان: ذو(*) الطاقة الدافعة، الذى تُوِّج فى طيبة.

الحورس الذهبى: هذا الذى يستحوذ على كافة الأراضى بفضل قدرته.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خپرو رع (أى «عظيمة هى صيرورات رع»).

ابن رع: أمنحوتپ (أى «ليت آمون يكون راضياً»).

(نلتقى بعد ذلك بصفتين تتغيران حسب العصور[١]: «الملك حاكم طيبة» و«الإله حاكم هليوپوليس»).

أمنحوتپ الثانى الذى تسلَّم مقاليد السلطة الملكية عام ١٤٥٠ق.م، على وجه التقريب، كان ابن تحوتمس الثالث والملكة حتشپسوت - مريت - رع(**).

عند وفاة أبيه، كان الأمير ولى العهد فى مدينة منف على ما يعتقد، فكان منصبه ككاهن سم، يقتضى ذلك، وربما ارتبط بهيئة كبار كهنة الإله پتاح(؟)، فكان وضعه مماثلاً لوضع الأمير چحوتى - مس(***) بن أمنحوتپ الثالث فى زمن لاحق، أو لوضع خع إم واست ابن رعمسيس الثانى، وهو أشهرهم، بالنظر إلى ما نعرفه عنه.

من المرجح، أن الأمير الشاب – وكان آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره على ما يعتقد – قد ساهم فى تصريف أمور حكومة إمبراطورية والده، بصفته شريكًا فى الحكم. واستمر هذا الوضع بلا شك، لأكثر من سنتين[٢]. وهو ما يؤكده على ما يبدو بعض الشواهد: فقد ظهر اسم الأب والإبن جنبًا إلى جنب، لأكثر من مرة على

(*) الملك هو المقصود. (المترجم)

(**) أو حتشپسوت الثانية، ابنة تحوتمس الثانى وحتشپسوت. راجع مطلع الفصل الرابع. (المترجم)

(***) اعتاد الإغريق أن يصحفوا هذا الاسم وأمثاله إلى تحوتمس. (المترجم)

الساكف نفسه، فوق بابين من أبواب معبد عمدا[٣]، وعلى باب مقبرة الضابط أمن مس[٤]، كما كان الحال بالنسبة لكل من حتشپسوت وتحوتمس الثالث. وفى مقبرة ديدى رقم ٢٠٠(*)، وكان المشرف العام على صحارى غرب طيبة، صُوّر الملكان وقد تربعا على العرش، جنبًا إلى جنب، وهما يشاهدان إستعراضًا عسكريًا.

وفور إعلان وفاة تحوتمس الثالث، ابحر الوزير رخ مى رع، هابطًا النيل فى اتجاه منف فى حين همّ أمنحوتپ بعد أن أحاطه الموفدون علمًا بما حدث، صاعدًا النهر على جناح السرعة، فى اتجاه العاصمة. والتقيا عند بلدة حت ـ سخم، على بعد ١٠٠كم تقريبًا شمال طيبة. ويقوم الوزير فى صحبة كبراء البلد وأعيانها، بتقديم «*باقة من أزهار آمون*» إلى وريث العرش، تعبيرًا رمزيًا عن حيوية الأسرة الحاكمة التى تتجدد مثل النباتات(**)، ويزف منذ هذه اللحظة، بشرى إستقبال الملك الجديد، من جانب إله الكرنك. لقد نحتت المشاهد والنصوص فى مقبرة رخ مى رع: فيستقبل العاهل الملكى الجديد الوزير الذى يرتدى حلة الإحتفالات، وحول عنقه القلادة الذهبية العريضة، وهى من إنعامات الملك. وفى أعقابه يسير الخدم حاملين القرابين من طعام وأزهار[٥].

وتظل طيبة فى عيد إكرامًا للفرعون الشاب:

إن الفرح والسرور يتملك خُدّام آمون. وتجمّع سكان المدينة مغتبطين مهللين. إنهم يقدمون التحية لملك القطرين ويهتفون له. ويذكرون نعمة حورس صاحب الساعد القوى... ليت ماعت تتحّد بابنه فى الحياة والقوة، (ابنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى عا خپرو رع. ليتها تسمح بأن يتمم ملايين السنين، مثل رع للزمن اللانهائى[٦].

(*) فى منطقة الخوخة بالبر الغربى من الأقصر. (المترجم)

(**) ما زلنا نقدم باقات الأزهار والورود فى كثير من المناسبات السعيدة بل وفى حالات المرض والوفاة، وإن فقدت هذه العادات دلالتها الرمزية. (المترجم)

وفى البداية قدّم أمنحوتپ الشكر لأبيه ذاكراً نعمه، وهو ما تقتضيه مشاعر البر بالوالدين. واحتفظ الدهر بالشواهد على ذلك.

إن كتاب الموتى الذى عثر عليه بجوار جسد تحوتمس الثالث، دُوّنت عليه العبارات الآتية:

إن ملك مصر العليا ومصر السفلى: عا خيرو رع،

ابن رع: أمنحوتپ،

قد أعدّ من أجل أبيه،

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپر رع،

ابن رع: تحوتمس،

(أعدّ له) كتاباً ليجعل بإسمه ممجداً(٧).

وطلب القائد أمن إم حب، بأن يصوّر فى مقبرته مشهد يبرز الملك الشاب وهو يقدم الشكر لأبيه. وقد صُوِّر الابن الملكى فى هيئة أوزيريس جالساً على عرش. وخلف الفرعون، يقدّم أمن إم حب وزوجته الطعام وباقات الزهور، وهى القرابين الدائمة، واهبة الطاقة الحيوية ورموز دوام الحياة، إلى الأبد.

وعلى امتداد سبعين يومًا، وهى الفترة التى تستغرقها عملية التحنيط لوقاية الجسد من التحلل، كانت الحياة السياسية تتوقف، على ما يظن. ثم يقوم الابن بنقل جثمان العاهل الملكى المتوفى إلى بيت الأبدية فى وادى الملوك، وسط صراخ الندّابات ونواح الشعب الذى احتشد بهذه المناسبة. وبعد ذلك يتسلّم الفرعون مقاليد السلطة على نحو فعلى، مع الإحتفاظ إلى جانبه، بعدد كبير من رفاق والده الأوفياء، فى الجيش وفى الجهاز الإدارى، على حد سواء. ومن جديد يعمّ الفرح والسرور ربوع العاصمة بمناسبة تتويجه.

١- ملك قدير، قوى الشكيمة
أو الأسطورة التى لا تُقهر

لقد انتقلنا مع التحامسة، إلى عصر الفراعنة الرياضيين المولعين بممارسة الألعاب الرياضية.

كان تحوتمس الثالث ذاته، قد انجز مآثر بارزة تنمّ عن قوته الجسمانية. فلم يكن له مثيل في تصويب السهام أو في رحلات الصيد، على حدّ سواء. إن لوحًا ضخما من الجرانيت الأحمر الذى كان قد أقيم على ما يعتقد أمام صرح معبد مونتو في هرمونتيس، وعثر عليه مهشما إلى عدة أجزاء، في هذه الساحة المقدسة، يروى مآثره العظيمة. ويعود تاريخ هذا اللوح إلى اليوم العاشر، من الشهر الثانى، من فصل الإنبات من العام ٢٢، من عهد الملك. ومن ثم يمكن القول أن الوقائع المشار إليها قد سبقت بشهرين ونصف قيام العاهل الملكى بأولى حملاته العسكرية إلى آسيا:

إذا أُريد ذكر مآثره بالاسم، لكانت كثيرة جدًا حتى يمكن تدوينُها كتابة بالكامل. هكذا فإنه يسدّد سهامه فى لوحة تصويب من النحاس، بعد أن شق كل لوحة تصويب من الخشب، وكأنها بردية. ووضع صاحب الجلالة فى معبد آمون نموذجًا، أى لوحة تصويب من النحاس المطروق سمكها ثلاثة أصابع (أى سبعة سنتيمترات)، بعد أن استقر فيها السهم الذى أطلقه، فاخترق بالفعل اللوحة بما يتجاوز ثلاث قبضات يد (أى ٢١سم) من سطحها الخلفى. وذلك حتى يتعرف من سيأتون من بعده على بسالته وقدرة ساعديه. إننى أقول بكل دقة ما فعل، بلا خداع أو كذب. لقد حدث ما حدث، بحضور جيشه بأسره. فلا يعتبر هذا الحديث إذن لغوًا وثرثرة.

وإذا أراد أن يمضى وقته فى الترويح عن نفسه، يخرج فى رحلة صيد، فى قسم من أقسام الصحراء، فيستحوذ على مغانم تفوق أعدادها، الأسلاب التى يعود بها جيشه بكامله. فقتل سبعة أسود عند الرماية بالقوس خلال لحظة. واستولى على اثنى عشر ثورًا بريًا، خلال ساعة من الزمن، وعندما حلّ ميعاد تناول الطعام، وضع أذيالها خلف (ثوبه). وقتل مئة وعشرين فيلاً فى بلاد نيى، عند عودته من نهارينا. وعبر المياه المتدفقة (الفرات) وسحق المدن القائمة على كل ضفة من الضفتين، وأتى عليها

بالنار للزمن الأبدى. ثم أقام لوحًا حجريًا للنصر على البر الغربى. ورمى بالقوس أيضًا واستولى على خرتيت فى صحراء النوبة الجنوبية[٨].

كما نجد سردًا لهذه المآثر فى مجال الصيد، على أحد جدران معبد هرمونتيس. بل طلب الملك أن يُصوِّر الخرتيت الذى تم أسره فى النوبة. ولا شك أن هذا الحيوان كان على قدر كبير من الغرابة، فى نظر المصرى القديم، حتى رأى النحات أنه من المناسب توضيح بكل دقة حجمه بالأذرع والقبضات والبوصات، على الواجهة الشمالية من الجناح الشرقى من صرح المعبد[٩].

هذا هو وجه آخر، من أوجه الأيديولوچيا الإمبراطورية التى نشأت مع الفتوحات القصية: نقصد بذلك أيديولوچيا البطل الشديد البأس الذى لا يُقهر، وهو ينجز مآثر تفوق قدرات البشر. ونلتقى بهذه الظاهرة، فى غيرها من أساطير العالم القديم... أو الوسيط. ففى هذه الحكايات تتداخل الأسطورة والحقيقة الواقعة وتمتزجان.

سوف يواصل أمنحوتپ الثانى هذا التقليد المتواتر، إنه «*الفهد ذو القلب القوى ومحبوب مونتو*[١٠]»، كما كان قوّاسًا مرهوب الجانب. ووقع اختيار أبيه على مين، أمير مدينة ثنى والواحات، ليدربه على استخدام السلاح[١١]. كان الطفل الملكى «*يلهو وهو يتعلّم الرماية بالقوس فى ساحة القصر فى ثنى*». وما زال فى وسعنا أن نقرأ بداية الدرس على جدران مقبرة مين(*): «*سوف تشدّ أقواسك حتى تصل إلى ارتفاع أذنيك...*[١٢]».

وفى عصر العشرين من شهر أكتوبر ١٩٣٦، كان عالم المصريات المصرى سليم حسن، يعمل هو وفريق عمله إلى الشمال الشرقى من تمثال أبو الهول بالجيزة، لإزاحة الرمال التى تراكمت عليه، وإذ يظهر فجأة الجزء العلوى الأيمن، مما كان يبدو أنه لوح حجرى. وبعد أن تعمقوا فى الحفر... «*اهتزت مشاعرنا عندما أدركنا أننا كشفنا فى حقيقة الأمر، عن لوح حجرى يضم سبعة وعشرين سطرًا، لنص بالخط*

(*) المقبرة رقم ١٠٩ فى غرب طيبة. (المترجم)

الهيروغليفي. كنّا متلهفين بالطبع، على التعرف على صاحب اللوح. هكذا قمنا بتنظيف الجزء العلوي تنظيفًا أفقيًا وسرعان ما استطعنا قراءة خرطوش أمنحوتب الثاني[١٢]».

كان ارتفاع هذا اللوح الحجرى ٤٢٥سم وعرضه ٢٥٣سم وسمكه ٥٢سم. وفى قسمه العلوى المقوس، ينهض مشهدان مماثلان وجهًا لوجه. فنشاهد فرعون، وهو يقدم إناءى نبيذ إلى تمثال أبو الهول الرابض فى الجيزة وقد أصبح الإله «*حورس فى الأفق*». ويمتد النص على النحو الآتى بدءًا من السطر الحادى عشر:

ظهر صاحب الجلالة، فى هيئة ملك، إنه صبىّ كامل وقد أصبح جسده على أفضل وجه(*) *بعد أن أتمّ العام الثامن عشر من عمره، (ثابتًا) على ساقيه وباسلاً. كان يعرف كل أعمال مونتو، ولم يوجد قط مثله على أرض المعركة. كان يعرف الجياد حق المعرفة، وليس له مثيل فى هذا الجيش الجرار. فلم يوجد من يستطيع الرماية بقوسه ولا يستطيع أحد، أن يلحق به أثناء عدْوه.*

ولأنه قوى الساعد، كان لا يعرف الكلل عندما يمسك بمجداف كوثل(**) *سفينته* (المسماة) *الصقر والمجهزة بطاقم يتكون من مئتى رجل. فإذا ابتعدوا* (عن الشاطئ) *وقطعوا مسافة نصف إيتر* (أى خمسة كيلومترات) *وهم يجدفون، أصابهم الإنهاك وارتعدت أطرافهم واستحال عليهم استنشاق النسمة العليلة. ولكن ظل صاحب الجلالة قويًا، رافعًا مجدافه البالغ عشرين ذراعًا طولاً* (أى عشرة أمتار) *وبعد مغادرة الشاطئ، كان يربط سفينته «الصقر»، إثر قيامه بالتجديف مسافة ثلاث إيترات* (أى ٣٠كيلو مترًا)*، دون توقف. كانت الدهشة على وجوه* (البشر لحظة) *مشاهدته.*

وفعل ذلك (أيضا)*. فشدّ ثلاثمئة قوس قوىّ، ليقارن بين عمل صنّاعها ويفرق بين الحرفىّ الأخرق والحرفى الماهر. بل وفعل ما سأعرضه عليكم. فبينما كان يهمّ* (ذات يوم) *بالدخول إلى حديقته الشمالية، اكتشف أن أربع لوحات رماية قد ثُبتت من أجله، وهى من نحاس آسيا وسمكها قبضة يد* (أى ٧سم) *وكان عشرون ذراعًا* (أى عشرة أمتار) *تفصل كل عمود خشبى، عن الآخر. عندئذ ظهر صاحب الجلالة على متن*

(*) حرفيًا «الذى فى وسعه حصر جسده». (المؤلفة)

(**) مؤخرة السفينة. (المترجم)

مركبته التي يجرها فَرَسان، (ظهر) مثل مونتو في قدرته. وأمسك بقوسه وقبض على سهام أربعة، دفعة واحدة، ورشقها في لوحة التصويب، مثل مونتو مرتديًا حلّته (حلّة القتال). خرجت سهامه من خلف اللوحة كما أصابت العمود التالي. حقًا، إنه عمل لم يُقدم عليه أحد من قبل، ولم يتطرق أبدًا الحديث إليه من قبل، بمعنى أن يرمي المرء سهمًا صوب لوحة نحاسية، فيخرج منها السهم (أي يخترقها) ليقع على الأرض، باستثناء (ما فعله) الملك ذو القدرة المهيبة، لأن أمون قد جعل عا خبرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، (جعله) ممجدًا، إنه البطل الشبيه (بالإله) مونتو.

منذ أن كان لا يزال صبيًا، كان يحب الخيول ويسعد لوجوده وسطهم. كان قلبه ماهرًا فيعلَم كيف يسوسها ويعرف طبائعها، وعلى دراية بفن ترويضها متعمقًا في أحوالها. ولما بلغ ذلك، إلى مسامع والده في القصر الملكي، (والده) «الثور القوى الذي يتجلى في طيبة»، انشرح قلب صاحب الجلالة لسماعه. كان سعيدًا لما يقال عن ابنه البكر وتحدث إلى قلبه قائلاً: «سوف يصبح رب البلاد قاطبة. لن يستطيع أحد مهاجمته، لأنه كرّس قلبه للبسالة ويتحمّس لأفعال القوة. ولكن لا يزال صبيًا بشوشًا حسن المظهر، ولم يبلغ بعد السن التي تؤهله للقيام بأعمال مونتو، فيجهل رغبات الجسد، إلا أنه يعشق القوة منذ الآن. فالله هو الذي وضع في قلبه (رغبة) العمل من أجل حماية مصر ليصبح على رأس البلاد». وقال صاحب الجلالة إلى الذين بجواره: «تصرفوا بحيث يُعطى له أجمل جواد في إسطبل منف الخاص بجلالتي وقولوا له: كن يقظًا نحوه، ليتعلّم كيف يهابك، اجعله يخبّ في سيره، وامسكه جيدًا بيديك، عندما يجمح ويعصاك». وفيما بعد صدرت الأوامر إلى الابن الملكي برعاية خيول إسطبل الملك، وفعل ما أُمر به، عندئذ فرح (الإله) ريشيپ و(الإلهة) عشتروت[١٤] بسببه، في حين كان ينجز كل ما يحبه قلبه. وقام بتربية خيول لا مثيل لها. كان لا يتعب عندما يمسك أعنّتها، ولا يتصبب عرقًا عندما ينطلق مسرعًا.

(وذات يوم) أسرج جياده في منف، ثم توقف لبعض الوقت عند معبد حورس – في – الأفق (أي تمثال أبو الهول الرابض في الجيزة). وقضى برهة هنا، وهو يدور من حوله ويمعن النظر في حسن نظام هذا المعبد الذي كان يخص خوفو

وخعفورع، صادقى القول. واشتاق قلبه أن يعيد الحياة إلى اسميهما. وكتم هذه الرغبة فى نفسه إلى أن يتمّ وعد رع (أى الملك).

بعد ذلك، ظهر صاحب الجلالة متألقًا بصفته ملكًا، وحطّ الصلّ على جبينه واستقرت صورة رع فى مكانها. وكما فى السابق، كانت البلاد فى سلام فى (عهد) سيدها **عاخپرورع**. *وحكم الأرضين، وكافة البلدان الأجنبية كانت «مربوطة فى هيئة حزم» تحت نعليه. وتذكّر صاحب الجلالة المكان الذى كان قد روّح فيه عن نفسه، على مقربة من الأهرام وبجوار* **حورس – فى – الأفق**. *فأمر بأن يُشيَّد معبد فى هذا المكان وأن يقام لوح من الحجر الأبيض يحمل اسم* **عا خپرو رع** *العظيم، محبوب* **حورس – فى – الأفق**[١٥].

إن بطولة العاهل الملكى والعود إلى جوار الأجداد الأقدمين ولحظات التأمل على مقربة من أبو الهول الرابض فى **الجيزة** وانتظار ما أمره به رع، قد جعلت من **أمنحوتپ** الثانى ملك الأقدار، المرتبط بذرية الأسرة المالكة. إن مغامرة من مغامراته أو نزهة من نزهاته، هى إرهاص لما سيحدث لابنه **تحوتمس** الرابع[١٦]. إن تقليداً ملكيًا متواتراً يلازم صورة أبو الهول العظيم الذى قد يتولى اختيار الملوك وحمايتهم وسوف يستمر هذا التقليد حتى زمن القياصرة[١٧].

ومنذ الآن نجد أن الآلهة الآسيوية، ونذكر منها هنا الإله **ريشيپ** والإلهة **عشتروت**، أخذت تدخل مجمع **الآلهة** المصرية لتندمج فيه بعد مرور قرنين من الزمن. وتضرب جذور فكر **الرعامسة** فى تصورات **التحامسة** الذين استهلوا الحركة التلفيقية الواسعة التى شملت آلهة الإمبراطورية، كموضوع هام وثابت فى أيديولوچيا الرعامسة.

فى سياق لوح حجرى كبير، بدء **أمنحوتپ** الثانى تدوينه فِى العام الثالث من عهده، وطلب وضعه فى القسم المخصص لقدس الأقداس فى معبد **عمدا**، وكان أبوه قد بدأ تشييده، ثم أكمله هو شخصياً، وفى سياق مدونة مماثلة أيضًا، نحتت على لوح حجرى آخر، جادت به جزيرة **إلفنتين** ومن مقتنيات متحف **ڤيينا**، فى الوقت الراهن – فى سياق هذين النصين يتم أيضًا الإشادة بقدرة الملك وسطوته على الصعيدين

الحربي والإمبراطوري. إن بعض الصور المشار إليها هنا، سوف يستعيدها عصر الرعامسة، في إطار استمرارية فكرة العاهل الملكي، الإله والبطل، خالق الإمبراطورية وسيدها.

الإله الكامل الذى خلقه رع، العاهل الملكى المنبثق من بطن (أمه)، فكان قويًا مقتدرًا، شبيه (بالإله) حورس على عرش أبيه. كانت قوته من الشموخ، حتى أن مثيله، لم يأت حتى الآن إلى الوجود، ولا يمكن العثور على من يشبهه. إنه ملك غليظ الساعد إلى أبعد حدّ. لا يوجد فى جيشه من يستطيع أن يشدّ قوسه، ولا حتى من بين أمراء البلدان الأجنبية أو زعماء ريتنو، بالنظر إلى عظمة سلطانه، الأعظم من سلطان، أى ملك آخر، سبقه إلى الوجود.

وعندما يطأ أرض المعركة، فإنه يزأر كالفهد، ويتوقف القتال من حوله. إنه قوّاس باسل عند الواقعة، إنه السور الذى يحمى مصر، وصاحب القلب الحازم فى الحلبة عندما يسدّد ضرباته، فيدوس بقدميه من تمرَّدوا عليه. ويستولى على كافة البلدان الأجنبية وشعوبها وجيادها، بينما يأتون ومعهم ملايين البشر وقد خفى عليهم أن آمون - رع حليف ملك مصر. وما أن يُرى حتى يهمّ الجميع مسرعين، لأن الهيبة تتخلل جسده... والبلاد التى تَرسم معه حدودها، لا وجود لها، لأنها لا تستطيع أن تحيا، إلا بفضل أنفاسه. إنه ملك الملوك، وأمير الأمراء الذى «يُبعد حدود» من يهاجمه. إنه أكثر الجميع بسالةً، فمجده يتعاظم، حتى يحاط رع الذى فى السماء علمًا، بينما يعود فى يوم المعركة. إن أبناء سائر البلدان الأجنبية والأراضى التى اتحدت لا يرسمون له أى حدود. لأنها تتساقط فى الحال، تحت تأثير لهيبه، الذى يعمل وكأنه نار ملتهمة. ولا أحد يخرج سالمًا من المذبحة، مثل أعداء باستت، على درب من أنجبه آمون. وعلى العكس من ذلك، فسعيدة هى أفعال جميع من يعرفون أنه الإبن الحق للإله، والمنبثق من جسده، وأنه واحد معه، ليحكم كل ما يحيط به قرص الشمس (آتون) ومجمل الأراضى وكافة البلدان التى يعرفها، بحيث يستحوذ عليها فى لحظة واحدة منتصرًا وقديرًا(١٨).

هكذا أخذت النزعة الأدبية الغنائية الحربية فى الإنتشار والتعاظم.

ومن ناحية أخرى ووفقًا لأسلوب مغاير، فإن بطاقة صغيرة من اليشب الأخضر، ربما كانت فص خاتم، ومن مقتنيات متحف اللوفر، قد احتفظت بأسلوب طريف، بذكرى الملك القوى المقتدر: فيُصوِّره نحت رقيق وهو يُشهر عصًا بيده اليسرى فوق أسد يرفعه بيده اليمنى من ذيله، بلا عناء، على ما يبدو. وصوَّر الخرطوش الملكى فوق رأس الحيوان، فى حين أن الذيل بشعره المنتصب والمستدير استدارة متناغمة يحيط بكلمة واحدة: «الباسل»[١٩]. إن فخامة عبارات أدب غنائى حماسىٍّ، تختلط أحيانًا بنزعة إلى الدعابة، وهى من سمات شخصية المصرى القديم(*).

٢- حملات آسيا العسكرية

إبان الحملتين العسكريتين اللتين شُنَّتا فى العامين ٧ و٩ من عهده، ضمن أمنحوتپ الثانى لمصر، لفترة طويلة، السيطرة على الإمبراطورية التى فتحها جده الأعلى وأبوه.

يساعدنا لوحان حجريان، فى التعرف على وقائع ما حدث آنذاك. أحدهما، وهو أول ما ظهر إلى النور، إذ كشف عنه شمپوليون Champollion جنوب الصرح الثامن فى الكرنك. إلا أنه مشوه للأسف تشويهًا بالغًا. فقد أُتلف بداية، فى عصر العمارنة، ثم تم ترميمه، فى ظل الأسرة التاسعة عشرة، إلا أن أحد أمراء الأسرة الثانية والعشرين أعاد استخدامه كسقف لحجرة الدفن فى مقبرته. أما اللوح الآخر، ويحتفظ به متحف القاهرة، فقد عثر عليه مؤخرًا عالم المصريات المصرى أحمد بدوى فى منف[٢٠]. ويقدم كلاهما وصفًا لهاتين الحملتين، فى سياق نصين مختلفين. والنص الذى نقدمه فيما يلى يعتمد على نص لوح منف. ولكن كلما وفَّر لنا لوح الكرنك بعض المعلومات الأخرى الهامة، فقد أضيفت، مع مراعاة مكانها فى حيث التتابع الزمنى، وببنط مايل صغير- بهدف صياغة تقرير كامل واضح، بقدر الإمكان.

(*) ومازالت. (المترجم)

حملة العام السابع

في اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الأول، من فصل الجفاف، من العام السابع، من عهد صاحب الجلالة... (تلي قائمة ألقاب الملك بالكامل) *الإله الكامل، شبيه رع، وابن آمون على عرشه الذى «أسسه» الإله بقوة واقتدار، بخلاف ما كان موجودًا في السابق. لقد ضربَت مقمعتُه البيضاء نهارينا، وسحق قوسُه بلد النوبيين. إنه يغزو بفضل ما له، من قدرة وقوة، مثل مونتو الباهر بأسلحته. إن قلبه راضٍ بعد أن شاهدهم، وبعد أن قطع رؤوس أعدائه المفسدين.*

تقدم صاحب الجلالة في اتجاه ريتنو، عند قيامه بحملته الأولى المظفَّرة، بهدف توسيع حدود مصر وتوزيع الخيرات على الأوفياء المخلصين له. إن وجهه قدير مثل وجه سخمت ومثل وجه ست، لحظة عواصفه.

وصل صاحب الجلالة إلى شاماش أيدوم[٢١]. وهناك قام بعمل بطولي فقاتل شخصيا بلا حماية. وهدم المدينة في لحظة وجيزة، وكأنه أسد متوحش يروح ويغدو في الصحارى، على متن مركبته (المسماة) «آمون الباسل، هذا الذى يرشد إلى الخير، ولا يصم أذنيه (في وجه من يتضرَّع إليه)». *قائمة بما أسره صاحب الجلالة في ذلك اليوم:* ٣٥ *أسيويًا حيًا و*٢٢*ثورًا.*

بعد ذلك خاض صاحب الجلالة في نهر العاصي وكان أشبه (بالإله) *ريشيپ. وعندما استدار ليتابع مؤخرة جيشه، رأى مجموعة صغيرة من الآسيويين يتسللون خلسة، وقد تسلحوا بكافة أسلحتهم، لينقضّوا على جيش الملك. عندئذ، نشر الرعب في ظهرهم، وكأنه الصقر الإلهي محلّقًا في السماء. وتوقفوا*[*] *وقلوبهم خائرة* (فتساقطوا) *الواحد على الآخر،* (كل واحد) *بجوار رفيقه، ومعهم زعيمهم. لم يكن أحد في صحبة صاحب الجلالة، كان بمفرده هو وساعده الباسل. عندئذ قتلهم مصوبًا نحوهم سهامه. ثم قفل عائدًا سعيد القلب مثل مونتو المقدام، بعد أن حقق النصر.*

(*) أي الآسيويون. (المترجم)

قائمة بما أسره صاحب الجلالة فى ذلك اليوم: أميران وستة ماريانو ومعهم مركباتهم الحربية وجيادهم وأسلحة قتالهم.

(لا شك أنه وصل إلى نهر الفرات، فقد كان الجيش إلى الشمال من مدينة نيى فى نهارينا وهو ما توضحه الجملة التالية)

ثم عاد صاحب الجلالة إلى الهبوط فى اتجاه الجنوب حتى بلغ نيى. فتقدم ممتطيًا صهوة جواده نحو المدينة. كان أسيويو هذه المدينة - رجالاً ونساءً - فوق أسوارهم يتعبدون إلى صاحب الجلالة. إن أمير نيى وسائر شعبه، كانوا فى سلام مع العاهل الملكى، وكانت وجوههم قد أسرها الإنبهار، بسبب الإله الكامل.

عندئذ سمع صاحب الجلالة من يقول أن بعض الأسيويين الذين كانوا فى مدينة أوقاريت يتآمرون، بل وضعوا خطة لطرد مشاة صاحب الجلالة خارج المدينة والإطاحة بالأمير الذى ظل وفيًا له. وعرف صاحب الجلالة ذلك فى قلبه. وعلى الفور، وصل إلى أوغاريت وحاصر جميع أعدائه. وقتلهم ليصبحوا أشبه بمن لم يوجدوا قط، وقد طرحوا أرضًا على جانبهم، رأسًا على عقب. ثم عاد فرحًا مسرورًا، بعد أن أصبح البلد بأسره ملكًا له. واستراح صاحب الجلالة فى خيمته عند مشارف ثيرخ، إلى الشرق من شيشرم.

(لا نعرف على وجه التحديد مكان هاتين المدينتين والمدن التالية، وربما كانت تقع فيما بين الفرات والبحر المتوسط. ويحدد لوح الكرنك الحجرى تاريخ الوصول إلى ثيرخ باليوم العشرين، من الشهر الثانى، من فصل الجفاف، أى خمسة وعشرين يومًا بعد الرحيل. كان تقدم الجيش سريعًا. وإذا كان استرداد بعض المدن قد تم على جناح السرعة، بعد أن قاومت مقاومة بسيطة، فإن مجمل الأراضى حتى نهر الفرات، كانت خاضعة لفرعون).

ثم سُلبت معسكرات منچت ونهبت، ووصل صاحب الجلالة إلى حتيرا. وخرج أمير المدينة، فى سلام مع صاحب الجلالة، وقد أحضر أولاده وكل ثروته. كما خضعت يوقى لصاحب الجلالة الذى وصل هكذا إلى قادش. وخرج أمير المدينة، فى سلام مع صاحب الجلالة، وطُلب منه أن يقسم يمين الولاء والشىء نفسه فعله جميع أولاده، (وروّح) صاحب الجلالة (عن نفسه) برشق السهام فى لوحتى تصويب من النحاس

المطروق، إلى الجنوب من المدينة. وانتقلوا إلى غابة بلدة ريبى وأخذوا يطاردون الصيد ويَحوشُونه(*) وعادوا بالغزلان والأرانب البرية والحمير البرية بأعداد لاحصر لها. وذهب صاحب الجلالة مع جواديه إلى خاشابو (حسبية إلى الغرب من جبل الشيخ، حاليا(**)، وكان بمفرده بلا رفيق. وعاد بعد فترة وجيزة ومعه ٢٦ ماريانو(***) أحياءً، على جانبى مركبته و٢٠ يداً (تتدلى) أمام جواديه و٦٠ ثوراً تُساق أمامه. عندئذ خضعت هذه المدينة لصاحب الجلالة.

وبينما كان هذا الأخير يواصل سيره فى اتجاه الجنوب، التقى داخل سهل شارون بموفد أمير نهارينا حاملاً رسالة من الصلصال معلقة حول رقبته. (إنها لوحة صغيرة من الصلصال دونت عليها رسالة بالحروف المسمارية باللغة الآكدية وكانت لغة الدبلوماسية في هذا العصر[٢٢]). واقتاده أسيرًا بجوار مركبته. ثم رحل بجياده عبر مدق فى اتجاه البلد المحبوب، يصطحبه مريانو واحدًا أسيرًا وممطيًا صهوة فرسه (لاشك ليرشده عبر هذا الطريق).

ووصل صاحب الجلالة إلى منف سعيد القلب، مثل ثور مقتدر. قائمة الغنائم: ٥٥٠ مريانو و٢٤٠ من نسائهم و٦٤٠ كنعانيًا و٢٣٢ من أبناء الأمراء و٣٢٣ من بنات الأمراء و٢٧٠ من المحظيات التابعات لأمراء كل بلد من البلاد، بحُلِيّهن المصنوعة من الفضة والذهب (المعلقة) على أكتافهن والغاية منها الترويح عن القلب. المجموع: ٢٢١٤ (****). فضلاً عن ٤٢٠ جوادًا و٧٣٠ مركبة حربية بكافة أسلحة القتال.

عندئذ استطاعت الزوجة الإلهية والزوجة الملكية ابنة الملك... أن تتأمل قدرة صاحب الجلالة[٢٣].

(*) أى يحاصرونه ويضيقون عليه سبل النجاة. (المترجم)

(**) عند منبع نهر الحسبانى. (المترجم)

(***) الاسم الأسيوى لقواد المركبات الحربية.

Pierre Grandet. Ramsès III, Pygmalion, Paris, 1993, p.70 (المترجم)

(****) هكذا فى الأصل الفرنسى. (المترجم)

ربما استغرقت الحملة العسكرية شهراً أو شهرين. لقد بدأت بسرعة متخذةً أسلوب استعراض العضلات، فوصلت القوات إلى نهر **الفرات** فى غضون عشرين يومًا، على ما يبدو، ليتباطأ تقدمها، بعد ذلك. وفى أعقاب بعض المناوشات المحلية، خرج أمراء المدن من حصونهم لاستقبال فرعون وجيشه، بدءًا من **نيى** على نهر **الفرات** وحتى **قادش** الغادرة، فى وادى **العاصى**. بل كان فى وسع العاهل الملكى أن يمارس هواياته المفضلة كالصيد والرماية بالقوس. كانت هيبة فرعون عظيمة، وتبدو أركان الإمبراطورية راسخة. وحازمة كانت أيضًا قبضة العاهل الملكى القوى الشكيمة. وفى نص اللوح الحجرى القائم فى معبد عمدا وصنوه فى **إلفنتين** نجد وصفًا للمصير الذى كان يدّخره **أمنحوتپ** الثانى للأمراء السبعة المتمرين فى إقليم **تيخيسى** بسوريا:

*عندما عاد صاحب الجلالة إلى أبيه آمون، وقتل بمقمعته البيضاء ذاتها، الأمراء السبعة الذين كانوا فى إقليم **تيخيسى**، وُضعت رؤوسهم إلى أسفل، عند قيدام مركب صاحب الجلالة الذى كان يسمّى «**عاخپرورع**، هو مثبّت القطرين». وعلّق ستة من هؤلاء الأعداء أمام أسوار **طيبة** وذلك فضلاً عن الأيدى. أما جسد العدو الأخير فقد نقل على متن سفينه إلى الجنوب حتى النوبة، ليعلّق هناك عند أسوار **نپاتا** (أى الجندل الرابع!) لتصبح إنتصارات صاحب الجلالة واضحة جلية للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى، فى كل الأراضى وفى كافة بلاد النوبيين. لأنه كان قد بسط سيطرته على شعوب الجنوب وربط شعوب الشمال وتخوم الأرض بأكملها التى يسطع عليها رع. ورسّم حدوده كما يرجوه، دون أن يستطيع أحد صدّ ساعده، تمامًا كما أمر به أبوه آمون - رع، رب عروش القطرين*[٢٣ مكرر].

حملة العام التاسع

وبعد انقضاء سنتين، عاد **أمنحوتپ** الثانى إلى آسيا. من المحتمل، أن بعض الأخبار عن محاولة تمرد أو دسيسة ميتانية، قد وصلت إلى مسامع فرعون، ترتب عليها ضروره وجوده بصفة عاجلة، لأن الجيش قد تحرك فى فصل غير مألوف، نعنى

بذلك نهاية الشهر الثالث من فصل الفيضان(*)، عندما يصبح وجود الرجال ضرورياً للعمل في الحقول. فقد كانت معظم الحملات العسكرية تتحرك إبان فصل الجفاف وبعد الحصاد. وتراءى أمون في الحلم للملك ليرشده فيما ينويه. وحدثت من جديد إشتباكات محلية، في مدن سوريا الشمالية، أمكن تجاوزها بسرعة - ثم جاءت سهرة الإستعداد للمعركة المخيفة عند نهر العاصي:

في اليوم الخامس والعشرين، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام التاسع، من سنوات الحكم، زحف صاحب الجلالة على بلاد ريتنو، إبان حملته الثانية المظفَرة. ووصل إلى مدينة أيهق (ربما رأس العين في فلسطين الحالية) التي خرج أميرها في سلام بسبب قدرة فرعون العظيمة. ثم رحل صاحب الجلالة بجياده وعدة حربه في اتجاه مدينة يحم (يما الحالية عند السفح الجنوبي لجبال الخليل[٢٤]). وأغار على معسكرات ميپيسن وخيتش، المكانين الواقعين غرب سوخو (وهي من مدن شمال سوريا). وهبَ الملك لينقض، وكأنه صقر إلهي، بينما تطير جياده وكأنها نجمة في السماء. ودخل صاحب الجلالة (في المدينة). عندئذ اقتاد أمراءها وأولادها ونساءها أسرى، وفعل الشيء نفسه مع سكانها. (كما نُقلت) كافة ثرواتها بلا حدود وقطعانها وجيادها وأفضل مواشيها بالكامل.

ثم استراح صاحب الجلالة. عندئذ جاءه أمامه، في المنام جلالة هذا الإله العظيم أمون، رب عروش القطرين، ليشدَّ من أزر ابنه عاخپرورع، لأن أباه آمون - رع، يضمن الحماية السحرية لجسده ويحرس الملك.

ومع تباشير الفجر، انطلق صاحب الجلالة من جديد على متن مركبته ليتصدى لمدينتي إيتين ومجدل - يونت. فاكتسحهما اكتساح سخمت، ومثل مونتو مدينة طيبة. فاقتاد ٣٤ من أمرائها و٥٧ ماريانو و٢٣١ أسيوياً أحياءً و٣٧٢ يداً و٥٤ جواداً و٥٤ مركبة، بكل أسلحة القتال وجميع رجال ريتنو الأقوياء وأولادهم ونسائهم وكل ثرواتهم. وعندما تأمل صاحب الجلالة هذه الغنائم الطائلة، شُدّ الأسرى في الوثاق وحُفر من حولهم خندقان ملئا ناراً. وظل صاحب الجلالة يحرسهما إلى أن ابيضت(**)

(*) علما بأن كل فصل من فصول السنة المصرية يتكون من أربعة أشهر. (المترجم)

(**) ونقول حالياً عبارة شبيهة: «الخيط الأبيض» أى «أول ضوء الفجر». (المترجم)

الأرض، وفي يمينه بلطة القتال. كان وحيداً، لا يرافقه كائن من كان، في حين ابتعد جيشه، على مسافة كبيرة، حتى يتمكن من سماع نداء فرعون.

*عندما أبلج فجر اليوم الثاني، رحل صاحب الجلالة، عند الإصباح، ومعه جياده مزدانة بُحليّ مونتو، في يوم عيد تتويجه الملكي. وتم اكتساح مدينة **أناحرث** وسلبها.*

قائمة بما أسره صاحب الجلالة بمفرده في هذا اليوم: ١٧ ماريانو أحياءً و٦ من أولاد الأمراء و٦٨ أسيويًا أحياءً و١٢٣ يدًا و٧جياد مسرّجة و٧مركبات من الفضة والذهب، بكل أسلحة القتال و٤٤٣ثورًا و٣٧٠بقرة، وكل أنواع الماشية بأعداد كبيرة. كما قدّم الجيش من جانبه كميات طائلة من الغنائم وبلا حدود.

*ثم وصل صاحب الجلالة بعد ذلك إلى **حوعكتي**، وأُحضر أمير **قباشيمونك**، واسمه **قاقا** ومعه زوجته وأولاده وكافة سكان المدينة وعُيّن أمير آخر بدلاً منه.*

*عندئذ وصل صاحب الجلالة إلى مدينة منف، بعد أن «**غسل قلبه**» (أي روّح عن نفسه) في كافة البلدان الأجنبية، وأصبحت كافة الأراضي تحت نعليه.*

*قائمة الغنائم التي أحضرها صاحب الجلالة معه: ١٢٧ أميرًا من **ريتنو** و١٧٩ من إخوة الأمراء و٣٦٠٠ **عبرو**[*] و١٥٢٠٠ **شاسو** أحياء و٣٦٣٠٠ سوريًا*

(*) استخدمت **كلير لالويت** كلمة Hébreux التي تترجم بكلمة عبرانيين. ولأنها ترجمة مضللة لكلمة **عبرو** المصرية القديمة وأن قضية التقارب بين لفظي **عبرو وعبري** غير محسومة، ففضلت كلمة **عبرو**، لا سيما وأن **سليم حسن** استخدم هذا اللفظ. كما أنه استناداً إلى مبدأ القلب المكاني métathèse يمكن أن نستخدم كلمة عرب بدلاً من **عبرو**، بعد إسقاط واو الجمع، تماماً كما نقول على سبيل المثال أمبل بدلاً من أبله. لمزيد من التفاصيل راجع:

- سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الرابع. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ١٩٩٣. ص٦٦٦.
- Cl. Vandersleyen. L'Egypte.2. P.U.F. 1995. p.378
- M. Damiano-Appia. L'Egypte (Dict.Enc.). Gründ, 1999. p.52
- P. Grandet: Ramsès III. Pygmalion, 1993, p.70, p. 172
- ولا سيما: I. Finkelstein. N.A.Silberman: The Bible Unearthed. Free Press. USA

وقد ترجم الكتاب إلى الفرنسية: La Bible dévoilée. Folio histoire: Gallimard, 2004

وقد تنطوي هذه الكلمة على دلالة تحقيرية: راجع: أنييس كابرول. أمنحوتپ الثالث. ترجمة: ماهر جويجاتي. المجلس الأعلى للثقافة. ٢٠٠٥. الباب الثاني. الفصل الثاني. الهامش٧٢. (المترجم)

و١٥٠٧٠ نفس أحياء (شعب من شمال سوريا) و٣٠٦٥٢ (فرداً) بعائلاتهم، فيصبح المجموع ٨٩٦٠٠ شخصًا بثرواتهم التى لا تحصى، فضلاً عن كافة ما يمتلكون من ماشية، وقطعانهم العديدة و٦٠ مركبة حربية من فضة وذهب و١٠٣٢ مركبة ملونة، بكل ما يلزمها من أسلحة قتال، بما يعادل ١٣٠٥٠ . (وذلك) بفضل قدرة أبيه ومحبوبه، أمون-رع الذى يضمن حمايته السحرية ويُسند إليه البسالة(٢٥).

كما حقق إنتصارًا ساحقًا على «تحالف» *كان على قدر كبير من الخطورة، على ما يبدو*. وجاء القمع رادعًا سريعًا: وإذا كان عيد التتويج الملكى يقع بالفعل فى اليوم الأول، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان(٢٦)، فمعنى ذلك أن العمليات العسكرية الهامة استغرقت ستة أيام. كما كانت بالغة القسوة، لأن هذه المحرقة البشرية، حدث فريد، لم يتكرر فى تاريخ مصر. وفى قائمة الغنائم التى أحضرها الفرعون المنتصر يظهر اسم عپرو(*). وفيما نعلم، هذه هى المرة الأولى فى التاريخ التى يذكر فيها اسم هذه القبيلة(**).

هكذا كانت أراضى الإمبراطورية قد فُتحت فتحًا مبينًا، ليعّم السلام لمدة قرن من الزمن.

٣- أمجاد مصر وشرف منزلتها

الشكر والحمد وأول حلف سياسى

تعلن نهاية نص لوح منف الحجرى الفقرة الآتية:

عندما نمى إلى علم أمير نهارينا وأمير خاتى وأمير بابلون، النصر العظيم الذى أحرزتُه، سابق بعضهم بعضاً، ليأتى كل واحد منهم، بتقدمته من كافة منتجات

(*) راجع الهامش السابق. (المترجم)

(**) بل ظهر منذ عهد تحوتمس الثالث. راجع:

M. Damiano-Appia. L'Egypte (Diction. Enc.). Gründ, 1999, p.52. (المترجم)

بلده. كانوا يتحدثون فى قلوبهم، إلى أبى آبائهم، ليطلبوا السلام عند صاحب الجلالة وينالوا نسمة الحياة: «إننا نحمل جزيتنا من أجل قصرك، أيا ابن رع، يا أمنحوتپ – الإله – حاكم هليوپوليس، وأمير الأمراء والأسد الجامح، فى كل بلد أجنبى، وفى هذا البلد للزمن اللانهائى(٢٧).

كما قبل الميتانى هيمنة طيبة. فعلى أساطين قاعة مسلتى حتشپسوت بالكرنك، تمتد المدونة الآتية:

جاء أمراء الميتانى، حاملين جزيتهم على ظهورهم، ليطلبوا السلام لدى صاحب الجلالة وينالوا نسمة الحياة اللطيفة(٢٨).

من البحر المتوسط وحتى إيران، ومن بحر إيچه وحتى الخليج الفارسى(*)، اجتازت أمجاد مصر الآفاق واكتسبت شهرة منقطعة النظير.

وداخل مصر ذاتها، كان مُلك أمنحوتپ الثانى يعكس انتصاراته الباهرة. فتشهد كل «الأحجار» على حملاته المظفرة.

فعلى جناحى الصرح الثامن فى الكرنك، يقوم آمون باستقبال ابنه الملكى الذى يصطحب من أجله، مجموعة من الأسرى، كما يوجّه إليه الحديث الآتى:

• الجناح الغربى:

أيا بُنَى، يا محبوبى عا خپرو رع، إنى أعطيك كل البلدان الأجنبية وكل الأراضى، فيتساقط أمراؤها بسبب المذابح التى أنزلتها بهم. عظيم هو مجدك أمام أعدائك الذين أبيدهم بواسطة سيفك.

• الجناح الشرقى:

مرحبًا، مرحبًا بالإله الكامل، عاخپرو رع، ابن آمون، (الجالس) على عرشى. (إنه) حورس الذهبى الذى تُوّج فى طيبة. أنا أبوك المهيب، سيد الآلهة. لقد خصَصْتك

(*) أو الخليج العربى. (المترجم)

بكل البسالة وكل القوة ضد كل بلد من البلدان، حتى تجهز على الأسيويين وأماكن إقامتهم[٢٩].

أما المدونة المنحوتة على أعمدة المعبد الذى شيّده أمنحوتپ الثانى بين الصرحين التاسع والعاشر، فى **الكرنك**، وهى مدونة «رتيبة» منظومة شعراً، فتعبّر عما يتركه النصر من تأثير ساحر وبعد عالمى. إنها ترنيمة حقيقية، تمجيداً للإنتصارات والفتوحات المظفّرة:

كل الأراضى وكل البلدان الأجنبية والخفيه منها، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل الذى تحبه الآلهة، على الدوام.

كل حياة وكل ثبات وكل قوة وكل ازدهار وكل سعادة وكل الأراضى وكل البلدان الأجنبية، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل الذى يعبده الشعب بأكمله والذى يُحْييهم.

كل الأراضى الخفية وكل بلدان مستنقعات أسيا، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل.

كل الأراضى، كل بلدان حاو ـ نبوت، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل.

كل الحياة وكل الثبات وكل القوة وكل أراضى مستنقعات آسيا، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل.

*كل الأراضى الخفية، كل أراضى **النوبيين**، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل.*

*كل أراضى **الفينقيين** وكل البلدان الخفية، هى من أجل قدمَىْ هذا الإله الكامل.*

(من أجل) المحبوب، واهب الحياة والثبات والقوة والسعادة، الذى يقود الأحياء مثل رع[٣٠].

كما أن القطع ذات الاستخدام اليومى التى عثر عليها افى مقبرته، تحتفظ أيضًا بذكرى رفعة الملك وعظمته. فعلى قوس، هو من مقتنيات متحف **القاهرة**، فى الوقت الراهن، يمكن أن نقرأ هذه المدونة:

الشعب يعبده بينما يظهر متألقًا على عرش رع، إنه سور مصر العظيم(*)، وحامي جيشها[٣١].

ويصبح الإطراء إطراءً عالميًا، في النص المدون على عصًا:

السماء تصيح. والأرض تغمرها السعادة. وكبراء هليوبوليس في عيد. وأفراد طاقم بتاح، يُكثرون من الفرح والسرور. وطيبة تهلل فرحًا - كل ذلك عندما يشاهدون عا خبرو رع، يشرق متألقًا على عرش أبيه، فكل الأراضي وكل البلدان، اندحرت تحت نعليه[٣٢].

ها هى ثلاثة أماكن مقدسة رئيسية وثالوث مقدس. ومن جديد، ومرة ثانية، نجد أنفسنا أمام مصادر فكر الرعامسة[٣٣] الذى نلمس إرهاصاته منذ الأسرة الثامنة عشرة.

وتأكيدًا لسيطرته الإمبراطورية، وعملاً بتقليد شاع فى عصر **تحوتمس** الثالث[٣٤]، أمر **أمنحوتب** الثانى بنحت قائمة بالبلدان والشعوب الخاضعة للهيمنة المصرية، على الصرح الخامس **بالكرنك**، للمناطق الشمالية، وقائمة أخرى على كتل حجرية قام **أمنحوتب** الثالث بإعادة استخدامها فى معبد **الأقصر**، وتذكر المناطق الشمالية والجنوبية، ولم يعثر منها، سوى على ست عشرة كتلة. ويبدو على كل حال، أن هاتين القائمتين نسخة منقولة عن قوائم **تحوتمس** الثالث[٣٥].

عندئذ عرفت سياسة **الشرق الأدنى** واقعًا جديدًا. فمن الآن، نزعت الدول الناشئة، إلى تكوين كتل مهيمنة، ترتب على وجودها ظهور لعبة الدسائس وضرورة إيجاد أحلاف دفاعية. إن مصر **والميتانى**، وهما أعظم قوتين فى مطلع الأسرة الثامنة عشرة، أسفر احتدام الصدام بينهما إلى فشل محاولات **الميتانى**. ولكن ظهر الآن منافس جديد يهدد التطلعات التوسعية لكل من مصر **والميتانى**. إنه مملكة **خاتى** التى استقرت فوق هضاب **الأناضول** الحالية وأخذت تبحث عن منافذ تطل على **البحر المتوسط**، فضلاً عن منافذ أخرى على بحر إيجه، ولذلك فقد تعاظمت أهميتها وقوتها.

(*) هكذا ساد الإعتقاد، فلم تكن مصر فى حاجة آنذاك، إلى ما يشبه سور **الصين** العظيم، ولكن ثبت بعد إنقضاء عدة قرون، أن هذا السور، غير كافٍ! (المترجم)

ويبدو أن اهتمام كل من المصريين والميتانيين بمصالحهما، وهو أمر مفهوم للغاية، قد دفعهما إلى اتباع سياسة التقارب بينهما. فمن غير المستبعد أن إتفاقية أولى قد وقعها كل من **أمنحوتپ** الثاني وأرتاتاما الأول الذى تربع على العرش **الميتاني** قرب عام ١٤٣٠ق.م، ولكن لا يوجد بين أيدينا، حتى الآن، برهان قاطع يؤكد ما ذهبنا إليه. والأمر المؤكد أن ابنة **أرتاتاما**، قد تزوجت من ابن **أمنحوتپ**، وهو الأمير **تحوتمس** الذى سيعرف في وقت لاحق تحت اسم **تحوتمس** الرابع. وعندما سيتسلم هذا الأخير مقاليد الحكم لأول مرة، ستصبح أميرة **هندوأوروبية** «زوجة *ملكية* عظيمةً» ووالدة الفرعون **أمنحوتپ** الثالث. فالذى حدث، كان بكل تأكيد، بمثابة ثورة داخل الأسرة الحاكمة، وإبرازًا للأهمية المتعاظمة التى اكتسبتها الشئون الدولية، من منظور إمبراطورى، إن لم يكن إستعماريًا. وظلت **أشور** الخاضعة **لبابل**، لا تشارك حتى الآن في هذه «اللعبة»، وكان **كادشمان - حربى** الأول، ملك **بابل**، ينهج آنذاك نهجًا مسالمًا، إذ انصبّ جُلّ اهتمامه على تأمين الدروب التجارية.

وعلى كل حال، هكذا انتهى النزاع **المصرى الميتانى** القديم. إن التحالف الذى عززته رابطة الدم، ساهم أيضًا فى الحفاظ على السلام لمدة بضع وخمسين سنة.

روعة المبانى الصرحية

كما يشهد عدد المبانى المقدسة وثرواتها على ازدهار الإمبراطورية والورع العارف بالجميل للعاهل الملكى.

*إنه ملك، يروق له أن يبنى من أجل **الآلهة** جمعاء، فيشيّد لها المعابد ويشكل تماثيلها. فتوضع القرابين الإلهية من جديد: من خبز وجعة بكميات كبيرة، وطيور بأعداد لا تُعدُّ ولا تحصى. إنها قرابين يومية (محددة)، للزمن الأبدى. فضلاً عن الماشية والأغنام، فى كل فصل من فصول السنة، دون أن تنقص أبدًا. ويعمل الملك حتى يزوّد بيت سيده الإلهى (**أمون**) بكل ما يحتاجه... ولكنه جدّد مؤخرًا من أجل آبائه الآلهة، هبات متميزة ليراها الشعب وليعرفها الجميع*[٣٦].

ويظل **الكرنك** مركز نشاطه.

ويعمل صاحب الجلالة بيديه من أجل أبيه آمون ـ رع. إنه يباشر الأعمال فى مبناه الشامخ(٣٧).

إن السوارى والمسلات التى أقيمت مؤخراً، تكشف من بعيد، عن وجود المكان المقدس. فعلى الجانب الجنوبى من الجناح الغربى من الصرح الثامن على المحور الشمالى الجنوبى، «*شيد عدداً كبيراً من السوارى*، عند مدخل معبد *ملايين الأعياد اليوبيلية*(٣٨)». وأمام باحة المعبد الكبير الذى كان يبدأ آنذاك عند الصرح الرابع، وقفت من الآن مسلتان فى صحبة المسلتين اللتين أقامهما فى هذا المكان تحوتمس الأول وتحوتمس الثالث.

وبين الصرحين الرابع والخامس وعلى المحور الغربى الشرقى، فإن قاعة الأساطين التى بدأها تحوتمس الأول وطورها تحوتمس الثالث، ازدانت بأساطين جديدة من ذهب:

لقد شيّد قاعة كبيرة ذات أساطين رائعة، من الحجر الرملى الأبيض الجميل، مشغولة بالذهب الخالص. كان ذلك أجمل مما أُبدع، من قبل(٣٩).

وعلى هذه الأساطين تمتد المدونة الآتية:

لقد أعدّ مقصورة مقدسة من ذهب، أرضيتها من فضة. وحدد لها قرابين لا حصر لها. وهذا الأثر أجمل من أبدان النجوم، وبفضله امتلأت خزائنها بثروات جزية كافة البلدان. وشُونها تفيض بالحبوب الوضّاءة التى تنير الجدران(٤٠).

وفى القسم الجنوبى من قاعة الأساطين، أقام أمنحوتپ الثانى مقصورة صغيرة من الحجر الرملى، تخليداً لانتصاراته على شعوب ريتنو. «يصور أحد النقوش تصويراً غريباً، يمثل الملك وعرش آمون، يرتكزان على كتلة الأسرى المحركة للمشاعر وقد التصقوا بعضهم ببعض، وانحنت أجسادهم إنحناءة بسيطة للدلالة على تعرجات المياه(٤١)».

وشُيدت مقصورة أخرى فيما بين الصرحين التاسع والعاشر.

وترك أمنحوتپ الثانى «بصمة» بارزة فى الكرنك ومنطقة طيبة. ففى نقش

ضـخم تقليدى صُوِّر على جناحى الصرح الثامن، وهو يجـهـز على أعدائه بواسطة مقمقعة بيضاء وقد رفعها إلى أعلى. كما تم الكشف عن عدد كبير إلى حد ما، لتماثيل العاهل الملكى، تمثله تحديداً، فى حماية الآلهة. إن تمثالاً من الحجر الرملى، وهو آية فى الجمال، يبلغ ارتفاعه ٢٢٥سم، وعثر عليه **ناڤيل Naville** عام ١٩٠٦، فى **الدير البحرى**، يكشف عن تكوين مكتمل. ويمزج بين النحت المجسم والنقوش. وتحت الخَطْم القوى للإلهة **حتحور** التى تتخذ هنا هيئة بقرة، يقف تمثال **أمنحوتپ الثانى** فى حماية الإلهة. وتحت ضرعها صور بالنقش البارز الطفل الملكى وهو يرضع، لأن اللبن الذى يمتصه سيساعده على الدخول إلى عالم **الخالدين**. إن الخطوط المقناة الطويلة التى تصور سيقان البردى العالية التى يبدو أن البقرة تبرز منها، تنحنى على نحو متماثل ومتناغم فوق رأسها، لتلتف حول قرص الشمس المستقر على جبينها. يعتبر هذا التمثال آية من روائع فن نحت التماثيل(*). أما التمثال المصنوع من الجرانيت الأسود ويستوحى التصور ذاته، فيصور الملك فى حماية الإلهة - الثعبان **واچت**، حامية مملكة الشمال، أو هى بالأحرى **مرت - سچر** التى تُعبد فى جبانة طيبة. وبصفته خادم الآلهة، يدشن **أمنحوتپ الثانى** موضوعًا جديداً يصور الملك جاثيًا، وهو يقدم مائدة قرابين. ويبلغ ارتفاع التمثال ١٢٠سم(**). هذان التمثالان من مقتنيات **متحف القاهرة**، فى الوقت الراهن.

وإذ ظل يعمل من أجل «*أبائه الآلهة*»، واصل **أمنحوتپ الثانى**، بناء المعبد الذى بدأه **تحوتمس الثالث** فى مدينة **الكاب** والمكرس للإلهة المحلية **نخبت**، حامية مملكة الجنوب وللإله **تحوت**.

وفى **إلفنتين** استكمل وانتهى من تشييد معبد، كان **تحوتمس الثالث** قد بدأه

(*) يمكن مشاهدة هذه التحفة فى القاعة رقم ١٢ من الطابق الأرضى بالمتحف المصرى فى **القاهرة**. (المترجم)

(**) فى القاعة رقم ١٢ بالطابق الأرضى من المتحف المصرى فى **القاهرة**. (المترجم)

ومكرس «لأبيه خنوم، رب الجندل ووالدته ساتيس سيدة إلفنتين وأنوكيس القائمة على رأس النوبة».

كان مشيدًا من الحجر وسوره الخارجي من الطوب وأبوابه من خشب الأرز، من أفضل ما انتجته موانئ المشرق، وعتباته من الحجر الرملي، ليبقى اسم تحوتمس ابن رع العظيم، في هذا المعبد، للزمن الأبدى والزمن اللانهائي.

عندئذ قام جلالة هذا الإله الكامل، عاخپرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، بمد خيط البنّاء وفَرْد الحبل[٤٢]، من أجل آبائه الآلهة لتشييد صرح شامخ من الحجر الرملى، سيتقدم قاعة أعياد ذات أساطين رائعة، محاطة بأساطين من الحجر الرملى، لقد صنع هذا العمل ليدوم على امتداد الزمن الأبدى. (سوف يوجد فى المعبد) موائد قرابين وأدوات أكل من الفضة والبرونز[٤٣].

وحتى القوارب اللازمة لرحلات التماثيل الإلهية لم يتم إغفالها:

طلب صاحب الجلالة بصنع الأشرعة اللازمة للرحلات النهرية التى تقوم بها هذه الآلهة المقيمة فى إلفنتين. فكانت أشرعة ضخمة، يبلغ كل واحد منها عشرة أذرع (أى خمسة أمتار)، بعد أن كانت فى السابق، صغيرة (يبلغ كل واحد منها) ثلاثة أذرع[٤٤].

وفى النوبة، انتهى من تشييد معبد عمدا، ومن أجله قدمّت له الشكر الآلهة رع - حور آختى (حامى هذه الأماكن وراعيها) وحورس وأمون - رع و تحوت.

ورمّم المعبد الشمالى فى بوهن الذى كان قد شيده أحمس.

٤- فى خدمة الآلهة والملك

الوزير رخى مى رع، مساعد الملك المباشر، كان يشغل حاليًا، منصبه فى بداية العهد. وخلفه أمن إم إيبت (أى: أمون- فى - الحريم). وكان على وجه التحديد...

...النبيل، الأمير، من وجهاء الملك، الذى يجمع البشر ويُزيّن السيدين (أى **حورس و ست)** *ويُزوّق السيدتين ويُرضى ماعت على مرّ الأيام، ويَفْصل فى الواقع بين المتشاجرين. إنه عمدة المدينة، إنه الوزير أمن إم إيبت*[٤٥].

ووضعت أقاليم الجنوب تحت إمرة **أوسير – سات**ت (أى: **ساتيس – قديرة**). ويدل اسمه أن **إلفنتين** عند حدود **النوبة**، هى بكل وضوح مسقط رأسه. إنه «*حامل أختام ملك مصر السفلى، والابن الملكى، ورئيس بلدان الجنوب*». كما كان من رفاق السلاح الذين صاحبوا فرعون إلى **سوريا**.

ودبّر شئون الأقاليم الجنوبية، بقدر من النجاح على ما يبدو، إذا أخذنا بعين الاعتبار، ضخامة الجزية التى تم تسليمها. وبالفعل فقد صَوّر **أوسير – سات**ت فى قبره التذكارى **بقصر إبريم**، تسليم الهبات الواردة من **النوبة والسودان**:

ظهر صاحب الجلالة متألقًا فى طيبة، فوق الدرج الكبير من أجل (تأمل) أعاجيب جيشه وروائعه، فضلاً عن الغنائم التى ظفر بها من النصر (الذى أحرزه) إبان حملته الأولى و(سلّمت) لسيد القطرين.

تقدم الجيش (ووضعت) جزية البلدان الأجنبية أمام هذا الإله الكامل. كان الجند يعبدون صاحب الجلالة قائلين: عظيم هو مجدك، أيها الإله الكامل الحازم. وفيرة هى جزية أراضى (الجنوب). فلم يُرَ شىء مماثل، منذ زمن الأجداد، ولكن يحدث ذلك من أجلك، أيا سيدنا!

قائمة بحاملى الجزية:

حاملو ... [فجوة]	٢٠٠ رجل
حاملو الذهب	١٥٠ رجلاً
حاملو العقيق الأحمر (؟)	٢٠٠ رجل
حاملو العاج	٣٤٠ رجلاً
حاملو الأبانوس	١٠٠٠ رجل

حاملو مختلف أنواع الخلاصات العطرية	
الواردة من بلدان الجنوب	٢٠٠ رجل
حاملو الأخشاب النفيسة	٣٤ رجلاً
رجال يقتادون الفهود	١٠ رجال
رجال يقتادون الكلاب	٢٠ رجلاً
رجال يقتادون الأبقار والعجول	٤٠٠ رجل
مجموع حاملى هذه الجزية	٢٦٥٧ رجلاً [٤٦]

لا ريب أنها «شحنة» مهولة، ستزيد الخزائن الملكية وخزائن آمون ثراءً.

والصداقة التى نشأت بين الملك و أوسير- ساتت دامت حتى غالبت الأيام: بل أرسل أمنحوتپ خطاباً مكتوباً بخط يده، إلى نائب الملك، يوم الإحتفال بتتويجه، وحفظ لنا الدهر نصه، بفضل قيام المرسل إليه بطلب نسخه على لوح حجرى، يحتفظ به فى الوقت الراهن متحف بوسطن.

يوم عيد التتويج الملكى، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٢٣ . نسخة منقولة عن الخطاب الذى دوّنه صاحب الجلالة بخط يده من أجل الابن الملكى أوسير ـ ساتت، فى حين كان صاحب الجلالة بمدينة الجنوب، فى حريم فرعون. كان منهكًا ويشرب ويقضى يومًا سعيدًا .

انظر، سوف يُسلّم إليك، خطاب الملك هذا، صاحب الحُسام الكبير، صاحب اليد القديرة والساعد المقدام، الذى ربط شعوب الشمال ودحر الأسيويين فى محل إقامتهم، بحيث لن يوجد عدو، فى أى بلد من البلدان.

اجلس... لقد كانت المعركة فى كل البلدان، معركة بطولية[٤٧].

كما أن عائلات كبيرة، وكبراء الدولة من المقربين، كانوا يعيشون فى الأقصر على مقربة من الملك.

كان سن نفر، أخا الوزير آمن إم إيبت، عمدة طيبة والمشرف العام على الحريم الملكي. كان إداريًا محنكًا، ويرتبط أيضًا بكهنة آمون ارتباطًا وثيقًا. كانت زوجته مريت تحمل لقب «*المرضعة الملكية التي تربّي الجسد الإلهي*»، في حين كانت سنت ـ نفرت، «*منشدة آمون*»، أسوة بابنتها موت نفرت. وفي مقبرة سن نفر(*) رقم ٩٦ في الشيخ عبد القرنة، يستعرض نصٌ، مسار حياته المهنية البارزة:

لقد بلغت مرتبة المبجل، ووصلت في الوقت نفسه، إلى سنّ الشيخوخة وأنا بجوار الملك. أنا كاتم أسرار رب القطرين. أنا مفعم بالبركة وهو ما يعرفه الملك، فيعرف أنني أنجزت أعمالاً مفيدة، من خلال المناصب التي أسندت إليّ. وبعد أن بحث في كل الدروب، لم يجد فعلاً خسيسًا واحدًا ينسبه إليّ. لقد أُمتدحت بسبب كل ما فعلته. لذلك فقد رقّاني إلى أعلى مراتب المدراء والرئيس الكبير في مدينة الجنوب والمشرف العام على شُونة آمون المزدوجة، والمشرف العام على حقول آمون، والمشرف العام على حديقة آمون، وكبير كهنة آمون في هليوبوليس(٤٨).

كل ذلك يبرهن على أن التعيينات في وظائف الإشراف الإداري، على ممتلكات آمون، كانت من اختصاص الملك والشيء نفسه، ينسحب على الترقيات داخل سلك الكهنة ذاته.

تضمّ مقبرة سن نفر زخرفًا متميزًا: ففي الردهة، وهي حجرة صغيرة منخفضة، يظهر مشهد رسم صُوّر بلمسات سريعة، يمثّل كرمة تبدأ من أرضية الحجرة، لترتفع على امتداد أحد الجدران وصولاً إلى السقف المقبي، لتنتشر في هيئة عريشة، من الأوراق الخضراء، ذات نتوءات حمراء وعناقيد عنب ضخمة سوداء. وتحت هذه القبة النباتية وعلى جدران الحجرة، نشاهد سن نفر وعائلته في مشاهد تقديم القرابين. هذه الصور الرمزية غير المألوفة في الغالب، ترتبط بأسطورة أوزيريس، «رب *النبيذ*» وحامي الحياة المتجددة.

(*) والتي تعرف اصطلاحًا بمقبرة العنب. (المترجم)

كان قن آمون مشرفًا عامًا في خدمة أمنحوتپ الثاني ومن المقربين للعاهل الملكي وشقيقه في الرضاعة. كان ابن مرضعة الملك، وقد «*ولدته المرضعة العظيمة التي نشّأت الإله*[٤٩]». كان سيداً عظيمًا، حظي بأعلى مراتب الشرف والألقاب والنعوت التقريظية: أمكن حصر أعدادها لتصل إلى مائة وواحد وخمسين[٥٠]. وحديثا، واستناداً إلى أوشبتي من متحف فلورنسا، أضيف إلى هذه «*المجموعة*» الهامة، لقب «*الابن الملكي*»، شاهداً على علاقته الحميمة بالعاهل الملكي[٥١].

كان صديق الطفولة لفرعون، وتبعه في حملاته الآسيوية: إنه «*رفيق العاهل الملكي على الماء وعلى الأرض وفي كافة البلدان الأجنبية*[٥٢]» و«*من لا يفارقه في أرض المعركة، ساعة دحر الملايين*[٥٣]». كان «*حاكم الحصن*» ولفترة قصيرة «*المشرف العام على بلاد الشمال بأسرها*». ولما كان الملك وفيًا نحو أصدقائه، فقد عرف كيف يكافئه. فعُيِّن قن آمون قاضيًا وكبير الماليين و«*المشرف العام على أملاك پرو-نفر*» التي كانت بلا ريب قصراً للترويح عن النفس، وبعيداً على ما يظن عن مدينة طيبة وله قدر من الأهمية. هناك كان يوجد حريم الملك. كان قن آمون يشرف على الحقول والقطعان والإسطبلات. والظاهرة التي تشهد أيضًا على علاقته الحميمة بفرعون أنه كان «*حامل المروحة على يمين الملك*».

إنه زمن استعادة السلام، إنه زمن الأعياد.

وفي مقبره قن آمون رقم ٩٣ في القرنه يُصور رسمٌ، الفرعون أمنحوتپ في شبابه، وإن تحلّى بزينة الملوك، جالسًا في حجر مرضعته، فهكذا تتشرف العائلة وتتفاخر. إن اثنين من حاملي المروحة وكان قن آمون أحدهما، يروّحان على العاهل الملكي بالمروحة[٥٤]. إن فتيات رقيقات يلعبن على العود أو يحملن كؤوسًا ذهبية، وينشدن من أجله في حدائق پرو-نفر:

فلندهن أنفسنا بالبخور. فالنقدم الزيت. فلنقض يومًا سعيدًا. فلنعقد القلادات العريضة في حديقتك. ها هي زهرة لوتس من أجل أنفك. أيا أمنحوتپ! ليتك تخلق من أجلنا الأبدية في المسرات. كم هو جميل وجهك، أثناء التتويج الملكي، في حين تجلس على العرش العظيم... إن رع يفرح عندما يراه. فالحياة ملك له، فلن يموت أبدًا.

كان **قن أمون** يقوم بتنظيم الأوقات التى يقضيها العاهل الملكى فى الترويح عن نفسه، ويشرف فضلاً عن ذلك، على الأعياد الرسمية. فعند الاحتفال بعيد رأس السنة، كان المسئول عن تقديم الهدايا المكرسة إلى الملك، المتربع على العرش: إنها عبارة عن «*مركبات من ذهب وفضة وتماثيل ملكية من العاج والأبنوس وعقود من مختلف أنواع الأحجار الكريمة، وأسلحة قتال ومختلف ما صنعته أنامل حرفيى* **مصر السفلى**[٥٥]». وقد تم حصرها بتفاصيلها وأعدادها فى الصورة المرسومة، لتشهد على مدى ثراء **مصر التحامسة**[*].

ويتردد **قن أمون** على حديقته المنعشة، طلبًا للاستجمام بعيداً عن وظائفه الرفيعة. إنها الحديقة التى تتواجد فيها الآلهة. إنه يجلس أمام مائدة زاخرة بثمار التين، ويرى أمامه الإلهة **نوت**، خارجة من شجرة جميز باسقة، وهى تحمل الماء، رمز رطوبة الشجرة وتتحدث إليه قائلة:

أنا **نوت**، *المرتفعة، العظيمة فى الأفق. لقد حضرت إليك، (حاملة) هباتى، أيها المشرف العام على الماشية... هكذا سوف تتمتع بجو رطب فى ظل أشجارى، سوف ترضى بتقدماتى، وتحيا من خبزى وترتوى من جعتى. سوف أجعلك تتغذى من لبنى حتى تعود إلى الحياة وتمسك بثدييّ فى فمك، فبفضلهما ستنال فرحًا وازدهارًا، ينفذان إلى داخلك، عربون حياة وقوة، كما سبق أن فعلته مع ابنى البكر* (**أوزيريس**). *سوف أمنحك السرور* (حرفيًا: سوف أغسل وجهك) *مع تباشير الفجر، بالإضافة إلى مختلف ضروب السعادة. وسوف يحضر* **حعبى** *إليك، محمّلاً بالقرابين المخصصة لمكان صاحب – القلب – المتعب* (أى: **أوزيريس**). *سوف اتصرف بحيث يُحضر الناس من أجلك، ثرواتهم فى بيتك، (بيت) الزمن الأبدى. إن والدتك* (أى: **نوت** ذاتها) *سوف توفّر لك الحياة. سوف تضعك فى بطنها التى تحمل فيه* (اندماج مصير المتوفى بمصير **رع**)... *عندئذ ستتحدث النجوم التى لا تكلّ*[٥٦] *قائلة: «مرحبًا فى سلام، أيها*

(*) على اعتبار أن معظم ملوك هذا العصر قد حملوا اسم **تحوتمس**، فنذكر هؤلاء الملوك بالترتيب: **تحوتمس** الأول. **تحوتمس** الثانى. **حتشبسوت**. **تحوتمس** الثالث. **أمنحوتب** الثانى. **تحوتمس** الرابع، وقد حكم هؤلاء لأكثر من قرن من الزمن. (المترجم)

النورانى المتميز، أيها الرجل الجدير بالثناء، السالم المعافى، بناء على أمر آمون، أيها الأوزيريس...» أما أنا، فأقدّم لك خبزى، وأقدم لك جعتى، وأقدم لك لبنى، وأقدم لك ثمار تينى، وأقدم لك وجباتى، وأقدم لك قرابينى، وأقدم لك أطعمتى، وأقدم لك نباتاتى النضرة، وأقدم لك كل الأشياء الطيبة الطاهرة التى تحيا منها وتتغذى عليها. خذها، حتى ينتعش قلبك بفضلها، للزمن اللانهائى[٥٧].

إنه حديث عن الإنتعاش لزمن الحياة والضمانات المتوفرة للزمن الأبدى. هكذا فإن زمنَىْ الحياة والبقاء على قيد الحياة بعد الوفاة، يتداخلان ويمتزجان فى هذه الصور، في لحظة واحدة، تتواصل وفقًا للصيرورات الأوزيرية والشمسية. إن الحدائق – العامرة – بالآلهة، هى ينابيع الحياة.

فبعد لحظة الوفاة العابرة، يتطلع المرء إلى الحرية الشاملة التى يسعى إليها الجميع. هذا هو حال قن آمون وزوجته:

الركون إلى الراحة فى مدينة الزمن اللانهائى، التمتع بالسعادة فى بلد الزمن اللانهائى، واكتمال التحولات (واستعادة الأشكال) لزمن الإقامة على الأرض ومدّ الساعدين لتلقى الثرورات والإستحواذ على ما يرتفع أمام الإله، بعد أن يأخذ منه كفايته[٥٨].

الإشارة هنا إلى تماثيل قن آمون التى وضعت، كإنعام تفضّل به الملك، فى معبد آمون بالكرنك، بالإضافة إلى غيرها من معابد الآلهة، وفى معبد العاهل الملكى الجنائزى، وقد نقلت فى موكب، أثار الكثير من الضجيج، كما أن ثلاثة صفوف من الرسومات تقدم لها وصفًا دقيقًا:

نقلت تماثيل قن آمون المشرف العام على قطعان آمون، إلى معبد آمون بالكرنك وإلى جميع معابد آلهة مصر العليا ومصر السفلى، وفى سلام، وفى سلام (نقلت)، أيضًا إلى مقبرته فى الجبانة، كإنعام من الملك مقدّم إلى أحد المقربين إليه، وهو الخادم الموجود هنا، فى الوقت الراهن. إن أفراد العائلة المجتمعون هنا، يصيحون أمامها، بصوت واحد. فصاحب الجلالة هو الذى أمر شخصيًا بمرافقة هذه التماثيل حتى المعابد، كما حُدِّدت من أجلها، قرابين من الخبز واللحوم، على مدار الأيام[٥٩].

ربما كانت مقبرة قن آمون أيضًا، إنعامًا تفضل به العاهل الملكى، فهى من أكبر مقابر الجبانة، إذ تضم ردهة ذات عشرة أعمدة وحجرة جنائزية ذات ثمانية أعمدة. ومن حيث زخارفها، فهى أيضًا من أكثر المقابر أصالة وأجملها. وإذ تعتبر من إرهاصات ذوق عصر الرعامسة، تظهر رسوماتها على خلفية صفراء اللون وليست رمادية تميل إلى اللون الأزرق، كما كان مألوفًا. إن دفء الألوان ورقة الفرشاة وحلاوة الوجوه ورشاقة الأجساد، ترهص منذ ذلك العصر، بالفن البالغ الرقة الذى سيسود فى عهد أمنحوتب الثالث: وسواء تعلق الأمر بحاملى باقات الزهور المركبة، أم الصبية الذين يمسكون بالأزهار والأسماك، إلى جانب سهام سيدهم، أم الشابة الجميلة عازفة العود، أم رقص الكاهنات، أم مشاهد الصيد فى الصحراء، فإن الإيحاء بالمشاعر التى يحسّ بها المشاهد من خلال الخطوط المرسومة باقتدار، أكانت خطوطًا بسيطة أم تآلفًا بين هذه الخطوط، إنما يكشف عن رقة مشاعر الفنان إلى أبعد الحدود، واهتمامه فى المقام الأول بالأحاسيس التى ينقلها للمشاهد، بدلاً من تركيزه على تقديم وصف يلتزم بأدق التفاصيل.

إن تذكارًا، سواء كان تمثالاً أو لوحًا حجريًا أو قطعة عائلية، أو مقبرة مهدمة إلى حد ما، تعود إلى غيرهم من كبراء الدولة، لتظل إلى وقتنا هذا، تغالب الأيام، فنتعرف من خلالها وبفضلها، على وجود أصحابها ومشاغلهم. هكذا نتأكد من وجود...

..پا سر(*) (*أى الشريف السَرِىّ*)، رئيس قوّاسى الملك و«*ولد الحريم*»[٦٠] ورفيق الملك، إذن منذ نعومة أظفاره والذى... «*تبع الملك فى جميع تنقلاته، على الماء وعلى البرّ، وفى كل بلد من البلدان الأجنبية، الذى مُنح الإنعامات (المخصصة للمقرّبين من الملك، فضلاً عن القلادات من الذهب الخالص*»[٦١].

(*) من حقنا أن نعقد مقارنة بين كلمتى سر المصرية القديمة وسَرِىّ العربية، فمعناهما واحد: الشريف الكريم الأصل. (المترجم)

أما نخت (*أي: القوى*) فكان حامل البيرق و«*رئيس النوبيين، والتابع* (للكتيبة المسماة): ثور-*النوبة*». إن تمثالاً في حالة جيدة من الحفظ يصوره، في وضع المتعبد، خلف الإلهة - الثعبان رنن-وتت، من آلهة جبانة طيبة[٦٢]. وقد نُحت الخرطوش الملكي على صدر نخت وساعده الأيمن.

پح سو خر[*] (*أي: من - يهاجمه - يسقط*)، نبيل وأمير، وقائمقام الملك وحامل المروحة. ربما كان يدين بجانب من الرعاية التي حظى بها، إلى زوجته التي كانت «*مرضعة الملك*». فقد صورت في مقبرة القرنة رقم ٨٨، في صحبة زوجها، وهي تقدم الزهور للعاهل الملكي:

إنها تتقدم في سلام، حاملة باقة من زهور آمون، رب عروش القطرين، بعد أن أقامت المدائح الشعائرية اليومية لصالح حياة وازدهار وصحة، رب القطرين عاخپرورع، ملك مصر العليا مصر السفلى. إنها منشدة آمون، ومرضعة الملك العظيمة وأثيرة الإله الكامل، التي نشّأت الإله، إنها صاحبة اللبن الطيب والتي تتّحد نيت بصدرها وتتحدث الصادقة القول قائلة: «من أجل كائك، أيها الملك الذي يغالب الأيام، الإله الكامل، ورب القطرين، الذي ما برح رع يحبّه، (أقدّم لك) هذه الباقة من زهور أبيك آمون-رع الذي يمتدحك ويحبك ويبقيك للزمن الطويل، فيحدّد (لك) ملايين السنين، حتى تبقى ثابتًا، على عرش حورس الأحياء»[٦٣].

لم تكن للإيماءة في العصور القديمة، القيمة المبتذلة والمادية التي اكتسبتها في أيامنا هذه. بل كانت «*التزامًا وعهدًا*» للحياة الأبدية.

(*) خر المصرية القديمة التي تعني يسقط، من حقنا أن نعقد مقارنة بينها وبين كلمة خرّ العربية. (المترجم)

وفى **كوپتوس**(*) عثر على تمثال **أوسرسو** (*أى «إنه كبير»*) وكان *«المشرف العام على بلاد ذهب آمون»*. إنه جالس إلى جوار زوجته سات رع (*أى «ابنة – رع»*) ويطوّق كل منهما الآخر بذراعه، ويأخذ حيطته ضد اغتصاب دفنته عن طريق سحر الكلمات.

إنه يقول: *«أما كلّ من قد يعتدى على جثمانى فى الجبانة ويحطّم تمثالى فى مقبرتى، سوف يصبح إنسانًا مكروهًا من رع. فلن يستطيع الحصول على الماء على مائدة قرابين أوزيريس، لن يستطيع توريث ثرواته إلى أولاده – وذلك للزمن الأبدى»*(٦٤).

أما **سو إم نيوت** (*أى: «إنه فى المدينة»*)، فكان من كبراء بطانة **أمنحوتب** الثانى. كان مشرفًا عامًا فى البحرية، وسيد إسطبل الملك، والساقى الملكى، والمدير المشرف على عيد **آمون**، وابن **إيمانفر** (*أى: «الجاذبية السعيدة»*)، وعمدة **نفروس**(**) وكبير كهنة **تحوت** فى **هرموپوليس**. وفى مدونة بمقبرته رقم٩٢ فى **القرنة** تحدثه زوجته قائلة:

إلى كائك، يا أبى(***). اشرب حتى يأخذ فيك الشراب واقض يومًا سعيدًا(٦٥).

إنها لازمة ملحة للعيد فى الحدائق، كشاهد عن زمن يعمه السلام والإزدهار. إن مقبرة **سوم إم نيوت** فى نظر مؤرخ الفن، حالة فريدة، وصلت إلينا بفضل العناية الإلهية. وبالفعل فإن عددًا كبيرًا من المشاهد، إذا استثنينا المقصورة الداخلية، ظلت ناقصة لم تكتمل، وفقًا لمختلف مراحل العمل. إن تحليلاً دقيقًا قد يسمح لنا بكتابة تاريخ فعلىّ لتقنيات فنون الرسم المصرى.

كان **مين حوتپ** (*أى: «فليكن – مين – راضيًا!»*)، المدعو **حوتوتو**، كاتب الخزينة وكاتب المجندين الجدد. ربما كان ينحدر من الشمال. ونعرفه من خلال أثر عانى من

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم **جبتيو** ومدينة **قفط** حاليًا. (المترجم)

(**) قرب **المنيا**. (المترجم)

(***) هكذا فى الأصل الفرنسى. (المترجم)

مختلف الأحداث غير المتوقعة. ففي عام ١٩١٩ اشترى متحف القاهرة من أحد أهالي أبوصير قطعًا أثرية كان يحتفظ بها في منزله منذ وقت بعيد، وهي عبارة عن اثنتين وعشرين كسفة من لوح ضخم من الحجر الجيري، جادت بها على ما يظن إحدى الجبانات القريبة. ولم يعثر على جميع أجزاء هذا اللوح الذي يبلغ ارتفاعه في الوقت الراهن ١٨٠سم وعرضه ١١٢سم، فقد بيعت الأجزاء الناقصة في وقت سابق إلى أحد الأشخاص.

أما المقبرة رقم ٨ للمهندس خع فقد كشف عنها سكياپاريلّي Schiaparelli عام ١٩٠٦ في دير المدينة. وأعيد تشكيل حجرة الدفن في متحف تورينو. ونقل إليها كل المتاع الجنائزي. وعلى لوحة من الذهب نقشت ترنيمة جميلة من أجل الملك، تشهد أيضًا على الإنتشار التدريجي آنذاك، لأيديولوچية هليوپوليس[٦٦].

فليحيَ الإله الكامل بقدر تألق رع. إنه شبيهه، ويتخذ شكله. إنه يشيّد في الحقول، في صحبته. إنه عا خپرو رع رب القدرة. وتسعد قلوب البشر عندما تشاهده. وكل امرىء يتأمل حُبه في انبهار. إنه مقدام وبطل، إنه أمنحوتپ، الإله حاكم هليوپوليس، المقيم في قلوب كل البشر، الذي يحب القدرة.

فليحيَ الحورس، الثور المقتدر، العظيم القوة، الإله الكامل والباسل، الساهر، رب القطرين، عا خپرو رع. الثور المقتدر، لكافة البلدان الأجنبية التي تتجمّع على جبل نهارينا، كما شلّت حركة رجال النوبة - إنه ابن رع، أمنحوتپ، الإله حاكم هليوپوليس، فاتح البلدان قاطبة.

فليحيَ الإله الكامل، الباسل في حقيقة الأمر، (فليحي) عا خپرو رع، رب القطرين. عاد صاحب الجلالة، سعيد القلب، إلى بيت آمون، والده المعظّم. إن جيشه أمامه، أشبه بالجراد. وتوقف صاحب الجلالة عند هرموپوليس، وشيّد في ظرف يومين، محل إقامة عا خپرو رع المحصّن[٦٧].

كان الأحبار وكبار رجال الدين، من رجالات الملك أيضـًا. فقد كان هذا الأخير بلا شك، على قدر كبير من الحزم ونفاذ البصيرة، حتى يحاول الكهنة اختلاس، جانباً من السلطة الملكية لصالحهم.

عند تتويج أمنحوتپ الثانى ملكًا على عرش مصر، استمر من خپر رع سنب، يشـغل منصب كـبير كـهنة آمون، بعـد أن ظل ينهض بأعبائه لفترة طويلة فى عـهد تحوتمس الثالث. إن تمثال هذا الشـخص الذى عثر عليه ليجران Legrain عام ١٩٠١، أمام الصـرح السابع فى الكرنك، يحمل بالفعل خرطوش عا خپرو رع. وقد شُيِّدت من أجله مقبرتان فى الشيخ عبدالقرنة. والأقدم وهى المقبرة رقم ١١٢ تم اغتصابها فيما بعد. أما الأحدث وهى المقبرة رقم٨٦، فكانت بلا شك، مرقده بعد وفاته الدنيوية، وقد دمِّرت جزئيًا فى أعـقـاب الحـريق الذى أتى على قـسم منهـا. ولكن الجزء الذى بقى سـالمًا، نشاهد فيه رسومات بالغة الجمال، فتكشف على وجه التحديد، وصفًا لتقديم باقـة الزهور المقدمـة للملك، وإحـضـار جزيـة الإمبـراطورية الواردة من بلاد الشـمـال والجنوب والغرب، وقيام من خپر رع سنب بجولاته التفتيشية على ورش حرفيى الجلود والأخشاب والمعادن، العاملين فى أملاك آمون، وعلى سير العمل فى المنشآت الجديدة.

من الواضح أن مير قد خلفه فى منصب كبير الكهنة[٦٨]. كان رجلاً ينحدر من كوپتوس، أما والده فقد شـغل، فى هذه المدينة، منصب كبير كـهنة الإله مين، وكانت والدته «المرضـعة العظيمة» للعاهل الملكى. ومن ثم فقد كان صديقًا حميمًا للملك. وشأنه شأن، حپو سنب، فقد جمع بين كبرى المناصب الكهنوتية والعلمانية. وبصفته «رئيس كـهنة مصـر *العليا ومصـر السفلى*»، شـملت إخـتـصـاصـاته كل رجـال الدين فى طول البـلاد وعرضـهـا. كـمـا عيَّنه الملك فى منصب «*حـاكم الجنوب*». ويبدو أنه اهتم إلى حدً كبير بإدارة أمـلاك آمون الدنيوية التى تعاظمت إلى حد كبير، بعد الإنتصـارات التى حققها ملوك مصر. وبالفعل، فقد حمل ألقاب المشرف العام على أمـلاك آمون وشئونه وحقوله وقطعان ماشيته وخزائنه.

كما خُصّصت له مقبرتان فى الشيخ عبدالقرنة. الأولى ورقمها ٨٤، اغتصبها من أحد موظفى تحوتمس الثالث، أما الأخرى ورقمها ٩٥، فقد أعدت خصيصًا من أجله وهى فسيحة جدًا، وتضم تحديدًا، بهو أعمدة يتكون من اثنى عشر عمودًا.

أما أمن إم حات الذى خلفه فى منصبه، فقد كان رجل دين فقط. وربما كان فى شبابه رفيق سلاح تحوتمس الثالث. كان والده چحوتى حوتپ مجرد «*كاهن من أصحاب الأيدى الطاهرة*» ومدير ورشة صنّاع نعال معبد أمون. ونعرف حياته من خلال تمثاله الذى عثر عليه ناڤيل Naville فى الدير البحرى ومن خلال مدونات مقبرته التذكارية رقم٢٥، فى جبل السلسلة[٦٩] واللوح الحجرى المخصص لسيرته الذاتية والذى عثر عليه عند الجانب الشرقى من الجدار الجنوبى من الحجرة الثانية فى مقبرته رقم ٩٧ بالقرنة والتى تقع إلى الشمال قليلا من مقبرة رخ مى رع[٧٠]. يبدأ مطلع النص بتعاليم موجهة إلى أولاده، وهو نوع أدبى تقليدى:

بداية التعاليم التى أعلنها النبيل الأمير والأب الإلهى المحبوب من الإله، رئيس الأسرار فى الكرنك، كبير البلاد قاطبة، الذى تخلق كلمته الرضى فى المعابد، الذى ينفذ فى السماء ويتأمل ما بداخلها، الذى يعرف شتّى أحوال العالم الآخر، المشرف العام على بيتَىْ الذهب وبيتَىْ الفضة، رئيس كهنة مصر العليا ومصر السفلى، وكبير كهنة آمون، إنه آمن إم حات.

لقد تحدث إلى أولاده بأسلوب التعاليم قائلاً:

إنى أتكلم بالحق، حتى أسمعكم ما حدث لى منذ اليوم الأول، منذ يوم مولدى. كنت كاهنًا طاهر اليدين، وعصا الشيخوخة إلى جوار أبيه، زمن أن كان على الأرض. كنت أصعد وأهبط، محترمًا قيادته، ولم أخالف أبدًا، كلمة من كلماته. لم أتسبب فى الإضرار بما أمرنى به. لم أهمل شيئًا مما طُلب منى. لم «اخترقه» بنظراتى المتعددة، بل كنت أدير وجهى ناحية الأرض، عندما كان يحدثنى. لم آخذ على عاتقى أن أفعل

ما كان يجهله. لم أعرف(*) خادمةً في بيته، ولم ألهو وأنا أجامع إحدى خادماته. لم أسكر ساقيه. لم أدخل عنوة إلى جواره. ولذلك، فقد أثنى عليّ ولم يكتشف أبدًا خطأً ارتكبته. لقد بقيت أنعم بأفضاله إلى جوار كائه، حتى حان وقت «الرسو» (أي الوفاة).

لما بلغت الرابعة والخمسين من عمري، كنت كاهنًا طاهرًا (بجوار) نعلَيْ الإله والمشرف العام على المطبخ ومدير خدمه. كنت (إنسانًا) حاذقًا عند أداء واجباته... كنت جدير بالإحترام. عندئذ، قام صاحب الجلالة رب القطرين بترقية اسمي، فقد عُرف عني، أنني شخص بارع في قلب العامل الملكي. وفُضّت من أجلي المغاليق، لأسمع ما لا يصغي إليه، سوى كاهن واحد من الكهنة أصحاب الأيدي الطاهرة، في حين كان أبي يضمن لي حمايته... وبعد أن تُوِّج عا خبرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، ورب القطرين وبعد ضمان استقراره لملايين السنين، وبعد أن أقامه أمون ذاته على عرش حورس الأحياء إقامةً ثابتة... عندئذ رقّاني إلى منصب الأب الإلهي والفم الأول الأعظم في الكرنك، فاستطعت دخول مقاصير قدس الأقداس... وجدّد الملك من أجلي إنعاماته[٧٠].... (بقية النص مهشم تهشيماً بالغًا).

ارتقت مسيرة حياته المهنية ببطئ؛ فتبدأ في حقيقة الأمر في سن الرابعة والخمسين. وهي مسيرة رجل فضّله الملك وآثره، فكان في وسعه أن يعتمد على إخلاصه وأخلاقياته السامية.

واستعاد **تحوتمس** الثالث و**أمنحوتپ** الثاني سيطرتهما على كهنة **أمون**، بعد المصاعب التي سببتها **حتشپسوت**.

أما في **أبيدوس** فقد ظل **نب واوي**، كبير كهنة **أوزيريس**، وكان **تحوتمس** الثالث قد عينه في هذا المنصب، في العام الخامس من عهده.

(*) هكذا في الأصل. وسوف يستخدم العهد القديم، من الكتاب المقدس، هذه العبارة كمرادف لعبارة «باشر الرجل امرأة». نذكر على سبيل المثال: وعرف الإنسان حواء امرأته فحملت. تكوين٤:١. (المترجم)

هكذا عاشت مصر فى سلام وازدهار. فالثروات التى تدفقت على طيبة، جعلت كبراء الوجهاء وكبار موظفى الدوله يحيون حياة ترف وبذخ، أما الطبقة الوسطى التى تضم الحرفيين والكتبة فكانوا فى بحبوحة من العيش وصارت حياة جماهير الفلاحين أكثر يسراً، من ذى قبل. لم تصلنا شواهد مباشرة عن ظروف حياة أفراد هذه الشريحة الأخيرة من المجتمع المصرى، ولكن من السهل افتراض أن التسهيلات التى خففت من صعوبة الحياة آنذاك ووفرة الأيدى العاملة الناتجة عن أسرى الحرب، قد جعلت عملهم أقل وطأة. كان طعامهم وفيراً ويشاركون فى أعياد الآلهة وكبرى المباهج الملكية وأصبحوا من العناصر الهامة فى الدولة. كانوا الجنود الذين شاركوا فى الفتوحات، ولم تولد الإمبراطورية من روحهم المحاربة، إذ كانوا يفتقرون إليها، بل من شجاعتهم وما بذلوه من بسالة على مر الأيام، وإن لم يشر أى نص إلى ذلك. إنهم «*الجيش الجرار*» الذى يتقدمه فرعون الذى يقوده إلى أبدية أمجاده. وربما (؟) أتاح لنا بعض الوثائق أن نتعمق فى فهم حقيقة ظروفهم. وعلينا أن نتجنب تصديق بعض كتابات الكتبة المزهوين دائما بمهنتهم، فاحتقروا أعمال الحقول. لقد انصب أسلوبهم الفكاهى الهجائى على مصير العاملين فى الأرض. وربما كنّا أقرب إلى الواقع إذا نظرنا إلى المشاهد النضرة ذات الألوان الزاهية التى تظهرها جدران مقابر طيبة، رغم ما أصابها من دمار متفاوت، فتكشف عن سواد أفراد الشعب العاملين فى بهجة وسرور، يؤدون أعمالهم، مخلصين لسيدهم، محبّين للحياة الأسرية، إنه عالم نشط فى إطار رقة المودة العائلية وانشراح الصدر، تختلط فيه الصيحات بالأغانى والأناشيد.

٥- باقة زهور آمون الأخيرة

بعد انقضاء خمس وعشرين سنة من حكم حازم، أى عام ١٤٢٥ق.م تقريبًا، جاء الدور على أمنحوتپ الثانى «*ليصعد إلى أفقه ويلتقى بأبيه الشمس*[*]».

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

ونقلت مومياؤه إلى وادى الملوك، لترقد فى مقبرته التى ينفتح بابها عند سفح صخرة عمودية. وتبدأ بممرّ طويل ينحدر إنحدارًا شديدًا، لتعترضه بئر لابد من اجتيازه، ثم نصل إلى حجرة ذات عمودين، سوف تسدّ بحائط بعد عودة من سبق أن دخلوا. ولكن سيقوم اللصوص النّهابون بهدمه، فيما بعد. وعبر سلّم يبدأ من زاوية الحجرة يصل المرء إلى ممر جديد وقاعة فسيحة تم سدّها أيضا فى الماضى بجدار. يا لها من حماية واهية، من جشع البشر وأطماعهم. كان السقف يستند عند الوسط على صف يتكون من ستة أعمدة مستطيلة رُسمت عليها مشاهد تصور أمنحوتپ الثانى فى حضرة الآلهة. وعلى الجدران المغطاة بطبقة خشنة من الملاط، خضراء بلون نبات البردى، وهو لون تجديد النبات، دُوِّن بالخط الهيراطيقى(٧١) النص الجنائزى الملكى *لكتاب ما هو موجود فى الدُّوات*. وفيما وراء الأعمدة، وفى اتجاه الغرب، تبدأ أرضية القاعة فى الإنخفاض، وفى هذا المكان كشف علماء الآثار المعاصرون عن التابوت المصنوع من الحجر الرملى، كان سالمًا ولُوّن بطلاء أحمر وهو لون دمّ الحياة، وبداخله تابوت آخر، سُجّيت فيه مومياء الملك. وحول رقبة العاهل الملكى، كان يلتف طوق من الزهور، كانت لا تزال نضرة بعد مرور ثلاثة آلاف سنة. ووضعت على قلبه باقة من زهور السنط العنبرى، ربما كانت التعبير الأخير عن المودة والحُنُو، ولكنها كانت على نحو خاص عربون أبدية، مقدمًا من آمون.

أما فى الوقت الراهن، فإن جسد الفرعون الذى لا يقهر، فى حالة جيدة من الحفظ ولكنه منفصل عن «بيته»(*) وأساليب السحر المنشطة الباعثة للحياة، فقد أصبح مجرد موضوع لفضول زوار متحف القاهرة. فلا نجد أن سحر الفراعنة المؤذى ولعناتهم، هى التى تلاحق علماء المصريات وتقتلهم، بل إن علماء المصريات *«الكفرة»* هم الذين يعتدون على أبدان الملوك ويحرمونها من عودة الحياة إليها، وإن نجحوا فى استمرار ذكراهم حية تغالب الأيام.

(*) أى مقبرته. (المترجم)

الفصل السابع

سنوات السلم والسلام:

ازدهار إمبراطورية التحامسة

وأولى التهديدات

١- فراعنة السلام

• تحوتمس الرابع

حلم الظهيرة

خلف الأمير تحوتمس أباه، وهو ابن أمنحوتپ الثانى والزوجة الملكية العظيمة تى - عا. وحكم مصر لفترة قصيرة نسبيًا استمرت سبع عشرة سنة تقريبًا. هل كان الابن البكر للملك أم لا؟ الأمر محتمل ولكنه ليس مؤكدًا. وعلى كل حال، فقد جاء اختياره من قبل الإله «*حورس - فى - الأفق*»(*)، من خلال تمثال أبو الهول الشامخ فى الجيزة، وليس آمون. كان الأمير تحوتمس، شأنه شأن والده قبل إرتقائه العرش، يعيش فى الشمال، فى قصر منف. وذات يوم، وبعد أن خرج للصيد فى الصحراء، أخذ قسطه من الراحة عند الظهيرة، مستظلاً بأبو الهول، فغشيه النعاس وتراءى له الإله فى المنام، وتوقع له أن يوهب المُلك، إذا أزاح الرمال من على جسده الحجرى. واحتفظ لوح من الجرانيت بنص هذا الحلم التنبُّئى، وعُثر عليه بين كفىّ التمثال الإلهى!

... حدث ذات يوم عندما ذهب الابن الملكى تحوتمس للتنزه ساعة الظهيرة، أن استراح مستظلاً بهذا الإله العظيم. فدخل فى سبات عميق، فى اللحظة التى كانت الشمس فى كبد السماء. فلاحظ عندئذ، أن جلالة هذا الإله المعظم يتحدث إليه، بذات فمه، تمامًا كما يتحدث الأب إلى ابنه، قائلاً: «انظر إلىّ، وتأملنى يا بنىّ تحوتمس. أنا أبوك حورس - فى - الأفق - خپرى - رع - آتوم (أى: الشمس فى مختلف لحظات دورتها)، *سوف أعطيك المُلك على الأرض، على رأس الأحياء، فترتدى التاج الأبيض والتاج الأحمر على عرش جب أمير* (الآلهة). *وتمتلك الأرض فى طولها وعرضها، وكل ما تنيره العين المتألقة لسيِّد الكون. والأطعمة الواردة من القطرين ستكون لك، ولك*

(*) بالمصرية القديمة: حر-إم-أخت وصحّفه الإغريق إلى حرماخيس. (المترجم)

أيضًا عوائد الجزية الضخمة، لكل بلد من البلدان الأجنبية ولك حياة مديدة غنية بسنواتها. وأُوليّ وجهي شطرك وقلبي شطرك، أنت حاميّ ومرشدي، أنت من يبقى في المدار المختار لأعضائي (إشارة إلى مسار الشمس واندماج الجسد الإلهي في الجسد الملكي). ها هي رمال الصحراء تؤلمني الآن وتعذبني، تلك الرمال التي كُنت فوقها فيما مضى. هيّا اقترب مني على عجل، حتى تتمكن من انجاز كل ما أتوق إليه. فأنا أعرف أنك ابني وحاميّ. اقترب مني. أنظر، فأنا معك وسوف أكون مرشدك». بعد أن فرغ الإله من حديثه، استيقظ الابن الملكي. وفهم دلالة هذا (الحلم)... وعلقت بذاكرته كلمات هذا الإله. ووضع الصمت في قلبه وحدّث نفسه قائلاً: «هيّا فلنتجه على جناح السرعة إلى قصرنا في المدينة، لتجهيز القرابين التي سنحملها إلى هذا الإله، وتضم الأغنام والخضروات والنباتات النضرة، من مختلف الأنواع.

ثم سنجزل المديح لمن وُجدوا من قبل (الأسلاف) ونهلل لهم»[1].

إن توقيت حدوث الحلم، بينما الشمس(*) في كبد السماء، ليس بالأمر عديم الأهمية. إنه(**) الإله في ذروة قوته وقدراته، إنه في «قمة» دورته، والإشارة هنا إلى الملك. وإذ أفاق الأمير من حلمه ليصبح المصطفى المختار، فأقام المدائح الشعائرية من أجل سلالة الأسرة الحاكمة التي سيظل من الآن مرتبطاً بها. إن هذا التقليد المتواتر الذي يربط ربطًا رمزيًا، بين إزاحة الرمال عن أبو الهول وتسلم ملك جديد مقاليد الحكم، تأكّد استمرار العمل به حتى إبان العصر الروماني. فتُخبرنا مدونة[2]، أن الإمبراطور نيرون(***) أمر بإزاحة الرمال التي كانت تغطي أبو الهول، ليكون أول عمل يقوم به.

مرة أخرى، نجد أن الله يقوم باختيار الملك، ولكن، إذ حدث ذلك في منف، فإن إله هليوبوليس هو الذي يقوم بهذه المهمة. ربما ارتبط الأمر بأولى محاولات الإبتعاد

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر في اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) التزمنا بالمذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

(***) حكم الإمبراطورية الرومانية من ٥٤ إلى ٦٨ ميلادية. (المترجم)

عن مدينة طيبة البالغة القوة وتطلعات كهنتها الطموحين. إنه بداية الصعود في اتجاه الشمال، كظاهرة ستصبح من كبرى المواضيع الثابتة لسياسة الرعامسة. فالفكر الملكي يتطور.

حورس : الثور القدير، صاحب التجليات الجميلة.

السيدتان : مُلكه يدوم دوام مُلك آتوم.

حورس الذهبي : قدير هو حُسامه الذى يصدّ الأقواس التسعة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: من خپرو رع (ليت صيرورات رع تظل ثابتة).

ابن رع : تحوتمس، صاحب التجليات المتألقة.

الاسم الرابع قريب الشبه من اسم تحوتمس الثالث، وهو من خپر[*] رع. هكذا يبدو أن العاهل الملكي الجديد قد أراد الإرتباط بجده المرموق. وفي بعض الأحوال وإبرازًا للإختيار الشمسي، تلحق بهذا الاسم، صفة: «*الذى اختاره رع*».

الإبقاء على الإمبراطورية

كانت المعارك الحربية قليلة، فأركان الإمبراطورية راسخة. ربما وقعت بعضها في آسيا. أما الحملة التي شنّت على الجنوب، فقد تحولت إلى مسيرة مظفّرة.

إن بعض المؤشرات فقط، تسمح لنا باحتمال وجود حملة إلى الشمال. ولكن لم يصلنا تقرير حقيقي عن هذه الوقائع المفترضة. ففي سياق قائمة قرابين، يشار إلى «*الغنيمة التي جلبها صاحب الجلالة من بلاد نهارينا الأخساء، إبان حملته الأولى المظفرة*»[٢]. وعلى لوح حجري عثر عليه في مقبرة أمنحوتپ الذى أصبح كبير كهنة أونوريس، بعد أن أنهى خدمته في الجيش، يشار إلى هذا الشخص بصفته...

(*) الفارق هو أن لفظ خپر (صيرورة) في صيغة الجمع خپرو (صيرورات). (المترجم)

رفيق المسيرات الملكية في بلدان الجنوب والشمال، هذا الذي يأتي بدءًا من ***نهارينا*** *وصولاً إلى* ***كاروى*** *(من بلدات* ***السودان****) خلف صاحب الجلالة، بينما يقف هذا الأخير في أرض المعركة*(٤).

وعلى واجهة من خشب الأرز، تُكوِّن أحد جوانب عرش عثر عليه في مقبرة **تحوتمس الرابع**، صُوِّر الملك في هيئة أبو الهول بجسد أسد ورأس آدمي وجناحي صقر وهو يدوس برجليه أحد الأعداء، فيما يغطّي الآسيويون الأرض أمامه(٥).

ظلت الغنائم تتدفق من **ريتنو** و**نهارينا**، بشهادة التصاوير المرسومة في مقابر كبراء الدولة وأعيانها وما يصاحبها من نصوص، نذكر منهم **خع إم حات** و **حور إم حب** و**ثانوني**.

تأتي هذه الواقعة تأكيداً على الفرضية التي سبق طرحها(٦)، ومفادها أن اسمي **نهارينا** و**ميتاني** اللذين تميز النصوص بينهما، مطابقين لحقيقتين جغرافيتين مختلفتين، بمعنى دولتين، ربما تمتد كل واحدة على طول أحد شاطئَيْ **نهر الفرات**. وبالفعل فقد تزوّج **تحوتمس الرابع** ابنة ملك **ميتاني**، بينما **نهارينا** ترسل ضريبة الجزية، كما تنعت على وجه الخصوص «*بالخسيسة*»، في أحد النصوص الذي سبق ذكره، الأمر الذي لا يتفق مع عقد القران المذكور.

وفي **آسيا** أيضاً، استمر استغلال شبه **جزيرة سيناء**، أسوة بما سبق أن فعله أسلاف العاهل الملكي، وقد وصلتنا الشواهد على إرسال حملتين إلى **سرابيط الخادم** تحديداً، في العام ٤ والعام ٧، من عهده(٧).

وفي **إفريقيا** جنوباً، نعرف مجريات الأمور، على نحو أحسن، بفضل تقرير مؤرخ في العام الثامن ومنحوت على صخور **كنوسّو** قرب جزيرة **فيلاي**. كان النص يتكون أصلاً من أربعين سطراً، ولكن المقروء منها في الوقت الراهن، ٢٣ سطراً فقط.

اليوم الثاني، من الشهر الثالث، من فصل الإنبات، من العام الثامن، كان صاحب الجلالة في ***مدينة الجنوب****، في حاضرة* ***الكرنك****. كانت يداه طاهرتين، طهارة*

يدى إله. كان يُرضى والده آمون، بما يكفيه من قرابين، بقدر ما كان هذا الأخير، قد وهبه مُلكًا أبديًا وثباتًا لا نهاية له، على عرش حورس.

جاء من يقول لصاحب الجلالة: «النوبى يأتى هابطًا من مشارف واوات، وينوى التمرد على مصر. لقد حشد من حوله جميع الأجانب والعصاة من المناطق الأخرى».

تقدم الملك فى سلام، فى اتجاه المعبد، عند الفجر، ليقدم قربانًا وفيرًا لأبيه الذى خلق كماله. ووقف صاحب الجلالة شخصيًا فى حضرة أمير الآلهة، طالبًا مشورته بشأن المشكلة التى بصددها، وأن يحيطه علمًا بما سيحدث له، ويرشده أيضًا إلى الطريق القويم، لينجز ما يبتغيه كاؤه، تمامًا كما يتحدث الأب إلى ابنه الذى يُقدم بفضله، على أفعال صائبة. وانصرف من أمامه، سعيد القلب.

*وفى الحال، أصدر أمره بحشد جيشه وأرسله بكل بسالة وقوة. وفيما بعد، تقدم صاحب الجلالة للإجهاز، على من هاجمه فى **النوبة**، (تقدم) جسورًا على متن سفينته الذهبية، مثل رع عندما يستقر فى مركب الليل، وقد نشر أشرعته المصنوعة من الكتان الأحمر والأخضر. كانت جياده تسير أمامه فى هيئة سرايا، وجيشه معه، والأشاوس على الضفتين، والمجندون بجوارهم، فى حين يشكل رفاقه طاقم السفينة. هكذا أبحر الملك فى اتجاه الجنوب، مثل كوكبة نجوم **الجوزاء**[*] Orion.*

*وبجماله أضاء **مصر العليا**. كانت صيحات الرجال تتعالى بسبب الحب الذى يحركه فى النفوس والنساء يرقصن عند مروره. كان مونتو فى هرمونتيس يؤمِّن لجسده الحماية السحرية، بينما كان اللهب الإلهى أمامه، مرشدًا له[**]. وكل إله من آلهة الجنوب، يقدم لأنفه باقة زهور. كانت نخبت[***] البيضاء، تثبِّت بقوة حُلىّ*

(*) ساح بالمصرية القديمة. (المترجم)

(**) تشبه هذه الظاهرة، ما حدث لبنى إسرائيل بعد خروجهم من مصر، عندما كان يسير الرب أمامهم نهارًا، فى عمود من غمام ليهديهم الطريق، وليلاً فى عمود نار ليضىء لهم. سفر الخروج١٣:٢١-٢٢. (المترجم)

(***) إلهة بمدينة نخب – الكاب حاليًا – وهى على هيئة نسر أبيض وحامية النظام الملكى فى الجنوب. (المترجم)

*جلالتى(*)، وساعداها يؤازران قدرتى، وتربط من أجلى **الأقواس التسعة**، حزمًا وضمّات. وقضيت(*) هنيهة احتفاءً بعيد **تطهير** الصورة (؟) وتوقفت لبرهة فى مدينة **إدفو**. وخرج الإله الجميل مثل مونتو بأشكاله المتنوعة. ظهر بعُدة حربه، هائجًا مائجًا، مثل ست مدينة كوم أمبو(**)...*

*لحق به جشيه وقام بمذبحة رهيبة بفضل ساعده المقدام، والرعب الذى كان يثيره فى النفوس نفذ إلى كل جسد، لأن رع كان قد أشاع الخوف منه فى الأراضى، مثل الخوف من **سخمت** فى عام انتشار الوباء. كان رأسه اليقظ لا يأخذه نوم. وسبق له، أن داس بأقدامه تلال **الشرق**، ويفتح الآن الطرق مثل ابن أوى **الجنوب**، باحثًا عن ساعد من هاجمه: وتوصّل إلى أعداء **النوبة** أجمعين (وحتى) فى الوديان السرية التى لم يعلم أحد من قبل بوجودها...(٨).*

إن لوحًا مقطوعًا فى صخر الجبل ذاته فى كنوسّو، يُحيىّ ذكرى الانتصار الأفريقى. ويقوم الملك فى صحبة **يعرت** «*الزوجة الملكية العظيمة*» الثانية، بضرب سجينين، ضربة شعائرية.

أما عن وقائع هذه الحملات العسكرية أو المعبرة عن مظاهر الهيبة والنفوذ، فلا نعرف عنها شيئا، على وجه الدقة. لقد ورد بعض الأسماء فى سياق مدونة محفورة على الوجه الداخلى لمركبة حربية عُثر عليها فى مقبرة **تحوتمس الرابع**. فنقرأ على اليسار أسماء أماكن آسيوية: **نهارينا وشنچار وتونيپ وشاسو وقادش وتيخيسى**. ونقرأ على اليمين أسماء أماكن إفريقية نذكر منها: **كاروى وإيرم**(٩). أهو دليل شكلى بالهيمنة؟ أو استرجاع لمختلف الإشتباكات العسكرية؟ وعلى كل حال، فمن **الفرات** إلى قلب **السودان**، تظلّ الأراضى فى يد فرعون. وعلى الوجه الخارجى من المركبة وعلى الجانبين وحتى عند العجلتين صُوِّر الآسيويين والأفارقة، وقد لاذوا بالفرار أمام **تحوتمس الرابع**، فى هيئة إنسان أو أسد.

(*) هكذا فى صيغة المتكلم، خلافًا لصيغة الغائب المستخدمة فى بقية النص. (المترجم)

(**) نوبت عند قدماء المصريين وأومبوس عند الإغريق. (المترجم)

في أعقاب هذه الأحداث، على كل حال، تشكلت مستوطنات من الأسرى السوريين والسودانيين، على أراضى طيبة. وبالفعل فقد عُثر على ألواح حجرية صغيرة فى معبد تحوتمس الرابع الجنائزى، توضح نصوصها هذه الوقائع.

فنقرأ فى أحد الألواح:

مستوطنة (مقامة) من أجل حصن من خپرو رع، بواسطة السوريين الذين أسرهم صاحب الجلالة فى مدينة جزر.

وعلى لوح آخر نقرأ:

مستوطنة بلاد كوش الخسيسة التى جاء بها صاحب الجلالة من حملاته المظفرة(١٠).

فعلى سطح المسلة التى بدأ جده العمل فيها، والقائمة حالياً فى ميدان اللاتران بروما Piazza di Laterano، وربما توقف العمل فيها بوفاة تحوتمس الثالث، ليتولى تحوتمس الرابع استكمالها وإقامتها فى الكرنك، يعرّف نفسه باعتباره:

هذا الذى يفتح البلدان بفضل إنتصاراته ويبث الرعب فى صفوف الآسيويين ويعلن صيحة الحرب وسط النوبيين(١١).

إن إمبراطورية التحامسة راسخة الأركان. فلم تكن نذر التهديدات، قد ظهرت فى أفق الوضع الدولى. وهدأت الحرب ولم تعد سوى مجرد استعراض عضلات. وحلّ السلام ليدوم حتى نهاية عهد أمنحوتپ الثالث.

• أمنحوتپ الثالث(*)

عام ١٤٠٨ق.م، تقريباً، عند وفاة أبيه تحوتمس الرابع، خلفه ابنه أمنحوتپ الثالث، وامتدت سنوات حكمه المديدة لتصل إلى ٣٨سنة(١٢). كان ابن الأميرة الميتانية،

(*) راجع أيضاً الدراسة الوافية المستفيضة عن هذا الفرعون العظيم وتقع فى ٨٣٦ صفحة: **أنييس كابرول: أمنحوتپ الثالث**. ترجمة: **ماهر جويجاتى**، المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠٥. (المترجم)

ابنة الملك أرتاتاما الأول[١٣]، فكان عربون مادى لقران سعيد. اتخذت الأميرة اسمًا مصريًا فور وصولها إلى طيبة، وهو مُوت إم ويا أى «*مُوت – فى – المركب – الشمسى*». وكتعبير كامل بالصورة لهذا الاسم، نشاهدها على لوح حجرى يحتفظ به المتحف البريطانى فى الوقت الراهن – نشاهدها جالسة فى مركب، وقد ادمجت فى الإلهة مُوت، زوجة آمون. ومن واقع نصين متقابلين فإنها:

- *السيدة النبيلة، صاحبة الإنعامات العظيمة، الرقيقة القلب، الرءومة حبًا، التى تملأ القصر بعطر أندائها، الزوجة الملكية العظيمة، محبوبة العاهل الملكى، التى يقال لها كل ما يُفعل من أجلها، المتسيّدة على مصر العليا ومصر السفلى، الأم الإلهية... [مُوت إم ويا].*

- *السيدة النبيلة، صاحبة الإنعامات العظيمة، الزوجة الملكية العظيمة، محبوبة العاهل الملكى، الأم الإلهية التى أنجبت الملك، أثيرة الإله الكامل، التى يقال لها كل ما يُفعل من أجلها. إنها تركن إلى الراحة على عرشها فى قاربها... الأم الملكية، مُوت إم ويا*[١٤].

ويجوارها صُوّر ناووس يحمل الاسمين الرابع والخامس من أسماء أمنحوتپ الثالث الذى اكتملت قائمة ألقابه على النحو الآتى:

حورس : الثور القدير، الذى يتجلى متألقًا مع ماعت.

السيدتان : هذا الذى يحدّد القوانين ويهدئ القطرين.

حورس الذهبى : هذا الذى تتعاظم قدرته ويضرب الآسيويين.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع (أى: «رع صاحب الحقيقة والعدالة»).

ابن رع : أمنحوتپ، حاكم طيبة.

ابن آمون - رع

إذا كان أمنحوتپ الثالث يرتبط بذرية الأسرة الملكية الحاكمة، فقد كان أيضًا حفيد ملك الميتاني. أيمكن القول بأن هذه الحقيقة هي التي دفعت العاهل الملكي الجديد إلى تبرير شرعيته؟ فالعرض المسرحي الديني الشهير الذي صاغه المخلصون من أتباع حتشپسوت، استرجعه أمنحوتپ الثالث. فبناء على أوامره، نحتت مشاهد ونصوص مشابهة، في معبد الأقصر الذي طلب تشييده من أجل آمون، نحتت على جدران إحدى الحجرات القائمة شرق القسم المخصص لقدس الأقداس. الأحاديث مماثلة: فمشاهد الحمل والولادة والإنتساب إلى دائرة الخالدين، واحدة. والإختلاف الوحيد، هو استبدال بعض الأبطال وإدخال بعض التغييرات الطفيفة أحيانًا، على النصوص. ومع ذلك، يصعب علينا استخلاص الهدف من هذه الإختلافات.

ومن ثم فمن المعتقد أن آمون قد تجسّد في الملكة موت إم ويا، لخلق الطفل - الإله الملكي. وفي المساحة الفاصلة بين مشهد الولادة ومشهد تقديم المولود الجديد للإله آمون، يظهر قادمان جديدان: أحدهما، الإله بس وهو قزم دميم، له قدرات حماية سحرية، والآخر الإلهة فرس النهر تاورت(*)، حامية النُّفَساء والقابلة الإلهية:

إننا قادمان من السماء مع رع.... ابنه الذي من صلبه، محبوبه، رب القطرين [نب ماعت رع]...(١٥)

هنا، نجد أن الإلهة مُوت ترافق حتحور عند تقديم الطفل. كما نجد أن حورس الإدفوي(**) وليس رع - حور آختي، هو الذي يلازم المولود الجديد في صحبة آمون.

فهل ترمي إذن هذه النسخة المنقولة عن «*لعبة*» حتشپسوت الشهيرة، إلى تبرير ما حدث لأول مرة في تاريخ مصر، عندما تربّع على عرش البلاد ملك تجري في عروقه

(*) وقد صحفه الإغريق إلى تاوريس. (المترجم)

(**) نسبة إلى مدينة إدفو. (المترجم)

«*دماء مختلطة*»؟ أو كان الأمر تعبيراً على استعادة كهنة آمون قوتهم و«*انطلاقة*» لطموحاتهم التي كشفت عن نفسها، من خلال هذا التدخل الجديد، فى تحديد وريث العرش الملكى؟ ربما كان هذان التفسيران مقبولين.

الوجود فى النوبة

طوال سنوات حكم أمنحوتپ الثالث، الثمانى والثلاثين، لم تقُم فيما نعلم حملة عسكرية واحدة إلى آسيا. وثبت قيام حملة عسكرية واحدة إلى النوبة، فى العام الخامس، والشواهد عليها متوفرة، بفضل نصوص عدد من المدونات:

ومن جديد نُحت لوح فى صخور كنوسّو لتخليد ذكرى هذا الحدث:

فى العام الخامس، عاد صاحب الجلالة مظفّرًا، من حملته الأولى، بعد أن حالفه النصر على بلاد كوش البالغة الخسّة. هكذا أعاد ترسيم حدوده، كما كان يرجوه، عند (تخوم) الأعمدة الأربعة التى تحمل السماء. لقد أقام لوح النصر (هذا)، ليعمّ سلام (حرفيا: نضارة) حورس[١٦]*. لم يُقدم أى ملك من ملوك مصر، على عمل مماثل، إلا صاحب الجلالة المقدام، الذى يروق له النصر. إنه نب ماعت رع الذى يفتح الطريق، بالقوة والقدرة، على رأس جيشه. فأبوه آمون يقوده، لقد خصّه بالبسالة والقوة، فى مواجهة البلدان الأجنبية قاطبة. لقد وهبه بلدان الجنوب وبلدان الشمال، سواء بسواء، وأهل الغرب وأهل الشرق، ليقودهم. هكذا يقوم هؤلاء بتقديم أولادهم للعاهل الملكى شخصيًا، كى يمنحهم نسمة الحياة*[١٧].

إننا أمام بيان، على قدر كبير من الذاتية، تمجيداً للنصر، ولكنه يفتقر إلى تفاصيل عمّا دار من وقائع، يمكن إعادة صياغتها، بفضل غيرها من المدونات.

فبالرجوع إلى نص لوح نحت فى صخر الجبل فى الطريق الممتد من أسوان إلى فيلاى، يُعتقد أن تمرداً قد تفجرّ فى الجنوب، وأحيط العاهل الملكى علمًا بهذا الحدث. وهو أسلوب «*أدبى*»، إذا صحّ القول، سبق أن التقينا به، فيما يتعلق بالحملات النوبية التى قام بها تحوتمس الثانى وتحوتمس الرابع[١٨].

اليوم الثانى، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان(*)، من العام الخامس، يوم الإحتفال بالتتويج... جاء من يقول لصاحب الجلالة: «العدو كوش الخسيس، قد دبّر ضدك تمردًا». وقاد صاحب الجلالة (الجيش) نحو النصر، إبان حملته الأولى...(١٩).

أما المدونة التى نحتها نائب الملك مرى موزا، على لوح آخر، عُثر عليه فى سمنة، فإنها تشير إلى تمرد فى بلاد إيبهت. وللأسف، فإن تاريخ هذا الأثر، غير واضح على وجه الدقة، فمطلع النص مهشم.

... مع مرور الأيام، وبعد ذلك (هل حدث تمرد أول؟)، *حلّ زمن الحصاد لهؤلاء الأعداء فى إيبهت*. عندئذ، *قام كل شخص بواجبه وحُشد جيش فرعون، فى أعقاب الابن الملكى* (نائب الملك). *ونُظّمت القوات وكانت تحت إمرة القواد. وقد جُنّد كل فرد وفقًا للقبيلة* (التى ينتمى إليها)، *بدءًا من قلعة باكى وحتى قلعة تاورى، وهو ما يعادل* (مسافة) ٣٢ *إيتر من الملاحة النهرية* (أى حوالى ٢٤٠كم).

إن قدرة نب ماعت رع، قد أخذت بالأعداء فى يوم واحد، بل فى ساعة واحدة، فأوقع بينهم مذبحة رهيبة. واستولى على أولادهم ونسائهم وماشيتهم، ولم يَسْلم أحد منهم... واقتادتهم قدرة أمنحوتپ – حاكم – طيبة. ولم يُعزل الأجانب عنهم، فبقى الرجال مع النساء، تنفيذًا لارشادات الحورس، رب القطرين، ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، الثور القدير، بقوته الباسلة.

كان الزهو والعُجب قد أصابا إيبهت، فسكن بعض المقاصد المتغطرسة فى قلوبها. ولكن الأسد الوحش الضارى، الأمير، أثخنهم ذبحًا، تنفيذًا للأمر الصادر عن أبيه آمون – آتوم الذى أرشده ببسالة وقوة.

قائمة بالغنائم التى عاد بها صاحب الجلالة من بلاد إيبهت الخسيسة:

(*) أخت بالمصرية القديمة. والشهر الثالث هو شهر هاتور، فى السنة القبطية، والأصوب أن نقول السنة المصرية: لأن كلمة قبطى لم يكن لها فى الأصل المدلول الدينى الذى اتخذته فيما بعد. وجاءت تسمية هاتور نسبة إلى الإلهة حتحور. (المترجم)

نوبيون أحياء	*١٥٠ رأسًا*
حاملو الأقواس	*١١٠ رؤوس*
نوبيات	*٢٥٠ رأسًا*
خدم النوبيين	*٥٥ رأسًا*
أولادهم	*١٧٥ رأسًا*
المجموع	*٧٤٠ رأسًا حيًا*
الأيدى	٣١٢

المجموع الكلى بالإضافة إلى الرؤوس الحية: ١٠٥٢

كان الكتبة المصريون يجدون متعة منقطعة النظير، فى القيام بالعمليات الحسابية فيحلو لهم جمع الأعداد والأرقام!

لقد مهر نائب الملك النص بتوقيعه:

الابن الملكى، الفطن من أجل سيده، كاتم أسرار الإله الكامل، المشرف العام على بلاد كوش باكملها، الكاتب الملكى مرى موزا الذى يقول: «تحية لك، أيها الإله الكامل، إن مجدك عظيم فى مواجهة من يعتدى عليك إنك تحمل من يتمردون عليك إلى القول: «إن النار التى اشعلناها انقلبت علينا»(*). لقد نبحت كافة الأعداء المطروحين أرضًا تحت نعليك[٢٠].

(*) نذكر فى هذا الصدد ما ورد فى سفر الأمثال من العهد القديم من الكتاب المقدس: من يحفر حفرة يسقط فيها ومن يدحرج حجرًا يرجع عليه (٢٦:٢٧). وعبارات مشابهة فى سفر الجامعة (١٠:٨-٩).

كما يقول المثل الشعبى: حلّفةْ ويْحاشرْ النار.

الحلفة: نبات الحلفاء. ويحاشر أى يحشر نفسه ويزج بها. يضرب المثل لمن يلقى بنفسه فى التهلكة ويتعرض لما يعلم إضراره به. أحمد تيمور باشا. الأمثال العامية. مركز الأهرام. ١٩٨٦. ص١٨٦. (المترجم)

وعلى مدونة منحوتة على الصرح الثالث من صروح الكرنك، الذى شيده أمنحوتپ الثالث، ذكرت النقطة الأبعد(؟) لتقدم مصر ناحية الجنوب:

لقد جلب جلالتى الذهب من فوق تل كاروى، إبان حملته الأولى المظفرة وقام بتقتيل بلاد كوش الخسيسة، (كما جلبت معى) فى الوقت نفسه، المنتجات المسلَّمة من زعماء كافة البلدان[٢١].

ومن ثم فقد حدثت إشتباكات عسكرية بعيداً، إلى الجنوب من الجندل الثانى، على نهر النيل.

هكذا، ومن خلال مضاهاة الوثائق المبعثرة والمتنوعة، وبفضل عمل مديد مثابر وشغوف بما يفعله، يستعيد الباحث رويداً رويداً، تتابع سياق تاريخ مصر، بعيداً عن أى حبكة خيالية. وستقدم لنا نصوص وآثار أخرى، توضيحات إضافية لتستكمل هذه الوقائع. وعلى الباحث أن يعيد على الدوام إعادة طرح كل ما توصل إليه على بساط البحث. إن علم المصريات ساحة فسيحة ورحبة العمل الدؤوب المتواصل.

وأيًا كان الأمر، يبدو أن هذه الحملة الوحيدة التى شنها أمنحوتپ الثالث، هى إلى حدّ ما حملة شكلية. وكان مرى موزاً نائبًا – ملكيًا نشطاً[٢٢]. لم يكن أمنحوتپ الثالث ملكا محاربًا، فعاش على السمعة الطيبة والهيبة اللتين ورثهما عن أسلافه. وفى سياق الدبلوماسية الدولية النشطة المنتشرة فى ذلك الزمان، والتى ستزعزع تدريجيًا، أركان الإمبراطورية، من الملاحظ أن العاهل الملكى قد عُرف عنه تراخيه. كان حفيد أمنحوتپ الثانى لا يشبه جده فى شىء. فقد كانت دماء أجنبية تجرى فى عروقه(*).

(*) وإن كانت عالمة المصريات الفرنسية أنييس كابرول لا تتفق مع هذا الرأى، الذى تعتبره ظالمًا وغير منصف. راجع مؤلفها الضخم السابق ذكره. (المترجم)

الأيديولوجيا الإمبراطورية:

التطورات الجديدة

فى هذه الأزمنة التى عمَّ فيها السلام، انتعشت حركة أفكار نشطة واتسعت. فمنذ حتشپسوت ومفهوم النظام الملكى يتطور[٢٣]. فظهر لأول مرة مصطلح «*ملك مصر وشمس الأقواس التسعة*» فى مقبرة ثانونى من ضباط تحوتمس الثالث[٢٤]: فالملك هو الإله الشمسى الأوحد المتفرد الذى يشرق على الإمبراطورية. وسيصبح هذا المفهوم المقدس عن الإمبراطور، المفهوم الذى سيأخذ به الرعامسة، الذين سيشار إليهم على هذا النحو، فى كثير من الأحيان.

إن المدونة المنحوتة على الصرح الثالث من صروح الكرنك، تعبّر بأسلوب يتميز بنبرته الحماسية وصوره الأخّاذة، عن دمج فرعون السلام فى الإله الشمسى، المعبود فى أرجاء الشرق، فنجد آمون أو رع أو آتون فى مصر وشمش فى آسيا، فضلاً عن السلطة العالمية والكونية للفرعون «*الراعى الصالح*»(*):

الإله الكامل الذى يمتزج بجمال (آمون - رع) كما (يمتزج) بجمال من خلقه. القلوب فى الأبدان تفرح عندما تتأمله.... لقد نصّبه (آمون) على عرشه، ليحكم ما يحيط به آتون. إنه العين التى تخلق النور للبشر أجمعين. كما يعود إليهم الإخضرار لرؤيته، عندما تسطع ضياؤه! لقد وهبه عرش جب ووظيفة آتوم وملّك رع، للزمن اللانهائى.... إنه عدّاء عظيم مثل آتون، سريع المدار، والنجم من الذهب الخالص المتألق على مركبته، والقوّاس القدير، عندما يطلق سهامه فى اتجاه لوحة الرماية. إن ساعديه يشبهان ساعدى رب طيبة، الذى يأتى بكافة البلدان الأجنبية أسرى، فهو لا مثيل له، والراعى الصالح، الساهر من أجل الجميع...[٢٥].

إن الإله والملك مندمجان إندماجًا كاملاً، من خلال «الإشراقات» ذاتها.

ومع ذلك، يصبح آمون- المعارك ركيزة الإمبراطورية الأساسية والمقدسة، الساهر عليها، فيبقيها فى «قبضة» ملك مصر. إن نشيداً إمبراطوريًا آخر، هو نشيد

(*) كان السيد المسيح «الراعى الصالح» أيضاً. راجع إنجيل يوحنا ١٠:١١. (المترجم)

للسلام، لا يحدثنا قط عن غزوات عنيفة، إنما يؤكد على خضوع الشعوب على الصعيد العالمي لفرعون. وقد نُقش هذا النيشد على لوح حجرى ضخم، أقيم أصلاً فى معبد أمنحوتپ الثالث الجنائزى، وإن عثر عليه فى خرائب معبد الملك مرنپتاح. وشأنه شأن نشيد النصر للملك تحوتمس الثالث، سيصبح أيضاً مصدر إلهام للرعامسة.

كلمات قالها آمون، ملك الآلهة: «أيا بُنىَّ الذى من صلبى، يا محبوبى، نب ماعت رع، يا صورتى الحية، الذى خلقته أعضائى والذى ولدته من أجلى (الإلهة) مُوت، سيدة إيشرو فى طيبة، الذى يتسيَّد الأقواس التسعة. لقد نشَّأتك تنشئة السيد الأوحد للشعب. إن قلبى يسعد سعادة غامرة عندما أشاهد جمالك، ومن أجلك أحقق أشياءً رائعة. سيتجدد شبابك إلى أبد الآباد، تماماً كما أقمتك بصفتك شمس الشاطئين.

فعندما أولِّى وجهى شطر الجنوب، أحقق من أجلك أشياءً رائعة. فأفرض على زعماء بلاد كوش الأخساء، أن يأتوا إليك، حاملين جزيتهم على ظهورهم.

عندما أولِّى وجهى شطر الشمال، أحقق من أجلك أشياءً رائعة. فأفرض أن يأتى إليك أبناء بلاد تخوم آسيا، وظهورهم محملة بالجزية، فى حين يقدِّمون لك أولادهم، حتى تمنح لهم نسمة الحياة.

عندما أولِّى وجهى شطر الغرب، أحقق من أجلك أشياءً رائعة. واجعلك تفتح بلاد ثحنو، بحيث لا يبقى منها شيئًا، وأشيِّد هذه القلعة باسم جلالتى، والمحاطة بسور يرتفع إلى عنان السماء والمدعمة بأولاد زعماء النوبة.

عندما أولِّى وجهى شطر المشرق، أحقق من أجلك أشياءً رائعة. وأفرض أن تأتى إليك بلدان پونت، حاملةً كافة النباتات الطيبة من (إنتاج) هذه المناطق، لتطلب منك السلام ولتمنحهم نسمة الحياة»[٢٦].

هكذا، فإن آمون المهيمن على الجهات الأربع، يجلب إلى الملك، بنظرة واحدة، مظاهر الشكر والحمد، من أركان الكون.

ففي هذه الأزمنة إذن، لم تعد مقومات السيادة والسيطرة تُستمدان من قوة السلاح وحده. فمنذ عصر تحوتمس الرابع، بصفة مؤكدة، وربما قبله بفترة قصيرة، شهد الشرق القديم، لعبة سياسية نشطة، قائمة على الدسائس والتحالفات، من أجل تحقيق وضع قائم على الهيمنة والسيطرة، لا يدوم طويلاً، فيتقوض بلا انقطاع. عندئذ تشكلت دبلوماسية، سوف تصبح من العناصر البارزة التي تقوم عليها السياسة الإمبراطورية للدول العظمى، لا بل سياستها الإمبريالية.

٢- الدبلوماسية الدولية

بعد أن أصبحت مصر تتمتع بالسيادة، على منطقة شاسعة، تمتدّ من البحر المتوسط شمالاً والفرات ولبنان والأردن في الشمال الشرقي وسيناء شرقًا والنوبة وقسم من السودان حتى الجندل الرابع جنوبيًا، توقفت إذن عن التوسع في فتوحاتها. فلم تسع إلى الأخذ بسياسة إمبريالية حقة، كما كان حال دول أخرى، تهدف إلى الاستحواذ على إمبراطورية شاسعة. فبعد أن جرّبت مصر قرنين من الإحتلال الأجنبي، وضعت نصب عينيها ضمان أمن الطرق الإستراتيجية والتجارية التي تربط آسيا بمصر، وتطوير قدراتها الإقتصادية من خلال السيطرة على شرق البحر المتوسط، وتدعيم سيطرتها على الثروات الأفريقية.

وبدا أن الوضع الدولي مستقر. فقد كانت مصر والميتاني حليفتين، ولم يكن في وسع خاتي أو آشور أن تتطلّعا إلى فرض سيطرتهم السياسية. كانت آشور على كل حال خاضعة للميتاني. أما إمبراطورية بابل فكانت قوتها الإقتصادية، شغلها الشاغل. وكان رجال الأعمال والموفدون السياسيون يقطعون طرق الشرق، في حرية تامة، وفي مختلف الإتجاهات. ومع ذلك، أخضعتهم مصر لقدر من الرقابة، عند حدودها، حيث كان الحراس يسجلون يوميًا، أسماء الأجانب الذين يدخلون البلاد ويخرجون منها، مع توضيح موطنهم الأصلي وعلاقة القرابة.

في عام ١٨٨٧، وفي تل العمارنة، العاصمة العابرة للفرعون أمنحوتب الرابع، الواقعة على مسافة ٣٢٠كم شمال شرق طيبة، عُثر على لوحات صغيرة من الطين،

دّونت عليها كتابات باللغة **الأكدية** والعلامات **المسمارية**، وهى عبارة عن المراسلات الإدارية والسياسية المتبادلة بين **أمنحوتپ الثالث**، قرب نهاية عهده وعهد **أمنحوتپ الرابع**، وبين كافة دول **آسيا** الكبرى وأمراء **فينقيا** و**كنعان**. وفى عام ١٩٠٦، وبينما كان الدكتور **هوجو وينكلر Dr. Hugo Winckler**، يقوم بأعمال التنقيب فى **بوغاز - كوى**، البلدة الواقعة على مسافة ١٤٥كم إلى الشرق من **أنقرة**، وهى موقع **خاتوسا**، العاصمة القديمة للمملكة **الحيثيين**، أخرج إلى النور عشرة آلاف لوحة صغيرة، مدونة أيضاً بالعلامات **المسمارية** وباللغة **الأكدية** أو **الحيثية**، وكانت عبارة عن محفوظات **خاتى** الملكية، بدءاً من النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وحتى نهاية القرن الثالث عشر ق.م.

إن عشرات آلاف الخطابات والوثائق الإدارية هذه، تشكّل مصدراً رئيسيًا لمعرفة العلاقات الدبلوماسية، المعقدة فى أغلب الأحيان، والقائمة وفقًا لظروف الدسائس التى يمكن أن نستشفها أحياناً، من خلال هذه المراسلات، والتعرف باختصار على أشكال عالم السلك الدبلوماسى ووسائله.

الأحلاف والاتحادات والمعاهدات

بعد صراع طويل وإغارة **تحوتمس الثالث** على أراضى **الميتانى**، كان هذا الأخير قد وقّع مع **أمنحوتپ الثانى** حلفًا دفاعياً(٢٧). كانت هذه التحالفات، لا تعقد بين الدول ولكن بين ملوك. فلمّا تسلم **تحوتمس الرابع** السلطة، جدّد المعاهدة المبرمة مع المملكة القوية القائمة على ضفاف نهر **الفرات**. وبالمثل، فعندما ارتقى **أمنحوتپ الثالث** العرش، أوفد السفراء إلى خاله **شوتارنا الثانى**، تأكيداً على الروابط القائمة بينهما.

وحول **مصر**، تجمعت كبرى دول الشرق، القلقة من «صعود نجم» **الحيثيين** وطموحات **خاتوسالى الثانى** وخلفائه.

كانت هذه الأحلاف الدفاعية تدعمها الزيجات السياسيّة. عندئذ أخذ حكّام **مصر** و**آسيا** يمارسون سياسة نشطة، فى عقد الزيجات، استهلّها **تحوتمس الرابع** فى **مصر**. وسيصبح الزواج الذى يربط العائلات الملكية الشغل الشاغل للعالم الدبلوماسى

على امتداد سنوات حكم أمنحوتپ الثالث. وعندما تربع توشراتا على عرش الميتاني، وهو ابن خال العاهل الملكي المصري، طلب هذا الأخير من الأول، أن يتزوّج أخته الأميرة جيلوخيبا التي سافرت إلى طيبة، وفي معيتها ٣١٧ فتاة. فقد كانت بيوت الحريم التابعة للملوك تضم أعداداً كبيرة من الفتيات.

كانت مصر تقيم مع بابل علاقات تجارية دائمة. وتدعيماً لها، تزوج أمنحوتپ الثالث على التوالي، ابنة واخت الملك كادشمان خورب الأول. وفي المقابل، يبدو أن فرعون مصر، كان يجد غضاضة أن يُزوّج إحدى بناته لملك أجنبي. والشاهد على ذلك أحد خطابات ملك بابل، وإن كان أسلوبه أبعد ما يكون عن الأساليب التي تشدّ انتباهنا:

كادشمان – إنليل من بابل إلى أمنحوتپ (الثالث) من مصر...

(بيد) أنك يا أخي، إذ بعثت إليك برسالة طالبًا يد ابنتك للزواج، فكيف تستطيع إذن أن تراسلني رافضاً طلبي بالعبارات الآتية: «منذ أزمنة موغلة في القدم، لم تُقدّم ابنة لملك مصر، لكائن من كان ليتزوجها!» لماذا تتكلم على هذاالنحو؟ أنت ملك وتتصرف كما يحلو لك. فإذا كنت تريد تقديم ابنتك للزواج، فمن يستطيع أن يلومك؟ فعندما أبلغوني هذا القرار، كتبت رسالة إلى أخي بالعبارات الآتية: «لاتنقصك البنات العظيمات، ولا النساء الجميلات. ابعث إليّ امرأة جميلة باعتبارها ابنتك. فمن يجرؤ أن يقول: «هذه ليست ابنة ملك!». أما أنت، فقد تمسّكت بمبدأ عدم إرسال أحد، فلم تُرسل إليّ أية امرأة. أما أنت، ألم تسع إلى إقامة علاقات أخوية ووديّه، عندما اقترحت عليّ، كتابةً، عقد زواج بهدف ايجاد تقارب بيننا. فلماذا إذن لم يرسل إليّ أخي امرأة؟... من الممكن أنك، لم ترسل إليّ امرأة، أما أنا، فهل يمكنني مثلك، أن أرفض لك امرأة، ولا أرسلها لك؟ أما عن بناتي، فلن أرفض لك طلبًا بهذا المعنى... وبشأن الذهب الذي طلبته، فارسل لي الآن، على جناح السرعة، في بحر هذا الصيف... وقبل أن يصلني رسولك، (ارسل) ذهبًا بكميات كبيرة، وبقدر ما هو في متناول يدك! هكذا سأتمكن من اكمال العمل الذي أقوم به[٢٨]*. وإذا أرسلت إليّ، الذهب الذي طلبته منك، في بحر هذا الصيف، فسوف أعطيك ابنتي زوجة لك. هكذا،*

إرسل كميات من الذهب، برضاك، وبقدر استطاعتك! ولكن إذا لم ترسل إليّ الذهب... بحيث لا أستطيع استكمال العمل الذى أقوم به، فلماذا إذن أرسلت إليّ، منه فى السابق برضاك؟ فبعد أن أنفّذ العمل الذى أقوم به، تُرى لماذا أطالب بالذهب؟ فلو أرسلت إليّ مثلاً، ٣٠٠٠ تالان(*) ذهب، فلن أقبلها، وسوف أعيدها إليك، ولن أعطيك ابنتى زوجةً لك[٢٩]!

يا لها من حساسية مفرطة ومساومات لا تنتهي! وغطرسة فرعون مصر الذى يرفض تعريض سمعة ابنته مع أجانب. وسوف يتصرف الرعامسة أيضًا على هذا النحو.

هكذا فسياسة السلام التى برزت من خلال الزيجات الملكية، قد ترتب عليها من جانب مصر، سياسة مالية جديدة كل الجدة. فمصر فى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، هى القوة المالية الأولى فى العالم، فيؤسس الذهب صداقات جليلة الفائدة. إن الأحلاف المبرمة التى عززتها الزيجات التى عقدت مع مملكتى الميتاني وبابل، كانت قائمة على إتفاق مالى حقيقى، يلتزم فرعون بموجبه أن يقدم لحلفائه هبات هامة.

ولكن بابل الموفورة الثراء، كانت المركز الكبير لتجارة هذه الأزمنة. ولا شك أن ثروتها، كانت فى أيدى التجار وليس الملوك الذين رأوا أنه من الأيسر الإقتراض من ملك مصر وفضلوه على رجال المصارف في بلادهم. فكان من السهل عليهم، مقابل ذلك تقديم بناتهم للزواج!

وعلى كل حال، فإن طبيعة المقابل، لهذه الهبات أو القروض، متنوعة. فيكتب توشراتا إلى أمنحوتپ الثالث:

فليرسل إليّ، أخى ذهبًا، بلا حدود، وبكميات كبيرة. وكل ما يشتهيه أخى لبيته،

(*) تالان: مثقال يونانى قديم يساوى ٢٦ كيلو جرامًا. المنجد فى اللغة العربية المعاصرة. دار المشرق. بيروت. ط٢. ٢٠٠١. (المترجم)

فليبلغنى به. وسوف يتسلّمه، لأننى سأعطيه كل هدية قد يشتاق إليها أخى، لأن هذا البلد بلدك وهذا البيت بيتك(*)(٣٠).

هذا الوضع المرموق الذى احتله ملك مصر، وقيامه بإمداد ملوك زمنه بالذهب، كان فى الوقت نفسه بالطبع من أساليب السيطرة السياسية.

كانت العلاقات الدبلوماسية مع مملكة آلاسيا(**) وثيقة جداً، ولكنها تكشف عن سياسة متميزة. وبالفعل كانت آلاسيا دولة تجارية، يتركز جلّ نشاطها فى المجال التجارى. فالسفراء الذين يوفدون إلى بلاط مصر من التجار. وعندما يقرأ الباحث المراسلات المتبادلة بين الطرفين يبدو على الأرجح، أن معاهدة تجارية كانت قد وقّعت بين الدولتين، بمبادرة من ملك آلاسيا، على ما يظن. كانت هذه المعاهدة تعفى السفن والبضائع القبرصية من الرسوم الجمركية عند دخولها مصر، مقابل استيراد كمية محددة من النحاس والخشب. ويرجّح أن كمية النحاس كانت تتجاوز من بعيد الثلاثين طناً. ومن ناحية أخرى، كان فرعون ملزمًا بحماية الأفراد القادمين من آلاسيا وممتلكات تجّارها عند قدومهم إلى مصر(٣١).

ومن بين المراسلات المتبادلة نختار هذا الخطاب:

إلى أخى، ملك مصر، هكذا يتحدث أخوك ملك آلاسيا. أما فيما يخصنى، فكل شىء على ما يرام! أما فيما يخصك، فأملى، أن يكون كل شىء على ما يُرام! وأن كل شىء على ما يرام بالنسبة لبيتك ونسائك وأولادك وجيادك ومركباتك وكافة شئون بلدك فى الداخل.

ومن جهة أخرى، فقد علمت أنك تربعت على عرش بيت والدك... لقد وصلتنى تحيات أخى، فى حين نقلت إليك واحد... من مئتى تالان نحاس... مبعوثى يرحل بأسرع ما يمكن، بعد أن يضع لوحتى الصغيرة أمامك. واكتب لى إذن رسالة! لا ينبغى أن يستبقى أخى رجلى الذى تحدث معه. اتركه يرحل بأسرع ما يمكن! ليت

(*) ما زلنا نستخدم هذه العبارة للترحيب بالضيوف. (المترجم)

(**) قبرص حالياً. (المؤلفة)

مبعوثى يحضر سنويًا إلى جوارك. وفيما يخصنى، فليت مبعوثك يحضر سنويًا إلى جوارى(٣٢).

تشهد هذه الخطابات على وجود سفراء، يتم تبادلهم بصفة شبه منتظمة، وفى الوقت نفسه، على ظهور أولى القوانين الدولية.

السلك الدبلوماسى

لم يتوقف السفراء عن الترحال من بلاط ملكى إلى آخر، فى طول الشرق الأسيوى وعرضه. ولكنهم لم يحملوا صفة السفراء المعتمدين، كما لم يكن لهم مقر ثابت: فيوفدون فى كل مرة، فى مهمة خاصة، ولا يقيمون فى البلاط الأجنبى، إلا للفترة اللازمة، لانجازها على خير وجه. كانوا شخصيات رفيعة الشأن والموفدون الشخصيون للملك. وقد وصلت إلينا، ذكرى المصرى: **مانى**، الذى كان لا يمتلك ناصية اللغات الأجنبية، فيصاحبه بالضرورة مترجم فورى، وأيضًا ذكرى الميتانى: **چيليا** الذى كان جميع أفراد أسرته منخرطين فى السلك السياسى، وذكرى البابلى: **سالمون**. إنهم رجال لهم وزنهم، ويُحسب لهم حساب، على صعيد الشئون الدولية، ويستشيرهم الملوك شخصيًا، فى بعض الأحوال.

كانوا يكلفون بمهام متنوعة، وهى سياسية بطبيعة الأحوال: كمفاوضات الزيجات أو القروض أو الأحلاف أو معالجة بعض قضايا السياسة الدولية، من خلال مناقشات مسهبة لا تنتهى. كما تعددت على نحو خاص مهام المجاملات: فيوفَد سفيرٌ محملٌ بالهدايا لتحية أحد الملوك، بمناسبة اعتلائه العرش، أو بمناسبة إقامة حفلات رائعة فى بلد من البلدان، أو عند زواج الملك أو بمناسبة تنصيب ملكة. وفى مصر، كان هذا الحدث يذاع على رؤوس الأشهاد فى هيئة نصوص مدونة على جعارين. وكان شكلها الشبيه بشكل إله الفجر(*)، يضفى على «النبأ» فاعلية سحرية تمهدً لمصائر سعيدة. كانت تُنتج بأعداد كبيرة، ومنها على سبيل المثال، الجعران الذى يُعلن زواج

(*) خبرى. (المترجم)

أمنحوتپ الثالث من «*الزوجة الملكية العظيمة*» تيي[٣٣]، ويقوم السفراء بتسليمها إلى كافة القصور الملكية في ذلك الزمان. وعند وفاة ملك، يقوم السفراء أيضًا، بتقديم واجب العزاء إلى وريثه. وإذا مرض أحد الملوك، توفد بعثة لزيارته للاستفسار عن صحته.

هكذا تشكلت مجموعة قواعد وأعراف رسمية. كان عدم الإلتزام بها يعتبر عملاً فظًا، بل معاديًا. فكانت ذات قيمة دولية. وتكتب المراسلات في الغالب، باللغة **الأكدية**، وهي لغة بلاد آكاد، ومركزها بابل، منذ عهد حمّورابي(*)، الفاتح والمشرّع. كان الأسلوب الدبلوماسي قد تحدد حتى أدق تفاصيله، ومجموعة الصيغ والعبارات لا تتغير ولا تتبدل. وفي عهد أمنحوتپ الرابع، احتجّ سوپيلوليوما ملك خاتي، بسبب عدم الإلتزام بمجموعة القواعد والأعراف الرسمية، إذ تغيّر الترتيب المعتاد لأسماء الملوك.

أولى عناصر القانون الدولي

ترتب على ضخامة حركة انتقال البشر والثروات، عبر طرق الشرق، ضرورة تحديد التدابير العامة لتوفير الحماية، ووضع قواعد ملزمة للجميع، هكذا بدأ يتشكل القانون الدولي الأول.

كان التأثير الدائم منذ أربعة قرون لمدونة حمّورابي القانونية تأثير حاسم(**). ومن المرجّح أن بابل كانت الأصل الذي جاءت منه أولى «*القواعد*» التي تسعى أساسًا،

(*) حمّورابي: دام حكمه ٤٢ سنة، ابتداءً من ١٧٣٠ق.م، على ما يظن. (المترجم)

(**) قوانين حمّورابي مدونة على لوح من حجر البازلت ارتفاعه ٢٢٥سم. من مقتنيات متحف اللوڤر. عثرت عليه البعثة الفرنسية في مدينة سوس، في الموسم ١٩٠١-١٩٠٢. لمزيد من التفاصيل: Les collections du Louvre. Réunion des Musées Nationaux. 1999, p.41.
أما قوانين حمّورابي فقد ترجمها إلى العربية الدكتور نجيب ميخائيل إبراهيم في كتابه الموسوعي: مصر والشرق الأدنى القديم. المجلد السادس. دار المعارف. الطبعة الثانية - ١٩٦٧- ص٥٣-٨١. ولا بأس إذا قام مشروع مكتبة الأسرة بإعادة طبع هذه الموسوعة الهامة. (المترجم)

إلى حماية الأشخاص والممتلكات المصاحبين للسفراء والتجار، أثناء ترحالهم فى البلدان الأجنبية.

فإذا تعرض أحد السفراء، ومن في معيته، وهو في أرض مصر أو إقليم تابع لها، إلى هجوم أو حادث سطو، يصبح ملك مصر مسئولاً عن هذا الإعتداء أو السلب والنهب ويتعين على الفرعون أن يقدم تعويضًا للأشخاص، عما أصابهم من أضرار. ومن جهة أخرى، كان يحمل السفراء جواز مرور، يؤكد على الحماية التى يجب أن يوفرها لهم هذا العاهل الملكي أو ذاك. والشيء نفسه يتمتع به التجار.

أما عن ممتلكات المسافر الذى يقضى نحبه في بلد أجنبي، وإذا تم الإعمال فى بعض الأحوال بمبدأ حق وراثة الطارئ[*] - أى أن تؤول ممتلكاته إلى مَلك البلد الذى توفّى فيه، فيمكن فى أحوال أخرى، الطعن فى هذا التصرف وإعادة الممتلكات إلى وطن المتوفى بالطرق الدبلوماسية.

● خطاب من ملك آلاسيا إلى فرعون:

إن مواطنًا من آلاسيا توفّى فى مصر، وممتلكاته موجودة فى بلدك، فى حين أن ابنه وزوجته فى آلاسيا. فليتكرم أخى إذن، بجمع ممتلكات مواطن آلاسيا ليضعها بين يدىّ موفدى[٣٤].

«يُقصد بذلك، تطبيق نظرية تدور حول مسئولية الدولة، يبدو أنها مشتقة مباشرة من قوانين حمّورابى التى تحدد، فى واقع الأمر، فى ماديتها ٢٣ و٢٤، أنه يحق لعمدة كل مدينة، ردع أعمال قطاع الطرق وإلقاء القبض على مرتكبى الجرائم، فى دائرة إختصاصه، وإحالتهم إلى القضاء، وفضلاً عن ذلك، فإذا أفلت المجرمين من الملاحقة القضائية، فيحق لضحاياهم أن يعترضوا على العمدة وعلى المدينة ليطالبوهم بالتعويض[٣٥]».

هذا التقليد المتواتر الذى يبدو أنه يجعل من بابل المصدر الذى جاء منه القانون، يفسر بلا شك السبب وراء اختيار اللغة الأكدية، لغة الدبلوماسية الدولية.

(*) الغريب. المعجم الوسيط. (المترجم)

هذا النظام القانوني يرتبط ارتباطاً وثيقًا بالدين. فالآلهة هي الضامنة التي تكفل القانون برعايتها. وليس مجرد مصادفة أن يظهر هذا النظام في اللحظة التي أخذت الشعائر تتداخل، وظهرت كبرى المذاهب التلفيقية syncrétisme الدينية: فجمعت بين آلهة الزراعة رمز البعث والإحياء، ومنها أوزيريس وبعل وأدونيس، وبين الآلهات الأم مثل حتحور و بعلت اللتين شاع الخلط بينهما، منذ زمن بعيد، ولكن أيضا عشتار أو عشتروت(*). إن اندماج العقائد خير ضامن للوحدة السياسية وشرعية العلاقات القانونية.

وتظل طيبة في قلب السياسة الدولية.

٣- بلاط طيبة

تقع طيبة على البر الشرقي من نهر النيل. والمدينة مناخها حار، وهواؤها مليء بالأتربة وطنين الذباب. المدينة صاخبة، بمينائها الذي ترسو فيه السفن القادمة من كل حدب وصوب، من بلدان الشرق. المدينة جامعة لمختلف الأجناس، وفي وسع المرء، أن يسمع الناس يتحدثون فيها كل اللغات الأجنبية. المدينة هي العاصمة الفخمة لإمبراطورية شاسعة.

فيها ذهب المعابد وأبهة القصور وثراء الديار وجوّ الحدائق العليل. وفيها أيضاً، الحواري الصغيرة المبلطة تبليطًا سيئًا، تحفها المنازل المنخفضة بشبابيكها الضيقة، والدكاكين المشيدة تشييداً عشوائياً، ففيها يعيش جمهور من الحرفيين. أما سواد الشعب من أبناء طيبة، المتعاملون مع البلاط الملكي والمنتفعون من الثروات التي تتكدس في المدينة، والمساهمون في ازدهارها، هؤلاء الأفراد الذين لا نعرف عنهم شيئا معرفة حقيقية، كان يحلو لهم الإختلاط بكبرى الأعياد، فيهللون فرحين مبتهجين.

(*) عن هاتين الإلهتين راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتي. دار المستقبل العربي - ٢٠٠١ - ص ٢١٩-٢٢٠. (المترجم)

القصور والأعياد اليوبيلية

ويطبيعة الحال، كانت القصور قائمة فى الأقصر. ولكن أصدر أمنحوتپ الثالث أمره، فى العام ٢٩ أو ٣٠ (؟) على ما يعتقد، بتشييد مدينة ملكية، على البر الغربى، لا تبعد كثيراً عن مدينة هابو(*)، وربما امتدت لتلاصق حدود المعبد الجنائزى لهذا العاهل الملكى، القائم خلف تمثالى ممنون. إن قصر ملقطة وملحقاته التى كانت تغطى أصلاً ٢٢٦٨٠٠ متراً مربعًا(**)، شُيدت فوق أرضٍ بكرٍ تمامًا. أما الآن، فإن دماراً شاملاً قد لحق بالقصور. كانت ملقطة تضم أربعة قصور ملكية خُصّص أحدها للملكة تيى ومعبداً للإله آمون، به مقصورة للإله رع وقاعة للأعياد وديار فخمة. وإلى الجنوب الشرقى من هذه «*المدينة*»، حفر مرفأ صناعى فسيح، هو بركة هابو. وتلتزم زخارف القصر إلى حد كبير بجماليات المذهب الطبيعى، وتُرهص بزخارف قصر أمنحوتپ الرابع، فى تل العمارنة.

ذهب البعض إلى أن إقامة منطقة للقصور الملكية فى البر الغربى الذى كان مخصصًا تقليديًا للجبانات، إنما يعتبر سلوكًا مناوءًا لكهنة الكرنك، ورغبة من أمنحوتپ الثالث فى الإبتعاد عنهم. ومن المؤكد، أن نهاية عهد العاهل الملكى، قد شهد قيام معارضة حادة بين رجال الدين والفرعون، فكانت إرهاصًا مهّد لعصر العمارنة القصير.

إن بعضًا من أعياد اليوبيل الثلاثة التى احتفل بها أمنحوتپ الثالث، بل وربما جميعها أقيمت فى ملقطة. ولكن، لم تصلنا عن هذه الأعياد المكرسة لاستعادة حياة العاهل الملكى وتجديدها، سوى معلومات غير مباشرة ومتفرقة، بل ومتناقضة أحيانًا.

ففى مقبرة خرو إف(***) الكاتب الملكى ورئيس استقبال الملكة تيى وخازنها، فى وسع المرء أن يقرأ النص الآتى:

(*) فى نجع كوم لولح. (المترجم)

(**) أو ما يعادل ٥٤ فدانًا، أو أقل قليلا من مساحة معبد الكرنك (٦٢ فدانًا). (المترجم)

(***) وهى المقبرة رقم ١٩٢ بالعساسيف. (المترجم)

اليوم...، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام ٣٠ ... ظهور... (تلى مجموعة الألقاب الملكية) *أمنحوتپ، حاكم طيبة ورب القوة، ابن أمون، الذى سيتربع على عرشه، بينما يتواجد فى قصر أعياد اليوبيل، الذى شيده إلى الغرب من المدينة*[٣٦]، (ملقطة).

وهناك إشارة غير مؤرخة إلى عيد اليوبيل الأول الذى احتفل به أمنحوتپ الثالث. وقد وردت على تمثال يصور خع إم واست وزوجته، وقد جادت به مدينة بوباستس. ويحمل الرجل ألقاب «*قائد رماة السهام والمشرف العام على بلاد الشمال ومقدّم العرائض إبان أول الأعياد سد*(*)[٣٧]».

أما ما نعرفه عن اليوبيل الثانى فى العام ٣٤، فينحصر فقط فى التنويهات الواردة على لصائق الجرار التى عثر عليها فى أطلال قصر ملقطة. فمن بين ٤٠٤ لصيقة نجد أن ٣٨٠ منها، مؤرخه بالعام ٣٤، وتذكر الديباجة الآتية: «*من أجل تجديد العيد سد لصاحب الجلالة*». ومن المفترض أن هذا اليوبيل قد اكتسب أهمية ملحوظة. ولا يستبعد أن يكون معبد أمون القائم ضمن المجموعة الملكية بالبر الغربى، قد شُيّد بهذه المناسبة[٣٨].

أما تاريخ ثالث أعياد اليوبيل فيختلف باختلاف المصادر.

فتعلن مدونة بسرابيط الخادم فى سيناء:

اليوم التاسع، من الشهر الثانى، من فصل الإنبات، من العام ٣٦، فى عهد صاحب الجلالة... أمنحوتپ، حاكم طيبة، كان صاحب الجلالة فى مدينة الجنوب، فى قصره بالبر الغربى من مدينة طيبة. فصدر الأمر إلى الكاتب الملكى، المشرف العام على الخزينة: سويك حوتپ، المدعو پانحسى، بجلب الفيروز، عندما كان صاحب الجلالة (يحتفل) *بثالث أعياد اليوبيل*[٣٩].

ويتحدد التاريخ نفسه، فى مدونة بمقبرة خرو إف:

(*) أى عيد اليوبيل. (المترجم)

العام ٣٦. دخول الأصدقاء... إبان ثالث الأعياد سد، لصاحب الجلالة من قبل... خرو إف[٤٠].

غير أن لصائق جرار ملقطة تحدد هذا التاريخ بالعام ٣٧ أو العام ٣٨. وتذكر ٢٢٥ لصيقة العام ٣٧، فى حين تذكر لصيقتان فقط العام ٣٨. ولكن النص المدوّن صيغ على النحو الآتى: *العام ٣٧*. نبيذ *ثالث عيد سد لصاحب الجلالة*[٤١]. وقد نذهب إلى الظن، بأن هذا النبيذ الذى يحمل لصيقة مؤرخة بالعام ٣٧ أو العام ٣٨، يخص جنى العنب الذى تم لحظة العيد اليوبيلى فى العام ٣٦، ولكن لم يُصبّ فى هذه الجرار ليُعتّق، إلا فى تاريخ لاحق.

ويتضح من ذلك، أن الكثير من الحفلات الرسمية فى هذا العهد كانت تقام فى ملقطة.

الملكات والزوجات

فى عهد تحوتمس الرابع، عاشت «*زوجتان ملكيتان عظيمتان*» فى **الأقصر**: موت إم ويا الميتانية و يعرت، وشاركت كلاهما فى حياة البلاط الملكى.

إن الملكة تيى الزوجة العظيمة للملك أمنحوتب الثالث، كانت المحبوبة المفضلة وصاحبة فكر سياسى ثاقب. لقد احتفظت التماثيل والنقوش بصورة لوجه تميل تقاطيعه إلى البروز، ووجنتاه ناتئتان وذقنه مدببة، وتتخذ فى الغالب مظهراً أبعد ما يكون عن السماحة والرقة - إنها سيدة جليلة القدر.

إن واحدة من هذه الصور، وهى تمثال صغير من الحجر المطلى بالمينا الخضراء، ومن مقتنيات متحف **اللوفر Le Louvre**، فى الوقت الراهن، قد مرّ بمغامرات لا تنتهى. ففى عام ١٨٢٦ حصل **شمبوليون Champollion** لصالح متحف **اللوفر**، على الجزء الأسفل من تمثال صغير من الحجر المطلى بالمينا الخضراء للملكة المذكورة. كان هذا التمثال الصغير يضم فى الأصل صورة الملك التى كانت قد

اختفت. وكان عالم المصريات الفرنسي، قد حصل على هذه القطعة الأثرية ضمن غيرها من قطع مجموعة سالت(*) Salt. ثم قامت ثورة ١٨٣٠(**)، وسُرق «نصف التمثال» من المتحف مع غيره من القطع، ثم بيعت بعد ذلك بطريقة غير مشروعة. ولكن استطاع متحف اللوفر استعادة هذه القطع، نظير تعويض دفعه للملاك الجدد. ثم نصل إلى ما يرويه چاك ڤاندييه(***) Jacques Vandier أمين متحف اللوفر: «أما بقية القصة فتعود إلى تاريخ قريب. ففي أغسطس ١٩٦٢، أحضر لنا أحد مورّدي متحف اللوفر الجزء العلوي من تمثال للملكة تيي وهو من الحجر المطلي بالمينا الخضراء. ومن السهل التكهن بما حدث بعد ذلك. إنه الإنطباع الواضح الذي يتركه واقع سبق معرفته. فعلى الفور استعادت الذاكرة قطعة سالت Salt الأثرية، وجرى البحث عنها، ومضاهاة القطعتين، لتحدث أخيراً «*المعجزة*» فقد بلغ تطابق الجزءين حداً من الكمال، حتى صار من الصعوبة بمكان، أن يلاحظ المرء أن التمثال الصغير كان يتكون أصلاً من عنصرين، ظلا منفصلين لمدة ١٣٦ سنة، إلا إذا كان يعرف ذلك، من قبل. يا لها من سعادة، لا يشعر بها من يعمل أمين متحف، إلا في النادر القليل، وبصورة إستثنائية(****)... ولكن من البديهي، أن هذه السعادة لن تكتمل إلا بعد أن يكون قد الجمع بين الزوجين[٤٢]».

(*) هنري سالت Henry Salt: القنصل العام لبريطانيا العظمى في مصر في مطلع القرن التاسع عشر. (المترجم)

(**) الإشارة هنا إلى ثورة يوليو ١٨٣٠، في فرنسا، التي أتت بالملك لويس – فيليب Louis-Philippe إلى العرش. (المترجم)

(***) من علماء المصريات الفرنسيين البارزين وصاحب الموسوعة الشهيرة:

Manuel d'Archeologie Égyptienne

وهي في ستة أجزاء موزعة على ثمانية مجلدات، وقد توالى صدورها من ١٩٥٢ إلى ١٩٧٨. وللأسف لم تكتمل هذه الموسوعة. (المترجم)

(****) يمكن تأمل الصورة الرائعة لهذا التمثال في:

G. Andreu, M.-H. Rutschowscaya. Ch. Ziegler: L'Egypte Ancienne au Louvre, Hachette, 1997, p.121. (المترجم)

ففي مجال علم المصريات، من الصعوبة بمكان التكهن، بما يخفيه المستقبل من كشوفات، غير منتظرة. فأن يكون المرء عالم مصريات، يعني توقع «*المعجزات*».

كانت تيي تنتسب إلى عائلة تعود إلى أصول متوسطة الحال، وتنحدر على ما يعتقد من منطقة كوبتوس، وقد أنعم عليها الملك بأعلى المراتب. ولا تنعت هي ووالديها، بأي لقب، في النص الرسمي الذي أعلن زواجها، والمنحوت على الجعارين التي تم توزيعها في بلاط كل ملك من ملوك البلدان الأجنبية:

فليحى... (مجموعة ألقاب الملك) *والزوجة الملكية العظيمة تيي. اسم والدها يويا. واسم والدتها تويا. إنها زوجة الملك القادر الذي تمتد حدوده الجنوبية حتى كاروي والشمالية حتى نهارينا*[٤٣].

أصبح يويا فيما بعد، خازن ملك مصر السفلى والأب الإلهي وخادم الإله مين والمشرف العام على قطعان مين والمشرف العام على المركبات وقائمقام صاحب الجلالة وأثير الحورس الذي في القصر وأثير سيده آمون. كما أُنعم عليه بألقاب شرفية أخرى، في البلاط الملكي، فكان «*فم ملك مصر العليا وأذني ملك مصر السفلى*»[٤٤].

أما تويا فقد أقرت بصفتها «*زينة الملك*». وصارت منشدة آمون والسيدة العظيمة في حريم آمون والسيدة العظيمة في حريم مين.

أما عانن أخو تيي، فكان الخادم الثاني للإله آمون وكبير كهنة هليوبوليس والكاهن سم في هرمونتيس[٤٤مكرر].

تمّ الزواج في بداية العهد، وقبل العام الثاني، وهو التاريخ الذي ظهر فيه اسم تيي ضمن قائمة ألقاب الملك. فسرعان ما احتلت الملكة مكانة مرموقة في الحياة السياسية. ولأول مرة، تضمّنت قائمة ألقاب الملك، اسم الملكة على النحو الآتي:

العام...، في عهد الملك أمنحوتپ. والزوجة الملكية العظيمة تيي.

لقد استهلت عُرفًا، سيظل معمولاً به حتى نهاية الأسرة الثامنة عشرة، ليختفي بعد ذلك ولا يعود إلى الظهور.

إن الألقاب والنعوت التي تحلّت بها تيي، تشهد على ما نالته من حظوة مرموقة لدى العاهل الملكي:

السيدة النبيلة، الأثيرة الجليلة القدر، سيدة الشاطئين، الرقيقة القلب، المتسيّدة على مصر العليا ومصر السفلى، صاحبة الهيبة المرموقة والزينات المقدسة(٤٥). *سيدة السرور، التي تتولى أمر النسمات*(٤٦).

العديد من هذه الألقاب، هي ألقاب فرعون المعتادة، وإن كانت في صيغة المؤنث. وفي زمن لاحق، سوف تتمتع نفرتاري بحظوة مشابهة، لدى رعمسيس الثاني(٤٧).

وفيما يلي، هذه الجملة المنحوتة في مقبرة خروإف، الخادم المخلص، والتي تكشف عن المكانة المرموقة التي تبوأتها الملكة تيي في بلاط الملك:

الزوجة الملكية العظيمة، محبوبته *تيي*. *إنها تقيم في معية صاحب الجلالة، تمامًا كما أن ماعت تصاحب رع*(٤٨).

إن أمنحوتپ الثالث وتيي، وجهان للكيانين الإلهيين اللذين يضمنان وحدة العالم وتماسكه وترابطه. فلم يحدث أبداً من قبل، أن توحّد الزوجان الملكيان، على هذا النحو، مع النظام الكوني والإلهي.

ولا ريب، أن إنعامات الملك ورعايته لها، كانت من الأهمية بمكان، في هذا الصدد. فمن أجلها أمر «بإقامة» بحيرة شاسعة، للترويح عن نفسها، صالحة لسير القوارب، وكان افتتاحها مناسبة لإصدار سلسلة من الجعارين. وذهب الكثيرون إلى اعتبارها هي بركة هابو، القائمة بجوار قصر ملقطة، شيئًا واحدًا.

اليوم الأول، من الشهر الثالث، من فصل الفيضان، من العام ١١، من عهد صاحب الجلالة... (قائمة ألقاب الملك) *والزوجة الملكية العظيمة تيي، أمر صاحب الجلالة بإقامة بحيرة* (أو: حوض) *للزوجة الملكية العظيمة تيي بمدينتها في چعروخا. كان طولها* ٣٧٠٠ *ذراع* (١٩٢٤ متراً) *وعرضها* ٦٠٠ *ذراع* (أو ٧٠٠ ذراع في بعض القراءات، أي ما يعادل ٣٦٤ متراً). وفيما بعد، *وفي اليوم السادس عشر، من الشهر*

الثالث، من فصل الفيضان، وبمناسبة إحتفال صاحب الجلالة بعيد فتح – البحيرات (أو الأحواض)، شق الماء على متن القارب الملكى (المسمّى) «أتون – المتألق»(٤٩).

هل كانت بحيرة للترويح عن النفس؟ أو حوضًا لرى أراضى الملكة؟ وعلى كل حال فقد انتهى العمل فى ظرف خمسة عشر يومًا. ومؤخرًا، أورد **چان يويوت**(*) Jean Yoyotte البراهين المؤيدة للفرضية الثانية(٥٠)، إستنادًا إلى العبارات المستخدمة، واحتمال تحديد موقع **چعروخا**، فى منطقة **كوپتوس**، موطن **تيى** الأصلى.

ومن أجلها أيضًا، أمر العاهل الملكى، بإقامة معبد فى **صادنقة** على بعد ٢١٠كم، جنوب **وادى حلفا**(٥٠ مكرر).

ومن اقتران **أمنحوتپ الثالث** «*بالزوجة الملكية العظيمة*»، رُزق بخمس بنات وابن واحد الذى سيصبح فيما بعد **أمنحوتپ الرابع**.

وفى العام العاشر، وصلت إلى بلاط **طيبة**، «*زوجة ملكية عظيمة*» ثانية، هى **جيلوخيبا**، شقيقة ملك **الميتانى**(٥١).

وقام **أمنحوتپ الثالث** بالاقتران بعدد من بناته، ممهدًا السبيل لتجارب **الرعامسة** الزوجية. وقبل العام ٣١ من عهده، تزوّج سات **أمون** واسمها يعنى «*ابنة أمون*» التى تحمل بالفعل لقب «الزوجة الملكية العظيمة»، فى آن واحد، مع والدتها **تيى**. وهذه الحقيقة معلنة بوضوح، على عدد من القطع الأثرية. نذكر على سبيل المثال، شريطًا من الأبنوس، جاء من صندوق صغير، وقد دوِّنت عليه الألقاب الآتية:

الإله الكامل، رب القطرين، سيد إقامة الشعائر، ملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع، ابن رع: أمنحوتپ، حاكم طيبة. ابنة الملكة، الزوجة الملكية سات أمون التى ولدتها الزوجة الملكية العظيمة تيى(٥٢).

ويذهب بعض علماء المصريات إلى احتمال أن يكون **توت عنخ أمون**، ثمرة هذا الزواج، لأن أصوله ما زالت، غير مؤكدة(٥٣)، ولكن هذا الرأى يحتاج إلى أدلة تبرهن عليه.

(*) عالم مصريات فرنسى. (المترجم)

(**) لم يُدوَّن الاسم داخل خرطوش. (المؤلفة)

ومن المحتمل أيضاً، أن أمنحوتپ الثالث، قد تزوج إحدى بناته الأخريات، وهى إيزيس، وربما ابنة ثالثـه، هى خنت ـ تا ـ نب (أى: *تلك – التى* – تقف – *على – رأس البلد* – بأسره)(٥٤).

أتعنى هذه الوقـائع، فى إطار الأيديولوچيا المصرية، حالة من حـالات جمـا ع المحـارم؟ فـفى الإمكان النظر إلى هذا الزواج على هذا النحـو، إذا كـان الأمر يتـعلق بعـائلة غيـر ملكيـة، لأن المصريين كانوا لا يميلون أبداً إلى الحرية الزائدة فى مـجال الأخلاق والآداب العامة(*). ولكن، لمّا كان الأمر يتعلق بفرعون، يصبح الفكر مختلفاً. لقد رأينا مدى اهتمام الملوك باستمرارية نسل الأسرة الملكية الحاكمة ونقاء الدم الذى يجرى فى عروق الملوك. ومن جهة أخرى، فالفرعون من جوهر إلهى. كان أمنحوتپ الثالث ابن «*أجنبية*»، وهو ما كان يحدث لأول مرة فى تاريخ مصر، فربما أراد بهذا السلوك أن يتـجسـد فى ابنتـه من أجل «اسـتـرجـا ع» نقـاء الدم أو الحـفـاظ عليـه فى المستقبل. وقد سبق له، أن أعلن انتماءه إلى عالم الآلهة بصفته «*ابن آمون– رع*»، عن طريق الولادة الإلهية(**). وما كان يعتبر فعلاً مستهجناً ومداناً فى العصور القديمة، كما فى الوقت الراهن، بالنسبة لعائلة عادية، لم يكن على هذا النحو، فى نظر العائلة المالكة التى ظلت إلى حدّ كبير، بعيدة عن المعايير المطبقة فى المجتمع البشرى.

كما شـهد البلاط الملكى المحظيات المصريات، بلا شك، والأميرات الأجنبيات اللواتى شكلن حريماً رائعاً، وإن كان لا يدانى سخاء عصر الرعامسة وبذخه، واللواتى أخذ أعدادهن يتعاظم مع التطور السلمى للعلاقات الدولية.

(*) وما زالوا. (المترجم)

(**) كما صورها فى معبد الأقصر. (المترجم)

كبار المسئولين

إلى جانب تحوتمس وحپو الوزيرين في عهد تحوتمس الرابع، بالتزامن مع وزير الشمال أمنحوتپ، ومن بين كبراء البلد وأعيانها، فإن رع مس الذى شغل منصب الوزير في طيبة، قرب نهاية عهد أمنحوتپ الثالث، نعرفه أكثر من غيره، كما كان أرفعهم شأنًا، وظل يباشر وظيفته في العام ٣٠، أثناء الإحتفال بعيد اليوبيل الأول للعاهل الملكى. ومقبرته التى تم الكشف عنها في الشيخ عبد القرنة وتحمل رقم٥٥، هى واحدة من أجمل مقابر الجبانة(*). لقد انتهى العمل فيها في عهد أمنحوتپ الرابع. وتعتمد معظم زخارفها على النقش البارز وليس الرسومات(**). وتبرز بوضوح الإنتقال بين أسلوبى عصرين. إن أشكالها الرائعة الجمال الأكاديمى، ورقة ملامحها ومرونة أجسادها، وأناقة أزيائها وحليّها، تعبّر عن رغد العيش وبذخه، بل إن سلاسة خطوطها وليونتها، إذا صحَّ القول، وكلها من سمات زمن أمنحوتپ الثالث، تختلط إختلاطًا ملحوظًا بواقعية نقوش زمن أمنحوتپ الرابع، وخطوطها القلقة المضطربة. أمّا زخارف المقبرة فتقتصر فقط، على الفناء وبهو الأساطين، حيث ظلت حجرة الدفن ناقصة لم يكتمل العمل فيها، ويرجع السبب في ذلك بلا شك، إلى القلاقل الخطيرة التى سادت هذاالزمان.

كان موظفًا ذا همة وحميّة، مخلصًا للملك. فيعلن أنه أمضى حياته على الصدق والوفاء، وهو ما يقوله في سياق صلاة إلى أوزيريس، صاغها في صحبة زوجته مريت ـ پتاح منشدة آمون:

إنى أحضر الآن في سلام، بعد أن أتممت زمن الحياة وقد أغدق علىّ الإله الكامل (الملك) العطاء. لقد انجزت ما كان يرجوه الناس، وما تبتهج له الآلهة. كما

(*) إلى جانب مقبرة رخ مى رع رقم ١٠٠ ومقبرة منَّا رقم ٦٩ ومقبرة نخت رقم ٥٢ ومقبرة سن نفر رقم ٩٦، على سبيل المثال. (المترجم)

(**) من المناظر الشهيرة في هذه المقبرة، تلك التى تصوّر موكب الجنازة ومشهد ولولة النائحات، وقد رسما بالألوان على الجدار الجنوبى. (المترجم)

فعلت ما يمتدحه الملك، فى زمانى. لم أخالف أوامره ولم أرتكب شراً، فى حق الشعب، وأقمت العدالة على الأرض، لأننى أعلم حق المعرفة، أنك لا تكفّ عن الإطراء على صاحب القلب الصادق الذى لم يرتكب ما هو ردئ[٥٥].

إن كبار أحبار **أمون**، ونذكر منهم على التوالى: **أمن إم حات** و **باك إن خونسو** و **مر إن بتاح** الذى كان يشغل منصبه فى العام ٢٠، من عهد **أمنحوتب الثالث**، كانوا أساساً من كبار الشخصيات الدينية فى **طيبة**. ولكن مع **بتاح مس**، عاد رجال الدين ليصبحوا رجال دولة، وأخذ كهنة **آمون** يستعيدون مؤقتًا قدراً من نفوذهم، بعد أن ظلوا بعيداً إلى حدّ ما، عن الشئون الدنيوية. ولكن ماذا كانت أصول **بتاح مس**، على وجه التحديد. إننا نجهل ذلك. وعلى كل حال، فقد جمع بين منصبى كبير كهنة **آمون** ووزير الجنوب، على غرار **حيوسنب** و **من خبر رع سنب**، من قبله. وفضلاً عن ذلك، فقد كان «*مدير كافة أشغال الملك*»، بل وشخصية ذات نفوذ عظيم.

ويحتفظ متحف مدينة **ليون Lyon** بوسط **فرنسا** بلوح حجرى يحمل اسم هذا الشخص، ورقمه ٨٨. وقد صُوِّر فى الجزء المقوس فى أعلى اللوح، متعبداً للإله **أوزيريس**. ثم يمثل بعد ذلك فى صحبة زوجته **إينى**، رئيسة محظيات **آمون**، أمام مائدة قرابين، ويسير فى اتجاهها، ابناهما حاملين باقات زهور مركبة، وبناتهما الخمس، وجميعهنّ «*منشدات آمون*»، وهن يحركن المصلصلات: يقول النص على امتداد عشرة أسطر:

*إغداق الثناء بالتهليل، على **أوزيريس**، الإله المحبوب. يا لها من متعة أن يُجزل لك الثناء. أنت الواحد المتفرد. وتظل الكائن الذى وُجد قبل أى وجود، الذى خلق السماء، الذى خلق الأرض، الذى ما فتئ يُشبع البشر، لأن الأرض تحيا من خَلْقك.*

*ليته، يعطى كل ما يرتفع على الدوام، فوق مائدة قرابينه، بعد أن يأخذ منه ما يكفيه. ليته، يعطى مع مطلع كل فصل (من فصول السنة) الآلاف من كل شيء طيب وطاهر ونضر، من النبيذ واللبن، من الموجود فى معبده - من أجل كا كبير كهنة آمون، وأمير مدينة الجنوب، الوزير **بتاح مس**.*

الشكر والحمد لك،

- أيا رع – آتوم – پتاح، العظيم القائم جنوب جداره،
- أيا تحوت، يا سيد الكلمات الإلهية،
- أيا سخمت، العظيمة، محبوبة پتاح، التى تتصدر الآلهة جمعاء،
- أيا أوزيريس، يا أول أهل الغرب،
- أيا حورس، المنتقم لأبيه،
- أيا إيزيس، العظيمة والأم الإلهية، سيدة السماء التى خلقت كمالها،
- أيا حتحور، القائمة على رأس الجبانة،
- أيا أونوريس – حورس، رب (مدينة) ثنى،
- أيا محيت التى تقيم فى بحدت،
- (أيا جميع هذه الآلهة) التى تحيا من الحقيقة والعدالة وتنبذ الشرّ.

أجل، إنى قادم، إلى جوارك أنت، فأنا طاهر، وقلبى طاهر. إنى نزيه تجاه رع وصادق – القول، إلى جوار أوزيريس. لقد انجزت ما برح البشر يشيدون به وما ترضى عنه الآلهة. لقد أعطيت الجوعان خبزاً وأطعمت المُعوِز حتى الشبع. لقد لازمت الحورس (الملك) فى قصره وفى إنعاماته وفى حبه. لم أرفع صوتى بجوار رجال البلاط، لم أتصرف بالسحر ضد (إنسان) أعظم منى شأنًا. لم أصعد بخطوات واسعة درجات العرش المهيب. كان سلوكى مطابقًا للحقيقة والعدالة اللتين يحبهما الملك، عارفًا أنه يحيا بهما. لقد بقيت ساهراً فى مكانى (طوال الليل) لأشيد بمجده. كنت واقفًا عند الفجر لأتعبد إليه، على مدار الأيام. كان قلبى وفكرى يستبقان ما يقوله. لم أتجاهل شيئًا أمرنى به. واستطعت أن أفعل ما فعلته، بفضل هدوئى ورباطة جأشى، وكان سيّدى يمتدحنى لأن تأثيرى كان مواتيًا (طوال الفترة) التى بقيت فى معيته. لقد تفوهت بهذه الكلمات المطابقة للحقيقة، دون أن تعتريها الأكاذيب.

ولذا، فليت الناس يعملون من أجلى، ليت الملك يقدّم قربانًا (إلى) الإيماخو بجوار أوزيريس، إلى كبير كهنة آمون والوزير پتاح مس الذى ما برحت كلمته تُرضى البلاد بأسرها.. إلى المشرف العام على كافة أشغال الملك، ورئيس كهنة الآلهة جمعاء.

(ليت الملك يمنحه أيضاً) دفنة، بصفته صادق - القول، حتى يمرّ فى سلام بجوار الآلهة فى مقبرته بالجبانة، مقره فى مدينة الزمن الأبدى، والمكان الذى سيقيم فيه (من الآن فصاعداً)(٥٦).

يستحق هذا النص أن يتركّز عليه، جلّ إهتمامنا، لأنه يكشف عن فكر دينى، أخذ فى التطور. فمن الملاحظ أن اسم أمون لم يُذكر فى النص، رغم أن جميع هؤلاء الأشخاص، بما فيهم كبير الكهنة ذاته، يعملون فى خدمة *إله الكرنك*. بل تُذكر أسماء آلهة عواصم مصر القديمة السياسية والدينية مثل ثنى ومنف وهليوبوليس وأسماء آلهة الدورة الأوزيرية، وغيرها من العناصر البارزة فى مجمع الآلهة المصرية. فهل كان پتاح مس، الموظف الأمين فى خدمة الملك، والذى يتمتع بأكبر قدر من رعاية الملك وإنعاماته، والوزير المرموق، هل كان يلتزم، على هذا النحو، «*بسياسة ملكية*»؟ فحاول فرعون فى البداية تحجيم سلطة أمون المتعاظمة، فأعاد إلى شعائر الآلهة الأخرى ما تستحقه من أهمية؟ الأمر الذى سينتهى فى زمن لاحق إلى رد فعل معاكس، فى شكل تعصّب أمنحوتپ الرابع وتشدّده.

ومن جهة أخرى، فالإبتهال الوارد فى مطلع النص، يلتزم عند التضرّع إلى مختلف الشخصيات المقدسة، بالصيغة الآتية: «*التحية لكَ*»، وإن عاد النص فيما بعد، وفى نهاية «قائمة الآلهة»، إلى استخدام صيغة الجمع عند الإشارة إليها. ربما كان ذلك مثالاً عن هذه الحركة التلفيقية(*) syncrétiste المميّزة للأسرة الثامنة عشرة التى كانت تنظر إلى الآلهة باعتبارها أقانيم لوجود إلهى، يشملها كلها. وإذ أقدم أمنحوتپ الرابع، فيما بعد على «*اختزال*» مجمع الآلهة، فإنه لم يُقدم فى الحقيقة، على عمل مبدع.

(*) التلفيقية syncrétisme: الجمع بين عناصر متميزة عن بعضها البعض مستمدة من أنساق مختلفة ووضعها فى نسق واحد وهو المقابل لمذهب التوفيقية éclectisme: الجمع بين آراء أو مذاهب مختلفة ومحاولة التأليف بينها لتكوّن مذهباً واحداً. (د.أحمد زكى بدوى. معجم العلوم الاجتماعية. مكتبة لبنان. ١٩٨٦). (المترجم)

كما لعب كهنة پتاح فى منف دوراً هاماً. إن شخصاً آخر يدعى أيضاً پتاح مس الذى يحتفظ له، متحف مدينة فلورنسا الإيطالية بلوح حجرى، وهو ابن الوزير تحوتمس، قد شغل منصبهً، قرب نهاية عهد أمنحوتپ الثانى، ومع مطلع عهد تحوتمس الرابع، وكان كبير كهنة إله منف. كما أُسند إليه أيضاً لقب «رئيس كهنة *مصر العليا ومصر السفلى*[٥٧]»، وكان هذا المنصب من المناصب التى يستأثر بها كهنة آمون. أكان إمتيازاً شرفياً أم صراعات حول مناطق النفوذ؟

كما أن پتاح إيرى، وهو كبير كهنة آخر، فى خدمة الإله پتاح، كان «*الإبن البكر الملكى للإله آمون*»[٥٨].

هكذا نستشرف بكل وضوح بزوغ حركة دينية واسعة.

كان نواب – الملك الذين أطلق عليهم فى عهد أحمس اسم «*الأبناء الملكين، رؤساء بلاد الجنوب*»، قد أصبحوا منذ عهد تحوتمس الرابع، يحملون لقب «*الإبن الملكى فى كوش*»، وربما يعود أصل هذه التسمية إلى الرغبة فى التفرقة بين نائب – الملك أمنحوتپ الذى كان يشغل هذا المنصب، والابن الملكى الحقيقى، الأمير أمنحوتپ الذى سيصبح أمنحوتپ الثالث. ومما لا شك فيه أيضاً، أنه كان وسيلة لُغوية لضمان السيطرة المصرية على السودان. واعتباراً من تحوتمس الرابع أيضاً، شُرِّف نائب – الملك بإضافة لقب «*حامل المروحة عن يمين الملك*»، إبرازاً للروابط الشخصية والحميمة القائمة بين الفرعون والمسئولين عن إمبراطورية الجنوب.

إن أمنحوتپ الذى ظل يشغل هذا المنصب فى السنوات الأولى من عهد أمنحوتپ الثالث، يحمل إذن هذين اللقبين على تمثال مهشم جادت به دير المدينة، ويصوره راكعاً ممسكاً بلوح حجرى مائل[٥٩]. كما أنه «*الكاتب الملكى والمشرف العام على قطعان آمون*». ومن ثم، نجد أن بعض المناصب المرتبطة بأملاك الكرنك، كان يُعهد بها إذن إلى كبار الموظفين، البعيدين فى الغالب عن العاصمة، ولكنهم من رجال الملك الأوفياء. أكانت ألقاباً شرفية أم نظرة إرتياب حيال كهنة طيبة؟ إن مرى مس، «*الإبن الملكى فى كوش ورئيس بلدان الجنوب*»، ظل يشغل منصبه خلال معظم سنوات

عهد أمنحوتپ الثالث. إن ألقابه الأخرى المذكورة بمقصورته رقم ٢٦ في جبل السلسلة، تتيح لنا أن نذهب إلى أنه قد أشرف على «تدريبات» أحد الأعياد اليوبيلية الخاصة بالفرعون أمنحوتپ الثالث، الذي أقيم في صولب بالسودان(٦٠). ومقبرة مرى مس، قائمة في البر الغربي من مدينة طيبة، في جبانه قرنة مرعى(*). وبالفعل فإن موقع الشيخ عبد القرنة، قد حُفرت فيه أعداد كبيرة من المقابر حتى أن كبراء الدولة وأعيانها في العهود الأخيرة من الأسرة الثامنة عشرة «*أخنوا يهاجرون*» إلى قرنة مرعى، وهي نتوء صخرى، يقع إلى الجنوب الغربي من الرامسيوم. وكان مرى مس أول من دفن فيها. وربما أراد على هذا النحو، أن يقترب من المعبد الجنائزي لسيده الملكي. وللأسف فقد عانت مقبرته من دمار شديد. وتابوته الحجرى موجود في المتحف البريطاني.

يبدو أن هذا العصر لم يشهد إثارة أي مشكلة هامة، حول إدارة أراضي الجنوب وذلك في حدود علمنا، على الأقل.

المعماريون والنحاتون

في هذه الأزمنة التي شهدت كبرى مشاريع البناء، كان الرجال الذين يقع على عاتقهم أعمال التشييد والنحت، يضطلعون بدور بارز في البلاط الملكي في طيبة. ومن هذه الأمثلة نذكر تحديداً، أمنحوتپ بن حاپو. أكان مستشاراً للفرعون ومحل ثقته؟ أم «رئيساً للوزراء» في واقع الأمر؟ وأيًا كان الأمر، فقد كان واحداً من أقوى رجال زمانه، ولأن شهرته طبّقت الآفاق، وذاعت واستمرت، وعُرف عنه براعته وحكمته، فسوف يتم تأليهه في وقت لاحق، ومنذ عهد بطليموس الثامن يوارجيتس(**) الثاني. بل كان يصنف ضمن الآلهة منذ عصر مانتون(***)(٦١).

(*) وهي المقبرة رقم ٣٨٣. (المترجم)

(**) لقب يوناني معناه الخيّر. (المترجم)

(***) عاش في عهد أول وثاني الملوك البطالمة. (المترجم)

كانت أصول هذا الرجل تعود إلى أتريبس(*) فى الدلتا وينحدر من عائلة من حكام الأقاليم. وظلّ كبير كهنة حورس الذى كان يُعبد فى هذه المدينة.

وعلى أحد تماثيله الذى عثر عليه مارييت Mariette فى الكرنك، يسرد أمنحوتپ بن حاپو مسيرة حياته لتحتفظ الأجيال اللاحقة بذكراه:

يقول أمنحوتپ كاتب الملك ومحبوبه:

كنت كبيرًا، قائمًا على رأس الكبراء، صاحب فكر ثاقب فى (معرفة) الكلمات الإلهية، وفقًا لمشورة القلب. فأنا من يلتزم بمقاصد الملك، أنا من قام العاهل الملكى بوضع كائه فى المقدمة.

تفضّل الإله الكامل، ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، ابن حور أختى البكر - فأجزل لى، المنن والنعم. ورقّيت إلى كاتب ملكى بصفتى رئيسًا. وفُضّت من أجلى مغاليق الكتاب الإلهى واستطعت مشاهدة أفعال تحوت المفعمة بالبركة، بعد أن أصبحت من الآن على علم بأسرارها. وتوصلت إلى حلّ كل معضلاتها. وكان فى استطاعة الجميع أن يجادلونى فى جميع موادها.

عندئذ أجزل لى الملك مننه ونعمه من جديد، (إنه) ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع. ومن أجلى، «ربط» كافة البشر القائمين تحت سلطتى، بصفتى الكاتب الملكى، على رأس المبتدئين الجدد. وارتقيت «مراقب» سيّدى، وقامت ريشتى بحصر أعدادهم بالملايين. وأقمت الشبّان محل القدماء، فالإبن البكر هو عصا الشيخوخة. وفرضت الضرائب على كل بيت من البيوت، حسب عدد (الأشخاص القاطنين فيه)، بعد أن وضعت الحرفيين جانبًا. وأحْلَلْتُ صفوة أسرى الحرب الذين أمسك بهم صاحب الجلالة فى أرض المعركة، محلّ الخدم. وتفقّدت كافة الفرق التى تشكلت، على هذا النحو، وحشدت إذن المجندين الجدد. ووضعت القوات عند أطراف الطرقات حول تخوم الشاطئين، لردّ الأجانب إلى أماكن إقامتهم. فى حين أخذت كتيبة

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم حوت حرى إيب أو حوت تاحرى إيبت، و تل إتريب، حاليًا. (المترجم)

مراقبة تجوب بلاد السائرين – على – الرمال. وفعلت الشيء نفسه، عند سواحل مصبات النهر، محاطًا بقواتي باستثناء فرق البحرية الملكية. كنت المرشد الذي يهديهم عبر الدروب. وكانوا يرضخون لأوامري. كنت «الفم الأسمى» على رأس الأشاوس الذين أُعدّوا لصدّ النوبيين والآسيويين. كانت مقاصد سيّدي ملاذًا من خلفي، اعتصم بها. وبينما كنت سائرًا، فإن كلمته تطوقني. إن مخططاته تغطي كافة البلاد وكل (منطقة) أجنبية قائمة بجواره. كما كنت من يحصر قائمة غنائم إنتصار صاحب الجلالة، ومسئولاً أيضًا عنها. فاتصرف وفقًا لكلماته، والتزم بأوامره، مدركًا مدى تأثيرها المواتي على المستقبل.

وللمرة الثالثة، أجزل لي سيدي النعم والمنن، (سيدي) ابن رع، أمنحوتپ، حاكم طيبة. إنه رع. لقد وُهب الزمن الأبدي، وأعياد يوبيل، لا تنتهي. ولذلك عيّنني سيدي مشرفًا عامًا على كافة الأشغال. هكذا دوّنت اسم الملك تدوينًا راسخًا، للزمن اللانهائي. لم أكن أحاكي ما صُنع من قبل. فمن أجله، شكّلت جبلاً (حقيقيًا) من الحجر الجيري الأحمر (تمثالاً)، لأنه وريث آتوم[٦٢]. إني أتصرف وفقًا لرغبتي، فقلبي هو الذي يهديني، حتى يقام تمثاله في معبده الكبير (في معبد الكرنك. وبالفعل ما زال تمثال من الحجر الرملي الأحمر لأمنحوتپ الثالث، قائمًا في مكانه). (وهو مزدان) بكل أنواع الأحجار الكريمة، الصلبة صلابة السماء. ولم يفعل أحد ذلك، منذ زمن تأسيس القطرين.

وباشرت أعمال تمثاله الذي كان عريضًا إلى حدّ كبير، وأكثر ارتفاعًا من عموده، و«أتى» جماله على جمال الصرح. وبلغ طوله ٤٠ ذراعًا. لقد جاء من التل المقدس المكون من الحجر الرملي الأحمر، والقائم على مقربة من رع - آتوم. وشيدت سفينة... وابحرت مصعداً التيار (من هليوبوليس إلى طيبة)، لإقامته في معبده الكبير، ليدوم دوام السماء.

إن شهود (عملي) يقفون بينكم، يا أيها القادمون من بعدنا.

إن الجيش بأسره، كان تحت إمرتي بمفردي. فينصرف الجنود فرحين، سعداء القلب، ويطلقون الصيحات شكرًا وعرفانًا للإله الكامل. ونزلوا إلى برّ طيبة وسط

الغبطة والتهليل، إذ استقرّت المعالم الصرحية فى مكانها، للزمن الآتى وللزمن الأبدى(٦٣).

يا لها من سيرة حياة، تبدأ بفض مغاليق الكتب الإلهية، لتتواصل من خلال تنظيم الجيش وحشد الفرق وتنتهى بالإشراف على إقامة المعالم الصرحية الملكية. كان أمنحوتپ بن حاپو، من رجال البلاط، والمقربين المفضلين لدى الملك، وامتد نشاطه إلى كافة مجالات حياة الدولة، كما كان حكيمًا عارفًا بأسرار الآلهة.

واعترافًا له بالجميل، أصدر أمنحوتپ الثالث، مرسومًا فى اليوم السادس، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام ٣١، يمنحه بمقتضاه، حق إمتلاك المتاع الضرورى لصيانة معبده الجنائزى، وهو حدث إستثنائى وفريد فى بابه. فالملوك أو أفراد العائلة المالكة وحدهم، يمتلكون معابد جنائزية. كانت دلالة واضحة على مدى الحظوة التى نالها عند الملك، ليقام مثل هذا المبنى الفخم فى مدينة هابو، لواحد من أكبر أصحاب الحظوة. كان المبنى لا يبعد كثيرًا عن معبد عاهله الملكى(٦٤). وعند صدور مرسوم التأسيس، انعقد مجلس فوق العادة، حضره وزير الشمال أمنحوتپ و مر إن پتاح، المشرف العام على الخزينة، وكتبة الجيش، فضلاً عن المستفيد من هذه الهبة.

كُشف فى الكرنك عن سبعة تماثيل لهذا الشخص. تصوره أربعة منها جالسًا متربعًا. وربما أتاحت لنا المدونات المنحوتة عليها أن تزيد من فهمنا لشخصية أمنحوتپ بن حاپو.

ففى هذه الأزمنة التى شهدت حركات دينية متنوعة، كان من الأوفياء المخلصين للإله آمون، فإليه وجّه هذه الترنيمة:

إنى قادم إلى جوارك، يا سيد الآلهة، يا آمون، يا رب عروش القطرين، إنك رع الذى يشرق متألقًا فى السماء، الذى ينير الأرض بفضل جمال عينه المتألقة، (أنت الإله) المنبثق من نون، ليشرق متألقًا خارج فيض الأمواج الأولية، الذى جاء إلى الدنيا

بكل ما هو موجود، وخلق التاسوع الإلهي العظيم، وعرف جسده ذاته وانجب ذاته (بمختلف) أشكاله[٦٥].

كما كان إنسانًا واعيًا كل الوعي بخصاله وأهميته. فيصف نفسه على النحو الآتي:

أنا، حقًا، شخص مهيب، من بين سائر البشر، وعقل ثاقب الإدارك، عندما يجوب قاعة المجلس. فالأشياء الغريبة مثل المألوفة. ويدرك (حرفيًا: يكتشف) الأحاديث وإن كانت بالغة الصعوبة، والحكمة في حوزته، ويملأ قلب العاهل الملكي وينجز أفعالاً مفعمة بالبركة، من أجل حورس[٦٦]*. فهو الذي يشيّد ببراعة فائقة كل معالمه الصرحية حتى تترسّخ ذكراه، في المكان المقدس للزمن الأبدي. هو الذي يلطّف القلب في يوم الفواجع. إنه خازن ملك مصر السفلى، فيستطيع الإقتراب من جسد الإله (الملك)، إنه يخرج من القصر (تصاحبه) المدائح التي لا يكفّ رجال البلاط عن توجيهها إليه، بالنظر إلى عظيم اقتداره، إلى جانب العاهل الملكي. فمع بزوغ كل يوم جديد، يتفرغ مبكرًا لشئونه، ولمختلف الأعمال... فهو الذي يسنّ القانون ويقيم نظامه على نحو صارم...*[٦٧]

يا لها من مسئوليات جسيمة يتحملها مدير أشغال الملك! ولكنه كان من العارفين بالمغاليق، المحيط بأسرار الأسفار الإلهية والدلالة العميقة للطقوس السحرية. فقد كان شخصًا مرهوب الجانب إلى حدّ ما، وقصارى القول، كان يفتخر أيضًا بقيامه بدور شديد التميّز، فيعتبر نفسه الوسيط بين الآلهة والملك والبشر.

وعلى قاعدة تمثال نقرأ هذه المدونة المزهوة:

أنتم، أيا مصر العليا ومصر السفلى، أنتم، يا جميع من تستطيع أعينهم تأمل آتون، أنتم، يا من تأتون إلى طيبة، هابطين أو صاعدين مجرى النهر، من أجل تقديم إلتماس إلى سيد الآلهة، تعالوا إليّ، وسوف أنقل كلماتكم إلى أمون في الكرنك. أدّوا من أجلي شعيرة القربان، صبّوا من أجلي الماء الطهور، بما هو بين أيديكم. أنا الحاجب الذي أقامه الملك لأستمع إلى الأحاديث، وأرفع (إليه) إحتياجات الشاطئين[٦٨].

وعلى قاعدة تمثال آخر، نقرأ على النحو ذاته:

أنتم، يا رجال الكرنك، الذين تريدون بلا انقطاع مشاهدة أمون، تعالوا إليّ. سوف أنقل إلتماساتكم، لأنى حاجب هذا الإله. لقد أقامنى نب ماعت رع، لأنقل (له) كلمات الأرضين. وهكذا، أدّوا من أجلى شعيرة القربان، اذكروا اسمى، على مدار كل يوم من الأيام، كما يتم من أجل أثير مفضّل(٦٩).

تتجاوز وظائف **أمنحوتپ بن حاپو** وظائف «*مهندس معمارى*»، كما يوصف فى بعض الأحيان. كان الشخصية الرئيسية فى عهد **أمنحوتپ الثالث**، فيسنّ القوانين ويدبر شئون البلاد، جنبًا إلى جنب، مع العاهل الملكى، مثل الوزير الذى كان يقوم بدوره، إذا صحّ القول، كما كان يتدخل فى **الكرنك**، لدى **آمون** وكهنته. وربما كان يستمد سلطاته من شهرته التى طبقّت الآفاق بصفته حكيمًا، عارفًا «*بأسرار*» الدين.

والمدونة المنحوتة على التمثال الذى عثر عليه عام ١٩٠١، أمام الواجهة الشمالية من الجناح الشرقى من الصرح السابع، والذى كان قائمًا أصلاً فى معبد **الكرنك** ذاته، تنقل لنا خطابًا أعلنه **أمنحوتپ بن حاپو**، بعد أن بلغ الثمانين من عمره، فيقدم لنا تقييما لحياته. إنه خطاب من أجل *آمون*:

أنا قادم إليك لأطعم كائك، وأقيم فى معبدك، أيا آمون، أيها الأقدم الأصلى فى القطرين. أنت رب ما هو موجود تحت السماء، بصفتك إله الشعب. وما هو موجود فى السماء يوقّر جمالك، لأنك بكمالك، أعظم من أى إله آخر. إنصت لمن يناديك. أنت رع، فلا وجود لأحد سواك.

لقد أقمتنى وسط الرجال المقرظين الذين يمارسون العدالة. أنا رجل بار، لا أتصرف بتحيز ولا أعاشر أبدًا من يفعل الشرّ. ولا أسمح لأحد ممّن فى معيتى، مكلفًا بالأشغال، أن يحيا فى عُسر. لا يوجد أبدًا، رجل عُيّن إلى جوارى، لا أستمع إلى كلماته، دون أن أسمح له مع ذلك، أن يكون كثير الثرثرة. ولكننى لا أقترب ممن يتصرف ضدى. ولا أعير أى إهتمام لكذبة قيلت للإضرار بشخص آخر فى ممتلكاته. هذه هى طبيعتى التى تبرهن على صواب، كل ما صنع من أجلى، بحضور الجميع. من رآنى، سيسعى ليصبح مثلى، بالنظر إلى عظمة ما صنع من أجلى. والشيخوخة

شاهد على (حياة) بارة. لقد بلغت الآن الثمانين من عمرى، وخطوتى عظيمة فى نظر العامل الملكى. وسوف يمتد عمرى إلى سن المئة وعشرة(٧٠).

إن أعمال حرفيى طيبة وكيفية قضائهم سحابة أيامهم، ما زالت تكشف عنها مقبرة مُعلِّمَيْن من معلِّمى النحت. فالمقبرة رقم ١٨١، فى جبانة الخوخة، وهى الإمتداد ناحية الشرق لجبانة الشيخ عبدالقرنة، مقبرة مزدوجة، وملك عائلى تخصّ نب آمون، «*وَلَد الحريم ورئيس النحاتين*» وصهره إيوكى «*نحّات الملك*». وقد ورث كل منهما منصبه عن والده. إننا أمام أثر فريد فى بابه. فلا تتكون المقبرة من قسمين. ففى كثير من الأحوال، صُوِّر الرجلان، وهما يشتركان فى الوجبة نفسها وفى تكريم الوالدين وفى عبادة الآلهة وأداء الشعائر الجنائزية. كما يحدث أحيانًا أن تصبح المشاهد منفصلة. فيقوم كل واحد من النحاتَيْن بالعمل نفسه، فى صورة مركبة أحيانًا. وفى بعض الأحوال أيضًا، يتولى أحدهما أداء جانب من الطقس الدينى، فى حين يؤدى الآخر أعمالاً تكميلية. إنه مثال رائع على التعاون الأسرى. وأسلوب الرسومات فيه حياة وواقعية، لا تغيب عنه روح الفكاهة، ويوضح عددًا كبيرًا من مشاهد الورش التى تصور الصوّاغ، وهم يزنون الذهب والنجارين وهم يعالجون الخشب بواسطة مثقاب، والصانع وهو يطعّم صندوق صغير خاص بالملك، وفخّاريًا وهو يثقب إناء من الألبستر، وعاملاً يصنع صدرية من الورق المقوى لمومياء، ورسامين ونحاتين، أثناء عملهم ونجارين وحدّادين منكبين على أعمالهم.

المشرفون على الأملاك

لا شك، أن أمنحوتپ المدعو حوى كان ابن عم الوزير رع مس، فكان يشغل مناصب «*المشرف العام على الأملاك الملكية فى منف*» و«*منظّم أعياد پتاح – إلى – الجنوب – من جداره وكافة آلهة الجدار الأبيض*(*)» و«*مدير الأشغال فى معبد پتاح*»

(*) إنب حج بالمصرية القديمة، ومن أسماء مدينة منف. (المترجم)

و«*رئيس الكهنة فى معبد سخمت*» و«*الكاتب الملكى للمجندين الجدد*»(٧١). ويستعرض مراحل حياته المهنية في نص منحوت على تمثال من الكوارتزيت، عثر عليه فى منف، ويصوره فى هيئة كاتب جالس متربع. قد يفهم من النص، أنه كان مقامًا أصلاً فى معبد جنائزى «إضافى»، مكرس للملك أمنحوتپ الثالث. ونعرف أن المعبد الجنائزى للعاهل الملكى، كان قائمًا فى طيبة خلف التمثالين المعروفين إصطلاحًا بتمثالَىْ ممنون، وهما كل ما تبقى منه، وقد شيِّد إلى الشرق من مقبرته فى وادى الملوك الغربى. ولكن من المحتمل، أن معابد جنائزية ملكية قد شيِّدت أيضًا فى مدن بعيدة عن العاصمة. فهل يعنى ذلك، افتراض وجود مقابر تذكارية؟ وعلى كل حال، لم يعثر حتى الوقت الراهن على شىء مماثل فى موقع منف العتيقة.

وعن هذه الأملاك الملكية التى كان أمنحوتپ مشرفًا عامًا عليها، ويتولى تدبير شئونها، يقدم لنا إيضاحات على قدر كبير من الأهمية:

*إنى أتحدث إليكم، يا «**أصحاب الجلالة**» الذين ستأتون إلى الوجود، (وإلى البشر) فى الزمن القادم، الذين (سيحيون) على سطح الأرض. كنت رفيق الإله الكامل، رب القطرين، أمير البسالة، نب ماعت رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، (كنت رفيقه)، منذ أن كنت صبيًا، وقبل أن أؤسّس بيتًا. ومع تقدمى فى العمر، تكونت شخصيتى، واستطعت أن أدخل القصر، على إنفراد، لمشاهدة الحورس فى بيته، بينما كان كبراء الدولة يتقدمون خلفى. وامتدحنى بسبب مهارتى الفائقة وقام بترقيتى مشرفًا عامًا عظيمًا. كانت عصاى (وهى شارة السلطة) فوق الشعب. وامتلكت أعدادًا وفيرة من الخدم والماشية ومختلف الأشياء، بلا حدود... وأقمت العدالة من أجل سيد القطرين، ليل نهار، فكنت أعرف أنه يحيا بها. والكلمة الكاذبة، كانت فى نظرى شيئًا فظيعًا ممقوتًا.*

عندئذ قام بترقيتى مراقبًا عامًا على الأشغال فى معبده لملايين السنين، الذى كان قد أقامه حديثًا فى أرض مزروعة، إلى الغرب من منف، فى حىّ عنخ - تاوى(٧٢)*. إن أبوه پتاح - هو - الذى - إلى - جنوب - جداره...(؟) ..ومبنىً شامخًا من أجل أبيه پتاح، وبناية مباركة (صالحة) للزمن اللانهائى، وهى من حجر طرة الأبيض*

الجميل. كان جمالها فى مثل (جمال) أفق السماء، وجميع أبوابها من خشب الأرز الوارد من موانئ شرق ***البحر المتوسط****، ومكفتة بالذهب الحقيقى (المستخرج) من الصحارى والذهب الخالص وكافة أنواع الأحجار الكريمة الجميلة... وحُفرت بحيرة وزرعت الأشجار (من حولها)، وصارت متألقة بفضل كل الخلاصات النفيسة المختارة من بين (خلاصات)* ***بلد الإله***[٧٣].

وجُهّز المعبد بالأثاث اللازم ومختلف الأوانى من ذهب وفضة. كما سيطلق عليه اسم «*بيت* ***نب ماعت رع*** *الذى اتحد (بالإله)* ***بتاح***».

وفى سياق بقية النص البالغ الطول، فيغطى التمثال بأكمله، عُقدت صفقة بين الملك ومشرفه العام. فسوف يقدم الملك إلى هذا الأخير، عطاءً يتكون من أراضٍ مجموعها ٤٣٠٠٫٥ أكر(*) وعدد من الخدم: ليس فقط اعترافًا بجميل **أمنحوتپ** لخدماته الصادقة المخلصة ولكن ليوفر أيضًا، لهذا الأخير خدمة تقديم القرابين اليومية التى ستوضع على مائدة قرابين **پتاح** «*ليأخذ منها كفايته*»، ثم تنقل أمام تمثال **أمنحوتپ** الثالث فى معبده الجديد، لتؤول فى آخر المطاف إلى المشرف العام العظيم. هذا الضرب من الصفقات، لا يعتبر حالة فريدة فى بابها[٧٤]، فيجد فيها كل فرد منفعة خاصة. هكذا سوف تتكون هذه الخدمة اليومية من: «*مئتى رغيف خبز من مختلف الأنواع، وعشر جرار جعة، وفخذة من كل ثور من الثيران التى ذُبحت فى المعبد، وجرة نبيذ وإبريق لبن ورغيفين من الخبز الأبيض، وعدد كبير من الطيور، وست ضمّات من الخضروات*[٧٥]». هكذا يجد الإله والملك والمشرف العام، ما يكفى لإشباع شهيتهم النهمة!

سوف يشغل الإبن منصب أبيه عند وفاته. فعلى جرة نبيذ عُثر عليها فى ملقطة، يعود تاريخها إلى العام ٣١ من عهد الملك، نجد أن **إيپى** ابن **أمنحوتپ** قد أصبح «*المشرف العام فى منف*»[٧٦]. ويتجلّى برّه بالوالدين وحبه المرهف لهما، فى مدونة اللوح الحجرى الذى يحتفظ به متحف **فلورنسا Florence**، فى الوقت الراهن:

(*) **الأكر** الواحد يساوى ٤٠٤٦ متراً مربعًا. (المترجم)

فلتنفتح السماء من أجلك، فلتنفتح الأرض من أجلك، فلتنفتح الطريق في الجبانة، من أجلك. ليتك تخرج وتدخل مع رع، ليتك تسير بخطوات واسعة، مثلك مثل مُلّاك الزمن الأبدى، ليتك تستحوذ على أرغفة خبز القرابين الطاهرة التى يعطيك بتاح إياها، على المائدة. ليت باءك (تدوم) حياته و(تظل) عضلاتك قوية. وليكن وجهك متألقًا فى طريق الظلمات. سيهبك حعبى الماء ونبرى[٧٧] الخبز، وتعطيك حتحور الجعة والبقرة الإلهية اللبن. سوف تغسل قدميك على كتلة من الفضة، بجوار نبع من الفيروز. سوف تُعطى أربعة أرغفة فى بوزيريس(*) وثمانية فى أبيدوس واثنى عشر فى بلدة بيكر[٧٨] وجرة (جعة) فى معبد الشمس.

من أجل الأوزيريس، الكاتب الملكى، المشرف العام العظيم فى منف، أمنحوتب، الصادق - القول.

من قبل ابنه، الذى يعيد الحياة إلى اسمه، الكاتب الملكى، المشرف العام العظيم فى إقليم الجدار - الأبيض، إيبى، الصادق - القول، بجوار الإله الكبير[٧٩].

كان أمن إم حات المدعو سورارا، ينحدر من أسرة من أبناء طيبة. كان والده *المشرف العام على قطعان آمون.* أما هو فكان *المشرف العام العظيم للملك*، كما شغل عدداً من المناصب الدنيوية فى الكرنك. ومن ناحية أخرى، كان أول أخويه، *الخادم الثانى للإلهة نيت* أما أخوه الثانى فكان *الخادم ذا اليدين الطاهرتين لذات الإلهة.* وكانت والدته تتمتع برعاية البلاط وانعاماته، وتحمل لقباً شرفياً هو «*زينة الملك*».

ويبدو أن هذا الشخص كان مخلصًا وفيًا للعاهل الملكى. إن التمثالين اللذين يصورانه ممسكاً بلوح حجرى ويحتفظ متحف اللوفر بأحدهما والمتحف البريطانى بالآخر، دوِّنت عليهما صلوات لصالح الملك:

التحية لك، أيا أمون - رع، رب السماء وسيد الأرض وملك الآلهة. ليتك تُعطى

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم جدو، أبو صير بنا حالياً، فى وسط الدلتا. (المترجم)

زمن حياة رع وعرشه على الأرض، الملك مصر العليا ومصر السفلى: نب ماعت رع. ليتك تمنح أعياداً يوبيلية عديدة وعظيمة إلى ابن رع: أمنحوتب، حاكم طيبة(٨٠).

ومع ذلك، يبدو أنه فقد حظوته قرب نهاية عهد أمنحوتپ الثالث، وحلّ محلّه فى منصب *المشرف العام العظيم للملك*، أمنحوتپ الذى كان المشرف العام على أملاك منف.

هكذا، فإن المقبرة التى أعدّت من أجل أمن إم حات المدعو سورارا، وهى المقبرة رقم ٤٨ فى جبانة الخوخة، قد شُوِّهت مرتين متتاليتين: الأولى عندما فقد حظوته والثانية فى وقت لاحق، إبان الإضطهادات التى شهدتها مصر، فى عصر أمنحوتپ الرابع. ومع ذلك فقد كان تخطيطها الأصلى يوحى بالعظمة. إن ستة وسبعين عموداً كانت ترفع السقف. وظلت بعض النقوش محتفظة برقتها ودقتها، كما كان حالها فى الزمن الماضى. ويُصوِّر أحدها رنن – وتت إلهة الحصاد، وقد جلس فى حجرها مولود تقوم بإرضاعه، كان يمثل فى المعتاد إله القمح نپرى، ولكن فى هذا النقش الذى يعنينا، صُوِّر أمنحوتپ الثالث ذاته، وقد اندمج فى الإله واهب الغذاء(٨١). هكذا أصبح فكر البشر، لا يفرق بين الملك وإله القمح. إن موضوع العاهل الملكى واهب الوفرة والخيرات، سنلتقى به على نطاق واسع فى أيديولوچية الرعامسة(٨٢).

وفى العساسيف، وهو سهل تقطعه الوهاد، تحدّه ناحية الجنوب تلال الشيخ عبدالقرنة، نتعرف على المقبرة رقم ١٩٢ الشاسعة لصاحبها خرو إف الذى كان *المشرف العام على أملاك الزوجة الملكية العظيمة تيى، وكاتم أسرار الملك والصديق الأوحد وعصا الشعب.*

أكان ينحدر أصلاً من هرموپوليس؟ فقد نحتت على تمثاله الذى يحتفظ به متحف برلين، فى الوقت الراهن، ترانيم إلى تحوت، إله هذه المدينة.

ففى اتجاهين متوازيين، يلتزمان بأسلوب منمّق تقرأ على قاعدة التمثال:

• على اليمين:

الآلهة فى السماء، تُجزل من التهليل. ويؤدى كل إله وكل إلهة، شعيرة العبادة من أجل تحوت، عند مشاهدته، على متن قاربه الكبير، بينما ماعت قائمة أمامه فى سلام. وبالمثل يسعى الكاتب الملكى خرو إف إلى إرضائه قائلاً: «أنا قادم إليك، أيها الإله العظيم، أيا تحوت، يا حامى آبائه، إنى أعبد جلالتك. انصت إلى ندائى. إنك تسعد قلبى عندما أرى جمالك».

• على اليسار:

الشعب على الأرض، يُجزل من التهليل، عندما يرى تحوت، ملك الحقيقة والعدالة. وتطلق الآلهة والآلهات الصيحات وتغتبط، بعد أن حقق بفضلها واجبه نحو من يعبده، إنه المشرف العام خرو إف، الصادق - القول، الكاتب الملكى، المشرف العام خرو إف الذى يقول: «إنى قادم إليك، أيها الثور (القائم) فى النجوم، إن تألقك النورانى على الأرض وأشعتك تنير القطرين.

من قبل الكاتب الملكى خرو إف.

ونقرأ على اللوح الحجرى الذى يقدمه خرو إف:

يقوم الكاتب الملكى، المشرف العام، خرو إف بالتعبّد إلى تحوت، قائلاً: *«التحية لك، يا سيد الكلمات الإلهية، المهيمن على الأسرار الموجودة فى السماء والأرض، الإله العظيم للأزمنة الأولى، أيها الأقدم الأصلى الذى يسمح بكتابة الكلمات، «ويعيد الإخضرار» إلى المنازل ويشيّد القصور، ويسمح للآلهة بالوقوف على ما يخصها، (وأن تتعرف) جميع المهن على واجباتها، والبلاد على حدودها والحقول أيضاً».*

من قبل الكاتب الملكى، المشرف العام، خرو إف، الصادق- القول(٨٣).

كان من أبناء طيبة، وإن ظل مع ذلك مرتبطاً بإله طفولته.

لا نعرف سوى النذر القليل عن حياته. إنما تشهد نقوش مقبرته، بأسلوبها الكامل، على علاقته الودودة بالزوجين الملكيين. ففى القسم الجنوبى، من الجدار

الغربى، من الفناء الكبير صُوِّر داخل مقصورة، الملك أمنحوتپ الثالث، فى زىّ أعياد اليوبيل وإلى جانبه الإلهة حتحور والملكة تيى التى صُوِّرت واقفة، بينما العاهل الملكى والإلهة جالسين. ففى الأزمنة الغابرة، فى عهد من كاورع، حول عام ٢٥٠٠ق.م، ولمّا كانت التماثيل الثلاثية حامية مصر، تدمج الملك فى الإله - الأب، فتجمع بين صور العاهل الملكى وحتحور، الإلهة - الأم، والكيان الإلهى للإقليم، فإن الملكة تيى فى الحالة التى نحن بصددها، تقوم إذا صحّ التعبير، بدور الإلهة - الإبنة، بجوار الزوجين الإلهيين. ونلاحظ التمجيد نفسه للملكة، فى النقوش المنحوتة فى القسم الشمالى، من هذا الجدار الغربى ذاته، من الفناء الكبير لمقبرة خرو إف: فداخل مقصورة مماثلة، يتربع الزوجان الملكيان على العرش. ويقدم لهما المشرف العام للملكة، القلادات الفاخرة وكأسًا منقوشةً. إن مقعد تيى مزدان على نحو بالغ الغرابة والرمزية: فعلى المتاكين صُوِّر أسد يدوس الأعداء. وتحت المقعد ربطت الأسيرات الآسيويات، ظهرًا لظهر، ودوّنت على القاعدة أسماء تسع مدن تم فتحها. إنه إنعكاس تصويرى بشكل أصغر وأبسط لانتصارات فرعون على الأقواس التسعة ولقائمة الأسرى. وتشارك تيى على أكمل وجه، فى الأيديولوچيا الملكية، وقد صُوِّرت مندمجة فى الكيانات الإلهية ومنتصرة على الأعداء، شأنها شأن الملك. لقد كانت بكل تأكيد ملكة واسعة النفوذ، فأراد خرو إف، والمشرف العام الأمين، القائم على خدمتها، أن يخصها بكل مظاهر الإجلال والتكريم.

إن مر إن پتاح، ابن الوزير تحوتمس، كان المشرف العام على أملاك معبد أمنحوتپ الثالث الجنائزى. إن لوحًا حجريًا يحتفظ به متحف مدينة ليدن، يشهد على قرابته ويعلن الأمانى الجنائزية المعتادة[٨٤].

الحقول وشُؤُونْ الغلال

ازدهر الاقتصاد، فى هذه الأزمنة التى ساد فيها السلام. إن الفلاحة وتربية الحيوانات الداجنة، مصدران رئيسيان لثراء مصر.

وفي عهد تحوتمس الرابع استطاع الكاتب منتا، أن يجمع بين وظيفتي المشرف العام على حقول العاهل الملكي والمشرف العام على حقول أمون. إنه يمتلك في الوقت الراهن المقبرة رقم ٦٩ التي ما زالت في حالة جيدة من الحفظ، تفوق من بعيد غيرها من مقابر الشيخ عبدالقرنة. وتقدم الرسومات وصفًا لمختلف لحظات الأعمال الزراعية، بقدر كبير من البراعة والطرافة والفكاهة. فتتعاقب لوحات الحصاد وتحرير حسابات المحاصيل والحبوب ومسح الأراضي. وهيئة الفتيات جميلة أو مرحة، وتتفق مع الذوق السائد في هذا العصر، فالوجه له ملامح رقيقة، ويكاد يختفي من كثرة الحُلِيّ النفيسة، من عصابات رأس وأقراط من ذهب، كما يقدِّمن محاصيل وفيرة من الزهور. ومن الآن نجد أن لوحات صغيرة تحتل الفراغات التي خلفتها التكوينات التصويرية الكبيرة. فتتشكَّل مشاهد عائلية، لأنها أكثر إنسانية: فنرى على سبيل المثال، زوجة عامل زراعي وقد حملت طفلها، وَرْبًا على صدرها، بينما يداعب تقصيبات شعر والدته، كما تقدم لزوجها وجبة الغذاء، وهي عبارة عن عنقود من العنب المِسكيّ. كما نرى حاصدة سنابل، تحاول استخراج شوكة من قدم إحدى زميلاتها. إنها رسومات بسيطة ولكنها بارعة في الحقيقة، فتعبِّر الخطوط بإيحاءاتها الثاقبة عن عاطفة عميقة: ففي ساعات النهار التي تشتد أثناءها حرارة الجو، يستريح فلاحان في ظل شجرة جميز. وقد أسند أحدهما ظهره المستقيم على الجذع المستقيم لشجرة، وهو يعزف على الناي عزفًا بطيئًا. أما الآخر فقد أحنى ظهره، وغفا، واضعًا رأسه على ركبتيه، ويميل عليه غصن من أغصان الشجرة وكأنه يحميه. إن هذا التشابك البسيط للخطوط، يعبر تعبيرًا صادقًا عن الرابطة التي تجمع هؤلاء البشر البسطاء بالطبيعة الصديقة. جميع هذه المشاهد بالألوان، والغلبة للأصفر الذهبي، تأكيدًا بصريًا على الوجود الدافئ للجرم السماوي المنير.

ونعرف رجلاً آخر، كان يعمل في مجال الحقول، إنه چسر كارع سنب. إن هذا الاسم ومعناه «*ليت چسر كارع – أي أمنحوتپ الأول – يكون مزدهرًا*»، يقف شاهدًا على أنه كان بلا شك، من الأوفياء المخلصين للشعائر التي تقام من أجل الملك(٨٥). كان *كاتب الحبوب في شونة قرابين الإله آمون والمعابد التابعة لها والمشرف العام على*

الخادم الثانى للإله آمون. إن مقبرته رقم ٣٨ فى الشيخ عبدالقرنة تلفت النظر برقتها المرهفة وجمال ألوان رسوماتها. إن مشهداً يُصوِّر وليمة ووقائع إحتفالية، يعتبر إنعكاسًا صادقًا لنعومة العيش التى تمتع بها أبناء هذا الزمن[٨٦]: وفى وسط هذا التكوين وعلى اليسار، نشاهد چسر كا رع سنب، جالسًا على مقعد بسيط، أمام مائدة زاخرة بما لذّ وطاب، ويتلقّى عِقداً نفيساً من ابنتيه بقدهما المشوق، وقد تزينتا بالحليّ. وفى مكان الصدارة، أى فى الصف الأدنى إذن، يبادر الخدم بإحضار منتجات الأملاك، فى حين يجلس المدعوون على مقاعد منخفضة. إن أحدهم، وبمساعدة جاره الذى يسنده ويربّت على ظهره، يتقّيأ جانب من وجبته التى كانت وافرة أكثر من اللازم، على ما يظن. فغالبًا ما تختلط الواقعية بالفكاهة. وفى المستوى الثانى أى فى الصف الأوسط، تصدح الموسيقى وتتمايل الراقصات، إحياءً للعيد. إن راقصة صغيرة السن، عارية تماماً، ودون سن البلوغ، تحيط بها من جهة، فتاة تعزف بالجنك وأخرى بالعود، ومن جهة أخرى، فتاة تعزف بالمزمار وأخرى بالكنارة. إن القوام الجامد المشوق للموسيقيتين الماثلتين عند الطرفين يتعارض مع الخطوط المتموجة للراقصة والموسيقيتين الأخريين المجاورتين لها، فتبدوان كما لو أن إيقاع الرقص قد شدّهما شداً. إن ثلاث فتيات ينظّمن هذا الإيقاع، فيصفقن بأيديهن وينشدن قائلات:

أيها اليوم السعيد! إننا نُحيى ذكرى جمال آمون، فى متعة القلب، ونُقدّم مدائح ترتفع إلى السماء نحو وجهه. ويعلن كل امرىءٍ: «إننا نتطلّع إلى رؤيته». افعل إذن على هذا النحو، يا كيّال حبوب آمون، على مرّ الأيام[٨٧].

وفى المستوى الثالث، أى فى الصف العلوى، يقوم الخدم بوجوههم البشوشة على خدمة جميلات المأدبة. إن رقة ملابسهن الكتانية وجواهرهنّ النفيسة يتموّج بريقها بألوانها المختلفة.

أما خع إم حات فكان من كبار الشخصيات فى عهد أمنحوتپ الثالث، وشغل منصب المشرف العام على الشونة المزدوجة لمصر العليا ومصر السفلى، فكان وزيراً

للزراعة، بكل معنى الكلمة. وقد صَوّر نفسه في مقبرته، وهو يرفع حساباته إلى العاهل الملكي، بينما أُتيَ بالماشية.

إن مقبرته رقم٥٧ في الشيخ عبدالقرنة، محفورة في مؤخرة فناء يضم غيرها من الدفنات التي تعود إلى العصر نفسه. ففي هذا الزمن، كان الموقع المفضل على البر الغربي، مقتظًا بما يضمه من مقابر.

وفي الجدار الغربي من الحجرة الثانية، وهي الحجرة الطويلة حفرت كوة تضم ستة تماثيل، موزعة على ثلاث مجموعات، تضم كل واحدة منها تمثالين: تمثالي خع إم حات وزوجته تيي، وتمثالي أبيها إيمحوتپ، من كبار الموظفين والمشرف العام على بيت الذهب وبيت الفضة ووالدته، ثم تمثالي والديه. هكذا كان في وسع الجميع أن يستفيدوا من الخدمة الجنائزية المقدمة له ويشاركونه الإقامة في بيته، «بيت *الأبدية*».

كان خع إم حات رجلاً مثقفًا وعالمًا. وإذا كانت أولى حجرات مقبرته، وهي المقصورة الجنائزية، تزدان بمشاهد مألوفة من حياة المتوفي، وأن النصوص الدينية مطابقة للمدونات الشائعة، ومكتوبة في لغة سلسلة جميلة، ففي الحجرة الثانية التي تليها، وهي الحجرة المستطيلة، أمر خع إم حات بنقش مشاهد صوفية سرية، يظل معناها العميق، خافيًا على إدراكنا. إنها تُصوّر طقوسًا جنائزيةً ووصفًا للعالم الآخر. كما دوّن نصًا غريبًا بأسلوب مستغلق، يعتقد أنه كان يثير فضول زوار المقبرة ويختبر رجاحة عقولهم وألمعيتهم(٨٨).

وعلى القسم الأيمن من الباب الذي يصل الحجرة الأولى بالحجرة الثانية، نحت على كل حال، نداءً موجهًا إلى هؤلاء الزوار:

النبيل والأمير، الكبير بوظيفته في القصر الملكي، رئيس أسرار الشُون، فيُطمئن (حرفيًا: يغسل) قلب الحورس بفضل الحقيقة، المستشار السري يوم تقدير الضرائب، الكاتب الملكي، أثير سيده، المشرف العام على الشونة المزدوجة لسيد الأرضين، إنه خع إم حات، الصادق - القول، إنه يوجه كلامه إلى البشر الذين سيأتون إلى الدنيا، ويوجدون على سطح الأرض، كبارًا أو صغارًا، على حدّ سواء.

أنتم، يا أيها الكتبة الذين «تفككون» اللغة المكتوبة، وتفهمون الكلمات الإلهية (الكتابة الهيروغليفية)، أنتم يا أصحاب القلوب التى تسعد عند النفاذ إلى المعرفة، وترضون بالأفعال المفيدة، فعندما تعبرون أمام هذا الأثر المهيب الذى شيدته ليصبح مرقداً، من أجل الأبرار (أفراد العائلة التي صورت تماثيلهم في الكوة الغربية)، أنتم يا من ستشاهدون جدرانى وتنطقون بصوت عالٍ كلماتى (المدونة)، عندئذ سيمتدحكم ملك مصر العليا، ويحبكم ملك مصر السفلى، وتنتقلون فى سلام إلى وضع المبجّل، بلا خوف دون إحساس بالفزع. وعلى مدار كل يوم من الأيام، سوف تتحدون مع الفرح ومتعة القلب. وآلهة مدنكم، سوف تستجيب لكل طلباتكم، بقدر قيامكم بوضع ذكرايَ إلى جانب (ذكرى) الحورس الكامل، وتنطقون اسمى بسبب ما فعلته.

تهجّوا أيضًا (علامات = حروف) تعويذة القرابين الملكية من أجل آمون وآتوم وحور آختى وبتاح – سوكر وأوزيريس وأنوبيس ومعبدى الشمال والجنوب، لصالح كا، كاتم أسرار الإله الكامل، والكاتب الملكى والمشرف العام على الشونة المزدوجة لرب الأرضين، فى مصر العليا ومصر السفلى، إنه خع إم حات، الصادق –القول... الرجل البارع الماهر، القوى الشكيمة، الحكيم في الحق، الفطن والكيّس والمجامل، صانع الأفعال المفعمة بالبركات. كان (الشخص) الذى يشعل المجمرة، من أجل الآلهة جمعاء التى يعرف أسماءها (فكان يتمتع بالتالى بسلطان عظيم)، ليضع عليها القرابين المكونة من كل ما هو طيب وطاهر. كان يُطعم الأبرار ويؤدى شعيرة سكب الماء الطهور، من أجل القائمين فى العالم الآخر. كان فمه ممتلئًا (بعبارات): مرحبًا! مرحبًا! و«الخبز والجعة!»، من أجل البشر أجمعين. كان يقوم بتقديم ماعت إلى الملك وفروض الشكر والحمد للحورس، سيد القصر. إن الإشارة إلى اسمه فى أجنحة الإقامة الخاصة، كان بمثابة (الإشارة إلى اسم) رجل مفيد، صاحب قلب مستقيم وعقل منصف.

عندما هبط الكاتب الملكى، المشرف العام على الشونة المزدوجة – (عندما هبط) خع إم حات الذائع الصّيت إلى الجبانة، كان ظافراً منتصراً على الأرض.. لم يحدث آنذاك، أن وجهت إليه إتهامات، ولم يُخاطب من جانب [الأصدقاء] الوحيدين بأحاديث تدينه. وعندما وصل إلى القاعة الكبرى – قاعة الحقيقتين (قاعة محكمة أوزيريس)،

وُجدت كل أفعاله مستقيمة (عند وضعها) على الميزان، في حضرة الآلهة القائمة فيها. وأقرّ تحوت بأنه صادق - القول، في محكمة جميع الآلهة والآلهات. فحيّوه إذن، ومجّدوا شمائله.

النص مرصّع ببعض الكتابات الرمزية. يلي ذلك نداء إلى الشمس والقمر.

أيا آتون المجيد، يا سيد النور، أنت الذى يتألق في الأفق، أيها الشمس الملكي(*) ليتك تظل متألقًا (أيضًا) في وجه الكاتب الملكي... خع إم حات. إنه يتعبّد (إليك) منذ مطلع الفجر، ويرضيك أيضًا بحلول المساء. وهكذا، فليتك تمكّن كا الكاتب الملكي... إن خع إم حات الذائع الصيت، يصعد معك إلى السماء. فليبحر على متن سفينة المساء، ما أن يهبط من سفينة النهار، وليختلط بالنجوم التي لا تكلّ وبالنجوم الأخرى في السماء.

أيها القمر في هيئته بدرًا، ليتني أتلقى ضياءك، ليتك تنير وجه الكاتب الملكي... خع إم حات. إنه يتأمل جمالك ويتهلل فرحًا بسببك، إنه يبجّل أشعتك[٨٩].

رجال تحت السلاح

تقلّص دور الجيش في عهد تحوتمس الرابع وعهد أمنحوتپ الثالث، تحديداً. واختفى كبار ضباط الإمبراطورية. ومع ذلك، يظهر بعض كبار الشخصيات، كشفت عنهم الصدفة، أثناء أعمال التنقيب في الجبانات.

إن المقبرة رقم ٩٠ المهيبة، رأت النور في الشيخ عبدالقرنة. وتضمّ صُفّةً واثنى عشر عموداً منحوتة في صخر الجبل ذاته. إنها مقبرة نب أمون، حامل البيرق وقائد المركب «محبوب *آمون*»، ثم ضابط الشرطة في غرب طيبة. كانت له زوجتان، وتيي هي الأقدم. فهل اقترن من اثنتين في آن واحد، أو تزوج مرتين، على التوالي؟ وفي حالته هذه، كما في غيرها من الحالات العديدة، من الصعوبة بمكان الوصول إلى قول فصل.

(*) لأن كلمة شمس لفظ مذكر في اللغة المصرية وليستقيم المعنى، أبقيت في المذكر كل الكلمات التي تشير في هذه الفقرة إلى الشمس. (المترجم)

إذ تظهر الزوجتان، سواء كان قد تزوجهما فى آن واحد، أو على التوالى، بلا أى تمييز بينهما فى مشاهد المقابر.

ظل نب آمون يقدم خدماته فى عهدى تحوتمس الرابع وأمنحوتپ الثالث.

وما زالت جدران مقبرته، تحتفظ بنص المرسوم الملكى بترقيته:

العام السادس. مرسوم صادر، فى هذا اليوم، من جلالة هذا القصر(*)، من أجل الأمير، قائد سفن مصر العليا ومصر السفلى. يقول هذا المرسوم:

أمر جلالتى بإعداد شيخوخة سعيدة بالهبات المقدمة لأحد خلصاء الملك المقربين، تتويجًا للوضع الإجتماعى لحامل البيرق نب - آمون، الملحق بالمركب الملكى «محبوب - آمون». وبالفعل فقد أصبح طاعنًا فى السنّ، وهو فى معية فرعون، ملتزمًا باستقامة قلبه. كانت سعادته تزداد كل يوم، فى انجاز الأوامر الصادرة إليه. لم يتّهم أحدًا، ولم أكشف عن خطأ واحد ارتكبه، حتى إذا وُشِى به (؟) أحيانًا. ولذا، فقد أمر جلالتى بأن يُسند إليه من الآن، منصب رئيس المچاى فى غرب المدينة(**)... إلى أن يبلغ وضعه المبجل. وفى الوقت نفسه، فليتصرف الجميع لتوفير احتياجات أهل بيته وماشيته وحقوله وخدمه وكل أملاكه على الماء وعلى الأرض، دون أى تدخّل ضدهم، من جانب مراقب من مراقبى الملك، (أى أن أملاك نب آمون كانت معفاة من الضرائب). إنه حامل - بيرق المركب «محبوب - آمون»، المحارب القديم فى الجيش، نب آمون، صادق - القول[٩٠].

وعلى جانب من جوانب المقبرة، يمكن أيضاً مشاهدة رسم يمثل بيته فى زمن الحياة[٩١]، وقد صُوّر طبقًا لمبادئ الرسم المصرى، التى تُكثر من عدم التطابق الذى يساعد على رؤية كل شيء. ويُستخدم فى هذا المقام تحديداً، عدم التطابق الرأسى. إن بابًا بدعامتين من خشب، صُوّر على يسار المبنى، ومن خلاله، كان من الممكن الولوج، إلى قاعة الإستقبال التى تحمل سقفها أعمدة صغيرة ذات تيجان نباتية. كانت

(*) كما نقول فى أيامنا هذه: البيت الأبيض أو الإليزيه... (المترجم)

(**) نيوت بالمصرية القديمة وهى من أسماء طيبة. (المترجم)

إضاءتها تعتمد على شباكين، في وسط القاعة، وقد وزّعا توزيعًا سليمًا على الجدار السميك الذى يحمى من حرارة الجو. وعلى سطح البيت يلاحظ وجود منتجات مخروطية الشكل لإستقبال الريح وهو ما يعرف بالملقف. ومع تزايد عدم التطابق الرأسى، يلاحظ وجود الأشجار التى كانت قائمة فى واقع الأمر خلف البيت، ولكنها تبدو هنا، فى وضع غريب، وكأنها تطل علينا من فوق سطح البيت. وهى عبارة عن أشجار النخيل والتين.

إن جزءًا من رسم جدارى، وهو من مقتنيات المتحف البريطانى، فى الوقت الراهن، يشهد على نحو خاص، على جمال الأسلوب الكلاسيكى الذى تلتزم به هذه المقبرة[٩٢] والحسّ المرهف الذى تمتع به الفنان المصرى. ويتعلق الأمر بعنصر من مشهد مزدوج، يواجه أحدهما الآخر، يصور صيداً بريًا وصيداً نهريًا، وهو موضوع شائع: هنا، نجد نب أمون، على متن زورق مصنوع من مادة خفيفة، فى صحبة زوجته وأولاده، ويصوب عصا الرماية، فى اتجاه العصافير التى تعشش داخل تويجات أزهار نبات البردى. إن تعارض الخطوط المنمقة واضح كل الوضوح. فنجد من جهة، عالم البشر، بخطوط الصياد الرأسية العالية وبساعديه الممدودين أفقيًا، بما تبذله من جهد، والخط المستقيم والموازى للمرأة وهى تحمل باقة زهور مركبة تركيبًا بارعًا: إنه عالم منظّم ومتوازن، يجد تعبيره فى هذه الخطوط الواضحة البسيطة. ونجد فى المقابل، أن عالمى الحيوان والنبات عالم برّى، وتتمايل سيقان نبات البردى، وكأنها تحت تأثير ريح عاتية، فتطير العصافير فى مختلف الإتجاهات، ونشاهد قطًا بريًا ضخمًا، فى حركة إلتوائية غريبة وهو يحاول قضم جناح طائر. كما أن تصادم الألوان أكثر عنفًا: إنه عالم من الفوضى، مشوش ومضطرب يتعارض مع عالم البشر. ويستطيع الرسّام المصرى، بتلاعبه بالخطوط وتباين الألوان، أن يعبّر عن تكوين العالم.

كما تروى رسومات المقبرة أعباء قائد الشرطة الرسمية والروتينية. هكذا نشاهد «تقرير المساء»: فيجلس نب أمون فى ظل شجرة جميز، ممسكًا بيده اليمنى فرع شجرة، ويستقبل ثلاثة رجال، يحمل أولهم سهامًا، أما الآخران فمسلّحان بالعصى. ويعلن الرجل الأول: «*النظام يعمّ منطقة الجنوب* و[منطقة الشمال]». ويعلن الآخران: «*الموقع (؟) سليم وكل شىء فى نظام*»[٩٣].

إن تأمين حسن أداء شرطة مدينة طيبة العظيمة، كان يفترض الكثير من هذه الواجبات اليومية.

أما حور إم حب، النبيل والأمير، حامل المروحة عن يمين الملك وكاتب المجندين الجدد، ثم مدير كتيبة الجيش أجمعين، والمشرف العام على الإسطبلات الملكية، والمشرف العام أيضًا على الحقول والماشية وأشغال آمون، والمشرف العام على كهنة مصر العليا ومصر السفلى(٩٤)، فكان من بين أفراد حاشية الملك الذين جمعوا بين العديد من المناصب الإدارية. وظل في خدمة ملكين، بدءًا من تحوتمس الرابع وحتى أمنحوتپ الثالث. كان في الأساس من رجال الجيش، فرافق تحوتمس الرابع إبان حملته على النوبة. وتشهد على ذلك، المخربشات التي عثر عليها في كونوسّو. وتحتفظ مقبرته رقم ٧٨، في الشيخ عبدالقرنة، برسومات توضح بالتفصيل عمليات التجنيد العسكرى، على امتداد سلسلة من الصفوف. وهى على كل حال مقبرة تتميز بجمال زخارفها. ويبدو أن فنَّانَيْن على الأقل، قد ساهما فى تنفيذ رسوماتها، فالفارق واضح بين نمطين مختلفين. والميل إلى الطبيعة بيِّن جليّ: سواء فى طريقة المعالجة المحسوسة لتحليق الطيور بأجنحتها المفرودة على اتساعها، فوق الأجمات أو فى المعالجة المفعمة بالإنفعالات والطرافة، لهذه الجرادة الخضراء الرائعة، بعينيها الجاحظتين وقد تعلقت بتويج زهرة.

ويا لها من صلاة محركة للمشاعر، تلك التى صاغها حور إم حب، حتى لا تتوقف الحياة، إنها اشتياق قوى إلى العيش فى حرية:

حقًا، فأنا إنسان، يظل قلبه بجوار الله. إن قلبى مزدهر، إن فمى مزدهر، إن يدىّ مزدهرتان. ليت قلوبكم تكون مزدهرة، أنتم يا مالكى الزمن الأبدى، أيتها الكائنات النورانية، المفعمة بالبركة فى الجبانة. انظروا، أنا قادم من بلد الأحياء هذا، لأبقى معكم فى الأرض المقدسة. أنا وحيد بينكم. ما أمْقتَ الكذبَ عندى. لقد أتيت على الدرب الجميل للإنسان ذى القلب المستقيم، حتى أنشّط وأنعش كل جسدى. ليت بائى

يعود إلى الحياة، ليتنى أكون إلهيًا، عظيمًا ونورانيًا...

أيتها الآلهة القائمة فى السماء، والآلهة القائمة فى الأرض، والآلهة القائمة فى الدوات، أيتها الآلهة، يا سادة الجولات والترحال، التى تسيّر سفينة رع، وتقود الإله العظيم إلى أفقه، ردّوا كلماتى إلى سيد الأبدية، بصفتها صلاة خادم إلى سيده. ليته يتيح لى الرقاد، فى مكان الزمن الأبدى، فى مغارة الزمن اللانهائى(٩٥).

وكرجع الصدى لصلاة الحياة هذه، تنشد الموسيقيتان هذه الأغانى:

من أجل كائك. اقضِ يومًا سعيدًا فى بيتك الجميل – بيت الزمن الأبدى، فى مكانك للزمن اللانهائى. فلتحتفظ فى يدك بآلة جنك، جميلة الناظر إليها وكاملة. ضم باقات الزهور التى لا تذبل. امسح جسدك بأفضل الزيوت. لا تتوقف عن قضاء يوم سعيد، فيبقى قلبك فى متعة وصدرك فى فرح. سوف تشاهد آمون. وسوف يسمح بأن تبقى وسط البشر المبجلين فى بلد الأحياء... سوف تشرب من كأس من ذهب(٩٦).

وأغلب الظن، أن حور إم حب كان من خلصاء **تحوتمس** الرابع الحميمين. وقد صُوِّر فى صحبة والدته، السيدة **إيزيس**، وأقعد على ركبتيه «الإبنة الملكية أمن إم أوبت». ومع ذلك، ليس فى وسعنا أن نقف على أصول وطبيعة العلاقات التى كانت تربطه بالعائلة المالكة.

عالم فلكىّ فى خدمة آمون

إذا كنّا نذكر فى هذا الصدد، **نخت** – أى: *«القوى»* – الذى عاش فى عهد **تحوتمس** الرابع، فليس لأنه يكشف أسرار فنه، ولكن بكل بساطة لأن مقبرته رقم٥٢ فى جبانة طيبة، إلى جانب مقبرة مننا، هى الأفضل حفظًا من بين سائر مقابر الجبانة. وتقع عند أدنى المنحدرات الشرقية من **الشيخ عبدالقرنة**. إن الحجرة الأولى فقط مزخرفة. وقد احتفظت رسوماتها بدقتها المرهفة ونضارتها. وعولجت المواضيع المألوفة معالجة كلها طرافة ورقة المشاعر. فيجلس نخت داخل مقصورة مصنوعة من مواد خفيفة وغطاء نباتى، ليشاهد أعمال الحقول: ففى السهل الذى ترويه ترعة صغيرة، بفضل تعرجاتها، يدفع الفلاحون أمامهم محراثين تجرهما الأبقار. وعلى

مسافة قريبة، نشاهد فلاحَين آخرين وهما يحطمان قشرة الطمى التى تصلبت بسبب حرارة الجو، حتى يستطيع الباذر الذى يتبعهما أن ينثر حبوبه. وفيما وراء الترعة أيضاً، يقوم الفلاحون بالعزق والبذر وقضب شجرة. وبعد ذلك، سيحل موسم الحصاد. ويوضح المتن: «*الترويح عن القلب فى أعمال الحقول*».

إن نخت، شأنه شأن العديد من كبراء الدولة، كان يمتلك أيضاً أراضىَ فى الشمال، فى الدلتا ولا سيما مزارع الكروم. كما أن «*الترويح عن القلب* عند رؤية *إسهامات حقول مصر السفلى*»، ينظر إليه كمشهد أبدىّ، ويقوم الكرّامون بقطف العنب وسط الأغانى وتبادل المزاح.

فإلى أبد الآباد، تظل رحلات القنص والصيد النهرى والولائم والأغانى والرقصات، تروح أيضا عن قلب نخت وزوجته تاوى، منشدة آمون.

إن تمثالاً يُصوّر نخت ممسكاً بلوح حجرى، دُوّنت عليه الترنيمة الشمسية المألوفة فى هذا الطراز من المعالم الأثرية، كان فى انتظاره مصير مؤسف. فقد تقرر نقله إلى متحف نيويورك عام ١٩٣٥، ولكن غرقت السفينة التى كانت تحمله، وما زال التمثال إلى وقتنا هذا، قابعاً فى مكان ما، فى أعماق المحيط الأطلنطى. إنه مصير غريب لم يخطر على بال عالم الفلك الذى كان فى خدمة إله الكرنك.

٤- المجتمع:
الواجبات وشغل أوقات الفراغ

جمهور أصحاب المهن

كانت مصر فى المقام الأول بلداً زراعياً، يُسهم فيها الفلاح، بالنصيب الأكبر فى رفاهية الجميع. كانت الأراضى فى مجملها ملكاً للبلاط الملكى وللكهنة. ولكن الملكية الصغيرة كانت قائمة، فكان الفلاحون يعيشون، إلى حدّ ما، عيشة الكفاف، فى

حدود ما تغلّه قطعة أرضهم الصغيرة. وفى هذا الصدد، يمكن الرجوع إلى قصة *الفلاح الفصيح* التى تروى مغامرات أحد هؤلاء الفلاحين، قبل سبعة قرون[٩٧]. ولزيادة دخلهم، كانوا يقومون بأعمال السخرة(*) لحساب الإدارة الملكية أو إدارة المعابد اللتين تقومان بمكافأتهم على مجهودهم وتعويضهم عنه. ويفلحون الحقول والحدائق الشاسعة. كانت الحبوب من قمح وشعير، إلى جانب الكتان، من الزراعات الأساسية، ويترتب عليها وجود سلسلة طويلة من المهن الصغيرة من خبّازين وصنّاع جعة ونسّاجين. وكانوا يقتلعون نبات البردى المنتشر على ضفاف النهر، ويعالجونه المعالجة المناسبة، ليصنعوا منه «*الورق*» المستخدم فى هذا العصر، وذلك بدءًا من الأسرة السادسة أى حوالى ٢٤٠٠ق.م. وفى الحدائق، كان الكروم ينمو على العريش والكرّامون المرحون يهرسون بأقدامهم الحافية، عناقيد العنب، ذات الحبات السوداء المائلة إلى الزرقة، والشبيهة بعينى حورس، اللتين أتيا بها إلى الوجود، حسبما تقوله الأسطورة، وكل ذلك على إيقاع أغانى الكرّامين وتصفيق أياديهم وتصادم الصنوج. ومن خلال فتحة فى الحوض كان العصير الغزير يتجمّع فى سطل من الطين. ثم تعصر الرواسب الباقية، ويوضع السائل الإلهى(**) فى دنات عالية، وتسدّ سدًا محكمًا، مع بصمها بختم يوضح جهة المنشأ، ويترك السائل لفترة قد تصل إلى قرنين من الزمن، ليَقدُم ويطيب، فيصير خمرًا معتقة.

كما كانت فرق من الرفاق مكلّفه بجنى البلح والجميز والرمان والزيتون، اعتبارًا من الأسرة الثامنة عشرة، إلى جانب غيرها من الثمار التى كانت تنبت بوفرة وغزارة.

(*) راجع هامش السخرة، الذى يذيّل مقدمة الكتاب. يجدر بنا أن نضيف أن الأجازات فى مصر القديمة بمناسبة الأعياد كانت تصل إلى أكثر من ١٠٥ يومًا، فى السنة أى بنسبة ٢٩٪ من الأيام. وأغلب الظن أن العمال فى مصر القديمة كانوا يتوقفون عن العمل خلال هذه الأيام، وإن كنا نفتقر إلى وثيقة تؤكد ذلك. فهل يظل يتحدث البعض عن سوء معاملة العامل فى مصر القديمة وإن خضع لنظام العمل بالسخرة؟!

Della Monica. La classe ouvrière sous les pharaons, Librairie d'Amérique et d'Orient, 1980, p.160. (المترجم)

(**) كان أوزيريس «رب النبيذ» يتوحد بقوى الحياة ويندمج فيها. (المترجم)

كانت بساتين الخضر، محل عناية فائقة فتُغلّ خضروات جليلة الفائدة كالفول والعدس والحمص والحُلبة والخيار والبصل والسلاطة المعروفة بالرومانية. ومن أعمال الفلاحة، نذكر أيضاً رعاية بساتين الأزهار، وكان يتولى ريّها عمال البساتين الشديدو البأس، بواسطة دلوين معلقين عند طرفي عصا طويلة ممدودة على كتفي كل واحد منهم. إن الزهور التي تغلها هذه الزراعة نجدها مرسومة وملونة على أرضية قصر ملقطة أو قصر العمارنة، ومنها المُرّير bleuets والأقحوان chrysanthèmes واللّفّاح man-dragores والجُلبان pois de senteur وزهرة لوتس المستنقعات.

إن تربية الحيوانات في برك نهر النيل، كانت تضم قطعان الأبقار والخراف والماعز والحمير، ولكن أيضًا الظباء أو الضباع، بعد أن جُلبت من الصحارى وكانت مصدرًا للغذاء. إن رعاةً نصف عرايا، كانوا يراقبونها، وهي ترتع في المروج. وفي الفصل الحار، يقتادون قطعان مصر العليا إلى الدلتا، طلبًا للعشب.

عرفت المزارع تربية النحل. «كانت المناحل تتكون من أواني فخارية راقدة على بطنها، أو ربما استخدمت أنابيب من البوص جُمعت فيما بينها بواسطة الطين، وظلت هذه الطريقة شائعة في ريف مصر حتى وقت قريب[٩٨]». كان جمع العسل يتم عن طريق طرد النحل بالدخان، لاستخراج العسل الذي كان يقوم بدور بارز في عملية التغذية(*)، حيث كان المصريون لا يعرفون السكر. وكانت حظائر الطيور تغص بالطيور، ويتولى الفلاحون تسمينها بأيديهم: ومنها الأوز الذي كان يطبخ بدهنه ويحفظ، وذلك بخلاف البط والحمام وأيضًا طائر الكركي وطائر الرَّهو(**).

(*) كما كان يستخدم في صناعة بعض الأدوية والأدهان. راجع:

Della Monico. La classe ouvrière sous les pharaons. Librairie d'Amèrique et d'Orient, 1980, p.119 (المترجم)

(**) طائر يشبه الكركيّ. (المترجم)

هذا العالم من العاملين النشطين، كان يعيش تحت رحمة فيضانات النيل ونظام سليم للري، تراقبه الدولة عن كثب بأكبر قدر من الدقة. ولتطهير الترع أو توسيعها، يتم تجنيد الفلاحين وفقًا لنظام السخرة(*).

كانت موارد الأراضي مثقلة بالضرائب، ومع ذلك، كان القانون يفرق بين الأراضي الزراعية وأراضي المراعي، وبين مختلف الحقول حسب مستوى خصوبتها، وبين الممتلكات القديمة وتلك الممتلكة حديثًا. كما أن «الكوارث الطبيعية»، أي الفيضانات المنخفضة، غير الكافية، يترتب عليها، تخفيض الضرائب(**).

إن تحديد الضرائب وربطها، كان يتطلب القيام بعمليات حصر متكررة للحقول والماشية. كما كان الوضع معقدًا، فيندر أن تكون الأراضي التي يمتلكها الشخص الواحد متاخمة. فالملك والمعابد - على حدٍّ سواء - ولا سيما معبد الكرنك أو النبلاء، كانوا يملكون، في آن واحد، أراضيَ في مصر العليا وفي الدلتا. أضف إلى ذلك مشكلة أخرى، لأن الضرائب كانت تُدفع عينًا في شكل حبوب أو مواشي أو أشياء مصنعة متنوعة. فكان لابد بداية من تخزينها في الشُون والحظائر والمخازن الملكية، ثم توزيعها على الجيش وموظفي الحكومة والقصر. فيقع على عاتق كتبة الخزينة مهمة شاقة ومعقدة.

إن قسمًا آخر من السكان كان يعمل في المحاجر والمناجم: محاجر مصر ومناجم الذهب في النوبة ومناجم النحاس والفيروز في سيناء، تحديداً.

(*) بعد كل ما قيل عن السخرة في الهوامش السابقة، في المقدمة وفي سياق هذا الفصل، يمكن للقارئ أن ينظر إلى الأمر بموضوعية وحيادية، بعيدًا عن التشنجات الفكرية الرافضة رفضًا قاطعًا لوجود هذا النظام في مصر الفرعونية، وبعيدًا عن الرأي الذي يصرّ على النظر إلى هذا النظام من العمل باعتباره نقطة سوداء في حضارة مصر الفرعونية، التي لم تعرف أبدًا المجازر الجماعية التي ارتكبها الغرب، ففي منتصف القرن العشرين، على سبيل المثال لا الحصر، أباد ٥٠مليونًا، من البشر خلال خمس سنوات فقط، هي عمر الحرب العالمية الثانية، والأمثلة غيرها، كثيرة وكثيرة، والإستشهاد بها، يتجاوز حدود هذا الهامش. (المترجم)

(**) هذا النظام الضريبي، من السمات الإيجابية للعدالة الاجتماعية التي قام عليها نظام العمل الأبوي في مصر القديمة. (المترجم)

كما كان يقع الاختيار على فرق العمال لإلحاقهم بكبرى أشغال التشييد والبناء: نذكر منهم قاطعى الأحجار وصنّاع الطوب والبنّائين. فيعملون مقابل أجر ثابت أو يكافؤون أيضًا أحيانًا عن فترة عملهم فى «السخرة»(*).

كما شاعت المهن الصغيرة فى القرى أو البلاط الملكى: كالغسّالين والإسكافيين والحلاقين.

إن تصاوير المقابر ونصوصها – التى تعرّفنا بهذه الشرائح من أبناء مصر، تبيّن أن كافة المصريين، من سواد الشعب، كانوا يتطلعون إلى استمرار حياتهم بعد الوفاة، فيظلوا يعملون بجوار سادتهم، فى عالم آخر يشبه الحياة الدنيوية. هذا المعتقد أيضًا، هو الأصل الذى جاءت منه التماثيل الصغيرة التى لا حصر لها، التى يطلق عليها اسم أوشبتى وتأخذ مكانها فى المقبرة، إلى جانب صاحبها، وهى تحمل معزقة ومنكاش، «لتجيب»، إذا نادى عليها السيد، وتواصل فلاحة أراضيه الأبدية، فلاحة سحرية.

وخلافًا لفكرة لم تجد أحيانًا صعوبة فى الذيوع، لم يكن أبدًا فلاحو مصر وعمالها عبيدًا. إن أسرى الحرب فقط كانوا معرضين ليباعوا أو يوهبوا. ومع ذلك فقد كان فى وسعهم أن يتزوجوا وأن يمثلوا بصفتهم شهودًا فى ساحات المحاكم. بل كان فى وسع سادتهم إعتاقهم ليحصلوا على المواطنة المصرية[99](**).

الطبقة "الوسطى"

كان الحرفيون من فخّاريين ونحّاتين ورسّامين وصوّاغ وصنّاع الجواهر – ينحتون جميعًا أشكالاً، كانت تعتبر بعضها أغلفة حية، تنتظر أن تبث فيها الحياة.

(*) أعمال السخرة كانت إذن مدفوعة الأجر. (المترجم)

(**) هكذا يمكن اعتبار أن ملف السخرة والعبودية فى مصر الفرعونية، قد أُغلق. (المترجم)

ومن ثم كانوا جديرين بكل الإحترام والإهتمام، ويشكلون طبقة تعيش في يسر ورخاء. كانت هذه الوظائف وراثية فى الغالب. فتنتقل أسرار هذه المهن أبًا عن جدّ، وخلفًا عن سلف. كان هؤلاء الحرفيون لا يحصلون فقط على أجورهم، بل كانت تعطى لهم قطعة أرض أو ما يلزمهم من متاع جنائزى. إن جبانة دير المدينة تشهد منذ إقامتها على ذلك، وسوف تزداد اتساعًا فى عصر الرعامسة تحديدًا.

الكتبة أيضًا، وهم موظفون في خدمة الدولة أو الأشراف والنبلاء أو الكهنة، كانوا عناصر نشطة، يصعب الإستغناء عنهم ويشكلون جزءًا من الطبقة الوسطى. بل كان ينتمى بعضهم إلى الطبقة الحاكمة. ولا يوجد أى وجه شبه بينهم و«نسّاخ» أيامنا هذه. كانوا أشخاصًا يتمتعون باحترام الجميع، بل وصل إليهم الأمر إلى حدّ إعفائهم من الضرائب. كانوا فخورين مزهوين بأيديهم الملساء وثيابهم المصنوعة من الكتان الناصع، ويعتزّون بما يتمتعون به من إمتيازات.

كان الجميع، بدءًا من الفلاحين العاملين فى الأرض وصولاً إلى الحرفيين والكتبة، شركاء يساهمون فى حياة العالم المصرى واستمراره على قيد الحياة فى العالم الآخر.

شغل أوقات الفراغ ورحلات الصيد الملكية

لما كانت الطبقة الحاكمة التى تشكل بلاط الملك فى طيبة، مثقلة بمسؤوليات مرموقه وجسيمة، فمن الطبيعى أن تسعى إلى شغل أوقات فراغها بطريقة سليمة ومفيدة، على سبيل الإستجمام: كالترويح عن النفس فى جو الحدائق العليل، وتأمل أعمال الحصاد وأعشاش الطيور، أو شغلها بممارسة قدر كبير من الرياضة، من خلال رحلات الصيد النهرى والصيد البرى، وتحتفظ المقابر بالعديد من التصاوير التى تمثل هذه الأنشطة.

ولكن الصيد البرى والصيد النهرى، لم يكن لهما فى مصر دلالة رياضية فحسب، بل كانا أفعالاً سحرية تهدف إلى قتل القوى العدائية الكامنة فى كل قنيصة.

كما كانت رياضة الصيد فى نظر الملك مأثرة، الهدف منها تأكيد قوته وتعذر قهره، إذ كانت الحيوانات البرية وأعداء الإمبراطورية شيئا واحداً. ومن ثم كان الصيد نشاطًا مخلّصًا، يسهم فى إقرار النظام فى العالم وتماسك البلاد وترابطها.

لقد أراد أمنحوتب الثالث أن يخلّد رحلات صيده العظيمة. فأصدر سلسلة من الجعارين. وفى العام الثانى من عهده، أراد لرحلة الصيد التى قادها ضد الثيران البرية، أن تحيا إلى أبد الآباد:

فى العام الثانى، من عهد صاحب الجلالة... (تذكر بعد ذلك القائمة الكاملة للألقاب الملكية)... *أمنحوتب، حاكم طيبة و(جلالة) زوجته الملكية العظيمة تيى، جرت لصاحب الجلالة أحداث عجيبة. جاء من يقول له، أن قطعان من الثيران البرية موجودة فوق تل أرض شيتا(؟). عندئذ هبط صاحب الجلالة النهر، ليلاً متجهًا ناحية الشمال، على متن السفينة الملكية المسماة «من يظهر متألقًا مع ماعت». وإذ سلك الطريق المناسب، وصل إلى شيتا فى سلام مع مطلع الفجر. عندئذ، ظهر على مركبته، فى حين كان جيشه بأكمله يسير فى أعقابه. فصدرت الأوامر إلى أفراد الحملة فى مجموعها، وإلى الأطفال أيضًا، الذين كانوا فى صحبتهم بمراقبة هذه القطعان البرية بأكبر قدر من اليقظة. ثم أمر صاحب الجلال بمحاصرة هذه القطعان بسور وخندق. وأمر أيضًا بإحصائها. فكانت أعدادها الحالية ١٧٠ ثورًا. وأعداد ما جاء به من رحلة الصيد، فى ذلك اليوم: ٥٦ثورًا.*

ثم قضى صاحب الجلالة أربعة أيام يشغل فراغه فى العَدْو بجياده (حرفيًا: يلهب الجياد). *وظهر مرة ثانية على متن مركبته. بيان بالثيران التى جاء بها صاحب الجلالة من رحلة الصيد: ٠٤٠ ومجموع الثيران ٩٤*(*)(١٠٠).

وتكرس مجموعة أخرى من الجعارين انتصارات العاهل الملكى فى رحلات صيد الأسود. وبعد القائمة المزدوجة لألقاب الملك والملكة يعلن النص: بيان بالأسود

(*) هكذا فى الأصل. (المترجم)

التى جاء بها صاحب الجلالة، بفضل قوسه، منذ العام الأول وحتى العام العاشر: ١٠٢ أسداً متوحشاً(١٠١).

الأسلوب مبتذل، ويبتعد كل البعد عن أسلوب الملاحم العظيمة التى حققها تحوتمس الثالث. كان أمنحوتپ الثالث ملكًا عاش حياة سهلة مترفة، بفضل فتوحات آبائه، ولم يهتم إلا فى أضيق الحدود بالحفاظ مثلهم، على الإمبراطورية، بفضل سياسة حصيفة، تضمن وجوداً متواصلاً واستعراضًا للقوى العسكرية.

٥- الازدهار وكبرى الأبنية

• وأخذ الكرنك يتوسّع

إن الكتل الحجرية التى استخدمت فى مبانى تحوتمس الرابع عثر على معظمها فى المبانى التى شيّدها ابنه أمنحوتپ الثالث. كان هذا الأخير بنّاءً عظيمًا ولكنه كان أيضًا فى الواقع «*هدّامًا*». فإذ أراد أن يبنى بأقلّ التكاليف وبأسرع ما يمكن، فكّك العديد من مبانى أسلافه ليشيّد مبانيه، وتحديداً الصرح الثالث من معبد الكرنك.

كان تحوتمس الرابع قد شيّد مقصورة من الألبستر لاستراحة المركب المقدس، بمدخل مزدوج اسمها «*تحوتمس – نو – الإشراقات – المتألقة، هو الذى يتسلّم تيجان أمون*».

كان معبد أمون – رع يبدأ آنذاك، عند الصرح الرابع الذى شيده تحوتمس الأول. وفى باحة المبنى شيّد تحوتمس الرابع مبنىً من الحجر الرملى، له أهميته. ربما كان بنايةً تحيط بها أعمدة أو فناءً ذا رواق داخلى، يتكون من عشرين إلى ثلاثين عموداً مربعًا، مزخرفًا على كل وجه من وجوهه، بمشهد ذُيّل بسطرين من نصوص تشير إلى أعياد الملك اليوبيلية. وما زال بعض بقايا الأعمدة موجودة فى مكانها، عند الزاوية الشمالية الغربية من البرج الشمالى من الصرح الرابع، ولكن عثر على

معظمها وسط أساسات الصرح الثالث الذى شيّده أمنحوتب الثالث(*). إن بعض أجزاء السواكف كانت تحمل مدونة، تقدم وصفًا للمبنى: «فناء أمامي، من الحجر الرملي الجيد، محاطًا بالأعمدة»(١٠٢). لا شك، أنه كان فناءً للأعياد، يُحتفل فيه ببعض فقرات مراسم الأعياد اليوبيلية، وتحديداً العَدْو الشعائرى والمواكب المقدسة. ويُعتقد أنه كان يسمح عندئذ للجمهور بالدخول إلى هذا الفناء لرؤية «*الإله فى تجلياته*». ويطلق أحيانا على هذه الأفنية الأمامية عبارة «*أفنية الشعب*». قام **تحوتمس الرابع** بزيادة حجم باب الصرح الرابع، فأضاف جزءًا أماميًا إلى الكتلة الأساسية للباب الأقدم الذى قد يعود تاريخه إلى **تحوتمس الأول**. الأمر الذى يفسّر تغيير اسم المبنى، فأصبح اسمه بدءًا من عهد **تحوتمس الرابع**:

«*الباب المقدس العظيم* (المسمّى): قوية – هى – هيبة – *آمون*».

وأمام بوابة الصرح الرابع هذه، أمر العاهل الملكى بتشييد مدخل مسقوف من الذهب(١٠٣)، كانت ظلّته مرفوعة على أسطونين من الطراز الخيمى(**)، وما زالت ركيزتيهما فى مكانهما بجانب قاعدتى المسلتين، وعلى الدعامة الشمالية العلوية، يمكن أن نقرأ:

لقد شيّد من أجل أبيه آمون – رع بوابة شامخة... ليصبح ما سبق أن شيده أسلافه، أكثر اتساعًا وأكثر شموخًا. حتى وصل ارتفاعها إلى عنان السماء، وينير تألقها القطرين ويدخل الفرح والبهجة على الكرنك، ويغتبط ملك الآلهة عند مشاهدتها(١٠٤).

وفيما بعد سيتولى الملك السودانى **شاباكا** من الأسرة الخامسة والعشرين، ترميم الباب والمدخل المسقوف. وبعد ذلك، سيدوّن **الإسكندر الأكبر** اسمه على الباب.

(*) هكذا كان وضعها عند كتابة هذه السطور، ولكن أعيد الآن تشييد ما تبقى من المقصورة، فى المتحف المفتوح بالكرنك. (المترجم)

(**) campaniforme. تاج هذا الطراز من الأساطين، فى هيئة ناقوس فتحته من أسفل ومدور فى أعلاه ويشبه وتد الخيمة، ومن أمثلة هذا الطراز: أساطين بهو أعياد **تحوتمس الثالث** بالكرنك (آخ منو) ومركب خوفو فى المتحف القائم جنوب هرم خوفو. (المترجم)

لقد وردت صورة للمدخل المسقوف، فى حالته الأصلية، ضمن رسومات المقبرة رقم ٧٥ بجبانة الشيخ عبدالقرنة، فى غرب طيبة لصاحبها أمنحوتپ سا إس، الخادم الثانى للإله أمون.

وهنا، لا ينظر إلى الذهب، باعتباره رمزًا يدل على الأبهة والرفعة والترف. فالذهب هو لحم الآلهة. والمدخل المسقوف المصنوع من الذهب، يستقبل إستقبالاً طبيعيًا أمون – رع، عند أطراف بيته. إنه يحدد مدخل الطريق المقدس الذى يسوق الإله إلى معبده.

إن أعمال تحوتمس الرابع تضم أيضًا عددًا من المعالم الصرحية الأخرى الرفيعة الشأن، وإن اختفت فى الوقت الراهن. ونعرفها من خلال النصوص. فيمكن أن نقرأ على الجانب الشرقى من مسلة اللاتران(*)(١٠٥) Latran، النص الآتى:

إن من خپرو رع، ملك مصر العليا ومصر السفلى، قد أكثر من المعالم الصرحية فى الكرنك، (إنها معالم) من ذهب ولازورد وفيروز، وكافة أنواع الأحجار الكريمة. إن القارب الكبير للإله آمون على صفحة النهر، المسمّى «ذا القيدام القوى»، مصنوع من خشب الأرز الذى قطعه صاحب الجلالة من فوق جبل ريتنو. كان مغشى بالكامل بالذهب، وصنعت كافة زخارفه حديثًا، لاستقبال جمال أبى الملك آمون، عند ابحاره على صفحة النهر(١٠٦).

لقد اندثر العديد من أعمال الفراعنة المقدسة، من جراء ما لحق بها من تدمير وسرقات وسلب ونهب.

وقام أمنحوتپ الثالث بتوسيع الكرنك، إلى حدّ كبير فى اتجاه الغرب والشمال والجنوب.

وأمام الصرح الرابع الذى شيده تحوتمس الأول، والفناء ذى الصُفة وهو من أعمال تحوتمس الرابع، شيّد صرحًا آخر، هو الثالث حسب تسميتنا فى الوقت الراهن، ويقع شرق بهو الأساطين العظيم الذى شيده سيتى الأول ورعمسيس الثانى،

(*) فى الڤاتيكان. (المترجم)

أى أنه كان يقع بعد هذا البهو بالنسبة للقادم من جهة النهر. كان هذا الصرح يتكون من برجين مرتفعين من الحجر الرملى، يكتنفان باب من الحجر الرملى، وثبتت أربع سوارٍ على كل برج. وبعد ذلك، وأمام هذا الباب، أمر الملك بإقامة ردهة وباب أمامى، سوف يتقدمه فيما بعد صف أعمدة.

وعندما قامت هيئة الآثار المصرية(*) بالتنقيب فى أساسات هذا الصرح، كشفت عن ١٣٠٠ كتلة من الحجر المزخرفة، كانت جزءًا من ثلاثة عشر أثرًا مختلفًا: فناء تحوتمس الرابع، ذى الأعمدة ومسلتا أمنحوتپ الثانى اللتين كانتا قائمتين فى هذاالمكان وباقى المبانى التى شيدت على ما يظن فى هذا المكان، وهو نقطة تقاطع محورى الكرنك الرئيسيين، محور معبد آمون – رع الغربى الشرقى والمحور الشمالى الجنوبى الذى يربط معبد مونتو بمعبد مُوت ومعبد الأقصر. ومن بينها، مقصورتان أمكن ترميمها بالكامل إنطلاقًا من الكتل المستخرجة من أساسات صرح أمنحوتپ الثالث، بفضل جهود المهندس الفرنسى هنرى شيڤرييه Henri Chevrier: فأعيد تشييد الأولى فيما بين عامى ١٩٣٧ و١٩٣٨، وهى إستراحة للمركب المقدس من الحجر الجيرى الأبيض وكان سنوسرت الأول قد أقامها. أما الأخرى فقد أعيد تشييدها عام ١٩٤٧ وهى استراحة للمركب المقدس من الألبستر وتعود إلى عهد أمنحوتپ الأول[١٠٧](**).

أما باب الصرح، فقد صار فى الوقت الراهن مجرد أنقاض. ولكن فى وسع المرء الواقف أمام أطلاله، أن يتصور بسهولة روعته الغابرة، لأن نصًا يقدم له وصفًا، على قدر كبير من الدقة. فقد حُفر هذا النص على لوح كبير من الجرانيت الأسود، كان مقامًا أصلاً فى المعبد الجنائزى للعاهل الملكى بالبر الغربى، وعُثر عليه فى معبد

(*) تغير اسمها فى الوقت الراهن إلى المجلس الأعلى للآثار. (المترجم)

(**) يمكن مشاهدة هاتين الرائعتين فى المتحف المفتوح، شمال الفناء الأول من معبد الكرنك. (المترجم)

الفرعون مر إن پتاح من الأسرة التاسعة عشرة(*)، الذى أعاد استخدام عناصر مبانى سلفه، فى مبانيه الخاصة.

يحدثنا نص أمنحوتپ الثالث على النحو الآتى:

طلب الملك بتشييد باب شامخ أمام (معبد) آمون - رع، رب عروش القطرين، مغشى بالكامل بالذهب. إن صورة الإله، (فى هيئة) كبش، مطعمة باللازورد الحرّ ومغشاة بالذهب وعدد كبير من الأحجار الكريمة. ولم تُصنع مثلها أبدًا . كانت الأرضية مزدانة بالفضة. وأقيم باب أمامى ولوح من اللازورد على كل جانب من جانبيه. كان صرحه يلامس السماء، مثله مثل الدعائم الأربع التى تحمل السماء. إن تألق السوارى ذات البيارق، المغشاة بالذهب الخالص، كانت ترتفع إلى أعالى السماء. ولهذا الغرض كان صاحب الجلالة، قد جلب الذهب من منطقة كاروى، إبان الحملة الأولى المظفرة الهادفة إلى تدمير بلاد كوش الشديدة الخسّة(١٠٨).

وما زلنا نقرأ أيضًا، مدونة أخرى منقوشة برشاقة فائقة، على الجناح الجنوبى من الصرح الثالث. إنه نص يمتدح الملك وأعماله من أجل إله الكرنك. ونلاحظ أن التعبير عن المقصود، من خلال لفظ حسن، يُرهص منذ ذلك الزمن، بطلاوة البيان فى عصر الرعامسة:

إنه أكثر الأذكياء، الذى اصطفاه آمون من بين ملايين البشر، ليقود الشعب فى مواجهة الزمن الأبدى. لقد أقامه على عرشه ليسوس ما يحيط به القرص (آتون)، إن عينه تخلق النور من أجل البشر أجمعين. كم هى محببة ومنعشة، رؤيته متجليًا فى تألقه. لقد وهبه آمون عرش جب ووظيفة آتوم ومُلك رع، للزمن الأبدى. إن ساعديه يحملان العصا، ببسالة وقوة، لتتوجه إليه الأرض قاطبة محملة بمنتجاتها . إنه أسد

(*) وهو من مقتنيات متحف القاهرة حاليًا، الرواق ١٣ من الطابق الأرضى. ومن السهولة بمكان، أن يدرك المشاهد الفارق الشاسع بين روعة نقوش وجه اللوح الذى يخصّ أمنحوتپ الثالث، بمقارنتها بمستوى نقوش ظهر اللوح الذى يخص مر إن پتاح - والمعروف إصطلاحًا بلوح إسرائيل. (المترجم)

متوحش، عندما يشاهد أعداءه، وهم يطئون طريقه، (الأعداء) الذين يدحرهم اسمه. ومن أتى به إلى الوجود، يأمر بأن يتحّد بأشكاله، ليصبح السيد الأوحد المتفرد... مستمتعًا بقوته، مرشد جيشه، وزعيم ملايين البشر، إنه صاحب قلب يقاوم الزمن، وساعد بارع ويتمتع بالمعرفة... منجزًا مداره على غرار آتون، لأنه واسع الخُطى. إنه نجم من الذهب الخالص، على متن مركبته (الحربية) وقوّاس قدير، عندما يصوّب ناحية الهدف. إن ساعدَيْه يشبهان ساعدَيْ رب طيبة، وهو يسوق أسرى البلدان الأجنبية قاطبة. فلا نظير له، إنه الراعي الصالح، الساهر على البشر أجمعين الذين أخضعهم خالقهم لسلطانه. إنه سيّد الطعام... فهو من يحبّ أفعال ماعت، مغتبطًا بإرشاداتها، فاحصًا الأبدان وعارفًا بما في القلب. إن بسالته المجيدة تذهب بالشرير، وتحمي الخائف المذعور. إن كلماته نسمة الحياة، نشطة ورشيدة. إن البذرة الإلهية في بدنه، إن تألقه بالكامل ينتسب إلى صيرورة جلالة رع...

(كلمات الملك):

أنا ابنه البكر، الآتي إلى الوجود في طيبة... إني أقود تحت إمرته، واتّحد بقوته. إني أفتح (البلدان) بواسطة سلطانه. وأنجز في معبده أعمالاً، من مختلف الأنواع....

أنا ابن، يحقق أشياءً مفيدة للذي انجبه. إنه الله في قلبي، في كل لحظة من اللحظات(*). وأقدّم له نباتات نضرة... وأُحضر له فضةً وذهبًا ولازورد خالصًا وفيروزًا وعقيقًا أحمر ونحاسًا أسود وبرونزًا وقصديرًا وألوانًا وأحجارًا كريمة، من مختلف الأصناف، وكافة أنواع أدوات الأكل المقدسة وهي من الذهب - وبأعداد لا تحصى(١٠٩).

(*) وجه الشبه كبير مع ما سيقوله بعد عدة قرون، أبو المغيث الحلاّج، المتوفى عام ٣٠٩هـ - ٩٢٢م:

رأيت ربي بعين قلبي فقلت من أنت قال أنت.

[ديوان أبي المغيث الحلاج. دار معد. ودار النمير. دمشق. ١٩٩٩. ص٢٨]. (المترجم)

هكذا، فإن الأيديولوچيا التى رسّختها حتشپسوت وطوّرها تحوتمس الثالث، تكشف فى نص أمنحوتپ الثالث، المنحوت على الصرح الثالث بالكرنك، عن جوانب جديدة. فيتضخّم «*التبادل*» التقليدى للخدمات الحميدة بين الملك والإله، والوحدة التى تجمعهما، تجعل منهما من الآن، كائنا واحداً بأشكاله المتداخلة المتشابكة. وتظهر صور جديدة تدمج الفرعون دمجًا لصيقًا بالكون، باعتباره كلاً منظمًا متناغمًا، بعيداً عن الخواء والفوضى، وإرهاصًا لميثولوچيا الرعامسة. ولا تهيمن على تاريخ الأسرة الثامنة عشرة، فكرة أحادية مرموقة - على غرار ما ساد فى زمن الرعامسة - بل فكرة ما زالت تبحث عن مقوماتها فتتشكّل ونتكوّن تدريجيًا، ويأتى كل ملك ليقدم بدوره إسهامه، حتى أصبحت المصدر المباشر لأيديولوچيا الرعامسة، التى لا تنفصل عنها.

وإلى الشمال من معبد آمون - رع، توجد منطقة أخرى مقدسة، وإن كانت أصغر منها بكثير، كانت قائمة قبل الأسرة الثامنة عشرة، بفترة طويلة، ومكرسة للإله مونتو، الراعى الحامى لمدينة هرمونتيس، إنه إله صقر محارب. إن معبد مونتو، كما نشاهده فى الوقت الراهن، والذى يقع مدخله ناحية الشمال، هو من أعمال أمنحوتپ الثالث. إنه مشيّد فوق قاعدة بناء مستطيلة، طولها ٥٢متراً ونصف وعرضها ٢٦متراً وربع، ولها إفريز على ارتفاع ١١٥سم فوق الأرض. أما جدران المبنى التى يعتقد أن واجهاتها الخارجية، كانت مزخرفة زخرفةً محدودة، فكان يعلوها، على ما يظن، إفريز مماثل لإفريز قاعدة البناء. إن بابًا شامخًا، عتبته من الجرانيت الوردى، كان ينفتح وسط الواجهة. وشأنه شأن جميع المبانى القائمة حول محيط معبد آمون - رع فى الكرنك، أصاب معبد مونتو خرابًا طائلاً، إذ استخدم محجراً لسكان المنطقة. ومع ذلك فإن الأجزاء المبعثرة المتبقية من البلاطات والمسلتين والجدران والأساطين وتيجانها والسواكف، تساعد على إعادة تخيّل ما كان عليه المبنى[١١٠].

كانت مسلتان من الجرانيت الوردى، قائمتين أمام المعبد، يصل ارتفاعهما إلى أكثر من ١٨متراً. ويمكن افتراض أن مساحة المعبد فى حد ذاته، كانت تتكون من

مربعين، يبلغ كل ضلع من أضلاعهما ٢٥مترًا طولاً. ويضمّ المربع الأول الفناء المحاط بأروقة، ويضم الثانى، القسم المسقوف من المبنى، ويصل إليه المرء من خلال خمسة أبواب.

كان الفناء الكبير يضم أربعة عشر أسطونًا على هيئة براعم نبات البردى، يتكون بدنها المقنى من اثنى عشر ضلعًا، الأمر الذى يذكرنا بشكل أساطين معبد **الأقصر** وترتيبها، وإن كانت أبدانها المقناة لا تتكون سوى من ثمانية أضلاع. وأقيمت فى هذا الفناء تماثيل لأبى الهول من الجرانيت الأسود، بجسم أسد ووجه **أمنحوتپ الثالث**.

كانت أكثر أقسام المعبد انعزالاً، تضم تحديدًا بهو أساطين تكتنفه حجرات ثانوية وسبع مقاصير لقدس الأقداس. كان بهو الأساطين يضم أربعة أساطين فى هيئة براعم نبات البردى، من طراز يشبه أساطين الفناء، وإن كانت أقل ارتفاعًا، ومقامة فوق بلاطات تشكلت من أجزاء ضخمة، تعود أصلاً إلى سقف من الجرانيت الوردى، قبل أن يعاد استخدامها. كان الجزء الأسفل من جدران البهو مزخرفًا بمشهد يصور سيقان نباتية تنبثق من المستنقعات، واتخذت مياهها هيئة خطوط منكسرة. هنا، تبرز الدلالة الرمزية لبهو الأساطين[١١١]. وفى إحدى الحجرات، عثر على تمثال ثنائى، من الجرانيت الأسود، هو آية فى الجمال، ويمثل **أمون – رع** متربعًا على العرش واضعًا يده على عنق **أمنحوتپ الثالث** من الخلف، وقد صُوِّر الملك جاثيًا مرتديًا زى العيد اليوبيلى. كانت هذه المجموعة مغطاة بالكامل، برقائق من الذهب ما زالت بعضها فى مكانها. إن الدلالة الرمزية للذهب موجودة فى كل ركن من أركان **الكرنك**، أرض الشمس. كما كان الذهب عنصرًا مهيمنًا أيضًا، فى البناية الأصلية، انطلاقًا من الوصف الذى تحتفظ به مدونة منحوتة على الواجهة الجانبية الشرقية لقاعدة البناء:

*ملك مصر العليا ومصر السفلى، نب ماعت رع، صورة (الإله) رع. إنه يتسيّد القطرين، وأقام مَعْلَمًا أثريًا من أجل أبيه [***أمون – رع***، رب عروش القطرين، فشيّد] معبدًا جديدًا، من حجر رملى أبيض جميل، فى المكان المبارك بطيبة، دون أن يلحق أى ضرر، بما كان مقامًا من قبل. (إنه معبد) وطيد الأركان، شُيِّد ليدوم إلى أبد الآباد،*

ويفضل إسهامات زعماء كافة البلدان الأجنبية والتى أتى بها صاحب الجلالة من إنتصاراته، ويفضل غنائم ساعده الجسور. جُعل (المعبد) طاهرًا مقدسًا، فى مجموعه، بفضل الذهب. كانت أبوابه من الذهب الخالص الحقيقى، ومزدانة أيضًا بمختلف أنواع الأحجار الكريمة، المقدمة من بلاد الجنوب. كانت كافة أرضياته مذهبة. ومصاريع الأبواب من خشب الأرز ومن نحاس آسيا، كإسهامات من بلاد الشمال. كان المعبد أشبه بأفق السماء بأكملها، وأدوات الطعام من الفضة ومطعّمة بكل أنواع الأحجار الكريمة. كان المكان الذى يستريح فيه سيد الآلهة، فجاء على صورة عرشه القائم فى السماء. واسمه الكامل الصفات، كما تحدده المدونات «إن نب ماعت رع هو الذى يتجلّى متألقًا مع الحقيقة – العدالة».

إجمالى ثروة المعبد حسب أوزانها:

الذهب الخالص :	٣١٤٨٥ دبن	(٢٨٣٣٨ كجم)
الذهب :	٢٥١٨٢ دبن	(٢٢٦٦٥ كجم)
النحاس الأسود:	٤٦٢٠ دبن	(٤١٦ كجم)
اللازورد :	٦٤٠٦ دبن	(٥٧٧٠ كجم)
العقيق الأحمر :	١٧٣١ دبن	(١٥٦٠ كجم)
الفيروز :	١٠٧٥ دبن	(٩٧٠ كجم)
البرونز :	١٤٣٤٢ دبن	(١٢٩١٠ كجم)

وحُفرت بركة، وزُرعت حديقة متألقة بما فيها من أزهار، من كافة الأنواع. كما أُلحقت بالمعبد، أعداد غفيرة من الخدم... وأبناء زعماء كافة البلدان الأجنبية القادمين، منحنية ظهورهم، بسبب مجد صاحب الجلالة[١١٢].

إن الكنوز المكنونة لدولة جولكوندا(*) Golconde وذهب منطقة إلدورادو(**)

(*) جولكوندا: مدينة محصنة فى شبه جزيرة الهند، لم يبق منها سوى أطلال، بعد أن سلبت ودمرت فى القرن السابع عشر. وقد اشتهرت بثرواتها الطائلة. (المترجم)

(**) إلدورادو: كلمة إسبانية معناها: «بلد الذهب»، وهى منطقة خرافية فى أمريكا الجنوبية، ذهب الغزاة الأسبان الأوائل إلى الاعتقاد بأنها كانت تفيض ذهبًا. (المترجم)

Eldorado، ليست سوى صُور حديثة شاحبة، لهذه الثروات التى تفوق الخيال. لم تعرف البشرية كاتدرائيةً أو مسجداً أو كنيساً أو معبداً، بلغ ما بلغته الأماكن المقدسة فى الكرنك من روعة منقطعة النظير، وقد ظل شعب بأكمله يعمل من أجله بورع وحماس على امتداد العصور. كان الحجيج، إذا ما أشرفوا على نهاية رحلتهم يشاهدون من على بعد، من الصحراء تألق الذهب عند امتزاجه بالشمس التى كان هذا المعدن النفيس امتدادها على الأرض. هكذا كان آمون - رع ومونتو يستريحان فى مكانهما المقدس.

وإلى الجنوب من معبد آمون - رع، وقرب الطريق المؤدى إلى معبد الأقصر، شيَّد أمنحوتب الثالث معبداً مكرساً للإلهة مُوت، زوجة آمون. كان يتجه من الشمال إلى الجنوب، وهو مدمر تدميراً بالغًا، فى الوقت الراهن، رغم قيام رعمسيس الثالث بترميه والبطالمة بزخرفته بنقوش جديدة. ويمكن للمرء، أن يلاحظ، فى الوقت الراهن، وجود فناء أول مع بقايا صُفة ذات أعمدة وفناء ثانٍ برواق يتميز بوجود أعمدة ذات تيجان حتحورية، يليه بعض الحجرات وقدس الأقداس. كانت جميع القاعات تضم تماثيل من الجرانيت الأسود، للإلهة سخمت برأس أسدة والمندمجة فى مُوت، وقد صورت واقفة أو جالسة. وعثر على مئات من هذه التماثيل. والقلة القليلة من متاحف أوروبا أو أمريكا لا تحتفظ ببعضها ضمن مقتنايتها. وقد تم «الكشف» منذ وقت قريب، على إثنين منها فى حديقة شاتسورث هاوس Chatsworth House، وهو قصر كبراء دوقية ديڤونشاير Devonshire القائمة بجوار مدينة باكويل Bakewell فى دربيشاير Derbyshire(*)(١١٣).

هذا الوجود الإلهى الملح الطاغى بأعداده الكبيرة، نلتقى به أيضًا فى معبد أمنحوتب الثالث الجنائزى، فى كوم الحيتان على البر الغربى لمدينة طيبة. ولما كان كل تمثال من هذه التماثيل، يحمل صفة من صفات الإله، تختلف عن غيرها، فقد أصبح مجموع هذه التماثيل أشبه بسرد رتيب من الحجر، أقيمت إكراماً لهذا الكيان الإلهى

(*) فى بريطانيا العظمى. (المترجم)

الشمسى والحربى – الشديد القرب من حيث طبيعته، بالإله مونتو. إن معبدى الكرنك الثانويين، يوازنان إذن على أكمل وجه، المعبد الأوسط الكبير المكرس لملك الآلهة.

ويحيط بمعبد مُوت من جهاته الثلاث، بحيرة مقدسة، تتخذ شكلاً غريبًا على هيئة حدوة حصان، يطوّق طرفاها المعبد.

أما البحيرة المقدسة التابعة لمعبد آمون – رع فى الكرنك، فتقع إلى الجنوب منه، وتكاد تلامس نقطة تقاطع المحورين الرئيسيين للمبنى المقدس. ربما كانت من إنجازات تحوتمس الثالث. إنها تشكّل مستطيلاً شاسعًا، يبلغ ١٢٠مترا طولاً و٧٧متراً عرضًا. كانت ضرورية لوضوء الكهنة، حسبما تقتضيه ترتيبات الشعائر الدينية ولرحلات الإبحار الإلهية، حيث كان ينظر إليها باعتبارها انبثاقًا أسطوريًا ثانيًا، للمياه الأزلية الأولى التى سبقت خلق العالم. وأمكن إعادة تشييد الجدران والسلالم، بعد أن عُثر على أجزائها القديمة المهدمة إلى حدّ ما، حول طول محيطها بالكامل.

وفيما بين الركن الشمالى الغربى من البحيرة المقدسة والركن الجنوبى الغربى لمبنى شيده، فى زمن لاحق، الملك السودانى طهرقا، من الأسرة الخامسة والعشرين، يرتفع فوق قاعدة، تمثال لجعران ضخم، نُحت فى عهد أمنحوتپ الثالث، فى كتلة من الجرانيت الوردى. وأغلب الظن، أنه كان قائمًا أصلاً فى كوم الحيتان بالبر الغربى، فى المعبد الجنائزى لهذا العاهل الملكى. ولا شك أنه نُقل إلى الكرنك فى عهد ملوك الأسرة السودانية. وبالفعل، تقول المدونة التى يحملها:

كلمات قالها خپرى الآتى إلى الوجود منبثقًا من أديم الأرض: «إنه ابنى نب ماعت رع. إنى أغدق الحياة على أنفك، والثبات والقوة، حتى تُتمّم ملايين أعياد اليوبيل، لأنك سيد ما ينيره القرص الشمسى (آتون). لقد خرّت الأقواس التسعة تحت قدميك، مكافأةً على ما فعلته من أجلى. إنى راضٍ عن عملك، عن هذا المعبد القائم فى غرب طيبة...»(١١٤).

وبطبيعة الحال، فإن هذا التمثال الشامخ المكرس للإله الشمسى خپرى، كان يلمح إلى انبثاق الجرم السماوى عند الفجر، رمزًا للحياة التى تتجدد دائمًا وأبداً.

ويرى پول بارجيه Paul Barguet، أن موقعه الثانى، يربطه ارتباطًا مباشراً، مع مبنى طهرقا - البحيرة. فالإله «*الخارج من الأرض*»، كان ينبعث على ما يظن، من حجرات المبنى الواقعة تحت مستوى الأرض، عبر إرتقاء الدرج الذى دونت على جدرانه الترانيم إلى الشمس. ويظل المعنى العميق للأسطورة قائما، ولكن فى وسعه أن يتكيف مع مختلف المواقف.

معبد الأقصر: مكان مقدس جديد

ملك مصر العليا ومصر السفلى.... نب ماعت رع. ابن رع: أمنحوتپ... طاب له أن يُشيِّد من أجل أبيه، أمون - رع، رب عروش القطرين، فى الأقصر، معبدًا من الحجر الرملى الأبيض الجميل. كان واسعًا وشاسعًا إلى حد كبير، ويزداد جماله، بلا انقطاع. كانت جدرانه من الذهب الخالص، وأرضياته من الفضة، وكافة أبوابه مغشاة... كانت صروحه تلامس السماء وتختلط بالنجوم الإلهية.

وعندما شاهد الشعب ذلك، هتف لصاحب الجلالة وهلّل (قائلاً): «الملك نب ماعت رع، هو الذى أرضى (حرفيًا: غسل) قلب أبيه أمون، رب عروش القطرين...»(١١٥).

لم يكن الموقع جديداً. فقد سبق أن شُيِّد فى هذا المكان معبد من الحجر الرملى، يعود إلى الأسرة الثانية عشرة. وقام أمنحوتپ الثالث بهدمه وأعاد استخدام مواده: كان معبد الأقصر ملحقًا تابعًا لمعبد الكرنك، بصفته «الحريم الجنوبى للإله»، ويستخدم تحديداً إبان الموكب الإحتفالى للإله أمون، عند خروجه بمناسبة عيد أوپت(١١٦). ففى اليوم التاسع عشر، من الشهر الثانى، من فصل الفيضان - أى النصف الأول من شهر أكتوبر - كان أمون الكرنك يهمّ فى الحقيقة، بزيارة حريمه الجنوبى، لمدة أربعة وعشرين يومًا. كان عيداً مزدوجًا للخصوبة، عيد الأرض التى يخصبها غرين النيل وعيد الإله الذى تعم إبانه الأفراح الشعبية ويقيم سواد الشعب

فى الطعام واللهو(*). إن ممشىً مبلطًا، تحفه تماثيل أبو الهول، كان يربط معبد **الكرنك** بمعبد **الأقصر**، على امتداد ٢٥٠٠متر. ولكن المواكب الإحتفالية، كانت تختار أحيانًا الطريق النهرى.

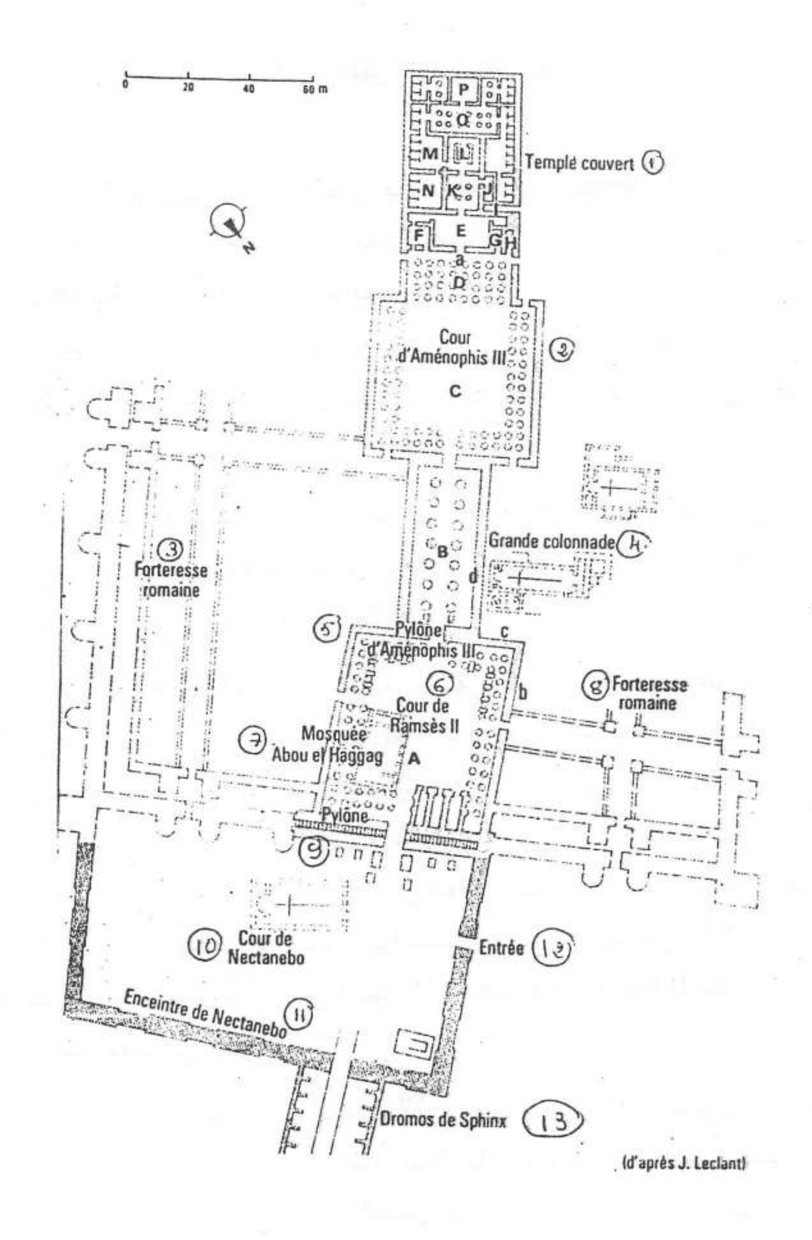
إن رفع أنقاض ورديم معبد **الأقصر**، قام به **ماسبيرو Maspéro** عام ١٨٨٣. ولن تكتمل هذه العملية، فى واقع الأمر، إلا بعد التوصل إلى حلّ المشكلة التى يثيرها مسجد **أبو الحجاج** القائم فوق كتلة كثيفة من الأنقاض والرديم، التى تحتل الركن الشمالى الشرقى من الفناء الأول من المعبد. وعلى غرار المعبدين الملحقين بمعبد **الكرنك**، المكرسين على التوالى لكل من مونتو و مُوت، يتجه معبد **الأقصر** ناحية الشمال.

وعندما يتأمل المرء معبد **الأقصر**، من البر الغربى أو من النهر، تستولى عليه الدهشة فى الحال، لما يشاهده من رشاقة العناصر المعمارية ورهافتها وسلاستها. ويبدو أن أعمال التشييد قد تمت على مراحل ثلاث.

بعد اجتياز الصرح المشيد من الحجر الرملى وعرضه ٢٦متراً، وعبور الفناء، يصل المرء إلى ممر عظيم ذى أساطين، طوله ٥٢متراً وعرضه ٢٠متراً، ويتكون من صفين من سبعة أساطين، أبدانها ملساء وتيجانها على هيئة زهرة بردى يافعة، وارتفاعها ١٥,٨٠متراً ومحيط دائرتها ٩,٨٠أمتار. إن هذا الدهليز الفخم الذى شُيّد فى آخر الأمر، كان يحدد المحطة الأخيرة التى تتوقف عندها المواكب الإحتفالية، قبل دخول المكان المقدس. ويحتفظ بالسمات المميزة لعمارة **أمنحوتپ الثالث**، كما سنشاهدها فى صادنقة وصولب، فى **النوبة**[١١٧]. كما كان مثل هذا الدهليز، قائما عند مدخل معبد مُوت، فى **الكرنك**.

يلى ذلك، الفناء الكبير بصُفّاته ذات الأساطين، وهو مرحلة التشييد الثانية. وتتميز هذه الصفات بجمالها الآسر الأخّاذ، سواء بانسجام نسب أبعادها ودقتها، أو رقة رشاقة أساطينها والسطوع الوردى للحجر الرملى الذى نُحتت فيه، بأيدى بارعة، تمتلك ناصية فنها إمتلاكًا مطلقًا. إن هذا الفناء الذى يبلغ ٥٢ متراً طولاً و٤٨ متراً

(*) على غرار ما يحدث حاليًا، فى الموالد. (المترجم)



مسقط أفقى لمعبد الأقصر

بيانات معبد الأقصر

1 المعبد المسقوف
2 فناء أمنحوتپ الثالث
3 حصن رومانى
4 الممر العظيم ذو الأساطين
5 صرح أمنحوتپ الثالث
6 فناء رعمسيس الثانى
7 مسجد أبو الحجاج
8 حصن رومانى
9 صرح
10 فناء نختنبو
11 سور نختنبو
12 المدخل
13 طريق تماثيل أبو الهول

عرضاً، يحفه إذن، من الداخل على جوانبه الشرقية والشمالية والغربية، صف مزدوج من ٦٤ أسطونًا تتكوّن تيجنها من حزم براعم زهرة اللوتس. وبعد ذلك، نصل إلى بهو الأساطين الذى يضم ٣٢ أسطونًا من الطراز نفسه، موزعة على أربعة صفوف، يضم كل صف ثمانية أساطين.

تكمن أصالة المعبد فى إزدواج قدس الأقداس. فيصل المرء إلى الأول، من خلال بابين محوريين وعبور ردهة ذات ثمانية أساطين مقناة(*)، وصولاً إلى مقصورة ذات أربعة أساطين، كانت تظلل مركب **آمون**. أما الثانى، وكان الدخول إليه من خلال بابين جانبيين وقاعة ذات ١٢أسطونًا مقنّى، ويضم تمثالى **آمون وآمونت** زوجة إله **الأقصر**(١١٨). وفى إحدى الحجرات القائمة شرق قدس الأقداس، نحتت نقوش الصور والنصوص التى تسجل الولادة الإلهية للملك **أمنحوتپ الثالث**.

تكشف نصوص تكريس المعبد عن ثراء المواد المستخدمة، فتضارع مثيلتها فى معبد **الكرنك**، ومنها خشب الأرز والنحاس، ولا سيما الذهب الخالص الذى كان يكسو العديد من عناصر البناء، وذلك فضلاً عن الأبواب. إن مدونات السواكف التى ما زالت فى مكانها، تقدم لنا نصوصاً مسهبة تمتدح الملك وانجازاته.

هل كان معبد **الأقصر** فى هذه الأزمنة الغابرة، من العجائب التى تسترعى إهتمام السياح؟ إن نصًا منحوتًا على باب من الأبواب، شمال الفناء الكبير، يحملنا على هذا الإعتقاد:

*لقد صنع صاحب الجلالة ذلك، بقدر ما يظل حبه لوالده **آمون - رع**، رب عروش القطرين، يتعاظم. ويقوم هذا الأخير بنشر مجده عبر البلدان الأجنبية والأقواس التسعة وكافة الأراضى. إن بعض **الفينيقيين** الذين كانوا يجهلون مصر، يأتون الآن، حاملين هداياهم على ظهورهم، لمشاهدة المعلم الصرحى الخاص بسيد القطرين: **نب ماعت رع**...*(١١٩).

لقد غالب جمال **الأقصر** الأيام وقهر الدُهور.

(*) أزيلت هذه الأساطين فى العصر الرومانى. د.سيد توفيق. الأقصر. دار النهضة العربية. ١٩٨٢. (المترجم)

طيبة: البر الغربي

إنه البرّ الذى سيظلّ، وفقًا لأعراف ثابتة، يحتضن من الآن، مقابر **وادى الملوك** و«*معابد ملايين السنين*» المكرسة لأداء الشعائر، من أجل الملك والآلهة، بعد أن اندمجوا فى طقوس واحدة. كما أصبحت فى عهد **أمنحوتپ الثالث**، منطقة اتخذها الملك مقرًا رسميًا له، بعد أن أمر فى العام ٣٠، بإنشاء قصر **ملقطة**(١٢٠) الذى كان يضم عددًا من الملحقات. ومنذ عهد قريب أيضًا، أماط موقع **كوم العبد** اللثام عن بناية من الطوب اللبن، تعود إلى عصر **أمنحوتپ الثالث** وعن عدد من المنازل المدمرة تدميرًا بالغًا. ويبعد الموقع ثلاثة كيلومترات ونصف، جنوب غرب **ملقطة**. وتولّت أعمال التنقيب فيه، **جمعية الكشوف الأثرية فى لندن** Egypt Exploration Fund(١٢١).

عندما يقوم القادم من **الكرنك**، بعبور نهر **النيل** لينزل إلى **البر الغربى** وسط الحقول المزروعة، يشاهد التمثالين العملاقين، المعروفين إصطلاحًا بتمثالى **ممنون** Memnon اللذين ما زالا منتصبين، عندالحد الفاصل بين الحقول والصحراء. ويظل هذان التمثالان الشامخان اللذان يصوران **أمنحوتپ الثالث**، يطلاّن على السهل المنبسط، بارتفاع يبلغ ١٩,٩٠مترًا. لقد نحت كل واحد منهما فى كتلة واحدة من **الكوارتزيت** الأحمر، ويمثلان الملك جالسًا على عرشه. كان التمثال العملاق الجنوبى – وهو «*ملك الملوك*»– تقام له الشعائر. ولكن الأكثر شهرة فى العصور القديمة، كان التمثال الشمالى. ففى أعقاب زلزال عام ٢٧، تهدّم جزئيًا، ومنذ هذه اللحظة لوحظت ظاهرة غريبة: فعندما يسخن حجر التمثال، بفعل ملامسة أشعة الشمس المشرقة، كانت تصدر عنه أصوات موسيقية إلى حدّ ما، وذهب البعض إلى تفسيرها باعتبارها أنين **ممنون الأثيوبى**(*)، الذى قتله **أخيلوس** فى حقول **طروادة**، فيرسل أناته مع كل فجر جديد، فى اتجاه والدته **إيوس** التى تجسد الفجر والتى تعيد أشعتها يوميًا الحياة

(*) كما عمموا هذا الاسم، فنطلقوا على البر الغربى ممنونيا Memnonia وعلى معبد رعمسيس الثانى – الرامسيون – القريب: ممنونيوم Memnonium.

Maurizion Damiano-Appia. L'Egypte. Dict. Enc., Gründ, 1999, p.180. (المترجم)

إلى ابنها(*). ولكن قام الإمبراطور الروماني سپتيموس سيڤيروس بترميم هذا الأثر عام ١٧٠م، ليضع حداً، في آن واحد، لموسيقى *«الفجر»* والأسطورة.

عندما شُيِّد هذان التمثلان، كانا قائمين أمام معبد **أمنحوتپ** *الثالث لملايين السنين*. وقد دُمِّر هذا المعبد، المبني من الحجر الرملي، تدميراً شاملاً، ربما من جرّاء زلزال عام ٢٧، حتى أصبح من الصعوبة بمكان تحديد تخطيطه. وكان علماء حملة بونابرت Bonaparte قد قدّروا طول المعبد بستمئة متراً، في زمن كان لا يزال الموقع يحتفظ ببعض الأطلال، ولكنها اختفت بعد ذلك.

وعلى مسافة بضعة وثلاثين متراً، كان يرقد على الأرض لوح من الحجر الرملي، يبلغ تسعة أمتار ارتفاعاً و٤٫٢٠سم عرضاً ودُوِّن عليه النص التكريسي للمعبد وتحديداً ما يلي:

تعالَ، أيا أمون – رع، يا رب عروش القطرين، الواقف على رأس الكرنك، (تعالَ) لمشاهدة المعبد الذي شيدته من أجلك في غرب طيبة، والذي يتحدّ جماله بأفق مانو (منطقة في الغرب). وفيه، سوف تَعْبر علياء السماء في سلام. وعندما تشرق (من جديد) في أفق السماء، سوف يضئ بذهب وجهك، لأنه يولّي طلعته شطر الشرق من أجل تجليك المتألق. أما عند غروبك، فيبقى أفقك حيًا، على الدوام. إنك تسطع يوميًا مع مطلع الفجر، ويظل كمالك باستمرار داخل هذا المعبد. لقد شيدته من الحجر الرملي الأبيض الجميل، بفضل عمل مبارك.

لقد وفّر له جلالتي التمثالين، عن طريق الأحجار التي جلبتُها من الجبل الأحمر (الإشارة هنا، إلى تمثالي ممنون العملاقين، وهما من حجر الكوارتزيت). *وعندما شوهدا في موقعهما، عمّ الفرح والإبتهاج نظرًا لارتفاع قامتهما*[١٢٢].

في عام ١٩٠٣، فُتحت رسميًا المقبرة التي تحمل الرقم ٤٣، وكانت مقبرة تحوتمس الرابع. إن تخطيطها تخطيطًا مألوفًا. ولكن مخربشة دوِّنت على جدار الردهة

(*) من الأساطير اليونانية. (المترجم)

الأولى، تشهد بقيام نفر من اللصوص بالتسلل إلى المقبرة قرب نهاية الأسرة الثامنة عشرة، حتى أصبح من الضرورى فى العام الثامن، من عهد حور إم حب إعادة تدثير المومياء الملكية، فى أعقاب حملة تفتيشية، قام بها الضباط المصريون، بتكليف من العاهل الملكى.

ثم إن أرضية القاعة الكبرى، كانت عند الكشف عن المقبرة، مغطاة بقطع القرابين والمتاع الجنائزى المحطم، كشاهد على حدوث عملية سلب ونهب ثانية، تمت فى زمن الأسرة العشرين.

وعندما كشف علماء الآثار، فى العصر الحديث، عن التابوت الكبير وهو من الحجر الرملى الأحمر، وطوله ثلاثة أمتار وارتفاعه مترين، كان غطاؤه لا يزال مرفوعاً فى حدود ضيقة، وقد اختفت المومياء، حتى عثر عليها **ڤيكتور لوريه Victor Loret**، فى مقبرة **أمنحوتپ الثانى**(*).

أما مقبرة **أمنحوتپ الثالث** وتحمل رقم ٢٢، فتوجد فى **الوادى الغربى**، ويعرف اصطلاحاً **بوادى القرود**، لوجود جبانة للقرود المقدسة. ومن ثم فقد أقيمت مقبرته خارج الجبانة الملكية المقدسة. ورغم أن العمل قد بدأ فيها، منذ وقت مبكر من عهد الملك، إلا أنها لم تكتمل. وإذ أراد **أمنحوتپ الثالث** أن يتميز، مقارنة بأسلافه، فقد خطط لتجهيز مقبرة أكبر، وأكثر تعقيدا من مثيلاتها، لتضمّ عدداً من القاعات ذات الأعمدة وعدداً من الحجرات. وتضم حجرة التابوت قسمين: الأول وهو أكثر إرتفاعاً وتحمل ستة أعمدة سقفه المزدان، بصور فلكية عظيمة الشأن. أما القسم الثانى، وهو أكثر إنخفاضاً، فلم يتبق منه سوى حطام التابوت الحجرى. ولا شك، أن ضخامة هذه المقبرة وثراءها، قد شدّت إليها أيضاً، منذ وقت مبكر، إهتمام اللصوص. ومن السمات الأصلية التى تميزت بها هذه المقبرة، وجود حجرتين ملحقتين بحجرة التابوت وكانت مخصصة بلا شك لتدفن فيها الزوجتان الملكيتان: **تيى** و **سات آمون**.

(*) وذلك عام ١٨٩٨. لمزيد من التفاصيل راجع: د.سيد توفيق: آثار الأقصر الفرعونية. دار النهضة العربية. ١٩٨٢. ص٢٢٤. (المترجم)

مقاصير مصر العليا

أما المعابد أو المقاصير التي شيدها أمنحوتپ الثالث في مصر، خارج طيبة فلم يبق منها سوى مقصورتين.

مقصورة صغيرة في الكاب(*). ويستند سقفها على أربعة أعمدة متعددة الأضلاع، وعلى واجهاتها الداخلية، تبرز صورة مصلصلة برأس حتحور(١٢٣).

أما مقصورة استراحة المركب المقدس في إلفنتين، فهي مبنى تحيط به الأعمدة، كانت خطوطها آية في الرقة، ونسب أبعادها على قدر كبير من الانسجام والتناغم. لقد شُيِّدت في العام ٣٠ من عهد الملك، وكانت لا تزال قائمة، عندما شاهدها علماء الحملة الفرنسية على مصر. ولكنها دُمِّرت عام ١٨٢٢. كانت عناصرها مرتبة ترتيبًا كلاسيكيًا: فقاعدة البناء مرتفعة وذات إفريز، والصعود إليها، عن طريق سلّم على الجانبين المتقابلين. وفي الوسط استراحة المركب، يحفها من الجانبين رواق من أربعة عشر عمودًا مربعًا. وكل مدخل من المدخلين يكتنفه أسطونان مقنيان. والأعمدة ترتبط فيما بينها بواسطة جدار منخفض بإفريز ذي كورنيش مصري(١٢٤). إن طراز هذا المبنى المحاط بالأعمدة قديم جدًا(١٢٥).

في النوبة وفي السودان وفيما وراء الجندل الثالث

وفي النوبة أيضًا، كان نشاط أمنحوتپ الثالث المعماري عظيمًا.

ونذكر على وجه التحديد المعبد الذي شيده العاهل الملكي في صولب، فيما بين الجندل الثاني والجندل الثالث. وهو من أجمل معابد السودان، ويذكّرنا أحيانًا بمعبد الأقصر. لقد شُيِّد من الحجر الرملي على البر الغربي لنهر النيل. إن اللوح الحجري

(*) شمال إدفو. (المترجم)

الذى تم الكشف عنه، فى معبد مر إن پتاح الجنائزى، يصفه على النحو الآتى، فى سياق حديث أمنحوتپ الثالث:

لقد شيدت معبد لملايين السنين، يرتبط ارتباطًا لصيقًا مع أمون - رع، رب عروش القطرين. (واسمه) «هذا الذى يتجلى متألقًا مع ماعت» (كان فى وسع ماعت أن تندمج فى تيى[١٢٦]*). إنه غنى بالذهب الخالص، ومكان راحة أبى، إبان كافة أعياده. (وإذ شُيِّد) من الحجر الرملى الأبيض الجميل، فقد أقيم ليدوم. وإذ غُشِّى بكامله بالذهب، تزدان أرضيته بالفضة. وأقيمت مسلتان شامختان، واحدة على كل جانب. وعندما يتجلى أبى وسطهما وضّاءً متألقًا، أكون فى صحبته. لقد وهبته آلاف الأبقار وقطعًا من أفضل أنواع اللحم*[١٢٧].

وبدءًا من ١٩٦٣، ومن خلال أعمال التنقيب المتتالية والمثمرة، فإن بعثة أثرية ممولة من قبل ميشيلا شيف - جيورجينى Michela Schiff-Giorgini وتضم تحديداً چان ليكلان Jean Leclant وكليمان روبيشون Clément Robichon، قامت بالتنقيب فى الموقع تنقيبًا علميًا منظمًا، مع ملاحظة أن الموقع كان قد شُغل قبل أمنحوتپ الثالث. وكما كان الحال بالنسبة لمعبد الأقصر، فقد أمكن التمييز بين عدد من المراحل، عند تشييد معبد صولب وإن كانت أربعًا. وعلى غرار معبد الأقصر فقد بدأ البناء هنا، على ما يبدو، من القسم المكنون، المخصص لقدس الأقداس - فى مؤخرة المعبد - ليمتد تدريجيًا فى اتجاه الشرق وصولاً إلى صرح المدخل الأول.

فإذا بدأنا السير من رصيف المرسى على نهر النيل، نلتقى بادئ ذى بدء، بالصرح الشامخ، المقابل للمرحلة الرابعة والأخيرة من الأعمال، ويتقدمه طريق كباش طويل وهى المرحلة الثالثة، ويفضى إلى القسم الأمامى من باب، بأربعة أساطين نخيلية، تشكل ردهة المدخل. وكان صرح ثانٍ، يقع أمام فناء تحفه أروقة ذات أساطين، وهو المرحلة الثانية من عملية التشييد. وبعد ذلك، يصل المرء إلى فناء ثانٍ، تحفه أروقة تضم ستة وثلاثين أسطونًا مقنّى، ويتقدم بهو أساطين آخر، يضم أربعة وعشرين أسطونًا، وهو المرحلة الأولى. وبعد ذلك، كان يفترض أن يصل المرء إلى مقصورة المركب المقدس وقدس الأقداس والحجرات الملحقة. ولكن لم يتبق شىء من كل هذا القسم الغربى.

وإذا نظرنا إلى الغرض من إقامة هذا «*المعبد لملايين السنين*» الذى كانت تقام فيه، فى آن واحد ومعاً، الشعائر من أجل كل من الملك و آمون - رع، يمكن أن نقارنه بالمعابد الجنائزية، بالبر الغربى لمدينة طيبة. ولكن هنا بالتحديد، تبرز بشكل واضح، أهمية الأعياد اليوبيلية، الماثلة من خلال نقوش مصورة على الصرح الثانى، وتصل إلى مستوى فريد من الروعة والجمال.

كانت تقلبات متنوعة تنتظر التمثالين الشامخين للملك الأسد فى صولب، وهما من الجرانيت وطول كل واحد ٢١٤سم. فقد نقلهما، بادئ ذى بدء، ملوك الأسرة السودانية إلى جبل بركل عند الجندل الرابع. ويوجدان الآن فى المتحف البريطانى، وقد لحق بهما تدميراً بالغًا. إن صور الأسد الملكى هذه، بصفته الأسد الحارس لمعبده، صور فريدة فى بابها، إلى حد كبير وتلتزم بأسلوب شديد التأثير. وسيقول توت عنخ آمون، فى إحدى مدوناته[١٢٨]، أنه قد عثر على أحد الأسدين فى المحجر وكان غير مكتمل فاكمله، وإن أقيم فى المعبد بمعرفة خليفته آى. وقد دمرّت مدونات أمنحوتپ الثالث التذكارية التكريسية بالمطرقة فى عهد أمنحوتپ الرابع. ومع ذلك، ما زال فى وسعنا قراءة النص الآتى، إبرازاً لجانب من جوانب الأيديولوچية الملكية التى ستشهد تطوراً ملحوظًا فى عصر الرعامسة:

الإله الكامل، أسد الأمراء، الأسد المتوحش، عندما يشاهد الأعداء يطئون طريقه[١٢٩].

يا له من تحذير بالغ للسودانيين الميالين إلى التمرد.

وإلى الشمال قليلاً، فى صادنقة، على بعد ٢٠٠كم جنوب وادى حلفا، شيدّ أمنحوتپ الثالث معبداً «*توأم*»، إذا صحّ القول، لمعبد صولب، وكرّسه للشعائر المقامة من أجل زوجته تيى. وللأسف فإنه مدمر تدميراً بالغًا.

إن وجود المعابد الجنائزية فى النوبة، وتصوير الأعياد اليوبيلية، تظل وسيلة لغرس السلطة المصرية، من خلال التأكيد على هيمنة فرعون الأبدية على أراضى الجنوب.

وبعيداً فى اتجاه الجنوب، وبعد تجاوز الجندل الثالث، وفى تابو قرب جزيرة أرجو، علماً بأن هذا الموقع كان قد شُغل، منذ نهاية الأسرة الثانية عشرة، على ما

يعتقد، جرت بعض الحفائر عام ١٩٦٥ بمعرفة جامعة چنيڤ، فظهرت إلى النور بقايا معبد من الطراز الكلاسيكي وكان من انجازات ملوك الأسرة الثامنة عشرة ورعمسيس الثاني[١٣٠]. وقدّم أمنحوتپ الثالث من جانبه إسهامه في هذا التشييد. كان المعبد مبنياً من الحجر الرملي ومساحته كبيرة إلى حد ما. كان طوله الإجمالي ٧٥,٦٠متراً وعرض الصرح الأول ٤٠متراً، ويفضي إلى فناء محاط بأروقة ذات أساطين. وبعد ذلك، كان صرح ثانٍ يؤدي إلى بهو أساطين تليه ردهة وقدس الأقداس الذي تحفه حجرات جانبية. وكان مكرساً للإله آمون.

إن وجود هذا المعبد تأكيد على حركة تمصير نشطة، سادت بلاد كوش في هذا العصر. ولكن هذا المعبد صار في الوقت الراهن أثراً بعد عين، فلم تغالب الأيام سوى بقايا بالغة التدمير(*).

هكذا ظل أمنحوتپ الثالث يؤكد، في أن واحد، على وجوده وسؤدده كملك، وعلى هيمنة الإله آمون وسلطانه، حتى الأراضي القصية من الإمبراطورية وأبعدها.

ولكن على هامش هذا الإنتشار المتسيّد لإله الكرنك، بدأ في الظهور تيار روحاني وديني له شأنه، تحركه على ما يظن النظر بارتياب إلى السلطان الدنيوي لكهنة طيبة، فأخذ يولي اهتماماً جديداً إلى آلهة هليوبوليس التليدة. هكذا لاحت في الأفق حركة مزدوجة: نزعة تتطلع إلى إيجاد شكل من أشكال التوحيد لمجمع الآلهة المصرية، وإلى التلفيقية التي تجمع، ربما لأسباب سياسية، بين مختلف الأشكال الشمسية في كيان إلهي واحد، وفي الوقت نفسه، أخذت منزلة رع وأتون ورفعة شأنهما، تتعاظمان.

(*) تقع محاجر الحجر الرملي في جنوب الصعيد، وتتفاوت جودة أنواعه. كانت منطقة جبل السلسلة توفر حجراً رائعاً، استخدم عند تشييد أهم عناصر معبد الكرنك كبهو الأساطين. وأردأ أنواع هذا الحجر توجد في النوبة، جنوب الجندل الأول واستخدم في بناء معبد جبل البركل وصولب، وهذا ما يفسّر حالة الدمار التي لحقت بهذين المعبدين.

(المترجم)C. Lalouette, l'Art figuratif dans l'Egypte pharaonique, Flammarion, 1992, p.19.

٦- السياسة والدين:
آلهة هليوپوليس تستعيد رفعة شأنها

شهدت مصر منذ عهد تحوتمس الثالث، تقدماً بطيئًا لعقائد هليوپوليس. وربما كان هذا الملك، قد لاحظ منذ سنين شبابه المضطربة، مخاطر التحرشات السياسية التى كان يقودها كهنة أمون الطموحون. وبدءًا من عهده، ومن عهد ابنه أمنحوتپ الثانى تحديداً، ظهرت «لغة» دينية جديدة، سواء فى القائمة الرسمية لألقاب الملك أو فى الترانيم الدينية، لتشهد على صعود نجم الإله آتون. وما اصطلح على تسميته بثورة أمنحوتپ الرابع، ابن أمنحوتپ الثالث وخليفته، ليس فى واقع الأمر سوى النهاية الطبيعية لتطور، بدأ قبل قرن من الزمن، على تربعه على عرش البلاد.

لم يكن آتون إلهًا جديداً. وتدل الكلمة على قرص الشمس، موئل الإله رع وسكناه، الذى كان يطلق عليه تقليدياً «*هذا الذى يقيم فى قرصه*» (آتون). كان رع وآتون يشكلان كيانًا إلهيًا واحداً، منذ أقدم العصور. إن الصورة التى يُراد لها، أن تكون صورة نموذجية، تنفرد بها تل العمارنة، نتيجة تجاهل مفردات الواقع التليد، فتُمثل الشمس بسواعد تنتهى بأيادٍ، تمتد ناحية الأرض، إنما نلتقى بها قبل ذلك، بأكثر من ألف سنة، وقبل أمنحوتپ الرابع، وفى متون الأهرام، حيث ورد نص يقول عن الشمس(*): «*إنكَ(*) تحيط بالأرض وكل شىء داخل ساعديك*»[١٣١]. فهذه الصورة أسطورة استقرت منذ أقدم العصور فى الوعى المصرى.

كما أن التقليد المتواتر يرى أن الملك «*سيد كل ما يحيط به القرص آتون*». بل ومنذ عهد تحوتمس الأول، كان مصطلح آتون فى سياق هذه الصيغة ذاتها، لا يشير إلى بدن الجرم السماوى فقط، بل إلى الإله ذاته. وبالفعل فقد وردت الكلمة مقترنه بعلامة المخصص الدال على الإله(**)، والشمس فوق رأسه[١٣٢].

(*) مع ملاحظة أن لفظ شمس مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) راجع: برناديت مونى: المعجم الوجيز فى اللغة المصرية بالخط الهيروغليفى. الترجمة عن الفرنسية: ماهر جويجاتى. دار الفكر. ١٩٩٩. ص٦ وص٢٢. (المترجم)

أما وحدانية الإله، فقد ذُكرت فى كثير من الأحيان فى نصوص الأسرة الثامنة عشرة[١٣٣]، كما سبق أن أوضحنا ذلك بجلاء، فى كل مرة التقينا بهذا التعبير. فكل مؤمن ينظر إلى إلهه، بصفته الأوحد المتفرد وخالق العالم. الأمر الذى لا يستبعد وجود معتقدات سحرية أخرى، ولا سيما الأوزيرية، التى لم يقدر أمنحوتپ الرابع على المساس بها. ولا ينبغى الخلط بين تنوع العبادات، كما يؤمن البعض فى أيامنا هذه، بالإله الواحد أو بيهوه(*) أو ببوذا، وبين الإيمان الشخصى. كما لا ينبغى إدراج مفكرى العصور القديمة فى مقولات أو تصنيفات دقيقة وحديثة.

ومن عهد إلى عهد، ومن عصر إلى عصر، يمكن ملاحظة، إعادة إنبعاث فكر هليوپوليس القديم وعقيدته، بكل وضوح، مع تكيفهما بالواقع الجديد، وما وراءه من بواعث سياسية، فى أغلب الأحوال.

كما أدخل أمنحوتپ الثانى تعديلاً موحيًا على قائمة ألقابه الرسمية. إن لقبه الخامس، لقب ابن رع، ينعته فى بادئ الأمر، بصفته *«الملك حاكم طيبة»*، ثم تغيرّ إلى *«أمنحوتپ، الإله الكامل حاكم هليوپوليس»*(**).

كما شَيّد معبدًا شمسيًا بجوار تمثال أبو الهول، فى الجيزة. وفى الجزء العلوى المقوّس من لوح حجرى صغير – عثر عليه سليم حسن الذى عثر أيضًا على اللوح الحجرى الكبير[١٣٤]، وكشف عنهما بجوار أبو الهول الذى كان قد أصبح إلهًا شمسيًا – نحتت صورة حورس مدينة إدفو، بجناحيه المنبسطتين. وللجرم السماوى أيادى آدمية ممدودة فى اتجاه الأرض كما تحيط بالخرطوش. وحسب منطوق هذا اللوح الحجرى، فإن رع هو الذى اسند المُلك للعاهل الملكى الشاب: فأصبح اسم رع يتخلل النصوص وزحف عليها زحفًا.

(*) إله بنى إسرائيل، حسب الكتاب المقدس اليهودى. (المترجم)

(**) «نثر حقا إيون» بالمصرية القديمة. (المترجم)

إن ترنيمة عظيمة للإله آمون – رع، مدونة على بردية يحتفظ بها متحف القاهرة ويعود تاريخها إلى عهد أمنحوتپ الثاني، كان لها منذ ذلك الزمن، نبرات ذات نزعة طبيعية، تميل إلى البساطة وعدم التكلف، حتى يمكن القول أنها نزعة «عمارنية»(*):

التعبّد (للإله) آمون – رع، الثور المقيم في هليوپوليس، رئيس الآلهة جمعاء، الإله الكامل والمحبوب، الذي يعطي الحياة لكل لَهِب ولكل ماشية.

تحية لك، أيا آمون – رع، يا رب عروش القطرين، المتسيّد على الكرنك، يا ثور أمه، المتسيّد على الحقول، (الإله) صاحب الخطوات الواسعة، المتسيّد على مصر العليا، رب المچاو وأمير پونت، وإله السماء العظيم، أحد الأقدمين على الأرض، سيد كل الأشياء. إنه الواحد المتفرّد، فلا يوجد أحد خلافه، إنه ثور التاسوع الكامل، ورئيس الآلهة جمعاء[١٣٥]، مالك الحقيقة والعدالة، وأبو الآلهة، الذي يشكل البشر وخالق الأغنام، وسيد كل ما هو موجود، خالق نباتات الحياة والمراعي، الذي يُحي القطعان. إنه القدرة الإلهية التي خلقها پتاح، الفتى الجميل المحبوب، الذي لا تكف الآلهة عن التهليل له، فاطر العالم السفلي والعالم العلوي، الذي ينير القطرين، بينما يعبر السماء في سلام. إنه رع، ملك مصر العليا ومصر السفلي (الاسم داخل خرطوش)، الصادق القول، رئيس الأرضين، صاحب البسالة القديرة، سيّد الهيبة إنه كائن مرموق، صانع الأرض بأكملها، وإرشاداته تتفوق على (إرشادات) الآلهة الأخرى. والآلهة في فرح وابتهاج بسبب جماله، ولا تكف عن الإغتباط من أجله في پر-ور، بينما يظهر في پر- نيسر[١٣٦]. إنها مولعة بشذا عطره، عند عودته من پونت، إنه أمير الأريج، والهابط من بلاد المچاو. (إنه الإله) ذو الوجه الجميل، القادم من البلد الإلهي. إنهم يندفعون عند قدميه، بعد أن اعترفوا بأنه صاحب الجلالة، سيدهم:

«أيا رب الرهبة، الذي يثير فزعًا بالغًا في النفوس، يا صاحب المجد العظيم، (أيها الإله) ذو الإشراقات القوية، فلتكن الغبطة من أجلك، أنت الذي خلقت الكيانات الإلهية، ورفعت السماء بعد أن أزحت الأرض. أيها الفطن اليقظ والناجع المزدهر، أيا

(*) نسبة إلى تل العمارنة، عاصمة أمنحوتپ الرابع – أخناتون. (المترجم)

مين – آمون، يا سيّد الزمن الأبدى، فاطر الزمن اللانهائى، ومالك المدائح والتهليلات، المتسيّد على الكرنك، صاحب القرون المتينة والوجوه الجميلة. يا مالك التاج العظيم، بريشتيه العاليتين...»

تحية لك، أيا رع، يا مالك الحقيقة والعدالة، وصاحب المقصورة المستورة، يا سيد الآلهة.

أيا خپرى، القائم فى قاربه، الذى يأتى بالآلهة إلى الوجود، عند النطق بالكلمات.

أيا أتوم، يا خالق البشر، الذى يختار أشكالهم ويجعلهم يحيوا، ويفرق بشرة أحدهم عن بشرة غيره.

(الإله) الذى يصغى إلى صلاة من يعرف المحن والضرّاء، (الإله) صاحب القلب الرؤوف على من يتوسل إليه، الذى يخلّص المذعور من الوقح المتطاول، الذى يفصل المكروب عن الفواجع. (إنه) مالك المعرفة، والطعام يولد من فمه. ويجئ النيل حسب رغبته، إنه سيد الرقة والوداعة، والذى يلهم النفوس حبًا عظيمًا. إنه يمنح البشر أجمعين الحرية فى روحاتهم وغدواتهم. وإذ ينشط فى النون(*)، فقد أتى إلى الوجود بنعم النور. والآلهة تفرح بجماله وتحيا عند رؤيته. أيا رع، المبجّل فى الكرنك، (الإله صاحب) الإشراقات المتألقة فى قصر بن بن[١٣٧]، الهليوپوليتانى(**)، رب عيد ميلاد الهلال، فمن أجله يُحتفل بالأيام الستة، لعيد الربع الأخير من القمر، أيها السيّد العلىّ على الآلهة جمعاء، الذى يمكن النظر إليه مليّا فى قلب الأفق، يا رئيس البشر. إن اسمه خفى، بما يفوق ولاداته أيضًا، فاسمه آمون (أى: «الخفىّ»).

(*) السائل الأولىّ الذى وُجد قبل الخلق.

من الجدير بالذكر أن نقارن هذه الفكرة بالآية الأولى من الإصحاح الأول من سفر التكوين من الكتاب المقدس:

«كانت الأرض خاوية خالية وعلى وجه الغمر ظلام وروح الله يرفرف على وجه المياه، وقال الله «فليكن نور»، فكان نور». (المترجم)

(**) نسبة إلى هليوپوليس. (المترجم)

تحية لك، أيها المتسيّد في سلام، يا رب الفرح.. فعندما ينتشر حُبك (بضم الحاء) عبر الأرضين، وتنير أشعتك العيون، إنها السعادة للبشر. وعندما تسطع، فالأغنام (ذاتها) تنتشي. وعندما تتلألأ، يصبح حُبك (بضم الحاء) في سماء الجنوب وعذوبتك في سماء الشمال. إن جمالك يفتن القلوب. وأن تُحَبّ (بضم التاء) يجعل السواعد بلا قوة. وشكلك الكامل يصيب الأيدى بالشلل وتنسى الأذهان عندما تراك. **أيها الشكل الأوحد المتفرد، الذى خلق كل ما يوجد، أيها الواحد المتفرد من بين المتفردين**، الذى فطر كل ما هو موجود. لقد انبثق البشر من عينيه[١٣٨] ومن كلمته جاءت الآلهة إلى الوجود. (أنت) يا خالق المراعى التى تحيا عليها الدواب، (يا خالق) نبات الحياة المخصص للبشر، (أنت) الذى يحافظ على حياة الأسماك فى الجداول، والطيور فى السماء، ويعطى النسمة لمن لا يزال فى البيضة، فيطعم الطيور والكائنات التى تطير والثعابين والحشرات ذاتها، ويوفر ما تحتاجه الفئران فى جحورها ويعطى الحياة للبراغيث...

تحية لك، أنت الذى فطرت كل ذلك، **أنت الواحد المتفرد من بين المتفردين**، الساهر على البشر أجمعين، فيقضى وقته فى السعى وراء كل ما يفيد قطيعه، أيا آمون، يا مثبّت الأشياء كلها، أيا آتوم، أيا حور - آختى[١٣٩]. ويُجزل لك (البشر) المديح قائلين: «إننا نهلل لك فرحًا، لأنك تتعب بسببنا، إننا نسجد أمامك، لأنك خلقتنا».

التحية والشكر والحمد لك، من قبل قطيعك بأكمله. فالأفراح تعمّ من أجلك، كل بلد من البلدان الأجنبية، حتى عَنان السماء وبطول الأرض وعرضها، وحتى أغوار **الشديدة الإخضرار**. وتأتى الآلهة منحنية أمام **جلالتك**، مع الإشارة بمجد خالقها، مبتهجة عند اقترابها بمن أنجبها. وتقول لك: «مرحبًا، مرحبًا فى سلام، يا أبا آباء الآلهة جمعاء، الذى رفع السماء وأبعد الأرض، وفطر كل كائن وشكّل كل موجود. أيها العاهل، يا رئيس الآلهة، إننا نعبد مجدك، لأنك خلقتنا، لقد عملت لتأتى بنا إلى الدنيا. إننا نجزل لك المديح والثناء، لأنك متعب بسببنا».

التحية لك، يا فاطر كل الأشياء، يا سيد الحقيقة والعدالة، يا أبا الآلهة، يا جابل البشر، يا خالق القطعان جمعاء، يا سيد البذور. كما تُحيى حيوانات الصحراء. أيا

أمون، أيها الثور ذو الوجه الجميل، المحبوب فى الكرنك، (الإله) صاحب الإشراقات المتألقة فى قصر بن بن، الذى تتجدد تيجانه فى هليوبوليس، أيها القاضى الذى يفصل بين العدوين (حورس و ست) فى قاعة (المحكمة) الكبرى. (أنت) يا من يتسيّد على التاسوع، أيها الواحد المتفرد من بين المتفردين، الذى لا مثيل له والمتسيّد فى الكرنك... إله الأفقين، يا حورس الشرق. أنت الذى خلقت الصحراء والفضة والذهب واللازورد الخالص، فبمشيئته...[١٤٠].

هنا يظهر فكر متجدد وإيمان عميق بالنجم الشمسى، كشخصية إلهية متفردة، مع تعدد أسمائها وتنوعها. هكذا جاء إعلان وحدانية الله، فى إطار من التسامح وسعة الصدر. وتتعالى مظاهر الإشادة بعالمية مُلكه التى تفيض على خلائقه، وأكثرها بساطة وتواضعاً. إن ورع المؤمن ينقله إلى حالة من الوجد والنشوة الروحية. تلك هى مواضيع وصور سوف يستعيدها، بعد قرابة قرن من الزمن، أمنحوتپ الرابع، ابن حفيد أمنحوتپ الثانى. فلم يكن فكر تل العمارنة ثورة. وهو ما تدلل عليه وثائق أخرى.

إن تحوتمس الرابع، هو الفرعون المصطفى الذى اختاره حور إم أخت، الذى تراءى للأمير فى المنام، عندما أخذه النوم بجوار إله **الجيزة**[١٤١]. كان إختياره إختياراً شمسياً إذن، ولكنه **هليوپوليتانى**. وفى كثير من الأحوال ينعت العاهل الملكى الجديد بصفة «*صورة رع، ابن أمون*»[١٤٢].

وعلى جعران، نقرأ مدونة موحية إلى حدّ كبير، فتشهد على صعود نجم **أتون**، ليحل تدريجياً محل **أمون – رع**. كما كان فى وسعه، أن يشارك فى المعارك الحربية:

*إن كبراء **نهارينا**، وقد حملوا جزيتهم على ظهورهم، ينظرون مليًا إلى من **خيپرو رع**، عندما يتقدم خارج قصره. وإذا نهض لخوض معركة، فإن **أتون** أمامه، عندئذ يمكنه أن يقوض الجبال ويخفسها، ويدوس بأقدامه البلدان الأجنبية... فيصبح قاطنوها مثل شعب مصر، تحت قيادة **أتون** للزمن اللانهائى*[١٤٣].

تلك أول شهادة، تؤكد على الرغبة الأكيدة فى تأسيس إمبراطورية موحدة، خاضعة للإله الشمسى.

وكثيراً ما نلتقى باسم **آتون** فى عهد **أمنحوتپ الثالث**. إنه جزء من العبارات المركبة من أسماء آلهة، سواء كانت تشير إلى مركب العاهل الملكي أو واحدة من فرقه العسكرية[١٤٤]. بل يمكن الخلط أحياناً بين كهنة **آمون** ومؤمنى **آتون**. وهكذا، فإن شخصاً يدعى **آمون إم إيپت**، وهو قائمقام فى **كوش**، قد خلَّف وراءه مخربشة فى **النوبة**، تطلق عليه صفة «*خادم آمون الثانى*» (حم – نثر). وهو لقب يؤكد أهمية الشخص فى التراتب الهرمى الكهنوتى، كما ينعت أيضاً بلقب «*خادم آتون*» (باك)[١٤٥].

لم يصل تأثير عبادة **آتون**، فى حقيقة الأمر، إلى الديانة الرسمية فقط، ولكن أيضاً إلى ديانة سواد الناس. فنشاهد، منذ ذلك العهد، فى مقبرة **رع موزا**، التعريف الآتى للإله **حور آختى**، والذى ستستعيده نصوص **تل العمارنة**. إنه «*النور الذى هو آتون*»[١٤٦]. والأمثلة من هذا القبيل كثيرة.

ففكر **أمنحوتپ الرابع** ليس ثورة، بل جاء نتيجة طبيعية لما يشبه عملية اختمار روحية، ربما سببتها طموحات كهنة **آمون**، أو جاءت نتيجة ظروف سياسية جديدة: فكان الوضع يحتاج إلى **إله واحد متفرد**، يربط بلاد الإمبراطورية ربطاً، وكانت الشمس بأسمائها المختلفة، **الإله**(*) المشترك لمجموع الأراضى الخاضعة للهيمنة المصرية. ولنزداد فهماً بهذه الحقيقة، ولمزيد من التأكيد على المشاعر الشعبية حول هذا الموضوع، يكفى أن نقرأ الترنيمة المنحوتة على لوح حجرى، يحتفظ به فى الوقت الراهن، **المتحف البريطانى**، والذى جادت به، مقبرة **سوتى** و **حور** اللذين عاشا فى عهد **أمنحوتپ الثالث** وشغل كل منهما منصب «*المشرف العام على أشغال آمون*» وكانا من الأصدقاء المقربين للعاهل الملكى:

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس، مذكر فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

تحية لك، يا جمال رع على مدار الأيام، الذى يسطع مع طلوع الفجر، دون توقف، أيا خپرى القائم بأعمال مضنية. إن أشعتك فى الوجوه، ولكن لا يستطيع المرء رؤيتها. إن الذهب الخالص (ذاته)، لا يمكن مقارنته بضوئك الخافت. وبصفتك بنّاءً، فقد صُغت من الذهب جسدك. أنت الذى شكلت كل شىء، لم يشكلك أحد على الإطلاق، أيها الواحد المتفرد، الذى لا مثيل له، الذى يعبر الزمن الأبدى، مهيمنًا على ملايين الدروب الخاضعة لك. إن نورك يشبه نور السماء العليا، ولكن إشعاعاتك أقوى من ألوانها. عندما تعبر السماء، يستطيع كل واحد أن يراك، ولكنك تسير أيضًا محتجبًا عن أنظارهم. وتتجلّى مع مطلع فجر كل يوم من الأيام، وتزدهر الملاحة النهرية، بقيادة جلالتك. وعلى امتداد يوم واحد قصير، تجتاز طريقًا طوله ملايين وعشرات ملايين الفراسخ. ولكن كل يوم من أيامك يدوم برهة(*). وبعد إتمام (مسيرتك)، تغرب لتتمم على النحو ذاته، ساعات الليل. وتواصل هذه المسيرة، باذلاً مجهوداتك، بلا انقطاع. إن جميع العيون تبصر بفضلك، ولكنها لا تفكر فى ذلك، عندما يغرب جلالتك. إنك تدفع (العالم) إلى النهوض مع توهج الفجر. إن أشعتك تفتح العيون التى تفيق عندئذ من نومها. ولكن عندما تغرب فى أفق مانو(**)، فإنهم ينامون وكأنهم موتى.

التحية لك، يا آتون النهار الذى خلق البشر وأحياهم، أيها الصقر العظيم ذو الريش الأرقش، الذى جاء إلى الوجود مرتفعًا بذات نفسه، فظهر وحيدًا، دون أن يولد. أيا حورس البكر، القائم فى قلب نوت السماوية، فإليه يُجزل الجميع صيحات الفرح والإبتهاج، سواء عند شروقه أو عند غروبه. إنه صانع منتجات الأرض، إنه خنوم، إنه آمون البشر، فاتح الأرضين، من الأكبر إلى الأصغر، والأم واهبة الخير للآلهة وللبشر،

(*) وحول المعنى نفسه، تدور إحدى آيات العهد الجديد من الكتاب المقدس:

«إن يومًا واحدًا عند الرب بمقدار ألف سنة، وألف سنة بمقدار يوم واحد».

رسالة بطرس الثانية: ٣:٨. (المترجم)

(**) الجبل الغربى.

Le Livre des Morts. Traduction de Paul Barguet, Editions du Cerf, 1967, p.50, n.36. (المترجم)

والحرفي الصبور، الذى يعتريه التعب، بينما يشكلهم بأعداد لا حدود لها. إنه الراعي المقدام، حامي قطيعه، والملاذ الآمن الذى يسمح لها أن تحيا. ويهرع مسرعًا متعجلاً، (إنه) خپرى، ذو الولادة المرموقة، مرتقيًا بجماله فى جسد نوت السماوية، ليسطع على الأرضين بفضل قرصه (آتون). إنه الأقدم الأصلى فى القطرين، الذى صنع نفسه بنفسه، ورأى أنه يصنع ذاته، إنه الرب الواحد المتفرد. ويصل يوميًا إلى أطراف الأراضى، بينما يشاهده من يسيرون على سطحها، مضيئًا فى السماء صيرورات اليوم. إنه ينسّق فصول السنة بشهورها، ويجلب الجو الحار، كيفما يريد، والهواء المنعش وطراوته، كيفما يريد. ويتيح للأبدان أن تستريح، عندما يعانقها. والأرض من أقصاها إلى أدناها، يدب فيها النشاط فرحةً مسرورةً، بشروقه اليومى وتتعبّد له[١٤٧].

إنه نشيد حب وقصيدة ورع، وتكشف الصور والكلمات، عن مشاعر المؤمن الحارة وعن العشق والهوى. لقد تعرّف سوتى و حور فى البلاط الملكى، على الأمير أمنحوتپ الشاب الذى قضى نعومة أظفاره فى أجواء الترف والبذخ اللذين سادا هذا البلاط، حيث يختلط الفينقيون والسوريون بالمصريين. إنه عالم مؤلف من أجناس مختلفة، يوحدهم دين واحد، قائم على العقيدة الشمسية. كما كان عالمًا، دفعه الإهمال والتقصير فى معالجة الأوضاع الخارجية وسهولة الحياة المادية – دفعه إلى جعل عالم الروح والفكر أكثر حيوية وأكثر تأججًا. إنه عالَم أخذ يصوغ فكر إمبراطور المستقبل.

ولكن أصبحت الأوضاع الخارجية فى واقع الأمر، على قدر كبير من الخطورة، قرب نهاية عهد أمنحوتپ الثالث، حول عام ١٣٨٠ق.م. فقد حدث أن اختل فجأة التوازن السياسى فى آسيا. وكان أمنحوتپ الثالث، بعد أن تقدمت به السن وهو يعيش وسط بلاطه وثرواته الطائلة، يميل إلى المماطلة والتريث فى حسم الأمور، بعد أن فترت عزيمته بلا شك، وربما أيضا بالإصرار، بعيدًا عن الحنكة والفطنة، على الحفاظ على السلام بأى ثمن، ليعمل دون أن يدرى، على تعاظم المخاطر الجسيمة، المهددة لإمبراطورية آبائه.

٧- التهديدات تحاصر الإمبراطورية

في عام ١٣٨٠ق.م، كان أمنحوتب الثالث، لا يزال دون منازع، إمبراطور الشرق، وكانت طيبة أغنى مدن العالم. ولكن ستتبدل أوضاع دول آسيا تبدلاً ملحوظًا، لتقود في البداية إلى إضعاف حلفاء مصر، والميتاني تحديداً. وعلى العكس من ذلك، فقد استطاعت خاتي أن تتجاوز الأزمة التي كادت تقضي على النظام الملكي، عندما تغلّب عليها الأمير سوبيلوليوما، الذي سبق أن اختاره والده تودخاليش الثالث، شريكًا له في الحكم. فعندما تربع سوبيلوليوما على العرش أعاد إلى خاتي هيمنتها على آسيا الصغرى. وأصبحت المؤسسة الملكية، بلا منازع سيدة البلاد، وبات الجيش الحيثي(*) قوة عظيمة، بعد أن تم تدعيمه بقوات توابعه، في الشرق وفي الشمال في جبال بُنت(**) Pont، حيث كانت تدور معارك شرسة ضد شعوب جاسجا وفي الغرب في أرزاوا. فكان الإنفتاح ناحية الجنوب، أمرًا لا غنى عنه. الأمر الذي يوفر لبلاد خاتي الهيمنة على شمال سوريا، فضلاً عن الوصول إلى مياه البحر المتوسط. ولكن الصدام المباشر مع مصالح الميتاني، كان من الصعب تجنبه.

وتحول سوبيلوليوما إلى الهجوم، وفتح بسهولة شمال سوريا بأكملها، دون أن يتمكّن توشراتا، ملك الميتاني، من المقاومة مقاومة فعّالة. وحاول هذا الأخير عبثًا، أن يشنّ هجومًا مضاداً، في اتجاه ساحل البحر المتوسط. كان يرمي بلا شك إلى إعادة الإتصال بممتلكات مصر حليفته وبأمراء الميتاني في سوريا. ومن الآن، كانت سلطة الميتاني، على هذه المناطق قد تقوّضت. ودون أن يسعى سوبيلوليوما إلى تأمين سيطرته المباشرة عليها، عقد سلسلة من الإتفاقات مع الأمراء، يلتزمون بموجبها

(*) الحيثيون هم سكان بلاد خاتي، لأن حرف الحاء في أول الكلمة يقرأ خاء. وأطلق عليهم المصريون اسم خيتا.

M. Damiano - Appia. L'Egypte, dictionnaire encyclopédique, Gründ 1999, p.124.

(المترجم)

(**) مملكة في آسيا الصغرى. ولا ينبغي الخلط بينها وبلاد بونت Pount، الواقعة على البحر الأحمر، جنوب مصر. (المترجم)

بالإعتراف بالسلطة الحيثية مقابل وعد بتقديم المساعدة العسكرية(١٤٨). ولم تتدخل مصر لمساعدة الأمراء السوريين الخاضعين لوصايتها، عندما استنجدوا بها. واحترم الملك الحيثي حدودها، ويبدو من الواضح أنه لم يجد في مقدوره، أن يخوض الحرب ضدها. عندئذ دارت بعض المباحثات، لتنتهي إلى عقد معاهدة، كانت الأولى التي يتم إبراهمها بين مصر والخاتي، لتؤكد على الحدود التي سبق أن رُسمت في عهدي أمنحوتپ الثاني وتحوتمس الرابع، للفصل بين الميتاني ومصر. كانت أوجاريت ترسم الحد الشمالي لممتلكات مصر. هكذا بقيت قادش ومملكة أمورو تابعتين لمصر.

إن ضعف أمنحوتپ الثالث هذا، وسياسة الحياد الجديدة هذه، والتوقف عن أي نشاط، أبعدت عن مصر حلفاؤها القدامى. ولما كان تأمين سلامة تجّاره، هو الشغل الشاغل لملك بابل، فقد سعى بدوره إلى التحالف مع سوبيلوليوما. ولم تتوقف التقارير التي تدق نقوس الخطر، لتصل تباعًا إلى بلاط طيبة. وكان ريب – عادي، ملك بيبلوس، من المخلصين لمصر، يحيط العاهل الملكي علمًا، بالدسائس التي كانت تحاك ضده، في هذا العالم الشرقي والسوري الذي شاعت فيه الفوضى. وكانت تقاريره تتميز بأكبر قدر من الدقة والوضوح. ومنها دسائس أهل بابل والأموريين ودسائس أمير قادش. هكذا يمكن أن نقرأ الآتي على إحدى لوحات العمارنة الصغيرة:

من ريب – عادي إلى سيده، ملك البلاد، الملك العظيم، ملك المعارك. ليت بعلت (إلهة) مدينة بيبلوس، تمنح القوة لسيدي الملك. وعند قدمَيْ سيدي، وشمسي، أسجد سبع مرات وسبع مرات أيضًا. إني إحيط سيدي الملك علمًا، بأن آزيرو (زعيم الأمورو) يعاديني، وأنه ذهب باثني عشر من رجالي، وطالبني بفدية تبلغ خمسين وزنًا من الفضة. ورجال كنت قد أوفدتهم إلى سيميرا، نُقلوا على متن سفن أبناء صور وبيروت وصيدا. الجميع في أمورو اتحدوا ضدي وأنا مضطهد. انظر أيضًا، إن يابا – عادي، المتحالف مع آزيرو هو عدوي... اهتم إذن بشئون خادمك(١٤٩).

كما عُثر على عدد كبير من الخطابات الأخرى المماثلة. ولكن أمنحوتپ الثالث سدَّ أذنيه عن الاستجابة لهذه النداءات الملحة، الصادرة عن الأمراء المخلصين للإمبراطورية.

وحيكت العديد من الدسائس المعقدة، تستهدف **فينقيا** و**سوريا**. إن أمراء هاتين المنطقتين، أو بعضهم على الأقل، سعوا إلى الإستفادة من هذا الوضع لتوسيع أقاليمهم، رغم التظاهر بالخضوع لمصر، فيلعبون حسب الظروف لعبة مزدوجة بل وثلاثية أحياناً. والمنافس الرئيسي، في هذه الشئون، للمخلص **ريب - عادي** كان **عبدي - عشيرتا**، زعيم **الأمورو** ووالد **أزيرو** الذي كان شخصاً مريباً، فرغم انحيازه لسلطان **الحيثيين** كتب لفرعون قائلاً:

*إلى الملك، إلى الشمس، إلى سيدى، هكذا يتحدث **عبدى - عشيرتا**، خادمك، وتراب قدميك. عند قدمَىْ سيدى الملك، أسجد سبع مرات، وسبع مرات أيضًا. أنظر، فأنا خادم للملك، وكلب فى منزله، فأحرس مجموع بلاد **الأمورو**، من أجل سيدى الملك. كما تحدثت إلى المشرف العام **فاناطا**، قائلاً: «جنّد الفرق العسكرية التى ستحرر بلاد الملك وتحميها..» ...الملك، الشمس، كما حصدت محصول **سيميرا*** (ميناء فى **فينقيا**) *ومحاصيل كافة البلدان التى احرسها من أجل الملك، شمسى وسيدى*(١٥٠).

الشمس و شمسى، هكذا يمتزج الملك بالجرم السماوى الذى يظل، طبقا لفكر **تحوتمس الثالث**، الرباط السياسى والروحى الذى بجمع بلدان إمبراطورية **آسيا**، فى نظام إتحادى سليم. كما يعتبر هذا الواقع السياسى المصدر الذى ترتبت عليه الحظوة الجديدة التى كانت من نصيب آلهة **هليوبوليس** وتصور إله عالمى، يجمع تحت سلطانه العبادات المحلية التى ظلت تحظى بكل التبجيل والتوقير. ومن الآن أخذت **مصر** كقوة دولية عظمى تتطور روحياً بما يتمشى مع سياسة محددة.

وفى مواجهة كل هذه الدسائس، ظل **أمنحوتپ الثالث** بقصره فى **ملقطة**، وسط البذخ والترف والثروات التى تحيط به، يعيش حياة تبدو خاملة بلا نشاط، فى إطار مظاهر الأبهة والفخامة لحياة البلاط الملكى. وترتب على قوة **الحيثيين** الجديدة وعلى ضعف الفرعون، إنتشار الفوضى فى **سوريا**، على نطاق واسع. كان **أمنحوتپ الثالث**، يقوض من جراء خموله، الإمبراطورية العظيمة التى أسسها أباؤه الفاتحون.

ويبدو أنه أراد أن يحتفظ بقدر من الحياد، ربما على أمل القيام بدور الحكم بين **خاتى** و**الميتانى**. وقبل وفاته بفترة قصيرة، أرسل العاهل الملكى المسنّ موفداً إلى ابن

خاله توشراتا ملك الميتاني، ليطلب يد ابنته تادوخيبا، ليتخذها زوجة له. كان هذا القران الشخصي الجديد، يرمي بلا شك إلى إيجاد توازن مع الحلف السياسي الذي تمّ إبرامه مع خاتي، وقوبل هذا العرض بترحاب بالغ، إذا أخذنا بما ورد في خطاب توشراتا إلى الفرعون:

إلى نيموريا(*)، الملك العظيم، أخي[١٥١]، ملك مصر وصهري الذي أحبه ويحبني – هكذا يتحدث توشراتا، الملك العظيم، أخوك، وحموك الذي يحبك. أنا في صحة جيّدة. عسى أن يكون أخي وصهري في صحة طيبة أيضًا! عسى أن تكون بيوتاتك وزوجاتك وأولادك ورجالك ومركباتك وجيادك وكل بلدانك وكل ما هو ملكك، في صحة طيبة ومزدهرة. إلى أخي الذي أحبه، سوف أقدم له، أختي زوجةً له عسى شاماش(**) وعشتروت يسيران أمامها، وعساهما يساعدان على تلبية رغبة أخي! وعسى أن يسعد أخي في هذا اليوم! وعسى أن يمنح شاماش و عشتروت أخي، سعادة غامرة وفرحًا كاملاً. عسى أن يحيَ أخي إلى أبد الآباد[١٥٢]...

السعادة واضحة جلية، بل محركة للمشاعر، بعد آلاف السنين. ويعيد التحالف مع فرعون بعض الأمل للعاهل الملكي الميتاني الذي تقع دوله تحت التهديد المباشر للخاتي.

وارتحلت الخطيبة الملكية متجهة إلى طيبة. كانت أميرة في مقتبل العمر وُعدت للزواج من عجوز. وحفظ لناالدهر ذكراها. إن صور وجهها الجميل، موجودة في أيامنا هذه، لدى كل تجار العاديات. وعند وصولها إلى الأراضي المصرية، سُمّيت نفرتيتي(***) أي «*الجميلة – أتت*». تلك هي الفرضية القديمة حول أصول نفرتيتي، وإن لم يأت البرهان عليها، بشكل قاطع. وربما كانت أيضًا مختلفة عن تادوخيبا، واحتمال أن تكون ابنة أي من كبار موظفي البلاط الملكي، الذي سيصبح ملكًا عند نهاية هذه

(*) تصحيف اسم نب ماعت رع. (المؤلفة)

(**) إله شمسي آسيوي. (المؤلفة)

(***) وقد حرّفت كلمة تيتي في العامية المصرية إلى تاتا، عندما نتحدث إلى الطفل الذي بدأ يمشي.(المترجم)

الأسرة. كما يُقال أنها كانت بكل بساطة ابنة أمنحوتب الثالث وتيي. وما زال الأمر يحتاج إلى إقامة الدليل على صحته[١٥٣].

ظل هذا الزواج، من الناحية السياسية، لا طائل منه، وبلا جدوى. كانت الأوضاع قد بلغت حداً شديد الخطورة، حتى يمكن إيجاد مخرج لها بوسائل دبلوماسية، من هذا القبيل. إن وفاة أمنحوتب الثالث وتربع ابنه الشاب على عرش البلاد، وطريقة إدارته لشئون البلاد، سوف تدفع الأمور إلى مزيد من التفكك للإمبراطورية وانفراط عقدها.

الفصل الثامن

تشدّد أمنحوتپ الرابع المتعصب

أو زمن الانحطاط الأول

١- أمير فى زهرة شبابه

حول عام ١٣٧٠ق.م، تربع على عرش مصر المهيب، صبى فى الخامسة عشرة من عمره تقريبًا، لفترة حكم قصيرة امتدت لتسع عشرة سنة. وكان الابن الوحيد المولود من اقتران **أمنحوتپ** الثالث بالملكة **تيى**.

وهكذا يتحدث عنه الوزير المخلص الأمين رع موزا:

أنت الأوحد المتفرد، وهذا البلد خاضع لسلطانك. الجبال ومحتواها الخفى، تأتى إليك بكميات وفيرة، لأن زئيرك وصل إلى قلوبها، كما وصل إلى قلب الرجال. إنها تطيعك كما يطيعك الشعب[1].

من المحتمل، أن الأمير الشاب، قد شارك والده **أمنحوتپ** الثالث السلطة، منذ العام ٣٠، بعد أن تقدمت السن بهذا الأخير، مع إحتفاظ الملكة **تيى** بنفوذ سياسىّ أكيد.

وحضر سفراء من **بابل** ومن **الميتانى** ومن **خاتى**، لابلاغ ملك مصر الجديد، تحيات ملوكهم وتهانيهم، وتقديم شواهد مادية على علاقات الصداقة والأخوة اللتين تربطهم.

هكذا بدأت فى مصر سنوات عهد قصير، سوف ينسج العلماء المحدثون من حولها تأويلات تشوه الحقائق، وتقع فى الأوهام.

حتى العام الرابع: الجِدّة والاعتدال

وإذ سار **أمنحوتپ** الرابع على هدى الحركة الدينية الآخذة فى التطور، منذ أكثر من مئة سنة، لم يحتفل بمراسم تتويجه فى **طيبة**، بل فى **هرمونتيس**، المسماة «**هليوپوليس** *الجنوب*(*)».

(*) يونو شمع بالمصرية القديمة، أرمنت حاليًا. (المترجم)

كانت قائمة ألقابه على النحو الآتي:

الحورس: الثور القوى ذو الريشتين العاليتين.

السيدتان: عظيم هو مُلكه فى الكرنك.

حورس الذهبي: الذى يضع التيجان فى هرمونتيس.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: كاملة هى صيرورات رع. (إنه) الواحد المتفرد المنتسب إلى رع.

ابن رع: أمنحوتپ، الإله، حاكم طيبة.

وإذا كانت المكانة التى يحتلها رع فى سياق هذه النعوت، قد أخذت فى التعاظم، إلا أن الفرعون الجديد، يظل رابع ملوك الأسرة الثامنة عشرة الذى يعلن إنتسابه إلى آمون(*)، وإلى طيبة. وببساطة شديدة، لقد فعل ما فعله أسلافه من قبل، فأشرك آتون فى الشعائر الشمسية. وعلى جزء من لوح حجرى جادت به بلدة عمدا فى النوبة، يعود تاريخه إلى السنوات الأولى من عهده، يطلق على الملك لقب: «*هذا الذى يشرق متألقًا على عرش أبيه آتون، مثل رع فى السماء وعلى الأرض، على مرّ الأيام*[٢]».

وتكشف المبانى التى أقامها فى الكرنك عن هذه النزعة المزدوجة، المعتدلة والمجددة، فى آن واحد، المندرجة فى سياق تطور روحانى متواصل.

وفى الفترة التى كان مشاركًا فى الحكم، ساهم إلى جانب والده، فى تشييد الصرح الثالث من صروح معبد آمون – رع. ويصوّره نقش وهو يشارك أمنحوتپ الثالث، فى أعياد مدينة طيبة. وعند وفاة والده، أضاف إلى هذا الصرح «ردهة»، صُوّر على جدارها المشهد التقليدى لذبح الأسرى ذبحًا شعائريًا[٣].

وشأنه شأن تحوتمس الثالث، سوف يعمل على توسيع مساحة الكرنك المقدسة فى اتجاه الشرق. وسوف يشيّد معبدًا شاسعًا، ولكن خارج أسوار معبد آمون – رع،

(*) من خلال اسمه. (المترجم)

وأسـمـاه چم – آتون (أى: *آتون* – عُثـر – *عليه*). إن الحـفـائر التى باشـرها هنرى شيڤرييه Henri Chevrier، عام ١٩٣٠، سمحت بإخراج جزء فقط، إلى النور من الفناء الكبير للمدخل، وكان رواقه الداخلى يتكون من أعمدة أوزيرية للملك. ومنذ الآن، كانت هذه الأعمدة بمثابة بيان فنى ودينى. وأمام هذه الأعمدة، وهى من الحجر الرملى، وارتفاعها أربعة أمتار وعددها ٢٨عموداً، صور الملك تصويراً كاريكاتورياً. ولكن عند دراسة المعالم الأثرية الملكية أو مقابر الأفراد بالبر الغربى، سبق أن لاحظنا، مراراً وتكراراً، الجمال الذى يكاد يدانى الكمال وحسن مظهر الأشكال المنحوتة أو المرسومة ورشاقتها. ففى مجال الفن، قبل غيره من المجالات، أظهر الملك الشاب، لأول مرة، رد فعل عنيف، وإن لم يغير شيئًا، على الإطلاق، من المبادئ الأساسية فى فن التصوير المصرى. وتكشف هذه الصور الشخصية، عن كائن وجهه نحيل، أشبه بوجه فرس، وعن عينين بالغتى الإستطالة وشفتين غليظتين وذقن بارزة. والجسد غير واضح التناسق: الكتفان ضيقان والصدر منتفخ والقامة نحيلة والوركان ضخمتان. أهو رجل أم امرأة؟ ربما كنّا أمام أحد الشواهد الأثرية التى تجسد التصور الذى يذهب إلى أن الشمس «*أبو وأمّ البشر أجمعين*». أو أنه كما ورد فى ترنيمة سوتى وحور «*الأم النافعة الخيرّة للآلهة والبشر*[٤]». هل يمكن النظر إلى هذه التماثيل الفريدة فى بابها، باعتبارها رد فعل ضد أسلوب غارق فى الأكاديمية، مفتون فقط بالكمال؟ أم هى البيان الدينى رقم ١، الذى أعلنه ملك كان يريد أن يكون صنو إلهه، فهو وفقًا لصفة فريدة فى بابها، «*الآتون الحى*». الفرضيتان محتملتان. ولا يبدو أن الملك الشاب كان يعانى، فى حقيقة الأمر، من تشوهات خلقية. وعلى كل حال، تعتبر هذه التماثيل، أول إشارة مناهضة للنظام القائم، فكانت «*الثورة*» الوحيدة الحقيقية التى شهدها هذا العهد.

كما يمكن ملاحظة استحداث بعض التقنيات الجديدة. فالجزء السفلى من الأعمدة الثمانية والعشرين التى أُخرجت إلى النور «كانت تتكون من كتل من الحجر الرملى، صغيرة الحجم، أطلق عليها علماء العصور الحديثة اسم التلاتات، وهى وحدات قياسية من الطوب، أبعادها ٥٥ فى ٢٤ فى ٢٠سم، ومرصوصة رصًا متقاطعًا، عند استخدامها فى أعمال التشييد. ومن المعتقد، أن هذه التقنية الجديدة قد

استخدمت في مجمل المعبد، إذا أخذنا بعين الإعتبار عشرات آلاف الكتل الحجرية من هذا المقاس، التي أعاد خلفاء أمنحوتپ الرابع استخدامها في الأبنية التي شيدوها في معبدي **الكرنك والأقصر**، وذلك في أعقاب تدمير معابد **آتون**. ونظراً إلى سهولة نقلها وتفكيكها من قبل العمال، كانت سبباً كافياً لاستخدام كتل حجرية صغيرة الحجم، وبالتالي فإن السرعة التي كانت تتم بها أعمال التشييد، قد أتاحت للملك أن يقيم عدداً من الأبنية، طوال فترة إقامته في **طيبة**... وإذا كان المعبد الثلاثي الذي شيده في بلدة سيسبي(*) في **السودان**، يلتزم بوضوح بالطراز الكلاسيكي، فإن المعابد المكرسة للإله **آتون**، في **مصر** ذاتها، في **منف وهليوپوليس وأسيوط وهرموپوليس وأبيدوس**، مبنية بكتل من الحجر الجيري من طراز **التلاتات**، وإن لم يعثر منها سوى على عناصر مبعثرة بعد أن أعيد استخدامها في معابد لاحقة»[5]. أما في **الكرنك**، فقد عثر على الكثير من أحجار **التلاتات**، داخل الصرح الثاني، القائم غرب الصرح الثالث، وأشرف على تشييده الملوك حور إم حب ورعمسيس الأول وسيتي الأول.

قطيعة العام الرابع

حتى الآن، وبينما كان الفرعون الجديد يرفع من شأن عبادة **آتون**، إلا أنه ظل يُجلّ الآلهة الأخرى ويُبجلّها. وعلى جدران معبد **آتون** ذاته، استمرّ يدوّن اسمه الذي يعني «*هذا الذي يرضى آمون*».

ومن المحتمل ، على كل حال، أن كهنة **آمون** إذ استشعروا انحسار بعضٍ من سلطانهم، ربما أصابهم الفزع من جراء بعضِ المظاهر الجديدة، واتخذوا موقفًا مناوئًا. ولكن كان لابد من وقوع أحداث، على قدر كبير من الأهمية، تهدد سلطان الفرعون ذاته، وتقوض مُلكه، ليعقد العزم فجأة، على مغادرة **طيبة**، ويغير قسمًا من قائمة ألقابه ويقضي على أسماء وصور إله **الكرنك** وغيره من الالهة، فقام بتدميرها بالمطرقة تعبيراً عن تعصب قضى على الموروثات الدينيه، الأمر الذي لم تعرفه أرض الكنانة، من قبل.

(*) شمال الجندل الثالث. (المترجم)

فلم يعد يُدعى أمنحوتب، بل أخناتون(*) أى «*هذا الذى يكون مباركًا من أجل آتون*». إنه يُجلّ ويُبجل «*رع حور أختى باسمه النور القائم فى القرص*» أو آتون القرص المنتصر.

وهجر عاصمة آبائه، وشيّد مدينة جديدة، لتصبح مركز الحكومة والمقر الرسمى للعائلة المالكة، وتبعد ٣٢٠كم شمال طيبة وتقع على البر الشرقى لنهر النيل. وأطلق عليها اسم أخت - آتون أى «*أفق آتون*».

٢- التطور الدينى والثورة فى الفن

الورع وعدم التسامح

لقد طبقت شهرة ترانيم عهد أخناتون الآفاق وكثر الحديث عنها، دون معرفة حق المعرفة، فى الغالب بالفكر الدينى الذى سبقها. فتحدّث البعض عن فكر توحيدى ملهم، لأن الكثير من المفكرين المحدثين مفتونون بمقولات فكرهم الخاص. وكما سبق أن لاحظنا، كان كل إله، هو الأوحد المتفرد، فى نظر أتباعه المؤمنين به[٦]، وهى حقيقة موغلة فى القدم. وبالفعل وكما لاحظنا من قبل، ترتبط ترانيم العمارنة بتيار أيديولوچى عام، ينتهى عندها، كما أنها ليست دائما على هذا القدر من الأصالة التى تُنعت بها، من جراء تجاهل ما سبقها عبر القرون.

كما تنسب فى الغالب، إلى الورع المحموم الذى كان يحرك الملك. وفى الحقيقة، فقد نحتت فى مقابر رجال بلاط تل العمارنة، الذين سعوا، وسط هذه السنوات المضطربة، إلى إرضاء مليكهم. ولا شك، أن الكلمات والصور، هى فى الغالب بالغة الجمال ومحركة للمشاعر، وتعبر عن إيمان صادق وحميم، شأنها شأن غيرها من الترانيم المنظومة فى مصر القديمة.

(*) أخ - ن - إتن، بالمصرية القديمة. (المترجم)

والترنيمة التى تُعرف إصطلاحًا بالترنيمة الكبيرة إلى آتون، منحوتة فى **تل العمارنة** بمقبرة آى *«الأب الإلهى، وحامل المروحة عن يمين الملك، والكاتب الملكى، والمشرف العام على كافة جياد صاحب الجلالة ورئيس أصدقاء الملك»*.

التعبد إلى رع - حور - أختى الذى يَسْعد فى الأفق باسمه النور(*) الذى فى القرص[٧]، الحى للزمن اللانهائى والزمن الأبدى، وآتون العظيم الحى (الملك)، فى أعياده اليوبيلية، وسيد كل ما يحيط به القرص، رب السماء ورب الأرض، وسيد معبد آتون فى أخت - آتون، ملك مصر العليا ومصر السفلى، الذى يحيا من ماعت، رب الأرضين، جميلة هى صيرورات رع. (إنه) الواحد المتفرد المنتسب إلى رع، ابن رع الذى يحيا من ماعت، سيد التجليات المتألقة (أخناتون) صاحب الحياة المديدة - والزوجة الملكية العظيمة، محبوبته، سيدة القطرين نفرتيتى - فتّان هو جمال آتون، ليتها تحيا، وتزدهر وتظل فى شباب دائم للزمن اللانهائى والزمن الأبدى.

حامل المروحة عن يمين الملك، المشرف العام على كافة جياد صاحب الجلالة، الذى يُرضى البلاد بأسرها، الأثير المقرب من الإله الكامل، الأب الإلهى، آى[٨] - إنه يقول:

إنك تشرق برفق فى أفق السماء، أيها القرص الحىّ، الذى يتحكمّ فى الحياة. وبينما تظهر فى الأفق الشرقى، وبعد أن تملأ البلاد قاطبة بكمالك، فأنت جميل وعظيم وتسطع، وقائم فوق الأرض فى كامل امتدادها. إن أشعتك تغطى جميع البلدان وحتى حدود كل ما خلقته. أنت رع، فتأتى بأطرافها، وتربطها من أجل ابنك المحبوب. أنت قصىّ، ولكن أشعتك على الأرض. أنت فى الوجوه، ويمكن للمرء أن يتأمل رحلتك. ولكن عندما تغيب فى الأفق الغربى، تغرق البلاد فى الظلمة، وكأنها ميتة. والرجال ممددون فى حجراتهم، تسترهم الأغطية. وكل عين لم تعد ترى رفيقها. وإذا استولى أحد على كل مقتنياتهم، وإن وضعت تحت رؤوسهم، لما لاحظوا ذلك. وكل أسد يخرج

(*) شو، فى الأصل المصرى القديم. (المترجم)

من عرينه وكل الثعابين تلدغ، لأن الليل (بالنسبة لها) هو زمن النور. السكون يخيّم على الأرض، لأن خالقها فى أفقه.

وعندما تبيَضّ الأرض (من جديد)، بينما تشرق فى الأفق، فإنكِ(*) تتألقين، أيا آتون أثناء النهار. إنك تُبعد الظلمات، وتهب أشعتك، والقطران يهللان فرحًا. (النائمون) يستيقظون، وينتصبون على أقدامهم، لأنك تجعلهم ينهضون، ويغسلون أبدانهم، ويتناولون ثيابهم، بينما يسبّحون ويهللون بأيديهم عند ظهورك المتألق، والبلاد قاطبة تنجز أعمالها. والحيوانات بمختلف أنواعها تركن إلى الراحة فى مراعيها. ويعود الإخضرار إلى الأشجار والنباتات. والعصافير ترفرف فى أعشاشها، بينما تُسبّح لكائك وتُهلل له، عند بسط أجنحتها. والأغنام تقفز على قوائمها. وكل ما يطير وينزل ويحطّ، يحيا عند ظهورك. (ومن جديد) تصعد السفن التيار وتهبطه أيضًا، لأن كافة الدروب تنفتح، عند ظهورك. والأسماك فى الأنهار تقفز فى اتجاه وجهك. كما تنفذ أشعتك إلى داخل الشديدة الإخضرار. فأنت الذى تصنع خصوبة المرأة، فتخلق النطفة عند الرجال، وتعطى الحياة للإبن فى بطن أمه التى تهدئ روعها وتجفف دموعها، فتمد (الإبن) بالغذاء فى بطن (أمه)، واهبًا الهواء لتحيا المخلوقات جمعاء. وعند نزول (الطفل) من بطن (أمه)، يوم ولادته، فإنك تفتح فمه وتوفر له احتياجاته. والفرخ فى العش، يزقزق فى بيضته، لأنك من الآن، تعطيه من خلالها النسمات لتحييه. إنك تسوّى شكله بالكامل، ليتمكن من تحطيم قشرة البيضة. وعندما يخرج، يزقزق زقزقة مدوية ويسير على رجليه.

كم هى متعددة أفعالك! إنك تتوارى (أحيانًا) عن الأنظار، أيها الإله الواحد المتفرد، فبجانبك لا آلهة سواك. لقد جبلت الأرض وفقًا لرغبتك، بينما كنت وحيدًا، كما (جبلت) البشر والدواب من ماشية وأغنام، وكل ما يسير على أرجل فوق الأرض وكل ما يحلق طائرًا بجناحيه، و(جبلت) بلدان سوريا وبلاد كوش ومصر (أيضًا). إنك تحدد لكل امرىءٍ مكانه، كما توفر احتياجاته، ليحصل كل واحد على قوته، كما أن زمن حياته محسوب.

(*) الضمير فى صيغة المؤنث. (المؤلفة)

إن لغات (البشر) متنوعة وكذلك أشكالهم، وتختلف ألوان بشرتهم، والأجانب مختلفون(*).

*لقد صنعت **نيلاً**(**) في العالم السفلي في الآخرة، وتأتي به كما ترغب، لتُحْي رجال **مصر**، تمامًا كما جبلتهم من أجلي. أنت سيدهم أجمعين، أنت متعب بسببهم، أنت سيد البلاد، الذي يسطع من أجلهم، أيا آتون النهار، يا صاحب الهيبة المبجلة.*

*كما تجعل أقصى البلدان الأجنبية وأبعدها، تحيا، لأنك تعطي(ها) **نيلاً** يهبط إليهم من السماء(***)، منتجًا الأمواج على الجبال، على غرار أمواج الشديدة الإخضرار، فتغمر حقولهم في مدنهم. كم هي بارعة مقاصدك، إلى أبعد حدّ، أيا سيد الزمن الأبدي.*

***النيل** في السماء، هو من أجل الأجانب وكافة الحيوانات في كل بلد من البلدان الأجنبية، (الحيوانات) التي تسير على أرجلها. إن **النيل** القادم من العالم السفلي، هو من أجل البلد المحبوب، ولكن أشعتك تغذّي كافة الحقول، فتستعيد الحياة، عندما تشرق، فهي خصبة بفضلك. لقد حددت فصول السنة، ضمانًا لوجود كل ما خلقته: فصل الإنبات(****) لترطيب الجو، وأوجدت الجو الحار حتى يستطيع المرء أن يستمتع بك. لقد جبلت السماء القصية لتسطع فيها ولرؤية الخلائق جمعاء. أنت وحيد متفرد، في حين تتألق بأشكالك (المختلفة)، مثل آتون الحي، الذي يتجلى وضّاءً فينير ويبتعد، ليقترب بعد ذلك. إنك تبدع ملايين الأشكال النابعة منك أنت وحدك، (تبدع) المدن والقرى والحقول والدروب والأنهار. كل عين تراك أمامها. أنت آتون النهار، فأنت العليّ، أنت دائم الترحال لتأكيد وجود كل كائن من الكائنات التي خلقتها، وأنت من فوقها، ولا تتوقف عن مشاهدة أفراحهم وابتهاجهم... أنت في قلبي، ولا يعرفك أحد،*

(*) ويبقى الزهو والتشامخ التليدان اللذين تحلّى بهما المصري. (المؤلفة)

(**) أي نهر **النيل**. (المترجم)

(***) الإشارة هنا إلى الأمطار التي تتساقط في بلدان آسيا. (المؤلفة)

(****) أي الشتاء. (المؤلفة)

سوى ابنك «كاملة – هي – صيرورات – رع، إنه – الواحد – المتفرد – المنتسب – إلى رع»(*). لقد سمحت بأن يدرك مقاصدك وسلطانك. والأرض أتت إلى الوجود على يدك، تمامًا كما صنعت البشر. فما أن تشرق، حتى تعود إليهم الحياة. ويموتون عندما تغرب. وبسبب جسدك ذاته، فأنت النهار ومدّته. ويحيا الناس بك. وتظل العيون تمعن النظر فى جمالك إلى أن تغرب. ويهجر الناس أعمالهم عندما تستريح فى الغرب. وجميع من يسعون على أقدامهم، منذ أن أسست الأرض، تقوم أنت بتربيتهم من أجل ابنك الذى من صلبك، (ابنك) ملك مصر العليا ومصر السفلى... ابن رع.. أخناتون، صاحب الحياة المديدة، و(من أجل) الزوجة الملكية العظيمة، محبوبته وسيدة القطرين... نفرتيتى[٩].

ونلتقى بغيرها من الترنيمات فى مقابر رجال آخرين ببلاط العمارنة، وهى تشبه إلى حدٍّ كبير الترنيمة السابقة. ونذكر منها على سبيل المثال، مقبرة توتو، المشرف العام على الأملاك الملكية. وتبدو مفردات اللغة والصور المستخدمة، أساليب شائعة وثابتة، وكأنها «*الزىّ الرسمى*» لديانة العمارنة، حتى أن وجود فجوة فى ترنيمة من هذه الترنيمات، يمكن استكمالها إعتمادًا على نص مماثل، منحوت فى مقبرة مجاورة.

ولكن هذه المفردات اللغوية وهذه الصور، ليست جديدة كل الجدة، بل أبعد ما تكون عن وصفها بالثورية. فالمواضيع الرئيسية التى تعبر عنها هذه الترنيمة، كانت معروفة قبل قرن من الزمن، ومنذ عصر أمنحوتب الثانى[١٠]. فالتوحيد مع تعدد الأشكال، تصور موغل فى القدم، فى الفكر الدينى المصرى، عند معالجة موضوع الألوهية. وتأسيسًا على ذلك، فإن كلمة نثر أى «*الإله*» أو «*الله*»، المستخدمة عند وصف الكيان الإلهى الأسمى، استعملت فى أقدم النصوص المعروفة. ويكفينا قراءة حكم

(*) وبالمصرية القديمة: نفر – خپرو – رع – وع – إن – رع، وهو اسم العرش أو لقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

بتاح حوتب وهي تعاليم موجهة إلى ابنه وتعود إلى ٢٥٠٠ق.م. ونكتفي بالتنويه ببعض الإقتباسات المحدودة اخترناها من بين الكثير غيرها:

لا تضع الخشيه وسط البشر، وإلا عاقبك الله على النحو ذاته... لا تسمح بظهور الخوف من الناس. إذ لابد من ظهور إرادة الله.

إذا قمت بحراثة أرضك، فليكن حقلك مزدهرًا وليجزل لك الله العطاء. لا تسرف في التباهي بذلك، ولا تطالب من لا يملك شيئًا.

الله هو خالق الجودة والتميّز.

لا تثق كثيرًا في ثرواتك. فقد حصلت عليها هبةً من الله.

من ينصت ويطيع يحبه الله[١١].

وفي مطلع الأسرة الثامنة عشرة، نجد أن الكاتب آني «*المنتسب إلى قصر الملكة (أحمس - نفرتاري)*»، قد سار على هَدْي هذه التقاليد ذاتها، فيعلّم ابنه المفاهيم نفسها:

الإنسان رفيق الله.

• من أجل الله، لابد أن يكون الإنسان محبًا للآخرين:

لا تُبعد الطعام عن كائن من كان، حتى إذا كان ضروريًا لك. فهذا السلوك يمقته الله.

• لابد أن يترك لله مهمة محاكمة الآخرين:

يمكن للإنسان أن يقدم طعامًا إلى من يكنّ له البغضاء، وإطعام من يأتي، دون أن يُدعى إلى الحضور. لا تتسرّع في مهاجمة عدوك، اتركه وشأنه لله. حافظ عليه على مر الأيام من أجل الله. لأن غدًا مماثل لليوم، وفي وسعك أن ترى ما يفعله الله عندما يجرح من جرحك.

• الله هو ضامن الترابط العائلي ولا سيما احترام الأم:

ضاعف الأطعمة التى منحتك أمك إياها، احملها كما حملتك. كنت بالنسبة لها عبئًا ثقيلاً، ولكنها لم تتخلّ عنك... لا تتصرف نحوها بحيث تضطر إلى توجيه اللوم إليك، فترفع يديها إلى الله، لأنه سوف يستجيب لصرخاتها.

• الإنسان في خدمة الله:

*قدّم قربانك إلى إلهك، تجنب الإساءة إليه، لا تطرح الأسئلة على صوره، لا تدنو منه بلا استئذان، بمجرد ظهوره في مجده، لا تقترب منه أكثر من اللازم لتحمله، لا تعكرّ صفو هاتف الوحى الإلهي، اسهر عليه لتتوفر له مزيد من الحماية. فلتظل عينك يقظة لسورة غضبه، وقبّل الأرض باسمه. **ففى وسعه أن يضع قدرته فى ملايين الأشكال**. ومن يُعلي من شأنه، يُمجّد. إن نور السماء هو إله هذا البلد، ولكن صوره على الأرض. وعندما يُطلق البخور لغذائه اليومي، يصبح رب الفجر الوضّاء راضيًا.*

*الرقص والغناء والبخور غذاؤه، واستقبال من يسجدون (أمامه)، ها هى ثروته. سوف يمجد **الله** اسم من يتصرف على هذا النحو، ويصبح الإنسان أشبه بالثمل السكران*(١١مكرر).

كان أمون يُعبد فى طيبة، وأوزيريس فى أبيدوس، وبتاح فى منف، وتحوت فى هرموبوليس، وخنوم فى إلفنتين... ولكن جميعها تجليات محلية للكيان الإلهي. إن كلمة نثر تشملها جميعًا. وكل شكل من أشكالها، كان الواحد المتفرد فى قلوب المؤمنين به وفي عقولهم، وهو ما سبق أن لاحظناه عند قراءة النصوص المصرية(١٢)، الأمر الذى لا يستبعد، إمكانية الإستعانة بغيره من الأشكال الإلهية، لتوفير أكبر قدر من الفاعلية السحرية. إن جوهرًا أسمى، يتجسد فى أماكن مختلفة وفى أغلفة متنوعة، ويمثل كل غلاف منها فردية نسبية، تلك هى الوحدانية فى إطار التسامح وسعة الصدر، هنا تكمن الدلاة العميقة للديانة المصرية، عبر مختلف العصور. ولا يمكن إخضاع هذا التصور لأى من تعريفاتنا المعاصرة، السطحية فى أغلب الأحوال، مقارنةً بفكر العالم

القديم. ومن هذه التعريفات نذكر الوحدانية **monotheisme** وتعدد الآلهة **polytheisme** ومذهب الإعتقاد بوجود إله فوق الآلهة **Hènothéisme**، وهو الأقرب عهداً(*).

إن هذا المفهوم بالوحدانية الإلهية الكبرى، على الصعيد العالمي، وليس في مصر وحدها، هو الذي ساعد، منذ عهد **تحوتمس الثالث**، على تصور الوحدة الروحية للإمبراطورية. فأن تكون الشمس هي الإله الواحد المتفرد للجميع، يظهر بوضوح من خلال النصوص التي سبق التنويه بها[١٣]. وسوف يعمل **الرعامسة** على تعاظم أهمية هذه الفكرة، لتصبح الركيزة الأساسية لإمبراطوريتهم الكبرى، وتجميعًا أوحد لكل الأراضي[١٤].

ولكن كان التعصب وعدم التسامح هو الجديد الذي أتى به عهد **أمنحوتب الرابع**، وما جلبه من تدمير واضطهادات.

وبعد أن اتخذ الفرعون من **تل العمارنة** مقرًا له، أرسل رجالاً يجوبون **مصر** من أقصاها إلى أدناها، ومن **منف** إلى **النوبة**، وقد أُنيطت بهم مهمة تدمير كافة المعالم الدالة على المعتقدات القديمة. فأُغلقت المعابد ودُمِّرت الصور المقدسة وتم الإستيلاء على ثروات الأماكن المقدسة ونقلت إلى **تل العمارنة**. وانتشر طواغيت **أخناتون** في جبانة غرب **طيبة**، ودخلوا إلى المقابر، عاقدين العزم بصورة منظمة، على إزالة الأسماء الإلهية بالمطرقة، أينما وجدت، وعلى رأسها اسم **آمون**. كان هذا الإضطهاد الديني، على نطاق واسع، ظاهرة غريبة غير مألوفة، وشاهداً على ما كان يكنّه **أخناتون** من كراهية تجاه **طيبة** وكهنتها. ما سبب هذه البغضاء؟ لا علم لنا. ولكن من المحتمل جداً أنها تكشف عن بعض الدسائس التي حاكها كهنة **الكرنك**، وربما مؤامرة ضد النظام الملكي، كما سنشهد غيرها في أزمنة لاحقة.

(*) نضيف إلى ما سبق: وحدة الوجود **Panthéisme** ، ومذهب الألوهية الطبيعية **déisme** الذي يعترف بأن الله خلق الكون ولكن ليس له صلة مباشرة بالعالم، والإعتقاد بالله وحده **théisme** الذي يقرر بوجود الله دون الإعتراف بالضرورة بالوحي، وأخيراً الإلحاد **athéisme**. (المترجم)

ويبدو، كما لو أن كل فرد قد التزم الهدوء، طوال هذه الفترة، تاركًا العاصفة تمرّ – فكانت قصيرة ولم تستمر طويلاً. فلا يمكن انتزاع إيمان البشر. وعلاوة على ذلك، فقد عُرف عن المصريين أنهم تقليديًا، شعب محافظ إلى حد كبير(*). ولا يوجد بين أيدينا دليل واحد، على قيام مقاومة حقيقية. كان الشعب صامت. وانحنى رجال البلاط، وصوّروا أنفسهم وفقًا للقوانين الكاريكاتورية نفسها التى التزم بها الملك. ولكن تفاقمت المشاكل الإقتصادية.

وفى مدينة أخت آتون القصية، وبعيدًا عن كل الوقائع، واصل الفرعون حلمه الصوفى وهو حلم الأمير. فكان الإله الحىّ على الأرض. ولم يفوّت رجال البلاط فرصة إلا وأعلنوا هذه الحقيقة، جهارًا نهارًا، فكهذا يتحدث توتو قائلاً:

أيا ولد آتون، يا رع الحىّ! عظيم هو الحب الذى تحركه فى النفوس، إن البلاد تحيا فى نظام. وعندما تَفتح العينين، تفيض البلاد بهذه الثروات التى نطقْت أسماءها. أنت الأم التى انجبت البشرية وأنقذت ملايين البشر بفضل كائك. إن قوّتك سور من النحاس يبلغ ملايين الأذرع. إنك تحوّط الأراضى بقدرتك، حتى حدود أشعة آتون.

(إن الإله والملك الذى يعتبر امتداده الدنيوى، يحتويان الكون بأكمله).

أيا ملك مصر العليا ومصر السفلى... أيها الأمير المحبوب، يا صاحب الأعاجيب العظيمة، إن كمالك جميل (لمن يشاهده). إن ألوان بشرتك شبيهة بألوان أبيك، عندما يبزغ عند الفجر... وكما هو باقٍ، فأنت باقٍ للزمن الأبدى... أنت ابنه المحبوب، إن شكلك وطبيعتك هى شكله نفسه وطبيعته نفسها. وتُرفع لك التحية إلى أعالى السماء... لقد أقامك للزمن الأبدى وسوف تبقى للزمن اللانهائى. وتتمم أعيادًا يوبيلية، أنت الذى ينجبه آتون، فى كل مرة يتجلى متألقًا، فى سماء الفجر... [إن أبناء سوريا] وبلاد كوش، يأتون إليك فى أخت آتون وظهورهم منحنية. والقادمون من الجنوب والقادمون من الشمال، على حدّ سواء، يسجدون أمامك ويهللون لك... لقد

(*) يقول المثل الشعبى «إللّى فى القلب فى القلب». (المترجم)

ولدت بفضل رع، إنه سيد المصائر والأقدار، وخالق مدة حياتك. السماء تحمل أتون الحيّ والنسمات التى فيه، تعطيها أنت إلى السماء وإلى أنف المقربين منك...(١٥).

الملك أقنوم الإله، إنه الشمس الحية على الأرض. هكذا فإن الفكرة الملكية التى ظلت تتطور منذ حتشپسوت، قد بلغت الآن ذروتها، وفى الوقت نفسه، ارتقى الفكر الدينى التقليدى، ليصل إلى أقصى درجاته. لم يكن أخناتون مبدعًا ولا مصلحًا، لقد واصل التطور القائم ومضى به إلى منتهاه.

الأمير والفن

أما فى مجال الفن، فيحق لنا أن نتحدث عن وجود تغيير، لا بل ثورة، ولكن باعتدال. وبالفعل، فإن القواعد الأساسية التى حددت مسار الفن المصرى القديم الذى كان يهدف فى المقام الأول، ومن خلال حزمة من الأساليب التى سبق صياغتها، منذ الألف الثالث ق.م، إلى التعبير تعبيراً كاملاً وشاملاً عن كائنات أو أشياء أو مشاهد، قائمة خارج الزمان والمكان، فلم تكن الغاية من هذه القواعد، أن تبدع تصويراً موضوعيًا، بل تعبيراً واضحًا وفطنًا عن الواقع، يبتعد عن النقل الأعمى للرؤية البصرية، ولكن يسعى إلى إيجاد تركيبات موحية إلى أبعد حدّ. ومن ثم لم يتطرّق التغيير إلى هذه القواعد الأساسية.

ولكن نجد أن تماثيل ونقوش ورسومات مقابر تل العمارنة، رغبة منها بلا شك فى محاولة التودد إلى فرعون، قد جسّدت «*التشوهات*» التى أراد هذا الأخير أن يفرضها على نفسه: ربما كردّ فعل ضد الرشاقة والرقة المكتملتين اللتين شاعتا فى الإنتاج الفنى للعصور السابقة أو تعبيراً عن أيديولوچية دينية بعينها(١٦). فتمتد الجماجم إلى الخلف امتداداً غير سوى، ويستطيل الوجه ويضيق الصدر وينتفخ البطن فوق النقبة: إنها صور عابسة ورتيبة تفتقد الرشاقة ورقة الخطوط، سادت فى عهد، فرضت فيه فلسفة الأمير نفسها، سواء على البلاط أم العائلة المالكة.

إن تركيز الإهتمام على تصوير الحياة الواقعية والحقيقية، فى أدق خصوصياتها، قد أدى أحيانًا إلى بعض الألفة، قد يصعب احتمالها فى بعض الأحوال. ونذكر على سبيل المثال، التمثال الذى يسور الفرعون جاثيًا وعاريًا، وهو من الحجر الجيرى ويبلغ ارتفاعه ١٢سم ومن مقتنيات متحف برلين، أو التمثال الذى يصوره وقد أجلس إحدى بناته فى حجره واضعًا قبلة على فمها، وهو من الحجر الجيرى، وارتفاعه ٤٢سم، ومن مقتنيات متحف القاهرة(*). وبالإضافة إلى ذلك، سوف يعلن فن النقش بكل وضوح خصوصيات العائلة المالكة: فنجد من الآن، أن الإحتفالات الرسمية والشعائرية، لا تشارك فيها الملكة نفرتيتى فقط، بل الأميرات الست أيضًا، ثمرة الزواج الملكى.

إن المضى قدمًا بهذه الضرورة الطبيعية، إلى حدّها الأقصى، يفسّر أيضًا سبب العثور على عدد كبير من الدراسات فى تل العمارنة، فى هيئة أقنعة جصية أو قوالب.

إن بعض الأعمال عولجت بأسلوب أقل خشونة، لا سيما بعض تماثيل الملكة نفرتيتى: فالوجوه رائعة وجميلة ورقيقة الملامح فى عظمة وشموخ. إن تمثالاً من الحجر الجيرى، إرتفاعه ٤٠سم ومن مقتنيات متحف برلين فى الوقت الراهن، يصور الملكة وقد تقدمت بها السن، وترتدى عباءة طويلة شفافة. الإرهاق بادٍ على الوجه الذى يحمل آثار بعض التجاعيد ووجنتاه هزيلتان. والظهر مقوس بعض الشىء والصدر ضئيل ويحرك المشاعر، وقد بدأ يهبط قليلاً. والجزء الأسفل من الجسد مترهل ومنتفخ، فيكشف، على ما يبدو، عن تأثير مرات الحمل الست، على الملكة. إنه آية من آيات الواقعية والإحتشام مع ذلك، إنه تعبير صادق عن براعة النحات. إن تمثالاً من الحجر الرملى، إرتفاعه ١٥سم، هاجر إلى لندن، يصور جسد أميرة، تكشف عنه شفافية عباءة، هو آية فى الجمال مع التزامه بالأسلوب الكلاسيكى. ولكن هذه الأمثلة، هى مجرد استثناءات.

(*) القاعة ٣ من الطابق الأرضى. (المترجم)

لم تدم «ثورة» العمارنة طويلاً، فى مجال الفن، ولكن تأثيرها غالب الأيام. فقد تجدد التقليد المتواتر، بفضل هذه السنوات التى تحررت فيها، إلى حدّ ما، قواعد التصوير. وستظل «*أساليب العمارنة وأشكالها*» تؤثر على فن نحت التماثيل.

قد تساعدنا طفولة أمنحوتب الرابع، على تفسير هذا المزاج الصوفى، وردود فعله المناهضة للأساليب القديمة. لقد نشأ وتربى فى بلاط مرهف الذوق، تجاوز فيه البذخ كل الحدود، وإلى جوار أم مؤثرة ومتسلطة، وسط السوريين والفينقيين وكافة شعوب الإمبراطورية الذين تجاوروا فى طيبة، بعد أن أصبحت مدينة عالمية، وقريباً من كهنة أقوياء يمتلكون ثروات أسطورية. فربما أراد الصبى أن يعود إلى حياة، أكثر رشداً وأقرب إلى الطبيعة، مع الإبتعاد عن الدسائس السياسية، ليكرس نفسه كليًا للدين. كان أميراً يحكم حُكمًا فرديًا مطلقًا، فأراد أن يكون الله على الأرض، وعاش فى بلاط منغلق.

٣- العمارنة
أو الحلم الصوفى

«أفق الشمس»

ولذلك اختار أمنحوتب الرابع لعاصمته الجديدة، مكانًا يقع على بعد ٣٢٠كم شمال طيبة، على البر الشرقى لنهر النيل، فى منطقة تبتعد فيها تلال الصحراء الشرقية عن النهر مسافة أربعة كيلومترات، لتلتقى به فيما بعد فى اتجاه الجنوب، على مسافة سبعة كيلومترات، مُشكّلةً دارة شاسعة على هيئة نصف قمر، تشغلها فى الوقت الراهن المدينة، بعد أن تم تسويتها تمامًا بالأرض. استغرقت أعمال تشييدها خمس سنوات، وامتدت لأكثر من ١٣كم طولاً. إن أربعة عشر لوحًا حجريًا ضخمًا منحوتة فى الصخر ترسم حدودها، وتبلغ بعضها ٧٨٠سم ارتفاعًا. جزؤها العلوى مستدير، وهذا القسم المقوس مزخرف بمواضيع مماثلة، فقد صُوّر فيه الملك والملكة

وأميرتان أو ثلاثة، أمام مائدة قرابين، وهم يتعبدون للإله آتون الذى تتجه أشعته المنتهية بالأيادى، نحوهم، وتمدّ إليهم علامة الحياة. يضم كل لوح ثمانين سطرا أفقيًا من المدونات. وعلى وجهى اللوح الحجرى نحتت، فى الغالب، موائد قرابين وتماثيل للملك وعائلته. وإذا صحّ القول، كانت المدينة ملكًا خاصًا للعاهل الملكى الذى كرسها للإله آتون.

إن نصّى لوحين من هذه الألواح الحجرية، المقام أولهما شمال نصف الدائرة والآخر جنوبها، وفى المنطقة التى تقترب فيها التلال من النهر، على البر الشرقى، ويعود تاريخهما إلى العام الرابع، وبعد ذكر التاريخ وقائمة ألقاب الملك والملكة بتفاصيلها، يروى النصّان قيام العاهل الملكى بزيارة آخت آتون، وتقديم القرابين، فضلا عن المدائح التى تخص الفرعون ومنح المدينة هبة إلى آتون ودورها الجديد كعاصمة ووصف أعمال تشييد المعبد. وللأسف فقد أصاب العلامات الهيروغليفية تلفًا بالغًا - ومع ذلك ما زال فى وسعنا قراءة ما يلى:

رفع صاحب الجلالة ساعده إلى السماء، نحو من انجبه (حور - آختى - الذى - يسعد - فى - الأفق) - (باسمه - النور - الذى - فى - آتون) وتحدث قائلاً: ...لقد شيّدت آخت - آتون من أجل أبى آتون، لتصبح هذه المدينة مكان إقامته. من أجله رَسمت حدود آخت - آتون، فى جنوبها وفى شمالها، وفى غربها وفى شرقها. لن أتجاوز اللوح الحجرى الجنوبى لمدينة آخت - آتون متجهًا جنوبًا. ولن أتجاوز اللوح الحجرى الشمالى لمدينة آخت - آتون متجهًا شمالاً، حتى أشيّد آخت - آتون فيما بينهما(١٧).

أما الإثنا عشر لوحًا حجريًا الأخرى، فإنها تشغل ضفتى النهر، ثلاثة فى الغرب وتسعة فى الشرق. أما الألواح الحجرية الثلاثة القائمة على البر الأيسر من النهر، عند حدود سلسلة جبال الصحراء الغربية، فإنها ترسم الحدود الجنوبية الغربية والغربية والشمالية الغربية للمدينة. ويعود تاريخها إلى العام السادس، مع إضافة، دُونت فى العام الثامن، بالنسبة لاثنين منها. والنصوص التى تضمها تروى تأسيس المدينة، بالإضافة إلى ترانيم وابتهالات من أجل الإله والملك.

ظهر صاحب الجلالة متألقًا على مركبته المصنوعة من الذهب الخالص والمشدودة إلى فرسين فكان أشبه بآتون عندما يشرق فى الأفق. والحب الذى يحركه فى النفوس يملأ الأرضين. لقد اختار الطريق السليم (إلى موقع) أخت آتون، فى هذه المرة الأولى التى اكتشفه، ليقيم مبنًى شامخًا من أجل آتون، وفقًا لما أمر به والده (حور - أختى - الذى - يسعد - فى - الأفق) - (باسمه - النور - الذى - فى - آتون) - (يقيم) مبنًى شامخًا داخل المدينة. وقُدّمت قرابين وفيرة... فى يوم تأسيس أخت - آتون، المكرسة للإله آتون، وتقبّل البشر المدائح والحب، من أجل ملك مصر العليا ومصر السفلى... ابن رع... أخناتون[١٨].

إن الأطلال الراهنة المتبقية من هذه العاصمة العابرة، بعد أن هُجرت، ولم يمض على تأسيسها سوى خمس عشرة سنة تقريباً، وشُيدت فى موقع لم تشيد فيه أى بنايات أخرى، فى زمن لاحق، تساعدنا على إعادة تصميم المدينة العتيقة: ومنها معابدها وقصورها ومنازلها ومساكن حرفييها وجبانتها القريبة، المنحوتة فى صخر جبل الصحراء الشرقية.

إن طرقًا، يسهل التعرّف عليها، بفضل حوافها الحجرية، ما زالت تتجه بعضها ناحية الجبانة، والأخرى ناحية ألواح الحدود الحجرية التى كانت ترسم حدود أرض المدينة. إن مسار شوارع المدينة يقف شاهداً على وجود تنظيم حضرى لهذه المدينة: إن ثلاثة شوارع متوازية تتجه من الجنوب إلى الشمال بمحازاة النهر وتتقاطع، فى كثير من الأحيان، بزاوية قائمة بشوارع مستعرضة ثانوية. وثلاثة وديان شرق - غرب، تقسّم المدينة إلى ثلاث مناطق، لكل واحدة منها طابعها المميز.

كان وسط المدينة يضم المعابد والقصور والمبانى الرسمية.

ومعبد آتون كان مفتوحًا جهة الغرب وقائمًا داخل مساحة مستطيلة شاسعة يبلغ محيطها ١٥٠٠متراً. ولأول وهلة، كان تخطيطه لا يختلف كثيراً عن تخطيط معابد طيبة الكلاسيكية. ولكن على غرار المعابد الشمسية التى شيدت إبان الأسرة الخامسة، كان غير مسقوف، لإتاحة الفرصة النور الإلهى النفاذ إلى القسم الخاص بقدس الأقداس.

وحديثًا، لفت پول بارجيه Paul Barguet الإنتباه[١٩] إلى أن بعض عناصر هذا التخطيط كانت غير مألوفة، حتى يمكن القول أن معبد آتون ينفرد بتخطيطه الفريد فى بابه. وبالرجوع إلى الأوصاف المعتادة المتاحة، يلاحظ أن على المرء أن يخرج من كتلة المعبد الرئيسية، إذا أراد الوصول إلى القسم الخاص المعروف بقدس الأقداس. إلا أن أعمال التنقيب التى باشرها پاندليبرى Pandlebury قد أوضحت أن ما يعتقد أنه «القسم الخاص بقدس الأقداس»، وهو فى حقيقة الأمر «قصر *البن بن*»، على ما يظن، قد شيد في تاريخ سابق على العام التاسع من عهد الملك، فى حين أن بدء تشييد المعبد ذاته يعود إلى العام التاسع. فمن المعتقد إذن، أن القسم الخاص بقدس الأقداس، قد شيد أولاً، وكان معزولاً فى نهاية ممر احتفالى طويل داخل الأسوار. ولكن من غير المرجح، أن يظل معزولاً، إن كان يشكل حقًا، القسم الخاص بقدس أقداس المعبد. فطبقًا للقواعد المعمول بها، فإن المعبد عند تشييده، لابد أن يكون ملاصقًا لواجهة هذا القسم، على أن يكون الوصول إليه مباشرة من خلال عدد من الأبواب المتعاقبة. لقد فعلت حتشپسوت الشيء نفسه فى الكرنك، عندما أقامت حجراتها، فكانت ملاصقة لواجهة معبد الدولة الوسطى. وتأسيسًا على ذلك، فما كان يظن لفترة طويلة، أنه القسم الخاص بقدس الأقداس، إنما هو فى واقع الأمر، مقصورة مستقلة، لها وظيفتها الخاصة.

ومن المعتقد إذن، أن معبد آتون كان يتكون من مجموعتى مبانٍ متعاقبتين: فنجد من ناحية، المعبد المكرس للإله الشمسى، ومن ناحية أخرى، بناية أطلق عليها لفترة طويلة *«القسم المخصص بقدس الأقداس»* وإن كانت مخصصة للاحتفالات الملكية، كما سنوضح ذلك، استنادًا إلى الفرضية الفائقة البراعة، والأقرب إلى الصواب، والتى توصل إليها پول بارجيه Paul Barguet.

أما المعبد ذاته فيمتد فى استطالة بالغة تصل إلى ٢١٠ أمتار طولاً و٣٢مترًا عرضًا فقط. ولا شك أنه كان يطلق عليه اسم چم – آتون، كالمعبد المماثل فى الكرنك والمعابد المقامة فى النوبة. كما أن العديد من تصاوير المقابر تقدم معلومات حول تخطيطه. ويبدو أنه كان مكونًا من قسمين: فيتقدم صرح المدخل خمسة أزواج من السوارى ذات البيارق، يليه بهو أساطين يضم ثمانية أزواج أساطين مقناة، ثم فناء

برواق وأخيراً ثلاثة أفنية صغيرة. وربما كان أخرها يضم القسم الخاص بقدس الأقداس. وهكذا يمكن مقارنة هذا المعبد بمعبد آمون في الكرنك، كما كان في مطلع الأسرة الثامنة عشرة. إن وجه الشبه الأول قائم بين بهو أساطين مدخل معبد چم – آتون وبهو أساطين مدخل الصرح الرابع، بالكرنك، عندما كان أول صروح المعبد. أما وجه الشبه الثاني، فيخص القسم الثاني من چم – آتون، القريب مما يعتقد أنه كان معبد الدولة الوسطى بالكرنك: فنجد في كل مجموعة أبواب ثلاثة، يتقدم الأول، رصيف من خلفه رواق.

أما المبنى الثاني، وهو أصغر من السابق، ويقع إلى شرق المعبد، الذي عُرف لفترة طويلة باعتباره «*القسم الخاص بقدس الأقداس*»، فيتميز بسمتين بالغتي الأهمية: وجود تماثيل أوزيرية عملاقة للملك في رواق صرح المدخل ووجود ممر متعرج يؤدي إلى الفناء الذي يحتضن مائدة القرابين. ولكن هناك حقيقة جديرة بالملاحظة تبرز، بلا شك، الغاية من إقامة هذا المبنى: فالتماثيل الأوزيرية العملاقة الأربعة ترتدي على رؤوسها، تارة التاج الأبيض وتارة أخرى التاج الأحمر. ففي تصوير بمقبرة أحمس[*] وكان «*حامل المروحة على يمين الملك*»، وفي أحد الجناحين اللذين يؤطران، بشكل غير مألوف، فناء المدخل إلى المبنى – نشاهد رسمًا للعرش الملكي. أما الجناح الآخر فكان يصور الرسم نفسه، وإن اختفى في الوقت الراهن. ومن المحتمل إذن، أن الملك كان يجلس على التوالي، على هذا العرش ثم على الآخر، مرتدياً التاج الأبيض ثم التاج الأحمر، إبان بعض الإحتفالات المرتبطة بالوظيفة الملكية.

وكما توضحه النصوص[٢٠]، كان أخناتون يعتبر نفسه أقنوم الإله على الأرض، والطقوس التي تقام من أجلهما لا تنفصلان. وكما هو حادث في المقابر، فإن الترانيم إلى الآلهة تصاحبها ترانيم إلى الملك، وأوجه الشبه بينها كبير، من حيث تعبيراتها وأفكارها، وعلى النحو ذاته، فإن تعاقب مبنيان داخل أسوار المعبد الإلهي، يرسّخان فكرة هذه الوحدة الأساسية. وقد يخطر على بالنا مبنى آخ منو[٢١] الذي شيده تحوتمس الثالث، شرق معبد آمون – رع الكبير، ولكن عمودياً على محوره. فقد كان

(*) من المقربين إلى أخناتون. لمزيد من التفاصيل راجع: سليم حسن. مصر القديمة. الجزء الخامس. ص ص ٤١٣–٤١٥. هيئة الكتاب. ١٩٩٢. (المترجم)

معبداً لاستعادة حيوية العاهل الملكى وتجديدها، ففي إطاره ومن خلال إحتفالات سرية وصوفيه، كان آمون – رع ينقل جوهره الإلهي إلى الملك. ولكن، دلالة تل العمارنة، كانت تتجاوز أبعاده، كل ذلك: ولأن واقع الأمر، يكشف لنا أن أمام هذه البناية فقط، صُورت فرقة العازفين على الجنك والموسيقيين والمنشدين، يحملنا على الإعتقاد، إلى النظر إليها باعتبارها أيضاً «قصر *البن بن*»، الذى تقف الفرقة في فناء مدخله، وتعزز هذا الإعتقاد الترانيم المتشابهة المدونة في مقابر توتو ومرى رع وآنى وآيى، والموجهة إلى آتون:

تتصاعد أصوات المنشدين والموسيقيين فرحين، في الفناء الكبير لقصر بن بن، في معبدك في آخت – آتون، مكان الحق، الذى ينشرح فيه صدرك[٢٢].

إن اندماج الإله في الملك اندماج كامل، حسب تعبيرات العمارنة وعلى جميع الأصعدة، هو ما تكشف عنه، على حدّ سواء، الترانيم والمباني المشيدة.

أما المعبد الثاني وهو «*قصر آتون*» فكان أصغر من السابق، وغير مسقوف أيضاً، ويقع إلى الجنوب من القصر.

كان طول القصر الملكى الكبير ٢٧٠ متراً ويحيط به سور مزدوج من الطوب. كان يشتمل بدايةً، على فناء غير مسقوف يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ١٧٠متراً، ومحاطًا بتماثيل عملاقة من الجرانيت والكوارتزيت، تمثل الملك والملكة نفرتيتي. وفي مؤخرة هذا الفناء، أقيمت مقصورة تضم اثنى عشر أسطونًا بتيجان نخيلية، ومن شرفتها، كان يستطيع الملك أن يُطلّ على الجماهير، تحيط به أحيانًا الملكة والأميرات الست. يلى ذلك عدد من الأفنية، كان يضم أحدها رواقًا ذا أساطين من الحجر الجيرى، قائمة على أرضية من الألبستر، إذ كان اللون الأبيض رمز شدة سطوع الشمس. وأخيراً يصل المرء إلى بهو أساطين كبير للإستقبال، يضم ٤٨أسطونًا من الحجر الجيرى. إن زخارف مستوحاة من الطبيعة من أزهار وحقول قمح وعصافير وسط المستنقعات والحيوانات غير المقيدة، كانت مرسومة على الجدران والأرضيات. وقد عُثر على بعض هذه العناصر. إن أطلال القصر الذى شيده أمنحوتپ الثالث، في

ملقطة، كان يحتفظ بعناصر زخرفية مماثلة. ولا نعرف شيئا عن القصور التى شيِّدت في عهود سابقة، لأنه لم يبق منها شيء. فمواد البناء، وتتكون أساسًا من الطوب، لم تستطع مقاومة صروف الدهر.

وخلف القصر، كان مبنىً فسيح، يتكون من عدد من أبهاء الأساطين. وكان أحدها، وربما كان قاعة التتويج، يضمّ ٥٤٤عموداً مربعًا، يستقر عليها سقف يحمل رسومات تصور أغصان من الكرمة، تحمل أوراقًا وعناقيد عنب، على خلفية باللون الأصفر: إنها رموز ملونة تمثل الحياة المتجددة إلى أبد الآباد، من نباتات وشمس. وكانت الجدران تزدان ببلاطات من القاشانى.

إن جسراً يمر فوق الشارع الرئيسى، كان يربط القصر الرسمى بالمسكن العائلى للعاهل الملكي: ويتكون من الأجنحة الملكية الخاصة والمخازن، وتحيط بها الحدائق. وعلى امتداد الشارع تصطف إستراحات أو بيوت الحريم، ورسمت على أرضيتها زخارف زَهْرية على أرضية من الجص الأبيض ويمكن مشاهدتها الآن فى المتحف المصرى بالقاهرة(*).

وإلى شمال القصر وشرقه، تتكدس المكاتب الإدارية دون التقيد بنظام معين واضح.

أما المدينة الجنوبية، فكانت تشغلها مساكن كبار الموظفين والورش ومنها ورشة النحات تحوتمس، والقصر الجنوبى أو القصر الصيفى: مارو – آتون.

كانت الأساطين من طراز فريد فى بابه: فقواعدها من الألبستر وتحمل نقوش لزخارف لوتسية. ويصوِّر بدن الأسطون ضُمَّة من الغاب، باللون الأخضر، وتزدان قمته بعناقيد من العنب وتتدلى منه أبدان طيور البط، والتيجان من الألبستر ومزدانة بأوراق نبات اللوتس وزهوره، بالنقش البارز ومطعمة بعجينة زرقاء وخضراء[٢٣].

هذا القصر هو النموذج ذاته، الذى عرفته عمارة الحدائق هذه، والتى ظل المصريون على امتداد تاريخهم مولعين بها. كان القصر يضم عدداً من البحيرات الصناعية، ومبانى تتميز بأصالتها الفريدة، ومنها ممشى طويل يحمل سقفه صف من

(*) فى صحن الطابق الأرضى. (المترجم)

١٢عموداً، حفرت بينها، حَفراً محكمًا، أحواض على هيئة حرف T، بينما رسمت من حولها زخارف تصور الزهور والحيوانات[٢٤]. ففي بلد تحاصره الصحراء من كل جانب، كان الميل إلى الطبيعة النضرة والمُحيية، ظاهرة شاعت في مختلف العصور والأزمنة.

كانت منازل رجال البلاط فسيحة. ومسكن الوزير نخت كان مربعًا، ومساحته ٨٨٠مترًا مربعًا. ويتكون من حجرة إستقبال ذات ستة أساطين من الخشب الملون، وبتيجان نخيلية، ومن حجرة معيشة تتجه ناحية الشمال، ويبلغ كل ضلع من أضلاعها ثمانية أمتار، وذات أربعة أساطين وبأريكة ومن حجرة للتطهر ومجمرة مركزية ومن الأجنحة الخاصة وتضمّ حجرة النوم والحمام وبلاطة مسطحة للتوضّؤ، بقنوات تصريف ومراحيض في مكان معزول، بقاعدة ثابتة أو متحركة. كانت الأرضيات تتكون من طوب مستوٍ، مغطى بزخارف تصور زهوراً ملونة. ومن حجرة المعيشة، كان سلّم يوصلنا إلى السطوح، المتجه، هو أيضًا ناحية الشمال. وفي بعض الأحوال، كانت الأجنحة الخاصة في الطابق الأول. أما المطبخ ومسكن الخدم والحظائر، فكانت في الخارج. والحدائق والعرائش وأحواض الماء، كانت تحيط بالمنزل. وفي حوض ماء واحد أو أكثر، كانت تطفو زهور اللوتس الزرقاء والبيضاء وتسبح البط الأزرق والأسماك المتعددة الألوان، وتظلله أو تظللها مختلف الأشجار. هكذا، كانت تحيط بالمنازل روضات من النضارة والنسيم العليل المنعش، فتشيع السكينة والجمال، وتجمع بين الأشكال والألوان، في تناغم وانسجام مرهفين.

أما المدينة الشمالية، فكانت حيّ التجار وأصحاب الحوانيت. كما كان بها قصر الشمال وهو قصر التنزه والترويح عن النفس، ويضم رحبة للحيوانات بها مكان لتربية الطيور والحظائر.

وبعيداً وفي مكان معزول، عُثر على أطلال مدينة عمال حقيقية، شبيهة بمدينة عمال دير المدينة على البر الغربي من مدينة طيبة وداخل سور يبلغ طول كل ضلع من أضلاعه ٦٩متراً، يتكدس جنبًا إلى جنب، وظهراً لظهر، أكثر من سبعين منزلاً، يضم كل واحد منها أربع حجرات، وتنتظم المنازل في صف مستقيم، على امتداد خمس حارات.

إن تراتب الهرم الإجتماعي، واضح كل الوضوح، في تل العمارنة، وكما كان الحال في طيبة.

احتاج الأمر، إلى خمس سنوات من العمل الدؤوب، لترتفع في الصحراء مدينة يبلغ طولها ١٣كم، مدينة مكرسة للشمس، وكانت كل عناصرها التصويرية والزخرفية، نداءً مؤثراً جياشاً للحياة المتجددة. كانت تمهيداً وإرهاصاً، لأحد المبادئ المعمارية في عصر الرعامسة، كما أن ألوان الأحجار وطريقة تجميعها، تقوم بدورها الرمزي.

خمس سنوات من العمل الدؤوب، وأربع عشرة سنة من حياة، مكرسة لحلم صوفي. ومن كل ذلك، من كل هذه الكنوز التي انبثقت من رمال الصحراء، بفضل إرادة أمير، لم يغالب الأيام سوى بقايا مبعثرة، على أرض المنطقة، ولكنها كافية على الأقل، بمساعدة علماء الآثار، على إعادة تشكيل البهاء التليد وروعته. ولكن الحلم توقف فجأة وتبخَّر.

غير أن *«الهزيمة»* الأولى التي منيت بها طيبة، كانت هزيمة عابرة، سرعان ما أصبحت في خبر كان. وفي وقت لاحق، وبعد مرور قرن من الزمن، سوف ينتقل الرعامسة، بدورهم، بعيداً عن مدينة الجنوب المهيبة ودسائس الكرنك. كانت الإمبراطورية تستوجب قيام عاصمة أخرى. كانت تل العمارنة بمثابة المرحلة الأولى لهذه الحركة *«الصاعدة في اتجاه الشمال»*، التي سيواصلها خلفاء أمنحوتپ الرابع، لأسباب متعددة. فكان التراجع الأول الذي لحق بمدينة التحامسة العظيمة.

وإلى الشرق من تل العمارنة، حفرت في المنحدر الصخري، مقابر الملك ومن تبعوه إلى المدينة الجديدة.

كانت مقبرة، قد أعدت للملك في تل العمارنة في أقصى وهدة متعرجة، عرفت عند العرب، تحت اسم درب الملك، وتحمل المقبرة رقم ٢٥أ. وتم الكشف عنها، عام ١٨٩٢، بمعرفة بارسانتي Barsanti. وقد أصاب المقبرة دماراً بالغاً، وتعرضت على ما يعتقد، عند وفاة الملك، لاضرار وتلفيات متعمدة، ارتكبها من ناصبوا الملك العداء. فبعد

أن يعبر المرء العتبة ويهبط سلَمًا من عشرين درجة وممشى شديد الإنحدار، يصل إلى سلسلة من الحجرات والممرات غير المزخرفة، وصولاً إلى مسطّح منبسط، عرضه متران، ينفتح جهة اليمين، على حجرات مزخرفة بنقوش شديدة التدمير، تصور مشاهد قرابين ومشاهد طقسية، تقام «*فى إطار عائلى*»، وتسيطر من علٍ صورة الجرم السماوى بسواعده الآدمية. وفى الحجرة الأولى، وعلى الجدار الشمالى تحديداً، يرى الناظر مشهداً جديراً بالملاحظة، يسير فى اتجاه السياسة الأمبراطورية التى تبنتها مصر منذ ما يقارب المئتى سنة، ويصور شعوب الأرض قاطبة متعبدة للشمس. كان حلم **أخناتون**، تضرب جذوره فى أعماق الماضى. أما حجرة الدفن فتوجد، عند مستوى أدنى، وللوصول إليها يهبط المرء سلّمًا بدرجاته الست عشرة، وتزدان هذه الحجرة أيضًا بنقوش تصور الطقوس المقامة من أجل الجرم السماوى، ولم يعثر فيها سوى على تماثيل جنائزية صغيرة، تحمل اسم **أخناتون** وأجزاء توابيت مبعثرة. لقد اضطَهد (بفتح الطاء) وهو على قيد الحياة فاضطُهد (بضم الطاء) بعد وفاته. إن صاحب هذه المقبرة لم يشغلها، وإن كانت مخصصة له، فربما دفن سراً فى **طيبة**(٢٥).

كانت مقابر الأفراد من طبيعة وطراز مقابر **طيبة** المنحوتة فى الصخر ذاته، وقد تم الكشف عن حوالى خمس وعشرين مقبرة.

لقد كان من الصعوبة بمكان أن تقوم **تل العمارنة** بإزاحة **طيبة** و**الكرنك** لتحلّ محلها.

رفاق تل العمارنة

إن المقربين من **أخناتون** وبعض أتباعه المؤمنين به وأصدقائه المخلصين، قد رافقوه إلى عاصمته الجديدة.

والعائلة المالكة حاضرة حضوراً مطلقا فى كافة التصاوير. فنشاهد **نفرتيتى**، الزوجة الملكية العظيمة والأميرات الست، ثمرة إقتران الملكة من الملك وهن:

مريت – آتون (أى: «*محبوبة آتون*») وميكت آتون (أى: «*المحمية من آتون*») وعنخ – إس – إن – پا – آتون (أى: «*إنها تحيا من أجل آتون*») ونفر – نفرو – رع (أى: «*جميل هو كمال رع*») وستپ – إن – رع (أى: «*من اختيار رع*»).

ومن غير المستبعد أن يكون الملك قد اقترن من ابنته الثالثة(*). فأثناء أعمال التنقيب التى باشرتها البعثة الألمانية فى هرموپوليس – على البر الآخر من نهر النيل، قرب تل العمارنة، ظهرت إلى النور كتل حجرية تحمل مدونات، جادت بها عاصمة أخناتون[٣٦]. وعلى كتلة من هذه الكتل يمكن قراءة النص الآتى:

محبوبته عنخ – إس – إن – پا – آتون، الابنة الملكية التى من صلبه، التى ولدتها عنخ – إس – إن – پا – آتون، الإبنة الملكية التى من صلبه، (والتى انجبها (؟)) نفر خپرو رع – وا ع إن رع(**). وفقًا لصيغة البنوة التقليدية.

هكذا، فمن المعتقد أن أميرتين، الأم والابنة، وقد انجب أخناتون كليهما، قد حملتا الاسم نفسه. وهو ما يتضح أيضًا، على ما يبدو، من قراءة النص المدوّن على كتلة حجرية أخرى:

الإبنة الملكية، عنخ – إس – إن – پا – آتون التى من صلبه، ليتها تحيا! والإبنة الملكية، عنخ – إس – إن – پا – آتون الصغيرة، محبوبته التى من صلبه.

فى كثير من الأحيان، يستخدم لفظ «*الصغيرة*» لتمييز الأم عن الإبنة، عندما يحملان الاسم نفسه. هكذا فإن نفر – نفرو – آتون التى تحمل هى ونفرتيتى الاسم الشخصى نفسه، تُدعى أحيانًا «*الصغيرة*».

(*) يشكك البعض فى هذا الزواج ويعتبره أمرًا مستحيلاً، راجع:
C. Vandersleyen. L'Egypte et la Vallée du Nil. Tome 2. P.U.F, 1995, p.414 et n.3.(المترجم)

(**) لقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى أو النيسوت بيتى، راجع مطلع هذا الفصل. (المترجم)

وإذا التزمنا بهذه الفرضية، الأقرب إلى الصواب، فمن من غير المستبعد أن تكون **عنخ – إس – إن – پا – آتون** الثانية هى التى تزوجها **توت عنخ آمون**، وليست أمها.

يجدر بنا، الإشارة إلى تواجد آخر فى **تل العمارنة**، كان مؤثرًا وعلى قدر كبير من الأهمية. نقصد بذلك، الملكة **تيى** أرملة **أمنحوتپ** الثالث ووالدة العاهل الملكى الشاب. كانت سيدة عظيمة، قامت بدور سياسى أكيد، فى **طيبة**، فى عهد زوجها، ويبدو أنها أثَّرت تأثيرًا بالغًا على ابنها. وكما سنلاحظ، فإن **توشراتا** ملك **الميتانى**، قد وجَّه إليها خطابه. لتقوم بدور الوسيط بينه وبين فرعون.

ويبدو أن عدداً من التصاوير، تبرهن على وجودها فى **تل العمارنة**. ففى المقبرة رقم ١ – مقبرة **هويا** – المشرف العام على قصرها، تظهر قبالة **أخناتون** **ونفرتيتى**، وهى تشاركهما الأطعمة الوفيرة المكدسة على مائدة[٢٧]. وقد صُوِّرت إلى جوارها ابنتها الصغرى **باكت آتون** (أى: «*خادمة آتون*») وإلى جوار **نفرتيتى** صُوِّرت ابنتاها الكبيرتان. وفى المقبرة ذاتها، تظهر **تيى** وهى تشرب من كأس فى صحبة الزوجين الملكيين[٢٨]. والأقرب إلى الصواب، أنها عاشت فى المدينة، فى صحبة آخر بناتها، ثمرة زواجها من **أمنحوتپ** الثالث والتى كانت مكرَّسة للإله **آتون**، كما يتضح من اسمها. ومن المحتمل أن الملكة **تيى** القوية القديرة، الدسَّاسة، لم تكن بعيدة عن قرار مغادرة **طيبة** وعن المغامرة التى أقدم عليها **أخناتون**. ولكن كل ذلك، يفترض تداعى أحداث لا حصر لها واجتماعات تآمرية سريَّه نجهلها، فلا ندرى عنها شيئًا.

خدَّام آتون

كان **مرى رع** (أى: «*محبوب رع*»)، أحد أقرب المقربين إلى الملك الذى عيَّنه كبير كهنة **آتون**، بالإضافة إلى *المشرف العام على البيت المزدوج للفضة والمشرف العام على الحريم الملكى*.

توفر لنا النقوش والنصوص المنحوتة في مقبرته رقم ٤، بتل العمارنة أن نتعرف على مراسم تنصيبه حَبراً أعظم جديداً. وفي لقطة أولى، يظهر أخناتون ونفرتيتي في شرفة القصر الملكي، وقد تجمعت جماهير الشعب بمناسبة العيد. ونشاهد مري رع، في صحبة المقربين، راكعًا على الأرض أمام العاهلين الملكيين. وبعد أن ينتهي الملك من إلقاء خطابه وتفويضه حق ممارسة منصبه، يهبّ أصدقاء مري رع مسرورين ويرفعونه على أيديهم[٢٩].

● خطاب الملك:

الملك الذي يحيا بالحقيقة - العدالة، رب القطرين نفر - خبرو رع - وا ع إن رع يتحدث إلى مري رع كبير كهنة آتون(*) قائلاً: انظر، إني أنصّبك كبيراً لكهنة آتون بمعبد آتون في أخت آتون، لقد أقدمت على ذلك، بسبب حبي لك، قائلاً: أيا خادمي العظيم الذي يُصغي إلى تعاليمي، إن قلبي راضٍ (عن نتيجة) كل مهمة من مهامك. لذلك، أسند إليك هذا المنصب، قائلاً (أيضاً): سوف تتناول من طعام فرعون، سيدك، في معبد آتون.

● ردّ مري رع:

وفيرة هي الخيرات التي يسمح آتون، بمنحها لمن يرضيه.

● كلمات جماهير الشعب:

إنه يأتي إلى الوجود، بأجيال شابة في أعقاب أجيال شابة أخرى، هو الأمير الكامل. وما دام آتون يشرق، سيظل باقيًا للزمن الأبدي[٣٠].

اللقطة الثانية، من إحتفالات التنصيب: تقديم مري رع إلى كهنة المعبد، بينما جماهير الشعب حاضرة. وجدير بالملاحظة، أن الحرس العسكري الذي يرافق الموكب الملكي من القصر إلى المعبد، يضم في عداده سوريين وليبيين ونوبيين[٣١]. وتظل فكرة

(*) حرفيًا: «كبير أولئك الذين يرون القرص». واللقب مستعار من ألقاب كهنة هليوبوليس. (المؤلفة)

الإمبراطورية قائمة، وإن كان **أخناتون** لا يبدو مهتمًا فى واقع الأمر، بممتلكاته القصية.

وفى آخر المطاف، يقوم العاهل الملكى بزيارة ثانية للمعبد، توقيراً لكبير الكهنة **مرى رع** الذى يستقبله داخل باب المعبد، هو والملكة والأميرتين، وقد رفع ساعديه تحية له.

ملك مصر العليا ومصر السفلى الذى يحيا بالحقيقة - العدالة، رب القطرين، نفر - خپرو رع - وا ع إن رع، وبعد أن طلب كبير الخزينة من مرى رع كبير كهنة آتون أن ينحنى، تحدّث قائلاً: ضع الذهب حول عنقه، وإلى فوق، (ضع) الذهب أيضًا عند قدميه، لأنه أصغى إلى تعاليم فرعون، منجزًا كل ما أملِى عليه، فى هذه الأماكن الجميلة التى أقامها فرعون فى قصر بن بن، فى معبد آتون، من أجل آتون، فى أخت آتون، (المعبد) الملئ بكل ما لذّ وطاب وبالشعير والعلس بكميات وفيرة، إنها قرابين آتون، من أجل آتون.

● **رد مرى رع:**

ليت وا ع إن رع، الصبى الجميل، يكون مزدهرًا. مكّنه، أيا آتون، أن يتمم مدة حياتك، أقمه للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى(٣٢).

إن صياغة هذه النصوص، تلتزم فى الغالب بإيقاع الترانيم، فيتكرر اسم الشكل الإلهى المطلوب تعظيمه، تكراراً لا يكلّ ولا يملّ. وإذا وُجد كبير كهنة لتأدية الشعائر، فإن فرعون شخصياً، هو الذى يوجهه ويلقّنه «*التعاليم*» المقدسة.

وتم تعديل التراتب الهرمى الكهنوتى. فإلى جانب كبير الكهنة، نجد «*خادم*(*) *آتون الأول*». وهو المنصب الذى شغله **پانحسى**، الذى كان الجنوب، بلا شك، موطنه الأصلى، فاسمه يعنى «*النوبى*». كان متواضع المنبت، فقام الملك بترقيته، إذا أخذنا

(*) باك بالمصرية القديمة، وليس حم كما كان يسمّى فى المعتاد. (المؤلفة)

بالترنيمة المرفوعة إلى الملك، والمنقوشة فى مقبرته رقم ٦ فى تل العمارنة والتى استخدمت للأسف، فيما بعد، كنيسة صغيرة للأقباط:

التسبيح لك، يا إلهى، الذى شكّلتنى واعطيتنى السعادة، وأتيت بى إلى الوجود ووفرت لى الطعام، وكل احتياجاتى بواسطة كائه. أيها الأمير، الذى خلقتنى وسط البشر، وحملتنى على مخالطة المقربين المفضلين إليه، وجعل الجميع يعرفوننى.

*لقد ميّزتنى وأكرمتنى صاعداً من أسفل. وجعلْتنى قديراً، بعد أن كنت متواضعًا... والآن تكرمنى مدينتى على مدار الأيام. ورُقيت بناء على أمر صادر من سيد **الحقيقة – العدالة**. ولذا تهلّل يداى حتى أعالى السماء، عابداً **أخناتون**، سيد القطرين، **والقَمَر** الذى ما فتئ يمنح الحياة، سيد الأوامر، أيا نور الأرض قاطبة، فى كل فصل (من فصول السنة) نحياه، ونهر النيل للبلد وللبشر، يا صاحب **الكا** الذى يُشبع، **أيها الله** الذى خلق العظماء وجبل الوضعاء، أنت النسمة لكافة الأنوف، فبفضلها يتنفس الناس*(٣٣).

كان الأمير متصوفًا، ولكن ربما كان مصابًا أيضًا. بجنون العظمة(*). فهذه الترانيم التى كان هو مصدرَ إلهامها، تدمجه فى الله موزِّع الأقدار، وتُوحّد بينهما.

هكذا نجد أن رجالاً جدداً – يدينون للعاهل الملكى، بما حصلوا عليه من امتيازات، إذ كان يسعى سعيًا حثيثًا، من أجل إيجاد أصدقاء وأفراد مخلصين يؤتمنون، بعد القطيعة العنيفة مع طيبة والكرنك، وما قام به من اضطهادات وملاحقات – قد شكّلوا سلك الكهنة الجديد.

(*) mégalomanie: تصرّف مُرضٍ يتميز بحسب التحليل النفسى، بإظهار رغبة مفرطة وشاذة فى العظمة والمجد والقدرة. (المترجم)

إن بعض كبراء البلد القدامى وأعيانه، ظلوا مخلصين أوفياء للنظام الملكى.

هكذا كان وضع الوزير رعموزا، الذى شغل منصبه منذ عهد **أمنحوتپ الثالث**[٣٤]، ثم صاحب ابنه **أمنحوتپ الرابع** إلى **تل العمارنة**. فصُوِّر فى مقبرته راكعًا أمام **أخناتون** الذى يقوم بمنحه قلادات من ذهب، وقائلاً له:

إنك تتألق، أيا نفر خپرو رع – وا ع إن رع، وتتجلى متلألئًا مثل أبيك، آتون الحىّ. ليته يعطيك الزمن الأبدى، بصفتك ملكًا، والزمن اللانهائى، بصفتك أمير الفرح والحبور.

ثم يوجه حديثه إلى جماهير الشعب. كان شخصية مرموقة من النظام «البائد»، فربما أراد، على هذا النحو، أن يقدم فروض الطاعة والولاء للقادم الجديد:

ليت آتون يتألق من أجله. ليت آتون يجعل فرعون مزدهرًا[٣٥].

أما عن الوزير نخت، فلم يبق منه سوى أثر بعد عين. ونعرفه أساسًا من خلال منزله **بتل العمارنة**[٣٦]، وبعض القلة القليلة، من النصوص التى توضح لقبه.

ومن بين شاغلى منصب المشرف العام الملكى، نذكر **أنى**، الشخصية البارزة المتميزة، كما كان إلى جانب ذلك، كاتب مائدة الملك وكاتب مائدة **آتون**. وتقدم مقبرته رقم ٢٣، عناصر معمارية فريدة فى بابها. ونشير تحديدًا، إلى رواق أقيم عند المدخل الخارجى عند الجرف الصخرى. وقد تم إنجاز أعمال المقصورة الداخلية على أكمل وجه. إن خطوطًا كبيرة من الألوان، تتعاقب زرقاء فخضراء فزرقاء فحمراء، محدثة وحدة منسجمة من النضارة المتألقة. وعندما لحق **أنى** بالفرعون **أخناتون**، كان بالفعل شيخًا طاعنًا فى السن. ولا شك، أنه كان قد شغل منصب المشرف العام على أملاك

أمنحوتپ الثانى، والد جدّ العاهل الملكى الحالى(*)، أى قبل حوالى خمسين سنة. وربما اضطر أخناتون أن يلتمس العون من أقدم موظفى أبائه وأكثرهم إخلاصاً.

وفى عام ١٨٩١، كشف بارسانتى Barsanti فى مقبرة أنى، عن ستة ألواح حجرية نذرية، موضوعة فى كوات، ومهداة إلى أنى من قبل أفراد عائلته وأصدقائه. صيغة النصوص تقليدية إلى حدّ كبير، وتحديداً تلك المتعلقة بتقديم قربان باقة الزهور الكلاسيكية من قبل پاخا، المشرف العام على الأشغال:

من أجل كائك، باقة من آتون، ليتها تعطيك النسيم العليل. ليتها تربط أعضائك. ليتك ترى رع، فى كل مرة يظهر متألقًا وتعبده، بينما ينصت إلى ما تقوله[٢٧].

كما نذكر المشرف العام ماى، وهو محدث نعمة أيضا، بفضل الملك، وبالإضافة إلى ذلك، فقد كان «رئيس كافة الأشغال».

انصتوا إلى ما أقوله، أنتم، يا جميع البشر، كبارًا وصغارًا، سوف أروى على مسامعكم المنن التى أنعم بها علىّ، الأمير. عندئذ سوف تقولون: «كم هو عظيم كل ما تَم من أفعال من أجل هذا الإنسان الرقيق الحال!» وسوف تطالبون من أجله (أى من أجل الأمير)، بصفته رب القطرين، بأعياد يوبيلية أبدية، وبلا نهاية. عندئذ سوف يتصرف من أجلكم، تمامًا، كما فعل من أجلى. (حيث أنه) الله مانح الحياة. كنت إنسانًا رقيق المنشأ، سواء بانتسابى إلى أبى أم إلى أمى، لقد صنعنى الأمير، فساعدنى على «ارتقاء الدرجات».... عندما كنت إنسانًا ضيق الحال. وبفضله تعاظم أهل بيتى عدداً، وجعل عائلتى كثيرة العدد، وجعل جميع رجالى يعملون من أجلى. وعندما أصبحت سيد مدينة، جعلنى أخالط الكبراء والأصدقاء، فى حين كنت (أصلاً) من أبناء الطبقة الدنيا. وأعطانى يوميًا طعامًا وغذاءً، أنا الذى كنت (فى سالف الزمان) استجدى الخبز[٣٨].

(*) أمنحوتپ الرابع – أخناتون هو ابن أمنحوتپ الثالث، ابن تحوتمس الرابع، ابن أمنحوتپ الثانى.(المترجم)

هل تكشف هذه الترقية المفاجئة التى تُمنح لبعض الرجال المتواضعى المولد، عن رغبة فى الإبتعاد عن طيبة وكبرى عائلاتها القوية النفوذ؟ ولكن ماذا نقول عن حالة رعموزا؟ أم تعنى بالنسبة للعاهل الملكى المارق المتمرد، محاولة للخروج من عزلته والصعوبات التى صادفها فى سعيه إلى «تجنيد» معاونين جدد؟

إن مشاهد قيام الملك والملكة بتوزيع الهدايا، من شرفة القصر، على قدر كبير من الروعة والنضارة.

فى مقبرة پا رن نفر - (أى *«الإسم الجميل»*) - فى تل العمارنة وتحمل رقم ٧، وكان ساقى الملك، نشاهده يرقص فرحًا، أمام العاهلين الملكيين، وقد ازدان عنقه بخمس قلادات من ذهب، بينما تُعد له هدايا جديدة، ويقوم خادم بمسح عنقه بالأدهان[٣٩].

أما مقبرة توتو وكان *«أول العاملين»* فى خدمة الملك، فقد احتفظت بنص الخطبتين المتبادلتين، بمناسبة مراسم الإستقبالات الملكية هذه.

● الملك:

أنتم، أيا كبراء الجيش ورؤساءه، الواقفين فى حضرة فرعون، إنى أرغب فى منح هدية غير عادية... لم يسمع أحد، أنها سُلّمت من قبل، إلى غيره من الكبراء. هذا ما سأفعله من أجل توتو، كبير أمناء القصر، بسبب حبه لفرعون... إن فرعون، سيده الصالح، يحمل كبراء البلد قاطبة ورؤساؤه، على إعطائه فضة وذهب... وثياب وأدوات أكل نحاسية...

● ثم يتحدث توتو شاكرًا:

أنت، أيها السيد الصالح، الأمير القوى الشكيمة، صاحب الثروات الطائلة والحياة المديدة والمعالم الصرحية الشامخة! إن كل تعليماتك تظهر ظهور تعليمات آتون، رب قرص الحياة، والذى يُصدر الأوامر فى السماء، على مدار الأيّام. أنت

حياتى. أنا مزدهر عندما أشاهدك، (فأنت) ملايين من أنهر النيل. كم هو حىّ نشط، من يضعه فى قلبه!... وفيرة هى الهدايا التى يقدمها فى صورة فضة وذهب، وأكثر مما يستطيع المرء أن يحملها على ساعديه. فمن أجلك، يسطع آتون الحىّ، ليطمئن قلبك، على مرّ الأيام، أيا وا ع إن رع، الجميل مثل آتون، يا صاحب الحياة المزدهرة... أبيك المتألق الذى جاء بك إلى الدنيا. إنه يعطيك بريقه، وكل من على الأرض يشاهدون أشعّته، (جميع) البشر والحيوانات من كافة الأنواع، وكل من يسير على قدميه. فالجميع، يشاهدون آتون عند شروقه... وتبقى أنت ثابتًا فى منصبك، للزمن الأبدى، أيها(*) الشمس الذى(*) جاء به آتون إلى الدنيا، أيا نفر خپرو رع – وا ع إن رع، الذى يأتى إلى الوجود بالأجيال بعشرات الآلاف... وتجدد شبابك مثل آتون الحىّ(٤٠).

لا نلتقى فى **تل العمارنة**، سوى بالقليل من مقابر ضباط الجيش. ونذكر **ماهو** الذى كان يلقب «رئيس *المچاو* (فى خدمة) *أخناتون*»، فهو قائد شرطة محلية إذن، وقد طلب تسجيل مشاهد فريدة فى بابها، فى مقبرته رقم ٩، فتصور قيام العاهل الملكى بالتفتيش على دفاعات المدينة ومشهد آخر يصور **ماهو** شخصيًا فى جولة تفتيشية داخل المدينة. كان النحات عندما قام بتصوير **أخناتون**، على متن مركبته التى يقودها بنفسه، عند خروجه من المعبد، يميل أسلوبه إلى شىء من الألفة والتبسّط وقدر من روح الدعابة. فتصاحبه **نفرتيتى** التى تصرفه ثرثرتها، عن قيادة المركبة التى يزيد من صعوبتها، ما تفعله الأميرة الشابة **مريت آتون** من استثارة أحد الجياد بواسطة عصاً. كل ذلك يبطئ من سير المركبة الملكية وما يزيد من هذا التباطؤ، أن الحرس والرسميين، ومنهم الوزير الأكرش، يهرولون أمام المركبة(٤١).

ومن الجدير بالملاحظة، أنه من بين مقابر جبانة **تل العمارنة** بأسرها، انتهى العمل من حجرة دفن مقبرة **ماهو** فقط، كما أنها الوحيدة، بلا شك التى استخدمت مدفنًا.

(*) نعيد إلى الأذهان أن لفظ شمس مذكر فى المصرية القديمة. وليستقيم المعنى، كسرنا قواعد اللغة، وأبقينا كلمتى «أيها» و«الذى» فى المذكر. (المترجم)

ظلت ضرائب جزية الإمبراطورية تتدفق على **تل العمارنة**. كانت جزية الجنوب، تأتى بفضل جهود نائب الملك **تحوتمس** وفطنته. وفى مقبرة **حويا**، المشرف العام على الأملاك الملكية، لبيت الملكة الأم **تيى**، صُوِّر إحتفال تسليم ضرائب الجزية، فى العام ١٢. فنشاهد الملك والملكة، عند خروجهما من القصر، وقد جلسا، جنبًا إلى جنب، فى محفة من ذهب، يحملها اثنا عشر رجلاً على أكتافهم. ويلتف ساعد **نفرتيتى** حول خصر الملك، إنه وضع آخر، يعطى ملمحًا مألونًا ويكشف عن خصوصية حميمة، لمشهد يفترض على كل حال أن يكون رسميًا. إن أميرتين تسيران على أقدامهما خلف المحفة تصاحبان والديهما. إن ستة من حاملى المراوح، يحركون مراوح كبيرة. ويصاحب الموكب الرسميون وكبراء الدولة. وأمامه يسير **حويا** مسبوقًا بستة جنود[٤٢]. إنه طابور طويل لدافعى جزية الجنوب والشمال.

*اليوم الثامن، من الشهر الثانى، من فصل الإنبات، من العام ١٢ ... يظهر ملك مصر العليا ومصر السفلى، **نفر خپرو رع – وا ع إن رع**، متألقًا، إلى جانب الزوجة الملكية العظيمة **نفر نفرو آتون – نفرتيتى**، على المحفة الكبيرة المصنوعة من الذهب الخالص، لتسلّم جزية **سوريا** وبلاد **كوش**، من الغرب ومن الشرق، حيث اتحدت كافة البلدان، فى بلد واحد. كما أن الجزر الواقعة فى قلب **الشديدة الأخضرار**، تقدم الجزية للملك، (الجالس) على العرش العظيم فى **أخت آتون**، ليتسلّم منتجات كل البلدان الأجنبية، واهبًا هذه الأخيرة نسمات الحياة*[٤٣].

ما زال تسليم الجزية مستمرًا. ولكن الإمبراطورية الشاسعة التى أسسها آباء **أخناتون** الفاتحون الأشاوس، ماذا حلّ بها فى عهد هذا الملك الشاب الذى ركّز جل اهتمامه، على ما يبدو، فى المسائل الروحانية وعَشِق السلام، فعاش عاهل **العمارنة** فى عالم مغلق، من الأحلام الصوفية.

٤- السياسة فى حالة ضعف خطير

إن ما يبرز، بادئ ذى بدء، من المراسلات التى عُثر عليها فى **تل العمارنة**، هو الإستياء الشديد الذى أبدته البلدان الأجنبية الصديقة لمصر. كان كرم **أخناتون** فى

تعامله مع حلفائه أقل بكثير، مقارنة بآبائه، فنضبت شحنات الذهب. الأمر الذى ترتب عليه تقلص الهيبة التى كانت تتمتع بها مصر حتى الآن.

فقد أرسل أشور – أوباليت الأول، ملك أشور، خطاباً إلى فرعون يقول فيه:

إلى نيفوريا(*)، إلى أخى، الملك العظيم، ملك مصر. هكذا يتحدث أخوك، أشور – أوباليت، الملك العظيم، ملك آشور. من أجلك، من أجل بلدك، من أجل بيتك، فلتسر الأمور على ما يرام. لقد سُررت جداً، عند استقبال موفديك. ومن شدة إهتمامى بهم، طلبت منهم الجلوس أمامى. وأرسلت لك كهدية، مركبة ملكية جميلة، سبق أن قدتها أنا شخصياً، بالإضافة إلى ختم من لازورد الجبل.

أهذه هدية ملك عظيم؟ فى بلدك، الذهب كالتراب: يكفى على المرء أن يجمعه. لماذا لا تستطيع أن تحول عنه عينيك؟ فى نيتى تشييد قصر جديد. ابعث إلىّ ذهبًا، بقدر ما يكفى لزخارفه! عندما أرسل سلفى آشور – نادين – أهلى موفداً إلى مصر، عاد إليه محملاً بعشرين تالان(**) ذهبًا. وعندما أرسل ملك هانيجابالت(***) (بلاد الحوريين) إلى مصر، موفداً لمقابلة والدك، أرسل هذا الأخير فى المقابل، عشرين تالان ذهبًا. إلا أننى مثل ملك هانّيجابالت، ومساويًا له، والذهب الذى ترسله، لا يكفى لمجرد تغطية نفقات الموفدين الذين أبعثهم إليك، فى ذهابهم وإيابهم.

إذا كانت تبتغى حقًا الصداقه، أرسل لى ذهبًا بكميات وفيرة. هذا البيت بيتك: ارسل لى موفداً، وسوف أرسل لك ما تحتاج إليه(٤٤).

ومقارنة بالمراسلات المتبادلة مع أمنحوتب الثالث، أصبحت اللهجة أكثر تحفظاً،

(*) الدلالة الصوتية بالخط المسمارى للقب أخناتون بصفته ملك مصر العليا ومصر السفلى: نفر خبرو رع. (المؤلفة)

(**) التالان الواحد يساوى ٢٦ كيلو جراماً. (المترجم)

(***) الاسم الذى أطلقه الأشيوريون على بلاد الحوريين.

M. Damiano - Appia. L'Egypte. Dictionnaire encyclopédique de l'Ancienne Egypte, Gründ, 1999, p.188. (المترجم)

وأقل وداً[٤٥]. وللأسباب نفسها، باتت العلاقات أكثر توتراً أيضاً مع بورنابورياش، ملك بابل، الذى كتب إلى أخناتون، متحدثاً بالعبارات الآتية:

إلى نيفوريا(*)، ملك مصر. هكذا يتحدث أخوك بورنابورياش، ملك بابل. أما عن نفسي، فكل شيء على ما يرام. من أجلك، ومن أجل بيتك ونسائك وأولادك وبلدك وكبرائك وجيادك ومركباتك، ليت يكون كل شيء على ما يرام!

منذ أن تبادل أسلافى وأسلافك عبارات ودية، وقدموا لبعضهم البعض، الهدايا الجميلة ولم يرفضوا طلبات الأشياء الجميلة التى تقدم بها أحدهم إلى الآخر، حدث أن أرسل أخى سبيكتَىْ ذهب، هديةً! حسناً، فارسل لى الآن، ذهبًا بكميات وفيرة، بقدر ما كان أسلافك يرسلون. وإذا كان شحيحًا (فى الوقت الراهن)، فارسل لى نصف الكمية التى كان يرسلها أسلافك. كيف إذن، ترسل سبيكتى ذهب فقط؟ أما الآن، فتجرى أعمال ضخمة فى المعبد وأنا معنىّ الآن إلى حد كبير، بتنفيذها. ابعث لى ذهبًا بكميات وفيرة! وأبلغنى كتابةً، بكل ما تحتاجه من منتجات بلدى، لترسل إليك[٤٦].

وفى خطاب آخر، يتبرم، ملك بابل نفسه، بأن الذهب المرسل إليه من نوعية رديئة.

منذ عصر كاريندااش(**)، ومنذ أن وصل بانتظام موفدو أسلافك لدى أسلافى، فحتى الآن كان الملكان تربطهما علاقات وطيدة. والآن تربطنا، أنا وأنت علاقات وطيدة. إلا أن موفديك قد جاءوا ثلاث مرات على التوالى، ولم ترسل إلىّ، أى هدية جميلة، وأنا شخصيًا لم أرسل إليك أى هدية جميلة: فلا شيء من أجلى له قيمته، ولا شيء من أجلك له قيمته. إن سبائك الذهب العشرين التى أتى بها الموفد الذى أرسلته، لم تعطنى حقى وافيًا تامًا. فعندما وضعت فى الفرن، لم يخرج منه سوى ما يعادل خمس سبائك... وما خرج، اتخذ هيئة خبث الذهب، بعد أن برد...[٤٧].

(*) راجع هامش الخطاب السابق. (المترجم)

(**) ملك بابل فى القرن الخامس عشر ق.م. (المؤلفة)

ترتب منذ الآن، على هذا الشحّ والإهمال والتقصير في التعامل مع البلدان الأخرى، أن فقدت مصر الكثير من هيبتها المعنوية التي كانت بحق مصدر فخر لها. كان الذهب من المقومات الهامة في السياسة الدولية، وأجاد أسلاف ملك العمارنة استخدامه استخدامًا ناجعًا. ومن جهة أخرى، لم يشغل أخناتون باله كثيرًا، على ما يبدو، في مراعاة الأعراف السائدة، فلم يتمسك بالرسميات المتعارف عليها، الأمر الذي كان يُنظر إليه في الشرق باعتباره إهانة خطيرة[٤٨].

وفي رسالة من بورنابورياش نقرأ أيضًا:

منذ يوم وصول موفد أخي (إلى جواري)، وأنا مثقل بالمرض، حتى أن موفدك لم يتناول طعامًا ولم يشرب ماءً، في وجودي. سوف تسأل موفدك وسوف يخبرك كم كنت معتلّ الصحة، فما من عشب طبي واحد، عافاني. فلما كنت مريضًا ولم يقم أخي بمواساتي، استشطت غضبًا على أخي، وتبرّمت قائلاً: «ألم يعلم أخي أنني كنت مريضًا؟...» وإذا بموفد أخي يتحدث على النحو التالي: «لا يتعلق الأمر ببلد مجاور بحيث يحاط أخوك علمًا، فيدعو لك بالصحة والعافية. إن مُلك أخيك يمتدّ على بلد قصي... فهل يعقل أن يعلم أخوك بمرضك ولا يرسل إليك موفده؟»... فالآن،... (وبعد أن علمت) بطول الرحلة، فقد تبدد غضبي على أخي وزال تبرمّي[٤٩].

يا لها من مماحكات ولجاجة في غير محلها. ولكن تلك كانت الأعراف السائدة[٥٠]، وغض الفرعون الجديد الطرف عنها ولم يلتزم بها.

ظل أمنحوتپ الرابع عند موقفه، من توشراتا، ملك الميتاني، فلم يعره أي إهتمام. حتى أن الملك الميتاني قد طلب من تيي التدخل لدى ابنها، بهدف استمرار العلاقات الودية بين الدولتين:

إلى تيي ملكة مصر. هكذا يتكلم توشراتا، ملك الميتاني. ففيما يخصني، كل شيء على ما يُرام. وفيما يخصك، فليكن كل شيء على ما يُرام، وبالمثل فيما يخص بيتك وابنك وتاتوخيبا[٥١]، ابنتي وزوجة ابنك، وفيما يخص بلدانك وجنودك وكل ما تمتلكين، فليكن كل شيء على ما يرام، إلى أبعد الحدود! إنك تعرفين، أنني كنت

*أحافظ على صداقة طيّبة مع زوجك **نيموريا**، وأن زوجك **نيموريا**، كان يحافظ معى على صداقة طيّبة. وما كنت أكتبه وأقوله إلى زوجك **نيموريا** والكلمات التى كان **نيموريا** يكتبها إلىّ ويحدثنى بها، كنت أنت و**چيليا** و**مانى**[٥٢] تعرفونها. أما أنت، فتعرفين أكثر منهم جميعًا، كل الكلمات التى تبادلناها. ولا أحد يعرفها أفضل منك. لاحظى، فقد قُلتِ (للموفد) **چيليا**: «قل لسيدك: إن زوجى **نيموريا**، قد أبرم مع والدك معاهدة صداقة، وقد حافظ على هذه الصداقة نحوك. إنه لم ينسَ الصداقة التى عقدها مع والدك، ولم يوقف السفراء الذين كان يوفدهم. ولا تنس، الآن صداقتك مع أخيك، **نيموريا**. أما فيما يتعلق (بالملك) **نيفوريا** (أمنحوتپ الرابع)، فليكن رأيك فيه حسنًا وقدّره أفضل تقدير. ولا توقف السفراء الذين توفدهم». كنت قد أقمت مع زوجك **نيموريا** علاقات صداقة، أهم من تلك التى كانت قائمة، من قبل. والآن سوف أبقى على هذه الصداقة مع ابنك **نيفوريا**، فتزيد عشرة أضعاف. إنك تعرفين كلمات زوجك **نيموريا** حق المعرفة، ولكن الهدايا التى كان يقوم زوجك بإرسالها، لم تقومى بتسليمها إلىّ، بأكملها .... كنت قد طلبت من زوجك، متحدثًا بالكلمات الآتية: «هل فى وسع أخى أن يعطينى تماثيل من الذهب ومن اللازورد الجميل؟» ولم أحصل عليها. وقام ابنك **نيفوريا**، بإرسال تماثيل من الخشب المذهب، ومع ذلك، ففى بلد ابنك، من الذهب بقدر التراب... تُرى، أهكذا تكون الصداقة!*[٥٢مكرر].

يبرهن هذا الخطاب، على أن الملكة **تيى** كانت متوقدة الذكاء، حادة الذهن، فى الشئون السياسية، ملّمة من ناحية إلمامًا تامًا بأحداث الدبلوماسية والحياة السرية فى قصور الملوك **الآسيويين** ومجالسهم وحاشيتهم، وأن **أخناتون** من ناحية أخرى، ظل بعيدًا كل البعد عن الحقائق السياسية، رغم أن أحداثًا جسام وخطيرة، كانت على وشك الوقوع، ترتبط بصعود نجم قدرات **الحيثيين** وزوال **الميتانى** عن المسرح الدولى.

ويذهب **پول جاريلّى**[٥٣] Paul Garelli، أنه كان من مصلحة مصر، فى مواجهة طموحات **الحيثيين** فى شمال سوريا، ومع الضعف والوهن الذى أصاب **الميتانى**، أن تعهد بمهمة الدفاع عن المناطق الساحلية والحدودية إلى زعيم محلى، يجد تحت تصرفه موارد شخصية. وهكذا، فإن ريب حدا، زعيم **بيبلوس**، وتابع مصر الأمين، كان

مسئولاً مسئولية تامة عن إرسال القوات العسكرية والدعم المالى من قبل فرعون، فى حين كان عبدو عشرتا، ملك أمورو، فى وسعه فرض سيطرته على هذه المناطق، بوسائله الخاصة. واختار أخناتون التعاون مع هذا الزعيم المريب، لأنه لم يكن فى نيته، التدخل عسكريًا. كان هذا الموقف التسويفى، والإنحياز للسلام، ينطوى على مخاطر ومجازفات جسيمة.

ويبدو، أن تمرداً ضد هيمنة الحيثيين، قد وقع فى شمال سوريا. وقام سوبيلوليوما بقمع هذه الحركة قمعًا رادعًا وفوريًا. ولوضع حد للدسائس التى كان يحيكها الميتانيون فى هذه المناطق، قام ملك الحيثيين باقتحام الميتانى ووصل إلى العاصمة واشوجامي وعاث فيها سلبًا ونهبًا. واضطر توشراتا أن يهرب مؤقتًا. ومن خلال سلسلة من التحركات العسكرية، استولى سوبيلوليوما، بعد ذلك، على كل المناطق الواقعة بين لبنان ونهر الفرات. ولم يستجب أخناتون للإستغاثات الملحة الصادرة عن المدن الفينيقية التى بقيت على ولائها لمصر. وظل ينتهج سياسة ملتوية وانتهازية، متجنبًا التورط أو التدخل. بينما كانت الإمبراطورية تتقوض وينفرط عقدها.

كان آزيرو قد خلف والده على عرش أمورو. كان شخصية عظيمة الأهمية، يقوم بدور حاسم فى معالجة الموقف القائم، بالنظر إلى تواجد قوات الحيثيين حتى شاطئ نهر العاصى، وهو الحد الفاصل بين منطقة النفوذ المصرى ونفوذ الخاتى. وسوف يواصل الملك الأمورى سياسة توازن بين أقوى دولتين فى ذلك العصر، كأسلوب أمثل للحفاظ على مصالحه. ودعّم أزيرو سيطرته على شاطئ البحر المتوسط من بيبلوس وحتى أوجاريت. وإذ أمره فرعون منذراً، بضرورة الحضور إلى مصر لتقديم تقرير يوضح موقفه، رفض الحضور، زاعماً أنه يدافع عن الممتلكات المصرية ضد تحرشات الحيثيين، ومن ثم صعوبة مغادرة بلده فى هذه الظروف العصيبة، وفضلاً عن ذلك، كان له، فى شخص توتو، حليفًا مخلصًا، فى بلاط العمارنة. وانتشرت الفوضى واجتاحت أرض كنعان وربما كان آزيرو المحرض عليها. وسعى الأمراء المحليون فى سيشم أو جيزر، إلى توسيع ممتلكاتهم على حساب جيرانهم. وفى بيبلوس ذاتها تفجرت القلاقل، إذ حاول بعض الأعيان أن ينضموا إلى حزب آزيرو. ولما كان

ريب – حدّاً، قد بلغ من السن أرذله وأصابه المرض، قام أخوه بطرده من المدينة. فلجأ إلى **بيروت**، ثم استسلم. وسلّمه **أزيرو** إلى أهل **صيدا** الذين قتلوه. ولكن زعيم **الأموريين**، الذى كان له شركاء ضالعون معه، فى **تل العمارنة** الذى توجه إليها، نجح فى تبرئة نفسه فى نظر **أخناتون**. فهل كان فرعون مخدوعًا أو بالغ الضعف؟ وعلى كل حال، فقد ظل يحجم دائمًا عن التدخل.

وخلال هذه الفترة، ضمّ **سوبيلوليوما** شمال سوريا، إلى مملكة **الحيثيين** بروابط قوية. وقدّم إلى أبنائه الممتلكات المصرية القديمة منحةً لهم: ونذكر على سبيل المثال، **حلب** التى سلّمت إلى الأمير **طيليبينو**. واختفت نهائيًا حدود **الفرات**. ومن الآن، استقرت مناطق نفوذ كل من **الخاتى** و**مصر** على جانبى نهر **العاصى**. وترتب على ضعف فرعون أن مواقع استراتيچية وتجارية، على أكبر قدر من الأهمية، أصبحت خاضعة **للحيثيين**.

كان **سوبيلوليوما**، ملكًا ماهرًا وباسلاً ومقداماً، فشجّع موقف الحياد الإجرامى الذى اتخذه **أخناتون**، وذكّره بالتحالف المبرم مع أبيه **أمنحوتپ الثالث**، فأبقاه فى خموله، بعيداً عن أى نشاط، فكان موقفًا خطيراً شكّل تهديداً على مستقبل مصر:

أجل، إننا نجدّد الخطابات التى أرسلتها إلى أبيك والرغبات والأمانى التى افصح عنها أبوك. أيها الملك، أنا لم أرفض شيئًا، كان أبوك قد طلبه. أجل، أيها الملك، لقد انجزت كل شىء، والرغبات والأمانى التى أفصحت عنها لأبيك، لم يتجاهل أبوك منها شيئا، بل أعطانى كل شىء(٥٤).

كما التمس أيضًا قرضًا ماليًا. وتجددت الصداقة السابق إبرامها.

وربما بدأ يساور **أخناتون** بعض القلق، فى هذا العالم الشرقى الذى يموج بالإضطرابات. كان ملك مصر قد حُرم من مساندة دولة **الميتانى**، بعد ما أصابها من وهن بالغ. ولما كان تحالف **الحيثيين**، قد أصبح، من جانب آخر، أمرًا مشكوكًا فيه، أخذ فرعون مصر يسعى إلى إيجاد حليف فى الشمال، من أجل إعادة التوازن السياسى الذى يتوقف عليه أمن وسلامة أقاليمه **الآسيوية**. ولما كان نجم **أشور** قد أخذ

آنذاك، يعلو ويصعد، أرسل **أخناتون** موفدين إلى بلاط الملك **آشور – أوباليت**، يقترحون عليه إبرام تحالف. واستُقبل الموفدون استقبالاً حارًا وتم الترحيب بعروض الصداقة التى قدّمها فرعون. وانتهز **آشور – أوباليت** الفرصة ليطلب من **أخناتون** عشرين **تالان** ذهب، ليستطيع الإنتهاء من إقامة القصر الجديد الذى شرع يشيده.

ولكن استشاط **بورنابورياش** الثانى، ملك **بابل**. غضبًا، عندما علم باقامة علاقات تجارية ودبلوماسية مباشرة بين بلاط كل من **آشور** و**تل العمارنة**، فقد كان ينظر إلى **الآشوريين** باعتبارهم من «*أتباعه*». ففى الخطاب الذى أرسله إلى فرعون ليطالبه بإعطائه قدر من الذهب(٥٥)، يكتب أيضًا، ليقول له:

*لم أقْدم أنا، على إرسال هؤلاء **الآشيوريين**. فهم من أتباعى. تُرى كيف حدث أن بادروا بالمجئ إلى بلدك، من تلقاء أنفسهم؟ فإذا كنت تحبنى، لا تسمح لهم بأن يعقدوا فيه، أى صفقة. فاصرفهم صفر اليدين.*

ولَمّا كان **أخناتون** حريصًا على ضمان صداقة **الآشوريين**، إلا أنه كان لا يريد، مع ذلك، قطع علاقاته مع بابل، مهما كلفه ذلك، وإذ واصل سياسته الملتوية، البعيدة كل البعد، فى واقع الأمر، عن أى فكر ثاقب أو بصيرة نافذة، فقد ارتبط مع **بابل** بعلاقات نسب جديدة: فلجأ، تفضلاً منه، إلى سلوك إستثنائى غير مألوف، عندما وهب أميرة مصرية لتقترن بأحد أبناء **بورنابورياش** الذى حضر ليقيم فى بلاطه، كما طلب من جانبه، أن يتزوج من إحدى بنات ملك بابل. ولكن وقف هذا الأخير منه، موقفًا متعجرفًا متعاليًا، فاشترط عليه توفير موكب حراسة قوىّ، ليرافق ابنته إلى مصر.

فى هذه اللحظة، عقد **بورنابورياش** العزم على القيام بتقارب، على قدم المساواة، مع **آشور**، تدعيما للسلام الذى لا غنى عنه لتأمين سلامة القوافل. ونلاحظ، إذن، تنسيقًا، فى جهود الحكومتين لردع إغارات قبائل **السوتيين** المرهوبة الجانب، وما تقوم به من سلب ونهب، فكانت عصاباتها تصيب الطرق التجارية بالشلل. وفى **سوريا**، حيث يتجمّع المغيرون، قبل أن يرتكبوا أعمال السطو، كان الموفدون والتجار، **الآشوريون والبابليون**، على حدّ سواء، يتم القبض عليهم، فى أغلب الأحوال، ويذبحون

ذبحًا. ورفع كل من آشور - أوباليت وبورنابورياش شكواهما إلى أخناتون، واتهموه بالتخاذل والخمول. كانت مصر العمارنة - قد تخلت أيضًا عن واحد من أقدم الإمتيازات التى كانت تتمتع بها، منذ عصور موغلة فى القدم، وهو القيام بدور شرطىّ الصحراء.

عندئذ عُقد قران، جَمَع بين ابن بونابورياش ووريثه، وابنة آشور - أوباليت: ومن هذا الزواج وُلد ابن. ولما كان وريث بورنابورياش، قد وافته المنية مبكرًا، تدخَّل ملك آشور فى بابل، عند وفاة بورنابوريش، لتأمين وراثة العرش للطفل الذى انجبته ابنته. هكذا خضعت حاضرة الفرات العظيمة للهيمنة الآشورية.

ومن الآن، صارت قوى ثلاث تتقاسم عالم الشرق: مصر التى أضعفها تخاذل الفرعون وخموله. والحاتى التى سرعان ما ستُنزل الهزيمة بالميتانى بشكل قاطع ونهائى وتخضعها لتبعيتها وأخيراً آشور مع بابل. هكذا تفتت الإمبراطورية المصرية، شيئًا فشيئًا وانفرط عقدها.

وفى الجنوب أيضًا، لا يبدو قيام حملات عسكرية، للإغارة سواء على النوبة أو على السودان.

وواصل أخناتون سياسة التشييد التى التزم بها أسلافه، فأقام المعابد التى أطلق عليها أيضا اسم جم آتون، على غرار المعبد الذى شيده فى الكرنك فى السنوات الأولى من عهده. فأقامها فى كوة وسيسبى، تحديداً. وعلى أرض هذا الموقع الأخير، الذى يبعد ٢٧٠كم إلى الجنوب من وادى حلفا وإلى الشمال قليلاً، من الجندل الثالث، شيد أخناتون أيضًا، مدينة محصنة بجبّانتها. إن أعمال التنقيب التى تمت بمعرفة الجمعية البريطانية لأعمال التنقيب فى مصر Egypt Exploration Society، قد سمحت بإعادة تصميم المبنى المقدس الذى ما زالت ثلاثة من أساطينه، واقفة فى مكانها.

وانطلاقًا من الأطلال المبعثرة على الأرض، يمكن للمرء أن يتصور أنه بعد عبور الصرح، يصل إلى فناء يكتنفه، من الناحية الشرقية على الأقل، رواق يستند سقفه

على أربعة أساطين، ويفضي الفناء إلى مساحة مربعة، كانت مخصصة على ما يعتقد، لقدس الأقداس الذى كان غير مسقوف، بلا شك.

وعلى غرار كافة المدن القائمة فى أراضى الجنوب، كان يحمى مدينة **سيسبى** سور شاسع من الطوب، بأبراج بارزة مربعة. كان سُمك السور ٤٦٠سم وطوله ٢٧٠متراً وعرضه ٢٠٠متر. كان تخطيطها على هيئة مربعات، يخترقها شارعان رئيسيان، يتقاطعان بزاوية قائمة، ليكوّنا أربعة أحياء.

إن **أخناتون** المجدد المبدع فى مجال الفن، عاش حلمًا روحيًا، كان النهاية الطبيعية لسلسلة طويلة من التطور، فأهمل شئون السياسة الخارجية، إهمالاً تامًا أو عالجها برعونة. كان شخصًا مثاليًا، عنيفا وغير متسامح، عاش بعيداً عن حقائق زمنه والمصالح الجوهرية لإمبراطورية مصر.

٥- العودة إلى طيبة بعد الوفاة

فى عام ١٩١٠، بنيما كان **تيودور ديفيز** **Theodore M.Davis** نصير علم المصريات وراعيه، يقوم بأعمال التنقيب فى المقبرة رقم ٥٥ من مقابر **وادى الملوك**، توصل إلى أن هذه المقبرة كانت تخص الملكة **تيى**، بالنظر إلى تكرار ذكر اسم الملكة، فى سياق المدونات[٥٦]. ولكن تبدد هذا الوهم، عندما قام **إليوت سميث** **Elliot Smith** بفحص المومياء المسجاة داخل التابوت، ليكتشف أنها لرجل[٥٧]. عندئذ، اقتنع هو **وفيجال** **Weigall**، بأن المومياء تخص **أخناتون**، إستناداً إلى أن الأشرطة الذهبية التى كانت تحيط بالجسد، تحمل اسم ملك **العمارنة**. ودحض **ديرى** **Derry** هذه الفرضية[٥٨]. إذ لاحظ، عند فحص رأس المومياء، أنه عريض الرأس **platycéphale** مثل رأس **توت عنخ آمون**، واستنتج من هذه الملاحظة أن المومياء هى مومياء **سمنخ كارع**، أخو هذا الأخير، وخليفة **أمنحوتپ** الرابع: ولكن غياب مدونة تحمل اسمه، بدا أمراً غريباً.

إن فرضية، تقدم بها سير آلان جاردينر[٥٩] Sir Alan Gardiner تبدو، الأقرب إلى الصواب. فعند وفاة **أخناتون**، بعد حكم دام تسع عشرة سنة، فى ظروف نجهلها، كانت تجربة «**مدينة - الشمس**» قد باءت بالفشل. كان أعداء الملك، يقودهم أهل **طيبة** وعلى رأسهم المؤمنين بالإله **آمون**، كثيرين ويسعون إلى الأخذ بالثأر والإنتقام. ومن ثم، استحال دفنه فى المقبرة التى كان قد أعدها لنفسه، فى **تل العمارنة**. فدمَّرت التوابيت والمتاع الجنائزى. ولم يَشَأ أصدقاؤه أن يتركوا جسده دون دفنه. ولا شك، أنهم وضعوا مومياء الملك فى تابوت حجرى قاموا بترميمه، وهكذا استطاعوا أن ينقلوا سرًا الرفات الملكية إلى **طيبة**، بعد أن سُجِّيت فى تابوت، معدّ للملكة **تيى**، عثروا عليه. ثم دفنوه فى مقبرة شاغرة فى **وادى الملوك**. وتفسّر هذه الفرضية الكثير من الوقائع.

إن **طيبة**، وهى المدينة التى هجرها **أمنحوتپ** الرابع، أصبحت مأواه الأخير ومرقده بعد وفاته. هكذا لحق بأسلافه وأجداده وانضمّ إليهم.

وبالتدريج أُهملت **تل العمارنة**. وربما بقيت فيها **نفرتيتى** أيضًا بمفردها، لفترة قصيرة، فى المقر الرسمى المسمى «**قصر آتون**»، الواقع شمال المدينة.

الفصل التاسع

وهن الملوك وضعفهم

عند وفاة **أمنحوتپ** الرابع، حول عام ١٣٥٤، على وجه التقريب، تربّع **سمنخ كارع** على عرش مصر.

وما نعرفه عن سنوات حكم هذا الملك، القصيرة للغاية، شيئًا لا يذكر. تُرى من هو إذن؟ ساد الإعتقاد لفترة طويلة، أنه كان زوج أول بنات **أخناتون**، إذ تزوج **مريت آتون**، كبرى الأميرات. ومن ثم لم تكن تجرى فى عروقه دماء ملكية.

إن فرضيات جديدة تنظر إليه الآن باعتباره، أحد أبناء **أمنحوتپ الثالث** الذى انجبه فى فترة متأخرة من حياته، أو ابنًا للملك **أخناتون**، رزق به من إحدى محظياته، أو أيضًا أحد أبناء **آى**[1]، من كبراء **العمارنة**، والذى كان على ما يعتقد والد **نفرتيتى**. يفترض كل ذلك، وجود علاقات عائلية بالغة التعقيد، يصعب علينا، فى الوقت الراهن، استجلاءها، بكل وضوح، على أرض الواقع. واستناداً إلى مختلف الفرضيات هذه، ربما كان من الصواب القول بأن **سمنخ كارع**، كان أخا **توت عنخ أمون**، البكر.

ويبدو بوضوح أن **أخناتون** كان ميّالاً إليه، ويكنّ له إهتمامًا خاصًا وجعله قرب نهاية حياته، شريكًا فى العرش. بل وربما أوفد الزوجين الشابين إلى **طيبة** للتفاوض مع كهنة **أمون**، للتوفيق بين الطرفين وإزالة ما بينهما من خلاف. وعند وفاة، **أخناتون** إختار كهنة **طيبة** المشارك الشاب فى الحكم، ملكًا على البلاد، فى حين يبدو أن **نفرتيتى** وزمرتها من التابعين المخلصين، قد نصّبوا **توت عنخ آتون**، ملكًا فى **تل العمارنة**. وبالفعل، فقد عثر فى موقع «**قصر آتون**»، على عدد من القطع الأثرية تحمل أسماء **توت عنخ آتون** وزوجته، الأميرة **عنخ إس إن پا آتون**[2]، ثالث بنات **أخناتون**.

ولمدة ثلاث سنوات، على ما يبدو، ظل **توت عنخ آتون** يقيم فى **العمارنة** التى غادرها على ما يظن عند وفاة **سمنخ كارع** لينتقل إلى **طيبة**، بعد أن استنكر علنًا إيمانه بالإله **آتون**. إن خاتمين عثر عليهما فى **العمارنة**، كانا يحملان منذ ذلك الحين، اسم **توت عنخ آمون**، أى «*صورة آمون الحية*» وليس **آتون**. ومن الآن سوف تسمّى زوجته **عنخ إس إن پا آمون**.

١- توت عنخ آمون وعودة الآلهة

كانت صدمة سنوات العمارنة عنيفة، فهزت مصر هزًا شديداً. ولكن الآلهة عادت، والمعابد والإزدهار استردت حيوتها ونشاطها.

لقد تعددت الفرضيات حول أصل توت عنخ آمون ومنبته، ويُنظر بالفعل إلى بعضها باعتبارها الأقرب إلى الصواب[٣].

ولكن الأمر المؤكد، أن توت عنخ آمون كان عمره تسع عشرة سنة، عندما وافته المنية، بعد أن حكم مصر تسع سنوات. كما تم الكشف عن مقبرته سالمة(*)، عام ١٩٢٢، بمعرفة هوارد كارتر Howard Carter الذى كان يعمل لحساب لورد كارنارفون Lord Carnarvon. ففى دياجير ماضى التاريخ. يسعد المرء أحيانًا، عندما يتشبث بوقائع محققة.

وتشهد قائمة ألقاب الملك الصبى على استعادة الدين الرشيد القويم لمكانته السابقة:

حورس: الثور القوى، ذو النهضات الجميلة.

السيدتان: هذا الذى (تبلغ) قوانينه (حد) الكمال ويهدئ القطرين.

حورس الذهبى: هذا الذى تُزهر تجلياته من جديد ويُرضى الآلهة.

ملك مصر العليا ومصر السفلى: رع هو رب الصيرورات (نب خپرو رع).

ابن رع: توت عنخ آمون، أمير هرمونتيس(**).

ومن جديد، احتفلت الأقصر بالعيد الكبير وسط فرح وتهليل الجموع:

إنك تتألق رويداً رويداً، أيا آمون – رع، فى حين تستريح فى مركبك المقدس. الأرض وجموع البشر يهللون لك، والبلاد قاطبة فى عيد. إن ابنك البكر، هذا الذى فتح جسدك، يصطحبك إلى الأقصر. إنك تعطيه مُلكًا أبديًا وسنوات لا نهاية لها. إنك تحميه بواسطة الحياة والثبات والقوة. إنك تساعده على الظهور متألقًا كأمير الحبور

(*) أو شبه سالمة، كما سيتضح من سياق هذا الفصل. (المترجم)

(**) حقا إيون شمع: بالمصرية القديمة. (المترجم)

والفرح. إنك تكافئه بمنحه ملايين السنين وأعياد يوبيلية بمئات الآلاف... إنه ابنك، إنه محبوبك... أما هو، فقد صنع لك تمثالاً وأدخل الفرح والتهليل إلى معبدك، كعادة من أتوا من قبله. إنك تعيد، من أجله، الإخضرار إلى بسالتك، في مواجهة الجنوب، والقوة في مواجهة الشمال (نلاحظ منذ ذلك الزمن ظهور صياغات سوف تسود في عصر الرعامسة). *إنك تكشف النقاب لصالحه، عن الأسرار... على جميع الدروب. إنك تجعل مدة حياته أشبه بمدة السماء ويسطع فيها كما يسطع القرص (آتون)....*

إن فرقة البحارة الذين يسحبون حبل قيدام المركب المقدس يقولون صائحين: «أيا آمون المتألق في مركبه، مثل رع في السماء، الأرض قاطبة تجتمع لتحيتك عند رؤية... على صفحة النهر. والبلد فرح، من أقصاه إلى أدناه، عندما تُدخل السرور إلى الحريم المقدس، مكانك عند المرة الأولى»(٤).

إن جماهير الشعب الفرحة المهللة، تستقبل عودة الآلهة وتجدد الأعياد التقليدية. وتستعيد طيبة مكانتها بصفتها العاصمة السياسية والمدينة المقدسة.

في البداية، سوف يودّ **توت عنخ آمون** أو مستشاروه إصلاح ما ألحقه سلفه من دمار، بالمباني المقدسة، فضلاً عن إعادة الشعائر الدينية إلى سابق عهدها. إن لوحًا حجريًا كبيرًا يعود تاريخه، إلى العام الرابع من عهده، عثر عليه في معبد **الكرنك**، يقف شاهدًا على هذا الإهتمام:

اليوم التاسع عشر، من الشهر الرابع، من فصل الفيضان، من العام الرابع، من عهد صاحب الجلالة...

(تلي قائمة ألقاب توت عنخ آمون)

...محبوب آمون – رع، رب عروش القطرين وسيّد **الكرنك** *و(محبوب) آتوم، الهليوبوليتاني*(*) *وسيد الأرضين و(محبوب) رع – حور أختي و(محبوب) بتاح – الذي – يوجد – جنوب – جداره، سيد حياة الأرضين و(محبوب) تحوت، صاحب الكلمات الإلهية – هذا الذي* (توت عنخ آمون) *يتجلى متألقًا على عرش حورس الأحياء، مثل أبيه رع – على مدار الأيام – إنه الإله الكامل، ابن آمون، صورة ثور –*

(*) نسبة إلى هليوبوليس. (المترجم)

أمه، النطفة المتألقة، البيضة المقدسة التى انجبها أمون ذاته، أبو القطرين، الذى يَفطُر من فطره وينجب من أنجبه، فمن أجله تجتمع با وات[٥] هليوپوليس، ليولد لاتمام مُلك يغالب الأيام، إنه حورس، له الدوام، للزمن اللانهائى، الأمير الكامل الذى ينجز أفعالاً خيِّرة لأبيه وللآلهة جمعاء. إنه يرمم ما كان قد تهدّم ليحوّله إلى مبنىً، للزمن الأبدى، إنه يدحر الشر فى ربوع القطرين، لتستقر محله الحقيقة – العدالة، استقرارًا راسخًا، كما جعل الكذب ملعونًا، إذ أصبحت البلاد (من جديد) كما كانت عند المرة الأولى.

يحرك هذا النص فى النفس مشاعر، تصاحب استرجاع الإيمان فى إطار من الفرح والحبور. وينجح، من خلال فيض وفير من الكلمات، فى مزج أسماء جميع الآلهة بعد أن استعادت مكانتها. هكذا استرد الإنسان حرية تصور وإختيار شكل الله، – نتر – الأقرب إلى عقله وإلى قلبه.

عندما ظهر صاحب الجلالة بصفته ملكًا، كانت معابد الآلهة والآلهات، بدءًا من إلفنتين وحتى مستنقعات الدلتا ... قد تهدمت وصارت خرابًا. واكتسح الدمار المقاصير وصارت أماكن مُقفرة تنمو فيها الأعشاب. أصبحت الأقسام المخصصة لقدس الأقداس، كأنها لم توجد أبدًا. (وما كان فى الماضى) حوائطها، أصبح (الآن) دربًا تدوسه الأقدام. كانت البلاد فى بؤس وشقاء، لأن الآلهة هجرتها. فإذا أُرسل جيش إلى فينقيا لتوسيع حدود مصر، لا يحقق أى نجاح. وإذا تضرع أحدهم إلى إله طالبًا شيئًا ما، فلا يستجاب لطلبه، بأى حال من الأحوال. وإذ تضرع أحدهم على النحو ذاته إلى إلهة، فلا يستجاب لطلبه بأى حال من الأحوال. كانت قلوبهم وأجسادهم، فى حزن شديد، وتلحق الضرر بكل ما سبق إبداعه.

وبعد أن انقضت أيام على ذلك، ظهر صاحب الجلالة متألقًا على عرش أبيه، ليحكم مناطق حورس، بعد أن أصبحت مصر و الصحراء(*) خاضعتين لسلطانه. وتقدمت البلاد بأكملها منحنية بسبب قوته.

(*) حرفيًا السوداء والحمراء. (المؤلفة)

وذات يــوم، كــان صــاحب الجــلالــة فى قـصـره، القـائـم ضـمـن أمــلاك عــا خپر كا رع(*)، مثل رع فى السماء. كان صاحب الجلالة مشغولاً بشئون البلاد وتصريف الأعمال اليومية لحكومة الشاطئين. وتشاور عندئذ (مع نفسه)، ملتمسًا النصح من قلبه، ساعيًا إلى تحقيق بعض الأعمال الخيِّرة، مهتمًا بما قد يكون مفيدًا لأبيه أمون، فنحت (على سبيل المثال) صورته المقدسة من الذهب الخالص، (بغية) أن يفعل أكثر مما أنجز من قبل.

وشكَّل إذن (تمثالاً) لأبيه أمون، محمولاً على ثلاثة عشر وتدًا. كان صورة رائعة صنعت من الذهب الخالص واللازورد والفيروز ومختلف أنواع الأحجار الكريمة. وفى السابق، كان جلالة هذا الإله المقدس محمولاً على أحد عشر وتدًا. كما شكَّل (تمثالين للإله) پتاح - الذى - يوجد - جنوب - جداره، سيد حياة الأرضين: كانت صورة مقدسة صنعت من الذهب الخالص (محمولة) على أحد عشر وتدًا، صورة رائعة صنعت من الذهب الخالص واللازورد والفيروز ومختلف أنواع الأحجار الكريمة. وفى السابق، كان جلالة هذا الإله محمولاً على سبعة أوتاد.

كما صنع صاحب الجلالة قطعًا رائعة للآلهة (الأخرى)، فشكل تماثيلها من الذهب الخالص ومن أفضل ما جادت به الصحارى، فرمَّم معابدها للزمن الأبدى، ووفَّر لها الخيرات للزمن اللانهائى. وحدَّد لها قرابين يومية، ووفَّر لها على الأرض (مؤونتها) من الخبز. وما فعله تجاوز من بعيد ما سبق أن صنع، منذ زمن الأجداد.

ونصَّب الكهنة أصحاب الأيدى الطاهرة وخدَّام الإله، (وتم اختيارهم) من بين أولاد كبراء كل مدينة من المدن. كانوا أبناء رجال مشهود لهم بالعلم أو من الأسماء المعروفة.

وأكثر من موائد القرابين المصنوعة من الذهب والفضة والبرونز والنحاس، بغزارتها التى لا حدود لها. وملأ المخازن بالخدم والخادمات الذين جادت بهم ضرائب الجزية التى تخص المغانم الملكية. وزاد من مخزون المعابد، إلى الضعفين أو الثلاثة أو

(*) أملاك تحوتمس الأول، فى منف. (المؤلفة)

الأربعة أضعاف: وكان يضم الفضة والذهب واللازورد والفيروز والأحجار الكريمة من مختلف الأنواع والكتّان الملكى والثياب البيضاء والكتّان من أرق الأصناف والزيت والراتنج والأدهان... والبخور والمر. كانت جميع هذه الأشياء الجميلة والطيبة بأعداد لا نهاية لها. كما نجّر صاحب الجلالة مراكب الآلهة، لتنساب على صفحة النهر، وصنعها من خشب الأرز الناضر، من أفضل الأنواع الواردة من مرافئ المشرق، وأحسن ما جادت به نجاو(*). وغُشّى (هذا الخشب) بأفضل أنواع ذهب الصحراء. فكانت (المراكب) تضئ النهر.

كما خصص صاحب الجلالة خدمًا وخادمات ومنشدات وراقصات ليلتحقوا بالقصر الملكى. وسوف تدفع مرتباتهم خصمًا من حسابات القصر، من خزينة رب القطرين. سوف أعمل أنا على حمايتهم والمحافظة عليم من أجل أبائى، جميع الآلهة، إرضاءً لها ولانجاز ما يبتغيه كاؤها على الدوام وتقوم بالتالى على حماية البلد المحبوب.

عندئذ تسعد قلوب الآلهة والآلهات المقيمة فى هذا البلد. وأصحاب المقاصير يهللون فرحًا. والشاطئان يصيحان ويبتهجان. إن فرحًا صاخبًا كان ينتشر فى ربوع البلاد، إذ أصبح وضع البلاد فجأة وضعًا يبعث على السرور. وكانت سواعد آلهة التاسوع فى معبدها(**)، تُكثر من المدائح والتهليل بينما امتلأت أيديها بالأعياد اليوبيلية، للزمن الأبدى وللزمن اللانهائى. إن الحياة كلها والقوة كلها، اللتين كانتا لديها، هما من أجل أنف الملك، الحورس الابن المحبوب، الذى كان قد ولد من جديد، من أبيه آمون – رع، ملك الآلهة الذى أتى به إلى الدنيا، كى يولد أيضًا من جديد.

• ملك مصر العليا ومصر السفلى [نب خپرو رع]، الذى يحبه آمون، وابنه البكر بكل معنى الكلمة، ومحبوبه، وحامى أبيه الذى أنجبه. إن مُلكه هو مُلك أبيه أوزيريس.

• ابن رع [توت عنخ آمون، أمير هرمونتيس]، الابن المفعم بالخير من أجل من

(*) موقع إلى الجنوب من بيبلوس. (المؤلفة)

(**) هليوپوليس. (المؤلفة)

أنجبه، إنه صاحب العمائر العديدة، والروائع المتعددة، الذى شيد المعالم الأثرية من أجل أبيه آمون، وفقًا لاستقامة قلبه، (الملك) صاحب النهضات الجميلة، العاهل الملكى الذى يعيد تشكيل مصر.

كانوا، فى ذلك اليوم، فى القصر الجميل، الواقع فى أملاك عا خپر كا رع(*)، الصادق القول. كان صاحب الجلالة فتًى فى مقتبل العمر، وفاتحًا مغوارًا، لا يعير جسده أى إهتمام. كان خنوم قد سوّاه. إن ساعده قدير وقوته عظيمة، تفوق قوة الباسل الصنديد. وشجاعته الجسورة مثل شجاعة ابن نوت. وساعده قدير مثل ساعد حورس. فلا نظير له بين صناديد جميع البلدان مجتمعة. كان عالمًا مثل رع، حرَفيًا (ماهراً) مثل پتاح، حكيمًا مثل تحوت، فيرسى الأسس والقواعد. كانت أوامره ذات تأثير موات... وكلماته بارعة...

• ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب القطرين، سيد إقامة الشعائر، رب البسالة [نب خپرو رع]، الذى يعيد السلام إلى البلاد.

• ابن رع الذى من صلبه، محبوبه وسيد كل بلد من البلدان الأجنبية، رب التجليات المتألقة [توت عنخ آمون، أمير هرمونتيس]، الموفور الحياة والثبات والقوة، مثل رع للزمن اللانهائى وللزمن الأبدى(٦).

بادئ ذى بدء، يعتبر هذا النص شاهداً على تحرر روحانى. ولا يخامرنا أدنى شك، أن البعض قد أوحى به إلى الملك – الطفل، ابن الثلاث عشرة سنة. إنهم أهل طيبة بطبيعة الحال، ولكنهم ليسوا وحدهم. ولا شك، أن تحرير النص، قد تم فى منف، وليس فى طيبة.

ويبدو أن الإكراه وأساليب العنف التى عانت منها البلاد على امتداد أربع عشرة سنة، قد جعلت العبادات القديمة وكلها دون تمييز، تشدّ إليها، أكثر فأكثر، من ظلوا على إيمانهم بها، لتصبح أكثر جاذبية فى نظرهم. وبطبيعة الحال، بقيت طيبة

(*) من ألقاب تحوتمس الأول. (المترجم)

ومنف وهليوبوليس، كبرى الأماكن المقدسة. ولكن قراءة هذا النص، تترك إنطباعاً، بأن النظام الملكى اضطر أيضًا أن يطمئن رجال الدين الآخرين ويقدم لهم كافة الضمانات. فكل عبادة محلية، بعد أن وفّر لها العاهل الملكى، كل الخيرات وكل الثروات، انصهرت فى نزعة تلفيقية syncrétisme شاملة، تدور حول شخص الملك لتضمن له من جديد، القوة والإستمرارية، مقابل المنافع والإنعامات التى مَنّ بها عليها. إن رد الفعل ضد التشدد والتعصب فضلاً عن العودة إلى المعتقدات التى تعود إلى آلاف السنين، اتخذت منحىً وجدانيًا حماسيًا.

إن الإسهاب اللفظى الذى ستتميز به مدونات الرعامسة، ربما تعود أصوله إلى عصر «ما بعد العمارنة». وعلى كل حال فإن مفردات لغة الفقرة الأخيرة، من هذا النص وصوره، تذكرنا بإلحاح بالترانيم التى نُظمت من أجل الرعامسة.

هكذا استعاد رجال الدين اختصاصاتهم. ولكننا نفتقر إلى الوثائق التى تعرفنا بتشكيلاتهم. بل إننا نجهل اسم كبير كهنة آمون.

هكذا عادت مصر «تتدفق من جديد كالنهر فى مجراه». وفى شتى المجالات، أُستؤنفت الروابط مع التقاليد الموروثة، ولا سيما تلك التى تؤكد استحالة قهر الملك فى مواجهة الأعداء والحيوانات المتوحشة، على حدً سواء.

كما لا يبدو أن الصبى توت عنخ آمون قد قاد حملات عسكرية، بالرغم من هذه المدونة المسجلة على كتلة حجرية جاءت من الكرنك، وتصور أسرى نوبيين وجنود مصريين:

إن زعماءهم يتساقطون بسبب المذبحة التى أنزلها بهم، بعد أن تعدّوا على حدود صاحب الجلالة(٧).

ولا يخامرنا أدنى شك، أن هذه الجملة لا تروى حدثًا حقيقيًا، ولكنها تصوغ مجموعة كلمات ذات فاعلية سحرية.

وإذ سار الملك – الشاب على هدى التحامسة، فقد صوّر نفسه صيّادًا بارعًا، يقتنص الأسود والثيران البرية(٨).

فعلى صندوق كبير جادت به مقبرة العاهل الملكى(*)، فإن الربط بين الأعداء والحيوانات الشرسة، يلتزم بتوازٍ واضح كل الوضوح.

وقد دوّنت في وسط الغطاء، قائمة بألقاب الملك. وصُوّر صيد الأسود، على اليسار:

الإله الكامل، ذو القوة المقتدرة، العاهل الملكى الذى يتم الإتحاد معه، الذى يصارع الأسود، فعزيمته وهمته، هما عزيمة وهمة، ابن نوت.

وعلى اليمين، صُوّر صيد حيوانات الصحارى:

الإله الكامل، ربوة الذهب، الذى يثير البلاد بألوهيته، الذى يتجلّى متألقًا على مركبته مثل رع عند شروقه. لقد أمسك بسهام أبيه رع، بعد أن لاحظ وجود جمع من حيوانات الصحراء. عندئذ روّضها صاحب الجلالة فى لحظة قصيرة.

وعلى أحد جانبى الصندوق، نشاهد على اليسار مذبحة الزنوج:

الإله الكامل، صورة رع، المتجلى متألقًا فوق البلدان الأجنبية، مثل رع عند شروقه، ذابحًا كوش، هذا البلد الخسيس وموجهًا سهامه نحو أعدائه.

وعلى اليمين، نشاهد مذبحة الآسيويين:

الإله الكامل، ابن آمون، البطل الذى لا مثيل له، رب القدرة، الذى يسحق مئات الآلاف، فيقعون من طولهم(**).

وعلى الجانبين الأمامى والخلفى من الصندوق، صُوّر توت عنخ آمون فى هيئة أبو الهول وهو يدوس أجساد النوبيين والأجانب[٩].

تلك المشاهد التى تتطابق وتتقابل، وفقًا لمنظومة من التوازن، تعتبر سمة مصرية خالصة. إن المواضيع القديمة والصور الجديدة تتداخل. وبالفعل، فبعض

(*) يمكن مشاهدته فى الرواق رقم ٤٠، من الطابق العلوى من المتحف المصرى. (المترجم)

(**) كما نقول فى العامية المصرية. (المترجم)

النعوت التى تطلق هنا على الملك، سوف نلتقى بها، فى كثير من الأحوال، عند الرعامسة.

إن عهد توت عنخ آمون عهد انتقالى، عند نهاية إمبراطورية التحامسة، وقبل إمبراطورية الرعامسة، على وجه التحديد، التى استشعرها حور إم حب ومهّد لها.

ومن شخصيات عصر توت عنخ آمون، التى نعرفها أكثر من غيرها، نذكر حوى نائب الملك فى النوبة، الذى يشار إليه أحيانًا أيضًا، باسم أمنحوتپ المدعو حوى، وإن كانت هذه التسمية نادرة نسبيًا. وقد خلف حوى على ما يبدو مباشرة تحوتمس الذى شغل هذا المنصب إبان عهد أخناتون.

كان حوى يحمل الألقاب الآتية:

الابن الملكى فى كوش، رئيس بلاد الجنوب، حامل المروحة على يمين الملك، المشرف العام على قطعان آمون فى بلاد كوش، المشرف العام على صحارى ذهب آمون، صنديد صاحب الجلالة فى سلاح المركبات.

ومن واقع مدونات مقبرته رقم ٤٠ فى قرنة مرعى بغرب طيبة، كان أيضًا: «*أبًا إلهيًا*». وربما يرتبط هذا اللقب بنشاطه فى معبد بلدة فارس الواقعة فى السودان إلى الجنوب قليلاً من وادى حلفا.

وقد طلب أن يُصوّر فى مقبرته، الإحتفال بتنصيبه فى حضرة توت عنخ آمون وسفره على متن مركبه، إلى منطقة عمله الجديد، بعد أن رافقته والدته حتى رصيف المرسى، وقد صورت بشعرها الأبيض. وفى فارس كان الرسميون فى استقباله. ومع إضطلاعه بواجبات منصبه، نقل إلى العاهل الملكى مواد الجزية التى جباها من أراضى الجنوب. إنه موكب طويل، على قدر كبير من الطرافة والجاذبية، بسبب ميله إلى الواقعية، الموروثة على ما يعتقد من عصر العمارنة.

إن زعماء النوبة، بملامحهم شبه الزنجيه الواضحة كل الوضوح، قد حضروا بأشخاصهم، واضعين الريش على رؤوسهم والأقراط الذهبية العريضة فى آذانهم. إن

أميرة على متن مركبة، يجرها ثوران مرقطان باللونين الأسود والأصهب، تسير خلف الموكب[١٠]. كما ترافق الموكب، نساء من أبناء البلد ومعهن أولادهن. وجئ بكميات ضخمة من الذهب في هيئة حلقات وأشياء مصنوعة من الذهب، بالإضافة إلى زرافة مربوطة في حبل يمسك به حارسان. إن أربع أبقار سمينة، من النوع المطلوب في مصر، كانت تسير بخطى متثاقلة. كما أن أمراء **كوش** حاضرون وخطابهم إلى العاهل الملكي الذي يقولون عنه أنه «*ملك مصر وشمس **الأقواس التسعة***»[١١]، كانت صياغته، منذ ذلك الزمن، ذات نبرة سوف تسود في عصر **الرعامسة**.

واستناداً إلى تصاوير مقبرته، فإن **حوى** أيضاً، هو الذي ينقل إلى الملك، جزية بلدان آسيا.

وإذا تركنا جانباً، المشاهد الفولكلورية التي تشهد على استمرار الإمبراطورية في حدود معينة، وإن أصابها قدر كبير من الضعف وكان وجودها غير مؤكد في الشمال، فالنصوص المنحوتة في مسكن الأبدية الذي يخصّ **حوى**، تؤكد على استعادة أفكار تقليدية. ونذكر في هذا المقام الترنيمة إلى **أوزيريس**، المحركة للمشاعر:

*الابن الملكي في **كوش**، رئيس بلدان الجنوب، **حوى** الصادق القول، إنه يتحدث قائلاً: «التحية لك، أيها (الإله) العظيم، رب التجليات المتألقة، صاحب الألقاب المهيبة والريش العالي ومالك التاج(*) **آتف**[١٢]، **الإله الأوحد المتفرد**، الذي أتى بذات نفسه إلى الوجود، الذي يثير الخوف في كافة البلدان. إني قادم إلى جوارَكَ لمشاهدة وجهك وتأمل جمالك. لقد بلغت (الآن) مرتبة المبجل السعيدة، بفضل ما أنعم به عليّ، الإله الكامل. لقد أصابني الشُياخ وتقدمت بي السن. (فيما مضى) كان ساعداي شديدي القوة، عند إدارة شئون البلاد من أجل الملك. لم أتفوّه (أبداً) بالأكاذيب ولم أرتكب شراً ... ولا يمكن أن ينسب إليّ، فعل شرير، ولم يوجد خطأ ارتكبته. فالذي يمتدحك سيكون مرتاح القلب فأنا (دائما) من يهدئ المشاحنات. ولذلك، امنحني طريقًا عظيمًا*

(*) لمزيد من التفاصيل حول مختلف التيجان، راجع: إيزابيل فرانكو. معجم الأساطير المصرية. ترجمة ماهر جويجاتي. دار المستقبل العربي. ٢٠٠١، ص٨٠ و٨٥-٨٩. (المترجم)

في الجبانة، أتح لي إمكانية الخروج والدخول من رو - ستا و[13]*، فيمكنني أن أرتوي عند شطآن النهر وأن أشبع».*

من أجل كا الابن الملكي في كوش، حوي، الصادق القول[14].

كان **حوي** بنّاءً عظيمًا. فشيّد معبد **فارس** من أجل كا الملك **توت عنخ آمون**. وقد عُرف هذا الأثر تحت اسم «*هذا الذي يُرضي الآلهة* و**نب خپرو رع**». كانت زوجة **حوي** تشغل فيه منصب «رئيسة حريم **نب خپرو رع**».

كما شيّد معبدًا في **نپاتا** مكرسًا للإله **آمون - رع**، فكان الوكالة الأكثر تطرفًا، ناحية الجنوب، منذ عهد **تحوتمس** الأول، وعند مستوى الجندل الرابع، في قلب **السودان**، عند سفح **جبل بركل**. وإلى الجنوب الشرقي منه، أقيم المعبد. كان ارتفاع جبل بركل - ومعناه «*الجبل المقدس*» - مئة متر فقط، فوق السهل، وعلى مسافة ثلاثة كيلومترات من البر الأيمن **للنيل**. ولما كان معزولاً، كان يشرف على المنظر الطبيعي للمنطقة، واكتسب منذ وقت مبكر جدًا، توقيرًا وتبجيلاً متميزين. والمعبد الذي شيده **حوي**، تولّى إثنان من ملوك الأسرة التاسعة عشرة، وهما **سيتي** الأول **ورعمسيس** الثاني بتوسيعه. وقام الملكان السودانيان **پي عنخي** **وطهرقا**، من الأسرة الخامسة والعشرين، بادخال تعديلات جوهرية عليه.

٢- كنز وادي الملوك

كان البحث عن مقبرة **توت عنخ آمون**، يجري على قدم وساق. وأثناء قيام **ديڤيز** **Davis**، بأعمال التنقيب في **وادي الملوك**، فيما بين ١٩٠٢ و ١٩٠٩، عثر على بعض القطع التي تحمل اسم الملك الشاب، كما استطاع الكشف عن ست عشرة مقبرة، لم تكن من بينها مقبرة هذا العاهل الملكي.

كان **هوارد كارتر** **Howard Carter**، بفضل المساعدة السخية التي قدمها له **لورد كارنارڤون** **Lord Carnarvon**، قد حاول على امتداد ستة مواسم متواصلة الكشف عن هذه المقبرة. إنه يروي شخصيًا تجربته المثيرة[15]، فيقول: «*لم نكن قد*

وجدنا شيئًا. والمنقّب وحده يدرك إلى أى مدى يصبح هذا الفشل مثبطًا للهمم. كنّا قاب قوسين والإعتراف بهزيمتنا، وبدأنا نتأهب لمغادرة الوادى والبحث عن فرص مواتية فى مكان آخر. وما أن غرسنا معولنا، فى محاولة أخيرة، حتى حققنا كشفًا يتجاوز من بعيد أكثر أحلامنا إفراطًا فى التفاؤل».

فى الرابع من شهر نوفمبر ١٩٢٢، عندما وصل كارتر إلى موقع العمل، أُستقبل فى جو من الصمت، كان له وقع فى النفوس. كان العاملون قد كشفوا عن درجة سلم، منحوتة فى الصخر، كبداية لمغامرة بالغة الأهمية: «*كان الأمر أكثر من رائع، حتى يصدقه المرء. ولكن مع مواصلة التنظيف، اتضح بالفعل أننا أمام مدخل سلّم*». واصلنا العمل بحرارة محمومة حتى اليوم التالى، وتم إزالة الرديم والرمال من خمس عشرة درجة أخرى. كان السلّم الذى يبلغ ١٦٠سم عرضًا، وأربعة أمتار طولاً، يفضى إلى باب مستطيل، وضعت عليه أختام، وله ساكف من خشب. «*وبحماس شديد، فحصت الأختام، على أمل التعرف على اسم صاحب المقبرة، ولكننى لم أعثر على أى اسم*». كانت الأختام تحمل الصور المألوفة لأختام الجبانة الملكية: أى الإله **أنوبيس** ومن تحته **الأقواس التسعة**. ثم أحدث كارتر فتحة صغيرة فى الباب، ليتمكن من إدخال بطارية، وعندئذ لاحظ وجود ممر خلف الباب، مملوء بالأحجار والأنقاض، الغرض منها إعاقة أى محاولة لدخول المقبرة. وفى الوقت نفسه، لاحظ أنها لم تنجح، بلا شك، فى الحيلولة دون دخول البعض: فقد بقيت آثار فتحتين، أعيد تغطيتهما بالجص، وما زالت مرئية، الأمر الذى يبرهن على أن البعض قد دخل إلى المقبرة بعد وضع الأختام. «*كانت لحظة محركة للمشاعر بالنسبة للمنقِّب... فهناك ثمة شىء موجود، بكل تأكيد، خلف هذا الممر، واحتجت إلى كل رباطة جأشى حتى لا أندفع وأحطم الباب وأبحث عما وراءه*».

وفى السادس من نوفمبر، وبدافع من الوفاء تجاه **لورد كارنارفون Lord Carnarvon**، أرسل إليه **كارتر** برقية يدعوه فيها إلى الحضور. وجاءه الرد على الفور «*سوف أصل الإسكندرية فى اليوم العشرين*». وفى انتظار وصوله نظّف **كارتر** السلالم وأمام الباب. وفى الجانب السفلى، حالفه الحظ، عندما عثر على أختام تحمل اسم **توت عنخ أمون**.

وبعد أن صُوِّرت، فُضَّت الأختام يوم ٢٥ نوفمبر وهُدم الباب. وتم إخلاء الممر من الأحجار والرديم التي وضعت على امتداد ٧٦٠سم. ومن الشواهد الأخرى، على أن البعض كان قد دخل سراً إلى المقبرة، وجود نفق ضيق جداً، كان قد حفر ليُملأ بعد ذلك، ببقايا أحجار سوداء. وينتهي الممر عند باب ثانٍ.

«كان اليوم التالى (٢٦ نوفمبر) يومًا مشهودًا، لم أعرف من قبل أروع منه، ولا أتوقع مثله ما حييت. وطوال صدر النهار، تواصلت أعمال التنظيف، كانت بطيئة بالضرورة، بسبب وجود بعض القطع الهشة وسط الرديم. ومع انتصاف فترة بعد الدهر، وعلى عمق ثلاثين قدمًا أسفل الباب الخارجي، وجدنا أنفسنا أمام باب ثانٍ وضعت عليه الأختام وكان مماثلاً، على وجه التقريب، للباب الأول. كانت بصمات الأختام، في هذه المرة، أقل وضوحًا، ومع ذلك، كان من السهل التعرف على أختام توت عنخ آمون والجبانة الملكية. هنا أيضًا، كانت آثار وجود فتحة وسدها واضحة على الجص. حتى هذه اللحظة، كنّا على يقين، أننا اكتشفنا خبيئة وليس مقبرة.... كان تقدمنا بطيئًا، بشكل يدعو إلى اليأس، وبينما كنّا نتابع العمل الجارى، رفعنا بقايا رديم الممر الذى كان يملأ الجانب الأسفل من الباب، ليظهر أمامنا الباب بأكمله، واضحًا جليًا. ودنونا من اللحظة الحاسمة. وبيدين ترتجفان، أحدثت فتحة ضيقة فى الزاوية اليسرى العلوية. وبقدر ما أمكن لقضيب حديدى أن يصل، كان الظلام والفراغ يدلان على أن الحجرة التالية خاوية.... وأشعلت الشموع، لتجنب خطر إحتمال وجود غازات. وبعد توسيع الفتح بعض الشيء، ادخلت من خلالها شمعة وألقيت نظرة على الداخل. كان لورد كارنارفون **Lord Carnarvon** *وليدى إيفلين* **Lady Evelyn** *وكالندر* **Callender** *واقفين بجوارى متلهفين على سماع رأيى. فى البداية، لم يكن فى وسعى أن أميّز شيئًا. كانت شعلة الشمعة تتراقص، متأثرةً بالهواء الساخن المنبعث من الحجرة، وأخذت عيناى، تتكيفان مع الضوء المحدود ومن بين تفاصيل الحجرة انبثقت تدريجيًا، من وسط غبش الحجرة، حيوانات غريبة وتماثيل وذهب، كان الذهب، يتألق فى كل مكان. وفى هذه اللحظة – التى بدت بلا نهاية بالنسبة لمن كانوا بجوارى، انعقد لسانى عن الكلام، من هول الإعجاب. ولما نفذ صبر لورد كارنارفون، من طول انتظاره، بادر إلى سؤالى بشغف: «تُرى، هل تشاهد شيئًا؟» وكل ما استطعت قوله هو*

أننى تفوهت ببعض كلمات: «نعم، روائع ساحرة». وبعد توسيع الفتحة بعض الشيء، لنتمكن معًا من مشاهدة هذه الروائع، ادخلنا مصباحًا كهربائيًا ... فلأول مرة، منذ ثلاثة آلاف سنة، ينفذ الضوء إلى هذه الحجرة، مخترقًا ظلامها الدامس... واعترانا الذهول، من شدة الدهشة».

وأول ما شاهده كارتر ولورد كارنارفون الأسرّة الجنائزية فى هيئة حيوانات خرافية. وعلى السرير الأوسط تكدست صناديق صغيرة نفيسة وبعض المقاعد. وشاهدا، ناحية اليمين تمثالين للملك، ويشيران، إذا صح القول، إلى حجرة الدفن. كان الألبستر واللازورد والفيروز والعاج والفضة من مكونات الأوانى والحلىّ والمذّبات والعُصِى. وكانت مركبات مفككة تغطى الأرضية. والآلات الموسيقية، من أبواق ومصلصلات، تشارك، على ما يعتقد فى الحفلة الموسيقية المقامة فى العالم الآخر. وعلى الأرض، كسف أوانى فخارية، وزهور كانت أصلاً جزءًا من باقات، وسلال مقلوبة، تشهد جميعها على مرور السلابين النهابين. وفى هذه الردهة، الملتزمة بالإتجاه الجنوبى الشمالى، وفى خط عمودى على ممر المدخل، وطولها ثمانية أمتار فى ٣٦٠سم، عثر على ١٧١ قطعة، دون الأخذ بعين الاعتبار القطع التى كانت تزخر بها الصناديق.

وعلى الجدار الشمالى من هذه الردهة، ووسط التمثالين السابق ذكرهما، كان باب موصود يفضى إلى الحجرة الجنائزية التى لم تُفتح، فى الحال.

وبينما كان المنقبون يقومون بحصر محتوى الردهة، لاحظوا وجود ثغرة أحدثها اللصوص فى القسم الجنوبى من الجدار وباب جديد وضعت عليه الأختام، فتسللوا عبر الثغرة التى بقيت مفتوحة إذ لم يسدّها أحد. ودخلوا زاحفين إلى حجرة أصغر من الردهة، أُطلق عليها فيما بعد إصطلاحاً الملحق وكان يضم أعداداً أكبر من القطع، مقارنة بالحجرة السابقة، ولكن فى فوضى تامة.

«حتى الآن، كان يعترينا حماس شديد، لم يترك لنا مجرد فسحة من الوقت لنتبصر الأمر، ولكن الآن، ولأول مرة، أصبحنا ندرك ضخامة المهمة الشاقة الملقاة على

عاتقنا وما يترتب عليها من مسئوليات. لم يكن هذا الكشف من الأمور المألوفة، وليس بالمهمة التى يمكن الإنتهاء منها فى موسم عادى من العمل... وفضلاً عن ذلك، فقد فوجئنا بضخامة هذا الكشف ولم نكن مستعدين، على الإطلاق، للتعامل مع هذا العدد المهول من القطع الملقاة أمامنا على الأرض، فى حالة سيئة من الحفظ، فكان من الضرورى معالجتها أولاً، قبل مجرد لمسها».

كان خبر الكشف قد طبّق الآفاق وانتشر حوله مختلف المعلومات. ويوم ٢٩ نوفمبر أقيم إحتفال «**الإفتتاح**» والزيارة الرسمية لبعض الشخصيات البارزة منهم **بيير لاكو Pierre Lacau** مدير مصلحة الآثار المصرية وكبراء رجال المجتمع فى **مصر**. ويوم ٦ديسمبر أغلقت المقبرة ووضعت تحت حراسة **كالندر Callender**، فى حين انصرف كل من **لورد كارنارفون** و**كارتر**، ليتخذا الإجراءات المناسبة، الأول فى **انجلترا** والآخر فى **القاهرة**. ويوم ٢٢ديسمبر وصلت الصحافة عند الموقع. ويوم ٢٥ديسمبر وصل **ماسيه Mace** وبدأت عملية تصوير القطع وإخراجها.

كان لا يزال أمامنا مهمة فتح الباب المختوم الذى يفضى إلى حجرة الدفن.

وتحدّد يوم الجمعة ١٧ فبراير. وفى الثانية بعد الظهر وبحضور جمع غفير، يتكون معظمه من علماء المصريات، وصل عددهم إلى عشرين من الشخصيات العلمية المصرية والفرنسية والأمريكية والإنجليزية، احتشد هذا الجمع أمام المقبرة. وفى الثانية والربع، ولج **لورد كارنارفون** و**كارتر** إلى داخل المقبرة، ليصلا إلى الباب الذى كان لا يزال محتفظاً بأختامه. واستطاعا من خلال فتحة صغيرة أن يلاحظا وجود ما يشبه جداراً من الذهب. وبعد فتح الباب، أدركوا أن ما شاهداه كان عبارة عن مقصورة ضخمة من الخشب المذهب، ارتفاعها ٢٧٥سم وعرضها ٣٢٠سم وطولها خمسة أمتار. كانت تشغل تقريباً بالكامل حجرة الدفن ومساحتها أربعة أمتار فى ٦٤٠سم. وفى حقيقة الأمر، كانت هناك أربع مقاصير تتداخل الواحدة داخل الأخرى، الغاية منها تغطية التابوت الملكى وحمايته.

ورفع الباب. *«كان فى وسعنا الآن، أن نشاهد المقصورة، من الردهة، على ضوء الكشافات. وكلّما رفعت الأحجار، وبينما أخذ المسطح الذهبى يتراءى لنا، كان ما*

يشبه التيار الكهربائى يسرى فى أجسادنا، فارتجفنا من شدة الحماس الذى جعل المشاهدين الواقفين خلف الحاجز يرتعشون».

وعلى مقربة من المقصورة وضعت شارات جنائزية، وبجوار الجدار الشمالى، المجاديف السحرية السبعة التى كانت تعين المتوفى على عبور مياه العالم الآخر. كانت جدران الحجرة مزدانة بالمشاهد المرسومة والمدونات. إنها مشاهد طقسية تصور **توت عنخ آمون** فى حضرة الآلهة.

كانت المقصورة الأولى من الخشب المذهب المكفت بعجينة زجاجية لازوردية اللون، والمقصورة الثانية مغطاة بستر من الكتان الرقيق، يميل إلى الإصفرار، ومرصع بزهور أقحوان من ذهب. أما المقصورة الرابعة التى صنع إفريزها وسقفها من كتلة واحدة، فكانت تضم حوض التابوت الجنائزى المصنوع من الحجر الرملى، وسجلت عليه ألقاب الملك.

كما أن ثلاثة توابيت على هيئة مومياء، وضع الواحد داخل الآخر، كانت تحيط بجسد الملك – الشاب، لرقدة كانت تريد أن تكون رقدة أبدية. كان التابوت الأول من الخشب المذهب وملفوفًا بأقمشة تذكرنا بالرداء المحبوك حول جسد **أوزيريس**، ويصوَّر الملك ويداه متقاطعتان على صدره، وتمسكان الصولجان والمذبة. وهما من شارات الملك، وكانتا من عجينة زجاجية زرقاء وحمراء. كان الوجه واليدان مصفحة برقائق من ذهب غير لامع، كإشارة إلى التحول الشمسى للمتوفى ورحلته النجمية الأبدية. كان التابوت تحيط به الإلهتان **إيزيس** و**نفتيس** بجسدهما الرقيق النحيف وسواعدهما، وتبسط أجنحتها الممدودة وتساعدان على بعث **أوزيريس** حيًا. كانت الأدهان قد أريقت أثناء المراسم الجنائزية، ووضع إكليل من الزهور على الجبين.

وفى العاشر من أكتوبر ١٩٢٥، فتح التابوت الأول. كان الثانى مصنوعا من الخشب المصفّح بالذهب ومكفتًا بعجينة زجاجية متعددة الألوان. كان قد حشر حشراً فى التابوت الأول، حتى أنه كان من المستحيل إدخال خِنصَر اليد فيما بينهما. كانت تضمه الأجنحة المنبسطة للإلهتين **نخبت** و**واچت** حاميتى النظام الملكى. وعلى الصدر،

وضعت قلادة كبيرة من أوراق الزيتون والصفصاف، مختلطة بأزهار اللوتس الزرقاء، لتضمن للعاهل الملكى، استعادة نباتية للحياة وتجديدها.

عند فتح التابوت الثاني، شوهد التابوت الثالث، وهو من الذهب المصمت، وكان ملفوفًا بنسيج كتانى أحمر اللون وأربع آلهات تحميه بأجنحتها. وعلى الصدر، وضعت قلادة من الزهور. كان هذا التابوت يزن ١١٠ كجم من الذهب الخالص.

وبدوره، فُتح فى الثامن والعشرين من أكتوبر ١٩٢٥. عندئذ، ظهر القناع الذهبى. كانت صورة شخصية رائعة الجمال للعاهل الملكى، وقد وضع على مومياء شبه متفحمة، من جراء تراكم الأدهان التى أريقت عند إتمام شعائر التحنيط الطقسية. وعلى الجسد المحبوك بالأشرطة، وُزعت أكثر من ١٤٣ حلية من الذهب.

وفى الركن الشمالى الشرقى، من حجرة الدفن، كانت فتحة منخفضة جداً، تصل هذه الحجرة بغرفة مساحتها أربعة أمتار فى ٣٥٠سم، تضم قطعًا نفيسة مخصصة للشعائر. وأطلق عليها كارتر اصطلاحًا «حجرة *الكنز*».

إن الإبقاء على هذه الكنوز سليمة، وكلما تقدمت أعمال التنقيب، كان يثير مشاكل عويصة مرتبطة بوسائل حفظها.

وتكشف التماثيل عن ملك شاب ممشوق القوام: والتمثالان المصنوعان من الخشب، والمطليان بطلاء أسود لامع وكانا يحرسان مدخل حجرة الدفن، طولهما ١٧٠سم تقريبًا. أما غطاء الرأس والصدرية العريضة وأساور العضد والساعد والنقبة والعصى الكبيرة والصولجان فبلون الذهب. إن الأسود والذهب لونا البعث واستعادة الحياة: الأسود على غرار الإله أنوبيس الذى كان يعرف كيف يحافظ على أجساد الموتى. والذهب على غرار جسم الشمس التى كانت تعرف دروب استعادة الحياة وتجديدها، على مرّ الأيام. إن تمثالاً آخر، مذهّب بالكامل، يصور العاهل الملكى، بصفته حورس، وهو يقوم بأداء شعيرة دينية: إنه يقف فوق زورق خفيف من نبات البردى، وهو من الخشب المطلى باللون الأخضر والمذهّب، وقد شهر خطّافًا، ما زال

حبله، وهو عبارة عن خيط من البرونز، ملفوفًا، ولكن يتأهب الملك الشاب لتسديده فى جسد فرس النهر - أى ست - عدو أبيه.

أما العِصىّ الموضوعة تحت تصرف العاهل الملكى، فهى جديرة بالملاحظة فى أغلب الأحوال، بسبب جمالها أو فاعليتها. وخارج المقصورة الأولى عُثر على عصا مزدانة بزهور اللوتس المكفتة بالذهب والفضة وعجينة زجاجية، وعلى عِصىّ من الفضة والذهب، أمام المقصورة الثانية، كان مقبضها يتخذ هيئة الملك الشاب. وبغية التأكيد تأكيدًا سحريًا، على دور **توت عنخ آمون**، بصفته سيد الإمبراطورية، فإن الطرف الأسفل من عصا مخصصة للإحتفالات، يتكون من تجسيم لجسدى ووجهى **أسيوىّ ونوبىّ**، وقد صورا ظهرًا لظهر، واقدامهما فقط تتلامس. **الآسيوىّ** مقوس الأنف، غليظ الشفتين، وبلحية مدببة وعصابة رأس، ويرتدى رداءً لاصقًا له عباءة ذات ثنايا، ومثبتًا بواسطة زنّار ذى صفوف أربعة. وقد نحت فى العاج المطعم بعجائن ملونة. أما **الإفريقى** فقد نحت فى خشب الأبنوس، وهو صورة نمطية تُبرز بوضوح ملامحه العرقية. وملبسه اللاصق من الخشب المذهب المزخرف زخرفةً جصية، والساعدان مربوطان بحبل. هكذا، فمع كل خطوة كان يخطوها الملك، كان أعداؤه يسفّون التراب. هذا الموضوع الذى قد يتكون من شخص واحد أو اثنين، حسب الأحوال، يتكرر على غيرها من هذه القطع.

كما نلتقى بالمواضيع نفسها على سطح صناديق المركبات المذهبة التى عثر عليها فى الردهة وتشير إلى هيمنة الإمبراطورية: فنرى **الآسيويين والنوبيين** وقد قُيّدوا بالحبال. وتكشف وجوههم وأوضاعهم عن واقعية أخّاذة ومؤثرة وتشهد ولو شكليًا على قوة مصر. واللافت للنظر، حركة الخطوط المنكسرة التى تشكلها أجساد الأسرى. كما يلاحظ فى أغلب الأحوال، أن سواعد **الأفارقة** مقيدة خلافًا **للآسيويين**. إن معاملة كلا فريقى الإمبراطورية، مختلفة أيضا فى فن النحت.

إن متاعًا طائلاً كان يلبى إحتياجات العاهل الملكى فى حياته الأبدية. وإذ يظل محتفظًا بوظيفته الملكية، كان فى وسعه التربع، فى قمة جلاله، على هذا العرش المصنوع من الخشب المصفح برقائق من الذهب والمطعم بالأحجار الكريمة وعجائن من

الزجاج المتعدد الألوان، المغطى فى بعض الأماكن برقائق من الفضة. كان محميًا حماية شعائرية. وبالفعل فإن قاعدة المقعد من القش المجدول وتستند إلى قوائم أسد، تُبرز ملامح رأسه المتوعدة فى القسم الأمامى. إن ذراعى العرش يتكونان من الأجنحة المنبسطة لثعبانين، وضع على رأس كل منهما التاج پشنت(*)، وفى لفتة حانية وحامية شاملة، كانا يطوقان الخراطيش الملكية. إن الصورة المنحوتة على ظهر العرش، سوف تساعد الملك كى يحيا من جديد اللحظات السعيدة، التى عاشها فى هذه الدنيا: فتحت أشعة الشمس ذات السواعد المنتهية بأياد(**)، بينما تقوم الأميرة عنخ - إس - إن - پا - آمون، وقد تحلّت بأفخر ما لديها، بمدّ يدها نحو زوجها الجالس على متكأ(***)، فى حركة كلها حنان ومودة. وما زالت أوضاع الأشخاص وملابسهم محتفظة ببصمات تأثير فن العمارنة، الذى غالب الأيام. فالأبدان متراخية والأطراف نحيلة، وثنايا الثياب طويلة، فضلاً عن ألفة مشاهد الحياة الخاصة الحميمة. وخلف الملكة، باقة زهور مركبة. كل ذلك، فى إطار تألق الألوان والمواد النفيسة.

ويصور كرسى من خشب الأرز والذهب مواضيع أكثر تقليدية: ففى أعلى ظهره، تبرز الصورة المذهبة لشمس إدفو بجناحيها المنبسطين. وعلى الظهر ذاته، صور الإله حيح ممسكًا بغصن ملايين السنين، إشارة إلى أبدية الشمس التى يعبر عنها أيضًا القرص فوق رأس الإله والعلامة الهيروغليفية الدالة على الذهب التى يركع فوقها. إنهما عنصران متقابلان يؤطران إله الزمان الأبدى. والمقعد قاعدته مقوسة إلى أسفل ويرتكز على قوائم حيوان من السّنوريات، تنثنى مخالبه على قواعد صغيرة من البرونز والذهب. إنه تصوير للرفقة الوطيدة التى لا نهاية لها، بين الملك، المتوفى فى نظر الأرض، وبين الجرم السماوى. هذه الرفقة التى تبرزها أيضًا النصوص المدونة على المقاصير:

(*) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم (پا) سخمتى أى القوتين. ويتكون هذا التاج من تاجى مصر العليا ومصر السفلى. (المترجم)

(**) ما زال موضوع العمارنة الثابت معمولاً به. (المؤلفة)

(***) ويقال له الفوتيل. والمتكأ: كرسى منجّد له ذراعان وظهر. المعجم الوسيط. (المترجم)

أنت باقٍ في السماء، بينما تبحر على متن القارب المقدس لملايين السنين، بعد أن دحرت أعداء الشمس. أنت معه(*) في السماء على الدوام. إنك تنجز كل مهامك. إن أعضاءك هي أعضاؤه، لأنك ابنه(*) الذي يحيا في ***الحقيقة –العدالة***[١٦].

والمواضيع الذى تزخرف الأثاث، ترتبط فى الغالب بالشعائر الدينية. لقد ظلت أشكالها تغالب الأيام. هكذا «فمن المتفق عليه أن ننظر إلى متكأٍ ما، باعتباره مقعد العاهل الملكى بصفته كبير الكهنة، والمستخدم إبان المراسم الدينية، والذى سيصبح فيما بعد النموذج الأمثل لمتكأ أساقفة الكنيسة المسيحية. إن ظهره مرتفع ومقوس بعض الشىء، ومثبت على مقعد تتقاطع أرجله. والخشب مصفح فى بعض أجزائه بالذهب ومطعم بقطع صغيرة من الأحجار الكريمة والعجائن الزجاجية والأبنوس والعاج[١٧]».

وفى عداد أثاث **توت عنخ أمون** نجد المقعد الذى يمكن طيّه بأرجله المتقاطعة، التى تنتهى بأعناق الإوز، وسوف يعاد استخدام هذا النموذج فيما بعد... فكان مصدر إلهام فى فرنسا فى عصر **الديريكتوار**(**) Directoire المعروف بولعه **بمصر**.

ومن أجل راحة **توت عنخ آمون**، صارت الأسرَّة ثمينة أيضًا، وتقدم حماية سحرية. نذكر على سبيل المثال، هذا السرير المصنوع من خشب الأبنوس، بقشرة من ذهب ومطعم بالعاج ومُلَّة من القُنَّب(***) المجدول وبقوائم حيوان السنّوريات. وجانبى السرير مخرمة ونحتت عليهما صور للإله **بس** والإلهة **تاوريس**(****)، الكيانين الإلهين الراعيين للنوم الحاميين له، والمكلفين بإبعاد الشياطين الضارة والمؤثرات المؤذية.

(*) أى مع الشمس. ونذكر أن هذا اللفظ مذكر فى اللغة المصرية القديمة، ولذلك أبقينا ضمير الغائب فى المذكر ليستقيم المعنى. (المترجم)

(**) نظام سياسى حكم فرنسا بعد الثورة الفرنسية فى الفترة من ١٧٩٥ وحتى ١٧٩٩. ومارس سياسة توسعية فى الخارج ومنها الحملة على مصر ١٧٩٨-١٨٠١. وعند سقوط هذا النظام تسلّم نابوليون مقاليد الحكم. (المترجم)

(***) نبات حولىّ زراعى ليفى، تفتل لحاؤه حبالاً. المعجم الوسيط. (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى تاورت. (المترجم)

إن بعض الأسرّة المخصصة، بلا شك، للمراسم الجنائزية، كانت تنتهى برؤوس حيوانات، وصفها كارتر بالحيوانات الخرافية، عندما شاهدها فى غبش المقبرة، فى بداية الأمر، من خلال الفتحة الصغيرة التى أحدثها فى باب الردهة. ونتعرف فى هذه الرؤوس على تاوريس، وقد طليت بأكملها باللون الذهبى، وفمها فاغر، كاشفة عن أسنانها، أما أنيابها ولسانها فمنحوتة فى العاج. إن سريراً آخر، يصور رأس أسد ومقدمة جسده، وقد طليا أيضًا باللون الذهبى. والعينان من البلّور وأحيطتا بعجينة زجاجية زرقاء، وكذلك طرف خطمه. والغاية من وجودها هنا، حماية المتوفى والقضاء على أعداء الملك المحتملين بعد وفاته، بفضل قدراتها الرهيبة.

إن أعداداً كبيرة من الصناديق الصغيرة وأخرى مخصصة للملابس على قدر كبير من الروعة من حيث أعمال النجارة والصياغة وترصيع الخشب بالجواهر وخلافه، كما ساهم فى صناعتها النحاتون والرسامون وكانت مبعثرة على الأرض. ونذكر منها على سبيل المثال، صندوق الصيد الذى سبق ترجمة نصوصه. إنه نحت دقيق، تذكرنا رقته بالمنمنمات الفارسية، فكل وجه من هذه القطعة، تبرز فى وسطه صورة شامخة للملك الممجّد، على متن مركبته، بينما يشبّ الفَرسان، فى وضع مائل، له جلاله ومهابته، فبزهو وغطرسة، يضع حداً فاصلاً بين جانبى التكوين. وصُوّر من خلف الملك، جنوده ورجاله، موزعين توزيعاً محكمًا على صفوف ثلاثة. وتحت قوائم الفرسين، يهرول الأعداء أو حيوانات الصحراء، على حدّ سواء، تعبيراً رمزيًا عن الخواء، يقابله على الجانب الآخر، النظام المصرى وفرعون الفائق القدرة، وقد تجسّدا تجسيداً تشكيليًا وتصويريًا، من خلال خطوط تبلغ حدّ الكمال. كما أن صناديق أخرى، من الألبستر النقى أو من خشب الأرز المطعم بالأبانوس والعاج بغطاء مسطح أو محدب مزخرفة بمواضيع دينية أو غير مزخرفة أو تحمل الألقاب الملكية. وقد نلتقى بمشاهد ممتعة أحيانًا، تنقل وقائع من الحياة الخاصة، وتحذو حذو فن العمارنة: فعلى غطاء أحد هذه الصناديق النفيسة، وهو على هيئة ما يشبه المنضدة المائلة، ومصنوع من العاج المنحوت والملون، نشاهد الشابة الرقيقة عنخ إس إن پا آمون، وهى تقدم إلى الملك المستند على عصا طويلة، باقة كبيرة من الزهور المركبة، فى إطار من الزهور والحدائق. ومن الملاحظ أن الفن ما زال يحتفظ بلمسات المودة والحنو والأناقة وبعض «التشوهات» الموروثة عن عصر العمارنة.

كما تصل أوعية العطور والكؤوس والأوانى، إلى المستوى نفسه من الكمال الفنى. سوف يقول البعض، أجل إنها جميلة، فالخطوط لا تشوبها شائبة، والمواد نفيسة. ولكن فى مصر، ينطوى الأمر، على المزيد. فكل شىء، يشد اهتمامنا بصفاته الجمالية، كان بالضرورة إسهامًا فى الصيرورات الأبدية للعاهل الملكى، وذلك بفضل شكله ذاته والمدونات المسجلة عليه. فهذه القطع بمثابة قواعد روحية بالغة التطور، ذات فكر ثاقب. إنه متاع سحرى، وجب عليه أن يكون جميلاً، فالمصرى المولع بالجمال، يعشق تناغم الخطوط وكمال الصور. فلننظر إلى هذه الكأس من الألبستر على هيئة زهرة اللوتس، وتحيط بها الكأسيات(*) بالنقش البارز. والمقبضان على هيئة زهور متفتحة أو براعم، ويحملان صورة الإله حيح، مع سيقان ملايين السنين. هكذا، نجد أن الأبديه الشمسية غير معنية، ولكن الإشارة هنا إلى أبدية عالم النبات الذى يظل يستعيد حيويته على الدوام ويجددها. وعلى بطن الكأس، دونت أسماء العاهل الملكى تعبيرًا عن الرابطة اللصيقة القائمة بينه وبين قوى الحياة. وعلى الحافة العلوية، يمتد دائريًا المتن الآتى:

ليت كاك (يظل) حيًا، ليتك تكمل ملايين السنين، أنت يا من لا تنقطع طيبة عن حبها لك، أنت الجالس، ووجهك متجه ناحية رياح الشمال، وعيناك تتأمل الكمال(١٨).

والحلىّ، وهى بكميات كبيرة، مبهرة. فهذه القلادة مكونة من عناصر نفيسة، ذات دلالة: فى وسط التكوين نشاهد جعران الفجر المجنح، إنه الإله **خپرى**. بدنه من العقيق الأبيض الشفاف والجناحان ينحنيان ناحية الداخل، يحدهما شريط ضيق من الذهب، كما أن ترصيعات من اللازورد والفيروز والعقيق الأحمر تشير إلى زغبه. ويحمل فوق مخلبيه الأماميين قاربًا مقدسًا بضم العين **واچت** وهى عين **أوزيريس** «*السليمة*» التى أعادها إليه ابنه حورس، حسب الشعائر الدينية. وفوقها مباشرة، قرص القمر باللون الرمادى، وهلال من الذهب، صُوِّر على سطحه بالنقش البارز، أشخاص ثلاثة من الذهب أيضًا، يعتبرون ذروة هذا التصوير الرائع، ويمثلون **الملك** – الإله محاطًا بالإلهين رع وتحوت. هكذا نجد الملك مشاركًا فى كافة قدرات استعادة

(*) وريقات كأس الزهرة. (المترجم)

الحياة وتجديدها، على صعيد العالم الإلهى: من خلال حياة الأزهران: الشمس جرم النهار والقمر جرم الليل، وقيامة **أوزيريس** وبعثه حياً. و«يتفتح» الحلى جهة الأسفل، وكأنه تويج زهرة كبيرة مقلوبة. إنه عبارة عن مجموعة أزهار اللوتس بكؤوسها المتفتحة، وهى من الذهب واللازورد والعقيق الأحمر. هكذا جادت أنامل الفنان المصرى بقطعة نفيسة، هى من أروع كنوز **توت عنخ آمون** وأقيمها(*).

إن قلادة أخرى من الذهب واللازورد والعقيق الأحمر والفيروز والفلسپار الأخضر، تصور قارب الشمس وهو من الذهب، وفى وسطه الجعران **خپرى** من اللازورد، على رأسه قرص من العقيق الأحمر والذهب. وتكتنف الإله مباشرة، ثلاث علامات هيروغليفية؛ تشير إلى «*الثبات والحياة والجمال*»، إلى جانب صلين يحملان أيضاً على رأسيهما المنتصبين، قرص الشمس. إن سلسلة طوق القلادة، طويلة وقد زخرف طرفاها بالخرز إلى جانب صور الجعران والثعبان – الشمس.

كما أن حُلىّ الأذن تتدلى من قضيب سميك أجوف من الذهب، وهو ما يفترض وجود ثقب عريض فى شحمة الأذن، وفى أعلاها زخرف الجعران المجنح المنتشر إلى حدّ كبير. إن دائرة كبيرة من الذهب، تحفها خرزتان، كانت تضم صورة الملك فى هيئة **أوزيريس**، يحيط به ثعبانان منتصبان وعلى رأسيهما القرص أيضاً. إن ستة صفوف أفقية من الخرز المتعدد الألوان، وفى نهاية كل صف كرة كبيرة من معدن نفيس، تزيد من أناقة هذا الحلى ورشاقته. ومع كل حركة من حركات الرأس، كان يعتقد أن الذهب والعقيق الأحمر والألبستر والكوارتز والعجائن الزجاجية الملونة، تتألق بجميع ألوانها.

وأخيراً فمن الصعوبة تقديم وصف تفصيلى لهذه الكنوز المبهرة، التى تخلب الألباب وتفخر بها قاعات متحف **القاهرة**(**).

(*) وذلك إلى جانب آثار **توت عنخ آمون** الموزعة فى الطابق العلوى من المتحف المصرى بالقاهرة على امتداد الأروقة من ٤٥ إلى ٧. ولن يفوت زائر المتحف أن يبحث عن هذه القطعة الرائعة فى القاعة رقم٣. ويبلغ ارتفاعها ١٤٩سم وعرضها ١٤٥سم. (المترجم)

(**) راجع هامش المترجم السابق. (المترجم)

الفخامة والبذخ والأناقة والرشاقة والجمال، تلك هى الكلمات المستخدمة، الأكثر شيوعًا عند الحديث عن هذه الكنوز. كما يقال عنها أيضًا أنها «الفذة، المنقطعة النظير»، هذا مؤكد، فى إطار ما نعرفه. ولكن فلننظر إلى حجم مقبرة **توت عنخ آمون** المحدودة نسبيًا مقارنة بغيرها من مقابر **وادى الملوك**. ولنتذكر أيضًا أن هذا العصر، لم يكن أكثر عصور الأسرة الثامنة عشرة إزدهاراً. وتأسيسًا على ذلك، يمكن أن يتخيل المرء الثروات التى لا مثيل لها، التى كانت تضمها، بكل تأكيد، كبرى المقابر الملكية لمغاوير الفاتحين، فى ذلك الزمن، ولكن الخيال قد يدفعنا إلى الشرود، وينقلنا إلى عالم الأحلام. ومن حق المرء، على كل حال، أن يتوقع لمغامرة علم المصريات العظيمة، مستقبل ملئ بالوعود. فقد بدأت ذات يوم، بالكشف عن أولى درجات سلّم مطمور فى رمال الصحراء. فهل سنكتشف ذات يوم درجات أخرى؟(*)

٣- ظلال التاريخ

بوفاة **توت عنخ آمون**، فى ظروف ما زلنا لا نعرف عنها شيئًا، وبعد حكم دام تسع سنوات، كُرّس أساسًا لترميم المعابد وإعادة الشعائر الدينية التى ظلت ملاحقة ومضطهدة إبان عهد **أخناتون**، نجد أن قضية وراثة العرش، قد طرحت بشكل حاد، على وجه التأكيد. إن اقتران الملك الشاب من **عنخ إس إن پا آمون**، فى إحتفال أقيم، وما زالا فى مقتبل العمر، لم يثمر عنه، إنجاب وريث للعرش.

ولكن هناك شخص كان يقوم آنذاك، بدور بارز، فى كل من بلاط **العمارنة** و**طيبة**، على التوالى. إن **آى**، هو المقصود، وقد سبق ذكره ضمن أتباع **أخناتون** الأوفياء[١٩]. وربما كانت زوجته **تيى**، مرضعة **نفرتيتى**، فكان ذلك سبب نفوذه الواضح. ويذهب بعض علماء المصريات[٢٠] إلى أن **توت عنخ آمون** الذى كان **آى** قد صاحبه عند انتقاله إلى **طيبة**، بعد القطيعة مع **العمارنة**، ربما اختاره (؟) شريكًا فى الحكم.

(*) قد تقدونا إلى مقبرة أخرى أعظم من مقبرة **توت عنخ آمون**! (المترجم)

تستند هذه الفرضية على واقع وجود قائمة ألقاب الملكين، على سواكف فى **الكرنك**. وبالفعل سيصبح آى فرعونًا عابرًا.

وفى هذه اللحظة من لحظات التاريخ، وقع حدث فريد فى بابه. فقد قامت الأرملة **عنخ إس إن پا آمون** بارسال خطاب إلى **سوپيلوليوما** تطلب منه أن تتخذ من أحد أبنائه زوجًا لها. كان ملك **الخاتى** مشغولاً آنذاك فى الحصار المضروب حول موقع **كركميش** الحصين، آخر رأس جسر ميتانى على البر الأيمن من نهر **الفرات**. كان هذا العرض بمثابة تقديم عرش فرعون إلى **الخاتى**! ولا نعرف مدى التأثير الذى خضعت له الملكة الشابة، عندما أقدمت على هذا التصرف المحيِّر. ولغرابة الأمر، فقد تردد **سوپيلوليوما** شخصيًا، خشية تعرضه لخدعة أو مكيدة. ففضَّل أن يرسل موفدًا إلى **مصر** للوقوف على مدى جدية هذا العرض. وخلال هذه المدة، شدَّد حصاره على **كركميش** فاستسلم الموقع بعد ثمانية أيام. وترتب على هزيمة **توشراتا** الجديدة، قلاقل داخلية، فقام أحد أبناء الملك باغتياله. عندئذ، تربع **أرتاتاما** الثانى، **الحورى**، على عرش **واشوجانى**، ولفترة قصيرة على كل حال، لأن **ماتيوازا**، ابن **توشراتا**، الذى لجأ فى بادئ الأمر إلى **بابل** التى استقبلته استقبالاً سيئًا، فطلب أخيرًا اللجوء عند **سوپيلوليوما**، الذى استقبله استقبالاً وديًا، وقدم له ابنته زوجة. واسترد **ماتيوازا** ميراث والده. ولكن من الآن، أصبح غرب **الميتانى** خاضعًا للهيمنة **الحيثية** فى حين صار شرق **الميتانى** أو **حانيجالبات**(*)، بزعامة **شوتارنا** تابعًا تبعية لصيقة للمساندة التى قدمها له **آشور**. وهكذا، قُضى على قوة **الميتانى** قضاءً مبرمًا. ومع مطلع العام التالى، كان الموفد الذى أرسله ملك **خاتى** إلى **مصر**، عائدًا إلى وطنه حاملاً رسالة جديدة من الملكة **عنخ إس إن پا آمون** التى كانت مستاءة من موقف **سوپيلوليوما** المتردد وعادت تكرر طلبها. عندئذ أرسل ملك **الحيثيين** ابنه **زانانزا** إلى **طيبة**. ولكن لم يصل الأمير الشاب أبدًا إلى مقصده. فربما تم اغتياله وهو فى الطريق بتحريض من **آى**؟ أو من القائد **حورمحب**؟ عندئذ، خرج الأمير **أرنوواندا** على رأس القوات **الحيثية**، وزحف فى اتجاه نهر **العاصى**، للثأر من مقتل أخيه.

(*) حسب التسمية الأشورية. (المترجم)

ويبدو، أن عنخ إس إن پا آمون، قد تزوجت من آى، الموظف القديم فى خدمة أخناتون، وكان الآن طاعنًا فى السن، فمنحته بالتالى أحقيته فى عرش مصر. وخصّ آى نفسه بقائمة ألقاب كاملة، وردت مدونة تحديداً، على لوح حجرى يوضح هبات الأراضى وعثر عليه بجوار هرم خوفو. وكان آى قد اختار منف مقرًا له.

الحورس: *الثور القوى، صاحب الغدوات المتألقة.*

السيتان: *صاحب(*) القوة الباسلة والمتسيّد على آسيا.*

الحورس الذهبى: *أمير الحقيقة – العدالة، الذى أتى بالقطرين إلى الوجود.*

ملك مصر العليا ومصر السفلى: *فلتأت إلى الوجود صيرورات رع، والذى يحقق الحقيقة – العدالة* (خپر خپرو رع إير ماعت).

ابن رع: *الأب الإلهى آى، الإله حاكم طيبة*[٢١].

إن لقب «الأب الإلهى» الوارد فى الخرطوش الثانى(**)، قد قاد البعض إلى افتراض، أن آى ربما كان أبا نفرتيتى. ولكن هذا الإحتمال الذى لم يدعمه سند له وزنه، لا يأخذ به أحد تقريباً، فى الوقت الراهن.

وأن يكون قد تزوج عنخ إس إن پا آمون، ثابت، على ما يبدو، استناداً إلى وجود خاتم دُوّن على فصه، جنبًا إلى جنب، اسما آى والأرملة الشابة، مطوقان بخرطوش. ومن المؤكد، أن آى قد خلف توت عنخ آمون: وبالفعل، ففى مشاهد مقبرة العاهل الملكى الشاب، التى تصور مراسم دفنه، يتولى آى إقامة الشعائر، ليقوم فى هذا الإطار بالدور الذى يكلّف به، فى المعتاد، ابن المتوفى وخليفته.

(*) إن آى هو المقصود. (المترجم)

(**) المرتبط بلقب ابن رع. (المترجم)

هذه الفترة من تاريخ مصر، القصيرة فى حقيقة الأمر، إذ لم يدم عهد أى سوى أربع سنوات تقريبًا، تبقى ظلالها كثيفة، إذ لم يصلنا عنها، سوى وثائق قليلة.

ودُفن أى دفنة ملكية. إن مقبرته رقم ٢٣، القريبة من مقبرة **أمنحوتپ الثالث**، توجد أيضًا فى **وادى الملوك** الغربى، المعروف إصطلاحًا **بوادى القرود**. والمشاهد المرسومة على الجدران شبيهة إلى حد كبير بمثيلتها فى مقبرة **توت عنخ أمون**. ولكن ظلت المقبرة ناقصة لم تكتمل. والتابوت من حجر الجرانيت الوردى، فى هيئة ناووس موجود حاليًا فى **متحف القاهرة**.

عندئذ، علا نجم أحد الأشخاص وأخذت أهميته فى التعاظم: إنه القائد العسكرى حور – إم – حب (*ومعناه: حورس – فى – عيد*). كان أيضًا من الأفراد القدامى فى بلاط **العمارنة**. وكان اسمه آنذاك، پا – آتون – إم – حب (*ومعناه: آتون – فى – عيد*). وربما كان هذا القائد، هو الذى أرسله **أخناتون** على رأس الجيش المصرى لقمع التمردات والقلاقل التى تفجرت فى **كنعان**. ومن المحتمل، أنه شرع، فى أعقاب هذه الحملة، فى بناء مقبرة فى **سقارة**، التزمت زخارفها بأسلوب **العمارنة**، ولم يتبق منها فى الوقت الراهن، سوى أجزاء مبعثرة فى مختلف المتاحف.

لقد تمتع، فى مصر، بشرف المنزلة تقديرا، لمآثره العسكرية. وبصفته القائد الأعلى للجيش، فقد كان الشخصية الوحيدة صاحبة النفوذ المسيطر. ولأول مرة، لا تُسلّم مقاليد السلطة إلى وزير أو إلى كبير كهنة **أمون**، ولكن إلى أحد أفراد القوات المسلحة.

الفصل العاشر

حور - إم - حب، المخلّص

التمهيد لإمبراطورية الرعامسة

كان حور - إم - حب، ينتسب إلى عائلة أمراء حوت نسوت - وهي ألاباسترونپوليس Alabastronpolis العتيقة - الكوم الأحمر ساويرس(*) حاليًا - عاصمة الإقليم الثامن عشر، من أقاليم مصر العليا، حيث كان يُعبد الإله حورس.

وإذ عاد إلى طيبة، بعد أحداث العمارنة العابرة، ظل في خدمة كل من توت عنخ آمون و آي.. واضطر أن يقدم لكهنة آمون، البرهان تلو البرهان، على انحيازه لأصحاب الإيمان القويم، ولكنه ظل على الصعيد السياسي، ينظر على الدوام، بقدر من الريبة، إلى تطلعات كهنة الكرنك ومخططاتهم الطموحة. والشاهد على ذلك، اسمه «*الجديد*»: حور - إم - حب، الذي يربطه بإله المدينه التي انحدر منها، وليس بإله طيبة العظيم، كما كان الحال في الغالب، مع غيره من كبراء الدولة، بل مع الملك الشاب ذاته. لقد كان رجلاً ذكيًا، ثاقب الذهن.

وتزوج الأميرة مُوت - نجمت (أي *مُوت - الرقيقة*)، وهي الأميرة نفسها، على ما يظن، المذكورة في العمارنة، والمقترنة بلقب «*أخت الملكة*»[1]. وذهب البعض إلى القول أنها كانت، على ما يظن، أخت نفرتيتي. هكذا، ارتبط حور - إم - حب بالأسرة الحاكمة.

١- تسلُّم مقاليد السلطة

حول عام ١٣٢٩ق.م، تربع على عرش مصر، في أعقاب هاتف أوحى به الإله آمون لصالحه. ولكن إشارة إلى هذا الإختيار الإلهي، وردت في سياق نص منقوش في معبد مونتو بالكرنك، على باب معبد أمنحوتپ الثالث، يذكر على ما يبدو بوضوح، إلى أن هذا الإختيار صدر عن مجموع الآلهة وتم إبلاغه إلى الكرنك، إبان أحد الأعياد أوپت:

(*) جنوب مغاغة. (المترجم)

لقد أقمت ملكًا، وحَنى (الإله) رأسه، (وكنّا) وجهًا لوجه أمام الأرض قاطبة... لقد صدر الأمر بذلك من السماء وسُمع في الكرنك. كان التاسوع مغتبطًا....

• (كلمات قالها آمون):

أنت ابني الذي أقمته على عرشي. (أنت) سيد وحاكم، كل ما يحيط به القرص... أنت حور – إم – حب، محبوب آمون – رع، رب عروش القطرين، المتسيّد على الكرنك[٢].

وتأسيسًا على ذلك، لا يقوم آمون بالدور الأول، إنه فقط عنصر، لا غنى عنه، عند تكريس تتويج الملك.

وبالمثل، فإن مدونة منحوتة على دعامة الظهر لمجموعة تمثالين تصور حور – إم – حب و مُوت – نجمت، ومن مقتنيات متحف تورينو، حاليًا، نجد أن الإله حورس لمدينة حوت نسوت، هو الذي يريد الإنعام بالمُلك على «*ابنه حور – إم – حب*» ولهذا الغرض، يصطحبه إلى **الأقصر**، إبان العيد أوبت، ليتولى آمون – رع تكريسه. ففي الحالتين، نجد أن آمون ليس الفاعل المنفذ الأوحد.

فليحيَ حورس: الثور القوي، صاحب المقاصد الذكية.

السيدتان: هذا الذي ينجز الروائع العظيمة في معبد الكرنك.

حورس الذهبي: هذا الذي يرضي الحقيقة – العدالة ويأتي بالقطرين إلى الوجود.

ملك مصر العليا ومصر السفلى، رب الأرضين: بديعة هي صيرورات رع، إنه المصطفى من رع. («چسر خپرو رع ستپ إن رع»)

ابن رع، رب الغدوات المتألقة: حور – إم – حب محبوب آمون، محبوب حورس رب حوت نسوت، له الحياة مثل رع للزمن اللانهائي.

الإله الكامل، ابن آمون، سليل كاموتف[٣]*، هذا الذي رفعه آمون ملك الآلهة، وحورس بن إيزيس هو حارسه، ضامنًا الحماية السحرية لجسده. لقد خرج من بطن أمه، وقد تحلّى بالهيبة، مرتديًا اللون الإلهي... ومنذ أن كانت ساعده لا تزال تتدلّى*

كساعد الطفل، كان الكبراء والبسطاء، على حد سواء، يسجدون، بعد أن زاده الطعام والغذاء قوةً. ومع ذلك، كان طفلاً غير راشد... الصورة الإلهية بلونها، في نظر من يتأمل شكله. كما أنه يبث الخوف. إن أباه حورس من خلفه، كما أن من أنجبه كان يضمن حمايته... كان يعرف اليوم المناسب لتسليمه المُلك. (وفي غضون ذلك)، كان هذا الإله يُعلي من شأن ابنه أمام شعب البلد بأسره. كان يودّ توسيع خطاه (أي تعظيم سلطانه) إلى أن يحلّ يوم تسلمه وظيفته (الملكية)، فكان يتجلى أنذاك بصفته محبوب الملك. كان قلب العاهل الملكي راضيًا عن حاله، فرحًا باصطفاه. وأقامه حورس بصفته «الفم الأسمى للبلد»، لتحديد قوانين الشاطئين وبصفته أمير هذا البلد بأسره.

كان الواحد المتفرد الذي لا مثيل له. كانت شئون الأرضين تستقر في يده. وشعب البلد بأسره، يبتهج (لسماع) أحاديثه. وبالفعل، يُستدعى ليمثل في حضرة العاهل الملكي، عندما يهدد القصر (=الملك) بأن يستشيط غضبًا. عندئذ يفتح فمه، ويرد على الملك الذي يرضى بما يقوله من كلمات - هو، الواحد المتفرد القدير الذي لم يأت مثله إلى الوجود... كل مقاصده تسير على خطى أبي منجل (تحوت)، وأفكاره صورة من أفكار رب حسيرت (تحوت)، إنه يفرح بالحقيقة - العدالة مثل تحوت الأقدم الأصلي، وقلبه في عيد بسببها (الحقيقة - العدالة) مثل بتاح. وعندما يستيقظ في الصباح، يُعدَ قربانًا وهو يقدمها (إن تقديم ماعت قربانًا، فقرة من فقرات الطقس الديني الصباحي)... سائرًا في طريق الإلهة التي ستضمن حمايته على الأرض لمدة الزمن اللانهائي.

هكذا، فإنه يدبر شئون القطرين على امتداد سنوات عديدة. وتُقدم له التقارير عن الأعمال الجارية في الأرضين في حكومة مصر العليا ومصر السفلى. القضاة يتقدمون نحوه منحنين، حتى الباب المزدوج للقصر الملكي. ويقترب منه أمراء الأقواس التسعة، من الجنوب ومن الشمال، على حدّ سواء، وقد بسطوا سواعدهم، لملاقاته. إنهم يجلونه كإله. وتتم كافة الأعمال طبقًا لأوامره... وعندما يتقدم، فإن هيبته عظيمة في نظر الشعب، وتصاحبه تمنياتهم بالصحة والإزدهار - إنه بالطبع أبو الشاطئين، إنه الحكمة المتميزة التي أقامها الله لتثبيت القوانين.

وبعد انقضاء أيام عديدة، وبعد أن حصل ابن حورس البكر، على لقب «الفم الأسمى» وأمير البلد بأسره، عندئذ تاق قلب هذا الإله العظيم، حورس، رب حوت نسوت، إلى تنصيب ابنه على عرشه الأبدى... واتجه وسط الفرح العام إلى طيبة، مدينة رب الأبدية، معانقًا ابنه، حتى وصل إلى الكرنك، لتقديمه للإله آمون، كى تُنقل إليه الوظيفة الملكية التى سيشغلها، على مدار زمن حياته. بيد أن آمون – رع كان قد خرج مبتهجًا بمناسبة عيده الجميل بصفته «رئيس حريم الجنوب». عندئذ شاهد جلالة هذا الإله حورس، رب حوت نسوت، وكان ابنه فى صحبته. كان الإله قد حضر ليقدم له هذا الأخير لتسليمه وظيفته وعرشه... وفرح آمون – رع فرحًا عظيمًا عندما رأى.... ثم اقترب من حور – إم – حب(*)، هذه الشخصية المهيبة التى على رأس القطرين. ثم سعى فى اتجاه القصر الملكى، وأقام حور – إم – حب أمامه فى المقصورة پر ور(**)، من أجل ابنته، السيدة النبيلة، صاحبة الإفتتان السحرى (موت نچمت). وحركت الأميرة يديها فى إيماءة تقدير وإحترام. وعانقت جمال الأمير بساعديها ووقفت أمامه. كان التاسوع الإلهى وسادة المقصورة پر نسر(***) يتهللون ابتهاجًا، بمناسبة تتويجه. وكانت نخبت و واچت ونيت وإيزيس ونفتيس(****) وست و التاسوع الإلهى(*****) بأسره المتصدّر العرش العظيم، تسرف فى المديح والثناء اللذين يرتفعان إلى أعالى السماء: «انظروا إذن، لقد حضر آمون، يتقدمه ابنه، حتى القصر، ليستقر تاجه على رأسه، وتعظيم مدة حياته بأكملها. لقد اجتمعنا لتثبيت التاج المزدوج، من أجله، وحصر أعداد زينة رع، من أجله. سوف نمتدح آمون، من أجله: لقد أتيت إلينا، براعينا وحامينا. اعطه أعياد يوبيل رع، وسنوات حورس، بصفته

(*) الاسم داخل خرطوش. (المؤلفة)

(**) اسم معبد عتيق فى مدينة الكاب بمصر العليا. (المترجم)

(***) اسم معبد عتيق فى مدينة بوتو – تل الفراعين، حاليًا – بمصر السفلى. (المترجم)

(****) التصحيف اليونانى للاسم المصرى القديم نبت حوت. (المترجم)

(*****) عن هذه الآلهة راجع: إيزابيل فرانكو: معجم الأساطير المصرية. ترجمة: ماهر جويجاتى، دار المستقبل العربى، ٢٠٠١. (المترجم)

ملكًا، لأنه هو الذى سيرضى قلبك فى الكرنك، وأيضًا فى هليوبوليس ومنف، فبفضله ستدوم (هذه السنوات)....».

*إن جلالة هذا الإله العظيم، آمون ملك الآلهة، خرج من القصر، يتقدمه ابنه، بعد أن عانق جماله، (ابنه) المتوج بالخوذة الملكية، ليتجدد من أجله مدار القرص، كانت **الأقواس التسعة** تحت نعليه، والسماء فى عيد، والأرض تفيض فرحًا، وشعب مصر بأسره راضٍ ويصيح حتى أعالى السماء. التهليل بهجةٌ، كان أشبه بالملبس على الكبار والصغار، على حدٍّ سواء. والغبطة والبهجة تسودان البلد بأكمله*(٤).

كان هذا الفرح العام في **الأقصر** مقدمة تمهد لعهد امتد لخمس وعشرين سنة، بذل حور - إم - حب أثناءها قصارى جهده، لاستعادة النظام فى الداخل وإمساك الملك بزمام الجهاز الإدارى، من جهة، والتصدى من جهة أخرى، لمحاولات **الحيثيين**، الهيمنة على الأقاليم الشمالية للإمبراطورية المصرية. فانقذ البلاد التى تدهورت أحوالها كثيراً، من جراء سنوات من الإهمال والجمود والخمول وعدم التسامح.

٢- الإصلاحات الداخلية

كانت إعادة تنظيم المملكة من الضروريات الأكثر إلحاحًا. فقد استغل موظفو الأقاليم، باختلاف رتبهم ومناصبهم، ضعف الملوك، ليفرضوا مختلف أنواع الضرائب غير القانونية ويقوموا بأعمال النصب. وعاش الشعب في بؤس مدقع. أراد حور - إم - حب أن يدافع عن المستضعفين والفلاحين، فى مواجهة من يستنزفونهم بأساليب غير مشروعة حتى بالغوا فى ظلمهم.

أصدر مرسومًا، الهدف منه إشاعة العدل وتأمين حياة كريمة وهادئة لجماهير الشعب. وقد حفظ لنا الدهر نص هذا المرسوم على واجهة لوح حجرى كبير وجانبيه، يبلغ خمسة أمتار ارتفاعاً وثلاثة أمتار عرضاً، على وجه التقريب، وقد عثر عليه قرب

صرح حور – إم – حب فى الكرنك، وهو الصرح العاشر حاليًا. وللأسف فإن ثلث الأثر مكسور، كما يعانى النص بعدد كبير من التشوهات(*).

..شاوَر صاحب الجلالة قلبه ليبسط حمايته على البلد بأسره... ويصدّ الشر ويقضى على الكذب. إن مشاريعه ملاذ فعّال لطرد العنف... كان يسهر ليل نهار، متفحصًا ما يمكن أن يفيد البلد المحبوب، باحثًا عن الأفعال العظيمة الفائدة... وأُحضر كاتب صاحب الجلالة. وأمسك لوحة كتابة ولفافة بردى وشرع يكتب، ناسخًا كل كلمات الملك، إذ قام هذا الأخير شخصيًا بإملاء المرسوم... الذى تم ختمه بجوار صاحب الجلالة، لوضع حد لأعمال السلب والنهب التى (ترتكب فى) البلد.

مطلع المرسوم الذى دمّر نصه تدميراً بالغًا، مرتبط بالإجراءات القانونية المحددة التى تم اتخاذها لتسهيل تسليم الضرائب، وتجنب السرقات والمظالم، حمايةً لجماهير الشعب، وبالإجراءات المعتمدة لصالح الفلاحين، للحيلولة دون المصادرات التعسفية للغلال والخضروات وبعض النباتات وجلود الحيوانات، على وجه التحديد، فضلاً عن الإجراءات التى تم اتخاذها لتفادى الفساد المستشرى فى أجهزة حصر الموارد. فكانت توقّع عقوبات مختلفة، نذكر منها على سبيل المثال، جدع أنف مرتكب الجريمة أو نفيه إلى أقاصى المناطق الأسيوية، وهلّم جراً...

ثم يستعرض الملك إنجازاته:

لقد بحثت عن رجال، ولجأت إلى زعماء، من عاداتهم، (النطق) بكلمة موفقة و(التحلى) بخُلُق نابه وعلى دراية بسرائر الناس، كما يلتزمون بأوامر القصر الملكى وأوامر الحاكم. لقد رقيتهم ليصبحوا قضاة القطرين، وعند حسن ظن المقيمين فى القصر. لقد أقمتهم فى مدينتى الجنوب والشمال الكبيرتين(**). وفى هاتين المدينتين، يستطيع كل شخص، وبلا استثناء، أن يلجأ إلى الحاكم. لقد وضعت أمامهم

(*) النص المصرى القديم بالخط الهيورغليفى، وترجمة كاملة له، بالإضافة إلى دراسة وافية وتعليقات توضيحية، ومقارنة بالقوانين الحديثة، نجدها فى: تشريع حورمحب. ترجمة وتعليق: د.باهور لبيب ود.صوفى أبو طالب. الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢. (المترجم)

(**) طيبة ومنف. (المؤلفة)

الحسابات(*) والقوانين في سجلاتهم اليومية. لقد أرشدتهم إلى طريق الحياة، لأنني أود السير بهم نحو العدالة. كانت تعليماتي إليهم على النحو الآتي: «لا تصادقوا الآخرين من بني البشر. لا تقبلوا هدية من أحد. من منكم إذن هو الذي يعرّض نفسه للشبهات على الآخرين أو يقترف جرمًا في حق العدالة»... أما أن يقال عن أي موظف كبير أو أي كاهن: «إنه يتخذ مكانه في المحكمة ليؤدي واجبه لإقامة العدالة بين الناس، ولكنه يرتكب جرمًا في حق العدالة»، فسوف تحسب عليه جريرة، وكأنها ذنب خطير، يستوجب عقوبة الإعدام...

كما أقررت عرفًا (جديدًا)، لأن جلالتي يريد تأمين الحماية لكل إنسان. سوف «يلتفون» حول جلالتي، ثلاث مرات شهريًا، ليكون ذلك عيدًا، في نظرهم. فيجلس كل شخص ومعه نصيب من كل ما هو طيب: خبز طازج ولحوم وفطائر، واردة من المؤن الملكية. إن رؤوسهم ممسوحة بالأدهان، وأصواتهم تصل إلى السماء، عندما يجلّون أفضال السيد الملكي..

إن جسد الملك يضيء أطراف الأرض مثل قرص الشمس، وسطوعه قوي، قوة رع، عندما يتجلى في زمن فصل الفيضان(**). ويتألق جماله تألقًا ملحوظًا. وتستقر قوته في قلوب البشر.... حتى تتصرفوا، ملتزمين بهذه المراسيم التي جدّدها جلالتي، ليسود النظام البلد بأسره، بعد أن يكون قد أمعن التفكير في أعمال السطو والسلب التي سبق ارتكابها(***)(٥).

(*) يتعلق الأمر هنا، بالضرائب المطلوب جبايتها، على أن تكون على أكبر قدر ممكن من العدالة.(المؤلفة)

(**) عندما تجتمع كافة قوى الحياة والخصوبة. (المؤلفة)

(***) الترجمة الكاملة لهذا المرسوم في:

نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة. المجلد الأول. نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم كلير لالويت. الترجمة العربية: ماهر جويجاتي. دار الفكر، ١٩٩٦، ص٩٨-١٠٠، ويمكن القارئ المدقق أن يلاحظ الفارق بين هذه الترجمة وترجمة د.باهور لبيب السابق الإشارة إليها. (المترجم)

لم يعد هذا البلد يعيش تحت رحمة موظفين طموحين، قائمين بذاتهم، لا يخضعون لسلطة مركزية بالغة الضعف، بل أصبح بلداً يسوده النظام، استعاد استقراره، بلداً تأكدت فيه أيضاً، إقامة مختلف العبادات والشعائر.

إن نص لوح حجرى - من مقتنيات المتحف البريطانى فى الوقت الراهن، ويحمل اسم حور - إم - حب، القائد العسكرى - ومن ثم يعود إلى تاريخ سابق على تتويجه، يُعتبر فى هذا الصدد بمثابة بيان دينى رسمى. إذ صُوِّر حور - إم - حب فى الجزء العلوى المقوس من اللوح وهو يتعبد لآلهة ثلاثة:

رع - حور - أختى، الإله الأوحد المتفرد(*)، ملك الآلهة الذى يشرق حيًا.

تحوت، صاحب الكلمات الإلهية، الواقف على رأس حسيرت، إنه الإله العظيم، المرشد فى العالم الآخر.

ماعت، ابنة رع، سيدة السماء، وسيدة الغرب.

فالآلهة الثلاثة هى شمس هليوبوليس وإله المعرفة والإلهة الحافظة على تماسك العالم وترابطه.

إن الصفات التى ينعت بها رع - حور - أختى وتحوت من بعده، تبرهن على أن وحدانية، أحد الكيانات الإلهية، فى قلب بعض المؤمنين التابعين له، لا يعيشها صاحبها كمشاعر استئثارية، لا تعترف بإله سواه. إنه «ملك» الآلهة فقط، وكان هذا اللقب، على كل حال، ينفرد به آمون، فى المعتاد، حتى الآن. ولا شك، أن آمون ظل محتفظاً بمكانته متميزة فى مجمع الآلهة المصرية. وقد أعاد حور - إم - حب اسمه على الآثار التى هُشِّم، من على سطوحها، بأمر من أخناتون. ونفّذ فى الكرنك مبانٍ عظيمة فى معبد آمون - رع. كان حور - إم - حب يحتاج إلى مساندة كهنة آمون تدعيماً لشرعيته التى كانت إلى حد كبير، محل جدال. ولكن الترنيمة المنقوشة على

(*) العبارة ذاتها التى كان ينعت بها أتون. (المترجم)

اللوح الحجرى تَتَوجّه إلى كافة أشكال الشمس، كما أن أساطير **هليوبوليس** متواجدة فى كل مكان:

*إنى أعبد رع سواء فى غروبه أو فى شروقه... التحية لك، أيها الساطع النافذ القوى، أيا آتون – حور آختى. وبينما تظهر متألقًا فى أفق السماء، فإن أفواه بنى البشر أجمعين، تهلل لك وتحييك. أنت، أيها الجميل، الشاب شبابًا أبديًا فى القرص، إن ساعدى والدتك حتحور تعانقك... إنك تغمر الأرض بالفيروز. أيا رع – حور آختى، الفتى الإلهى، وريث الزمن اللانهائى، الذى ينجب نفسه بنفسه، ويأتى إلى الدنيا، بذات نفسه، يا ملك السماء والأرض، يا أمير العالم الآخر، المتسيّد على صحراء الجبانة – المنبثق من الماء (الأصلى)، الذى خرج من تلقاء ذاته من نون، الذى ارتفع وقدّس ولادته. أيها الملك القدير الذى يضئ الأفق، بينما يُحيّى **التاسوع** شروقك ويغتبط البشر ويفرحون عندما تظهر من أجلهم... أيها الفتى الجميل، يا رب الحُب والهوى، القوى قوة عظيمة، الذى لا يعرف التعب والإرهاق، أيها الراكض المسرع، الواسع الخطى... أيها الفتى الكامل، الذى انجبه **بتاح**، يا صاحب الأشكال المنتقاة، بدرجات تفوق أشكال غيره من الآلهة...*

*الحمد لك والثناء عليك، أيا تحوت، يا سيد **هرموبوليس**، الذى أتيت إلى الوجود من ذات نفسك، وبلا حَبَل، أيها الإله الأوحد المتفرد، المرشد فى **الدوات**، الذى يحدد قواعد **أهل الغرب** السائرين فى صحبة رع، الذين وقع اختيار لسانهم من قبل البلدان الأجنبية جمعاء...*

الحمد لكِ والثناء عليكِ، أيا ماعت، يا سيدة نسمات الشمال، التى تفتح أنوف الأحياء، والتى لا تتوقف عن منح الأنفاس للقائم فى قاربه المقدس...(٦)

ومن جديد، تتداخل الآلهة وتختلط من أجل فاعلية سحرية إلهية وكاملة، لتكفل حماية البشر وسعادتهم. هكذا أخذت النزعة التلفيقية syncrétisme الدينية تنمو وتتطور.

ومن السمات البارزة لعهد حور – إم – حب تبجيل آمون – ربما لدوافع سياسية – والميل إلى عقائد **هليوبوليس** العتيقة، والشعور بالريبة نحو كهنة **الكرنك**. وعلى الصعيد الدينى، يعتبر عهد حور – إم – حب مقدمة تمهيدية لإهتمام **الرعامسة** بإبداع نوع من الروحانية العالمية، تتمركز حول عبادة الشمس بأشكالها المتنوعة. وستعمل هذه الوحدة الأيديولوچية، على تدعيم نظامهم السياسى. إن حور – إم – حب، هو المصدر الذى نشأت منه أيديولوچية إمبراطورية جديدة، وإن كانت تدين بالكثير بلا شك للأيديولوچية السابقة عليها، والتى استشعرها **تحوتمس** الثالث[٧]، ولكنها ستعمل أكثر فأكثر، على تنمية وحدة الشعوب ومعتقداتهم، فى حضن إمبراطورية شاسعة موحدة، يقف على رأسها **الفرعون – الإله**، بصفته الزعيم الأوحد، المطلق الصلاحية[٨].

٣- حماية الإمبراطورية والحفاظ عليها

والأقرب إلى الصواب، أن حور – إم – حب، عندما كان لا يزال قائداً عسكرياً، قد قاد حملة عسكرية إلى **آسيا**. وكما لاحظنا من قبل[٩]، فإن الأمير **أرنووآندا** الراغب فى الإنتقام لمقتل أخيه، كان يزحف على رأس جيش **الحيثيين**، فى اتجاه نهر **العاصى**، الحدود الشمالية لممتلكات مصر فى **آسيا**. كانت **كنعان** ثائرة، ربما بتحريض من **أزيرو** الذى أصبح حليف **الخاتى** أو من **سوبيلوليوما** ذاته، إلا إذا كانت قبائل هذا البلد قد تصرفت لحسابها الخاص. وعن هذه الأحداث ذاتها، لا نعرف سوى النذر اليسير. ولكن على جزء من نقش جاء من مقبرة **حور – إم – حب** فى **منف**، ومن مقتنيات متحف **ڤيينا بالنمسا**، فى الوقت الراهن، يُذكر أن **فرعون** – وربما كان **أخناتون** المقصود – «*قد أرسل رجلاً قويًا ومقدامًا على رأس جيشه*». وللأسف فالنص أصابه تلفًا بالغًا. ومع ذلك، وإلى جانب مشهد يصور **آسيويين** يتقدمون فى وضع ذليل وظهورهم منحنية أمام حور – إم – حب، يمكن قراءة الجملة الآتية: «*كانت البلاد تتضور جوعًا، وتعيش عيشة ماعز الصحراء*»[١٠]. بل ربما طلب البعض التصريح لهم بالإقامة فى مصر.

وبالطبع، فإنها كلمات مقتضبة بعض الشيء، ولكنها تكشف مع ذلك، استعادة أراضي أسيوية تابعة للإمبراطورية، بأساليب عسكرية. الأمر الذي تؤكده المدونات المنقوشة على الجدار الشرقي من الفناء الواقع بين الصرحين التاسع والعاشر، والتي توضح تسليم الجزية الواردة من رتنو و حاو نبوت و بونت[١١].

ويلقي «كبراء بونت» هذا الخطاب:

التحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة، فليدم كأوك زمنًا طويلاً. فلم نكن نعرف مصر، وأباؤنا لم يسبق لهم أن وطئوا أرضها. امنحنا النسمات التي تقدمها لنا في المعتاد، فكافة البلدان تحت نعليك[١٢].

وتأكيداً واضحًا للإتجاه الجديد للحفاظ على الإمبراطورية، فإن الأسرى الأفارقة، المسجلة صورهم في مقصورة حور - إم - حب الصخرية، بجبل السلسلة يرددون العبارات نفسها، تحيةً للبطل الذي أعاد توحيد الإمبراطورية، دون أن نعرف يقينًا، قيام حملة عسكرية ضد أراضي الجنوب:

التحية لك، يا ملك مصر وشمس الأقواس التسعة، لقد ذاعت شهرتك في بلاد كوش وصيحتك، صيحة الحرب، في عقر ديارهم. إن قدرتك، أيها الأمير الجميل، تحول البلدان الأجنبية إلى أهرامات (للجثث)[١٣]*، أيها الفرعون، يا نور الشمس*[١٤].

هكذا، فإن اللقب الذي يُنعت به في المعتاد الأباطرة الرعامسة: «**ملك مصر وشمس الأقواس التسعة**» وسبق أن لاحظنا وجوده في عهد تحوتمس الثالث[١٥]، وإن في أضيق الحدود، أصبح من الآن تسمية مألوفة تطلق على الإمبراطور، ليقرن هيمنة مصر العتيقة بالسيطرة الجديدة التي يفرضها على فتوحاته الجديدة، في أراضي آسيا وإفريقيا التي تجله وتبجله في هيئة الشمس التي يعتبر الجميع شركاء فيها.

وعلى الصعيد السياسي أيضا، يعتبر حور - إم - حب، النبع الحي الذي نهلت منه أيديولوچية الرعامسة.

٤- طيبة

استعادت طيبة، وإن لفترة قصيرة، مكانتها كعاصمة سياسية وإدارية. وسيظل الكرنك، بالنسبة للإمبراطورية، الموقع المقدس العظيم.

كما أن عصر الإنشاءات الشامخة لم يكن قد وصل إلى خواتيمه. فبدأ حور - إم - حب في تشييد الصرح الثاني، أمام صرح أمنحوتب الثالث، ليصبح المدخل المهيب الجديد لمعبد آمون - رع. كان طوله ٩٨متراً وعرضه ١٤متراً، وسيتولى رعمسيس الأول، استكماله.

وعلى المحور الشمالي الجنوبي للمعبد، انشئ طريق ليربط، من الآن، معبد مُوت بمعبد آمون - رع. كان دربا طويلاً للمواكب الإحتفاليه طوله ٣١٠ أمتار ويحفه ١٢٠تمثالاً لأبو الهول برأس كبش، تحمل اسم حور - إم - حب.

كما أن الصرح العاشر الذى يشكل المدخل الجنوبى لحوزة آمون يحمل اسم حور - إم - حب. كان يتكون من برجين من الحجر الرملى، وقد أصابهما، فى الوقت الراهن، دماراً شاملا. كان يربطهما باب من الجرانيت الوردى. وحُشى الصرح بأحجار أمنحوتب الرابع، المعروفة إصطلاحاً بأحجار التلاتات، التى جاءت من معبد جم آتون، بعد أن تم هدمه. وعلى كل حال، فربما كان هذا المدخل الجنوبى، يتكون من مجرد باب بسيط، الأمر الذى قد يفسر وجود تمثالين عملاقين، لهذا العاهل الملكى فى هذا المكان.

بعد أن كانت طيبة، قرية فلاحين ومراكبية، أصبحت عاصمة العالمين الإفريقى والآسيوى، وأكثر المدن ثراءً فى العالم وأكثرها روعة ومهابة. إنها الطريق الذى سلكه ألفا سنة. إنها قرون طويلة من التاريخ، ربما لن يجد فيها هواة جمع الأحداث الدقيقة والمحددة، ما يرضى فضولهم. ولكنها قرون حافلة بفكر فى أوج تطوره، سواء كان دينياً أو سياسياً، ما زال يستشرف عناصره ويتشكل. ولكنه سيعرف أزهى إزدهاره فى عصر الرعامسة.

وقرب نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد هذا، كان لا محالة من أن تنتهي المنافسة المحتدمة بين مصر والخاتي، إلى قيام الحرب بينهما.

ولكن أصبح يحكم مصر، من الآن ملوك عسكريون تحلوا بذكاء نابه وشجاعة مقدامة، فعرفوا كيف يسيطرون على الموقف في آسيا، في حين ظلت المناطق الإفريقية الخاضعة للهيمنة المصرية خضوعًا تامًا، هادئة نسبيًا.

إن نظرة حور – إم – حب السياسية الثاقبة، تتلخص بالفعل، في أنه أدرك، في الظروف القائمة أنذاك، أن زعيمًا محاربًا فقط، في مقدوره الحفاظ على ما تبقى من الإمبراطورية المصرية والقضاء على طموحات الخاتي. ولما لم يُثمر زواجه من مُوت نچمت عن انجاب ولد، فقد قام شخصيًا باختيار من يخلفه، دون أن يستطيع كهنة آمون التدخل، فاختص بهذا المنصب الوزير والقائد العسكري پا رعمسيس وكانت تانيس، في شرق الدلتا، مسقط رأسه، وهي المدينة القريبة من مناطق الإمبراطورية الآسيوية الحدودية الحصينة.

وحول عام ١٣١٤ق.م، تربع رعمسيس الأول على العرش، ليصبح الأول من بين سلسلة طويلة من الفراعنة المحاربين الأشاوس المرهوبي الجانب(*).

(*) وقد أفردت لهم المؤلفة مجلداً مستقلاً، سوف تصدر ترجمته العربية قريبًا. (المترجم)

هكذا، فعلى امتداد خمسة قرون، عاشت طيبة، والإمبراطورية التى فتحها التحامسة وتصوروها. ومن خلال سيرنا عبر هذا الطريق الطويل، تبقى عدة مناطق مظلمة فى نظرنا. وكما لاحظنا، فإن صياغة تاريخنا، هو عبارة عن لعبة ضخمة تحتاج منا إلى صبر أيوب، إذ تتلاصق فيها الوثائق التى جاءت، من كل حدب وصوب، وتتنوع طبيعتها، وقد جادت بها الصدفة البحته أثناء أعمال التنقيب أو الكشوفات غير المنتظرة، أو تحتفظ بها المتاحف، منذ زمن بعيد، ونجهل مصدرها.

وطوال هذه القرون الخمسة، ظلت طيبة المركز الأول لكل حياة، سواء حياة الآلهة أو حياة البشر: فكل شيء يتشكل، إنطلاقًا من هذا الموقع السامى، بدءًا من الكشوفات الفجائية المبهرة، نذكر منها، مقبرة توت عنخ آمون، وصولاً إلى كسفة بسيطة، هى كل ما تبقى من إناء من الفخار، تحمل اسم أو تاريخ يُلقيان النور على معلومة أخرى. وتظل جدران الكرنك الشامخة المقدسة وزخارف المقابر المنحوتة فى الصخر، مصادرنا الرئيسية.

ومن ثم، فإن وثائقنا هى عبارة عن مشهد عالق بين السماء والأرض، أو مدفون فى باطن الأرض. إنها مجموعة أدبية لا نظير لها، إنها مكتبة كاملة مدونة على مختلف الركائز، إنها عالم من النصوص، لا نلتقى بمثل ثرائها ووفرتها إلا فى فكر العالم الكلاسيكى، عالم الحضارتين اليونانية والرومانية القديمتين، وريثتى العقلية المصرية.

إن معنى التاريخ فى مصر، كما يمكن أن نفهمه(*)، فى الوقت الراهن، يُؤْثر التصورات الذهنية والصيغ اللفظية ذات الدلالة السحرية وأبعادها الأبدية التى تغالب الأيام، على الوقائع والأحداث العابرة والعرضية.

ولكن هذا التاريخ المديد الذى ننهمك على دراسته، بكل ما أوتينا من ولع وشغف صادقين، لن يصل أبدًا إلى نهايته. إن عالِم المصريات أشبه بالعامل

(*) بالنسبة للمؤرخ الغربى. (المترجم)

بالمقطوعية، على مستوى الذهن والعقل، فيُجمَع يوماً بعد يوم، عناصر جديدة، تنبثق دون توقف، من وسط الرمال.

إن علم المصريات، ما زال في مرحلة الشباب، إنه علم واعِد يُرجى منه الكثير.

الهوامش

هوامش المقدمة

(١) أطلق الإغريق على الإقليم الاسم اليونانى نوموس nomos ويقابله بالفرنسية nome وبالمصرية القديمة سبت.

(٢) نقشت هذه النصوص على جدران الحجرات الجنائزية داخل هرم أوناس آخر ملوك الأسرة الخامسة وأهرام ملوك الأسرة السادسة - وتعود إلى القرن الرابع والعشرين قبل الميلاد تقريبًا.

(٣) راجع فيما بعد: المقدمة. فقرة: آمون وتأسيس الكرنك.

(٤) راجع الفصل الأول.

(٥) يصور الـ «با» فى هيئة طائر برأس آدمى برجلين تنتهيان بيدين. إنه العنصر الحركى للكائن البشرى وفى وسعه أن يخرج من الجسد ويعود إليه. فيجلب للمتوفى نسمات الأرض العليلة. إنه الرباط المجنّح الذى يربط المتوفى بعالم الأحياء.

(٦) متون الأهرام. 1197§.

(٧) النحاس هو مادة النجوم.

(٨) متون الأهرام 2051 §.

(٩) متون الأهرام 538 §.

(١٠) الإلهة نوت. فوفقًا للاهوت هليوبوليس، تحل هذه الإلهة أحيانًا محل إيزيس، فى جمع أشلاء جسد أوزيريس المبعثرة.

(١١) إنه أول تعبير عن عقيدة الملك الراعى الصالح الذى يسهر على شعبه ويحميه منذ وجوده فى الدنيا إلى أبد الآباد.

(١٢) متون الأهرام 827-829 § .

(١٣) متون الأهرام 1143-1144 §.

(١٤) راجع فيما بعد: الفصل الرابع الولادة الإلهية والسياسة.

(١٥) راجع فيما سبق: مطلع المقدمة.

(١٦) راجع فيما بعد: الفصل الثاني: الكرنك: الفقرات الأخيرة.

(١٧) راجع فيما بعد: الفصل الأول: بلاد بونت.

(١٨) C. L. Textes pp. 196-197.

(١٩) إنهما صفتان أساسيتان في نظر المصرى وتتجسدان فى الإلهة ماعت التى كان الوزير كبير كهنتها.

(٢٠) C. L. Textes, p.238.

(٢١) المرجع السابق: p.241.

(٢٢) المرجع السابق: p.238.

(٢٣) المرجع السابق: p.244.

(٢٤) المرجع السابق: p.237.

(٢٥) المرجع السابق: p.243.

(٢٦) المرجع السابق: p.245.

(٢٧) المرجع السابق: p.163.

(٢٨) القلب هو مركز الحياة الوجدانية والتصورات الذهنية.

(٢٩) الترجمة الحرفية للتعبير المصرى. والمقصود بذلك ابن بتاح حوتب.

(٣٠) C. L. Textes, p.236.

(٣١) راجع فيما بعد: الفصل الأول: كنعان أرض البدو.

(٣٢) عن مصير مصر وقدرها، لم يتبق حتى خط التراب البسيط الذي يوجد أحيانًا فى الجزء العلوى من الظفر.

(٣٣) وصف حسىّ لبؤس وشقاء بلد غرق فى أحداث الثورة. إن الواقع والأسطورة يختلطان ويتداخلان كما شاع فى النصوص المصرية، كلما أراد المرء أن يوحى إيحاءً عميقًا، بوضع

من الأوضاع أو ببعض المشاعر.

(٣٤) C. L. Textes, pp.71-72.

(٣٥) المرجع السابق: p.213-218.

(٣٦) المرجع السابق: pp.224-225.

(٣٧) راجع مطلع هذه المقدمة.

(٣٨) C. L. Textes, p.54.

(٣٩) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: تحوتمس الأول: النص المدون على صخور طمبس.

(٤٠) C. L. Textes, p.51-56.

(٤١) راجع فيما سبق: فى زمن الأهرامات الأولى.

(٤٢) C. L. Textes, pp.57-58.

(٤٣) اسم تتويج سنوسرت الثالث ويعنى «تظهر كاءات رع متألقة».

(٤٤) إلهة - أسدة، ومحاربة مرعبة.

(٤٥) C. L. Textes, p.77.

(٤٦) Empire des Ramsès, p. 388.

(٤٧) راجع فيما بعد: الفصل الخامس. الفقرة ٢: الجزية...

(٤٨) عن هذه القلاع راجع فيما بعد الفصل الأول. الفقرة: ١- النوبة والسودان. والفصل الثالث. الفقرة: ٢- الوزير ونواب الملك. والفصل الرابع الفقرة: ١- الملك المصطفى والملكة والملك والفصل الخامس الفقرة: ٤- معالم النوبة الأثرية والفصل السابع. الفقرة: ١- التواجد فى النوبة.

(٤٩) راجع فيما بعد: الفصل الثاني. الفقرة ٢. طيبة المنتصرة.

(٥٠) راجع فيما سبق: الثورة الإجتماعية.

(٥١) راجع فيما بعد: الفصل الخامس. الفقرة: ٤ معالم مصر الأثرية.

(٥٢) Barguet: Temple d'Amon - Rê, p.2

(٥٣) Sethe: Amun

(٥٤) Petrie: Qurneh, pl. X.

(٥٥) ويمتزج الإله بعناصر الحياة في وحدة متكاملة لخير الإنسان.

(٥٦) Daumas, in BIFAO, 1967, vol.65, p.213
Wildung, in MDAIK, 1969, vol. 25, p.212.
Karnak VI, p. 267, note 1.

(٥٧) Daumas, ibid, p. 214

(٥٨) راجع فيما سبق: نشأة النظام الملكى.

(٥٩) وبات من الشائع منذ الآن أن ينعت ملوك مصر بهذه الصفة، لا سيما فى عصر الرعامسة.
.cf, Empire des Ramsès, p.374

(٦٠) صورة أسطورية موغلة فى القدم للصقر الشمسى. فإن إحدى عينيه هى الشمس والأخرى القمر. وعبارة «ما تنيره عينه»، تشير إلى الكون.

(٦١) Urk. vII

(٦٢) إن الآلهة التى تصور وقد دثر جسدها فى رداء محبوك، هى فى الغالب من الآلهة الخالقة الواهبة الحياة، وكان كل إله منها، سيد قوى الإنبات، ومنها على سبيل المثال أوزيريس وبتاح ومين. وربما كان هذا الرداء المحبوك المرادف للحاء الشجرة الذى يضم القوى النباتية المتجددة دائماً، لتعود إلى الحياة. ومن ثم فهو رمز لانطلاق الحياة ودورتها التى لا تتبدل. كما أن أولى تماثيل بريابوس(*) Priape، قد قُضّبت فى لحاء شجرة.

(*) بريابوس: إله الخصوبة والإنجاب فى الأساطير اليونانية. (المترجم)

(٦٣) Empire des Ramsès, pp.219 sq

(٦٤) راجع فيما سبق: فى زمن الأهرامات الأولى.

(٦٥) .C. L. Textes, p.175

(٦٦) إن كلمة فلان تحل محل اسم الشخص الذى يتغير بتغير التوابيت.

(٦٧) متون التوابيت التعويذة 790.

(٦٨) Empire des Ramsès, pp. 144 sq

(٦٩) وهو الاسم الذى كان يطلق على هذه المدارس، لأن كل علامة من علامات الكتابة سواء كانت محفورة أو مرسومة كان لها القدرة على التنشيط والإحياء بفضل تأثير السحر. وهكذا كان الكتبة يخلقون أغلفة يفترض لها أن تستوعب الحياة.

(٧٠) ترجمة القصة: C. L. Textes, pp.197 sq

(٧١) جوف منطقة سوريا – فلسطين الحالية.

(٧٢) الكا هو الاسم الذى أطلقه المصريون على الطاقة المحركة القائمة فى كل كائن، وتبعث فيه الحياة والنشاط. ويعتقد إذن أن هذه الجزيرة الأسطورية كانت موطن مبدأ الحياة ذاته.

(٧٣) راجع فيما سبق: مطلع المقدمة.

(٧٤) راجع فيما سبق: المقدمة: أوزيريس فى أبيدوس.

هوامش الفصل الأول

(١) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(٢) Posener, in Z.A.S, 1957, vol. 83, pp. 38-43
Van seters, Hyksos, p.109

(٣) Posener, in Kush, 1958, vol. vi, pp. 39-65.

(٤) Emery, in Kush, 1959, vol. vii, p. 7 sq.

(٥) Herzog, in A.D.A.I.K., 1968, vol.6, p.9 sq

(٦) Empire des Ramsès, p. 270 sq.

(٧) P. Montet, Byblos et L'Egypte.

(٨) Ibid, p. 273.

(٩) P. Montet, Le roi Sahourê et la princesse lointaine. In Mélanges syriens offerts à M. Dussaud, I, 1939, pp. 191-195.

(١٠) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: ٢- مصر الإمبراطورية. من أجل تعريف الإمبراطورية (المقطع الأخير).

(١١) راجع لا سيما الحملات الخامسة والتاسعة والسابعة عشرة. (Urk, IV, 732).

(١٢) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(١٣) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.

(١٤) راجع أساساً:
L'Égypte et le monde égéen prehellènique, Le Caire 1956.

(١٥) Lexikon, Bd. II, col. 1053-1054

(١٦) Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinaï, p.1 sq

(١٧) Lexikon, Bd. IV, col. 1156- 1158.

(١٨) Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinaï, pl.xvIII, p.80.

(١٩) Enseignement de Kheti, III à son fils Merikarê

(٢٠) P. Garelli, Proche - Orient asiatique, p. 85

(٢١) راجع فيما سبق المقدمة: السياسة الجديدة.

(٢٢) P. Garelli, Proche - Orient asiatique, p. 95-96

(٢٣) المرجع السابق P.98.

(٢٤) المرجع السابق P.128.

(٢٥) راجع فيما بعد: الفصل السابع: أولى عناصر القانون الدولي.

هوامش الفصل الثانى

(١) Newberry, in J.E.A., 1943, vol.29, pp. 74-75

(٢) Hayes, in J.N.E.S, 1953, vol. xll, nº 1, pp. 32-39

(٣) تقع هذه المدينة شمال طيبة.

(٤) Wadell, Manetho, p.73

(٥) من مدن الدلتا.

(٦) Wadell, Manetho, p.44

(٧) Montet, in Kêmi, 1928, tome I, pp. 83-93.

(٨) Wadell, Manetho, p.79

(٩) عن المناقشات العديد التى دارت حول إيمرو وعنخو راجع:

J. von Bechereath, in J.N.E.S., 1958, vol. 17.

(١٠) سفر الخروج. الاصحاح ١٢:٤٠.

(١١) Empire des Ramsès, p.259.

(١٢) Drioton - Vandier: Egypte, p.289.

(١٣) أو على أقل تقدير فى المنطقة المجاورة.

Montet, in Drame d'Avaris, p.47 sq.

(١٤) Bietak, in Lexikon, vol. v, pp. 128-129.

(١٥) Kitchen, Pharaoh triumphant, p.122

(١٦) راجع تحديداً:

Save Sôderbergh, in J.E.A., 1971, vol. 57, p.53-71.

Van Seters: Hyksos, p.152 sq-CAH, p.54 sqq.

(١٧) P.C. Labib, Die Herrschaft der Hyksos in Agypten und ihr Sturz. Glückstadt - Hamburg, 1936, p.27.

(١٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: **فينقيا**.

(١٩) Empire des Ramsès, p. 147 sq

(٢٠) راجع فيما بعد: الفصل الثاني: ثلاث سيدات في البلاط الملكي.

(٢١) Stock, Studien zur und Archäologie der 13 bis 17 .Dynastie Aegyptens- Glükstadt- Hamburg, 1942.

(٢٢) المرجع السابق.

(٢٣) Garstang, in J.E.A., 1928, vol.14, p.46 sq., pl. 7

(٢٤) Winlock, Rise and fall of the Middle kingdom, p.148

(٢٥) CAH, p.61

(٢٦) Winlock, in J.E.A., 1924, vol. 10, pp.217-277

(٢٧) لقد حذف بيكيراث J.von Beckerath رع حوتپ من الأسرة السابعة عشرة.
(Lexikon, Bd. I, col. 301-302).

وضمه إلى الأسرة الحادية عشرة أسوة بـ
E. Brunner- Traut: ibid, Bd. I, col. 963-964.

أو وينلوك Winlock فإنه يضع هذا الملك في المرتبة الثانية
(Rise and Fall, p.121).

ولكن Stock (op. cit.) و Edwards (in CAH, p.65) يستمران في وضع عهده على رأس الأسرة السابعة عشرة طبقًا لما ورد في بردية **تورينو**.

(٢٨) مجموعة الألقاب الملكية كانت تضم خمسة أسماء:

- **الاسم الحوري** وكان حورس حامي الملكية وراعيها منذ عهد **نعرمر**.
- **اسم السيدتين**: ويربط العاهل الملكي بالإلهتين الحاميتين لمصر **العليا** ومصر **السفلى**. وهو

قديم جداً أيضاً. والإلهتان هما نخبت الطائر الرخمة أو العقاب والثعبان واجت.

- اسم حورس الذهبي: (أي حورس الشمسي)

- اسم ملك مصر العليا ومصر السفلي: (حرفياً «الذي ينتسب إلى البوص والنحلة» وهما من الظواهر المميزة لفلورة وفونة هاتين المنطقتين).

- اسم ابن رع: وهو لقب الأسرة المالكة.

(٢٩) إن سيا وحو هما تأليه لصفتين أساسيتين من صفات الكائن البشرى. سيا هى المعرفة أما حو فهو النطق بالكلام أو الفعل الإرادى فى إصدار الأوامر.

(٣٠) نلتقى بتعبير الملك الساهر على شئون رعاياه فى مرسوم حور - إم - حب. ونصوص عصر الرعامسة.

(٣١) Petrie, Koptos, pl. xll.

(٣٢) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(٣٣) نص أوستراكون فلورنسا.

Gardiner, Late Egyptians Stories, p.91, 1. 10-14.

(٣٤) Rise and Fall, p. 125

(٣٥) راجع فيما سبق: المقدمة: الثورة الاجتماعية.

(٣٦) ليسوا أسيويين. ولكن من المتفق عليه أن هؤلاء الأعداء هم صور سحرية محرمة استولى عليها تيتى ابن مين حوتب وأدخلت إلى المعبد.

(٣٧) القرابين التى يستهلكها الكهنة وكبراء البلد، بعد أن يستهلكها الإله استهلاكاً سحرياً.

(٣٨) Petrie, Koptos, pl. vlll

(٣٨مكرر) كان إيمحوتب وزير الملك جسر (حول ٢٧٠٠ق.م) ومهندسه. وكان جدف حور أحد أبناء الملك خوفو. وقد ألفا سفرين فى الحكمة لم نعثر أبدا على نصهما، وإن أشارت إليهما الكتابات اللاحقة.

(٣٩) بخور بلاد بونت.

(٤٠) Holwerda - Boeser: Leiden, Rijksmuseum van Oudheden. Beschreibung der aegyptischen Sammling- La Haye, 1905- 1932, vol. iv, pl.6.

(٤١) راجع فيما سبق: المقدمة: الثورة الإجتماعية.

(٤٢) Vandersleyen, in lexikon, Bd.V, col. 847-848

يذهب Edwards, in CAH, p.72-73 إلى احتمال وجود ملكين يحملان اسم سقنن رع تاعا. وأن تيتى شيرى كانت زوجه الأول ووالدة الثانى.

(٤٣) أى ملك مصر.

(٤٤) مصر فى حد ذاتها أى الجنوب آنذاك.

(٤٥) إن إعادة صياغة بعض الفقرات الناقصة والواردة بين معقوفين [...] هى من اقتراح G.Lefebvre, Contes et romans pp.134-136.

(٤٦) Gardiner: Late Egyptians Stories, pp.85-89

(٤٧) Maspero: Contes populaires, p. xxvi

Lefebvre: Contes et romans, p.132

(٤٨) عن هذين اللوحين الحجرين وظروف الكشف عنهما يمكن مراجعه على وجه التحديد:

Gunn et Gardiner in JEA, 1918, vol. 5, pp. 36-56.

Hammad, in C.E. 1955, vol. 30, pp. 198-208.

L. Habachi, in A.S.A.E., 1956, vol. 53, pp. 195-202.

L. Habachi: The second stela of Kamose. Glüchstadt, 1972, p.67, pl.viii.

(٤٩) فى نظر المصريين كانت النوبة والسودان تشكلان من الناحية الجغرافية الطبيعية جزءًا لا يتجزأ من بلادهم.

(٥٠) القوصية وهرموبوليس من مدن مصر الوسطى، وتقعان عند منتصف الطريق تقريبًا بين طيبة ومنف.

(٥١) عن هذه الصورة الدائمة التى تشبّه السلام بالجو الرطب وتوحد بينهما، والشعور الحسى بذلك فى بلد تسوده حرارة الجو راجع: Empire des Ramsès, p. 399.

(٥٢) مدينة هامة تقع إلى الشمال من هرموبوليس.

(٥٣) راجع فيما سبق: الفصل الأول: النوبة والسودان.

(٥٤) Empire des Ramsès, p. 379 sq

(٥٥) لوح من الحجر الجيرى يبلغ ارتفاعه ٢٢٠سم وعرضه ١١٠سم وسمكه ٢٨سم. إن أبعاد اللوح الأول الذى لم يعثر سوى على أجزاء منه كانت مماثلة، على ما يرجح.

(٥٦) منطقة غير معروفة.

(٥٧) إن كامس يعيد أبوبى إلى وضعه كآسيوى.

(٥٨) منطقة غير معروفة أيضًا. ويرى لبيب حبشى أن هذا الاسم قد يعنى: «الزمن (اللازم) للهبوط مع التيار». ربما كانت ملتقى طرق تجارية بين مصر العليا ومصر السفلى.

(٥٩) ملاحظة إنطباعية: إن أنف النساء فقط هو الذى يظهر من خلال المزاغل الضيقة.

(٦٠) صيغة قَسَم.

(٦١) إن عدداً من المدن كانت تحمل هذا الاسم الذى يعنى «بين الإلهة حتحور».

(٦٢) فربما النيل.

(٦٣) تعبير يؤكد على تبعية أمير كوش للأمير أبوبى.

(٦٤) تشبيه ساخر يشير إلى القطرين اللذين يحكمهما الهكسوس وأبناء كوش - فى مقابل قطرى النظام الملكى التقليدى عند الفراعنة أى مصر العليا ومصر السفلى.

(٦٥) الاسم الذى كان يطلق على المناطق السودانية الواقعة إلى جنوب الجندل الثانى.

(٦٦) بلدان أفريقيا. كان الجنوب فى نظر المصريين هو الجهة الأصلية، حيث منابع النيل.

(٦٧) أى فى المنطقة التى كانت لا تزال من الناحية الإسمية خاضعة للاسيويين.

(٦٨) بلدة القيس حاليًا.

(٦٩) أى الجماهير المحتشدة عند الشواطئ.

(٧٠) لقب تقليدى، ولا ينطوى هنا على أى دلالة سياسية.

(٧١) كان فرعون يكافئ أكثر ضباطه بسالة بمنحهم قلائد من ذهب.

(٧٢) أسرى الحرب وغنائم الحملة العسكرية.

(٧٣) رابع أسماء الملك أحمس.

(٧٤) Urk. I., Isq

(٧٥) Vandersleyen, Guerres d'Amosis, p.34 sqq

(٧٦) نعرف أن الملك أبوبي الذى نُسخت بردية ريند Rhind فى العام ٣٣ من عهده، كان ما زال متربعًا على العرش فى عهد كامس، كما طالت سنوات حكمه حتى بلغت الأربعين سنة تقريبًا. ومن ثم لا يمكن أن يكون عهد الملك المقصود بالعام ١١، سوى خليفته الملك خع مودى أو أحمس، ومن الراجح أنه هذا الأخير.

(٧٧) كان الملك يكافئ الجنود الأشاوس بقدر ما قتلوا من جنود الأعداء وعدد الأسرى. ولحصر عدد القتلى كانت تقطع يدهم اليمنى لإحضارها إلى فرعون.

(٧٨) كناية على امتداح قوة أحمس وشجاعته. فقد استطاع أن يعبر الماء وهو يحمل أسيرًا دون عناء وكأنه يسير على طريق معبد.

(٧٩) راجع فيما سبق: الفصل الأول: فينقيا.

(٨٠) Urk. Iv, 35 (1. 16-17)

(٨١) Urk. Iv, 24-25

(٨٢) الارتفاع: ٢٥٠سم والعرض ١١٥سم.

(٨٣) أحمس هو ملك الجنوب في په أى تل الفراعين فى الدلتا وهو ملك الشمال فى البلد المحبوب، وكانت هذه التسمية تشير إلى طيبة ومنطقتها. الخلط المقصود بين المكانين يعتبر تعبيرًا لغويًا عن استعادة وحدة مصر التى لا تنفصم.

(٨٤) من مدن الدلتا وفيها نشأت أيزيس ابنها حورس، فى سرية تامة.

(٨٥) من مختلف طبقات المصريين.

(٨٦) سيشات هى إلهة الكتابة.

(٨٧) Urk. Iv, 14-24

(٨٨) راجع فيما سبق: الفصل الأول: سيناء.

(٨٩) راجع فيما سبق: الهكسوس في مصر.

(٩٠) عن مختلف العبادات هذه، راجع:

P. Garelli, Proche - Orient asiatique, passim.

(٩١) Vandersleyen: Guerres d'Amosis, Appendices

(٩٢) Winlock, in Ancient Egypt, 1921, pp.14-16

(٩٣) وهنا يظهر لأول مرة هذا اللقب الشرفي الذي حملته ملكات مصر.

(٩٤) كاهن يشارك في إقامة الشعائر الجنائزية.

(٩٥) من كبرى الأعياد الدينية والزراعية.

(٩٦) من الراجح ليتمكن من كتابة صيغة تقديم القرابين.

(٩٧) Urk. Iv, 26-29

(٩٨) Erman, in Z.A.S., 1900, vol. 38, p.150

(٩٩) كان يناط بالكهنة وعب القيام تحديداً ببعض الطقوس، ولا سيما زينة التمثال الإلهي في ناووسه.

(١٠٠) من الراجح أنها زوجة أنتف السابع. راجع فيما سبق: الفصل الثاني: طيبة الأبية المتمردة.

(١٠١) كان «للكلمة»(*) قدرة خلاقة. إن «تسمية» القرابين يترتب عليها انبعاثها كواقع حقيقي. تشير هذه الصيغة التقليدية إلى قربان مقدم إلى الآلهة لتقوم بدورها بتقديمه للشخص الذي وقع عليه اختيار مقدم القرابين: والمقصود به هنا الملكة عح حوتپ. إن خدمة تقديم القرابين في مصر، وكانت على قدر كبير من الأهمية، تنطوي أيضاً على «آلية» سحرية.

(*) «الكلمة» مؤنث لفظي ومذكر معنوي. ونذكر على سبيل المثال ما ورد في مطلع إنجيل يوحنا ١:١. «*في البدء كان الكلمة*». راجع الكتاب المقدس. العهد الجديد. المطبعة الكاثوليكية. بيروت. ١٩٦٩. (المترجم)

(١٠٢) Urk. iv, 29-31

(١٠٣) راجع فيما بعد: الفصل الثالث. أهل طيبة.

(١٠٤) Drioton, in B.S.F.E. 1953, vol. 12, p.11

(١٠٥) هذا الصرح من إنشاءات أمنحوتپ الثالث الذى استخدم عند تشييده كتلاً حجرية من المبانى التى أقامها أسلافه.

(١٠٦) يرى دريوتون Drioton أن وحدة العملة شنع تعادل سبعة جرامات ونصف من الذهب (art. cit., p.16)

(١٠٧) Drioton, art. cit., pp.21-25

مراجع شاملة عن هذا الموضوع مذكورة في p.11.

(١٠٨) Empire des Ramsès, p. 227 sqq

(١٠٩) الإله «ابن أوى» الذى يشرف على وقائع التحنيط.

(١١٠) إنها أوانٍ كانت تحفظ فيها أحشاء الموتى بعد تحنيطها.

(١١١) عن أى إيضاحات أخرى عن أحمس – نفرتارى راجع:
Michel Gitton, L'épouse du dieu, Ahmes - Nefertary. Besançon, 1975. p.108.

(١١٢) كان من المعتاد إلحاق هذه الصفة بكل كيان إلهى في مدينته.

(١١٣) Karnak, p.21

(١١٤) راجع فيما سبق: الفصل الثانى: أحمس ملكًا وإداريًا.

(١١٥) Karnak, p.18

(١١٦) عن هذه الشعائر وكيفية إقامتها راجع:
Empire des Ramsès, p. 223 sq.

هوامش الفصل الثالث

(١) مملكة شمالية تقع على الشاطئ الأيمن من نهر **الفرات**. راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الملحمة البطولية: عبور **الفرات** والفصل السابع: فراعنة السلام: الإبقاء على الإمبراطورية.

(٢) بدأت مصر تستورد البرونز عند نهاية الأسرة الثانية عشرة.

(٣) Urk. Iv, 44

(٤) Urk. Iv, 49

(٥) Empire des Ramsès, p. 204 sqq

(٦) **إيماو – كحك**: موقع غير معروف ربما في **النوبة** أو في **الواحة الليبية**.

(٧) Urk. Iv, 36, 1.1-4

(٨) Urk. Iv, 50, 1.12

(٩) Gardiner, Peet, Cerny: Inscriptions of Sinaï, p.149

(١٠) Urk, Iv, 54 (1, 14-17)

(١١) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: ٢: المعابد والآلهة.

(١٢) Edgerton, The Thutmosid Succession, Chicago, 1933, p.41

(١٣) لا تحمل سن سنب لقب **الزوجة الملكية**. وهو ما يبعث على الإعتقاد بأنها كانت من محظيات **أمنحوتپ الأول**.

(١٤) Urk. Iv, 79-81

(١٥) في تاسوع **هليوپوليس** كان جب حفيد **أتوم** الذى كان على رأس الأسرة الحاكمة الإلهية. وفي أسطورة **أوزيريس** كان جب والد **أوزيريس** أول الملوك الذين حكموا الأرض.

(١٦) الصورة مزدوجة: إن تدفق الدم وكأنه طلاء أحمر، ينساب من فم الأعداء، يُشبّه بالأمطار الجارفة من كثرة إراقة الدماء.

(١٧) ربما كان المقصود الملوك الأقدمين من مدينة هليوبوليس الذين ماتوا وأُلِّهوا. كما أقيمت أيضاً الشعائر لباو العواصم القديمة مثل هرموبوليس (الأشمونين. م.) وهيرقليوبوليس (إهناسيا المدينة. م.) وبوتو (تل الفراعين. م.) راجع:

Sethe, Urgeschichte, §§ 127, 165, 170.

(١٨) نهر الفرات، وقد أثار على الدوام دهشة المصريين لأن مجراه كان يتدفق من الشمال إلى الجنوب، عكس نهر النيل الذى كان فى نظرهم النهر الأمثل.

(١٩) أسرات حاكمة أسطورية سبقت الأسرات الملكية.

(٢٠) Urk. Iv, 79-86

(٢١) Urk. Iv, 36 (1.5-8)

(٢٢) ربما جاءت من واحات الصحراء الغربية. ومن جديد يُعتقد أنه كان تمرداً وقع بالتواطؤ بين كوش وهذه الواحات.

(٢٣) Urk. Iv, 8-9

(٢٤) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(٢٥) Urk. Iv, 89-90

(٢٦) Urk. Iv, 88

(٢٧) Arkell, in J.E.A., 1953, vol. 39, pp.36-37

Vercoutter, in Kush, 1956, vol.4, pp. 68 et 70.

(٢٨) حرفيًا: «يغتسل القلب». صورت المغامرة وكأنها نزهة للاسترخاء وليست عدوانًا.

(٢٩) Urk. Iv, 9-10

(٣٠) Urk. Iv, 36 (1.9-14)

(٣١) Urk. Iv, 103-104

(٣٢) حياة إينينى – Urk. Iv, 58 (1.11-13)

(٣٣) Ratié, Hatshepsout, p.24

(٣٤) Urk. Iv, 108-110

(٣٥) Gauthier, Livre des rois, tome II, p.226, note 2

(٣٦) Urk. Iv, 154 (1.12)

(٣٧) Urk. Iv, 143 (1.12)

(٣٨) Urk. Iv, 144 (1.3)

(٣٩) تشير إزدواجية الألوان هذه، إلى مصر التى تعود خصوبة أرضها إلى الغرين الأسود الذى يجلبه النهر، وإلى الصحارى المحيطة بأرض الوادى بلونها القانى من شدة الشمس الساطعة.

(٤٠) Urk. Iv, 58-59

(٤١) وقد اختار تحوتمس الثالث المصطلحات نفسها عندما أراد وصف إمبراطوريته، على لوح حجرى عثر عليه فى جبل بركل، ويعود تاريخه إلى العام ٤٧ من عهده. راجع فيما بعد: الفصل الخامس: مصر الإمبراطورية.

(٤٢) KRI, I, 26

(٤٣) C. L. Textes, p.171. ربما حدث ذلك على مقربة من الجندل الثانى.

(٤٤) Urk. Iv, 137-141

(٤٥) Edgerton: Thutmosid Succession, p.42

(٤٦) Urk. Iv, 36 (1. 12-14)

(٤٧) (حياة إبنينى) Urk. Iv, 59 (1. 13-14)

(٤٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المنتصر.

(٤٩) Urk. Iv, 86-88

(٥٠) C. Lalouette, Textes, p.50

(٥١) Urk. Iv, 108 (1. 11-14)

(٥٢) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى.

(٥٣) Urk. Iv, 76-77

(٥٤) L. Habachi, in Kush, 1959, vol. vII, p.57

(٥٥) Urk. Iv, 78 (1. 8-12)

(٥٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المنتصر.

(٥٧) L. Habachi, art. cit., p47, fig 2

لقب «الإبن الملكى» لقب شرفى محض.

(٥٨) كان خنوم يحمل هذا الاسم فى النوبة.

(٥٩) Urk. Iv, 142 (1. 1-16)

(٦٠) Urk. Iv, 51 (1. 1-11)

(٦١) Urk. Iv, 10 (1. 5-9)

(٦٢) Urk. Iv, 34 (1. 5-10)

(٦٣) Urk. Iv, 38-39

(٦٤) Urk. Iv, 34 (1. 11-17)

(٦٥) كما يقوم أحمس – بن – نخبت بحصر مآثره الحربية على قاعدة تمثال يحتفظ به متحف اللوفر فى باريس (C 69).

Urk. Iv, 35-36

(٦٦) إن الريشتين العاليتين القائمتين على قاعدة تاج تشكل غطاء رأس الإله. راجع: المقدمة: آمون وتأسيس الكرنك.

(٦٧) اسم معبد فى منف.

(٦٨) مدخل جبانة منف.

(٦٩) مياه النيل عند منابعه ذاتها، على حدّ اعتقاد القدماء.

(٧٠) فى وسع پاحرى فى واقع الأمر، أن يشترك فى القرابين الإلهية ولا سيما إبان كبرى الأعياد

الدينية.

(٧١) العنصر المتحرك فى الكائن ويصور على هيئة طائر برأس آدمى.

(٧٢) ذكرى عن الصيرورات النجمية القديمة.

(٧٣) العالم الآخر القائم فى العالم السفلى.

(٧٤) مكان محكمة أوزيريس.

(٧٥) حقل من حقول السماء الذى سيتعين على المتوفى أن يزرعه، من أجل إعاشته إلى الأبد.

(٧٦) إن حدود الحقول (؟) والممتلكات الملكية يرسمها باحرى على نحو صارم، كما يتحدد مجرى النيل.

(٧٧) إلى الذين سيعملون نيابة عنه.

(٧٨) Urk. lv, 111-113

(٧٩) Urk. lv, 68 (1, 8-12)

(٨٠) Urk. lv, 69 (1.4-5)

(٨١) حقل من حقول السماء.

(٨٢) من الراجح أن أسماء عدد من الأعياد كانت مدونة فى هذه الفجوة.

(٨٣) Urk. lv, 54 (1. 1-12)

(٨٤) Urk. lv, 55 (1. 12-16)

(٨٥) Urk. lv, 57-58

(٨٦) Urk. lv, 70, (1. 1-6)

(٨٧) الأقصر.

(٨٨) Urk. lv, 71 (1. 9-14)

(٨٩) Urk. lv, 59 (1. 5-12)

(٩٠) Lefebvre: Contes et romans, p. 80 sqq

(٩١) Urk. Iv, 72 (1. 14-16)

(٩٢) Urk. Iv, 73 (1. 7-10)

(٩٣) Urk. Iv, 61-62

(٩٤) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: ٣٠. المعابد والآلهة.

(٩٥) تختلف الآراء حول أصول الملكة عع حوتپ هذه. يرى البعض أنها زوجة سقنن رع تاعا والتى كانت لا تزال على قيد الحياة فى العام العاشر من عهد حفيدها أمنحوتپ الأول. راجع:

Breasted, A. R. pp. 21-22.

وكانت أنذاك متقدمة فى السنّ. ويبدو الآن أن جمهور العلماء يُجمعون على أن هذه «الأم الملكية» هى فى حقيقة الأمر عع حوتپ الثانية:

راجع:

Lexikon, I, p.99

Edwards, in CAH, p.307

(٩٦) أوزيريس.

(٩٧) هكذا يشارك كارس فى طقوس الخدمة الإلهية.

(٩٨) Urk. Iv, 45-47

(٩٩) Urk. Iv, 131-133

(١٠٠) Urk. Iv, 134 (1.4 et 8-9)

(١٠١) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول المحارب المنتصر.

(١٠٢) Urk. Iv, 43 (1. 3-6)

(١٠٣) Urk. Iv, 55-56

(١٠٤) Urk. Iv, 93 (1. 5-6 et 11)

(١٠٥) Urk. Iv, pp. 198-199

(١٠٦) أى خيرات الأرض وثرواتها.

(١٠٧) معنى هذا الاسم حرفياً: «الأرض التى ترتفع» وهو إشارة أخرى إلى الأرض التى تنبثق من الخواء السائل قبل خلق العالم، ويشير إلى إله موغل فى القدم، من آلهة منف، يندمج فى أغلب الأحوال فى الإله بتاح.

(١٠٨) اسم بلدة على مقربة من أبيدوس حيث تقع مقبرة الإله. وإبان أحد الأعياد السنوية الكبيرة كان المصريون ينقلون إلى هذا المكان المركب الذى يضم تمثال أوزيريس.

(١٠٩) مدينة أنتينوى.

(١١٠) أحد أسماء هرموبوليس.

(١١١) الإله الذئب الذى كان يعبد فى أسيوط وكان اسمه يعنى «هذا الذى يفتح الطرق». وفى المواكب الإحتفالية والأعياد كان يتقدم المواكب.

(١١٢) والمقصود العلمانيون الذين يعاونون الكهنة. كانوا يقدمون خدماتهم طوعًا، وعن طيب خاطر، فيقومون بالأعمال المادية فى المعبد. واستناداً إلى الاسم الذى يحملونه، كانت خدماتهم لا تستغرق فى الأصل أكثر من ساعة.

(١١٣) Urk. Iv, 95-102

(١١٤) Urk. Iv, 53 (1. 15-17)

(١١٥) Gitton, Ahmes Nefertary, p.19

(١١٦) راجع: Howard Carter, in J.EA., 1916, vol.3, pp. 147-154

(١١٧) Urk. Iv, 57 (1, 3-8)

(١١٨) Backman, in J.E.A., 1926, vol. 12, pp. 176-185

(١١٩) مكيال يعادل حوالى ٤ لترات ونصف.

(١٢٠) الفار يعادل ٢٠ حقات.

(١٢١) وحدة وزن تعادل ٩٢ جرامًا

(١٢٢) J. Gemy, in B.I.F.A.O. 1927, tome 27, pp. 159-203

(١٢٣) H. H. Nelson, in J.N.E.S. 1949, vol. viii, pp. 201-345

هوامش الفصل الرابع

(١) راجع فيما سبق، الفصل الثالث.

(٢) تُقارن الدولة بسفينة تتولى حتشپسوت قيادتها. وتواجه السفينة الجنوب طبقًا للإتجاه التقليدى الذى كان يلتزم به المصريون ناحية منابع النيل.

(٣) Urk. Iv, 59-60

(٤) Urk. Iv, 180 (1. 8-12)

(٥) اسم حورس بن أوزيريس والذى خلف أباه على العرش ليحكم الأحياء حكمًا شرعيًا.

(٦) الاسم الذى أطلقه المصريون على القاعة التى نعرفها فى الوقت الراهن تحت اسم بهو الأساطين، بسبب الرمزية النباتية التى تلازم الأساطين التى تحمل سقفها. المقصود هنا بهو الأساطين الذى كان تحوتمس الأول قد انتهى لتوه من تشييده. راجع فيما سبق: الفصل الثالث: المعابد والآلهة.

(٧) حرفيًا: «حورس الأفق» وهو أحد أشكال الشمس عند الفجر وأكثرها تألقًا فى عيون البشر الخارجين من الليل. ومن ثم يخرج موكب إحتفالى يجوب بتمثال الإله فى معبده.

(٨) حاملو التمثال ناحية مقدمته.

(٩) اسم يدل على محطة لاستراحة الملك فى المعبد.

(١٠) تأليه شمسى للأمير الشاب.

(١١) صورة لقصر العاهل الملكى على الطريقة المصرية، تعلوه الصورة الحامية للإله حورس الملكى، وبات منذ عهد نعرمر يضم أول أسماء قائمة الألقاب الملكية.

(١٢) الإله تحوت الذى يتركب منه اسم تحوتمس.

(١٣) Urk. Iv, 157- 162

(١٤) Urk. Iv, 180-182

(١٥) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الأول، المحارب المنتصر.

(١٦) Urk. Iv, 193 (1.16)

(١٧) قرنا كبش آمون.

(١٨) Urk. Iv, 198-201

(١٩) Urk. Iv, 197-198

(٢٠) Urk. Iv, 208-209

(٢٠ مكرر) Urk. Iv, 1384 (1. 3-9)

(٢١) Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, p.150

(٢٢) Urk. Iv, 270-273

(٢٣) Ratié, Hatshepsout, p.52

(٢٤) J. Yoyotte, in AEPHE, 1967-1968, vol. LXXXV, pp. 269-271
Ratié, hatshepsout, pp. 84-85

(٢٥) C. L. Textes, pp. 27-30

(٢٦) Die Geburt des Königs. Wiesbaden, 1964

(٢٧) Dendara et le temple d'Hathor, Le Caire, 1969, pp. 105-110

(٢٨) هذه الفقرة بأكملها تشبه إلى حد كبير من حيث تعبيراتها الحكاية الخرافية التى تعود إلى الأسرة الخامسة.

(٢٩) Urk. Iv, 217-218

(٣٠) Urk. Iv, 218-219

(٣١) Urk. Iv, 219-222

(٣٢) Urk. Iv,222-224

(٣٣) إشارة إلى العلاقة الحميمة التى تربط الملكة بزوجها.

(٣٤) Urk. Iv, 224-225

(٣٥) Urk. Iv, 227 (1. 4-14)

(٣٦) Urk. Iv, 228-230

(٣٧) J. Leclant, in J.N.E.S. 1951, vol x, nº2, pp. 123-127

(٣٨) Urk. Iv, 230-231

(٣٩) إشارات إلى الأماكن المرتفعة الواردة فى أسطورة أوزيريس وطفولة حورس.

(٤٠) Urk. Iv, 235-240

(٤١) Urk. Iv, 242 (1. 6-17)

(٤٢) Urk. Iv, 243-245

(٤٣) Urk. Iv, 245-249

(٤٤) راجع فيما سبق: الهامش ١٧ من الفصل الثالث.

(٤٥) WB, I, 73 (8)

(٤٦) شعائر ملكية مرتبطة بمراسم التتويج.

(٤٧) كل هذه الفقرة: Urk. Iv, 255-261

(٤٨) اسم معبد التطهر فى مصر العليا.

(٤٩) Urk. Iv, 263 (1. 4-6)

(٥٠) Urk. Iv, 264 (1. 2-4)

(٥١) Urk. Iv, 264 (1. 16-17)

(٥٢) Urk. Iv, 280 (1.5)

(٥٣) Urk. Iv, 280 (1.17)

(٥٤) Urk. Iv, 362 (1. 16-17)

(٥٥) Urk. Iv, 391

(٥٦) Urk. Iv, 385 (1. 1-3)

(٥٧) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الرضاعة الإلهية.

(٥٨) Urk. Iv, 378-380

(٥٩) راجع فيما بعد: الفصل الرابع: فى النوبة.

(٦٠) Urk. Iv, 213-214

(٦١) Urk. Iv, 201-202

(٦٢) Urk. Iv, 212-213

(٦٣) Urk. Iv, 355

(٦٤) Urk. Iv, 375-376

(٦٥) Urk. Iv, 464 (1. 7-11)

(٦٦) Urk. Iv, 393-394

(٦٧) متحف باراكو Barracco.

(٦٨) متحف المتروبوليتان للفنون n°31.3.91.

(٦٩) Urk. Iv, 470 (1.5 et 9)

(٧٠) Lefebvre: Grands prêtres, p.76

(٧١) Hayes, in JEA, 1961, vol.47, p.20

(٧٢) Urk. Iv, 472-473

(٧٣) Urk. Iv, 483-484

(٧٤) Urk. Iv, 473-476

(٧٥) Nina M.Davies, in J.E.A., 1961, vol. 47, p.19

(٧٦) Gaminos, Gebel Silsileh, pp. 42-52

(٧٧) Urk. Iv, 398, 402-403, 411-412

(٧٨) Schulman, in J.A.R.C.E., 1969-1970, vol. viii, pp. 33-34 et 47-48
Helck, Zur Verwaltung, pp. 356-357

(٧٩) Urk. Iv, 414-415

(٨٠) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: أمراء الكاب.

(٨١) مكان مقدس فى طيبة مكرس للإلهة موت.

(٨٢) Urk. Iv, 408 (l. 12-13)

(٨٣) Urk. Iv, 404-405

(٨٤) Urk. Iv, 409-410

(٨٥) Urk. Iv, 410-412

(٨٦) Urk. Iv, 396-397

(٨٧) Caminos: Gebel Silsileh, pp. 53-56

(٨٨) Ratié: Hatshepsout, p.89

(٨٩) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الفقرات الأخيرة من الملك المصطفى.

(٩٠) Urk. 490-491

(٩١) راجع فيما بعد: الفصل الرابع: عمليات تتمتع بالهيبة والروعة الخلابة.

(٩٢) وحدة مكيال.

(٩٣) Urk. Iv, 428-429

(٩٤) Urk. Iv, 513-514

(٩٥) Urk. Iv, 494-495

(٩٦) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: أمراء الكاب.

(٩٧) Urk. Iv, 517-518

(٩٨) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الملك المصطفى.

(٩٩) Urk. Iv, 208 (1. 3-4)

(١٠٠) شخص رفيع الشأن.

(١٠١) Urk. Iv, 150-151

(١٠٢) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: المُلك الأرضى.

(١٠٣) In J.N.E.S., 1957, vol. xvi, pp. 99-104

(١٠٤) Urk. Iv, 341-342

(١٠٥) اللحية هى أيضاً لحية إلهية مستعارة.

(١٠٦) Urk. Iv, 342-347

(١٠٧) تاج إلهى ويخصّ أوزيريس تحديداً وتاج ملكى أيضاً.

(١٠٨) Urk. Iv, 349-352

(١٠٩) Ratié: Hatshepsout, p.148

(١١٠) Urk. Iv, 319-320

(١١١) Urk. Iv, 323-324

(١١٢) Urk. Iv, 325-326

(١١٣) Ratié, Hatshepsout, p.154

(١١٤) Urk. Iv, 327-328

(١١٥) Urk. Iv, 328-329

(١١٦) Urk. Iv, 320 (1. 6-11)

(١١٧) من الأقوام النوبية.

(١١٨) يقع هذا البلد فى السودان الحالى. وكانت الآبار تحتل فيه مكانة بارزة. راجع:
Empire des Ramsès, p. 97.

(١١٩) Urk. Iv, 332-333

(١٢٠) Urk. Iv, 334-337

(١٢١) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين...

(١٢٢) Urk. Iv, 339-340

(١٢٣) In Kemi, 1952, vol. xII, p.17

(١٢٣ مكرر) Urk. Iv, 364-367

(١٢٤) Urk. Iv, 358 (1. 8-9)

(١٢٥) إله جعفران. وهو شكل الشمس عند الفجر.

(١٢٦) Urk. Iv, 361-362

(١٢٧) Urk. Iv, 362 (1. 10-16)

(١٢٨) Urk. Iv, 367-368

(١٢٩) Urk. Iv, 364 (1. 1-6)

(١٣٠) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.

(١٣١) Urk. Iv, 297-298

(١٣٢) Lacau-Chevrier, Une Chapelle d'Hatshepsout à Karnak.- Le Caire, 1977

(١٣٣) P. Barguet, Archeologia, 1967, vol.15, p.61

(١٣٤) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: الولادة الإلهية والسياسة.

(١٣٥) Urk. Iv, 387-388

(١٣٦) Urk. Iv, 386-387

(١٣٧) Urk. Iv, 383-384

(١٣٨) Urk. Iv, 380-391

(١٢٩) Urk. Iv, 384-385

(١٤٠) Caminos, Ibrim, pp. 24-25

(١٤١) راجع: Ratiè, Hatshepsout, pp. 62-63 et 90-91

(١٤٢) Hayes, Royal Sarcophagi, pp. 17-18, et fig.4

هوامش الفصل الخامس

(١) جميع الشعارات والرموز الملكية، قد تُبثّ فيها الحياة بفضل السحر، مؤكدةً على اتحادها اللصيق بالعاهل الملكي.

(٢) Urk. Iv, 886-887

اللوح الحجرى الذى عثر عليه فى سرابيط الخادم بشبه جزيرة سيناء ويعود إلى العام ٢٥.

(٣) Urk. Iv, 1234 (1. 8-12)

(٤) Urk. Iv, 648 (1. 6-7)

(٥) Urk. Iv, 808 (1. 14)

(٦) Urk. Iv, 808 (1. 15-17)

(٧) Urk. Iv, 647-648

(٨) Urk. Iv, 649-652

(٩) Urk. Iv, 655-656

(١٠) Urk. Iv, 657 (1. 2-4)

(١١) Urk. Iv, 657 (1.12)

(١٢) Urk. Iv, 657 (1. 5-9 et 15)

(١٣) Urk. Iv, 657-659

(١٤) Urk. Iv, 660 (1. 7-9)

(١٥) Urk. Iv, 660-661

(١٥ مكرر) Urk. Iv, 184-185

(١٦) Urk. Iv, 809 (1. 1-11)

(١٧) Urk. Iv, 767 (1. 5-14)

(١٨) Urk. Iv, 1235-1236

(١٩) Urk. Iv, 663-667

(٢٠) Urk. Iv, 185-186

(٢١) Urk. Iv, 663 (1.2)

(٢٢) Urk. Iv, 781-794

(٢٣) Urk. Iv, 796-806

(٢٤) Urk. Iv, 671 (1.9)

(٢٥) Urk. Iv, 777 (1. 2-3)

(٢٦) راجع فيما بعد الفصل الخامس: معالم مصر الأثرية.

(٢٧) Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, I, pl. LXIV (1. 10-13)

(٢٨) Ibid, pl. LXIV (1. 2-10)

(٢٩) Urk. Iv, 687-688

(٣٠) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الثاني والحفاظ على الإمبراطورية.

(٣١) Urk. Iv, 690 (1. 2-6)

(٣٢) Urk. Iv, 693-694

(٣٣) (لوح جبل برقل) Urk. Iv, 1232 (1. 2-4)

(٣٤) Urk. Iv, 1232 (1. 7-9)

(٣٥) Urk. Iv, 1232 (1. 11-12)

(٣٦) Urk. Iv, 697 (1. 3-5)

(٣٧) Empire des Ramsès, p. 115

(٣٨) Urk. Iv, 1254-1246

(٣٩) Urk. Iv, 697 (1. 12-16)

(٤٠) Urk. Iv,1246 (1. 6-8)

(٤١) (لوح جبل بركل) Urk. Iv, 1232-1233

(٤٢) راجع فيما بعد: الفصل السادس: ملك قدير قوى الشكيمة.

(٤٣) Urk. Iv, 1233-1234

(٤٤) Urk. Iv, 893-894

(٤٥) Urk. Iv, 710-711

(٤٥ مكرر) Urk. Iv, 894 (1. 5-15)

(٤٦) Urk. Iv, 894-895

(٤٧) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٤٨) ظهر بردية هاريس ٥٠٠ P. Harris 500.

نُسخ النص بالكتابة الهيروغليفية فى:

Gardiner, Late Egyptian Stories, pp. 82-85.

يتخلل مطلع النص عدداً كبيراً من الفجوات الطويلة. وقد أعيد صياغتها نقلاً عن:

G. Lefebvre: Contes et romans, pp. 127-130.

(٤٩) Urk. Iv, 1230 (1. 16-18)

(٥٠) Urk. Iv, 814-815

(٥١) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: معالم القوية الأثرية.

(٥٢) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الثانى والحفاظ على الإمبراطورية.

(٥٣) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: الأيديولوجية الإمبراطورية الأولى.

(٥٤) Empire des Ramsés, 157

(٥٥) Urk. Iv, 669 (1. 1-3)

(٥٦) لقد شاع فى النصوص المصرية القديمة تغيير ضمير الفاعل من الغائب إلى المتكلم والعكس، واستبدال صيغة المباشر بغير المباشر والعكس.

(٥٧) Empire des Ramsés, pp. 247-249

(٥٨) Urk. Iv, 740-741

(٥٩) Urk. Iv, 742-744

(٦٠) راجع فيما بعد: الفصل الثالث: مسلات العالم.

(٦١) لما كانت المسلات، من رموز النور الإلهى فى اليوم الأول من أيام الخليقة، فقد تقام لها الشعائر. والمسلات الأربع المشار إليها، موجودة فى الوقت الراهن: فى إسطنبول وروما، وتحديداً فى سان – چان – دى – لاتران Saint-Jean-de-Latran وفى لندن ونيويورك.

(٦٢) Urk. Iv, 746-752

(٦٣) Urk. Iv, 768-769

(٦٤) Urk. Iv, 769 (1. 7-16)

(٦٥) Urk. Iv, 767 (1. 1-4)

(٦٦) Urk. Iv, 770-771

(٦٧) Urk. Iv, 747 (1. 1-10)

(٦٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: معركة مجدّو.

(٦٩) Urk. Iv, 1230 (1.12)

(٧٠) Urk. Iv, 1230 (1. 11-16)

(٧١) Urk. Iv, 1229 (1.20)

(٧٢) عن جميع هذه المواضيع راجع: Empire des Ramsès, p.367, sqq.

(٧٣) مفردات اللغة المستخدمة تميز بوضوح تام بين آسيا وإفريقيا فى الفكر التاريخى لذلك الزمن: كانت النصوص آنذاك تفرق كما هو الحال فى هذا السياق بين لفظ خاسوت – أى البلدان الأجنبية كإشارة إلى بلدان آسيا التى فتحت عنوةً ولفظ تاو(*) أى الأراضى كإشارة إلى

الممتلكات الإفريقية وهو اللفظ نفسه تا(**) أى الأرض، كإشارة إلى مصر. ودلالة ذلك أن التبعية الطبيعية لهذه المناطق لم تكن ثمرة إنتصار عسكرى ولكن نتيجة الرعب الذى يثيره مجد فرعون فى نفوس سكان هذه المناطق.

(*) الواو علامة الجمع فى اللغة المصرية القديمة. (المترجم)

(**) فى صيغة المفرد. (المترجم)

(٧٤) Urk. Iv, 611-619

(٧٥) Empire des Ramsès, p. 141 sqq

(٧٦) Urk. Iv, 603 (1. 4, 9 et 10)

(٧٧) Urk. Iv, 606 (1. 4-8)

(٧٨) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: فى مصر. بعيداً عن الكرنك.

(٧٩) راجع فيما بعد: الفصل الخامس: معالم مصر الأثرية.

(٨٠) Urk. Iv, 607 (1. 3-9)

(٨١) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين.

(٨٢) عن الألقاب والصفات المتعددة والمتنوعة راجع: Urk. Iv, 1039-1041

(٨٣) Urk. Iv, 1380-1383. راجع أيضاً: Helck, Agyptologische Studien, pp. 107-117

(٨٤) Urk. Iv, 1030-1031

(٨٥) Caminos: Gebel Silsileh, pp. 57-63

(٨٦) راجع فيما سبق: الهامش ٤٨ من الفصل الرابع.

(٨٧) Urk. Iv, 1071 (1. 6-16)

(٨٨) Garies - Davies: Tomb of Rekhmirê

(٨٩) Urk. Iv, 1086-1093

(٩٠) مديرو الأراضي الملكية.

(٩١) Urk. Iv, 1103-1117

(٩٢) Urk. Iv, 1139-1140

Davies: Rekihmirê, pl. LXXII.

(٩٣) Urk. Iv, 1161 (1. 3-5)

Davies: Rekihmirê, pl. XXXIX.

(٩٤) Davies: Rekihmirê, pl. XXIX-XXXV

(٩٥) Urk. Iv, 1094 (1. 6-11)

(٩٦) توجد الرسومات في الحجرة الأولى من المقبرة، في القسم الجنوبي من الجدار الغربي.
Davies: Rekihmirê, pl. XVII-XX

(٩٧) Urk. Iv, 1102 (1. 11-17)

Davies: Rekihmirê, pl. XXI-XXIII.

(٩٨) Davies: Rekihmirê, pp. 48-59

(٩٩) Urk. Iv, 1165 (1. 10-17)

(١٠٠) Urk. Iv, 1166-1167

(١٠١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: صيد الأفيال.

(١٠٢) ZIVIE, IN R.E, 1979, VOL. 31, p. 149

(١٠٣) Urk. Iv, 898-904

(١٠٤) Urk. Iv, 920-921

(١٠٥) Urk. Iv, 918 (1. 3-12)

(١٠٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: مأثرة أسطورية.

(١٠٧) Urk. Iv, 1004-1005

(١٠٨) Urk. Iv, 1006-1007

(١٠٩) Urk. Iv, 1015 à 1017

(١١٠) Urk. Iv, 1013 (1. 10-14)

(١١١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوچيا الإمبراطورية الأولى.

(١١٢) Davies: Tomb of Amenmose, pl. xxxvi

(١١٣) Empire des Ramsès, p. 377

(١١٤) Davies: Tomb of Amenmose, pl. XLVI,B

(١١٥) Urk. Iv, 995 (1. 10-15)

(١١٦) Urk. Iv, 936 (1. 5-13)

(١١٧) Urk. Iv, 926-928

(١١٨) Davies: Tomb of Menkheperrêseneb p. IV à VII

(١١٩) Urk. Iv, 929 (1. 8-14)

(١٢٠) Davies: Tomb of Menkheperrêseneb pl.XI à XIII

(١٢١) Urk. Iv, 932-933

(١٢٢) Urk. Iv, 523 (1. 5-6)

(١٢٣) Urk. Iv, 1210 (1. 12-17)

(١٢٤) Urk. Iv, 1216 (1. 5-6)

(١٢٥) راجع فيما سبق: الهامش ٧٥ من الفصل الثالث.

(١٢٦) Urk. Iv, 1192-1194

(١٢٧) Urk. Iv, 1202-1203

(١٢٨) Kees, in Z.A.S., 1960, vol. 85, pp. 45-46
Dewachter, in R.E. 1984, t.33, pp.84-86

(١٢٩) Urk. Iv, 980 (1. 6-7 et 13-14)

(١٣٠) Urk. Iv, 1044-1048

(١٣١) Urk. Iv, 1063-1064

(١٣٢) Urk. Iv, 966-969

(١٣٣) Urk. Iv, 974-975

(١٣٤) W. C. Hayes, in J.E.A., 1961, vol. 47, p. 6-16

(١٣٥) Urk. Iv, 940-941

(١٣٦) Urk. Iv, 958 à 962

(١٣٧) Urk. Iv, 955 (1. 14-16)

(١٣٨) Urk. Iv, 942-944

(١٣٩) Dewachter, in R.E. 1976, tome 28, pp. 151-153

(١٤٠) Urk. Iv, 989 (1. 9-10)

(١٤١) Urk. Iv, 984 (1. 8-11)

عن تحديد موقع هذا النص فى بلدة الليسية بفضل زيته Sethe، راجع:

(والمراجع). Caminos, Ibrim, p. 43

(١٤٢) Urk. Iv, 986 (1. 5-10)

(١٤٣) Caminos, Ibrim, pp. 38-39

(١٤٤) Naville: Deir el Bahari, pl. xl A, p.3

(١٤٥) صورة مصغرة تشبه المومياء، وتعود إليها الحياة على نحو سحرى، لتقوم بالأعمال التى تكلف بها فى حقول العالم الآخر، بدلاً من المتوفى.

(١٤٦) L. Habachi, Sixteen Studies, p.87, note 6

(١٤٧) T. Save- Söderbergh, in Kush, 1960, vol.8, pp. 25-44

(١٤٨) الدراسة الأم هي دراسة:

P. Barguet: Temple d'Amon-Rê

(١٤٩) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجدّو...

(١٥٠) Urk. Iv, 166-174

(١٥١) راجع فيما سبق الفصل الثاني: الكرنك.

(١٥٢) Urk. Iv, 854 (1. 6-13)

(١٥٣) Urk. Iv, 836 (1. 2-3)

(١٥٤) Temple d'Amon-Rê, pp. 157-217

(١٥٥) Empire des Ramsès, p. 25

(١٥٦) Urk. Iv, 566-567

(١٥٧) C.Lalouette, in B.I.F.A.O., 1979, tome 79, pp. 333, 353

(١٥٨) Urk. Iv, 862-864

(١٥٩) Urk. Iv, 765-767

(١٦٠) Urk. Iv, 832 (1. 12-14)

(١٦١) راجع فيما سبق: المقدمة: السياسة الجديدة.

(١٦٢) Urk. Iv, 819 (1. 1-7)

(١٦٣) Urk. Iv, 807-809

(١٦٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: من أجل تعريف الإمبراطورية.

(١٦٥) Urk. Iv, 590-591

(١٦٦) الواجهة الشمالية Urk. Iv, 585 (1. 6-7)

(١٦٧) Urk. Iv, 895-896

(١٦٨) راجع فيما سبق: الفصل الثاني: ثلاث سيدات في البلاط الملكي.

هوامش الفصل السادس

(١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين.

(٢) D.B. Redford, in J.E.A., 1965, vol. 51, pp. 107-122

(٣) A. H. Gardiner, in J.E.A., 1945, vol. 31, p.27

(٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٥) Davies: Tomb of Amenmose, pl. LXX

(٦) Urk. Iv, 1160 (1. 6-14)

(٧) Breasted: AR, p. 318, § 807

(٨) Urk. Iv, 1245-1246

(٩) Urk. Iv, 1248-1249
B. Van de Walle, in C.E., 1938, vol. XXVI, p.243.

(١٠) Urk. Iv, 1364 (1.10)

(١١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: كبار الكهنة.

(١٢) Urk. Iv, 976 (1.13) et 977 (1.2)

(١٣) In A.S.A.E., 1937, vol. 37, pp.129-134
C.E., Juillet 1938, vol. XXVI, p. 244

(١٤) إله وإلهة من آلهة الحرب الآسيوية.

(١٥) Urk. Iv, 1279-1283

(١٦) راجع فيما بعد: الفصل السابع: تحوتمس الرابع: حلم الظهيرة.

(١٧) راجع فيما بعد: الفصل السابع: تحوتمس الرابع: حلم الظهيرة.

(١٨) Urk. Iv, 1289-1293

(١٩) C. Desroches-Noblecourt, in R.E. 1950, vol. 7, pp. 37-41

(٢٠) In A.S.A.E. 1943, vol. XLII, pp. 1-23

(٢١) مدينة فى شمال فلسطين الحالية.

(٢٢) راجع فيما بعد: الفصل السابع: الدبلوماسية الدولية.

(٢٣) لوح منف الحجرى: Urk. Iv, 1301-1305

لوح الكرنك الحجرى: Urk. Iv, 1310-1314

(٢٣مكرر) Urk. Iv, 1297-1298

(٢٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجدّو.

(٢٥) لوح منف الحجرى: Urk. Iv, 1305-1309

(٢٦) Gardiner, in JEA, 1945, vol. XXI, p.27

(٢٧) Urk. Iv, 1309 (1. 13-20)

(٢٨) Urk. Iv, 1326 (1.1 et 4)

(٢٩) Urk. Iv, 1333-1334

(٣٠) Urk. Iv, 1358 (1. 11-18)

(٣١) Urk. Iv, 1363 (1. 11-14)

(٣٢) Urk. Iv, 1362-1363

(٣٣) Empire des Ramsès, p. 144

(٣٤) راجع فيما سبق الفصل الخامس: معركة الإستيلاء على مجدّو.

(٣٥) Urk. Iv, 1537-1540

(٣٦) Urk. Iv, 1293-1294

(٣٧) Urk. Iv, 1333 (1.3)

(٣٨) Urk. Iv, 1332 (1. 19)

(٣٩) Urk. Iv, 1331 (1. 11-12)

(٤٠) Urk. Iv, 1329-1330

(٤١) P. Barguet, Temple d'Amon-Rê, p. 105 et note 3

(٤٢) من شعائر تأسيس المعبد.

(٤٣) Urk. Iv, 1295-1296

(٤٤) Urk. Iv, 1299 (1. 3-5)

(٤٥) Urk. Iv, 1439 (1. 4-9)

(٤٦) Urk. Iv, 1345-1246

لا شك أن هذا الرقم الإجمالى، كان يأخذ فى الحسبان، وجود مرافقين آخرين، لا تذكرهم القائمة الموضحة أعلاه.

(٤٧) Urk. Iv, 1343-1344

(٤٨) Urk. Iv, 1425-1426

(٤٩) Urk. Iv, 1397, 1.7

(٥٠) Wild, in B.I.F.A.O., 1956, vol. 56, pp. 233-237

(٥١) Dewachter, in R.E., 1980, vol. 32, pp.68-73

(٥٢) Davies: Kenamun, pl. LIV, C

(٥٣) Ibid., pl. XLIX, (1.5)

(٥٤) Ibid., pl. IX

(٥٥) Urk. Iv, 1390-1391

(٥٦) النجوم الخُنَّس(*) circumpolaires

(*) النجوم التى لا تغرب (المعجم الوسيط. مجمع اللغة العربية. القاهرة – ١٩٦٠).

وهى النجوم التى يمكن مشاهدتها كل ليلة من ليالى السنة، من أى خط عرض، وتظهر كأنها تحيط بالقطب السماوى. (معجم المصطلحات العلمية والتقنية. أكاديميا. بيروت. ١٩٩٣). (المترجم)

(٥٧) Davies: Kenamun, pl. XLV,B

الجانب الأيسر col. 2-16

(٥٨) Ibid., pl. LVI, B

الجانب الأيسر col. 1-6

(٥٩) Urk. Iv, 1398 (1. 1-8)

Davies: Kenamun, pl. XXXIX.

(٦٠) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: **أمن إم حب**، صديق الصبا للملك.

(٦١) Urk. Iv, 1455, (1. 11-12)

(٦٢) Faulkner, in J.E.A., 1934, vol. 20, p.154

(٦٣) Urk. Iv, 1460 (1. 6-16)

(٦٤) Urk. Iv, 1491 (1. 1-6)

(٦٥) Urk. Iv, 1450 (1. 18-20)

(٦٦) راجع فيما بعد: الفصل السابع: السياسة والدين.

(٦٧) Urk. Iv, 1509-1510

(٦٨) Lefebvre: Grands prêtres, pp. 92-93

(٦٩) Caminos: Gebel Silsileh, pp. 79-85

(٧٠) Urk. Iv, 1406-1411

Gardiner, in Z.A.S., 1910, vol. 47, pp. 87-89.

(٧١) الخط المبتسر للكتابة الهيروغليفية.

هوامش الفصل السابع

(١) Urk. Iv, 1542-1544

(٢) Dittenberger, OGIS, nº666

(٣) Urk. Iv, 1554 (1. 17-18)

(٤) Urk. Iv, 1617 (1. 16-18)

(٥) Davis: Tomb of Thutmosis IV, pl. VI

(٦) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: عبور الفرات.

(٧) Gardiner, Peet, Cerny: Sinaï, pp. 81-82 et pll. xix-xx

(٨) Urk. Iv, 1545-1548

(٩) Urk. Iv, 1560 (1. 15-16)

الأسماء الإفريقية: ibid (1. 18-19)

(١٠) Urk. Iv, 1556 (1. 10-15)

(١١) Urk. Iv, 1551 (1. 14-16)

(١٢) Gerny, in J.E.A., 1964, vol. 50, pp. 37-38

(١٣) Vandier, in Journal des Savants, 1967, p.66

(١٤) Urk. Iv, 1771

(١٥) Urk. Iv, 1718 (1. 10-11)

(١٦) عن هذه المصطلحات المحسوسة راجع: Empire des Ramsès, p. 399.

(١٧) Urk. Iv, 1662-1663

(١٨) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: تحوتمس الثاني...

الفصل السابع: تحوتمس الرابع.

(١٩) Breasted: AR, vol. 2 § 844

(٢٠) Urk. Iv, 1659-1661

(٢١) Urk. Iv, 1731 (1. 9-11)

(٢٢) راجع فيما بعد: الفصل السابع: رجال البلاط.

(٢٣) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.

(٢٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون.

(٢٥) (الواجهة الشرقية من الجناح الجنوبى) Urk. Iv, 1722-1723

(٢٦) Urk. Iv, 1656-1657

(٢٧) راجع فيما سبق: الفصل السادس: الشكر والحمد وأول حلف سياسى.

(٢٨) تشييد معبد.

(٢٩) EA 4-n°3. Traduction de Gilbert Lafforgue

(٣٠) Pirenne: Civilisation, II, p.236

(٣١) Pirenne: ibid, II, p.238

(٣٢) EA 33-n°1. Traduction de Gilbert Lafforgue

(٣٣) راجع فيما بعد: الفصل السابع: الملكات والزوجات.

(٣٤) Pirenne: ibid, p. 246

(٣٥) Ibid., p. 245

(٣٦) Urk. Iv, 1869 (1, 1-7)

(٣٧) Urk. Iv, 1932 (1, 8-19)
Habachi: Tell Basta, pp. 104-107, pll. 28-29.

(٣٨) Hayes, in JNES, 1951, vol.x, pp. 82-85

(٣٩) Urk. Iv, 1891 (1. 4-9)

(٤٠) Urk. Iv, 1860 (1.1)

(٤١) Urk. Iv, 1954 (1. 12-13)

(٤٢) Vandier, in Monuments Piot, 1966. tome 54, pp. 7-10

(٤٣) Urk. Iv, 1741 (1. 8-15)

(٤٤) Davis: Tomb of Iouya, pp. xv-xvi

(٤٤ مكرر) Gauthier: Livre des rois, p. 335

(٤٥) Urk. Iv, 1770 (1. 6-9)

(٤٦) Urk. Iv, 1770 (1. 14)

(٤٧) Empire des Ramsès, p. 168 sqq

(٤٨) Urk. Iv, 1866 (1. 9-10)

(٤٩) Urk. Iv, 1737 (1. 8-16)

(٥٠) in Kemi, 1959, vol. 15, pp. 23-33

(٥٠ مكرر) راجع فيما بعد:

الفصل السابع: فى النوبة وفى السودان.

(٥١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

(٥٢) Varille, in A.S.A.E., 1940, vol. XL, pp.651-657

(٥٣) راجع فيما بعد: الفصل التاسع: وهن الملوك وضعفهم.

(٥٤) Van de Walle, in C.E., 1968, vol. 85, pp. 36-54
Helck, in C.E., 1969, vol. 87, pp. 22-25

(٥٥) Urk. Iv, 1776, (1. 8-16)

(٥٦) Varille, in B.I.F.A.O., 1930, vol. 30, pp. 497-507

(٥٧) Urk. Iv, 1913, 1.20

(٥٨) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: كبار الكهنة.

(٥٩) Urk. Iv, 1635 (1. 16 et 18)

(٦٠) C. Vandersleyen, in C.E. 1968, nº86, pp. 234-258

(٦١) Josephos, Contra Apion, I, 26

(٦٢) قد يعني ذلك، ان الحجر الرملى جاء من الجبل الأحمر، قرب هليوبوليس، المكان المقدس للإله أتوم.

(٦٣) Urk. Iv, 1820-1823

(٦٤) تم دراسة المعبد والتنقيب فيه بمعرفة المعهد الفرنسى للآثار الشرقية IFAO. راجع:
Robichon et Varille, Le temple du scribe royal Amenhotep, fils de Hapou. Le Caire, 1936.

(٦٥) Varille: Inscriptions d'Amenhotep, p.15
(Statue nº103 du British Museum).

(٦٦) الإلتباس متعمد بلاشك. فهل المقصود الحورس الملكي أو حورس أتريبيس؟

(٦٧) Varille: Inscriptions d'Amenhotep, p.35 (1. 1-8). متحف القاهرة.

(٦٨) (متحف القاهرة) Ibid. p.31

(٦٩) (متحف القاهرة) Ibid. p. 24

(٧٠) Urk. Iv, 1827-1828

كان رقم "١١٠"، هو السن المثالى فى نظر المصريين.

(٧١) Urk. Iv, 1811-1812

(على هُريم فى متحف ليدن)

(٧٢) منطقة منف. قرب سرابيوم سقارة.

(٧٣) Urk. Iv, 1794-1795

(٧٤) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: أعياد النصر.

(٧٥) Urk. Iv, 1798 (1. 2-10)

(٧٦) Urk. Iv, 2024, 1.2

(٧٧) إله القمح.

(٧٨) بلدة، قرب أبيدوس، حيث توجد مقبرة أوزيريس.

(٧٩) Bagnani, in Aegyptus, 1934, vol. 14, pp. 33-47 et Urk. Iv, 1807-1808

(٨٠) Urk. Iv, 1901 (1. 1-3)

(٨١) Säve - Söderbergb: Private tombs, I, pl. XLII.

(٨٢) Empire des Ramsès, p. 164

(٨٣) Urk. Iv, 1874-1875

(٨٤) Urk. Iv, 1910 - 1912

Kate Bosse - Griffiths. in JEA, 1955, vol. 41, pp. 56-63

(٨٥) راجع فيما سبق: الصفحات الأخيرة من الفصل الثالث.

(٨٦) Davies, Private tombs, IV, ol. VI

(٨٧) Urk. Iv, 1639 (1. 7-11)

(٨٨) Drioton, in R.E., 1933, vol.1, pp. 1-14

Varille, in A.S.A.E., 1940, vol. XL, pp. 601-606.

(٨٩) Urk. Iv, 1845-1848

(٩٠) Urk. Iv, 1618-1619

(٩١) Davies: Two officials, pl. XXXIV

(٩٢) Yoyotte: Les trésors des Pharaons, Genève, 1968; p.81

(٩٣) Davies: Two officials, pl. XXI

(٩٤) Urk. Iv, 1595-1596

(٩٥) Urk. Iv, 1589-1590

(٩٦) Urk. Iv, 1591 (1. 10-20)

(٩٧) راجع فيما سبق: المقدمة: الآداب والفنون.

(٩٨) Posener, Sauneron, Yoyotte: Dictionnaire, p.173

(٩٩) Abdel Mohsen Bakir: Slavery in Pharaonic Egypt, Le Caire, 1942

(١٠٠) Urk. Iv, 1739-1740

(١٠١) Urk. Iv, 1740 (1. 12-13)

(١٠٢) Barguet: Temple d'Amon-Rê, p. 95

(١٠٣) J. Yoyotte, in C.E., 1953, nº55, pp. 28-38

(١٠٤) J. Leclant, in R.E., 1951, tome 8, pl. IV

(١٠٥) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: مسلّات العالم.

(١٠٦) Urk. Iv, 1552 (1. 3-9)

(١٠٧) راجع فيما سبق: الفصل الثالث: المعابد والآلهة.

(١٠٨) Urk. Iv, 1654 (1. 3-15)

(١٠٩) Urk. Iv, 1722-1724; 1726 (1. 7-13); 1728 (1. 8-16)

(١١٠) هذا الوصف والوصف التالى، قائم على أعمال:
A. Varille: Karnak I. Le Caire, 1943, pp. 1-8.

(١١١) راجع فيما سبق: الصفحات الأخيرة من الفصل الثانى.

(١١٢) Varille: Karnak I, pll. XXII-XXIX

(١١٣) J. -J. Clere, in R.E., 1963, vol. 15, pp. 121-123

(١١٤) Urk. Iv, 1754, (1. 2-8)

(١١٥) Urk. Iv, 1650-1651

تم الكشف عن هذا اللوح الحجرى فى معبد الملك مر إن پتاح.

(١١٦) Empire des Ramsès, pp. 238 sqq

(١١٧) راجع فيما سبق: الفصل السابع: فى النوبة وفى السودان.

(١١٨) Barguet: Empire des conquérants, pp 24-25

(١١٩) Urk. IV, 1709 (1. 10-13)

(١٢٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: بلاط طيبة.

(١٢١) B. J. Kemp. in JEA, 1977, vol. 63, pp. 71-82

(١٢٢) Urk. Iv, 1672 (1. 7-19)

(١٢٣) Barguet: Empire des conquérants

(١٢٤) Ibid

(١٢٥) راجع فيما سبق: المقدمة: أمون وتأسيس الكرنك.

(١٢٦) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الملكات والزوجات.

(١٢٧) Urk. Iv, 1655 (1. 1-13)

(١٢٨) راجع فيما بعد: الفصل التاسع: توت عنخ أمون وعودة الآلهة.

(أعمال الترميم التى قام بها توت عنخ أمون).

(١٢٩) Urk. Iv, 1745 (1. 14-15)

(١٣٠) C. Maystre, in B.S.F.E., 1969, nº53-54, p.5 sqq

(١٣١) T. P. § 782 D (p. 63)

(١٣٢) Urk. Iv, 82 (1. 13)

(١٣٣) راجع فيما سبق: الفصل الرابع: بعض أعيان الدولة الآخرين...

الفصل السابع: رجال البلاط

الفصل السابع: المعماريون والنحاتون...

(١٣٤) راجع فيما سبق: الفصل السادس: ملك قدير، قوى الشكيمة.

(١٣٥) الوحدانية فى ذهن المؤمن، لا تستبعد وجود عقائد أخرى.

(١٣٦) اسم معبد التطهير فى مصر السفلى.

(١٣٧) راجع فيما بعد: الفصل الثامن: العمارنة.

(١٣٨) تجانس صوتى بين كلمتى رمتى (أى: البشر) ورمت (أى الدموع).

(١٣٩) ثلاثة أشكال للإله الأوحد المتفرد.

(١٤٠) Grébaut: Hymne à Ammon - Ra, Paris, 1874

(١٤١) راجع فيما سبق: الفصل السابع: تحوتمس الرابع وما بعده.

(١٤٢) Urk. Iv, 1612 (1.5)

(١٤٣) Shorter, in J.E.A. 1931, vol. 17, pp. 2-3

(١٤٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: وأخذ الكرنك يتوسع.

(١٤٥) Urk. Iv, 1935 (1. 17-18)

(١٤٦) Urk. Iv, 1780 (1. 17)

(١٤٧) Urk. Iv, 1943-1946

(١٤٨) P. Garelli: Proche - Orient, pp. 163-164

(١٤٩) Knudtzon: El Amarna Tafeln, pp. 497-501

(١٥٠) Ibid., pp. 347-349

(١٥١) سبق لأمنحوتپ الثالث، أن تزوج أخت توشراتا. راجع فيما سبق: الفصل السابع: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

ويضفى هذا الرباط العائلى قيمة مزدوجة على لفظ «أخى»، وهى تسمية تقليدية فيما بين الملوك.

(١٥٢) Knudtzon: El Amarna Tafeln, pp. 153-155

(١٥٣) نجد ملخصًا لجميع الفرضيات فى:

J. Vandier, in Journal des savants, 1967, pp. 65-91.

هوامش الفصل الثامن

(١) Urk. Iv, 1783 (1. 11-15)

(٢) Urk. Iv, 1963, 1.8

(٣) Ramadan Saad, in Kemi, 1970, vol. xx, pp. 187-193

(٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين. الفقرات الأخيرة.

(٥) Barguet: Empire des conquérants, p.21

(٦) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأولى.

(٧) داخل خرطوش: أسماء ملكية جديدة.

(٨) هذه الفقرة مهشمة تهشيمًا بالغًا. وقد أعاد صياغتها:

Davies, Amarna, vl, p.29.

(٩) Davies, Amarna, vl, pl.XXVII

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 93-96.

(١٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: السياسة والدين: الفقرات الأولى.

(١١) C. L. Textes, pp. 236-250

(١١ مكرر) Ibid., p. 250-260

(١٢) راجع فيما سبق: الهامش ١٣٣ من الفصل السابع.

(١٣) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: القواد العسكريون: الفقرات الأخيرة.

(١٤) Empire des Ramsès, pp. 141-143

(١٥) Davies: Amarna, vl, pl. xxl

Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 84-85

(١٦) الشمس هى «أم» البشر، (هكذا).

(مع مراعاة مع ذلك أن الشمس اسم مذكر فى اللغة المصرية القديمة. المترجم)

(١٧) Urk. lv, 1971 et 1972

(١٨) Urk. lv, 1982-1983

(١٩) In R.E., 1976, vol. 28, pp. 148-151

(٢٠) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: المقاطع الأخيرة من «الورع وعدم التسامح».

راجع فيما بعد: الفصل الثامن: المقاطع الأخيرة من «خدم آتون».

(٢١) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: «معالم مصر الأثرية».

(٢٢) Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 13-14

(٢٣) Barguet: Empire des conquérants, p. 64

(٢٤) Ibid

(٢٥) راجع فيما بعد: الفصل الثامن: العودة إلى طيبة، بعد الوفاة.

(٢٦) H. Brunner, in Z.A.S., 1938, vol. LXXIV, pp. 104-108

(٢٧) Davies: Amarna, III, pl. IV

(٢٨) Ibid., pl. VI

(٢٩) Davies: Amarna, I, pl. VI

(٣٠) Urk. IV, 2003-2004

(٣١) Davies: Amarna, I, pl. XV

(٣٢) Urk. IV, 2004-2005

(٣٣) Sandman: Texts from the Time of Akhenaten, p.24 (1. 1-7)

(٣٤) راجع فيما سبق: الفصل السابع: رجال البلاط.

(٣٥) Urk. IV, 1782 (1. 2-4 et 11-12)

(٣٦) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: ٢. تل العمارنة.

(٣٧) Davies: Amarna, V, p.9

(٣٨) Sandman, Texts from the time of Akhenaten, p. 61 (1. 8-16)

(٣٩) Davies: Amarna, VI, pl. IV

(٤٠) Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 79-80

(٤١) Davies: Amarna, IV, pl.XX

(٤٢) Ibid, III, pll. XIII sqq

(٤٣) Sandman, Texts from the time of Akhenaten, pp. 36-37

(٤٤) EA 16D- Traduction Gilbert Lafforgue

(٤٥) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

(٤٦) EA 10, nº3 - Traduction Gilbert Lafforgue

(٤٧) EA 10, nº4 - Traduction Gilbert Lafforgue

(٤٨) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الفقرات الأخيرة من: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات.

(٤٩) EA 7 - Traduction Gilbert Lafforgue

(٥٠) راجع فيما سبق: الفصل السابع: الفقرات الأخيرة من: الأحلاف والإتحادات والمعاهدات. والفقرات الأولى من: أولى عناصر القانون الدولى.

(٥١) الأميرة الميتانية التى طلب أمنحوتپ الثالث الزواج منها. راجع: الفصل السابع: التهديدات تحاصر الإمبراطورية. ولكن تزوجها أمنحوتپ الرابع. وذهب البعض إلى الخلط بينها وبين نفرتيتى.

(٥٢) الموفد الميتانى والموفد المصرى وكانا متخصصين فى العلاقات بين البلدين. راجع فيما سبق: الفصل السابع: السلك الدبلوماسى.

(٥٢ مكرر) Knudtzon: El Amarna Tafeln, pp. 223-227

(٥٣) Garelli, Proche - Orient, p. 165

(٥٤) Pirenne: Civilisation, II, pp. 321-322

(٥٥) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: السياسة في حالة ضعف خطير.

(٥٦) Davies (Théodore M.): The Tomb of Queen Tiyi, Londres 1910

(٥٧) The Royal Mummies, Le Caire, 1912, p. 51 sqq

(٥٨) in A.S.A.E. 1931, vol. 31, pp. 115-122

(٥٩) in JEA. 1957, vol. 43, pp. 10-25

هوامش الفصل التاسع

(١) W. Helck, in Lexikon, Bd. I. col. 838

(٢) راجع فيما سبق: الفصل الثامن: رفاق تل العمارنة.

(٣) راجع:
J. Vandier, in Journal des Savants, art. Cit. pp. 65-91

(٤) Urk. Iv, 2038-2040

(٥) الملوك القدامى المتوفون أو المؤلّهون (؟).

(٦) Urk. Iv, 2025-2032

(٧) Urk. Iv, 2048 (1. 5-6)

(٨) Urk. Iv, 2046-2047

(٩) Urk. Iv, 2049-2050

(١٠) Davies: Tomb of Huy, pl. XXVII-XXVIII

(١١) Urk. Iv, 2071 (1.4)

(١٢) تاج خاص بالإله أوزيريس.

(١٣) مدخل جبانة منف.

(١٤) Davies: Tomb of Huy, pl. XXI

(١٥) Carter et Mace: The Tomb of Tut-ankh-amen, 3 vol
C. Desroches-Noblecourt: Toutankhamon

(١٦) C. L. Textes, p.152

(١٧) Desroches-Noblecourt: Toutankhamon, pl. IV

(١٨) Carter et Mace: The Tomb of Tutankhamen, pl. XLVI

(١٩) راجع فيما سبق: الفصل السابع: التهديدات تحاصر الإمبراطورية.

(٢٠) Keith C. Seele, in JNES 1955, vol. XIV, pp. 168-180

(٢١) Urk. Iv, 2109 (1. 9-11)

هوامش الفصل العاشر

(١) Lexikon, Bd. IV, col. 252

(٢) Barguet, Leclant: Karnak-Nord, IV, p. 55-56

(٣) حرفياً: «ثور أمه» – أحد أشكال الشمس.

(٤) Urk. Iv, 2113-2119
C. L. Textes, pp. 44-47

(٥) Urk. Iv, 2142-2161
C. L. Textes, pp. 81-84

(٦) Urk. Iv, 2094-2098

(٧) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: الأيديولوجيا الإمبراطورية الأولى.

(٨) Empire des Ramsès, p. 141, sqq

(٩) راجع فيما سبق: الفصل التاسع: ظلال التاريخ.

(١٠) Urk. Iv, 2085 (1. 17-21)

(١١) Urk. Iv, 2126-2128

(١٢) Urk. Iv, 2128 (1. 3-8)

(١٣) عن هذا الموضوع فى عصر الرعامسة راجع:
Empire des Ramsès, p. 395.

(١٤) Urk. Iv, 2138-2139

(١٥) راجع فيما سبق: الفصل الخامس: العسكريون.

لا تعتبر قائمة المراجع التالية شاملة ومستفيضة.

تضم القائمة الأولى المراجع التى ذكرت أكثر من مرة بين دفتى هذا الكتاب. أما المراجع التى لم تذكر سوى مرة واحدة فقد وردت فى هوامش الكتاب.

تلى ذلك قائمة بأهم الدوريات.

أ. المراجع:

تحل هذه العبارة محل العبارة الفرنسية:

A. Ouvrages cités en abrégé

ب. الدوريات واختصارتها

تحل هذه العبارة محل العبارة الفرنسية

B. Revues citées

(أ) المراجع

BARGUET : *Empire des conquérants.*
Le monde égyptien. Les Pharaons. Vol. II. L'Empire des conquérants. Paris, Gallimard, 1979. (L'architecture, par Paul Barguet, pp. 9-65.)

BARGUET : *Temple d'Amon-Rê,*
BARGUET (Paul) : *Le temple d'Amon-Rê à Karnak. Essai d'exégèse.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1962 ; XIX, 368 pp., XLII pl. (Recherches d'archéologie, de philologie et d'histoire, tome XXI.)

BARGUET-LECLAN-ROBICHON : *Karnak-Nord.*
Karnak-Nord. IV. (1949-1951). Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1954, fasc. 1 : 196 pp., fasc. 2 : CXLVIII pll. (Fouilles de l'IFAO, tome XXV.)

BREASTED : *Ancient Records.*
BREASTED (J. H.) : *Ancient Records of Egypt.* Chicago, 1906-1907, 5 vol. Vol. 2 : *The Eighteenth Dynasty.*

The Cambridge Ancient History. Vol. II. Part I : History of the Middle East and the Aegean Region (1800-1380 BC). Cambridge, Cambridge University Press, 2ᵉ éd. 1978. XXI + 868 pp.

CAMINOS : *Gebel Silsileh.*

CAMINOS (Ricardo A.) : *Gebel es-Silsilah. I. The Shrines.* London, Egypt Exploration Society. 1963 ; 105 pp., 75 pl.

CAMINOS : *Ibrim.*

CAMINOS (Ricardo A.) : *The Shrines and rock-inscriptions of Ibrim.* London, Egypt Exploration Society, 1968 ; 113 pp., 42 pll., 4 figg.

CARTER (H.) ET MACE :

The Tomb of Tut-ankh-Amen. London, 1923-1933, 3 vol.

C.L. TEXTES :

LALOUETTE (Claire) : *Textes sacrés et textes profanes de l'ancienne Égypte.* Paris, Gallimard. 1984 ; 345 pp. (Collection UNESCO d'œuvres représentatives.)

DAVIES : *Amarna.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Rock-Tombs of El Amarna.* Londres, Egypt Exploration Fund. 1903-1908 ; 6 vol.

DAVIES : *Kenamun.*

DAVIES (N. de Garis) : *Tomb of Ken-Amûn at Thebes.* New-York, Metropolitan Museum of Art. 1930. 2 vol.

DAVIES : *Private tombs.*

DAVIES (N. de Garis) : *Scenes from some Theban tombs.* Oxford, University Press, 1963 ; 22 pp., XXIV pll.

DAVIES : *Rekhmirê.*

DAVIES (N. de Garis) : *Tomb of Rekh-mi-rê at Thebes.* New-York, Metropolitan Museum of Art. 1943. 2 vol.

DAVIES : *Tomb of Amenmose.*

Voir DAVIES : *Tomb of Menkheperrêseneb.*

DAVIES : *Tomb of Huy.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tomb of Huy, Viceroy of Nubia in the Reign of Tutankhamun (nᵒ 40).* Londres, Egypt Exploration Fund, 1926.

DAVIES : *Tomb of Menkheperrêseneb.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tomb of Menkheperrasonb, Amenmose and another (nᵒˢ 86, 112, 42 and 226).* Londres, Egypt Exploration Fund, 1932.

DAVIES : *Two Officials.*

DAVIES (N. de Garis) : *The Tombs of two Officials of Thutmosis the Fourth (nᵒˢ 75 and 90).* London, Egypt Exploration Fund, 1923.

DAVIS : *Tomb of Iouiya.*
DAVIS (Théodore M.) : *The Tomb of Iouya and Touiyou.* London, A. Constable & Co., 1907 ; XXX + 48 pp., 10 pll., figg.

DAVIS : *Tomb of Tuthmosis IV.*
CARTER, NEWBERRY : *The Tomb of Tuthmosis IV.* Westminster, Constable & Co., 1904 ; XLVI + 150 pp., XXVII, 21 pll., figg.

DESROCHES-NOBLECOURT : *Toutankhamon.*
DESROCHES-NOBLECOURT (Christiane) : *Toutankhamon.* Paris, Hachette, 1963 : 214 pp. 32 ill.

DITTENBERGER : *O.G.I.S.*
DITTENBERGER (W.) : *Orientis Graeci inscriptiones selectae.* Leipzig, 1903-1905, 2 vol. ; 2e éd., 1960.

EDGERTON : *Tuthmosid Succession.*
EDGERTON (William F.) : *The Tuthmosid Succession.* Chicago, University of Chicago Press, 1933 ; X + 43 pp.

Empire des Ramsès.
LALOUETTE (Claire) : *L'Empire des Ramsès.* Paris, Fayard, 1985 ; 539 pp., ill.

Enseignement de Kheti III.
VOLTEN (Aksel) : *Zwei altägyptische Politische Schriften.* Copenhague, Einar Munksgaard, 1945 : pp. 3-103. (= Analecta Aegyptiaca, vol. IV.)

GARDINER : *Late Egyptian Stories.*
GARDINER (Alan H.) : *Late Egyptian Stories.* Bruxelles, Fondation égyptologique Reine Elisabeth, 1932. (Bibliotheca Aegyptiaca, vol. I.)

GARDINER, PEET, ČERNÝ : *Sinaï.*
GARDINER (Alan), PEET (Eric), ČERNÝ (Jaroslav) : *The Inscriptions of Sinaï.* Londres, Egypt Exploration Society, 1955 ; 2 vol.

GARELLI : *Proche-Orient asiatique.*
GARELLI (Paul) : *Le Proche-Orient asiatique. Des origines aux invasions des Peuples de la mer.* Paris, P.U.F., 1969 ; 377 pp. (Coll. nouvelle Clio, 2.)

GAUTHIER : *Livre des rois.*
GAUTHIER (H.) : *Le livre des rois d'Égypte.* Le Caire, 1912. (Mémoires de l'Institut français d'archéologie orientale du Caire, vol. 18.) Tome II.

GITTON : *Ahmes-Nefertary.*
GITTON (Michel) : *L'épouse du dieu Ahmes Nefertary.* Paris, Les Belles Lettres, 1975 : 108 pp. (= Annales de l'Université de Besançon, n° 172.)

HABACHI : *Sixteen Studies.*
HABACHI (Labib) : *Sixteen Studies on Lower Nubia.* Le Caire, Institut français d'archéologie orientale, 1981 ; 282 pp., 5 pll. (Supplément aux Annales du Service des Antiquités de l'Égypte, Cahier n° 23.)
HABACHI : *Tell Basta.*
HABACHI (Labib) : *Tell Basta.* Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1957 ; XVI + 144 pp. 43 pll., figg.
HAYES : *Royal Sarcophagi.*
HAYES (William C.) : *Royal Sarcophagi of the XVIII th. dynasty.* Princeton, Princeton University Press. 1935 ; 211 pp., XXV pll.
HELCK : *Ägyptologische Studien.*
HELCK (W.) : *Die Berufung des Veziers Ouser.* Berlin, Akademie Verlag, 1955. (Ägyptologische Studien, n° 29.)
HELCK : *Zur Verwaltung.*
HELCK (H.W.) : *Zur Verwaltung des mittleren und neuen Reichs.* Leiden Brill, 1958 ; VIII + 550 pp :(= Probleme der ägyptologie, Bd. 3).
Karnak :
TRAUNECKER (Claude), GOLVIN (Jean-Claude) : *Karnak. Résurrection d'un site.* Paris, Payot, 1984 ; 238 pp., 197 ill.
Karnak I :
VARILLE (A.) : *Karnak.* Le Caire, I.F.A.O., 1943 ; 50 pp. CV pll.
Karnak VI :
Karnak VI. 1973-1977. Le Caire, Imprimerie de l'IFAO, 1980.
KITCHEN : *Pharaoh triumphant.*
KITCHEN (Kenneth A.) : *Pharaoh triumphant. The life and times of Ramses II.* Warminster, Aris and Phillips, 1982 ; 272 pp., figg.
KNUDTZON : *El Amarna Tafeln.*
KNUDTZON (J.A.) : *Die El Amarna Tafeln.* Leipzig, 1908 et 1915, 2 vol.
KRI :
KITCHEN (Kenneth A.) : *Ramesside Inscriptions.* Oxford, Blackwell, publication en cours depuis 1969.
LEFEBVRE : *Contes et romans.*
LEFEBVRE (Gustave) : *Romans et contes égyptiens de l'époque pharaonique.* Paris, Maisonneuve, 1949 ; XXVII + 232 pp.
LEFEBVRE : *Grands prêtres.*
LEFEBVRE (Gustave) : *Histoire des grands prêtres d'Amon de Karnak jusqu'à la XXI[e] dynastie.* Paris, Geuthner, 1929 ; 303 pp., 5 pll.

Lexikon.
Lexikon der Ägyptologie. Wiesbaden. Harrassowitz : depuis 1975, 5e volume en cours de parution.

MASPERO : *Contes populaires.*
MASPERO (Gaston) : *Les contes populaires de l'Égypte ancienne.* Paris. Maisonneuve, 1882 : LXXX + 227 pp.

MONTET : *Byblos et l'Égypte.*
MONTET (Pierre) : *Byblos et l'Égypte. Quatre campagnes de fouilles à Gebail.* Paris. Geuthner, 1928-1929 : 3 vol.

NAVILLE : *Deir el Bahari.*
NAVILLE : *The temples of Deir el Bahari.* London. Egypt Exploration Fund, 1895-1908 ; 6 vol.

PETRIE : *Qoptos.*
PETRIE (Sir Flinders) : *Koptos.* Londres, B. Quaritch. 1896 : 38 pp., XXVIII pll.

PETRIE : *Gurneh.*
PETRIE (Sir Flinders) : *Qurneh.* London. Quaritch. 1909 : VIII + 22 pp., 56 pll.

PIRENNE : *Civilisation.*
PIRENNE (Jacques) : *Histoire de la civilisation de l'Égypte ancienne.* Tome II. Neuchâtel-Paris, 1963. 554 pp.

POSENER, SAUNERON, YOYOTTE : *Dictionnaire.*
POSENER (Georges), SAUNERON (Serge), YOYOTTE (Jean) : *Dictionnaire de la civilisation égyptienne.* Paris, Hazan. 2e éd., 1970 ; 324 pp.

RATIÉ : *Hatshepsout.*
RATIÉ : *La reine Hatshepsout. Sources et problèmes.* Leyde. Brill, 1979 ; 372 pp., 8 pll. (Université de Montpellier. Orientalia. I.)

SANDMAN : *Texts from the time of Akhenaten.*
SANDMAN (R.) : *Texts from the time of Akhenaten.* Bruxelles, Fondation égyptologique. Reine Elisabeth. 1938 : (Bibliotheca Aegyptiaca, vol. VIII.)

SÄVE-SÖDERBERGH : *Private Tombs.*
SÄVE-SÖDERBERGH (T.) : *Private tombs at Thebes I. Four Eighteenth Dynasty Tombs.* Oxford, 1957.

SETHE : *Amun.*
SETHE (Kurt) : *Amund und die acht Urgötter von Hermopolis. Eine Untersuchung über Ursprung und Wesen des ägyptischen Götterkönigs.* Berlin, Akademie der Wissenschaften. 1929 ; 130 pp., 5 pll.

SETHE : *Urgeschichte.*
SETHE (Kurt) : *Urgeschichte und älteste Religion der Ägypter.* Leipzig, 1930 : 2e éd., 1966 : 196 pp., 3 cartes.

Textes des Sarcophages.
BARGUET (Paul) : *Textes des sarcophages égyptiens du Moyen Empire.* Paris, Éditions du Cerf, 1986 : 725 pp.

T.P.
SETHE (Kurt) : *Die altägyptischen Pyramidendexten.* Leipzig, J.C. Hinrich's, 1908 ; 4 vol.

Urk.
Urkunden des aegyptischen Altertums. Leipzig, J.C. Hinrich'sche Buchhandlung, 1932-1961 ; 8 vol. Vol. IV : *Urkunden der 18. Dynastie.*

VANDERSLEYEN : *Guerres d'Amosis.*
VANDERSLEYEN (Claude) : *Les guerres d'Amosis, fondateur de la XVIII^e dynastie.* Bruxelles, FERE 1971 : 248 pp., 4 pll.

VAN SETERS : *Hyksos.*
VAN SETERS (John) : *The Hyksos. A new Investigation.* Newhaven et Londres, Yale University Press. 2^e éd. 1966 : 220 pp.

VARILLE : *Inscriptions d'Amenhotep.*
VARILLE (Alexandre) : *Inscriptions concernant l'architecte Amenhotep fils de Hapou.* Le Caire, IFAO, 1968 : 164 pp. XIV pll. (= Bibl. d'études, tome XLIV.)

WADDELL : *Manetho.*
Manetho. Ptolemy. Tetrabyblos. Traduction W.G. Waddell et S.E. Robbins. Londres, 1940. (Loeb Classical Library.)

W.B.
Wörterbuch der aegyptischen Sprache. Leipzig, J.C. Hinrich'sche. Buchhandlung, 1925-1931 : 5 vol.

WINLOCK : *Rise and fall.*
WINLOCK (H.E.) : *The Rise and Fall of the Middle Kingdom in Thebes.* New-York, Mac Millan Company, 1947 : IX + 174 pp., 48 pll.

(ب) الدوريات واختصاراتها

AEGYPTUS.
Aegyptus. Rivista italiana di egittologia e di papirologia. Milano, Universita Cattolica.

AEPHE.
Annuaire de l'École pratique des hautes études. V^e section. Sciences religieuses. Paris.

ANCIENT EGYPT.
Ancient Egypt and the East. London and New York, Mac Millan & Co.

ARCHAEOLOGIA.

ASAE.

Annales du Service des Antiquités de l'Égypte. Le Caire. Imprimerie de l'Institut français d'archéologie orientale.

BIFAO.

Bulletin de l'Institut français d'archéologie orientale. Le Caire.

BSFE.

Bulletin de la Société française d'égyptologie. Paris.

CE.

Chronique d'Égypte. Bruxelles. Musées royaux d'art et d'histoire.

JARCE.

Journal of the American Research Center in Egypt. Le Caire.

JEA.

Journal of Egyptian Archaeology. London. Egypt Exploration Fund.

JNES.

Journal of Near Eastern Studies. Chicago. University of Chicago Press.

JOURNAL DES SAVANTS.

Journal des Savants. Paris. Institut de France.

KÊMI.

Kêmi. Revue de philologie et d'archéologie égyptiennes et coptes. Paris. Geuthner.

KUSH.

Kush. Journal of the Sudan Antiquities Service. Khartoum. Sudan Antiquities Service.

MDAIK.

Mitteilungen des deutschen Archäologische Instituts abteilung Kairo. Wiesbaden. Harrassowitz.

MONUMENTS PIOT.

Monuments Piot. Paris. Institut de France.

RÉ.

Revue d'égyptologie. Paris et Louvain.

ZÄS.

Zeitschrift für ägyptische Sprache und Altertumskunde. Leipzig. J.C. Hinrichs.

المؤلفة

كلير لالويت

Claire Lalouette

- من كبار علماء المصريات الفرنسيين.
- شغلت منصب أستاذة علم المصريات بجامعة السوربون.
- كانت أيضا من الأعضاء البارزين في المعهد الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة IFAO.
- متخصصة في الأدب المصري القديم.
- سبق للمترجم أن نقل لها، إلى العربية بعض أشهر ما ألفته في هذا الموضوع:

«الأدب المصري القديم». دار الفكر. ١٩٩٢.

«نصوص مقدسة ونصوص دنيوية من مصر القديمة» في مجلدين. دار الفكر. ١٩٩٦.

المترجم

ماهر فؤاد جويجاتى

- من مواليد ١٩٣٢. حاصل على ليسانس فى الأدب الفرنسى. جامعة القاهرة، عام ١٩٥٤.
- ترجم ١٨ كتاباً من الفرنسية إلى العربية فى مجال علم المصريات.
- من أهم ترجماته المنشورة:
- الناس والحياة. ١٩٨٩.
- المومياوات المصرية، فى مجلدين، ١٩٩٧-١٩٩٩.
- حضارة مصر الفرعونية. ١٩٩٨.
- المعجم الوجيز فى اللغة المصرية القديمة بالخط الهيروغليفى. ١٩٩٩.
- عصور ما قبل التاريخ فى مصر ٢٠٠١.

(وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).

- معجم الأساطير المصرية ٢٠٠١.
- العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة ٢٠٠٥.

(وبمناسبة ترجمة هذا الكتاب حصل المترجم على منحة من وزارة الثقافة الفرنسية لقضاء شهر فى فرنسا).

- أمنحوتپ الثالث ٢٠٠٥.

المشروع القومى للترجمة

المشـروع القومـى للترجمـة مشـروع تنميـة ثقافيـة بالدرجـة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التى حققتها مشروعات الترجمة التى سبقته فى مصر والعالم العربى ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية فى المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التى أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعى فى الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنبًا إلى جنب المنجزات الجديدة التى تضع القارئ فى القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومى للترجمة

١-	اللغة العليا	جون كوين	أحمد درويش
٢-	الوثنية والإسلام (ط١)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣-	التراث المسروق	جورج جيمس	شوقى جلال
٤-	كيف تتم كتابة السيناريو	إنجا كاريتنيكوفا	أحمد الحضرى
٥-	ثريا فى غيبوبة	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
٦-	اتجاهات البحث اللسانى	ميلكا إفيتش	سعد مصلوح ووفاء كامل فايد
٧-	العلوم الإنسانية والفلسفة	لوسيان غولدمان	يوسف الأنطكى
٨-	مشعلو الحرائق	ماكس فريش	مصطفى ماهر
٩-	التغيرات البيئية	أندرو. س. جودى	محمود محمد عاشور
١٠-	خطاب الحكاية	چيرار چينيت	محمد معتصم وعبد الجليل الأزدى وعمر حلى
١١-	مختارات شعرية	ڤيسوافا شيمبوريسكا	هناء عبد الفتاح
١٢-	طريق الحرير	ديڤيد براونيستون وأيرين فرانك	أحمد محمود
١٣-	ديانة الساميين	روبرتسن سميث	عبد الوهاب علوب
١٤-	التحليل النفسى للأدب	چان بيلمان نويل	حسن المودن
١٥-	الحركات الفنية منذ ١٩٤٥	إدوارد لوسى سميث	أشرف رفيق عفيفى
١٦-	أثينة السوداء (جـ١)	مارتن برنال	بإشراف: أحمد عتمان
١٧-	مختارات شعرية	فيليب لاركين	محمد مصطفى بدوى
١٨-	الشعر النسائى فى أمريكا اللاتينية	مختارات	طلعت شاهين
١٩-	الأعمال الشعرية الكاملة	چورج سفيريس	نعيم عطية
٢٠-	قصة العلم	ج. ج. كراوثر	يمنى طريف الخولى و بدوى عبد الفتاح
٢١-	خوخة وألف خوخة وقصص أخرى	صمد بهرنجى	ماجدة العنانى
٢٢-	مذكرات رحالة عن المصريين	جون أنتيس	سيد أحمد على الناصرى
٢٣-	تجلى الجميل	هانز جيورج جادامر	سعيد توفيق
٢٤-	ظلال المستقبل	باتريك بارندر	بكر عباس
٢٥-	مثنوى (٦ أجزاء)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٦-	دين مصر العام	محمد حسين هيكل	أحمد محمد حسين هيكل
٢٧-	التنوع البشرى الخلاق	مجموعة من المؤلفين	بإشراف: جابر عصفور
٢٨-	رسالة فى التسامح	چون لوك	منى أبو سنة
٢٩-	الموت والوجود	چيمس ب. كارس	بدر الديب
٣٠-	الوثنية والإسلام (ط٢)	ك. مادهو بانيكار	أحمد فؤاد بلبع
٣١-	مصادر دراسة التاريخ الإسلامى	چان سوفاجيه - كلود كاين	عبد الستار الحلوجى وعبد الوهاب علوب
٣٢-	الانقراض	ديڤيد روب	مصطفى إبراهيم فهمى
٣٣-	التاريخ الاقتصادى لأفريقيا الغربية	أ. ج. هوبكنز	أحمد فؤاد بلبع
٣٤-	الرواية العربية	روچر آلن	حصة إبراهيم المنيف
٣٥-	الأسطورة والحداثة	پول ب . ديكسون	خليل كلفت
٣٦-	نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	حياة جاسم محمد

٢٧-	واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	جمال عبد الرحيم
٢٨-	نقد الحداثة	آلن تورين	أنور مغيث
٢٩-	الحسد والإغريق	بيتر والكوت	منيرة كروان
٤٠-	قصائد حب	آن سكستون	محمد عيد إبراهيم
٤١-	ما بعد المركزية الأوروبية	بيتر جران	عاطف أحمد وإبراهيم فتحي ومحمود ماجد
٤٢-	عالم ماك	بنجامين باربر	أحمد محمود
٤٣-	اللهب المزدوج	أوكتافيو باث .	المهدى أخريف
٤٤-	بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلى	مارلين تادرس
٤٥-	التراث المغدور	روبرت دينا وجون فاين	أحمد محمود
٤٦-	عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	محمود السيد على
٤٧-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ١)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨-	حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ماهر جويجاتى
٤٩-	الإسلام فى البلقان	هـ . ت . نوريس	عبد الوهاب علوب
٥٠-	ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	محمد برادة وعثمانى الميلود ويوسف الأنطكى
٥١-	مسار الرواية الإسبانو أمريكية	داريو بيانويبا وخ. م. بينياليستى	محمد أبو العطا
٥٢-	العلاج النفسى التدعيمى	ب. نوالليس ور س . روجسيفيتز وروجر بيل	لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣-	الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	مرسى سعد الدين
٥٤-	المفهوم الإغريقى للمسرح	ج . مايكل والتون	محسن مصيلحى
٥٥-	ما وراء العلم	چون بولكنجهوم	على يوسف على
٥٦-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ١)	فديريكو غرسية لوركا	محمود على مكى
٥٧-	الأعمال الشعرية الكاملة (جـ٢)	فديريكو غرسية لوركا	محمود السيد و ماهر البطوطى
٥٨-	مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	محمد أبو العطا
٥٩-	المحبرة (مسرحية)	كارلوس مونييث	السيد السيد سهيم
٦٠-	التصميم والشكل	جوهانز إيتين	صبرى محمد عبد الغنى
٦١-	موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	بإشراف : محمد الجوهرى
٦٢-	لذّة النّص	رولان بارت	محمد خير البقاعى
٦٣-	تاريخ النقد الأدبى الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤-	برتراند راسل (سيرة حياة)	آلان وود	رمسيس عوض
٦٥-	فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	رمسيس عوض
٦٦-	خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧-	مختارات شعرية	فرناندو بيسوا	المهدى أخريف
٦٨-	نتاشا العجوز وقصص أخرى	ڤالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
٦٩-	العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠-	ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجث	عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١-	السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	حسين محمود
٧٢-	السياسى العجوز	ت . س . إليوت	فؤاد مجلى
٧٣-	نقد استجابة القارئ	چين ب . توميكنز	حسن ناظم وعلى حاكم
٧٤-	صلاح الدين والمماليك فى مصر	ل . ا . سيمينوڤا	حسن بيومى

٧٥-	فن التراجم والسير الذاتية	أندريه موروا	أحمد درويش
٧٦-	چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي	مجموعة من المؤلفين	عبد المقصود عبد الكريم
٧٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٢)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٧٨-	العولمة : النظرية الاجتماعية والثقافة الكونية	رونالد روبرتسون	أحمد محمود ونورا أمين
٧٩-	شعرية التأليف	بوريس أوسبنسكي	سعيد الغانمي وناصر حلاوي
٨٠-	بوشكين عند «نافورة الدموع»	ألكسندر بوشكين	مكارم الغمري
٨١-	الجماعات المتخيلة	بندكت أندرسن	محمد طارق الشرقاوي
٨٢-	مسرح ميجيل	ميجيل دي أونامونو	محمود السيد علي
٨٣-	مختارات شعرية	غوتفريد بن	خالد المعالي
٨٤-	موسوعة الأدب والنقد (جـ١)	مجموعة من المؤلفين	عبد الحميد شيحة
٨٥-	منصور الحلاج (مسرحية)	صلاح زكي أقطاي	عبد الرازق بركات
٨٦-	طول الليل (رواية)	جمال مير صادقي	أحمد فتحي يوسف شتا
٨٧-	نون والقلم (رواية)	جلال آل أحمد	ماجدة العناني
٨٨-	الابتلاء بالتغرب	جلال آل أحمد	إبراهيم الدسوقي شتا
٨٩-	الطريق الثالث	أنتوني جيدنز	أحمد زايد ومحمد محيي الدين
٩٠-	وسم السيف وقصص أخرى	بورخيس وآخرون	محمد إبراهيم مبروك
٩١-	المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق	باربرا لاسوتسكا - بشونباك	محمد هناء عبد الفتاح
٩٢-	أساليب ومضامين المسرح الإسبانوأمريكي المعاصر	كارلوس ميجيل	نادية جمال الدين
٩٣-	محدثات العولمة	مايك فيذرستون وسكوت لاش	عبد الوهاب علوب
٩٤-	مسرحيتا الحب الأول والصحبة	صمويل بيكيت	فوزية العشماوي
٩٥-	مختارات من المسرح الإسباني	أنطونيو بويرو باييخو	سري محمد عبد اللطيف
٩٦-	ثلاث زنبقات ووردة وقصص أخرى	نخبة	إدوار الخراط
٩٧-	هوية فرنسا (مج١)	فرنان برودل	بشير السباعي
٩٨-	الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٩٩-	تاريخ السينما العالمية (١٨٩٥-١٩٨٠)	ديفيد روبنسون	إبراهيم قنديل
١٠٠-	مساءلة العولمة	بول هيرست وجراهام تومبسون	إبراهيم فتحي
١٠١-	النص الروائي: تقنيات ومناهج	بيرنار فاليط	رشيد بنحدو
١٠٢-	السياسة والتسامح	عبد الكبير الخطيبي	عز الدين الكتاني الإدريسي
١٠٣-	قبر ابن عربي يليه آياء (شعر)	عبد الوهاب المؤدب	محمد بنيس
١٠٤-	أوبرا ماهوجني (مسرحية)	برتولت بريشت	عبد الغفار مكاوي
١٠٥-	مدخل إلى النص الجامع	چيرارچينيت	عبد العزيز شبيل
١٠٦-	الأدب الأندلسي	ماريا خيسوس روبييرامتي	أشرف علي دعدور
١٠٧-	صورة الفدائي في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر	نخبة من الشعراء	محمد عبد الله الجعيدي
١٠٨-	ثلاث دراسات عن الشعر الأندلسي	مجموعة من المؤلفين	محمود علي مكي
١٠٩-	حروب المياه	چون بولوك وعادل درويش	هاشم أحمد محمد
١١٠-	النساء في العالم النامي	حسنة بيجوم	منى قطان
١١١-	المرأة والجريمة	فرانسس هيدسون	ريهام حسين إبراهيم
١١٢-	الاحتجاج الهادئ	أرلين علوي ماكليود	إكرام يوسف

١١٣-	راية التمرد	سادى بلانت	أحمد حسان
١١٤-	مسرحيتا حصاد كونجي وسكان المستنقع	وول شوينكا	نسيم مجلى
١١٥-	غرفة تخص المرء وحده	فرجينيا وولف	سمية رمضان
١١٦-	امرأة مختلفة (درية شفيق)	سينثيا نلسون	نهاد أحمد سالم
١١٧-	المرأة والجنوسة فى الإسلام	ليلى أحمد	منى إبراهيم وهالة كمال
١١٨-	النهضة النسائية فى مصر	بث بارون	ليس النقاش
١١٩-	النساء والأسرة وقوانين الطلاق فى التاريخ الإسلامى	أميرة الأزهرى سنبل	بإشراف: روف عباس
١٢٠-	الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط	ليلى أبو لغد	مجموعة من المترجمين
١٢١-	الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية	فاطمة موسى	محمد الجندى وإيزابيل كمال
١٢٢-	نظام العبودية القديم والنموذج المثالى للإنسان	جوزيف فوجت	منيرة كروان
١٢٣-	الإمبراطورية العثمانية وعلاقاتها الدولية	أنينل ألكسندرو فنادولينا	أنور محمد إبراهيم
١٢٤-	الفجر الكاذب: أوهام الرأسمالية العالمية	جون جراى	أحمد فؤاد بلبع
١٢٥-	التحليل الموسيقى	سيدرك ثورپ ديفى	سمحة الخولى
١٢٦-	فعل القراءة	فولفانج إيسر	عبد الوهاب علوب
١٢٧-	إرهاب (مسرحية)	صفاء فتحى	بشير السباعى
١٢٨-	الأدب المقارن	سوزان باسنيت	أميرة حسن نويرة
١٢٩-	الرواية الإسبانية المعاصرة	ماريا دولورس أسيس جاروته	محمد أبو العطا وآخرون
١٣٠-	الشرق يصعد ثانية	أندريه جوندر فرانك	شوقى جلال
١٣١-	مصر القديمة: التاريخ الاجتماعى	مجموعة من المؤلفين	لويس بقطر
١٣٢-	ثقافة العولمة	مايك فيذرستون	عبد الوهاب علوب
١٣٣-	الخوف من المرايا (رواية)	طارق على	طلعت الشايب
١٣٤-	تشريح حضارة	بارى ج. كيمب	أحمد محمود
١٣٥-	المختار من نقد ت. س. إليوت	ت. س. إليوت	ماهر شفيق فريد
١٣٦-	فلاحو الباشا	كينيث كونو	سحر توفيق
١٣٧-	مذكرات ضابط فى الحملة الفرنسية على مصر	جوزيف مارى مواريه	كاميليا صبحى
١٣٨-	عالم التليفزيون بين الجمال والعنف	أندريه جلوكسمان	وجيه سمعان عبد المسيح
١٣٩-	پارسيڤال (مسرحية)	ريتشارد ڤاجنر	مصطفى ماهر
١٤٠-	حيث تلتقى الأنهار	هربرت ميسن	أمل الجبورى
١٤١-	اثنتا عشرة مسرحية يونانية	مجموعة من المؤلفين	نعيم عطية
١٤٢-	الإسكندرية : تاريخ ودليل	أ. م. فورستر	حسن بيومى
١٤٣-	قضايا التنظير فى البحث الاجتماعى	ديرك لايدر	عدلى السمرى
١٤٤-	صاحبة اللوكاندة (مسرحية)	كارلو جولدونى	سلامة محمد سليمان
١٤٥-	موت أرتيميو كروث (رواية)	كارلوس فوينتس	أحمد حسان
١٤٦-	الورقة الحمراء (رواية)	ميجيل دى ليبس	على عبدالرءوف البمبى
١٤٧-	مسرحيتان	تانكريد دورست	عبدالغفار مكاوى
١٤٨-	القصة القصيرة: النظرية والتقنية	إنريكى أندرسون إمبرت	على إبراهيم منوفى
١٤٩-	النظرية الشعرية عند إليوت وأدونيس	عاطف فضول	أسامة إسبر
١٥٠-	التجربة الإغريقية	روبرت ج. ليتمان	منيرة كروان

العنوان	المؤلف	المترجم
١٥١- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ١)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٢- عدالة الهنود وقصص أخرى	مجموعة من المؤلفين	محمد محمد الخطابي
١٥٣- غرام الفراعنة	فيولين فانويك	فاطمة عبدالله محمود
١٥٤- مدرسة فرانكفورت	فيل سليتر	خليل كلفت
١٥٥- الشعر الأمريكي المعاصر	نخبة من الشعراء	أحمد مرسي
١٥٦- المدارس الجمالية الكبرى	چي أنبال وآلان وأوديت ڤيرمو	مي التلمساني
١٥٧- خسرو وشيرين	النظامي الكنجوي	عبدالعزيز بقوش
١٥٨- هوية فرنسا (مج ٢ ، جـ٢)	فرنان برودل	بشير السباعي
١٥٩- الأيديولوچية	ديڤيد هوكس	إبراهيم فتحي
١٦٠- آلة الطبيعة	بول إيرليش	حسين بيومي
١٦١- مسرحيتان من المسرح الإسباني	أليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا	زيدان عبدالحليم زيدان
١٦٢- تاريخ الكنيسة	يوحنا الأسيوي	صلاح عبدالعزيز محجوب
١٦٣- موسوعة علم الاجتماع (جـ ١)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهري
١٦٤- شامبليون (حياة من نور)	چان لاكوتير	نبيل سعد
١٦٥- حكايات الثعلب (قصص أطفال)	أ. ن. أفاناسيفا	سهير المصادفة
١٦٦- العلاقات بين المتدينين والعلمانيين في إسرائيل	يشعياهو ليڤمان	محمد محمود أبوغدير
١٦٧- في عالم طاغور	رابندرنات طاغور	شكري محمد عياد
١٦٨- دراسات في الأدب والثقافة	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٦٩- إبداعات أدبية	مجموعة من المؤلفين	شكري محمد عياد
١٧٠- الطريق (رواية)	ميجيل دليبيس	بسام ياسين رشيد
١٧١- وضع حد (رواية)	فرانك بيجو	هدى حسين
١٧٢- حجر الشمس (شعر)	نخبة	محمد محمد الخطابي
١٧٣- معنى الجمال	ولتر ت. ستيس	إمام عبد الفتاح إمام
١٧٤- صناعة الثقافة السوداء	إيليس كاشمور	أحمد محمود
١٧٥- التليفزيون في الحياة اليومية	لوريتزو ڤيلشس	وجيه سمعان عبد المسيح
١٧٦- نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية	توم تيتنبرج	جلال البنا
١٧٧- أنطون تشيخوف	هنري ترويا	حصة إبراهيم المنيف
١٧٨- مختارات من الشعر اليوناني الحديث	نخبة من الشعراء	محمد حمدي إبراهيم
١٧٩- حكايات أيسوب (قصص أطفال)	أيسوب	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٠- قصة جاويد (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
١٨١- النقد الأدبي الأمريكي من الثلاثينات إلى الثمانينات	فنسنت ب. ليتش	محمد يحيى
١٨٢- العنف والنبوءة (شعر)	و.ب. ييتس	ياسين طه حافظ
١٨٣- چان كوكتو على شاشة السينما	رينيه جيلسون	فتحي العشري
١٨٤- القاهرة: حالمة لا تنام	هانز إيندورفر	دسوقي سعيد
١٨٥- أسفار العهد القديم في التاريخ	توماس تومسن	عبد الوهاب علوب
١٨٦- معجم مصطلحات هيجل	ميخائيل إنوود	إمام عبد الفتاح إمام
١٨٧- الأرضة (رواية)	بُزرج علوي	محمد علاء الدين منصور
١٨٨- موت الأدب	ألڤين كرنان	بدر الديب

١٨٩- العمى والبصيرة: مقالات في بلاغة النقد المعاصر	بول دي مان	سعيد الغانمي
١٩٠- محاورات كونفوشيوس	كونفوشيوس	محسن سيد فرجاني
١٩١- الكلام رأسمال وقصص أخرى	الحاج أبو بكر إمام وآخرون	مصطفى حجازي السيد
١٩٢- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ١)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
١٩٣- عامل المنجم (رواية)	بيتر أبراهامز	محمد عبد الواحد محمد
١٩٤- مختارات من النقد الأنجلو-أمريكي الحديث	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
١٩٥- شتاء ٨٤ (رواية)	إسماعيل فصيح	محمد علاء الدين منصور
١٩٦- المهلة الأخيرة (رواية)	فالنتين راسبوتين	أشرف الصباغ
١٩٧- سيرة الفاروق	شمس العلماء شبلي النعماني	جلال السعيد الحفناوي
١٩٨- الاتصال الجماهيري	إدوين إمري وآخرون	إبراهيم سلامة إبراهيم
١٩٩- تاريخ يهود مصر في الفترة العثمانية	يعقوب لانداو	جمال أحمد الرفاعي وأحمد عبد اللطيف حماد
٢٠٠- ضحايا التنمية: المقاومة والبدائل	چيرمي سيبروك	فخري لبيب
٢٠١- الجانب الديني للفلسفة	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٢٠٢- تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٤)	رينيه ويليك	مجاهد عبد المنعم مجاهد
٢٠٣- الشعر والشاعرية	ألطاف حسين حالي	جلال السعيد الحفناوي
٢٠٤- تاريخ نقد العهد القديم	زالمان شازار	أحمد هويدي
٢٠٥- الجينات والشعوب واللغات	لويجي لوقا كافاللي- سفورزا	أحمد مستجير
٢٠٦- الهيولية تصنع علماً جديداً	چيمس جلايك	علي يوسف علي
٢٠٧- ليل أفريقي (رواية)	رامون خوتاسندير	محمد أبو العطا
٢٠٨- شخصية العربي في المسرح الإسرائيلي	دان أوريان	محمد أحمد صالح
٢٠٩- السرد والمسرح	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٠- مثنويات حكيم سنائي (شعر)	سنائي الغزنوي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢١١- فرديناند دوسوسير	جوناثان كلر	محمود حمدي عبد الغني
٢١٢- قصص الأمير مرزبان على لسان الحيوان	مرزبان بن رستم بن شروين	يوسف عبدالفتاح فرج
٢١٣- مصر منذ قدوم نابليون حتى رحيل عبدالناصر	ريمون فلاور	سيد أحمد علي الناصري
٢١٤- قواعد جديدة للمنهج في علم الاجتماع	انتوني جيدنز	محمد محيي الدين
٢١٥- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢١٦- جوانب أخرى من حياتهم	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٢١٧- مسرحيتان طليعيتان	صمويل بيكيت وهارولد بينتر	نادية البنهاوي
٢١٨- لعبة الحجلة (رواية)	خوليو كورتاثار	علي إبراهيم منوفي
٢١٩- بقايا اليوم (رواية)	كازو إيشجورو	طلعت الشايب
٢٢٠- الهيولية في الكون	باري باركر	علي يوسف علي
٢٢١- شعرية كفافي	جريجوري جوزدانيس	رفعت سلام
٢٢٢- فرانز كافكا	رونالد جراي	نسيم مجلي
٢٢٣- العلم في مجتمع حر	باول فيرابند	السيد محمد نفادي
٢٢٤- دمار يوغسلافيا	برانكا ماجاس	منى عبدالظاهر إبراهيم
٢٢٥- حكاية غريق (رواية)	جابرييل جارثيا ماركيث	السيد عبدالظاهر السيد
٢٢٦- أرض المساء وقصائد أخرى	ديفيد هربت لورانس	طاهر محمد علي البربري

٢٢٧-	المسرح الإسبانى فى القرن السابع عشر	خوسيه ماريا ديث بوركى	السيد عبدالظاهر عبدالله
٢٢٨-	علم الجمالية وعلم اجتماع الفن	جانيت وولف	مارى تيريز عبدالمسيح وخالد حسن
٢٢٩-	مأزق البطل الوحيد	نورمان كيجان	أمير إبراهيم العمرى
٢٣٠-	عن الذباب والفئران والبشر	فرانسواز جاكوب	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣١-	الدرافيل أو الجيل الجديد (مسرحية)	خايمى سالوم بيدال	جمال عبدالرحمن
٢٣٢-	ما بعد المعلومات	توم ستونير	مصطفى إبراهيم فهمى
٢٣٣-	فكرة الاضمحلال فى التاريخ الغربى	آرثر هيرمان	طلعت الشايب
٢٣٤-	الإسلام فى السودان	ج. سبنسر تريمنجهام	فؤاد محمد عكود
٢٣٥-	ديوان شمس تبريزى (جـ١)	مولانا جلال الدين الرومى	إبراهيم الدسوقى شتا
٢٣٦-	الولاية	ميشيل شودكيفيتش	أحمد الطيب
٢٣٧-	مصر أرض الوادى	روبين فيدين	عنايات حسين طلعت
٢٣٨-	العولمة والتحرير	تقرير لمنظمة الأنكتاد	ياسر محمد جادالله وعربى مدبولى أحمد
٢٣٩-	العربى فى الأدب الإسرائيلى	جيلا رامراز - رايوخ	نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق
٢٤٠-	الإسلام والغرب وإمكانية الحوار	كاى حافظ	صلاح محجوب إدريس
٢٤١-	فى انتظار البرابرة (رواية)	ج . م. كوتزى	ابتسام عبدالله
٢٤٢-	سبعة أنماط من الغموض	وليام إمبسون	صبرى محمد حسن
٢٤٣-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج١)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٢٤٤-	الغليان (رواية)	لاورا إسكيبيل	نادية جمال الدين محمد
٢٤٥-	نساء مقاتلات	إليزابيتا أديس وآخرون	توفيق على منصور
٢٤٦-	مختارات قصصية	جابرييل جارثيا ماركيث	على إبراهيم منوفى
٢٤٧-	الثقافة الجماهيرية والحداثة فى مصر	والتر أرمبرست	محمد طارق الشرقاوى
٢٤٨-	حقول عدن الخضراء (مسرحية)	أنطونيو جالا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٤٩-	لغة التمزق (شعر)	دراجو شتامبوك	رفعت سلام
٢٥٠-	علم اجتماع العلوم	دومنيك فينك	ماجدة محسن أباظة
٢٥١-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٢)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٥٢-	رائدات الحركة النسوية المصرية	مارجو بدران	على بدران
٢٥٣-	تاريخ مصر الفاطمية	ل. أ. سيمينوڤا	حسن بيومى
٢٥٤-	أقدم لك: الفلسفة	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٥-	أقدم لك: أفلاطون	ديڤ روبنسون وجودى جروفز	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٦-	أقدم لك: ديكارت	ديڤ روبنسون وكريس جارات	إمام عبد الفتاح إمام
٢٥٧-	تاريخ الفلسفة الحديثة	وليم كلى رايت	محمود سيد أحمد
٢٥٨-	الفجر	سير أنجوس فريزر	عُبادة كُحيلة
٢٥٩-	مختارات من الشعر الأرمنى عبر العصور	نخبة	فاروجان كازانجيان
٢٦٠-	موسوعة علم الاجتماع (جـ٣)	جوردون مارشال	بإشراف: محمد الجوهرى
٢٦١-	رحلة فى فكر زكى نجيب محمود	زكى نجيب محمود	إمام عبد الفتاح إمام
٢٦٢-	مدينة المعجزات (رواية)	إدواردو مندوثا	محمد أبو العطا
٢٦٣-	الكشف عن حافة الزمن	جون جريبين	على يوسف على
٢٦٤-	إبداعات شعرية مترجمة	هوراس وشلى	لويس عوض

العنوان	المؤلف	المترجم
٢٦٥- روايات مترجمة	أوسكار وايلد وصمويل جونسون	لويس عوض
٢٦٦- مدير المدرسة (رواية)	جلال آل أحمد	عادل عبدالمنعم على
٢٦٧- فن الرواية	ميلان كونديرا	بدر الدين عرودكي
٢٦٨- ديوان شمس تبريزي (جـ٢)	مولانا جلال الدين الرومي	إبراهيم الدسوقي شتا
٢٦٩- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ١)	وليم چيفورد بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧٠- وسط الجزيرة العربية وشرقها (جـ٢)	وليم چيفورد بالجريف	صبري محمد حسن
٢٧١- الحضارة الغربية: الفكرة والتاريخ	توماس سي. باترسون	شوقي جلال
٢٧٢- الأديرة الأثرية في مصر	سي. سي. والترز	إبراهيم سلامة إبراهيم
٢٧٣- الأصول الاجتماعية والثقافية لحركة عرابي في مصر	چوان كول	عنان الشهاوي
٢٧٤- السيدة باربارا (رواية)	رومولو جايجوس	محمود على مكى
٢٧٥- ت. س. إليوت شاعراً وناقداً وكاتباً مسرحياً	مجموعة من النقاد	ماهر شفيق فريد
٢٧٦- فنون السينما	مجموعة من المؤلفين	عبدالقادر التلمساني
٢٧٧- الچينات والصراع من أجل الحياة	براين فورد	أحمد فوزي
٢٧٨- البدايات	إسحاق عظيموف	ظريف عبدالله
٢٧٩- الحرب الباردة الثقافية	ف.س. سوندرز	طلعت الشايب
٢٨٠- الأم والنصيب وقصص أخرى	بريم شند وآخرون	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨١- الفردوس الأعلى (رواية)	عبد الحليم شرر	جلال الحفناوي
٢٨٢- طبيعة العلم غير الطبيعية	لويس ولبرت	سمير حنا صادق
٢٨٣- السهل يحترق وقصص أخرى	خوان رولفو	على عبد الرءوف البمبي
٢٨٤- هرقل مجنوناً (مسرحية)	يوريبيديس	أحمد عتمان
٢٨٥- رحلة خواجة حسن نظامي الدهلوي	حسن نظامي الدهلوي	سمير عبد الحميد إبراهيم
٢٨٦- سياحت نامه إبراهيم بك (جـ٢)	زين العابدين المراغي	محمود علاوي
٢٨٧- الثقافة والعولمة والنظام العالمي	أنتوني كنج	محمد يحيى وآخرون
٢٨٨- الفن الروائي	ديڤيد لودج	ماهر البطوطي
٢٨٩- ديوان منوچهري الدامغاني	أبو نجم أحمد بن قوص	محمد نور الدين عبدالمنعم
٢٩٠- علم اللغة والترجمة	چورج مونان	أحمد زكريا إبراهيم
٢٩١- تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (جـ١)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٢- تاريخ المسرح الإسباني في القرن العشرين (جـ٢)	فرانشسكو رويس رامون	السيد عبد الظاهر
٢٩٣- مقدمة للأدب العربي	روجر آلن	مجدي توفيق وآخرون
٢٩٤- فن الشعر	بوالو	رجاء ياقوت
٢٩٥- سلطان الأسطورة	چوزيف كامبل وبيل مويرز	بدر الديب
٢٩٦- مكبث (مسرحية)	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوي
٢٩٧- فن النحو بين اليونانية والسريانية	ديونيسيوس ثراكس ويوسف الأهوازي	ماجدة محمد أنور
٢٩٨- مأساة العبيد وقصص أخرى	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٩٩- ثورة في التكنولوجيا الحيوية	چين ماركس	هاشم أحمد محمد
٣٠٠- أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (جـ١)	لويس عوض	جمال الجزيري وبهاء چاهين وإيزابيل كمال
٣٠١- أسطورة بروميثيوس في الأدبين الإنجليزي والفرنسي (جـ٢)	لويس عوض	جمال الجزيري و محمد الجندي
٣٠٢- أقدم لك: فتجنشتين	چون هيتون وچودي جروفز	إمام عبد الفتاح إمام

٣٠٣-	أقدم لك: بوذا	جين هوب وبورن فان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٤-	أقدم لك: ماركس	ريوس	إمام عبد الفتاح إمام
٣٠٥-	الجلد (رواية)	كروزيو مالابارته	صلاح عبد الصبور
٣٠٦-	الحماسة: النقد الكانطي للتاريخ	جان فرانسوا ليوتار	نبيل سعد
٣٠٧-	أقدم لك: الشعور	ديفيد بابينو وهوارد سلينا	محمود مكي
٣٠٨-	أقدم لك: علم الوراثة	ستيف جونز وبورين فان لو	ممدوح عبد المنعم
٣٠٩-	أقدم لك: الذهن والمخ	أنجوس جيلاتي وأوسكار زاريت	جمال الجزيري
٣١٠-	أقدم لك: يونج	ماجي هايد ومايكل ماكجنس	محيي الدين مزيد
٣١١-	مقال في المنهج الفلسفي	ر.ج كولنجوود	فاطمة إسماعيل
٣١٢-	روح الشعب الأسود	وليم ديبويس	أسعد حليم
٣١٣-	أمثال فلسطينية (شعر)	خايير بيان	محمد عبدالله الجعيدي
٣١٤-	مارسيل دوشامب: الفن كعدم	جانيس مينيك	هويدا السباعي
٣١٥-	جرامشي في العالم العربي	ميشيل بروندينو والطاهر لبيب	كاميليا صبحي
٣١٦-	محاكمة سقراط	أي. ف. ستون	نسيم مجلي
٣١٧-	بلا غد	س. شير لايموفا- س. زنيكين	أشرف الصباغ
٣١٨-	الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة	مجموعة من المؤلفين	أشرف الصباغ
٣١٩-	صور دريدا	جايترى سبيفاك وكرستوفر نوريس	حسام نايل
٣٢٠-	لمعة السراج لحضرة التاج	مؤلف مجهول	محمد علاء الدين منصور
٣٢١-	تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ١)	ليفي برو فنسال	بإشراف: صلاح فضل
٣٢٢-	وجهات نظر حديثة في تاريخ الفن الغربي	دبليو يوجين كليمنباور	خالد مفلح حمزة
٣٢٣-	فن الساتورا	تراث يوناني قديم	هانم محمد فوزي
٣٢٤-	اللعب بالنار (رواية)	أشرف أسدي	محمود علاوي
٣٢٥-	عالم الآثار (رواية)	فيليب بوسان	كرستين يوسف
٣٢٦-	المعرفة والمصلحة	يورجين هابرماس	حسن صقر
٣٢٧-	مختارات شعرية مترجمة (جـ١)	نخبة	توفيق علي منصور
٣٢٨-	يوسف وزليخا (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٣٢٩-	رسائل عيد الميلاد (شعر)	تد هيوز	محمد عيد إبراهيم
٣٣٠-	كل شيء عن التمثيل الصامت	مارفن شبرد	سامي صلاح
٣٣١-	عندما جاء السردين وقصص أخرى	ستيفن جراي	سامية دياب
٣٣٢-	شهر العسل وقصص أخرى	نخبة	علي إبراهيم منوفي
٣٣٣-	الإسلام في بريطانيا من ١٥٥٨-١٦٨٥	نبيل مطر	بكر عباس
٣٣٤-	لقطات من المستقبل	آرثر كلارك	مصطفى إبراهيم فهمي
٣٣٥-	عصر الشك: دراسات عن الرواية	ناتالي ساروت	فتحي العشري
٣٣٦-	متون الأهرام	نصوص مصرية قديمة	حسن صابر
٣٣٧-	فلسفة الولاء	جوزايا رويس	أحمد الأنصاري
٣٣٨-	نظرات حائرة وقصص أخرى	نخبة	جلال الحفناوي
٣٣٩-	تاريخ الأدب في إيران (جـ٣)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٣٤٠-	اضطراب في الشرق الأوسط	بيرش بيربروجلو	فخري لبيب

٢٤١- قصائد من رلكه (شعر)	راينر ماريا ريلكه	حسن حلمي
٢٤٢- سلامان وأبسال (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	عبد العزيز بقوش
٢٤٣- العالم البرجوازي الزائل (رواية)	نادين جورديمر	سمير عبد ربه
٢٤٤- الموت في الشمس (رواية)	بيتر بالانجيو	سمير عبد ربه
٢٤٥- الركض خلف الزمان (شعر)	يونه نداشي	يوسف عبد الفتاح فرج
٢٤٦- سحر مصر	رشاد رشدي	جمال الجزيري
٢٤٧- الصبية الطائشون (رواية)	جان كوكتو	بكر الحلو
٢٤٨- المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ١)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٤٩- دليل القارئ إلى الثقافة الجادة	أرثر والدهورن وآخرون	أحمد عمر شاهين
٢٥٠- بانوراما الحياة السياحية	مجموعة من المؤلفين	عطية شحاتة
٢٥١- مبادئ المنطق	جوزايا رويس	أحمد الانصاري
٢٥٢- قصائد من كفافيس	قسطنطين كفافيس	نعيم عطية
٢٥٣- الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة الهندسية	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٢٥٤- الفن الإسلامي في الأندلس: الزخرفة النباتية	باسيليو بابون مالدونادو	علي إبراهيم منوفي
٢٥٥- التيارات السياسية في إيران المعاصرة	حجت مرتجى	محمود علاوي
٢٥٦- الميراث المر	بول سالم	بدر الرفاعي
٢٥٧- متون هرمس	تيموثي فريك وبيتر غاندي	عمر الفاروق عمر
٢٥٨- أمثال الهوسا العامية	نخبة	مصطفى حجازي السيد
٢٥٩- محاورة بارمنيدس	أفلاطون	حبيب الشاروني
٢٦٠- أنثروبولوجيا اللغة	أندريه جاكوب ونويلا باركان	ليلى الشربيني
٢٦١- التصحر: التهديد والمجابهة	آلان جرينجر	عاطف معتمد وآمال شاور
٢٦٢- تلميذ بابنبرج (رواية)	هاينرش شبورل	سيد أحمد فتح الله
٢٦٣- حركات التحرير الأفريقية	ريتشارد جيبسون	صبري محمد حسن
٢٦٤- حداثة شكسبير	إسماعيل سراج الدين	نجلاء أبو عجاج
٢٦٥- سأم باريس (شعر)	شارل بودلير	محمد أحمد حمد
٢٦٦- نساء يركضن مع الذئاب	كلاريسا بنكولا	مصطفى محمود محمد
٢٦٧- القلم الجريء	مجموعة من المؤلفين	البراق عبدالهادي رضا
٢٦٨- المصطلح السردي: معجم مصطلحات	جيرالد برنس	عابد خزندار
٢٦٩- المرأة في أدب نجيب محفوظ	فوزية العشماوي	فوزية العشماوي
٢٧٠- الفن والحياة في مصر الفرعونية	كليرلا لويت	فاطمة عبدالله محمود
٢٧١- المتصوفة الأولون في الأدب التركي (جـ٢)	محمد فؤاد كوبريلي	عبدالله أحمد إبراهيم
٢٧٢- عاش الشباب (رواية)	وانغ مينغ	وحيد السعيد عبدالحميد
٢٧٣- كيف تعد رسالة دكتوراه	أومبرتو إيكو	علي إبراهيم منوفي
٢٧٤- اليوم السادس (رواية)	أندريه شديد	حمادة إبراهيم
٢٧٥- الخلود (رواية)	ميلان كونديرا	خالد أبو اليزيد
٢٧٦- الغضب وأحلام السنين (مسرحيات)	جان أنوي وآخرون	إدوار الخراط
٢٧٧- تاريخ الأدب في إيران (جـ٤)	إدوارد براون	محمد علاء الدين منصور
٢٧٨- المسافر (شعر)	محمد إقبال	يوسف عبدالفتاح فرج

٢٧٩- ملك فى الحديقة (رواية)	سنيل باث	جمال عبدالرحمن
٢٨٠- حديث عن الخسارة	جونتر جراس	شيرين عبدالسلام
٢٨١- أساسيات اللغة	ر. ل. تراسك	رانيا إبراهيم يوسف
٢٨٢- تاريخ طبرستان	بهاء الدين محمد اسفنديار	أحمد محمد نادى
٢٨٣- هدية الحجاز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٨٤- القصص التى يحكيها الأطفال	سوزان إنجيل	إيزابيل كمال
٢٨٥- مشترى العشق (رواية)	محمد على بهزادراد	يوسف عبدالفتاح فرج
٢٨٦- دفاعًا عن التاريخ الأدبى النسوى	جانيت تود	ريهام حسين إبراهيم
٢٨٧- أغنيات وسوناتات (شعر)	چون دن	بهاء چاهين
٢٨٨- مواعظ سعدى الشيرازى (شعر)	سعدى الشيرازى	محمد علاء الدين منصور
٢٨٩- تفاهم وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٢٩٠- الأرشيفات والمدن الكبرى	إم. فى. روبرتس	عثمان مصطفى عثمان
٢٩١- الحافلة الليلكية (رواية)	مايف بينشى	منى الدروبى
٢٩٢- مقامات ورسائل أندلسية	فرناندو دى لاجرانجا	عبداللطيف عبدالحليم
٢٩٣- فى قلب الشرق	ندوة لويس ماسينيون	زينب محمود الخضيرى
٢٩٤- القوى الأربع الأساسية فى الكون	پول ديڤيز	هاشم أحمد محمد
٢٩٥- آلام سياوش (رواية)	إسماعيل فصيح	سليم عبد الأمير حمدان
٢٩٦- السافاك	تقى نجارى راد	محمود علاوى
٢٩٧- أقدم لك: نيتشه	لورانس جين وكيتى شين	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٨- أقدم لك: سارتر	فيليپ تودى وهوارد ريد	إمام عبدالفتاح إمام
٢٩٩- أقدم لك: كامى	ديڤيد ميروفتش وألن كوركس	إمام عبدالفتاح إمام
٤٠٠- مومو (رواية)	ميشائيل إنده	باهر الجوهرى
٤٠١- أقدم لك: علم الرياضيات	زيادون ساردر وآخرون	ممدوح عبد المنعم
٤٠٢- أقدم لك: ستيفن هوكنج	ج. ب. ماك إيفوى وأوسكار زاريت	ممدوح عبدالمنعم
٤٠٣- ربة المطر والملابس تصنع الناس (روايتان)	تودور شتورم وجوتفرد كولر	عماد حسن بكر
٤٠٤- تعويذة الحسى	ديڤيد إبرام	ظبية خميس
٤٠٥- إيزابيل (رواية)	أندريه جيد	حمادة إبراهيم
٤٠٦- المستعربون الإسبان فى القرن ١٩	مانويلا مانتاناريس	جمال عبد الرحمن
٤٠٧- الأدب الإسبانى المعاصر بأقلام كتابه	مجموعة من المؤلفين	طلعت شاهين
٤٠٨- معجم تاريخ مصر	چوان فوتشركنج	عنان الشهاوى
٤٠٩- انتصار السعادة	برتراند راسل	إلهامى عمارة
٤١٠- خلاصة القرن	كارل بوبر	الزواوى بغورة
٤١١- همس من الماضى	چينيفر أكرمان	أحمد مستجير
٤١٢- تاريخ إسبانيا الإسلامية (مج٢، جـ٢)	ليفى بروفنسال	بإشراف: صلاح فضل
٤١٣- أغنيات المنفى (شعر)	ناظم حكمت	محمد البخارى
٤١٤- الجمهورية العالمية للآداب	باسكال كازانوفا	أمل الصبان
٤١٥- صورة كوكب (مسرحية)	فريدريش دورينمات	أحمد كامل عبدالرحيم
٤١٦- مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر	أ. أ. رتشاردز	محمد مصطفى بدوى

٤١٧-	تاريخ النقد الأدبي الحديث (جـ٥)	رينيه ويليك	مجاهد عبدالمنعم مجاهد
٤١٨-	سياسات الزمر الحاكمة في مصر العثمانية	جين هاثواي	عبد الرحمن الشيخ
٤١٩-	العصر الذهبي للإسكندرية	جون مارلو	نسيم مجلي
٤٢٠-	مكرو ميجاس (قصة فلسفية)	فولتير	الطيب بن رجب
٤٢١-	الولاء والقيادة في المجتمع الإسلامي الأول	روى متحدة	أشرف كيلاني
٤٢٢-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ١)	ثلاثة من الرحالة	عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٤٢٣-	إسراءات الرجل الطيف	نخبة	وحيد النقاش
٤٢٤-	لوائح الحق ولوامع العشق (شعر)	نور الدين عبدالرحمن الجامي	محمد علاء الدين منصور
٤٢٥-	من طاووس إلى فرح	محمود طلوعي	محمود علاوي
٤٢٦-	الخفافيش وقصص أخرى	نخبة	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٢٧-	بانديراس الطاغية (رواية)	باي إنكلان	ثريا شلبي
٤٢٨-	الخزانة الخفية	محمد هوتك بن داود خان	محمد أمان صافي
٤٢٩-	أقدم لك: هيجل	ليود سبنسر وأندزجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٠-	أقدم لك: كانط	كريستوفر وانت وأندزجي كليموفسكي	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣١-	أقدم لك: فوكو	كريس هوروكس وزودران جفتيك	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٢-	أقدم لك: ماكيافللي	باتريك كيري وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٣-	أقدم لك: جويس	ديفيد نوريس وكارل فلنت	حمدي الجابري
٤٣٤-	أقدم لك: الرومانسية	دونكان هيث وجودي بورهام	عصام حجازي
٤٣٥-	توجهات ما بعد الحداثة	نيكولاس زربرج	ناجي رشوان
٤٣٦-	تاريخ الفلسفة (مج١)	فردريك كوبلستون	إمام عبدالفتاح إمام
٤٣٧-	رحالة هندي في بلاد الشرق العربي	شبلي النعماني	جلال الحفناوي
٤٣٨-	بطلات وضحايا	إيمان ضياء الدين بيبرس	عايدة سيف الدولة
٤٣٩-	موت المرابي (رواية)	صدر الدين عيني	محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب
٤٤٠-	قواعد اللهجات العربية الحديثة	كرستن بروستاد	محمد طارق الشرقاوي
٤٤١-	رب الأشياء الصغيرة (رواية)	أروينداتي روي	فخري لبيب
٤٤٢-	حتشبسوت: المرأة الفرعونية	فوزية أسعد	ماهر جويجاتي
٤٤٣-	اللغة العربية: تاريخها ومستوياتها وتأثيرها	كيس فرستيغ	محمد طارق الشرقاوي
٤٤٤-	أمريكا اللاتينية: الثقافات القديمة	لاوريت سيجورنه	صالح علماني
٤٤٥-	حول وزن الشعر	پرويز ناتل خانلري	محمد محمد يونس
٤٤٦-	التحالف الأسود	ألكسندر كوكبرن وجيفري سانت كلير	أحمد محمود
٤٤٧-	ملحمة السيِّد	تراث شعبي إسباني	الطاهر أحمد مكي
٤٤٨-	الفلاحون (ميراث الترجمة)	الأب عيروط	محي الدين اللبان ووليم داود مرقس
٤٤٩-	أقدم لك: الحركة النسوية	نخبة	جمال الجزيري
٤٥٠-	أقدم لك: ما بعد الحركة النسوية	صوفيا فوكا وريبيكا رايت	جمال الجزيري
٤٥١-	أقدم لك: الفلسفة الشرقية	ريتشارد أوزبورن وبورن ڤان لون	إمام عبد الفتاح إمام
٤٥٢-	أقدم لك: لينين والثورة الروسية	ريتشارد إبجينانزي وأوسكار زاريت	محيي الدين مزيد
٤٥٣-	القاهرة: إقامة مدينة حديثة	جان لوك أرنو	حليم طوسون وفؤاد الدهان
٤٥٤-	خمسون عامًا من السينما الفرنسية	رينيه بريدال	سوزان خليل

٤٥٥-	تاريخ الفلسفة الحديثة (مج٥)	فردريك كوبلستون	محمود سيد أحمد
٤٥٦-	لا تنسنى (رواية)	مريم جعفرى	هويدا عزت محمد
٤٥٧-	النساء فى الفكر السياسى الغربى	سوزان موللر أوكين	إمام عبدالفتاح إمام
٤٥٨-	الموريسكيون الأندلسيون	مرثيديس غارثيا أرينال	جمال عبد الرحمن
٤٥٩-	نحو مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية	توم تيتنبرج	جلال البنا
٤٦٠-	أقدم لك: الفاشية والنازية	ستوارت هود وليتزا جانستز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦١-	أقدم لك: لكان	داريان ليدر وجودى جروفز	إمام عبدالفتاح إمام
٤٦٢-	طه حسين من الأزهر إلى السوربون	عبدالرشيد الصادق محمودى	عبدالرشيد الصادق محمودى
٤٦٣-	الدولة المارقة	ويليام بلوم	كمال السيد
٤٦٤-	ديمقراطية للقلة	مايكل بارنتى	حصة إبراهيم المنيف
٤٦٥-	قصص اليهود	لويس جنزبيرج	جمال الرفاعى
٤٦٦-	حكايات حب وبطولات فرعونية	فيولين فانويك	فاطمة عبد الله
٤٦٧-	التفكير السياسى والنظرة السياسية	ستيفين ديلو	ربيع وهبة
٤٦٨-	روح الفلسفة الحديثة	چوزايا رويس	أحمد الأنصارى
٤٦٩-	جلال الملوك	نصوص حبشية قديمة	مجدى عبدالرازق
٤٧٠-	الأراضى والجودة البيئية	جارى م. بيرزنسكى وآخرون	محمد السيد النتة
٤٧١-	رحلة لاستكشاف أفريقيا (جـ٢)	ثلاثة من الرحالة	عبد الله عبد الرازق إبراهيم
٤٧٢-	دون كيخوتى (القسم الأول)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٣-	دون كيخوتى (القسم الثانى)	ميجيل دى ثربانتس سابيدرا	سليمان العطار
٤٧٤-	الأدب والنسوية	بام موريس	سهام عبدالسلام
٤٧٥-	صوت مصر: أم كلثوم	ڤرچينيا دانيلسون	عادل هلال عنانى
٤٧٦-	أرض الحبايب بعيدة: بيرم التونسى	ماريلين بوث	سحر توفيق
٤٧٧-	تاريخ الصين منذ ما قبل التاريخ حتى القرن العشرين	هيلدا هوخام	أشرف كيلانى
٤٧٨-	الصين والولايات المتحدة	ليوشيه شنج و لى شى دونج	عبد العزيز حمدى
٤٧٩-	المقهـــى (مسرحية)	لاو شه	عبد العزيز حمدى
٤٨٠-	تساى ون جى (مسرحية)	كو مو روا	عبد العزيز حمدى
٤٨١-	بردة النبى	روى متحدة	رضوان السيد
٤٨٢-	موسوعة الأساطير والرموز الفرعونية	روبير چاك تيبو	فاطمة عبد الله
٤٨٣-	النسوية وما بعد النسوية	سارة جامبل	أحمد الشامى
٤٨٤-	جمالية التلقى	هانسن روبيرت ياوس	رشيد بنحدو
٤٨٥-	التوبة (رواية)	نذير أحمد الدهلوى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٦-	الذاكرة الحضارية	يان أسمن	عبدالحليم عبدالغنى رجب
٤٨٧-	الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية	رفيع الدين المراد أبادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٨-	الحب الذى كان وقصائد أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم
٤٨٩-	هُسِّرل: الفلسفة علمًا دقيقًا	إدموند هُسِّرل	محمود رجب
٤٩٠-	أسمار البيغاء	محمد قادرى	عبد الوهاب علوب
٤٩١-	نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى	نخبة	سمير عبد ربه
٤٩٢-	محمد على مؤسس مصر الحديثة	چى فارچيت	محمد رفعت عواد

٤٩٣- خطابات إلى طالب الصوتيات — هارولد بالمر — محمد صالح الضالع
٤٩٤- كتاب الموتى: الخروج في النهار — نصوص مصرية قديمة — شريف الصيفي
٤٩٥- اللوبي — إدوارد تيفان — حسن عبد ربه المصري
٤٩٦- الحكم والسياسة في أفريقيا (جـ١) — إكوادو بانولي — مجموعة من المترجمين
٤٩٧- العلمانية والنوع والدولة في الشرق الأوسط — نادية العلي — مصطفى رياض
٤٩٨- النساء والنوع في الشرق الأوسط الحديث — جوديث تاكر ومارجريت مريوبز — أحمد علي بدوي
٤٩٩- تقاطعات: الأمة والمجتمع والنوع — مجموعة من المؤلفين — فيصل بن خضراء
٥٠٠- في طفولتي: دراسة في السيرة الذاتية العربية — تيتز رووكي — طلعت الشايب
٥٠١- تاريخ النساء في الغرب (جـ١) — أرثر جولد هامر — سحر فراج
٥٠٢- أصوات بديلة — مجموعة من المؤلفين — هالة كمال
٥٠٣- مختارات من الشعر الفارسي الحديث — نخبة من الشعراء — محمد نور الدين عبدالمنعم
٥٠٤- كتابات أساسية (جـ١) — مارتن هايدجر — إسماعيل المصدق
٥٠٥- كتابات أساسية (جـ٢) — مارتن هايدجر — إسماعيل المصدق
٥٠٦- ربما كان قديساً (رواية) — آن تيلر — عبدالحميد فهمي الجمال
٥٠٧- سيدة الماضي الجميل (مسرحية) — بيتر شيفر — شوقي فهيم
٥٠٨- المولوية بعد جلال الدين الرومي — عبدالباقي جلبنارلي — عبداله أحمد إبراهيم
٥٠٩- الفقر والإحسان في عصر سلاطين المماليك — أدم صبرة — قاسم عبده قاسم
٥١٠- الأرملة الماكرة (مسرحية) — كارلو جولدوني — عبدالرازق عيد
٥١١- كوكب مرقَّع (رواية) — آن تيلر — عبدالحميد فهمي الجمال
٥١٢- كتابة النقد السينمائي — تيموثي كوريجان — جمال عبد الناصر
٥١٣- العلم الجسور — تيد أنتون — مصطفى إبراهيم فهمي
٥١٤- مدخل إلى النظرية الأدبية — جونثان كولر — مصطفى بيومي عبد السلام
٥١٥- من التقليد إلى ما بعد الحداثة — فدوى مالطي دوجلاس — فدوى مالطي دوجلاس
٥١٦- إرادة الإنسان في علاج الإدمان — أرنولد واشنطون ودونا باوندي — صبري محمد حسن
٥١٧- نقش على الماء وقصص أخرى — نخبة — سمير عبد الحميد إبراهيم
٥١٨- استكشاف الأرض والكون — إسحق عظيموف — هاشم أحمد محمد
٥١٩- محاضرات في المثالية الحديثة — جوزايا رويس — أحمد الأنصاري
٥٢٠- الولع الفرنسي بمصر من الحلم إلى المشروع — أحمد يوسف — أمل الصبان
٥٢١- قاموس تراجم مصر الحديثة — أرثر جولد سميث — عبدالوهاب بكر
٥٢٢- إسبانيا في تاريخها — أميركو كاسترو — علي إبراهيم منوفي
٥٢٣- الفن الطليطلي الإسلامي والمدجن — باسيليو بابون مالدونادو — علي إبراهيم منوفي
٥٢٤- الملك لير (مسرحية) — وليم شكسبير — محمد مصطفى بدوي
٥٢٥- موسم صيد في بيروت وقصص أخرى — دنيس جونسون — نادية رفعت
٥٢٦- أقدم لك: السياسة البيئية — ستيفن كرول ووليم رانكين — محيي الدين مزيد
٥٢٧- أقدم لك: كافكا — ديفيد زين ميروفتس وروبرت كرمب — جمال الجزيري
٥٢٨- أقدم لك: تروتسكي والماركسية — طارق علي وفِل إيفانز — جمال الجزيري
٥٢٩- بدائع العلامة إقبال في شعره الأردي — محمد إقبال — حازم محفوظ
٥٣٠- مدخل عام إلى فهم النظريات التراثية — رينيه جينو — عمر الفاروق عمر

٥٣١–	ما الذى حَدَثَ فى «حَدَث» ١١ سبتمبر؟	جاك دريدا	صفاء فتحى
٥٣٢–	المغامرُ والمستشرق	هنرى لورنس	بشير السباعى
٥٣٣–	تعلُّم اللغة الثانية	سوزان جاس	محمد طارق الشرقاوى
٥٣٤–	الإسلاميون الجزائريون	سيڤرين لابا	حمادة إبراهيم
٥٣٥–	مخزن الأسرار (شعر)	نظامى الكنجوى	عبدالعزيز بقوش
٥٣٦–	الثقافات وقيم التقدم	صمويل هنتنجتون ولورانس هاريزون	شوقى جلال
٥٣٧–	للحب والحرية (شعر)	نخبة	عبدالغفار مكاوى
٥٣٨–	النفس والآخر فى قصص يوسف الشارونى	كيت دانيلر	محمد الحديدى
٥٣٩–	خمس مسرحيات قصيرة	كاريل تشرشل	محسن مصيلحى
٥٤٠–	توجهات بريطانية – شرقية	السير رونالد ستورس	رءوف عباس
٥٤١–	هى تتخيل وهلاوس أخرى	خوان خوسيه مياس	مروة رزق
٥٤٢–	قصص مختارة من الأدب اليونانى الحديث	نخبة	نعيم عطية
٥٤٣–	أقدم لك: السياسة الأمريكية	باتريك بروجان وكريس جرات	وفاء عبدالقادر
٥٤٤–	أقدم لك: ميلانى كلاين	روبرت هنشل وآخرون	حمدى الجابرى
٥٤٥–	يا له من سباق محموم	فرانسيس كريك	عزت عامر
٥٤٦–	ريموس	ت. ب. وايزمان	توفيق على منصور
٥٤٧–	أقدم لك: بارت	فيليب تودى وآن كورس	جمال الجزيرى
٥٤٨–	أقدم لك: علم الاجتماع	ريتشارد أوزبرن وبورن فان لون	حمدى الجابرى
٥٤٩–	أقدم لك: علم العلامات	بول كوبلى وليتاجانز	جمال الجزيرى
٥٥٠–	أقدم لك: شكسبير	نيك جروم وبيرو	حمدى الجابرى
٥٥١–	الموسيقى والعولمة	سايمون ماندى	سمحة الخولى
٥٥٢–	قصص مثالية	ميجيل دى ثربانتس	على عبد الرءوف البمبى
٥٥٣–	مدخل للشعر الفرنسى الحديث والمعاصر	دانيال لوفرس	رجاء ياقوت
٥٥٤–	مصر فى عهد محمد على	عفاف لطفى السيد مارسوه	عبدالسميع عمر زين الدين
٥٥٥–	الإستراتيجية الأمريكية للقرن الحادى والعشرين	أناتولى أوتكين	أنور محمد إبراهيم ومحمد نصرالدين الجبالى
٥٥٦–	أقدم لك: جان بودريار	كريس هوروكس وزوران جيفتك	حمدى الجابرى
٥٥٧–	أقدم لك: الماركيز دى ساد	ستوارت هود وجراهام كرولى	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٨–	أقدم لك: الدراسات الثقافية	زيودين ساردار وبورين فان لون	إمام عبدالفتاح إمام
٥٥٩–	الماس الزائف (رواية)	تشا تشاجى	عبدالحى أحمد سالم
٥٦٠–	صلصلة الجرس (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦١–	جناح جبريل (شعر)	محمد إقبال	جلال السعيد الحفناوى
٥٦٢–	بلايين وبلايين	كارل ساجان	عزت عامر
٥٦٣–	ورود الخريف (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٤–	عُش الغريب (مسرحية)	خاثينتو بينابينتى	صبرى محمدى التهامى
٥٦٥–	الشرق الأوسط المعاصر	ديبورا ج. جيرنر	أحمد عبدالحميد أحمد
٥٦٦–	تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى	موريس بيشوب	على السيد على
٥٦٧–	الوطن المغتصب	مايكل رايس	إبراهيم سلامة إبراهيم
٥٦٨–	الأصولى فى الرواية	عبد السلام حيدر	عبد السلام حيدر

٥٦٩- موقع الثقافة — هومي بابا — ثائر ديب
٥٧٠- دول الخليج الفارسي — سير روبرت هاى — يوسف الشاروني
٥٧١- تاريخ النقد الإسباني المعاصر — إيميليا دى ثوليتا — السيد عبد الظاهر
٥٧٢- الطب فى زمن الفراعنة — برونو ألبوا — كمال السيد
٥٧٣- أقدم لك: فرويد — ريتشارد ابيجنانس وأسكار زارتى — جمال الجزيرى
٥٧٤- مصر القديمة فى عيون الإيرانيين — حسن بيرنيا — علاء الدين السباعى
٥٧٥- الاقتصاد السياسى للعولمة — نجير وودز — أحمد محمود
٥٧٦- فكر ثربانتس — أمريكو كاسترو — ناهد العشرى محمد
٥٧٧- مغامرات بينوكيو — كارلو كولودى — محمد قدرى عمارة
٥٧٨- الجماليات عند كيتس وهنت — أيومى ميزوكوشى — محمد إبراهيم وعصام عبد الرءوف
٥٧٩- أقدم لك: تشومسكى — جون ماهر وجودى جرونز — محيى الدين مزيد
٥٨٠- دائرة المعارف الدولية (مج١) — جون فيزر وبول سيترجز — بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٥٨١- الحمقى يموتون (رواية) — ماريو بوزو — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٢- مرايا على الذات (رواية) — هوشنك كلشيرى — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٣- الجيران (رواية) — أحمد محمود — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٤- سفر (رواية) — محمود دولت أبادى — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٥- الأمير احتجاب (رواية) — هوشنك كلشيرى — سليم عبد الأمير حمدان
٥٨٦- السينما العربية والأفريقية — ليزبيث مالكموس وروى أرمز — سهام عبد السلام
٥٨٧- تاريخ تطور الفكر الصينى — مجموعة من المؤلفين — عبدالعزيز حمدى
٥٨٨- أمنحوتب الثالث — أنييس كابرول — ماهر جويجاتى
٥٨٩- تمبكت العجيبة — فيلكس ديبوا — عبدالله عبدالرازق إبراهيم
٥٩٠- أساطير من الموروثات الشعبية الفنلندية — نخبة — محمود مهدى عبدالله
٥٩١- الشاعر والمفكر — هوراتيوس — على عبدالتواب على وصلاح رمضان السيد
٥٩٢- الثورة المصرية (جـ١) — محمد صبرى السوربونى — مجدى عبدالحافظ وعلى كورخان
٥٩٣- قصائد ساحرة — بول فاليرى — بكر الحلو
٥٩٤- القلب السمين (قصة أطفال) — سوزانا تامارو — أمانى فوزى
٥٩٥- الحكم والسياسة فى أفريقيا (جـ٢) — إكوادو بانولى — مجموعة من المترجمين
٥٩٦- الصحة العقلية فى العالم — روبرت ديجارليه وآخرون — إيهاب عبدالرحيم محمد
٥٩٧- مسلمو غرناطة — خوليو كاروباروخا — جمال عبدالرحمن
٥٩٨- مصر وكنعان وإسرائيل — دونالد ريدفورد — بيومى على قنديل
٥٩٩- فلسفة الشرق — هرداد مهرين — محمود علاوى
٦٠٠- الإسلام فى التاريخ — برنارد لويس — مدحت طه
٦٠١- النسوية والمواطنة — ريان فوت — أيمن بكر وسمر الشيشكلى
٦٠٢- ليوتار:نحو فلسفة ما بعد حداثية — جيمس وليامز — إيمان عبدالعزيز
٦٠٣- النقد الثقافى — آرثر أيزابرجر — وفاء إبراهيم ورمضان بسطاويسى
٦٠٤- الكوارث الطبيعية (مج١) — باتريك ل. أبوت — توفيق على منصور
٦٠٥- مخاطر كوكبنا المضطرب — إرنست زيبروسكى (الصغير) — مصطفى إبراهيم فهمى
٦٠٦- قصة البردى اليونانى فى مصر — ريتشارد هاريس — محمود إبراهيم السعدنى

٦٠٧- قلب الجزيرة العربية (جـ١)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٨- قلب الجزيرة العربية (جـ٢)	هارى سينت فيلبى	صبرى محمد حسن
٦٠٩- الانتخاب الثقافى	أجنر فوج	شوقى جلال
٦١٠- العمارة المدجنة	رفائيل لويث جوثمان	على إبراهيم منوفى
٦١١- النقد والأيديولوجية	تيرى إيجلتون	فخرى صالح
٦١٢- رسالة النفسية	فضل الله بن حامد الحسينى	محمد محمد يونس
٦١٣- السياحة والسياسة	كولن مايكل هول	محمد فريد حجاب
٦١٤- بيت الأقصر الكبير(رواية)	فوزية أسعد	منى قطان
٦١٥- عرض الأحداث التى وقعت فى بغداد من ١٩٦٧ إلى ١٩٩٩	أليس بسيرينى	محمد رفعت عواد
٦١٦- أساطير بيضاء	روبرت يانج	أحمد محمود
٦١٧- الفولكلور والبحر	هوراس بيك	أحمد محمود
٦١٨- نحو مفهوم لاقتصاديات الصحة	تشارلز فيلبس	جلال البنا
٦١٩- مفاتيح أورشليم القدس	ريمون استانبولى	عايدة الباجورى
٦٢٠- السلام الصليبى	توماش ماستناك	بشير السباعى
٦٢١- رباعيات الخيام (ميراث الترجمة)	عمر الخيام	محمد السباعى
٦٢٢- أشعار من عالم اسمه الصين	أى تشينغ	أمير نبيه وعبدالرحمن حجازى
٦٢٣- نوادر جحا الإيرانى	سعيد قانعى	يوسف عبدالفتاح
٦٢٤- شعر المرأة الأفريقية	نخبة	غادة الحلوانى
٦٢٥- الجرح السرى	چان چينيه	محمد برادة
٦٢٦- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	نخبة	توفيق على منصور
٦٢٧- حكايات إيرانية	نخبة	عبدالوهاب علوب
٦٢٨- أصل الأنواع	تشارلس داروين	مجدى محمود المليجى
٦٢٩- قرن آخر من الهيمنة الأمريكية	نيقولاس جويات	عزة الخميسى
٦٣٠- سيرتى الذاتية	أحمد بللو	صبرى محمد حسن
٦٣١- مختارات من الشعر الأفريقى المعاصر	نخبة	بإشراف: حسن طلب
٦٣٢- المسلمون واليهود فى مملكة فالنسيا	دولورس برامون	رانيا محمد
٦٣٣- الحب وفنونه (شعر)	نخبة	حمادة إبراهيم
٦٣٤- مكتبة الإسكندرية	روى ماكلويد وإسماعيل سراج الدين	مصطفى البهنساوى
٦٣٥- التثبيت والتكيف فى مصر	جودة عبد الخالق	سمير كريم
٦٣٦- حج يولندة	جناب شهاب الدين	سامية محمد جلال
٦٣٧- مصر الخديوية	ف. روبرت هنتر	بدر الرفاعى
٦٣٨- الديمقراطية والشعر	روبرت بن وارين	فؤاد عبد المطلب
٦٣٩- فندق الأرق (شعر)	تشارلز سيميك	أحمد شافعى
٦٤٠- ألكسياد	الأميرة أناكومنينا	حسن حبشى
٦٤١- برتراند رسل (مختارات)	برتراند رسل	محمد قدرى عمارة
٦٤٢- أقدم لك: داروين والتطور	جوناثان ميلر وبورين فان لون	ممدوح عبد المنعم
٦٤٣- سفرنامه حجاز (شعر)	عبد الماجد الدريابادى	سمير عبدالحميد إبراهيم
٦٤٤- العلوم عند المسلمين	هوارد د.تيرنر	فتح الله الشيخ

٦٤٥- السياسة الخارجية الأمريكية ومصادرها الداخلية	تشارلز كجلي ويوجين ويتكوف	عبد الوهاب علوب
٦٤٦- قصة الثورة الإيرانية	سپهر ذبيح	عبد الوهاب علوب
٦٤٧- رسائل من مصر	چون نينيه	فتحي العشري
٦٤٨- بورخيس	بياتريث سارلو	خليل كلفت
٦٤٩- الخوف وقصص خرافية أخرى	چي دي موپاسان	سحر يوسف
٦٥٠- الدولة والسلطة والسياسة في الشرق الأوسط	روچر أوين	عبد الوهاب علوب
٦٥١- ديليسبس الذي لا نعرفه	وثائق قديمة	أمل الصبان
٦٥٢- آلهة مصر القديمة	كلود ترونكر	حسن نصر الدين
٦٥٣- مدرسة الطغاة (مسرحية)	إيريش كستنر	سمير جريس
٦٥٤- أساطير شعبية من أوزبكستان (جـ١)	نصوص قديمة	عبد الرحمن الخميسي
٦٥٥- أساطير وآلهة	إيزابيل فرانكو	حليم طوسون ومحمود ماهر طه
٦٥٦- خبز الشعب والأرض الحمراء (مسرحيتان)	ألفونسو ساسترى	ممدوح البستاوى
٦٥٧- محاكم التفتيش والموريسكيون	مرثيديس غارثيا أرينال	خالد عباس
٦٥٨- حوارات مع خوان رامون خيمينيث	خوان رامون خيمينيث	صبرى التهامى
٦٥٩- قصائد من إسبانيا وأمريكا اللاتينية	نخبة	عبداللطيف عبدالحليم
٦٦٠- نافذة على أحدث العلوم	ريتشارد فايفيلد	هاشم أحمد محمد
٦٦١- روائع أندلسية إسلامية	نخبة	صبرى التهامى
٦٦٢- رحلة إلى الجذور	داسو سالدييار	صبرى التهامى
٦٦٣- امرأة عادية	ليوسيل كليفتون	أحمد شافعى
٦٦٤- الرجل على الشاشة	ستيفن كوهان وإنا راى هارك	عصام زكريا
٦٦٥- عوالم أخرى	پول دافيز	هاشم أحمد محمد
٦٦٦- تطور الصورة الشعرية عند شكسبير	وولفجانج اتش كليمن	جمال عبد الناصر ومدحت الجيار وجمال جاد الرب
٦٦٧- الأزمة القادمة لعلم الاجتماع الغربى	ألفن جولدنر	على ليلة
٦٦٨- ثقافات العولمة	فريدريك چيمسون وماساو ميوشى	ليلى الجبالى
٦٦٩- ثلاث مسرحيات	وول شوينكا	نسيم مجلى
٦٧٠- أشعار جوستاف أدولفو	جوستاف أدولفو بكر	ماهر البطوطى
٦٧١- قل لى كم مضى على رحيل القطار؟	چيمس بولدوين	على عبدالأمير صالح
٦٧٢- مختارات من الشعر الفرنسي للأطفال	نخبة	إبتهال سالم
٦٧٣- ضرب الكليم (شعر)	محمد إقبال	جلال الحفناوى
٦٧٤- ديوان الإمام الخمينى	آية الله العظمى الخمينى	محمد علاء الدين منصور
٦٧٥- أثينا السوداء (جـ٢، مج١)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٦- أثينا السوداء (جـ٢، مج٢)	مارتن برنال	بإشراف: محمود إبراهيم السعدنى
٦٧٧- تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج١)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٨- تاريخ الأدب في إيران (جـ١ ، مج٢)	إدوارد جرانفيل براون	أحمد كمال الدين حلمى
٦٧٩- مختارات شعرية مترجمة (جـ٢)	وليام شكسبير	توفيق على منصور
٦٨٠- المدينة الفاضلة (ميراث الترجمة)	كارل ل. بيكر	محمد شفيق غربال
٦٨١- هل يوجد نص في هذا الفصل؟	ستانلي فش	أحمد الشيمى
٦٨٢- نجوم حظر التجوال الجديد (رواية)	بن أوكرى	صبرى محمد حسن

الرقم	العنوان	المؤلف	المترجم
٦٨٣-	سكين واحد لكل رجل (رواية)	تي. م. ألوكو	صبري محمد حسن
٦٨٤-	الأعمال القصصية الكاملة (أنا كندا) (جـ١)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسي
٦٨٥-	الأعمال القصصية الكاملة (الصحراء) (جـ٢)	أوراثيو كيروجا	رزق أحمد بهنسي
٦٨٦-	امرأة محاربة (رواية)	ماكسين هونج كنجستون	سحر توفيق
٦٨٧-	محبوبة (رواية)	فتانة حاج سيد جوادى	ماجدة العناني
٦٨٨-	الانفجارات الثلاثة العظمى	فيليب م. دوبر وريتشارد أ. موار	فتح الله الشيخ وأحمد السماحي
٦٨٩-	الملف (مسرحية)	تاديوش روجيفيتش	هناء عبد الفتاح
٦٩٠-	محاكم التفتيش فى فرنسا	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩١-	ألبرت أينشتين: حياته وغرامياته	(مختارات)	رمسيس عوض
٦٩٢-	أقدم لك: الوجودية	ريتشارد أبيجانسي وأوسكار زاريت	حمدي الجابري
٦٩٣-	أقدم لك: القتل الجماعي (المحرقة)	حاثيم برشيت وآخرون	جمال الجزيري
٦٩٤-	أقدم لك: دريدا	جيف كولينز وبيل مايبلين	حمدي الجابري
٦٩٥-	أقدم لك: رسل	ديف روبنسون وجودي جروف	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٦-	أقدم لك: روسو	ديف روبنسون وأوسكار زاريت	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٧-	أقدم لك: أرسطو	روبرت ودفين وجودى جروفس	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٨-	أقدم لك: عصر التنوير	ليود سبنسر وأندرزيجي كروز	إمام عبدالفتاح إمام
٦٩٩-	أقدم لك: التحليل النفسي	إيفان وارد وأوسكار زارايت	جمال الجزيري
٧٠٠-	الكاتب وواقعه	ماريو بارجاس يوسا	بسمة عبدالرحمن
٧٠١-	الذاكرة والحداثة	وليم رود فيفيان	منى البرنس
٧٠٢- *	مدونة جوستنيان فى الفقه الرومانى (ميراث الترجمة)	جوستينيان	عبد العزيز فهمي
٧٠٣-	تاريخ الأدب فى إيران (جـ٢)	إدوارد جرانفيل براون	أمين الشواربي
٧٠٤-	فيه ما فيه	مولانا جلال الدين الرومي	محمد علاء الدين منصور وآخرون
٧٠٥-	فضل الأنام من رسائل حجة الإسلام	الإمام الغزالي	عبدالحميد مدكور
٧٠٦-	الشفرة الوراثية وكتاب التحولات	جونسون ف. يان	عزت عامر
٧٠٧-	أقدم لك: فالتر بنيامين	هوارد كاليجل وآخرون	وفاء عبدالقادر
٧٠٨-	فراعنة من؟	دونالد مالكولم ريد	رءوف عباس
٧٠٩-	معنى الحياة	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٧١٠-	الأطفال والتكنولوجيا والثقافة	إيان هاتشباى وجوموران - إليس	دعاء محمد الخطيب
٧١١-	درة التاج	ميرزا محمد هادى رسوا	هناء عبد الفتاح
٧١٢-	الإلياذة (جـ١) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستاني
٧١٣-	الإلياذة (جـ٢) (ميراث الترجمة)	هوميروس	سليمان البستاني
٧١٤-	حديث القلوب (ميراث الترجمة)	لامنيه	حنا صاوه
٧١٥-	سر تقدم الإنكليز السكسونيين (ميراث الترجمة)	إدمون ديمولان	أحمد فتحي زغلول
٧١٦-	جامعة كل المعارف (جـ٢)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٧-	جامعة كل المعارف (جـ٣)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٨-	جامعة كل المعارف (جـ٥)	مجموعة من المؤلفين	نخبة من المترجمين
٧١٩-	مسرح الأطفال: فلسفة وطريقة	م. جولدبرج	جميلة كامل
٧٢٠-	مداخل إلى البحث فى تعلم اللغة الثانية	دونام جونسون	على شعبان وأحمد الخطيب

٧٢١-	فلسفة المتكلمين فى الإسلام (مج١)	هـ. أ. ولفسون	مصطفى لبيب عبد الغنى
٧٢٢-	المنفجة وقصص أخرى	بشار كمال	الصفصافى أحمد القطورى
٧٢٣-	تحديات ما بعد الصهيونية	إفرايم نيمنى	أحمد ثابت
٧٢٤-	اليسار الفرويدى	بول روبنسون	عبده الريس
٧٢٥-	الاضطراب النفسى	جون فيتكس	مى مقلد
٧٢٦-	الموريسكيون فى المغرب	غييرمو غوثاليبس بوستو	مروة محمد إبراهيم
٧٢٧-	حلم البحر (رواية)	باجين	وحيد السعيد
٧٢٨-	العولمة: تدمير العمالة والنمو	موريس آليه	أميرة جمعة
٧٢٩-	الثورة الإسلامية فى إيران	صادق زيباكلام	هويدا عزت
٧٣٠-	حكايات من السهول الأفريقية	آن جاتى	عزت عامر
٧٣١-	النوع: للذكر والأنثى بين التميز والاختلاف	مجموعة من المؤلفين	محمد قدرى عمارة
٧٣٢-	قصص بسيطة (رواية)	إنجو شولتسه	سمير جريس
٧٣٣-	مأساة عطيل (مسرحية)	وليم شيكسبير	محمد مصطفى بدوى
٧٣٤-	بونابرت فى الشرق الإسلامى	أحمد يوسف	أمل الصبان
٧٣٥-	فن السيرة فى العربية	مايكل كوبرسون	محمود محمد مكى
٧٣٦-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ١)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٣٧-	الكوارث الطبيعية (مج٢)	باتريك ل. آبوت	توفيق على منصور
٧٣٨-	دمشق من عصر ما قبل التاريخ إلى الدولة المملوكية	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٣٩-	دمشق من الإمبراطورية العثمانية حتى الوقت الحاضر	جيرار دى جورج	محمد عواد
٧٤٠-	خطابات السلطة	بارى هندس	مرفت ياقوت
٧٤١-	الإسلام وأزمة العصر	برنارد لويس	أحمد هيكل
٧٤٢-	أرض حارة	خوسيه لاكوادرا	رزق بهنسى
٧٤٣-	الثقافة: منظور داروينى	روبرت أونجر	شوقى جلال
٧٤٤-	ديوان الأسرار والرموز (شعر)	محمد إقبال	سمير عبد الحميد
٧٤٥-	المآثر السلطانية	بيك الدنبلى	محمد أبو زيد
٧٤٦-	تاريخ التحليل الاقتصادى (مج١)	جوزيف أ. شومبيتر	حسن النعيمى
٧٤٧-	الاستعارة فى لغة السينما	تريفور وايتوك	إيمان عبد العزيز
٧٤٨-	تدمير النظام العالمى	فرانسيس بويل	سمير كريم
٧٤٩-	إيكولوجيا لغات العالم	ل.ج. كالفيه	باتسى جمال الدين
٧٥٠-	الإلياذة	هوميروس	بإشراف: أحمد عتمان
٧٥١-	الإسراء والمعراج فى تراث الشعر الفارسى	نخبة	علاء السباعى
٧٥٢-	ألمانيا بين عقدة الذنب والخوف	جمال قارصلى	نمر عاروری
٧٥٣-	التنمية والقيم	إسماعيل سراج الدين وآخرون	محسن يوسف
٧٥٤-	الشرق والغرب	أنا مارى شيمل	عبدالسلام حيدر
٧٥٥-	تاريخ الشعر الإسبانى خلال القرن العشرين	أندرو ب. دبيكى	على إبراهيم منوفى
٧٥٦-	ذات العيون الساحرة	إنريكى خارديل بونثيلا	خالد محمد عباس
٧٥٧-	تجارة مكة	باتريشيا كرون	آمال الروبى
٧٥٨-	الإحساس بالعولمة	بروس روبنز	عاطف عبدالحميد

٧٥٩-	النثر الأردى	مواوى سيد محمد	جلال الحفناوى
٧٦٠-	الدين والتصور الشعبى للكون	السيد الأسود	السيد الأسود
٧٦١-	جيوب مثقلة بالحجارة (رواية)	فيرجينيا وولف	فاطمة ناعوت
٧٦٢-	المسلم عدواً و صديقاً	ماريا سوليداد	عبدالعال صالح
٧٦٣-	الحياة فى مصر	أنريكو بيا	نجوى عمر
٧٦٤-	ديوان غالب الدهلوى (شعر غزل)	غالب الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٥-	ديوان خواجه الدهلوى (شعر تصوف)	خواجه مير درد الدهلوى	حازم محفوظ
٧٦٦-	الشرق المتخيل	تييرى هنتش	غازى برو وخليل أحمد خليل
٧٦٧-	الغرب المتخيل	نسيب سمير الحسينى	غازى برو
٧٦٨-	حوار الثقافات	محمود فهمى حجازى	محمود فهمى حجازى
٧٦٩-	أدباء أحياء	فريدريك هتمان	رندا النشار وضياء زاهر
٧٧٠-	السيدة بيرفيكتا	بينيتو بيريث جالدوس	صبرى التهامى
٧٧١-	السيد سيجوندو سومبرا	ريكاردو جويرالديس	صبرى التهامى
٧٧٢-	بريخت ما بعد الحداثة	إليزابيث رايت	محسن مصيلحى
٧٧٣-	دائرة المعارف الدولية (جـ٢)	جون فيزر وبول ستيرجز	بإشراف: محمد فتحى عبدالهادى
٧٧٤-	الديموقراطية الأمريكية: التاريخ والمرتكزات	مجموعة من المؤلفين	حسن عبد ربه المصرى
٧٧٥-	مرآة العروس	نذير أحمد الدهلوى	جلال الحفناوى
٧٧٦-	منظومة مصيبت نامه (مج١)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٧٧٧-	الانفجار الأعظم	جيمس إ. ليدسى	عزت عامر
٧٧٨-	صفوة المديح	مولانا محمد أحمد ورضا القادرى	حازم محفوظ
٧٧٩-	خيوط العنكبوت وقصص أخرى	نخبة	سمير عبدالحميد إبراهيم وسارة تاكاهاشى
٧٨٠-	من أدب الرسائل الهندية حجاز ١٩٣٠	غلام رسول مهر	سمير عبد الحميد إبراهيم
٧٨١-	الطريق إلى بكين	هدى بدران	نبيلة بدران
٧٨٢-	المسرح المسكون	مارفن كارلسون	جمال عبد المقصود
٧٨٣-	الدولة والرعاية الإنسانية	فيك جورج وبول ويلدنج	طلعت السروجى
٧٨٤-	الإساءة للطفل	ديفيد أ. وولف	جمعة سيد يوسف
٧٨٥-	تأملات عن تطور ذكاء الإنسان	كارل ساجان	سمير حنا صادق
٧٨٦-	المذنبة (رواية)	مارجريت أتوود	سحر توفيق
٧٨٧-	العودة من فلسطين	جوزيه بوفيه	إيناس صادق
٧٨٨-	سر الأهرامات	ميروسلاف فرنر	خالد أبو اليزيد البلتاجى
٧٨٩-	الانتظار (رواية)	هاجين	منى الدروبى
٧٩٠-	الفرانكفونية العربية	موثيك بونتو	جيهان العيسوى
٧٩١-	العطور ومعامل العطور فى مصر القديمة	محمد الشيمى	ماهر جويجاتى
٧٩٢-	دراسات حول القصص القصيرة إدريس ومحفوظ	منى ميخائيل	منى إبراهيم
٧٩٣-	ثلاث رؤى للمستقبل	جون جريفيس	رءوف وصفى
٧٩٤-	التاريخ الشعبى للولايات المتحدة (جـ٢)	هوارد زن	شعبان مكاوى
٧٩٥-	مختارات من الشعر الإسبانى (جـ١)	نخبة	على عبد الرءوف البمبى
٧٩٦-	آفاق جديدة فى دراسة اللغة والذهن	نعوم تشومسكى	حمزة المزينى

العنوان	المؤلف	المترجم
٧٩٧- الرؤية فى ليلة معتمة (شعر)	نخبة	طلعت شاهين
٧٩٨- الإرشاد النفسى للأطفال	كاترين جيلدرد ودافيد جيلدرد	سميرة أبو الحسن
٧٩٩- سلم السنوات	أن تيلر	عبد الحميد فهمى الجمال
٨٠٠- قضايا فى علم اللغة التطبيقى	ميشيل ماكارثى	عبد الجواد توفيق
٨٠١- نحو مستقبل أفضل	تقرير دولى	بإشراف: محسن يوسف
٨٠٢- مسلمو غرناطة فى الآداب الأوروبية	ماريا سوليداد	شرين محمود الرفاعى
٨٠٣- التغيير والتنمية فى القرن العشرين	توماس باترسون	عزة الخميسى
٨٠٤- سوسيولوجيا الدين	دانييل هيرفيه-ليجيه وجان بول ويلام	درويش الحلوجى
٨٠٥- من لا عزاء لهم (رواية)	كازو إيشيجورو	طاهر البربرى
٨٠٦- الطبقة العليا المتوسطة	ماجدة بركة	محمود ماجد
٨٠٧- يحى حقى: تشريح مفكر مصرى	ميريام كوك	خيرى دومة
٨٠٨- الشرق الأوسط والولايات المتحدة	ديفيد دابليو ليش	أحمد محمود
٨٠٩- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ١)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١٠- تاريخ الفلسفة السياسية (جـ٢)	ليو شتراوس وجوزيف كروبسى	محمود سيد أحمد
٨١١- تاريخ التحليل الاقتصادى (مج٢)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨١٢- تقبل العالم: الصورة والأسلوب فى الحياة الاجتماعية	ميشيل مافيزولى	فريد الزاهى
٨١٣- لم أخرج من ليلى (رواية)	أنى إرنو	نورا أمين
٨١٤- الحياة اليومية فى مصر الرومانية	نافتال لويس	أمال الروبى
٨١٥- فلسفة المتكلمين (مج٢)	هـ. ا. ولفسون	مصطفى لبيب عبدالغنى
٨١٦- العدو الأمريكى	فيليب روجيه	بدر الدين عرودكى
٨١٧- مائدة أفلاطون: كلام فى الحب	أفلاطون	محمد لطفى جمعة
٨١٨- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ١)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨١٩- الحرفيون والتجار فى القرن ١٨ (جـ٢)	أندريه ريمون	ناصر أحمد وباتسى جمال الدين
٨٢٠- هملت (مسرحية) (ميراث الترجمة)	وليم شكسبير	طانيوس أفندى
٨٢١- هفت بيكر (شعر)	نور الدين عبد الرحمن الجامى	عبد العزيز بقوش
٨٢٢- فن الرباعى (شعر)	نخبة	محمد نور الدين عبد المنعم
٨٢٣- وجه أمريكا الأسود (شعر)	نخبة	أحمد شافعى
٨٢٤- لغة الدراما	دافيد برتش	ربيع مفتاح
٨٢٥- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٦- عصر النهضة فى إيطاليا (جـ١) (ميراث الترجمة)	ياكوب بوكهارت	عبد العزيز توفيق جاويد
٨٢٧- أهل سطوح: البدو والمستوطنون والذين يجلسون الصالات	دونالد ب.كول وثريا تركى	محمد على فرج
٨٢٨- النظرية النسبية (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين	رمسيس شحاتة
٨٢٩- مناظرة حول الإسلام والعلم	إرنست رينان وجمال الدين الأفغانى	مجدى عبد الحافظ
٨٣٠- رق العشق	حسن كريم بور	محمد علاء الدين منصور
٨٣١- تطور علم الطبيعة (ميراث الترجمة)	ألبرت أينشتين وليوبولد إنفلد	محمد النادى وعطية عاشور
٨٣٢- تاريخ التحليل الاقتصادى (جـ٣)	جوزيف أ.شومبيتر	حسن النعيمى
٨٣٣- الفلسفة الألمانية	فرنر شميدرس	محسن الدمرداش
٨٣٤- كنز الشعر	نبيع الله صفا	محمد علاء الدين منصور

٨٣٥- تشيخوف: حياة فى صور	بيتر أوريان	علاء عزمى
٨٣٦- بين الإسلام والغرب	مرثيدس غارثيا	ممدوح البستاوى
٨٣٧- عناكب فى المصيدة	ناتاليا ڤيكو	على فهمى عبدالسلام
٨٣٨- فى تفسير مذهب بوش ومقالات أخرى	نعوم تشومسكى	لبنى صبرى
٨٣٩- أقدم لك: النظرية النقدية	ستيوارت سين وبورين ڤان لون	جمال الجزيرى
٨٤٠- الخواتم الثلاثة	جوتهولد ليسينج	فوزية حسن
٨٤١- هملت: أمير الدانمارك	وليم شكسبير	محمد مصطفى بدوى
٨٤٢- منظومة مصيبت نامه (مج٢)	فريد الدين العطار	محمد محمد يونس
٨٤٣- من روائع القصيد الفارسى	نخبة	محمد علاء الدين منصور
٨٤٤- دراسات فى الفقر والعولمة	كريمة كريم	سمير كريم
٨٤٥- غياب السلام	نيكولاس جويات	طلعت الشايب
٨٤٦- الطبيعة البشرية	ألفريد أدلر	عادل نجيب بشرى
٨٤٧- الحياة بعد الرأسمالية	مايكل ألبرت	أحمد محمود
٨٤٨- تاريخ الدولة العربية (ميراث الترجمة)	يوليوس فلهاوزن	عبد الهادى أبو ريدة
٨٤٩- سونيتات شكسبير	وليم شكسبير	بدر توفيق
٨٥٠- الخيالة الأسلوبية الحداثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٨٥١- الطب التجريبى (ميراث الترجمة)	كلود برنار	يوسف مراد
٨٥٢- العلم والحقيقة	رينشارد دوكنز	مصطفى إبراهيم فهمى
٨٥٣- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج١)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٤- العمارة فى الأندلس: عمارة المدن والحصون (مج٢)	باسيليو بابون مالدونادو	على إبراهيم منوفى
٨٥٥- فهم الاستعارة فى الأدب	چيرارد ستيم	محمد أحمد حمد
٨٥٦- القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى	فرانثيسكو ماركيث يانو بيانويا	عائشة سويلم
٨٥٧- نادچا (رواية)	أندريه بريتون	كامل عويد العامرى
٨٥٨- جوهر الترجمة: عبور الحدود الثقافية	ثيو هرمانز	بيومى قنديل
٨٥٩- السياسة فى الشرق القديم	إيف شيمل	مصطفى ماهر
٨٦٠- مصر وأوروبا	ڤان بملن	عادل صبحى تكلا
٨٦١- الإسلام والمسلمون فى أمريكا	چين سميث	محمد الخولى
٨٦٢- ببغاء الكاكادو	أرتور شنيتسلر	محسن الدمرداش
٨٦٣- لقاء بالشعراء	على أكبر دلفى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٤- أوراق فلسطينية	دورين إنجرامز	عبد الرحيم الرفاعى
٨٦٥- فكرة الثقافة	تيرى إيجلتون	شوقى جلال
٨٦٦- رسائل خمس فى الآفاق والأنفس	مجموعة من المؤلفين	محمد علاء الدين منصور
٨٦٧- المهمة الاستوائية (رواية)	ديڤيد مايلو	صبرى محمد حسن
٨٦٨- الشعر الفارسى المعاصر	ساعد باقرى ومحمد رضا محمدى	محمد علاء الدين منصور
٨٦٩- تطور الثقافة	روبن دونبار وآخرون	شوقى جلال
٨٧٠- عشر مسرحيات (جـ١)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧١- عشر مسرحيات (جـ٢)	نخبة	حمادة إبراهيم
٨٧٢- كتاب الطاو	لاوتسو	محسن فرجانى

العنوان	المؤلف	المترجم
٨٧٣- معلمون لمدارس المستقبل	تقرير صادر عن اليونسكو	بهاء شاهين
٨٧٤- النهر الخالد (مج١)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٥- النهر الخالد (مج٢)	جاويد إقبال	ظهور أحمد
٨٧٦- دراسات في الموسيقى الشرقية (جـ١)	هنري جورج فارمر	أماني المنياوي
٨٧٧- أدب الجدل والدفاع في العربية	موريتس شتينشنيدر	صلاح محجوب
٨٧٨- ترحال في صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتي	صبري محمد حسن
٨٧٩- ترحال في صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ٢)	تشارلز دوتي	صبري محمد حسن
٨٨٠- الواحات المفقودة	أحمد حسنين بك	عبد الرحمن حجازي وأمير نبيه
٨٨١- المستنيرون : خدمة وخيانة	جلال آل أحمد	سلوى عباس
٨٨٢- أغاني شيراز (جـ١) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازي	إبراهيم الشواربي
٨٨٣- أغاني شيراز (جـ٢) (ميراث الترجمة)	حافظ الشيرازي	إبراهيم الشواربي
٨٨٤- تعلم الأطفال الصغار	باربرا تيزار ومارتن هيوز	محمد رشدي سالم
٨٨٥- روح الإرهاب	جان بودريار	بدر عروبكي
٨٨٦- الترجمة والإمبراطورية	دوجلاس روبنسون	ثائر ديب
٨٨٧- غزليات سعدي (شعر)	سعدي الشيرازي	محمد علاء الدين منصور
٨٨٨- أزهار مسلك الليل (رواية)	مريم جعفري	هويدا عزت
٨٨٩- سارتورس (ميراث الترجمة)	وليم فوكنر	ميخائيل رومان
٨٩٠- منتخبات أشعار فراغي	مختومقلي فراغي	الصفصافي أحمد القطوري
٨٩١- مفاوضات مع الموتى	مارجريت آتوود	عزة مازن
٨٩٢- تاريخ المسيحية الشرقية	عزيز سوريال عطية	إسحاق عبيد
٨٩٣- عبادة الإنسان الحر	برتراند راسل	محمد قدري عمارة
٨٩٤- الطريق إلى مكة	محمد أسد	رفعت السيد علي
٨٩٥- وادي الفوضى (رواية)	فريدريش دورينمات	يسري خميس
٨٩٦- شعر الضفاف الأخرى	نخبة	زين العابدين فؤاد
٨٩٧- اختراق الجزيرة العربية	ديفيد جورج هوجارث	صبري محمد حسن
٨٩٨- الإسلام والعلم	برويز أمير علي	محمود خيال
٨٩٩- الدبلوماسية القاطعة	بيتر مارشال	أحمد مختار الجمال
٩٠٠- تيارات نقدية محدثة	مقالات مختارة	جابر عصفور
٩٠١- مختارات من شعر لي جاو شينج	لي جاو شينج	عبد العزيز حمدي
٩٠٢- آلهة مصر القديمة وأساطيرها	روبرت أرنولد	مروة الفقي
٩٠٣- أفلام ومناهج (مج١)	بيل نيكولز	حسين بيومي
٩٠٤- أفلام ومناهج (مج٢)	بيل نيكولز	حسين بيومي
٩٠٥- تراث الهند	ج. ت. جارات	جلال السعيد الحفناوي
٩٠٦- أسس الحوار في القرآن	هيربرت بوسه	أحمد هويدي
٩٠٧- أرثر.. متعة الحياة (رواية)	فرانسواز چيرو	فاطمة خليل
٩٠٨- الحلقة النقدية	ديفيد كوزنز هوي	خالدة حامد
٩٠٩- الفنون والآداب تحت ضغط العولمة	چوويست سمايرز	طلعت الشايب
٩١٠- بروميثيوس بلا قيود	دافيد س. لينديس	مي رفعت سلطان

٩١١- غبار النجوم	جون جريبين	عزت عامر
٩١٢- ترجمات يحيى حقى (جـ١) (ميراث الترجمة)	روايات مختارة	يحيى حقى
٩١٣- ترجمات يحيى حقى (جـ٢) (ميراث الترجمة)	مسرحيات مختارة	يحيى حقى
٩١٤- ترجمات يحيى حقى (جـ٣) (ميراث الترجمة)	ديزموند ستيوارت	يحيى حقى
٩١٥- المرأة فى أثينا: الواقع والقانون	روجر جست	منيرة كروان
٩١٦- الجدلية الاجتماعية	أنور عبد الملك	سامية الجندى وعبدالعظيم حماد
٩١٧- موسوعة كمبريدج (جـ١)	نخبة	إشراف: أحمد عتمان
٩١٨- موسوعة كمبريدج (جـ٤)	نخبة	إشراف: فاطمة موسى
٩١٩- موسوعة كمبريدج (جـ٩)	نخبة	إشراف: رضوى عاشور
٩٢٠- خليل جبران: حياته وعالمه	جين جبران و خليل جبران	فاطمة قنديل
٩٢١- لله الأمر (رواية)	أحمدو كوروما	ثريا إقبال
٩٢٢- الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى	ميكيل دى إيبالثا	جمال عبد الرحمن
٩٢٣- ملحمة حرب الاستقلال (شعر)	ناظم حكمت	محمد حرب
٩٢٤- حتشبسوت: عظمة وسحر وغموض	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٥- رمسيس الثانى: فرعون المعجزات	كريستيان دى روش نوبلكور	فاطمة عبد الله
٩٢٦- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ١، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٧- ترحال فى صحراء الجزيرة العربية (جـ٢، مجـ١)	تشارلز دوتى	صبرى محمد حسن
٩٢٨- سجون الضوء	كيتى فرجسون	عزت عامر
٩٢٩- نشأة الإنسان (مجـ١)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٠- نشأة الإنسان (مجـ٢)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣١- نشأة الإنسان (مجـ٣)	تشارلس داروين	مجدى المليجى
٩٣٢- حدائق السحر فى دقائق الشعر (ميراث الترجمة)	رشيدالدين العمرى	إبراهيم الشواربى
٩٣٣- اللاعقلانية الشعرية	كارلوس بوسونيو	على منوفى
٩٣٤- محنة الكاتب الأفريقى	تشارلز لارسون	طلعت الشايب
٩٣٥- تاريخ الفن الألمانى	فولكر جيبهارت	علا عادل
٩٣٦- بيولوجيا الجحيم	إد ريجيس	أحمد فوزى عبد الحميد
٩٣٧- هيا نحكى (قصص أطفال)	أحمد ندالو	عبدالحى سالم
٩٣٨- الأنطولوجيا السياسية عند مارتن هيدجر	بيير بورديو	سعيد الطيمى
٩٣٩- سجن العقل	ستيفن جونسون	أحمد مستجير
٩٤٠- اليابان الحديثة: قضايا وآراء	مجموعة مقالات	علاء على زين العابدين
٩٤١- الجماليات لم يولدن بعد	أى كويثى أرماه	صبرى محمد حسن
٩٤٢- القرن الجديد	إريك هوبسبوم	وجيه سمعان عبد المسيح
٩٤٣- لقاء فى الظلام	مختارات من القصص الأفريقية	محمد عبد الواحد
٩٤٤- الكونترابامس	باتريك زوسكيند	سمير جريس
٩٤٥- أحلام يقظة جوال منفرد (ميراث الترجمة)	جان جاك روسو	ثريا توفيق
٩٤٦- الزار ومظاهره المسرحية فى إثيوبيا	ميشيل ليريس	محمد مهدى قناوى
٩٤٧- ماوراء المعنى والحقيقة	برتراند راسل	محمد قدرى عمارة
٩٤٨- أفريقيا منذ عام ١٨٠٠	رونالد أوليفر وأنتونى أتمور	فريد جورج بورى

٩٤٩- مقبرة الصدأ — أندريه فيش — نافع معلا

٩٥٠- في علم الكتابة — جاك ديريدا — منى طلبة وأنور مغيث

٩٥١- الاتهام (رواية) — فريدريش دورينمات — عماد حسن بكر

٩٥٢- العبد ومسرحيات أخرى — أميري بركة — نعيمة عبد الجواد

٩٥٣- مختارات من الشعر الإسباني (جـ٢) — نخبة من الشعراء — علي عبد الرءوف البمبي

٩٥٤- الأصول الاجتماعية للسياسة التوسعية في عهد محمد علي — فرد لوسون — عنان الشهاوي

٩٥٥- الطب والأطباء — سيلفيا شيفولو — ماجدة أباظة

٩٥٦- نعم، ليست لدينا نيوترونات — أ. ك. ديوني — سمير حنا صادق

٩٥٧- الحركات الاجتماعية: (١٧٦٨-٢٠٠٤) — تشارلز تلي — ربيع وهبة

٩٥٨- أصوات على هامش الحرب — مريام كوك — صلاح حزين

٩٥٩- الموريسكيون في الفكر التاريخي — ميغيل أنخيل بونيس — وسام محمد جزر

٩٦٠- محمد علي الكبير — الأمير عثمان إبراهيم وكاروليان وعلي كورخان — هدى كشرود

٩٦١- شعر الرعاة (ميراث الترجمة) — مختارات من الأدب اليوناني — محمد صقر خفاجة

٩٦٢- مدخل إلى الفلسفة — وليام جيمس إيرل — عادل مصطفى

٩٦٣- منتخبات شعرية — حسن رضا خان الهندي — فاطمة سيد عبد المجيد

٩٦٤- أصول التطرف — كيمبرلي بليكر — هبة رءوف وتامر عبد الوهاب

٩٦٥- روح مصر القديمة — أنا رويز — إكرام يوسف

٩٦٦- ما وراء الطبيعة في إيران (ميراث الترجمة) — محمد إقبال — حسين مجيب المصري

٩٦٧- فن الحرب (مجـ ١) — سون تزي — هشام المالكي

٩٦٨- عالم الخوارق — ج. كوير — كمال الدين حسين

٩٦٩- التليفزيون خطر على الديمقراطية — كارل بوبر وجون كوندري — مجدي عبد الحافظ

٩٧٠- ربما في حلب ذات يوم وقصص أخرى — نخبة — أحمد الشيمي

٩٧١- الأدب الفارسي القديم (ميراث الترجمة) — پاول هورن — حسين مجيب المصري

٩٧٢- الإسهامات الإيطالية في عهد محمد علي باشا — مقالات مختارة — عماد البغدادي

٩٧٣- تطور فن المعادن الإسلامي — أولكر أرغين صوي — الصفصافي أحمد القطوري

٩٧٤- فكرة التطور عند فلاسفة الإسلام — مجدي عبد الحافظ — هدى كشرود

٩٧٥- وقائع انتحار موظف عمومي — ميشيل بيرس — حسن عبد ربه المصري

٩٧٦- تفهم ذهنية مدمن المُسكرات — أرنولد لودفيج — صبري محمد حسن

٩٧٧- التعبير عن الانفعالات في الإنسان والحيوانات — تشارلس داروين — مجدي المليجي

٩٧٨- الإسلام خواطر وسوانح (ميراث الترجمة) — الكونت هنري دي كاستري — أحمد فتحي زغلول باشا

٩٧٩- الأدب والالتزام من باسكال إلى سارتر — بونوا دوني — محمد برادة

٩٨٠- الكلمات المفاتيح — رايموند ويليامز — نعمان عثمان

٩٨١- الكلمة للبنت — فيرناندث موراتين — السيد عبد المنعم محمود

٩٨٢- اللغة والإنترنت — ديفيد كريستال — أحمد شفيق الخطيب

٩٨٣- روح الاجتماع (ميراث الترجمة) — جوستاف لوبون — أحمد فتحي زغلول باشا

٩٨٤- التلفزيون ونمو الطفل — جوديث فان إفرا — عز الدين جميل عطية

٩٨٥- طيبة ونشأة إمبراطورية — كلير لالويت — ماهر جويجاتي

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ٢٣٨١٥ / ٢٠٠٥







يروى هذا الكتاب - بمجلداته الثلاثة - تاريخ مصر القديمة، من خلال النصوص، بدءاً من الدولة القديمة حتى الدولة الحديثة. وقد راعت المؤلفة أن يكون كل مجلد كتاباً مستقلا.

إن مجلد «طيبة» هو المجلد الثانى، مكرس للأسرة الثامنة عشرة، وهى من أزهى عصور مصر القديمة؛ ففى زمانها تأسست الإمبراطورية المصرية... وقد حرصت المؤلفة على ترجمة هذه النصوص مباشرة عن أصلها المصرى، واستطاعت تحليلها تحليلاً موضوعيا، دون عزلها عن سياقها العام، ومن خلال رؤية شاملة، تأخذ بعين الاعتبار، التطور الطبيعى للعقل المصرى ومعتقداته. فضربت عرض الحائط بالأفكار المسبقة أو المقبولة أو النظرة الانتقائية، التى شوهت أحياناً التاريخ المصرى، بإسقاطها الحاضر على الماضى، دون مراعاة للمفارقات التاريخية.

إنه كتاب جدير بالقراءة، لما يحتويه من نصوص، ربما ينشر بعضها للمرة الأولى، أو من خلال ترجمة جديدة، فتبعث الحياة فى واقع، كدنا نظن أنه مات واندثر.



الغلاف / حسن كامل